الكِفايـة

في التَّفسيرِ بِالمأْثورِ والدِّراية

تأليف الفقير إلى رحمة ربه
عبدالله خضر حمد
باحث عراقي

الجزء الثالث

سورة البقرة، الآية[٦١-١٢٠]

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

الرقم الدولى(ISBN):٥-٧١٥-٧٢-٩٩٥٣
الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
الناشر: دار القلم- بيروت – لبنان

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى مراسلة المؤلف -لطفا وتكرما- على البريد الالكتروني الآتي، وذلك لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإيَّاكم لما يرضيه برحمته، آمين.

Abdulla.khdhir@gmail.com
Abdulla. khdhir@hotmail.com

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

القرآن

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)} [البقرة : ٦١]

التفسير:

واذكروا حين أنزلنا عليكم الطعام الحلو، والطير الشهي، فبطِرتم النعمة كعادتكم، وأصابكم الضيق والملل، فقلتم: يا موسى لن نصبر على طعام ثابت لا يتغير مع الأيام، فادع لنا ربك يخرج لنا من نبات الأرض طعامًا من البقول والخُضَر، والقثاء والحبوب التي تؤكل، والعدس، والبصل، قال موسى -مستنكرًا عليهم-: أتطلبون هذه الأطعمة التي هي أقل قدرًا، وتتركون هذا الرزق النافع الذي اختاره الله لكم؟ اهبطوا من هذه البادية إلى أي مدينة، تجدوا ما اشتهيتم كثيرًا في الحقول والأسواق، ولما هبطوا تبيَّن لهم أنهم يُقَدِّمون اختيارهم -في كل موطن- على اختيار الله، ويُؤْثِرون شهواتهم على ما اختاره الله لهم؛ لذلك لزمتهم صِفَةُ الذل وفقر النفوس، وانصرفوا ورجعوا بغضب من الله؛ لإعراضهم عن دين الله، ولأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين ظلمًا وعدوانًا؛ وذلك بسبب عصيانهم وتجاوزهم حدود ربهم.

قوله تعالى:{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى}[البقرة:٦١]، أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى وأنتم في الصحراء تأكلون من المن والسلوى"[١].

قال المراغي:" أي وإذ قال أسلافكم من قبل إعناتا لموسى وبطرا بما هم فيه"[٢].

قوله تعالى:{لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ}[البقرة:٦١]، "أي على نواع واحدٍ من الطعام وهو المنُّ والسلوى"[٣].

قال الثعلبي:" يريدون به ما رزقوا في التيه من المن والسلوى"[٤].

قال قتادة: ملّوا طعامهم، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه قبل ذلك"[٥].

وقال أبو العالية:"كان طعامهم السلوى وشرابهم المن، فسألوا ما ذكروا"[٦].

قال المراغي: أي:" لن نصبر على أن يكون طعامنا الذي لا يتغير أبدا هو المنّ والسلوى"[٧].

قال الراغب:" والطعام ما يغتذي به مأكولا كان أو مشروباً، وفي المشروب قالك {وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي... فإن قيل : كيف قال : {لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ}، وكان لهم المن والسلوى ؟ قيل : إن ذلك إشارة إلى مساواته في الأزمنة المختلفة، كقولك فلان يفعل فعلاً واحداً في كل يوم وإن كثرت أفعاله إذا تحرى طريقة واحدة وداوم عليها} [البقرة: ٢٥٩]"[٨].

وقال الزمخشري: "أرادوا بالواحد[٩] ما لا يختلف ولا يتبدّل، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدّة يداوم عليها كل يوم لا يبدّلها، قيل : لا يأكل فلان إلا طعاما واحدا يراد بالوحدة نفى التبدّل والاختلاف. ويجوز أن يريدوا أنهما ضرب واحد، لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ والتترف، ونحن قوم فلاحة أهل زراعات، فما نريد إلا ما ألفناه وضرينا به من الأشياء المتفاوتة كالحبوب والبقول ونحو ذلك"[١٠].

---

(١) صفوة التفاسير: ٥٤/١.
(٢) تفسير المراغي: ١٣٢/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٥٤/١.
(٤) تفسير الثعلبي:٨٣/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٦١١):ص١٢٣/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٠٩):ص١٢٢/١.
(٧) تفسير المراغي: ١٣٢/١.
(٨) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢١٠/١.
(٩) أي (المن والسلوى).
(١٠) الكشاف: ١٤٥/١.

وقال ابن عطية:" وكنى عن (المن والسلوى) بـ{طَعامٍ واحِدٍ}، وهما طعامان، لأنهما كانا يؤكلان في وقت واحد، ولتكرارهما سواء أبدا قيل لهما {طَعامٍ واحِدٍ}، ولغة بني عامر «فادع» بكسر العين"[١].

قوله تعالى:{فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا}[البقرة:٦١]، "أي سل ربك لأجلنا بدعائك إياه أن يخرج لنا"[٢].

قال الزمخشري: أي: سل ربك"يظهر لنا ويوجد"[٣].

قال المراغي:" أي سل ربك لأجلنا بدعائك إياه أن يخرج لنا"[٤].

قال الراغب:" و(الدعاء) أعم من (النداء)، فإن النداء يقال فيمن يكون بعيداً أو في حكم البعيد والدعاء فيه وفي القريب"[٥].

قوله تعالى:{مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ}[البقرة:٦١]، " أي مما تخرجه"[٦].

قال ابن عثيمين:" هذا توسل منهم بموسى ليدعو الله عزّ وجلّ لهم"[٧].

قال المراغي:" وإنما سألوه أن يدعولهم، لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم"[٨].

وقد ذكر أهل العلم في بأن قوله تعالى: {فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ}[البقرة:٦١]، يدل على وجهين:

أحدهما: أن قولهم{ربّك}، تدل على جفاء عظيم منهم؛ فهم لم يقولوا: "ادع لنا ربنا"، أو "ادع الله"؛ بل قالوا: "ادع لنا ربك"، كأنهم بريئون منه، والعياذ بالله؛ وهذا من سفههم، وغطرستهم، وكبريائهم. قاله الشيخ ابن عثيمين[٩].

والثاني: أنهم قالوا {ربك}، ولم يقولوا (ربنا)، لأنه اختصه بما لم يعط مثله لهم، من مناجاته وتكليمه وإيتائه التوراة، فكأنهم قالوا ادع لنا من أحسن إليك بما لم يحسن به إلينا، فكما أحسن إليك من قبل، نرجو أن يحسن إليك بإجابة هذا الدعاء. قاله الشيخ أحمد مصطفى المراغي[١٠].

قوله تعالى:{مِنْ بَقْلِهَا}[البقرة:٦١]، أي:" من خضرتها كالنعناع والكرفس والكراث"[١١].

قال الزمخشري: "والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر. والمراد به أطايب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها"[١٢].

قوله تعالى:{وَقِثَّائِهَا}[البقرة:٦١]، "يعني القثَّة التي تشبه الخيار"[١٣].

قوله تعالى:{وَفُومِهَا}[البقرة:٦١]،" أي الثوم"[١٤].

قال الزمخشري:" والفوم : الحنطة. ومنه فوّموا لنا، أى : اخبزوا"[١٥].

قوله تعالى:{وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا}[البقرة:٦١]، "أي العدس والبصل المعروفان"[١٦].

قال الطبري: "و(البقل) و(القثاء) و(العدس) و(البصل)، هو ما قد عرفه الناس بينهم من نبات الأرض وحبها[١٧].

---

(١) المحرر الوجيز: ١٥٣/١.
(٢) تفسير المراغي: ١٣٢/١.
(٣) الكشاف: ١٤٥/١، وانظر: تفسير الثعلبي: ٨٤/١.
(٤) تفسير المراغي: ١٣٢/١.
(٥) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢١١/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين:٢١١/١.
(٧) تفسير ابن عثيمين:٢١١/١.
(٨) تفسير المراغي: ١٣٢/١.
(٩) تفسير ابن عثيمين:٢١١/١.
(١٠) تفسير المراغي: ١٣٢/١.
(١١) صفوة التفاسير: ٥٤/١.
(١٢) الكشاف: ١٤٥/١.
(١٣) صفوة التفاسير: ٥٤/١.
(١٤) صفوة التفاسير: ٥٤/١.
(١٥) الكشاف: ١٤٥/١.
(١٦) صفوة التفاسير: ٥٤/١.
(١٧) انظر: تفسير الطبري: ١٢٧/٢.

وقد اختلف أهل التفسير في قوله تعالى:{وَفُومِهَا}[البقرة:٦١]، على قولين [١]:
أحدهما: أنه (الحنطة)، وهذا قول ابن عباس[٢]، وقتادة[٣]،والحسن[٤]، وأبي مالك[٥]، والسدي[٦]، وابن زيد[٧]، وأكثر المفسرين[٨]، وهو اختيار النحاس[٩]، ومن ذلك قول أُحَيْحة بن الجُلاح[١٠]:
قد كنت أغنى الناس شخصا واحدا وَرَد المدينة عن زراعة فوم
وقد ذكر أن تسمية الحنطة والخبز جميعا " فوما " من اللغة القديمة . حكي سماعا من أهل هذه اللغة : (فوموا لنا)، بمعنى اختبزوا لنا[١١].
قال الفراء:" فإن (الفوم) فيما ذكر لغةٌ قديمة، وهي الحِنْطَة والخُبْز جميعا قد ذُكِرا. قال بعضهم: سمعنا العرب من أهل هذه اللغة يقولون: فَوِّموا لنا، بالتشديد لا غير، يريدون اختبزوا"[١٢].
وقال الزجاج:" محال أن يطلب القوم طعاماً لا بُرَّ فيه، والبرُّ أصل الغذاءِ كله، ويقال فوِّمُوا لنا، أي اخْبِزُوا لنا، ولا خلاف عند أهل اللغة أن الفُوم الحنطة، وسائر الحبوب التي تخبز يلحقها اسم الفوم"[١٣].
وقال الجوهري: الفوم الحنطة وأنشد الأخفش[١٤]:
قد كنت أحسبني كأغنى واجد نزل المدينة عن زراعة فوم
وقال ابن دريد: الفومة السنبلة، وأنشد[١٥]:
وقال ربيئهم لما أتانا بكفه فومة أو فومتان
والقول الثاني:أنه (الثوم)، قاله مجاهد[١٦]، والربيع[١٧]، وهو اختيار الكلبي والنضر بن شميل والكسائي والمعرّج[١٨]، واحتجوا عليه بوجوه[١٩]:
أحدها: يدل عليه قراءة ابن مسعود : {وثومها}[٢٠].
الثاني: أن الثوم للعدس والبصل أوفق من الحنطة، ومنه قول حسان[٢١]:
وأنتم أناس لئام الأصول طعامكم الفوم والحوقل
يعني الثوم والبصل.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٢٨/٢-١٢٩.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٠٧٣)، و(١٠٧٤)، و(١٠٧٥)، و(١٠٧٦):ص١٢٨/٢-١٢٩.
(٣)انظر: تفسير الطبري(١٠٦٥)، و(١٠٦٦):ص١٢٨/٢.
(٤)انظر: تفسير الطبري(١٠٦٥)، و(١٠٦٦):ص١٢٨/٢.
(٥)انظر: تفسير الطبري (١٠٦٧):ص١٢٨/٢.
(٦)انظر: تفسير الطبري (١٠٦٨):ص١٢٨/٢.
(٧)انظر: تفسير الطبري (١٠٧٢):ص١٢٨/٢.
(٨) أنظر: المحرر الوجيز: ١٥٣/١.
(٩) انظر: تفسير القرطبي: ١،٤٢٥، ومعاني القرآن للفراء: ٤١/١.
(١٠)والبيت في اللسان (فوم) ، ونسبه لأبي محجن الثقفي ، أنشده الأخفش له ، وروايته :
قد كنت أحسبني كأغنى واحد ... نزل المدينة . . .
وفي الروض الأنف ٢ : ٤٥ نسبه لأحيحة ، أو لأبي محجن ، ورواه " سكن المدينة ".
(١١) أنظر: تفسير الطبري: ١٣٠/٢.
(١٢) معاني القرآن: ٤١/١.
(١٣) معاني القرآن: ١٤٣/١.
(١٤) البيت نسب في الأغاني:٢/١٩، واللسان(فوم) لأبي محجن، وهو في الصحاح(فوم) والمحتسب:٨٨/١، بلا نسبة.
(١٥) انظر: جمهرة اللغة:١٦٠/٣، والصحاح(فوم). الربيئة: الطليعة التي ترقب العدو من مكان عال، لئلا يدهم قومه، انظر: المعجم الوسيط.
(١٦) انظر: تفسير الطبري (١٠٧٧):ص١٢٩/٢.
(١٧) انظر: تفسير الطبري (١٠٧٨):ص١٢٩/٢.
(١٨) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٥/١، والنكت والعيون: ١٢٩/١، ومفاتيح الغيب: ٥٣٢/٣.
(١٩) انظر: الكشاف: ١٤/١، ومفاتيح الغيب: ٥٣٢/٣.
(٢٠) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٥/١.
(٢١) لم اجده في الديوان، وأورده ابن عادل الحنبلي في اللباب: ١١٧/٢، والقرطبي في تفسيره: ٤٢٥/١.

الثالث: أن المراد لو كان هو الحنطة لما جاز أن يقال: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير لأن الحنطة أشرف الأطعمة.

قال الفراء: وهي فِي قراءة عَبْد اللَّه {وَثُومِهَا} بالثاء، فكأنّه أشبهُ المعنيين بالصواب لأنه مع ما يشاكله: من العدس وَالْبَصَلِ وشِبْهه، والعرب تُبدل الفاء بالثاء فيقولون: جدث وجَدَفٌ، ووقعوا فِي عاثُور شَرٍّ وعافُور شرٍّ، والأثاثي والأثافيّ. وسمعت كثيرًا من بْني أسد يسمّى المغافير[١] المغاثير"[٢]، وذلك لتقارب مخرج الفاء من مخرج الثاء.

والقول الأول هو الأقرب إلى الصواب، وذلك لأن (الفوم)، الحنطة بلسان بني هاشم"[٣]. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى:{وَقِثَّائِها}[البقرة:٦١]، فيه وجهان من القراءة[٤]:

الأول: قراءة العامة: {وَقِثَّائِها}، بكسر القاف.

والثاني: وقرأ يحيى بن وثاب، وطلحة بن مصرف، والأشيب العقيلي: {وَقُثَّائِها}، بضم القاف، وهي لغة تميم.

قوله تعالى:{قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ}[البقرة:٦١]، " أي أتأخذون الذي هو أدنى بدلاً عن الذي هو خير"[٥].

قال قتادة:"يقول: أتستبدلون الذي هو شر بالذي هو خير منه"[٦].

قال الزمخشري: أي: أتستبدلون"الذي هو أقرب منزلة وأدون مقداراً"[٧].

قال الطبري:أي" أتأخذون الذي هو أخس خطرا وقيمة وقدرا من العيش، بدلا بالذي هو خير منه خطرا وقيمة وقدرا ؟"[٨].

قال ابن كثير:" فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيّة مع ما هم فيه من العيش الرغيد، والطعام الهنيء الطيب النافع"[٩].

قال المراغي:" أي: قال لهم موسى على سبيل التوبيخ والاستهجان : أ تطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وهو المنّ الذي فيه حلاوة تألفها الطباع، والسلوى الذي هو أطيب لحوم الطير، وهما غذاء كامل لذيذ وليس فيما طلبوا ما يساويهما ؟"[١٠].

وقال الزجاج: " يعني أن المنَّ والسلوى أرفع من الذي طلبتم"[١١].

و(الاستبدال): "هو ترك شيء لآخر غيره مكان المتروك" [١٢].

قال الفراء: "وقد كان زُهير الفُرْقُبي[١٣] يَهْمِز: {أَتَسْتَبْدِلُونَ الّذى هو أدنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ}، ولم نر العرب تهمزُ (أَدْنَى) إذا كان من الحسة، وهم فِي ذلك يقولون إنه لدانىء خَبِيثٌ، إذا كان ماجنا فيهمزون. وأنشدني بعض بني كلاب[١]:

---

(١) المغافير: صمغ يسيل من شجر الرمث والعرفط وهو حلو يؤكل غير أن رائحته ليست بطيبة.[أنظر: تفسير الطبري: ١٣٠/٢].

(٢) معاني القرآن: ٤١/١.

(٣) تفسير الطبري: ١٢٩/٢.

(٤) أنظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٥/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين: ٢١٢/١.

(٦) أخرجه الطبري(١٠٧٩):ص١٣١/٢.

(٧) الكشاف: ١٤٥/١.

(٨) تفسير الطبري: ١٣٠/٢.

(٩) تفسير ابن كثير: ٢٨١/١.

(١٠) تفسير المراغي: ١٣٢/١.

(١١) معاني القرآن: ١٤٣/١.

(١٢) تفسير الطبري: ١٣٠/٢.

(١٣)هو من القرّاء النحويين، وكان فى زمن عاصم، ويعرف بالكسائي. وانظر طبقات القراء لابن الجزري رقم ١٣٠١.

والفرقبىّ نسبة إلى فرقب، كقنفذ. وفى القاموس: فرقب موضع ومنه الثياب الفرقبية: ثياب بيض من كتان. وقال شارحه: وردت هذه النسبة فى الثياب والرجال، فيمكن أن تكون إلى موضع، أو يكون الرجل منسوبا إلى حمل الثياب.

باسِلَةُ الْوَقْع سَرَابِيلُها   بيضٌ إلى دانئها الظّاهر

يعنى الدروع على خاصتها- يعني الكتيبة- إلى الخسيس منها، فقال: دانئها يريد الخسيس، وقد كُنَّا نسمع المشيخة يقولون: ما كنت دانِئًا ولقد دنات، والعرب تترك الهمزة. ولا أراهم رووه إلّا وقد سمعوه"[٢].

قال الزجاج:" و (أدنى) القراءَة فيه بغير الهمز وقد قرأ بعضهم {أدْنأ بالذي هو خير}، وكلاهما له وجه في اللغة إلا أن ترك الهمزة أولى بالاتباع"[٣].

واختلف في المراد بـ(الأدنى) في قوله تعالى: {قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ}[البقرة:٦١]، على قولين[٤]:

الأول:أن معناه:الذي أخس وأوضع وأصغر قدرا وخطرا، أي استبدال المن والسلوى بالبقل والقثاء والعدس والبصل والثوم، وهو يعني استبدال الوضيع من العيش الرفيع منه.

وقد روي عن مجاهد قوله : "{الذي هو أدنى}، قال : أردأ"[٥].

والثاني: أن معناه: الذي هو أقرب، ووجه قوله : (أدنى)، إلى أنه أفعل من " الدنو " الذي هو بمعنى القرب .

والقول الأول أقرب إلى الصواب، وعليه الجمهور.

واختلف في الوجوه التي توجب فضل المن والسلوى على الشيء الذي طلبوه وهى خمسة[٦]:

الأول : أن البقول لما كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المن والسلوى كانا أفضل، قاله الزجاج.

الثاني : لما كان المن والسلوى طعاما مّن الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان في استدامة أمر الله وشكر نعمته أجر وذخر في الآخرة، والذي طلبوه عار من هذه الخصائل كان أدنى في هذا الوجه.

الثالث : لما كان ما مّن الله به عليهم أطيب وألذ من الذي سألوه، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة.

الرابع : لما كان ما أعطوا لا كلفة فيه ولا تعب، والذي طلبوه لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب كان أدنى.

الخامس : لما كان ما ينزل عليهم لا مرية في حله وخلوصه لنزوله من عند الله، والحبوب والأرض يتخللها البيوع والغصوب وتدخلها الشبه، كانت أدنى من هذا الوجه.

قوله تعالى: {اهْبِطُوا مِصْرًا}[البقرة:٦١]، أي"اهبطوا أيّ مصر من الأمصار تجدون ما سألتم"[٧].

قال الثعلبي:" يعني فإن أبيتم إلّا ذلك، فاهبطوا مصرا من الأمصار"[٨].

قال الصابوني:" أي ادخلوا مصراً من الأمصار وبلداً من البلدان أيّاً كان لتجدوا فيه مثل هذه الأشياء"[٩].

وقد اختلف أهل التفسير في قوله تعالى{اهْبِطوا مِصْراً}[البقرة:٦٦]، نظير اختلاف القَرَأَة في قراءته، وذكروا فيه وجهين[١٠]:

أحدهما: أنه مصر من الأمصار. قاله قتادة[١١]، والسدي[١٢]، ومجاهد[١]، وابن زيد[٢].

---

(١) البيت للأعشى، أنظر: ديوانه : ١٠٨ ، وروايته " إلى جانبه الظاهر " . يصف حصنا، وهو من قصيدة طويلة، قالها فى منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامرىّ مطلعها:

شأقتك من قتلة أطلالها ... بالشط فالوتر إلى حاجر

وبسل الرجل بسولا فهو باسل وبسل إذا عبس غضبا أو شجاعة. والسربال: الدرع أو كل ما لبس والجمع سرابيل، والمراد هنا الدروع كما قال المؤلف.

(٢) معاني القرآن: ٤٢/١.

(٣) معاني القرآن: ١٤٣/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٣١/٢.

(٥) أخرجه الطبري(١٠٨٠):ص١٣١/٢-١٣٢.

(٦) انظر: تفسير القرطبي: ٤٢٨/١.

(٧) تفسير ابن عثيمين:٢١٢/١.

(٨) تفسير الثعلبي:٢٠٦/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٥٤/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ١٣٣/٢-١٣٤.

(١١) أنظر: تفسير الطبري(١٠٨١):ص١٣٣/٢.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري(١٠٨٢):ص١٣٣/٢.

ومن حجتهم: أن الله جعل أرض الشام لبني إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر . وإنما ابتلاهم بالتيه بامتناعهم على موسى في حرب الجبابرة، إذ قال لهم:{يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}[المائدة : ٢١ - ٢٤]، فحرم الله جل وعز على قائلي ذلك دخولها حتى هلكوا في التيه. وابتلاهم بالتيهان في الأرض أربعين سنة، ثم أهبط ذريتهم الشأم، فأسكنهم الأرض المقدسة، وجعل هلاك الجبابرة على أيديهم مع يوشع بن نون - بعد وفاة موسى بن عمران . فرأينا الله جل وعز قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة، ولم يخبرنا عنهم أنه ردهم إلى مصر بعد إخراجه إياهم منها، فيجوز لنا أن نقرأ : " اهبطوا مصر "، ونتأوله أنه ردهم إليها، قالوا : فإن احتج محتج بقول الله جل ثناؤه :{فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء : ٥٧ - ٥٩]، قيل لهم : فإن الله جل ثناؤه إنما أورثهم ذلك، فملكهم إياها ولم يردهم إليها، وجعل مساكنهم الشأم[٣] .

والثاني: أنه مصر التي كان فيها فرعون. قاله أبو العالية[٤]، والربيع[٥]. واختاره الأعمش[٦].

قال الفراء:" وقال الأعمش وسئل عَنْهَا فقال: هِيَ مصر التي عليها صالح بْن عليّ[٧]"[٨].

واحتجوا في ذلك من وجهين:

الأول: قوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء : ٥٧ - ٥٩]، وقوله تعالى:{كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ} [الدخان : ٢٥ - ٢٨]، قالوا : فأخبر الله جل ثناؤه أنه قد ورثهم ذلك وجعلها لهم، فلم يكونوا يرثونها ثم لا ينتفعون بها . قالوا : ولا يكونون منتفعين بها إلا بمصير بعضهم إليها، وإلا فلا وجه للانتفاع بها، إن لم يصيروا، أو يصر بعضهم إليها.

والثاني: أنها في قراءة أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود : {اهبطوا مصر}، بغير ألف، قالوا : ففي ذلك الدلالة البينة أنها (مصر) بعينها[٩].

واعترض عليه الثعلبي قائلا:" وإنّما صرف على هذا القول لخفّته وقلّة حروفه مثل: دعد وهند وحمل ونحوها" [١٠].

وأما القراءة بغير التنوين، فهي قراءة مهجورة، وصرف لخفته[١١].

قال الطبري: "ولا دلالة في كتاب الله على الصواب من هذين التأويلين، ولا خبر به عن الرسول صلى الله عليه و سلم يقطع مجيئه العذر. وأهل التأويل متنازعون تأويله"[١٢].

و(المصر) أصله في اللغة: الحدّ والحاجز بين الشيئين، ومصر الدار: حدودها[١٣]، ويقال أن أهل هجر يكتبون في شروطهم: اشترى فلان الدار بمصورها، أي: حدودها[١]، قال عدي بن زيد[٢]:

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(١٠٨٤):ص١٣٣/٢.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(١٠٨٥):ص١٣٣/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٣٤/٢-١٣٥.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(١٠٨٦):ص١٣٤/٢.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(١٠٨٧):ص١٣٤/٢.
(٦) انظر: تفسير الثعلبي:٢٠٦/١، ومعاني القرآن للفراء: ٤٣/١.
(٧)صالح بن على بن عبد الله بن العباس أوّل من ولى مصر من قبل أبى العباس السفاح سنة ١٣٣ وتوفى بقنسرين وهو عامل على حمص سنة ١٥٤.
(٨) معاني القرآن للفراء: ٤٣/١.
(٩) انظر: تفسير الطبري: ١٣٥/٢. وانظر: تفسير القرطبي: ٤٢٩/١ وما بعدها.
(١٠) تفسير الثعلبي: ٢٠٦/١.
(١١) انظر: التفسير البسيط: ٥٨٨/٢.
(١٢) تفسير الطبري: ١٣٥/٢.
(١٣) أنظر: مجمل اللغة: ٨٣٣/٣، وتهذيب اللغة(مصر)، وتفسير الثعلبي:٢٠٦/١، والتفسير البسيط: ٥٨٨/٢.

وَجَعَلَ الشَمْسَ مِصْرًا لاَخَفَاءَ بِهِ   بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْل قَدْ فَصَلاَ

أي: حدًّا، ومُصُور الدار: حدودها، فالمصر: القطعة التي بانت بعمارتها عما سواها وانتهت إليه البرية[٣].

وقد اختلف القَرَأَة في قراءة قوله {اهْبِطوا مِصْراً}[البقرة:٦٦]، على ثلاثة أوجه[٤]:

الأول: قرأه عامة القَرَأَة :{اهْبِطوا مصراً}، بتنوين (المصر) وإجرائه.

والثاني: وقراءة عَبْد الله {اهْبِطوا مِصْرَ} بغير ألف.

والثالث: وفي قراءة أُبَيّ: {اهْبِطُوا فَإنّ لَكُمْ ما سَأَلْتُم وَاسْكُنُوا مِصْر}[٥]، وتصديق ذلك أنها فِي سورة يوسف بغير ألف: {ادْخُلُوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ}[يوسف: ٩٩].

قال الطبري: "فأما الذين نونوه وأجروه، فإنهم عنوا به مصرا من الأمصار، لا مصرا بعينه . فتأويله - على قراءتهم - : اهبطوا مصرا من الأمصار، لأنكم في البدو، والذي طلبتم لا يكون في البوادي والفيافي، وإنما يكون في القرى والأمصار، فإن لكم - إذا هبطتموه - ما سألتم من العيش . وقد يجوز أن يكون بعض من قرأ ذلك بالإجراء والتنوين، كان تأويل الكلام عنده : " اهبطوا مصرا " البلدة التي تعرف بهذا الاسم، وهي " مصر " التي خرجوا عنها . غير أنه أجراها ونونها اتباعا منه خط المصحف، لأن في المصحف ألفا ثابتة في " مصر "، فيكون سبيل قراءته ذلك بالإجراء والتنوين، سبيل من قرأ : {قواريرا قواريرا من فضة} [الإنسان : ١٥ - ١٦] منونة اتباعا منه خط المصحف، وأما الذي لم ينون " مصر " فإنه لا شك أنه عنى " مصر " التي تعرف بهذا الاسم بعينها دون سائر البلدان غيرها[٦].

قوله تعالى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}[البقرة:٦١]، " أي لزمهم الذل والهوان وضرب عليهم الصغار والخزي الأبدي الذي لا يفارقهم مدى الحياة"[٧].

قال الواحدي:" أي: ألزموها إلزامًا لا تبرح عنهم"[٨].

قال ابن كثير: أي"وضعت عليهم وألزموا بها شَرْعًا وقدرًا، أي:لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون"[٩].

قال الراغب: "أي ألزمت وأوجبت، تشبيها بضرب الخيمة على من فيها والإحاطة به"[١٠].

يقال: ضرب عليه كذا، إذا ألزمه، وأصله من ضرب الشيء على الشيء، كما يضرب المسمار على الشيء فيلزمه، ومنه الضريبة، يقال: ضرب السلطان على التجار ضريبة أي ألزمهم، ضربة لازم ولازب[١١]، ومنه قول النابغة[١٢]:

وَلاَ يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لاَ شَرَّ بَعْدَهُ   لاَ يَحْسِبُون الشَّرَّ ضَرْبَةَ لاَزَبِ

---

(١) أنظر: وانظر: تفسير القرطبي: ٤٢٩/١.

(٢) البيت لعديّ في ديوانه: ١٥٩، والصحاح(مصر)، والمجمل: ٨٣٣/٣، والسان:٥/ ١٧٥: والعبارة: (وجعل الشمس ... إلخ)، وتفسير الثعلبي: ٢٠٦/١، وتفسير القرطبي: ٤٢٩/١، و مفردات الراغب" ص ٤٦٩، "زاد المسير" ١/ ٨٩.

(٣) أنظر: التفسير البسيط: ٥٨٩/٢.

(٤) أنظر: معاني القرآن للفراء: ٤٣/١.

(٥) أنظر: معاني القرآن للفراء: ٤٣/١، وهذه القراءة المنسوبة لأبى لم نقف عليها فى غير أصول الفرّاء مما بين أيدينا من المراجع.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٣٢/٢-١٣٣.

(٧) صفوة التفاسير: ٥٤/١.

(٨) تفسير الثعلبي:٥٨٩/٢.

(٩) تفسير ابن كثير: ٢٨٢/١.

(١٠) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢١٢/١.

(١١) انظر: تهذيب اللغة" (لزب) ٤/ ٣٢٥٨، "اللسان" (لزب) ٧/ ٤٠٢٥ - ٤٠٢٦، والتفسير البسيط: ٥٨٩/٢.

(١٢) ديوانه: ٣٣، وانظر: "الزاهر" ١/ ٦٠٩، "تهذيب اللغة" (لزب) ٧/ ٤٠٢٦، "المخصص" ١٢/ ٦٨، "مقاييس اللغة" (لزب) ٥/ ٢٤٥، "اللسان" (لزب) ٧/ ٤٠٢٦.

و(الذلة): هي الصغار الذي أمر الله جل ثناؤه عباده المؤمنين أن لا يعطوهم أمانا على القرار على ما هم عليه من كفرهم به وبرسوله - إلا أن يبذلوا الجزية عليه لهم، فقال عز وجل : {قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[التوبة : ٢٩] (١).

أخرج الطبري :"عن الحسن وقتادة في قوله : {وضربت عليهم الذلة}، قالا: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون"(٢) .

وأما {المسكنة} في هذا الموضع، مسكنة الفاقة والحاجة، وهي خشوعها وذلها(٣).

وأخرج الطبري:" عن أبي العالية في قوله : {والمسكنة} قال : الفاقة"(٤).

وروي عن السدي: في "قوله :{وضربت عليهم الذلة والمسكنة}، قال : الفقر"(٥).

وقال الزجاج:" (الذِّلَّةُ): الصغار، (الْمَسْكَنَةُ): الخضوع، واشتقاقه: من السكون، إنما يقال مِسْكين للذي أسكنه الفقر، أي قللَ حركته"(٦).

قال ابن الأنباري: "المسكنة الأمور التي تسكن صاحبها وتمنعه من الحركة ومن هذا أخذ المسكين، توهمًا أن الميم من أصل الكلمة، كما قالوا: تمكن من المكان، وهو مفعل من الكون، ويقال: تسكن الرجل وتمسكن إذا ظهرت عليه أمور المساكين وتشبه بهم"(٧).

قال ابن عثيمين:" فلا توجد أمة أفقر قلوباً، ولا أبخل من اليهود، فالأموال كثيرة، لكن قلوبهم فقيرة، وأيديهم مغلولة"(٨).

وفي قوله تعالى{عليهم}[البقرة:٦٦]، ثلاث قراءات: "كسر الهاء وضم الميم؛ وكسرها جميعاً؛ وضمهما جميعاً"(٩).

قوله تعالى: {وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ}[البقرة:٦٦]، "أي انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله"(١٠).

قال الربيع:" فحدث عليهم غضب من الله"(١١).

وقال الضحاك"" استحقوا الغضب من الله"(١٢).

قال الطبري:أي" ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم منه سخط"(١٣).

قوله تعالى{ذَلِكَ}[البقرة:٦١]، أي:" : فعلنا بهم من إحلال الذل والمسكنة والسخط بهم"(١٤).

قال الصابوني: "أي ما نالوه من الذل والهوان والسخط والغضب بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة"(١٥).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٣٦/٢-١٣٧.
(٢) تفسير الطبري(١٠٨٨):ص١٣٧/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٣٦/٢-١٣٧.
(٤) تفسير الطبري(١٠٨٩):ص١٣٧/٢.
(٥) أخرجه الطبري(١٠٩٠):ص١٣٧/٢.
(٦) معاني القرآن: ١٤٤/١.
(٧) انظر: الزاهر: ٢٢٤/١، وتهذيب اللغة" (سكن) ٢/ ١٧٢٣ - ١٧٢٥، و"الصحاح" (سكن) ٥/ ٢١٣٧، و"اللسان" (سكن) ٤/ ٢٠٥٤ - ٢٠٥٧، والتفسير البسيط: ٥٩٠/٢.
(٨) تفسير ابن عثيمين:٢١٣/١.
(٩) تفسير ابن عثيمين:٢١٢/١.
(١٠) صفوة التفاسير: ٥٤/١.
(١١) أخرجه الطبري(١٠٩٢):ص١٣٨/٢.
(١٢) أخرجه الطبري(١٠٩٣):ص١٣٨/٢.
(١٣) تفسير الطبري: ١٣٨/٢.
(١٤) تفسير الطبري: ١٣٩/٢.
(١٥) صفوة التفاسير: ٥٤/١.

قوله تعالى:{بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ}[البقرة:٦١]، "أي بسبب كفرهم بآيات الله جحوداً واستكباراً"[١].

واختلفوا في نوع(الباء) في {بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ}[البقرة:٦١]، على ثلاثة أقوال[٢]:

أحدها: أنها للسببية. والمعنى بسبب كفرهم.

والثاني: أنها بمعنى(اللام) والمعنى: لأنهم. قاله المهدوي[٣].

والثالث: أنها بمعنى(من أجل). والمعنى: "من أجل أنهم كانوا يكفرون". قاله الطبري[٤]. واحتج بقول أعشى بني ثعلبة[٥] :

مليكيةٌ جَاوَرَتْ بالحجا قوما عداة وأرضا شطيرا

بما قد تَرَبَّع روض القطا وروض التناضِب حتى تصيرا

يعني بذلك : جاورت بهذا المكان، هذه المرأة، قوما عداة وأرضا بعيدة من أهله، لمكان قربها كان منه ومن قومه وبلده، من تربعها روض القطا وروض التناضب[٦].

قوله تعالى:{وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}[البقرة:٦١]، أي: "وقتلهم رسل الله ظلماً وعدواناً"[٧].

قال الطبري:يعني:" أنهم كانوا يقتلون رسل الله، بغير إذن الله لهم بقتلهم، منكرين رسالتهم، جاحدين نبوتهم"[٨].

وفي قوله تعالى:{وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}[البقرة:٦١]، وجهان[٩]:

أحدهما : أن الله عز وجل ؛ إنما جاز أن يُخَلِّيَ بين الكُفَّار وقتلِ الأنبياء، لينالوا من رفيع المنازل ما لا ينالونه بغيره، وليس ذلك بخذلان لهم، كما يفعل بالمؤمنين من أهل طاعته .

والثاني : وهو قول الحسن، أن الله عز وجل، ما أمر نبيّاً بالحرب إلا نَصَرَهُ فلم يُقتَلْ، وإنما خلَّى بين الكفار وبين قتل مَنْ لم يؤمر بالقتال مِنَ الأنبياء .

و(الأنبياء) جمعُ (نبيٍّ) وقد جاء في جمع (نبيٍّ) : (نُبَّاء)[١٠]، قال العباس ابن مرداس السُّلمي، يمدح النبيَّ (ﷺ)[١١] :

يَا خَاتَمَ النُّبَّاءِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ بِالْحَقِّ حَيْثُ هُدَى آلإِلَهِ هَدَاكَا

فقال : (يا خاتم النبآء)، على أن واحدهم:(نبيء)، مهموز . وقد قال بعضهم[١٢]: النبي والنبوة، غير مهموز، لأنهما مأخوذان من: النَّبْوَة، وهي مثل: النَّجْوَة، وهو المكان المرتفع[١٣].

وفيما أُخذ منه اسمُ (النبيِّ)، ثلاثة أقاويل[١٤] :

---

(١) صفوة التفاسير: ٥٤/١.

(٢) أنظر: المحرر الوجيز: ١٥٥/١.

(٣)أنظر: المحرر الوجيز: ١٥٥/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٣٩/٢.

(٥)ديوانه : ٦٧ . مليكية ، منسوبة إلى " المليك " : وهو الملك ، يعني من نبات الملوك . العداة ، جمع عاد ، وهو العدو . الشطير : البعيد ، والغريب ، أراد أنها في أرض مجهولة . وذكره الأرض في هذا البيت . يعني أنها نزلت ديار قوم نشبت العداوة بيننا وبينهم ، في غربة بعيدة . فصرت لا أقدر عليها .

(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٣٩/٢.

(٧) صفوة التفاسير: ٥٤/١.

(٨) تفسير الطبري:١٤٢/٢.

(٩) أنظر: النكت والعيون: ١٣٠/١.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري: ١٤١/٢، و النكت والعيون: ١٣١/١.

(١١)من أبيات له في سيرة ابن هشام ٤ : ١٠٣ وغيرها . والضمير الفاعل في قول " هداكا " ، لله سبحانه وتعالى ، دل عليه ما في قوله " إنك مرسل بالخير " ، فإن الله هو الذي أرسله . وهو مضبوط في أكثر الكتب " كل " بالرفع ، و " هدى " ، و " هداكا " بضم الهاء .

(١٢)كأنه يريد الكسائي، أنظر: البحر المحيط :١ / ٢٢٠..

(١٣) أنظر: تفسير الطبري: ١٤١/٢-١٤٢.

(١٤) أنظر: النكت والعيون: ١٣١/١.

أحدها : أنه مأخوذ من النبأ، وهو الخبر، لأنه يُنْبِئُ عن الله، أي يُخْبِرُ، ومنه قوله تعالى:{أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى} [النجم : ٣٦] .
والثاني : أن أصل النبيّ هو الطريق، ويستشهد على ذلك ببيت القطامي[١]:
لما وردن نَبِيًّا واستَتَبّ بها مُسْحَنْفِر كخطوط السَّيْح مُنْسَحِل
فَسُمِّيَ رسُول الله-ﷺ- نبيّاً، لأنه الطريق إليه .
والثالث : أنه مأخوذ من النُّبُوَّةِ ؛ لأن منزلة الأنبياء رفيعة .
واختلفت القراءة في قوله عزَّ وجلَّ: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}[البقرة:٦١]، على وجهين[٢]:
الأول: القراءَة المجمع عليها في النبيين والأنبياءِ والبرِئة طرح لهمزة.
والثاني: وجماعة من أهل المدينة يهمزون جَمِيعَ ما في القرآن من هذا فيقرأون، {النبيئين}.
قال الزجاج: " والأجود ترك الهمْزة، لأن الاستعمال يُوجبُ أن ما كان مهموزاً من فعيل فجمعه: فُعَلاء، مثل: ظريف وظرفاء ونبيء ونُبَآءَ"[٣].
قوله تعالى:{ذَلِكَ}[البقرة:٦١]، أي" المشار إليه ما سبق من كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق"[٤].
قال الطبري:أي:"وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله.ففعلت بهم ما فعلت من ذلك"[٥].
قوله تعالى:{بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[البقرة:٦١]، أي:" بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي واعتدائهم حدود الله"[٦].
قال الطبري: أي" من أجل عصيانهم ربهم، واعتدائهم حدوده"[٧].
واختلف في الإشارة بـ{ذلك} في قوله تعالى{ذَلِكَ بِما عَصَوْا} [البقرة:٦١]، على ثلاثة أقوال:
الأول: أن الإشارة بـ{ذلك} الأخير، إلى الشيء الذي أشير إليه بـ{ذلك} الأول، قاله الطبري[٨] والزجّاج[٩] وغيرهما.
والثاني: إن الإشارة بـ{ذلِكَ} الأخير، إنما هي إلى "كفرهم وقتلهم". وهذا مذهب ابن عطية[١٠].
إذ يقول: "وذلك أن الله تعالى، استدرجهم فعاقبهم على العصيان والاعتداء بالمصير إلى الكفر وقتل الأنبياء، وهو الذي يقول أهل العلم: إن الله تعالى يعاقب على المعصية بالإيقاع في معصية، ويجازي على الطاعة بالتوفيق إلى طاعة، وذلك موجود في الناس إذا تؤمل، وعصيان بني إسرائيل واعتداؤهم في السبت وغيره متقرر في غير ما موضع من كتاب الله، وقال قتادة رحمه الله عند ما فسر هذه الآية: "اجتنبوا المعصية والعدوان فإن بها أهلك من كان قبلكم من الناس"[١١]"[١].

---

(١)) ديوان : ٤ ، في قصيدته الجيدة المشهورة ، والضمير في " وردن " للإبل ذكرها قبل . وروايته " واستتب بنا " . نبي كثيب رمل مرتفع في ديار بني تغلب ، ذكره القطامي في كثير من شعره . واستتب الأمر والطريق : استوى واستقام وتبين واطراد وامتد . مسحنفر ، صفة للطريق : واسع ممتد ذاهب بين . والسبح : ضرب من البرود أو العباء مخطط ، يلبس ، أو يستتر به ويفرش . شبه آثار السير عليها بخطوط البرد . وسجلت الريح الأرض فانسحلت : كشطت ما عليها . ووصف الطريق بذلك ، لأنه قد استتب بالسير وصار لاحبا واضحا .
(٢) أنظر: معاني القرآن للزجاج: ١٤٥/١.
(٣) معاني القرآن: ١٤٥/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين:٢١٤/١.
(٥) تفسير الطبري: ١٤٢/٢(بتصرف بسيط).
(٦) الكشاف: ١٤٦/١.
(٧) تفسير الطبري: ١٤٢/٢.
(٨) أنظر: تفسير الطبري: ١٤٢/٢.
(٩) أنظر: معاني القرآن: ٤٥٧/١.
(١٠) المحرر الوجيز: ٤٩١/١.
(١١) أخرجه الطبري(٧٦٤٣):ص١١٧/٧. ولفظه هناك:" اجتنِبُوا المعصية والعدوان ، فإن بهما أهلِك مَنْ أُهْلك قبلكم من الناس".

والثالث: أن المشار إليه، يشمل كل ما سبق. قاله ابن عثيمين[٢].
والظاهر أن المشار إليه كل في قوله تعالى{ذَلِكَ} الأخير، أنه يشمل كل ما سبق، ومن ضمنه سؤالهم الذي هو أدنى عن الذي هو خير"[٣]. والله تعالى أعلم.
ويحتمل قوله تعالى:{وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[البقرة:٦١]، وجهان[٤]:
الأول: أن الاعتداء عام، والمراد: اعتدائهم في كل شيء.
والثاني: أن الإعتداء خاص، والمراد: اعتداؤهم في السبت.
قال الزجاج:" الاعتداءُ المجاوزةُ في كل شيءٍ،مجاوزة القدر"[٥]،" وكل متجاوز حد شيء إلى غيره فقد تعداه إلى ما جاوز إليه"[٦].
الفوائد:
١. من فوائد الآية: لؤم بني إسرائيل، وسفههم؛ حيث إنهم طلبوا أن يغير لهم الله هذا الرزق الذي لا يوجد له نظير بقولهم: {لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يُخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثّائها وفومها وعدسها وبصلها}.
٢. ومنها: غطرسة بني إسرائيل، وجفاؤهم؛ لقولهم: {ادع لنا ربك}؛ ولم يقولوا: "ادع لن ربنا"، أو: "ادع لنا الله"؛ كأن عندهم ـ والعياذ بالله ـ أنفة؛ مع أنهم كانوا مؤمنين بموسى ومع ذلك يقولون: {ادع لنا ربك} ـ كما قالوا: {فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} [المائدة: ٢٤] .
٣. ومنها: أن من اختار الأدنى على الأعلى ففيه شبه من اليهود؛ ومن ذلك هؤلاء الذين يختارون الشيء المحرم على الشيء الحلال.
٤. ومنها: أن من علوّ همة المرء أن ينظر للأكمل، والأفضل في كل الأمور.
٥. ومنها: أن التوسع في المآكل، والمشارب، واختيار الأفضل منها إذا لم يصل إلى حد الإسراف فلا ذم فيه؛ ولذلك لم ينكر النبي ﷺ على أصحابه حين أتوه بتمر جيد بدلاً عن الرديء[١] ؛ لكن لو ترك التوسع في ذلك لغرض شرعي فلا بأس كما فعله عمر رضي الله عنه عام الرمادة؛ وأما إذا تركها لغير غرض شرعي فهو مذموم؛ لأن الله تعالى يحب من عبده إذا أنعم عليه نعمة أن يرى أثر نعمته عليه[٢].
٦. ومن فوائد الآية: حِلّ البقول، والقثاء، والفوم، والعدس، والبصل؛ لقولهم: {ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض..} إلى قوله: {اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم} أي من الأصناف المذكورة.
وهذه الأصناف مباحة في شريعة موسى؛ وكذلك في شريعتنا؛ فإنه لما قُدِّم للرسول ﷺ قدر فيه بقول فكره أكلها؛ فلما رآه بعض أصحابه كره أكلها، قال الرسول ﷺ "كل؛ فإني أناجي من لا تناجي"[٣] ؛ فأباحها لهم؛ وكذلك في خيبر لما وقع الناس في البصل، وعلموا كراهة النبي ﷺ لها قالوا: حُرّمت؛ قال صلى الله عليه وسلم "إنه ليس بي تحريم ما أحل الله"[٤] ؛ فبين أنه حلال.
٧.ومن فوائد الآية: جواز إسناد الشيء إلى مكانه لا إلى الفاعل الأول؛ لقولهم {مما تنبت الأرض}؛ والذي ينبت حقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) المحرر الوجيز: ٤٩١/١.
(٢) أنظر: تفسير ابن عثيمين:٢١٣/١.
(٣) تفسير ابن عثيمين:٢١٣/١.
(٤) أنظر: الكشاف: ١٤٦/١.
(٥) معاني القرآن:٥٤٨/١.
(٦) تفسير الطبري: ١٤٢/٢.
(١) راجع البخاري ص١٨١، كتاب الوكالة، باب ١١: إذا باع الوكيل شيئاً فاسداً فبيعه مردود، حديث رقم ٢٣١٢؛ وصحيح مسلم ص٩٤٥، كتاب المساقاة، باب ١٨؛ بيع الطعام مثلاً بمثل، حديث رقم ٤٠٨٣ [٩٦] ١٥٩٤.
(٢) انظر ص١٩٧ الفائدة الخامسة.
(٣) اخرجه البخاري ص٦٧، كتاب الأذان، باب ١٦٠: ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث، حديث رقم ٨٥٥؛ وأخرجه مسلم ص٧٦٤، كتاب المساجد، باب ١٧: نهي من أكل ثوماً...، حديث رقم ١٢٥٣ [٧٣] ٥٦٤.
(٤) أخرجه مسلم ص٧٦٤ ــ ٧٦٥، كتاب المساجد، باب ١٧: نهي من أكل ثوماً...، حديث رقم ١٢٥٦ [٧٦] ٥٦٥.

٨. ومنها: جواز إسناد الشيء إلى سببه الحقيقي الذي ثبت أنه سبب شرعاً، أو حساً؛ مثال ذلك: لو أطعمت جائعاً يكاد يموت من الجوع فإنه يجوز أن تقول: "لولا أني أطعمته لهلك"؛ لأن الإطعام سبب لزوال الجوع؛ والهلاك معلوم بالحس؛ ومثال الشرعي: القراءة على المريض، فيبرأ، فتقول: "لولا القراءة عليه لم يبرأ"؛ أما المحظور فهو أن تثبت سبباً غير ثابت شرعاً، ولا حساً، أو تقرن مشيئة الله بالسبب بحرف يقتضي التسوية مع الله عزّ وجلّ؛ مثال الأول: أولئك الذين يعلقون التمائم البدعية، أو يلبسون حلقاً، أو خيوطاً لدفع البلاء، أو رفعه . كما زعموا؛ و مثال الثاني: ما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال له رجل: "ما شاء الله وشئت"، فقال له النبي -ﷺ-: "أجعلتني لله نداً، بل ما شاء الله وحده"(٥)، لأنك إذا قلت: "ما شاء الله وشئت" جعلت المخاطَب ندًّا لله في المشيئة.

فإذا قال قائل: أليس الله قد ذم قارون حينما قال: {إنما أوتيته على علم عندي} [القصص: ٧٨] ؛ فنسب حصول هذا المال إلى العلم؛ وهذا قد يكون صحيحاً؟

فالجواب أن هذا الرجل أنكر أن يكون من الله ابتداءً؛ ومعلوم أن الإنسان إذا أضاف الشيء إلى سببه دون أن يعتقد أن الله هو المسبِّب فهو مشرك؛ وأيضاً فإن قارون أراد بقوله هذا أن يدفع وجوب الإنفاق عليه مبتغياً بذلك الدار الآخرة.

والخلاصة: أن الحادث بسبب معلوم له صور:

الصورة الأولى: أن يضيفه إلى الله وحده.

الثانية: أن يضيفه إلى الله تعالى مقروناً بسببه المعلوم؛ مثل أن يقول: "لولا أن الله أنجاني بفلان لغرقت".

الثالثة: أن يضيفه إلى السبب المعلوم وحده مع اعتقاد أن الله هو المسبِّب؛ ومنه قول النبي ﷺ في عمه أبي طالب لما ذكر عذابه: "لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار(١) ".

الرابعة : أن يضيفه إلى الله مقروناً بالسبب المعلوم بـ"ثم"، كقوله: "لولا الله ثم فلان"؛ "وهذه الأربع كلها جائزة ".

الصورة الخامسة: أن يضيفه إلى الله، وإلى السبب المعلوم مقروناً بالواو؛ فهذا شرك، كقوله: "لولا الله وفلان

الصورة السادسة: أن يضيفه إلى الله، وإلى السبب المعلوم مقروناً بالفاء، مثل: "لولا الله ففلان"؛ فهذا محل نظر: يحتمل الجواز، ويحتمل المنع.

الصورة السابعة: أن يضيفه إلى سبب موهوم ليس بثابت شرعاً، ولا حساً، فهذا شرك . كما سبق

٩. ومن فوائد الآية: توبيخ موسى عليه السلام لبني إسرائيل، وأن الذي يستبدل الأدنى بالذي هو خير يستحق التوبيخ؛ لأن موسى وبخهم، حيث قال:{أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير}.

١٠. ومنها: أنه يجوز للإنسان أن يعتذر عن الوساطة إذا لم يكن لها داع؛ لأنه قال: {اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم}؛ وكأنه قال: لا حاجة أن أدعو الله أن يخرج لكم مما تنبت الأرض.

١١. ومنها: ضرب الذلة على بني إسرائيل؛ وقد ذكر الله تعالى أنهم ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله . وهو الإسلام؛ أو بحبل من الناس وهو المساعدات الخارجية؛ والمشاهد الآن أن اليهود أعزاء بما يساعدهم إخوانهم من النصارى.

١٢. ومنها: أن اليهود قد ضربت عليهم المسكنة وهي الفقر؛ ويشمل فقر القلوب الذي هو شدة الطمع بحيث أن اليهودي لا يشبع، ولا يتوقف عن طلب المال ولو كان من أكثر الناس مالاً؛ ويشمل أيضاً فقر المال وهو قلته.

١٣. ومنها: أن بني إسرائيل لا يقومون للمسلمين لو حاربوهم من قبل الإسلام؛ لأن ضرب الذلة بسبب المعصية؛ فإذا حوربوا بالطاعة والإسلام فلا شك أنه سيكون الوبال عليهم؛ وقد قال الله تعالى: {لا يقاتلونكم

(٥) أخرجه أحمد ٢١٤/١، حديث رقم ١٨٣٩؛ وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، راجع فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد ٢٥٣/٢، باب ٣٣٩: قول الرجلك ما شاء الله وشئت، حديث رقم ٧٨٣؛ وأخرجه ابن أبي شيبة ٣٤٠/٥، باب ٢٣١: في الرجل يقول: ما شاء الله وشاء فلان، حديث رقم ٢٦٢٨٢، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: فالإسناد حسن ٢١٧/١، حديث رقم ١٣٩، وقال في صحيح الأدب المفرد: صحيح ص٢٩٢.

(١) أخرجه البخاري ص٣١٥، كتاب مناقب الأنصارن باب ٤٠: قصة أبي طالب، حديث ٣٨٨٣؛ وأخرجه مسلم ص٧١٧، كتاب الإيمان، باب ٩٠: شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، حديث رقم ٥١٠ [٣٥٧] ٢٠٩.

جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر} [الحشر: ١٤] ؛ وما يشاهد اليوم من مقاتلة اليهود للعرب فإنما ذلك لسببين:.
الأول: قلة الإخلاص لله تعالى؛ فإن كثيراً من الذين يقاتلون اليهود . أو أكثرهم . لا يقاتلونهم باسم الإسلام، وأن تكون كلمة الله هي العليا؛ وإنما يقاتلونهم باسم العروبة؛ فهو قتال عصبي قَبَليّ؛ ولذلك لم يفلح العرب في مواجهة اليهود.
والسبب الثاني: كثرة المعاصي من كبيرة، وصغيرة؛ حتى إن بعضها ليؤدي إلى الكفر؛ وقد حصل للمسلمين في أُحُد ما حصل بمعصية واحدة مع ما انضم إليها من التنازع، والفشل، كما قال الله تعالى: {حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون} [آل عمران: ١٥٢].
١٤. ومن فوائد الآية: إثبات صفة الغضب لله تعالى؛ وغضب الله سبحانه وتعالى صفة من صفاته؛ لكنها لا تماثل صفات المخلوقين؛ فنحن عندما نغضب تنتفخ الأوداج منا، ويحمر الوجه، ويقفُ الشعر، ويفقد الإنسان صوابه؛ وهذه العوارض لا تكون في غضب الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء؛ بل هو غضب يليق بالله عزّ وجلّ دال على كمال عظمته، وسلطانه؛ وإذا قلنا بهذا، وسلّمنا أن الغضب صفة حقيقية برئت بذلك ذمتنا، وصرنا حسب ما أمر الله به، ورسوله.
وفسر أهل التحريف "غضب الله" بانتقامه، ولا يثبتونه صفة لله عزّ وجلّ؛ وفسره آخرون بأنه إرادة الانتقام؛ فمعنى {غضب الله عليهم} عندهم: أراد أن ينتقم منهم؛ وتفصيل ذلك مذكور في كتب العقائد.
١٥. ومن فوائد الآية: أن بني إسرائيل جمعوا بين المعاصي، والعدوان.
١٦. ومنها: بيان حكمة الله عزّ وجلّ حيث ربط الأشياء بأسبابها؛ لقوله تعالى: {ذلك بأنهم}، وقوله تعالى: {ذلك بما عصوا}؛ وهذا من الحكمة أن يكون للأسباب تأثيراً في مسبَّباتها بما جعله الله رابطاً بين الأسباب والمسبَّبات، ولكن الأسباب قد يكون لها موانع؛ فقد توجد الأسباب، ولكن توجد موانع أقوى منها؛ فالنار لم تحرق إبراهيم ﷺ. مع أنها سبب للإحراق . لوجود مانع؛ وهو قول الله تعالى لها: {كوني برداً وسلاماً على إبراهيم} [الأنبياء: ٦٩].
القرآن
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)} [البقرة : ٦٢]
التفسير:
إن المؤمنين من هذه الأمة، الذين صدَّقوا بالله ورسله، وعملوا بشرعه، والذين كانوا قبل بعثة محمد ﷺ من الأمم السالفة من اليهود، والنصارى، والصابئين- وهم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه- هؤلاء جميعًا إذا صدَّقوا بالله تصديقًا صحيحًا خالصًا، وبيوم البعث والجزاء، وعملوا عملا مرضيًا عند الله، فثوابهم ثابت لهم عند ربهم، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا. وأما بعد بعثة محمد ﷺ خاتمًا للنبيين والمرسلين إلى الناس كافة، فلا يقبل الله من أحد دينًا غير ما جاء به، وهو الإسلام.
قال ابن كثير:" لما بين الله تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم، وما أحلّ بهم من النكال، نبه تعالى على أن مَنْ أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن له جزاء الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة ؛ كُلّ من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هُمْ يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه، كما قال تعالى: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس : ٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله : {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت : ٣٠]"[1].
وفي سببب نزول الآية: أخرج الواحدي بسند له صحيح عن مجاهد، قال: "لما قص سلمان على النبي - ﷺ - قصة أصحاب الدير قال: "هم في النار" قال سلمان: فأظلمت علي الأرض فنزلت: {إن الذين آمنوا

(١) تفسير ابن كثير: ٢٨٤/٢.

والذين هادوا} إلى قوله: {يحزنون} قال: فكأنما كشف عني جبل"[١]. وروي عن ابن مسعود، والسدي[٢]، نحو ذلك[٣].

واختلف في هذه الآية هل نسخت أم لا؟، فذكروا وجهين:

أحدهما: أنها منسوخة، روي عن ابن عباس أن قوله : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا} [الحج : ١٧] الآية، منسوخ بقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} [آل عمران : ٨٥] الآية[٤]. فردت الشرائع كلها إلى شريعة محمد ﷺ.

قال الطبري:" وهذا الخبر يدل على أن ابن عباس كان يرى أن الله جل ثناؤه كان قد وعد من عمل صالحا - من اليهود والنصارى والصابئين - على عمله، في الآخرة الجنة، ثم نسخ ذلك بقوله : {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} [آل عمران : ٨٥]"[٥].

والثاني: أنها ليست بمنسوخة، وهى فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبي عليه السلام[٦].

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}[البقرة:٦٢]، أي:" المؤمنون أتباع محمد"[٧].

قال الطبري:أي:" هم المصدقون رسول الله فيما أتاهم به من الحق من عند الله، وإيمانهم بذلك، تصديقهم به "[٨].

قال ابن عثيمين:" يعني أمة محمد ـصـلى الله عليه وسلم لأنهم هم الذين يستحقون الوصف بالإيمان المطلق، حيث آمنوا بجميع الكتب، والرسل"[٩].

قال البيضاوي: "يريد به المتدينين بدين محمد صلّى الله عليه وسلّم المخلصين منهم والمنافقين، وقيل المنافقين لانخرطهم في سلك الكفرة"[١٠].

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}[البقرة:٦٢]، على ثلاثة أوجه[١١]:

الأول: فالذين آمنوا: هم المصدقون رسول الله فيما أتاهم به من الحق من عند الله، وقوله مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ يكون فيهم بمعنى من ثبت ودام، وفي سائر الفرق بمعنى من دخل فيه. وهذا قول الجمهور[١٢].

والثاني: أن المراد المنافقون، قاله سفيان الثوري[١٣]، كأنه قال : الذين أمنوا في ظاهر أمرهم، فلذلك قرنهم باليهود والنصارى والصابئين، ثم بين حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم، فمعنى قوله مَنْ آمَنَ في المؤمنين المذكورين: من حقق وأخلص، وفي سائر الفرق المذكورة: من دخل في الإيمان[١٤].

والثالث: وقال السدي: هم أهل الحنيفية ممن لم يلحق محمدا ﷺ، كزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وَالَّذِينَ هادُوا كذلك ممن لم يلحق محمدا ﷺ، إلا من كفر بعيسى عليه السلام، وَالنَّصارى كذلك ممن لم يلحق محمدا ﷺ، وَالصَّابِئِينَ كذلك[١٥].

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ هَادُوا}[البقرة:٦٢]، "أي الذين انتسبوا إلى دين اليهود. وهي شريعة موسى"[١].

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ٢٤، وانظر: العجاب في بيان الأسباب: ٢٥٥/١-٢٥٦، وتفسير الطبري(١١١٣):ص١٥٤/٢-١٥٥.

(٢)انظر: تفسير الطبري(١١١٢):ص١٥٠/٢-١٥٤.

(٣) أنظر: أسباب النزول: ٢٥، والعجاب في بيان الأسباب: ٢٥٥/١-٢٥٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري(١١١٤):ص١٥٥/٢.

(٥) تفسير الطبري: ١٥٥/٢.

(٦) أنظر: تفسير القرطبي: ٤٣٦/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٥٤/١.

(٨) تفسير الطبري: ١٤٣/٢.

(٩) تفسير ابن عثيمين:٢٢١/١.

(١٠) تفسير البيضاوي: ٨٤/١.

(١١) انظر: المحرر الوجيز: ١٥٦/١، و تفسير القرطبي: ٤٣٢/١.

(١٢) حكاه القرطبي، أنظر: تفسيره: ٤٣٢/١.

(١٣) نقلا عن: المحرر الوجيز: ١٥٦/١.

(١٤) انظر: المحرر الوجيز: ١٥٦/١، وتفسير القرطبي: ٤٣٢/١.

(١٥) نقلا عن: المحرر الوجيز:١٥٦/١.

وقد اختلفت آراء اللغويين والمفسرين في أصل الكلمة التي اشتقت منها كلمة «يهود»، وسبب تسمية اليهود بهذا الاسم، وذكروا وجوها [٢]:
أحدها: أنها من «هاد» بمعنى رجع، سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل.
والثاني: أنهم سمّوا بذلك، لقولهم:{إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}[سورة الأعراف : ١٥٦]، أي: تبنا، قاله ابن جريج [٣]، والهائد [٤] : التائب ، ومن ذلك قول الشاعر [٥]:
إنِّي امْرُؤٌ مِنْ حُبِّهِ هَائِدُ
أي: تائب.
والثالث: وقال ابن عرفة : {هدنا إليك}، أي: سكنا إلى أمرك، والهوادة السكون والموادعة. قال : ومنه قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا} [٦].
والرابع: أنهم نُسِبُوا إلى «يهوذا» بالذال المعجمة، وهو أكبر ولد يعقوب-عليه الصلاة والسلام-، فغيرته العرب بالدال المهملة، جريا على عادتها في التلاعب بالأسماء الأعجمية، فعرب ونسب الواحد إليه، فقيل يهودي، ثم حذف الياء في الجمع، فقيل يهود.
والخامس: أنها مشتقة من: هاد، يهود؛ فالهود:الميل والرجوع؛ لأن اليهود كانوا كلما جاءهم نبي أو رسول هادوا إلى ملكهم ودلوه عليه ليقتلوه.
والسادس: أنه من «التهويد»، وهو النطق في سكون ووقار ولين، وسموا بذلك لأنهم يتهودون عند قراءة التوراة. حكاه ابن عطية عن الزهراوي [٧]، وأنشد قول الراعي النميري [٨]:
وخودٌ من اللائي تَسَمَّعْنَ بالضُّحَى   قريضَ الرُّدَافَى بالغِنَاءِ المُهَوَّدِ
والسابع: أنه من الهوادة، وهي الخضوع، فـ{هدنا إليك}، أي: خضعنا إليك.
والثامن: أن أصلها من :«هاد يهيد» ، أي: تحرك، ومنه سمي اليهود؛ لتحركهم في دراستهم، قاله أبو عمرو بن العلاء [٩].
وفي أصل الألف في كلمة: «هادوا»، وجهان [١٠]:
أحدهما: أنه من «واو»، والأصل:«هاد يهود» أي: تاب.
الثاني: أنها من «ياء»، والأصل: «هاد يهيد»، أي: تحرك.
وقد ورد بأن اليهود يرجعون إلى بقايا جماعة «يهوذا» الذين سباهم نبوخذ نصّر إلى بابل في القرن السادس (ق.م)، وهؤلاء سموا كذلك نسبة إلى مملكة ومنطقة يهوذا (١٣٩-٦٨٥ ق.م)، ولم تستعمل هذه التسمية إلا في عهد مملكة يهوذا، لذلك فهي تسمية متأخرة ولا صلة لها بيهوذا ويعقوب، اللذين عاشا في القرن السابع عشر قبل الميلاد، ولعل -يهوذا- كانت اسم مدينة في فلسطين منذ عهد الكنعانيين، فبعد أن

---

(١) تفسير ابن عثيمين:٢٢١/١.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٤٣/٢، وتفسير القرطبي:١/ ٤٣٢-٤٣٣، والمحرر الوجيز:١/ ١٥٧، والدر المصون :١/ ٤٠٥، واللباب في علوم الكتاب:١٣٣/٢،واللسان، مادة: "هود".
(٣) أنظر: تفسير الطبري(١٠٩٤):ص١٤٣/٢.
(٤) قيل: (هود): جمع هائد كعوذ جمع عائذ وقيل : مصدر يستوي فيه الواحد وغيره وقيل : إنه مخفف يهود بحذف الياء وهو ضعيف وعلى القول بالجمعية يكون أسم كان مفردا عائدا على من بإعتبار لفظها وجمع الخبر بإعتبار معناها وهو كثير في الكلام خلافا لمن منعه.(انظر: التحرير والتنوير: ٣٥٩/١).
(٥) البيت بلا نسبة في: درج الدرر في تفسير الآي والسور:١٨٩/١، تفسير القرطبي: ٤٣٣/١، والدر المصون:٤٠٥/١، واللباب في علوم الكتاب:١٣٢/٢، ولم أتعرف على قائله.
(٦) انظر: تفسير القرطبي: ٤٣٢/١، وفتح القدير للشوكاني:١١٠/١، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الالفاظ:٢٦٤/٤.
(٧) انظر: المحرر الوجيز:١٥٧/١.
(٨) انظر: تهذيب اللغة، باب ا"الهاء والدال"، و"خوط"، ومقاييس اللغة، مادة"ردف"، وأساس البلاغة، باب"ردف"، والعباب الزاخر،"ردف"، واللسان، مادة"ردف"، وتاج العروس، مادة"وخد"، "هود"، "ردف"، وغريب الحديث للقاسم بن سلام:٢٨٧/٤، والمحرر الوجيز:١٥٧/١، وواللباب:٦٣..
(٩) انظر: اللباب في علوم الكتاب:١٣٣/٢.
(١٠) انظر: اللباب في علوم الكتاب:١٣١/٢-١٣٢.

نزحت جماعة موسى عليه السلام إلى فلسطين تكونت مملكة يهوذا بعد عصر يعقوب وابنه -يهوذا- بحوالي ألف عام في منطقة يهوذا الكنعانية، فسميت باسمها، ثم انتشر استعمال اسم اليهود بعد السبي البابلي منذ القرن السادس للميلاد[١].

وقد ذكروا في القرآن بعبارات عدة، كما في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة : ٦٢]، وقوله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [البقرة : ١٣٥]، والآيات في ذكرهم باسم اليهود كثيرة، وذكر شيخ الاسلام: " أن هؤلاء المذكورين في الآية، الذين أثنى الله عليهم من الذين هادوا والنصارى كانوا مسلمين مؤمنين لم يبدلوا ما أنزل الله ولا كفروا بشيء مما أنزل الله؛ فاليهود والنصارى صاروا كفاراً من جهة تبديلهم لما أنزل الله، ومن جهة كفرهم بما أنزل على محمد"[٢].

ولهذا فإن لفظ «اليهود»: هو اسم خاص بالمنحرفين من بني إسرائيل.. وهو لفظ أعم من لفظة "عبرانيين"[٣] و"بني إسرائيل"[٤] وذلك لأن لفظة يهود تطلق على العبرانيين وعلى غيرهم ممن دخل في دين

---

(١) انظر: مفصل العرب واليهود في التاريخ: ٩٢٥.

(٢)مجموع الفتاوى (٩١/٢١).

(٣)اختلفت الآراء في سبب تسميتهم بـ"العبريين" أو "العبرانيين"، قيل: إنهم سموا بذلك نسبة إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام نفسه، فقد ذكر في سفر التكوين باسم: "إبراهيم العبراني"، لأنه عبر نهر الفرات وأنهاراً أخرى، وقيل إنهم: سموا بالعبرانيين نسبة إلى "عِبْر "، و هو الجد الخامس لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، و الرأي الثالث يقول: إن سبب التسمية يرجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل، ذلك أنهم في الأصل كانوا من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها و ماشيتها للبحث عن الماء و المرعى.، وغالب المؤرخين أجمعوا على أن التسمية ناتجة عن عبور إبراهيم عليه الصلاة والسلام نهر الفرات، ويؤكد هذا الرأي ما جاء في سفر يسوع: "وهكذا قال الرب إله إسرائيل في عبر النهر سكن آباؤكم منذ الدهر."

ويرى البعض أن هذه اللفظة لم تظهر إلا بعد اجتياز إبراهيم نهر الفرات"، فضلاً عن أن الأخذ بهذا الرأي أقرب إلى الصحة والصواب من الآراء الأخرى

وقيل: لفظ "العبري" أطلق تاريخياً على شراذم من الغجر الرحل كانوا يعيثون في الأرض فسادا، ويتبعون الجيوش الغازية، بوصفهم مرتزقة يستعان بهم في الأعمال الدنية، ووصفهم إبراهيم بأنه "عبري" غير صحيح، إلا إذا أخذنا من لفظ عبري معنى: الترحال والتنقل، وقد ألصق اليهود بإبراهيم وصف "العبري" ليصلوا إلى وصف لغتهم بأنها "العبرية" قديمة ترجع إلى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا كلام باطل لأن اللغة العبرية جاءت متأخرة جداً عن زمن إبراهيم، و هي لهجة آرامية عربية، ظهرت بعد عصر موسى بحوالي ست مئة سنة و لأن التوراة نزلت باللغة الهيروغلوفية، حيث تخاطب قوما في مصر أو أخرجوا من مصر .

وأرى أن الذي ذكره هو الصواب؛ فاللغة العبرية لغة متأخرة جداً عن زمن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام . (انظر: العرب واليهود في التاريخ: الأستاذ شراب: ٣٦).

(٤)تم إطلاق مصطلح إسرائيليين على شتات اليهود القادمين إلى فلسطين بعد إعلان اليهود قيام دولة أسموها "إسرائيل" في ٥١ مايو ٨٤٩١م؛ فأصبح كل من يعيش على أرض فلسطين من اليهود يأخذ مُسَمى "إسرائيلي"، وجنسية "إسرائيلية"، ومجموع شتاتهم على أرض فلسطين المغتصبة "إسرائيليين !!"

وشاعت تلك التسميات على ألسن الناس عموماً وفي بلاد المسلمين أيضاً، حيث أطلق على الكيان اليهودي والصهيوني "إسرائيل" واليهودي "بالإسرائيلي"، وشاع مصطلح "إسرائيليون" على اليهود الذين أتوا إلى فلسطين غزاة ...

وإسرائيل كلمة عبرانية مركبة من "إسرا" بمعنى: عبد، ومن "إيل" وهو الله، فيكون معنى الكلمة: عبد الله، وإسرائيل اسم لنبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام، وجاء في تسمية بني إسرائيل بهذا الاسم نسبة إلى أبيهم يعقوب عليه الصلاة والسلام، ويهود اليوم التصقوا بهذا الاسم، ليلبسوا على العامة بأنهم من نسل "إسرائيل" يعقوب عليه الصلاة السلام، ولإثبات عدم اختلاطهم بالشعوب الأخرى ليتحقق لهم الزعم بنقاء الجنس اليهودي، وأن يهود اليوم هم النسل المباشر ليهود التوراة، وذلك لتبرير العودة إلى أرض الميعاد !!

لذا فهذه التسمية منكرة، لما شاع على الألسن القول في سياق الذم فعلت إسرائيل كذا، وستفعل كذا ؛ وإسرائيل هو رسول كريم من رسل الله تعالى، وهو "يعقوب" عليه الصلاة والسلام، وهو بريء من الكيان اليهودي الخبيث الماكر، إذ لا توارث بين الأنبياء والرسل وبين أعدائهم من الكافرين .

اليهود وهو ليس منهم، وفي الحقيقة أنه لا يستطيع أحد أن يجزم بتحديد التاريخ الذي أطلقت فيه هذه التسمية على بني إسرائيل وسبب إطلاقها، لعدم وجود دليل على ذلك لا من الكتاب ولا من السنة، وإنما بنيت الاجتهادات السابقة على تخمينات لغوية لا تقوم بها حجة؛ غير أننا نستطيع أن نستنتج من الاستعمال القرآني لكلمة «يهود» أن هذه التسمية إنما أطلقت عليهم بعد انحرافهم عن عبادة الله وعن الدين الصحيح، وذلك لأنه لم يرد في القرآن الكريم إطلاق اليهود على سبيل المدح، بل لم تذكر عنهم إلا في معرض الذم والتحقير، وإظهار صفاتهم وأخلاقهم الذميمة، والتنديد بكفرهم.

وذكروا في قوله تعالى:{هَادُوا}[البقرة:٦٢]، وجهان من القراءة[١]:

أحدهما: {هَادُوا}، بضم الدال. قرأ بها الجمهور.

والثاني: {هَادَوا}ـ بفتح الدال، من المهاداة، قرأ بها أبو السماك العدوي.

قوله تعالى:{وَالنَّصَارَى}[البقرة:٦٢]، "أي الذين انتسبوا إلى دين عيسى"[٢].

قال الثعلبي:" الذين كانوا على دين عيسى عليه السّلام ولم يبدّلوا وماتوا على ذلك"[٣].

و{النَّصَارَى} جمع اختلف في مفرده على قولين [٤]:

الأول: واحده (نصراني)، وقيل : (نصران)، بإسقاط الياء، وهذا قول سيبويه[٥].

وقد حكى عنهم سماعا (نصران)، بطرح الياء، ومنه قول الشاعر[٦]:

تراه إذا زار العشي مُحَنِّفًا   ويضحي لديه وهو نصران شامس

والأنثى (نصرانة)، قال الأخزر الحماني[٧]:

فَكِلْتَاهُمَا خَرَّتْ وَأَسْجَدَ رَأْسُهَا   كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ

والثاني: واحده نصْرِي. قاله الخليل بن أحمد [٨].

قال الماوردي: "والأول أظهر"[٩].

وفي سبب تسميتهم بـ(النصارى)، ثلاثة أقوال[١٠]:

أحدها : أنهم سُمُّوا بذلك، لقريةٍ تُسَمَّى (ناصرة)، كان ينزلها عيسى عليه السلام، فَنُسِبَ إليها، فقيل : عيسى الناصري، ثم نسب أصحابه إليه فقيل : النصارى، وهذا قول ابن عباس[١]، وقتادة[٢]، وابن جريج[٣].

---

(١) أنظر: انظر: تفسير القرطبي: ٤٣٢/١، والبحر المحيط: ٢٠٤/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين:٢٢١/١.

(٣) تفسير الثعلبي: ٢٠٩/١.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٤٣/١.

(٥) أنظر: الكتاب: ٢٥٦/٣.

(٦)لم أعرف قائله . الأضداد لابن الأنباري : ١٥٥ ، ورواه : " تراه ويضحى وهو . . " ونقله أبو حيان في البحر المحيط ١ : ٢٣٨ عن الطبري ، وفيهما " إذا دار العشى " وأخطأ القرطبي (تفسيره ١ : ٣٦٩) فقال : و " أنشد سيبويه " وذكر البيت ، ولم ينشده سيبويه . وروى صدره . (تراه إذا دار العشا متحنفا)

والبيت في صفة الحرباء . و " محنفا " : قد تحنف ، أو صار إلى الحنيفية . ويعني أنه مستقبل القبلة . وقوله : " لديه " ، أي لدى العشى ، ويريد قبل أن يستوى العشى أو لدى الضحى ، ويكون قد ذكره في بيت قبله . وقوله : " شامس " ، يريد مستقبل الشمس ، قبل المشرق . يقول يستقبل الشمس كأنه نصراني ، وهو كقول ذي الرمة في صفة الحرباء أيضًا : إذا حول الظل العشى رأيته ... حنيفا ، وفي قرن الضحى ينتصر

(٧)البيت من شواهد سيبويه(٤١١):ص ٣/ ٢٥٦، وانظر: شرح شواهده للنحاس ص ١٧٨، و"تفسير الطبري" ١/ ٣١٨، "الزاهر" ١/ ١٤١، ٢/ ٢٢٥، "الإنصاف" ص ٣٥٧، "المخصص" ١٧/ ٤٤، "تهذيب اللغة" (نصر) ٤/ ٣٥٨٤، "اللسان" (نصر) ٥/ ٢١١، "تفسير ابن عطية" ١/ ٢٤٥، "تفسير القرطبي" ١/ ٤٣٣، "البحر المحيط" ١/ ٢٣٨، "الدر المصون" ١/ ٤٠٦، "فتح القدير" ١/ ١٤٨، يصف ناقتين ، طأطأتا رؤوسهما من الإعياء ، فشبه رأس الناقة في طأطأتها ، برأس النصرانية إذا طأطأته في صلاتها. وأسجد الرجل : طأطأ رأسه وخفضه وانحنى. قال حميد بن ثور ، يصف نوقا :

فلما لوين على معصم   وكف خضيب وأسوارها

فضول أزمتها أسجدت   سجود النصاري لأحبارها

(٨) انظر: تفسير القرطبي: ٤٣/١.

(٩)النكت والعيون: ١٣٣/١.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري: ١٤٤/٢-١٤٥، والنكت والعيون: ١٣٣/١.

والثاني : أنهم سُمُّوا بذلك، لنصرة بعضهم لبعضٍ، قال الشاعر[٤] :
لمَّا رأيتُ نَبَطاً أَنْصَارَا   شَمَّرْتُ عَنْ رُكْبَتِيَ الْإِزَارَا
كُنْتُ لَهُمْ مِنَ النَّصَارَى جَارَا
والثالث : أنهم سُمُّوا بذلك، لقوله:{مَنْ أَنْصَارِي إلى الله}[الصف: ١٤][٥].

ولفظة (النصرانية) و(نصارى) التي تطلق في العربية على أتباع المسيح، من الألفاظ المعربة، يرى بعضى المستشرقين أنّها من أصل سرياني هو: (نصرويو) Nosroyo، (نصرايا) Nasraya [٦]، ويرى بعضٌ آخر أنّها من Nazerenes التّسمية العبرانية التي أطلقها اليهود على من اتّبع ديانة المسيح، وقد وردت في العهد الجديد في (أعمال الرسل) حكاية على لسان يهود[٧]، وبرى بعض المؤرخين أن لها صلةً (بالناصرة) التي كان منها (يسوع) حيث يُقال: (يسوع الناصري) أو أنّ لها صلة بـ (الناصريين) Nasarenes = Nazarenes إحدى الفرق القديمة اليهودية المتنصرة. وقد بقي اليهود يطلقون على من اتّبع ديانة المسيح (النصارى)، وبهذا المعنى وردت الكلمة في القرآن الكريم، ومن هنا صارت النصرانية علماً لديانة المسيح عند المسلمين.

ولعلماء اللغة الإسلاميين آراء في معنى هذه الكلمة وفي أصلها، هي من قبيل التفسيرات المألوفة المعروفة عنهم في الكلمات الغريبة التي لا يعرفون لها أصلاً، وقد ذهب بعضهم إلى أنها نسبة إلى الناصرة التي نُسب اليها المسيح[٨]، وزعم بعض منهم أنها نسبة إلى قرية يُقال لها (نصران)، فقبل نصراني وجمعه نصارى[٩]، وذُكر أن (النصرانة) هي مؤنث النصراني[١٠].

وقد وردت هذه التسمية في الشعر الجاهلي، فقد ذُكر ان أمية بن أبي الصلت ذكرهم في هذا البيت[١١]:
أيام يلقى نصاراهم مسيحهم   والكائنين له وداً وقربانا

وذكر أنّ شاعراً جاهلياً ذكر النصارى في شعر له، هو[١٢]:
اليكَ تعدو قلقا وضينها   معترضاً في بطنها جنينها
مخالفاً دين النصارى دينها

وذُكر أنّ جابر بن حُنيّ قال[١٣]:
وقد زعمت بهراء أنّ رماحنا   رماح نصارى لا تخوض إلى دم

وأنّ حاتماً الطّائي قال في شعر له[١]:

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(١٠٩٦):ص١٤٥/٢.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(١٠٩٧)، و(١٠٩٨):ص١٤٥/٢.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(١٠٩٥):ص١٤٥/٢.
(٤)لم أعرف صاحب الرجز . والأبيات ، في معاني القرآن للفراء ١ / ٤٤ أمالي ابن الشجرى ١ / ٧٩ ، ٣٧١ . أنشده شاهدا على حذف واو العطف : أي " وكنت لهم من النصارى جارا " ، ثم أنشده في الموضع الآخر شاهدا على حذف الفاء العاطفة أي " فكنت لهم . . " . والبيت من شواهد الطبري: ١٤٤/٢.
(٥) أنظر: تفسير الطبري:١٤٥/٢.
٦ غرائب اللغة (ص ٢٠٧)، Ency. , III, p. ٨٤٨.
٧ أعمال الرسل: الإصحاح ٢٤، الآية ٥ « فإننا إذْ وجدنا هذا الرجل مفسداً ومهيج فتنة بين جميع اليهود الذين في المسكونة ومقدام شيعة الناصريين »، Ency. Relig. Ethic. , III, p. ٥٧٤.
٨ اللسان (٧/ ٦٨)، تاج العروس (٣/ ٥٦٨)، (نصر).
(٩) المفردات، للأصفهاني (ص ٥١٤).
(١٠) ومنه قول الشاعر:
فكلتاهما خرت وأسجد رأسها   كما أسجدت نصرانة لم تحنف
اللسان (٧/ ٦٨)، (نصر)، « والنصرانية واحدة النصارى »، تاج العروس (٣/ ٥٦٩)، (نصر).
(١١) النصرآنية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ١٨٧).
(١٢) البيت من شواهد اللسان(قلق)، (ودن)، (وضن)، وتاج العروس(قلق)، (وضن)، وهو بلا نسبة فيهما. والوضين: حزام الناقة.
(١٣) النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ١٧١، ٢٢٥)، شعراء النصرانية (١٩٠)، المشرق، السنة السابعة ١٩٠٤، (٦٢٠ وما بعدها).

ومازلت أسعى بين نابٍ ودارة   بلحيانَ حتى خفت أن أتنصرا

وأنّ (طخيم بن أبي الطخماء) قال في شعر له في مدح بني تميم[٢]:

وإنّي وإنْ كانوا نصارى أحبهّم   ويرتاح قلبى نحوهم ويُتَوَّق

وأنّ حسان بن ثابت قال[٣]:

فرحت نصارى يثرب ويهودها   لما توارى في الضريح الملحد

غير أنّ هذه الأبيات وأمثالها إنْ صح أنها لشعراء جاهليين حقاً، هي من الشعر المتأخر الذي قيل قبيل الإسلام. أما قبل ذلك، فليس لنا علم بما كان العرب يسمّون به النصارى من تسميات.

والذي نعرفه أن قدماء النصارى حينما كانوا يتحدثون عن أنفسهم كانوا يقولون (تلاميذ) Disciples، و(تلاميذ المسيح)، ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى المسيح نظرتهم إلى معلم يعلمهم[٤] وكذلك نظروا إلى حوارييه، فورد (تلاميذ يوحنا) وقصدوا بذلك النصارى[٥]، وهذه التعابير من أقدم التعابير التي استعملها النصارى للتعبير عن أنفسهم.

كذلك دعا قدماء النصارى جماعتهم بـ (الاخوة) وبـ (الاخوة في الله) Brethren in Lord للدلالة على الجماعة، وبـ (الأخ) للتعبير عن المفرد، ذلك لأن العقيدة قد آخت بينهم، فصار النصارى كلهم إخوة في الله وفي الدين[٦]، ثم تخصصت كلمة (الأخ) برجل الدين[٧]، ودعوا أنفسهم (القديسين) Saints[٨] والمؤمنين[٩] والمختارين الأصفياء والمدعوّين، ويظهر أنها لم تكن علمية، وإنما وردت للأشارة إلى التسمية التي تليها.

وقد كنى عن مجتمع النصارى بـ (الكنيسة) Ecclesia وتعني (المجمع) في الإغريقية، بمعنى المحل الذي يجتمع فيه المواطنون. فكنى بها عن المؤمنين وعن الجماعة التابعة للمسيح. كما عبر عن النصارى بـ (الفقراء) وبـ (الأصدقاء) [١٠].

وقد عرف النصارى بـ Christians نسبةً إلى Christos اليونانية التي تعني (المسيح) Messiah، أيْ المنتظر المخلص الذي على يديه يتم خلاص الشعب المختار. ويسوع هو المسيح، أي المنتظر المخلص الذي جاء للخلاص كما جاء في عقيدة أتباعه، ولذلك قيل لهم أتباع المسيح. فأطلقت عليهم اللفظة اليونانية، وعُرفوا بها، تمييزاً لهم عن اليهود. وقد وردت الكلمة في أعمال الرسل وفي رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنتوس[١١].

أما في القرآن الكريم وفي الأخبار، فلم ترد هذه اللفظة اليونانية الأصل. ولهذا نجد أن العربية اقتصرت على إطلاق (نصارى) و(نصراني) و(نصرانية) على النصارى تمييزاً لهم عن أهل الأديان الأخرى. أما مصطلح (عيسوي) و(مسيحي)، فلم يُعرفا في المؤلفات العربية القديمة وفي الشعر الجاهلي، فهما من

---

(١) الأغاني (١٠٤/١٦)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (١٧١، ٢٢٥).

(٢) المشرق، السنة السابعة :١٩٠٤ (٦٢٠ وما بعدها).

(٣) ديوان حسان: ٢٤.

(٤) Hastings, p. ١٩٢.

(٥) إنجيل مرقس: الإصحاح الثاني، الآية ١٨.

(٦) Hastings, p. ١٠٤.

(٧) أعمال الرسل، الإصحاح الأول، الآية ١٥ وما بعدها، Ency. Reli. Ethic. , ٣, p. ٥٧٣.

(٨) رسالة بولس الرسول، الرسالة الأولى إلى أهل كورنتوس، الإصحاح الأول، الآية الأولى ما بعدها.

(٩) أعمال الرسل: الإصحاح الخامس، الآية ١٤، رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس، الإصحاح الأول، الآية الأولى وما بعدها.

(١٠) Ency. Reli. Ethic. , ٣, p. ٥٧٤.

(١١) أعمال الرسل: الإصحاح الحادي عشر: الآية ٢٦، الإصحاح ٢٦، الآية ٢٨، رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنتس: الإصحاح الرابع، الآية ١٦، Hastings, p. ١٢٧.

المصطلحات المتأخرة التي أطلقت على النصارى[١]، وقد قصد في القرآن الكريم بـ (أهل الإنجيل)[٢] النصارى، إذ لا يعترف اليهود بالإنجيل، وقد أدخل علماء اللغة اللفظة في المعربات[٣].

وأهم علامة فارقة ميزت نصارى عرب الجاهلية عن العرب الوثنيين، هي أكل النصارى للخنازير، وحملهم الصليب وتقديسه، ورد أنّ الرسول ﷺ- قال لراهبيْن أتياه من نجران، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أسلما تسلما، فقالا : قد أسلمنا قبلك، فقال النبي ﷺ : كذبتما منعكما من الإسلام ثلاث، سجودكما للصليب، وقولكما : إتخذ الله ولداً، وشربكما الخمر، فقالا : فما تقول في عيسى ؟، قال : فسكت النبي ﷺ ونزل القرآن ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم إلى قوله : أبناءنا وأبناءكم قال : فدعاهما رسول الله ﷺ إلى الملاعنة قال : وجاء بالحسن والحسين وفاطمة أهله وولده، قال : فلما خرجا من عنده، قال أحدهما لصاحبه : أقرر بالجزية ولا تلاعنه، قال : فرجعا، فقالا : نقر بالجزية ولا نلاعنك، قال : فإقرأ بالجزية"[٤].

وقد روي عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: "أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: "يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ"، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [التوبة: ٣١]، قَالَ: "أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ""[٥].

وورد في شعر ذي الرّمة[٦]:

ولكنَّ أصل امرىء القيس معشرٌ   يحل لهم أكل الخنازير والخمر

يريد أنّهم نصارى في الأصل، فهم يختلفون عن المسلمين في أكلهم لحم الخنزير وفي شربهم الخمر[٧].

وقد أقسم النصارى بالصليب. هذا (عدي بن زيد) يحلف به في شعر ينسب اليه، فيقول[٨]:

سَعى الأَعداءُ لا يَألونَ شَرّاً   عَلَيكَ وَرَبِّ مَكَّةَ وَالصَليبِ

قوله تعالى:{وَالصَّابِئِينَ}[البقرة:٦٢]، أي: "والصابئين-وهم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه-"[٩].

قال البيضاوي:" قوم بين النصارى والمجوس"[١٠].

قال النسفي: أي"الخارجين من دين مشهور إلى غيره، من صبأ إذا خرج من الدين، وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة"[١١].

وقوله تعالى: {الصَّابِئِينَ}[البقرة:٦٢]، فيه قراءتان[١٢]:

أحدهما:{الصَّابِينَ}و{والصّابون}، بترك الهمزة، قرأ بها أهل المدينة في جميع القرآن.

والثاني: وقرأ الباقون: {الصَّابِئِينَ} و{والصَّابِئُونَ}، بالهمزة وهو الأصل.

قال الثعلبي: يقال: صبا يصبوا صبوءا، إذا مال وخرج من دين إلى دين"[١٣].

وقد اختلف العلماء في{الصَّابِئِينَ}، ولعل من أسباب الاختلاف حول حقيقة الصابئة مايلي:

---

(١) Hughes, Dictionary of Islam, p. ٤٣١.
(٢) المائدة، الآية ٤٧.
(٣) النهاية في غريب الحديث (٤/ ١٣٦)، المعرب، للجوالقي (٢٣).
(٤)أحمد بن حنبل - فضائل الصحابة - فضائل الحسن والحسين١٣٣٢ ، وانظر: البلاذري (٧١).
(٥) سنن الترمذي ت شاكر ٥/ ٢٧٨ ، وانظر: اللسان (٤٤٣/١٣)، (وثن)، السيوطي، الدرر المنثور (١٠/ ٧٥).
(٦) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية: ٥٧.
(٧) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ،جواد علي :٤٠١٠.
(٨) الأغاني: ٢٤/٢، وانظر: شيخو، شعراء النصرانية (٤٥١).
(٩) التفسير الميسر:٣٢٩.
(١٠) تفسير البيضاوي: ٨٤/١.
(١١) تفسير النسفي: ٩٥/١.
(١٢) أنظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٨/١.
(١٣) تفسير الثعلبي: ٢٠٩/١.

١- ورود التعاليم الصابئية باللغة الآرامية؛ مما أدى إلى اقتصار جماعة محدودة من رجال الدين والمهتمين بأمره على فهم التعاليم الصابئية، بينما ظلت هذه التعاليم بالنسبة للآخرين – بما في ذلك اتباع الطائفة – رهن السماع والملاحظة، وهما لايغنيان شيئاً عن قراءة النصوص قراءة مباشرة [١].
٢- انطواء الصابئين على أنفسهم، وعدم مخالطتهم بغيرهم، وكتمان عقيدتهم، وانغلاقهم عليها، لأنهم لايرون أن دينهم تبشيرياً يقومون بالدعوة إليه والتعريف به، بل على عكس ذلك[٢].
٣- اصطناع التقية حيث يبدون تعاطفاً مع أتباع جميع الملل والنحل معتمدين على أوجه التشابه بينهم وبين أتباع هذه الملل والنحل، مما جعل من الصعب كشف الستار عن بواطن معتقداتهم وشعائرهم[٣].
٤- كثرة الملل والأهواء والنحل التي ظهرت في العصر العباسي الذي يعد العهد الذهبي للتأليف والترجمة؛ مما سبب صعوبة في التمييز بين تلك الملل والنحل بشكل كبير، ساعد على ذلك انتحال فئات أخرى من غير الصابئين اسمهم والتشبه بهم[٤].

كما اختلف العلماء في أصل كلمة (صابئة) مما أدى إلى اختلافهم في المراد من ذلك، ويمكن إجمال أقوالهم فيما يلي:

القول الأول (بالهمز) : إن الكلمة عربية تفيد معنى الخروج والتحول والانتقال من دين إلى آخر، مأخوذة من قول العرب: صبأ ناب البعير إذا طلع حده وخرج، وتصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها،
والصابيء:المستحدث سوى دينه، وكل خارج من دين كان عليه إلى دين آخر، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه، وجمع الصابيء:صابئون، وصُبَّاء، وصابئة، صَبَأة، ويعرفون في العراق باسم الصُبَّة.

والفعل (صبأ) يأتي على فَعَلَ، كـ (منع)، ويأتي على وزن فَعُلَ، كـ (كَرُمَ).
وتقول: صبأ يصبأ، وصَبُؤَ، كلاهما يدل على الخروج والبروز، وهذا القول عليه جمهور أهل اللغة[٥].

القول الثاني (بغير الهمز): إن الكلمة عربية تفيد معنى الميل والنزع، تقول أصبا إلى الشيء يصبو إذا مال قلبه إليه، ونزع واشتاق وفعل فعل الصبيان، وقد يقال صبا الرجل إذا عشق وهوى.

ومن هذا المعنى قوله تعالى عن يوسف – عليه السلام – {وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين} [يوسف: ٣٣].

قال بعض العلماء: وسمى القوم بذلك؛ لأنهم مالوا عن كل دين إلى دين عبادة النجوم... أو مالوا عن سنن الحق وزاغوا عن نهج الأنبياء[٦].

القول الثالث: ذهب (جسنيوس) العالم اللغوي الألماني إلى أن الكلمة صابئين مشتقة من (صباؤوث) العبرانية، أي جند السماء دلالة على أنهم يعبدون الكواكب. وذهب نولدكي إلى أنها مشتقة من صب الماء إشارة إلى اعتمادهم بالماء لأنهم يعتمدون كالنصارى، وقال غيره أن الديانة المسيحية اتصلت ببقية الكلدانيين فنشأ منهم مسيحيو " مار يوحنا) في البصرة وهم الصابئون[٧].

القول الرابع : إن الكلمة لاتفيد معنى خاصاً وإنما هي منسوبة إلى أحد الأشخاص يسمى صبائاً، واختلف أصحاب هذا القول في تحديد هذا الشخص بين اثنين :
أ- صابيء متوشلخ (متوشالح) حفيد النبي إدريس – عليه الصلاة والسلام – .

---

(١) الصابئون، د. عبدالله سمك، ص ٤.
(٢) انظر : الصابئة، د. علي محمد عبدالوهاب، ص ١٧. وانظر الصابئون في حاضرهم وماضيهم، ص ٤.
(٣) انظر : الصبئون المندائؤون، الليدي دراوور، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي، ص ٤٧، وانظر الصابئون ، ، ص ٥.
(٤) الصابئون، ص ٥.
(٥) انظر: لسان العرب،مادة "صبأ"،١٠٧/١- ١٠٨. وانظر معجم مقاييس اللغة، ٣٣١/٣-٣٣٢. وانظر القاموس المحيط، ٢٠/١-٢١
(٦) انظر: تفسير القرطبي، ١/ ٤٧٣. وانظر تفسير البغوي، ٩٤/١.
(٧) انظر : الصابئون في حاضرهم وماضيهم، السيد الحسني، ص ٢١، وموسوعة كنوز المعرفة، إشراف د/ إميل يعقوب، ط (الأولى) ، بيروت : دار نظير عبود، ١٩٩٨م ، ١/ ١٥٨، ودائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ط(الثالثة)، بيروت: دار المعرفة، ١٩٧١م، ٥/ ٤٢٦.

ب- صابيء بن ماري، الذي ظهر في زمن الخليل عليه السلام [١].

وقد أنكر هذا القول المسعودي، ونسب هذه التسمية لرجل في الهند ظهر زمن الملك (طمهوث بن نويجهان) ودعى الناس إلى عبادة الكواكب لأنها المتصرفة في الكون.

هذه هي بعض الأقوال التي تحدثت عن أصل اشتقاق كلمة (الصابئة) ولعلنا نلحظ أن الأقوال السابقة بينها ترابط، وذلك من خلال أن الشخص الذي صبأ وخرج عن دينه إلى دين آخر، هو في الحقيقة لم يصنع ذلك إلا لما مال قلبه إلى ذلكم الدين الجديد، ثم اغتسل بالماء إعلاناً منه الخروج عن الدين الأول، وتمسكه بأبرز سماة الدين الجديد ألا وهو عبادة الكواكب.

وقد قص الله علينا في كتابه قصص السابقين، وأديان الأمم الماضية، ومما أشار إليه القرآن في هذا الشأن ذكر الصابئين، وقد ذكرهم الله تعالى في ثلاث مواضع من كتابه العزيز وهي على النحو التالي:

الموضع الأول : قوله تبارك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة : ٦٢].

الموضع الثاني : قوله تبارك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [المائدة : ٦٩].

الموضع الثالث: قوله تبارك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [الحج : ١٧].

وقد اختلفت عبارات المفسرون في تفسير معنى (الصابئة) على أقوال:

الأول:أنهم قوم بين المجوس واليهود والنصارى، وليس لهم دين. قاله مجاهد[٢]، وعطاء[٣].

والثاني: أنهم منزلة بين اليهود والنصارى. قاله سعيد بن جبير[٤].

والثالث: قبيلة بين المجوس واليهود، ولاتؤكل ذبائحهم ولاتنكح نساؤهم. قاله الحسن[٥]، ومجاهد[٦]، وابن أبي نجيح[٧].

والرابع: هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور. قاله أبو العالية[٨]والسدي، والربيع بن أنس، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك، وإسحاق بن راهويه[٩].

والخامس: أنهم أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل، يقولون : لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي، إلا قول لا إله إلا الله، ولم يؤمنوا برسول الله. قاله ابن زيد[١٠].

والسادس: هم الذين لم تبلغهم دعوة نبي. ذكره ابن كثير[١١].

والسابع: هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة. قاله قتادة[١٢]، وزياد بن أبيه[١٣]، وأبو جعفر الرازي[١٤].

والثامين: أنهم طائفة من أهل الكتاب. قاله السدي[١٥].

---

(١)انظر : تاريخ الطبري، ١٧٤/١.

(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٣٨):ص١٢٧/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري(١١٠٦):ص١٤٦/٢.

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٣٧):ص١٢٧/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري(١١٠٣):ص١٤٦/٢.

(٦)أنظر: تفسير الطبري(١١٠٢):ص١٤٦/٢.

(٧)أنظر: تفسير الطبري(١١٠٤):ص١٤٦/٢.

(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٣٩):ص١٢٧/١، وتفسير الطبري(١١١٠):ص١٤٧/٢.

(٩) انظر تفسير الطبري، ١/ ٢٥٢- ٢٥٣. وتفسير ابن أبي حاتم: ١٢٧/١، وتفسير القرطبي، ١/ ٤٧٥-٤٧٦.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري(١١٠٧):ص١٤٧/٢.

(١١) انظر: تفسير ابن كثير، ١٠٤/١.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري(١١٠٩):ص١٤٧/٢.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري(١١٠٨):ص١٤٧/٢. زياد بن أبيه: هو والى العراق في زمن معاوية رضي الله عنه .

(١٤) أنظر: تفسير الطبري: ١٤٧/٢، وزاد:"أنهم ويقرءون الزبور".

(١٥) أنظر: تفسير الطبري(١١١١):ص١٤٧/٢.

قال ابن كثير: "وأظهر الأقوال – والله أعلم – قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين وإنما هم باقون على فطرتهم، ولادين مقرر يتبعونه ويقتضونه"[١].

نستنتج مما سبق، بأن الصابئة أحد أمرين:

إما أن تكون فرقة واحدة لكن بعضهم انخرط مع المجوسية والبعض مع أهل الكتاب والبعض اعتزل جميع الأديان.

وإما أن تكون فرقة الصابئة، عبارة عن فرق متعددة ومذاهب متفرقة، كل فرقة لها طابع خاص تستقل به عن الفرقة الأخرى، فالجامع بينهم جميعاً المسمى – فقط – أما الحقيقة ففيه اختلاف فيما بينهم.

يقول ابن القيم – رحمه الله – : " وقد اختلف الناس فيهم اختلافاً كثيراً، بحسب ماوصل إليهم من معرفة دينهم، وهم منقسمون إلى مؤمن وكافر. قال الله تعالى: {إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ... الآية}[البقرة : ٦٢] .

فذكرهم – جل وعلا – في الأمم الأربعة الذين تنقسم كل أمة منها إلى ناج وهالك كما في قوله تعالى {إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة}[الحج:١٧]، فذكر الأمتين اللتين لاكتاب لهم، ولاينقسمون إلى شقي وسعيد وهما : المجوس والمشركون، ولم يذكرهما في آية الوعد بالجنة، وذكر الصابئين فيهما فعلم أن فيهم الشقي والسعيد"[٢].

وقد اختلف موقف العلماء في الصائبة، قال ابن القيم : "لقد اختلف الناس فيهم اختلافاً كثيراً، وأشكل أمرهم على الأئمة لعدم الإحاطة بمذهبهم ودينهم:

فقال الشافعي رحمه الله تعالى:هم صنف من النصارى، وقال في موضع: ينظر في أمرهم، فإن كانوا يوافقون النصارى في أصل الدين، ولكنهم يخالفونهم في الفروع، فتؤخذ منهم الجزية، وإن كانوا يخالفونهم في أصل الدين لم يقروا على دينهم ببذل الجزية، ثم اختلف أصحابه – وكذلك اختلف الأحناف والمالكية والحنابلة –" [٣].

ويقول ابن القيم – رحمه الله – : "وبالجملة فالصابئة أحسن حالاً من المجوس، فأخذ الجزية من المجوس تنبيه على أخذها من الصابئة بطريق الأولى، فإن المجوس من أخبث الأمم ديناً ومذهباً، ولايتمسكون بكتاب ولاينتمون إلى ملة ولايثبت لهم كتاب ولاشبهة كتاب أصلاً... وكل ماعليه المجوس من الشرك فشر الصابئة إن لم يكن أخف منه فليس بأعظم منه"[٤].

قوله تعالى:{مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}[البقرة:٦٢]، "أي من آمن من هذه الطوائف إيماناً صادقاً فصدَّق بالله، وأيقن بالآخرة"[٥].

قال النسفي:" من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً"[٦].

قال البيضاوي:أي" من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ. مصدقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد"[٧].

وأخرج ابن أبي حاتم "عن ابن عباس: قوله: {من آمن بالله}، يعني: من وحد الله"[٨].

قوله تعالى:{وَعَمِلَ صَالِحًا}[البقرة: ٦٢]،" أي عمل بطاعة الله في دار الدنيا"[٩].

قال البيضاوي: أي:" عاملاً بمقتضى شرعه"[١].

---

(١) تفسير ابن كثير، ١٠٤/١.

(٢) انظر : إغاثة اللهفان، ٢/ ٢٤٩- ٢٥٠ .

(٣) أحكام أهل الذمة، ابن القيم الجوزية، تحقيق يوسف البكر وشاكر العاروري، ط (الأولى) ، بيروت : دار ابن حزم، ١٤١٨هـ ، ص ٢٣١ وما بعدها.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٤٢.

(٥) صفوة التفاسير: ٥٥/١.

(٦) تفسير النسفي: ٩٥/١.

(٧) تفسير البيضاوي: ٨٥/١.

(٨) تفسير ابن أبي حاتم(٦٤٢):ص١٢٨/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٥٥/١.

قال أبو حيان:" هو عام في جميع أفعال الصلاح وأقوالها وأداء الفرائض، أو التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلّم"[٢].
قوله تعالى:{فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ}[البقرة: ٦٢]،" أي لهم ثوابهم عند الله"[٣].
قال قتادة:" أجر كبير لحسناتهم، وهي الجنة"[٤].
قال ابن عثيمين:" وسمى الله تعالى "الثواب" أجراً؛ لأنه سبحانه وتعالى التزم على نفسه أن يجزي به كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير؛ {عند ربهم} : أضاف ربوبيته إليهم على سبيل الخصوص تشريفاً، وتكريماً، وإظهاراً للعناية بهم؛ فهذه كفالة من الله عزّ وجلّ، وضمان، والتزام بهذا الأجر؛ فهو أجر غير ضائع"[٥].
قوله تعالى:{وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}[البقرة:٦٢]، "أي: ليس على هؤلاء المؤمنين خوف في الآخرة، حين يخاف الكفار من العقاب"[٦].
قال الثعلبي:" فيما قدّموا"[٧].
قال البيضاوي: " حين يخاف الكفار من العقاب"[٨].
قال الطبري:أي:"ولا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة"[٩].
وقرأ الجمهور : {وَلا خَوْفٌ}، بالرفع والتنوين. وقرأ الحسن : {ولا خوف}، من غير تنوين[١٠].
قوله تعالى:{وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: ٦٢]، ولا يحزنون "على ما مضى من الدنيا"[١١].
قال الثعلبي:" على ما خلّفوا"[١٢].
قال البيضاوي: حين "يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب"[١٣].
قال الطبري:" ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وعيشها، عند معاينتهم ما أعد الله لهم من الثواب والنعيم المقيم عنده"[١٤].
قال ابن عثيمين:" لأنهم انتقلوا إلى خير منها؛ أما الكافر فيحزن على ما فرط في الحياة الدنيا، ويتحسر، كما قال تعالى: {وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله} [الزمر: ٥٤. ٥٦] : هذا تحزُّن، وتحسُّر"[١٥].
الفوائد:
١. من فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً، فكل من آمن بالله واليوم الآخر، فإن له أجره من أيّ صنف كان.
٢. ومنها: ثمرة الإيمان بالله، واليوم الآخر . وهو حصول الأجر، وانتفاء الخوف مما يستقبل، والحزن على ما مضى.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٨٥/١.
(٢) البحر المحيط:٢٠٥/١.
(٣)صفوة التفاسير: ٥٥/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٤٨):ص١٢٩/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين:٢٢٢/١.
(٦) صفوة التفاسير: ٥٥/١.
(٧) تفسير الثعلبي: ٢١٠/١.
(٨) تفسير البيضاوي: ٨٥/١.
(٩) تفسير الطبري:١٥٠/٢.
(١٠) أنظر: البحر المحيط: ٢٠٥/١.
(١١) تفسير ابن عثيمين:٢٢٣/١.
(١٢) تفسير الثعلبي: ٢١٠/١.
(١٣) تفسير البيضاوي: ٨٥/١.
(١٤) تفسير الطبري:١٥٠/٢.
(١٥) تفسير ابن عثيمين:٢٢٣/١.

٣. ومنها: أنه لا فرق في ذلك بين جنس وآخر؛ فالذين هادوا، والنصارى، والصابئون مثل المؤمنين إذا آمنوا بالله، واليوم الآخر . وإن كان المؤمنون من هذه الأمة يمتازون على غيرهم بأنهم أكثر أجراً.
٤. ومنها: عظم أجر الذين آمنوا، وعملوا الصالحات؛ وذلك في قوله تعالى: {عند ربهم}.
٥. ومنها: أنه إذا ذكر الثناء بالشر على طائفة، وكان منهم أهل خير فإنه ينبغي ذكر أولئك الذين اتصفوا بالخير حتى لا يكون قدحاً عاماً؛ لأنه تعالى بعدما قال: {ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق} [البقرة: ٦١] بيَّن أن منهم من آمن بالله تعالى واليوم الآخر، وأن من آمن بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

القرآن

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)} [البقرة : ٦٣]

التفسير:

واذكروا -يا بني إسرائيل- حين أَخَذْنا العهد المؤكَّد منكم بالإيمان بالله وإفراده بالعبادة، ورفعنا جبل الطور فوقكم، وقلنا لكم: خذوا الكتاب الذي أعطيناكم بجدٍ واجتهاد واحفظوه، وإلا أطبقنا عليكم الجبل، ولا تنسوا التوراة قولا وعملا كي تتقوني وتخافوا عقابي.

قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ}[البقرة:٦٣]، أي:" اذكروا إذا أخذنا ميثاقكم"[١].

قال البغوي:أي" عهدكم يا معشر اليهود"[٢].

قال القاسمي:" أي واذكروا وقت أخذنا لميثاقكم بالمحافظة على ما في التوراة"[٣].

قال المراغي:" أي واذكروا يا بنى إسرائيل رفت أخذنا العهد على أسلافكم بالعمل بما في التوراة وقبولهم ذلك"[٤].

قال السعدي:" وهو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم"[٥].

قال النسفي: " بقبول ما في التوراة"[٦].

قال البيضاوي: " باتباع موسى والعمل بالتوراة"[٧].

قال أبو العالية:" أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له ولا يعبدوا غيره"[٨].

وفي سبب أخذ ميثاقهم يقول أخرج الطبري بسنده عن ابن زيد:" لما رجع موسى من عند ربه بالألواح. قال لقومه بني إسرائيل : إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أمره الذي أمركم به ونهيه الذي نهاكم عنه. فقالوا : ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله إلينا فيقول : هذا كتابي فخذوه! فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى، فيقول : هذا كتابي فخذوه ؟ قال : فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة فصعقتهم، فماتوا أجمعون. قال : ثم أحياهم الله بعد موتهم، فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله. فقالوا : لا. قال : أي شيء أصابكم ؟ قالوا : متنا ثم حيينا! قال : خذوا هذا الطور، قال : خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم. قال : فأخذوه بالميثاق، وقرأ قول الله : {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} حتى بلغ :{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة : ٨٣ - ٨٥]، قال : ولو كانوا أخذوه أول مرة، لأخذوه بغير ميثاق"[٩].

---

(١) تفسير ابن عثيمين:٢٢٤/١.
(٢) تفسير البغوي: ١٠٣/١.
(٣) محاسن التأويل: ٣٢١/١.
(٤) تفسير المراغي: ١٣٧/١.
(٥) تفسير السعدي: ٥٤.
(٦) تفسير النسفي: ٦٨/١.
(٧) تفسير البيضاوي: ٨٥/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٤٩):ص١٢٩/١.
(٩) أخرجه الطبري(١١١٥):ص١٥٦/٢-١٥٧.

قال المفسرون: "إن موسى لما أتاهم بالتوراة فرأوها وما فيها من التغليظ كبر ذلك عليهم وأبوا أن يقبلوا ذلك، فأمر الله جبلًا من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم مثل الظلة، وكان العسكر فرسخا في فرسخ والجبل كذلك، وأوحى الله إلى موسى إن قبلوا التوراة وإلا رضختهم بهذا الجبل، فلما رأوا ذلك وأن لا مهرب لهم، قبلوا ما فيها وسجدوا من الفزع، وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود، فمن أجل ذلك يسجد اليهود على أنصاف وجوههم، فهذا معنى أخذ الميثاق في حال رفع الجبل فوقهم، لأن في هذه الحالة قيل لهم: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ} [وكان فيما آتاهم الله تعالى الإيمان بمحمد - ﷺ -"[١].

قال الواحدي: " وهذه الآية خطاب لليهود وإن كان آباؤهم أخذ الميثاق عليهم. روى أبو صالح، عن ابن عباس أنه قال. هما ميثاقان: الأول: حين أخرجهم من صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم. والثاني: أن كل نبي بعث إلى قومه أخذ عليهم الميثاق بالطاعة لله والإيمان بمحمد - ﷺ -"[٢].

وقد ذكر الزجاج قولين فيه[٣]:

الأول: حين أخرج الناس كالذر ورجحه.

ودليله قوله: {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ}[الأعراف:١٧١]، ثم قال من بعد تمامْ الآية: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ}[الأعراف:١٧٢]، فهذه الآية كالآية التي في البقرة.

والثاني: ما أخذه على الرسل ومن تبعهم.

ودليله قوله عزَّ وجلَّ: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ}[آل عمران:٨١].

قوله تعالى:{وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ}[البقرة:٦٣]، أي: ورفعناه فوق رؤوسكم[٤].

قال النسفي:" أي: الجبل حتى قبلتم وأعطيتم الميثاق"[٥].

قال القاسمي:" ترهيبا لكم لتقبلوا الميثاق"[٦].

قال مجاهد : "رُفِعَ الجبل فوقهم كالسحابة، فقيل لهم: لتؤمِنُنَّ أو ليقعن عليكم، فآمنوا "[٧]. وروي عن عطاء مثل ذلك[٨].

قال مسلم البطين:" رفعته الملائكة"[٩].

قال الصابوني:" أي: نتقناه حتى أصبح كالظلة فوقكم"[١٠].

قال الزجاج:" أي: جئناكم بآية عظيمة، وهي أن الطور -وهو الجبل- رُفع فوقَهم حتى أظلهم وظنوا أنه واقع بهم، فأخبر الله بعظم الآية التي أروها بعد أخذ الميثاق"[١١].

وذكر أهل التفسير في{الطُّورَ}[البقرة:٦٣]، أقاويل[١٢]:

أحدها : إنه اسم جبل بعينه، ثم اختلفوا في تحديده على وجهين:

الأول: أنه اسم الجبل، الذي كلم الله عليه موسى، وأنزلت عليه التوراة دون غيره، وهذه رواية ابن جريج عن ابن عباس[١].

---

(١) التفسير البسيط: ٦٣٠/٢.

(٢) التفسير البسيط: ٦٢٨/٢، ذكره أبو الليث عن ابن عباس: ١/ ٣٧٦. وذكر ابن جرير أن المراد به الميثاق الذي أخذه منهم في قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [البقرة: ٨٣ - ٨٥]، وأخرجه بسنده عن ابن زيد. كما سبق، أنظر: تفسيره(١١١٥): الطبري ٢/ ١٥٦-١٥٧.

(٣) أنظر: معاني القرآن: ١٤٧/١.

(٤) أنظر: تفسير ابن عثيمين:٢٢٤/١.

(٥) تفسير النسفي: ٦٨/١.

(٦) محاسن التأويل: ٣٢١/١.

(٧) أخرجه الطبري(١١١٦):ص١٥٨/٢.

(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٥٣):ص١٢٩/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٥٠):ص١٢٩/١.

(١٠) صفوة التفاسير: ٥٦/١.

(١١) معاني القرآن: ١٤٨/١.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري: ١٥٧/٢-١٥٨، وتفسير ابن كثير: ٢٨٧/١،والنكت والعيون: ١٣٤/١.

وقال الفراء في تفسير قوله تعالى: {وَالطُّورِ} [الطور: ١]، قال:" وهو الجبل الذي بمدين، الذي كلّم الله جلَّ وَعزَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام عنده تكليما"[٢].
والثاني : إنه جبل بالشام[٣]، قال ذو الرمة[٤]:
أَعاريبُ طُورِيُّونَ عن كُلِّ بلدة   يَحيدونَ عنها مِنْ حِذَارِ المَقادِرِ
قوله (طوريون)، أي: "وحشيون، يحيدون عن القرى حذار الوباء والتلف، كأنهم نسبوا إلى الطور وهو جبل بالشام"[٥].
والثالث: أن الطور ما أَنْبَتَ من الجبال خاصة، دون ما لم ينبت[٦]، وهذه رواية الضحاك عن ابن عباس[٧].
والرابع : أن الطور اسم لكل جبل، وهو قول قتادة[٨]، وورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس[٩]، وعطاء[١٠]، وعكرمة[١١] والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس، وأبي صخر، ومجاهد[١٢]، وابن زيد[١٣].
واختلف في الأصل اللغوي لكملة (الطور)، على وجهين:
الأول:أنها كلمة عربية، قال العجاج[١٤] :
داني جناحيه من الطور فمر   تقضّي البازي إذا البازيُّ كر
والثاني: أنها كلمة سريانية تعني(الجبل). قاله مجاهد [١٥]، وابن زيد [١٦].
والقول الأول أقرب إلى الصواب، لأنه جاء (الطور) بمعنى الجبل في كلام العرب، كما سبق الاستشهاد بقول العجاج، وبه قال الإمام الطبري[١٧]، ومنه قول جرير[١٨]:
فإن ير سليمان الجنّ يستأنسوا بها   وإن ير سليمان أحب الطّور ينزل
قال القفال رحمه الله: إنما قال: «ميثاقكم»، ولم يقل: مواثيقكم، لوجهين[١]:

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(١٢٢٤):ص١٥٩/٢.
(٢) معاني القرآن: ٩١/٣.
(٣) أنظر: تفسير البسيط: ٦٢٩/٢، والمحرر الوجيز: ٣٣٠/١، و٥٠٢/١٥.
(٤)ورد البيت في "التهذيب" (طور) ٣/ ٢٢٢٩، "اللسان" (طرأ) ٥/ ٢٦٤٩، و (طور) ٥/ ٢٧١٨، "الخزانة" ٧/ ٣٥٥، و"ديوان ذي الرمة" ٣/ ١٦٩٨، وفي بعضها (قرية) بدل (بلدة).
(٥) التفسير البسيط: ٦٣٠/٢.
(٦)هذا قول لم نجده في كتب اللغة في مادته.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٥١):ص١٢٩/١، وتفسير الطبري(١١٢٥):ص١٥٩/٢.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(١١١٨):ص١٥٨/٢.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٥٢):ص١٢٩/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٥٣):ص١٢٩/١.
(١١) أنظر: تفسير الطبري(١١٢١):ص١٥٩/٢.
(١٢) أنظر: تفسير الطبري(١١١٦)، و(١١١٧):ص١٥٨/٢.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري(١١٢٣):ص١٥٩/٢.
(١٤)ديوانه : ١٧، ومجاز القرآن: ٣٠٠/٢، وغريب الحديث: ١٨٠، وهو من قصيدة جيدة يذكر فيها مآثر عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي ، وقد ولي الولايات العظيمة ، وفتح الفتوح الكثيرة ، وقاتل الخوارج . والضمير في قوله : " دانى " يعود إلى متأخر ، وهو " البازي " المذكور في البيت بعده . فإن قبله ، ذكر عمر بن عبيد الله وكتائبه من حوله :
حول ابن غراء حصان إن وتر   فات ، وإن طالب بالوغم اقتدر
إذا الكرام ابتدروا الباع ابتدر   دانى جناحيه من الطور فمر
يريد : " ابتدر منقضا انقضاض البازي من الطور ، دانى جناحيه . . فمر " فقدم وأخر . وهو من جيد التقديم والتأخير . وقوله : " دانى " أي ضم جناحيه وقر بهما وضيق ما بينهما تأهبا للانقضاض من ذروة الجبل . ومر : أسرع إسراعا شديدا . وقوله : " تقضى " أصلها " تقضض " ، فقلب الضاد الأخيرة ياء ، استثقل ثلاث ضادات ، كما فعلوا في " ظنن " " وتظنى " على التحويل . وتقضض الطائر : هوى في طيرانه يريد الوقوع . والبازي : ضرب من الصقور ، شديد . وكسر الطائر جناحيه : ضم منهما شيئا - أي قليلا - وهو يريد السقوط .
(١٥) أنظر: تفسير الطبري(١١١٦)، و(١١١٧):ص١٥٨/٢.
(١٦) أنظر: تفسير الطبري(١١٢٣):ص١٥٩/٢.
(١٧) انظر: تفسيره: ١٥٧/٢. وانظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٤٩٤.
(١٨) البيت من شواهد الثعلبي في تفسيره: ٢١٢/١.

أحدهما: أراد به الدلالة على أن كل واحد منهم قد أخذ ذلك كما قال: {ثم يخرجكم طفلا} [غافر: ٦٧] أي كل واحد منكم.
والثاني: أنه كان شيئا واحدا أخذ من كل واحد منهم كما أخذ على غيره فلا جرم كان كله ميثاقا واحدا ولو قيل مواثيقكم لأشبه أن يكون هناك مواثيق أخذت عليهم لا ميثاق واحد، والله أعلم.
قوله تعالى:{خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ}[البقرة:٦٣]، " أي: اقبلوا ما أعطيناكم من التوراة، واعملوا به بقوة"[٢].
قال الزجاج:" أي خذوه بجد واتركوا الريب والشك لما بأن لكم من عظيم الآيات"[٣].
قال الفراء: "يقول: بجدٍ وبتأدية ما افترض عليكم فِيهِ"[٤].
قال ابن كثير:أي" بقوة وحزم وهمة وامتثال"[٥].
قال السعدي:" أي: بجد واجتهاد، وصبر على أوامر الله"[٦].
قال الواحدي: أي:" اعملوا بما أمرتم فيه وانتهوا عما نهيتم عنه"[٧].
قال الصابوني:" أي اعملوا بما في التوراة بجد وعزيمة"[٨].
قال الزمخشري:" {خُذُوا} على إرادة القول {ما آتَيْناكُمْ}، من الكتاب، بجدّ وعزيمة"[٩].
قال الطبري:"{ما آتيناكم} " ما أمرناكم به في التوراة"[١٠].
وأصل القوة: "الشدة، ومنه قوة الحبل، لأنها تقوي الحبل وتشد فتله"[١١].
واختلف أهل العربية في قوله تعالى: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ}[البقرة:٦٣]، على وجهين[١٢]:
الأول: قال بعض نحويي أهل البصرة : هو مما استغني بدلالة الظاهر المذكور عما ترك ذكره له، وذلك أن معنى الكلام : ورفعنا فوقكم الطور، وقلنا لكم : خذوا ما آتيناكم بقوة، وإلا قذفناه عليكم.
والثاني: ويقول بعض نحويي أهل الكوفة : أخذ الميثاق قول فلا حاجة بالكلام إلى إضمار قول فيه، فيكون من كلامين، غير أنه ينبغي لكل ما خالف القول من الكلام - الذي هو بمعنى القول - أن يكون معه (أن) كما قال الله جل ثناؤه{إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ} [نوح : ١] قال : ويجوز أن تحذف (أن).
والصحيح: "أن كل كلام نطق به - مفهوم به معنى ما أريد - ففيه الكفاية من غيره"[١٣].
واختلف في قوله{بِقُوَّةٍ}[البقرة:٦٣]، على ثلاثة أوجه[١٤]:
الأول: معناه: بجد واجتهاد. قاله قتادة[١٥]، والسدي[١٦]
والثاني: تعملوا بما فيه. قاله مجاهد[١٧].
والثالث: بطاعة. قاله أبو العالية[١]، وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك[٢].

---

(١) انظر: تفسير الرازي: ١٠٠/٢.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٢٢٥/١.
(٣) معاني القرآن: ١٤٨/١.
(٤) معاني القرآن: ٤٣/١.
(٥) تفسير ابن كثير: ٢٨٧/١.
(٦) تفسير السعدي: ٥٤.
(٧) التفسير البسيط: ٦٣١/٢.
(٨) صفوة التفاسير: ٥٦/١.
(٩) الكشاف: ١٤٧/١.
(١٠) تفسير الطبري:١٦٠/٢.
(١١) التفسير البسيط: ٦٣١/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري: ١٦٠/٢.
(١٣)تفسير الطبري: ١٦٠/٢.
(١٤) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٨٧/١، وانظر: تفسير الطبري: ١٦٠/٢-١٦١.
(١٥) أنظر: تفسير الطبري(١١٢٩):ص١٦١/٢.
(١٦) أنظر: تفسير الطبري(١١٣٠):ص١٦١/٢.
(١٧) أنظر: تفسير الطبري(١١٢٦):ص١٦٠/٢.

والقول الأول هو الأقرب إلى الصواب، وبه قال قتادة والسدي، وجمهور أهل التفسير[(٣)].

قال ابن عثيمين:" والمراد بالـ "قوة" هنا الحزم، والتنفيذ؛ والتطبيق؛ وضده أن يأخذ الإنسان أخذاً ضعيفاً متساهلاً على كسل؛ والباء في قوله تعالى: {بقوة} للمصاحبة؛ أي خذوا هذا الكتاب. أي التوراة التي جاء بها موسى ﷺ أخذاً مصحوباً بقوة، فلا تهملوا شيئاً منه"[(٤)].

قوله تعالى: {وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ}[البقرة : ٦٣]،" أي اذكروا كل ما فيه، واعملوا به"[(٥)].

قال أبو العالية:" يقول أقروا ما في التوراة واعملوا به"[(٦)]. وروي عن الربيع[(٧)] نحو ذلك.

وقال ابن وهب: سألت ابن زيد عن قول الله : {واذكروا ما فيه}، قال: اعملوا بما فيه بطاعة لله وصدق. قال : وقال :اذكروا ما فيه، لا تنسوه ولا تغفلوه"[(٨)].

قال الطبري:أي" واذكروا ما فيما آتيناكم من كتابنا من وعد ووعيد شديد، وترغيب وترهيب، فاتلوه، واعتبروا به، وتدبروه"[(٩)].

قال الزجاج: " معناه ادْرُسُوا ما فيه"[(١٠)].

قال الزمخشري:"أي:" واحفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه"[(١١)].

قال الواحدي:أي" احفظوا ما في التوراة من الحلال والحرام، واعملوا بما فيه"[(١٢)].

قال السعدي:" أي: ما في كتابكم بأن تتلوه وتتعلموه"[(١٣)].

قال الصابوني:" أي احفظوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه"[(١٤)].

قال المراغي:" أي وادّارسوه ولا تنسوا تدبر معانيه واعملوا بما فيه من الأحكام"[(١٥)].

قال الزمخشري: وقرئ: {وتذكّروا}، {واذّكروا}"[(١٦)]. أى بتشديد الذال والكاف، وأصله : وتذكروا.

قوله تعالى:{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة : ٦٣]، أي لأجل أن تتقوا الله عزّ وجلّ"[(١٧)].

قال ابن عطية:" ترج في حق البشر"[(١٨)].

قال الطبري:"كي تتقوا وتخافوا عقابي"[(١٩)].

قال ابن عباس:" تنزعون عما أنتم عليه"[(٢٠)].

قال الزمخشري:أي"رجاء منكم أن تكونوا متقين، أو قلنا خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا"[(٢١)].

قال السعدي: أي تتقون" عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من أهل التقوى"[(١)].

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(١١٢٨):ص٢/١٦٠-١٦١.
(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١/١٣٠.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٦١/٢، وتفسير ابن كثير: ٤٣٧/١، وتفسير الرازي: ١٠٠/٢.
(٤) تفسير ابن عثيمين:٢٢٥/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين:٢٢٥/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٥٩):ص١٣٠/١، وانظر: تفسير الطبري(١١٣٣):ص١٦٢/٢.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(١١٣٤):ص١٦٢/٢، وتفسير ابن أبي حاتم:١٣٠/١.
(٨) أخرجه الطبري(١١٣٥):ص١٦٢/٢.
(٩) تفسير الطبري: ١٦١/٢.
(١٠) معاني القرآن: ١/!٤٨.
(١١) الكشاف: ١٤٧/١.
(١٢) التفسير البسيط: ٦٣١/٢.
(١٣) تفسير السعدي:٥٤.
(١٤) صفوة التفاسير: ٥٦/١.
(١٥) تفسير المراغي: ١٣٧/١.
(١٦) الكشاف: ١٤٧/١.
(١٧) تفسير ابن عثيمين: ٢٢٥/١.
(١٨) المحرر الوجيز: ١/!٥٩.
(١٩) تفسير الطبري: ١٦١/٢.
(٢٠) أخرجه الطبري(١١٣٢):ص١٦١/٢. أي: " وتنزعوا عما أنتم عليه من معصيتي".[تفسير الطبري:١٦١/٢].
(٢١) الكشاف:١٤٧/١.

قال ابن عثيمين:" فالأخذ بهذا الميثاق الذي آتاهم الله على وجه القوة، وذكر ما فيه وتطبيقه يوجب التقوى؛ لأن الطاعات يجر بعضها بعضاً، كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون} [البقرة: ١٨٣] ؛ فالطاعات يجر بعضها بعضاً، لأن الطاعة إذا ذاق الإنسان طعمها نشط، وابتغى طاعة أخرى، ويتغذى قلبه؛ وكلما تغذى من هذه الطاعة رغب في طاعة أخرى؛ وبالعكس المعاصي: فإنها توجب وحشة بين العبد وبين الله عزّ وجلّ، ونفوراً، والمعاصي يجر بعضها بعضاً؛ وسبق قوله تعالى: {ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} [البقرة: ٦١] ؛ ثم بعد هذا الإنذار، وكون الجبل فوقهم في ذلك الوقت خضعوا، وخشعوا، قال الله تعالى: {وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة} [الأعراف: ١٧١] ؛ ففي تلك الساعة هرعوا إلى السجود؛ وسجدوا؛ ولكنهم مالوا في سجودهم ينظرون إلى الجبل خائفين منه؛ ولهذا يقال: إن سجود اليهود إلى الآن سجود مائل كأنما ينظرون إلى شيء فوقهم؛ وقالوا: إن هذا السجود سجدناه لله سبحانه وتعالى لإزالة الشدة؛ فلا نزال نسجد به؛ فهذا سجودهم إلى اليوم"(٢).

الفوائد:

١. من فوائد الآية: تذكير الله . تبارك وتعالى . لبني إسرائيل بما أخذ عليهم من عهد؛ لقوله تعالى: {وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور}؛ وهذا التذكير مقتضاه الإلزام . أي فالتزموا بالميثاق.

٢. ومنها: عتوّ بني إسرائيل، حيث لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم؛ فحينئذٍ آمنوا؛ وهذا الإيمان في الحقيقة يشبه إيمان المكره الذي قيل له: إما أن تؤمن؛ أو تُقْتَل.

٣. ومنها: بيان قوة الله عزّ وجلّ، وقدرته؛ لقوله تعالى: {ورفعنا فوقكم الطور}؛ وقد قال الله تعالى في آية أخرى: {وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة} [الأعراف: ١٧١] ؛ فلا أحد من الخلق يستطيع أن يحمل ذلك الجبل، ويجعله ظلة لا يسقط عليهم إلا الله عزّ وجلّ؛ فالأحجار العظيمة الثقيلة الكبيرة أمسكها الله تعالى بقدرته.

٤. ومنها: أن الواجب على أهل الملة أن يأخذوا كتابهم بقوة لا بضعف، ولين، ومداهنة؛ بل لابد من قوة في التطبيق، والدعوة؛ التطبيق على أنفسهم؛ ودعوة غيرهم إلى ذلك بدون فتور، ولا تراخٍ على حدّ قوله تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن} [النمل: ١٢٥] ؛ لأنه لا يتم الأمر إلا بهذا.

٥. ومنها: أن الأخذ بالكتاب المُنَزَّل يوجب التقوى؛ لقوله تعالى :لعلكم تتقون} أي لأجل أن تكونوا من المتقين لله عزّ وجلّ.

القرآن

{ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)} [البقرة: ٦٤]

التفسير:

ثم خالفتم وعصيتم مرة أخرى، بعد أَخْذِ الميثاق ورَفْع الجبل كشأنكم دائمًا. فلولا فَضْلُ الله عليكم ورحمته بالتوبة، والتجاوز عن خطاياكم، لصرتم من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى:{ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}[البقرة:٦٤]، أي:"ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به"(٣).

قال الثعلبي:" أعرضتم وعصيتم، من بعد أخذ الميثاق ورفع الجبل"(٤).

قال الواحدي:" أي: أعرضتم عن أمر الله وطاعته"(٥).

قال الطبري:" ثم أعرضتم.[و] تركتم العمل بما أخذنا ميثاقكم وعهودكم على العمل به بجد واجتهاد، بعد إعطائكم ربكم المواثيق على العمل به، والقيام بما أمركم به في كتابكم، فنبذتموه وراء ظهوركم"(٦).

قال السعدي:" وكان ذلك موجبا لأن يحل بكم أعظم العقوبات"(١).

---

(١) تفسير السعدي: ٥٤.
(٢) تفسير ابن عثيمين:١/٢٢٥-٢٢٦.
(٣) الكشاف: ١/!٤٧.
(٤) تفسير الثعلبي: ٢١٢/١.
(٥) التفسير البسيط: ٦٣٢/٢.
(٦) تفسير الطبري: ١٦٢/٢.

قال ابن عطية:" تولّى تفعّل، وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعا ومجازا. وتوليهم من بعد ذلك: إما بالمعاصي، فكان فضل الله بالتوبة والإمهال إليها، وإما أن يكون توليهم بالكفر فكان فضل الله بأن لم يعاجلهم بالإهلاك ليكون من ذريتهم من يؤمن، أو يكون المراد من لحق محمدا ﷺ"[٢].

وذكر الواحدي بأن (التولي) في اللغة يستعمل على ثلاث معان[٣]:

أحدها: الإعراض، كالذي في هذه الآية، ومعناه: أعرضتم وعصيتم، ومثله: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [محمد: ٣٨]، أي تعرضوا عن الإسلام.

والثاني: الإتباع، ومنه قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة: ٥١]، معناه: من يتبعهم وينصرهم.

والثالث: ويقال: توليت الأمر توليا، إذا وليته بنفسك، قال الله تعالى: {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ} [النور: ١١]، أي: ولي وزر الإفك وإشاعته.

قوله تعالى:{فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}[البقرة:٦٤]، أي: "فلولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة "[٤].

قال الزمخشري: بتوفيقكم للتوبة"[٥].

قال الصابوني: أي بقبول التوبة"[٦].

وقال الثعلبي:" بتأخير العذاب عنكم"[٧].

قال أبو العالية:" {فضل الله}، الإسلام، {ورحمته}، القرآن"[٨]. وروي عن الربيع مثل ذلك[٩].

قوله تعالى:{لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ}[البقرة:٦٤]، " أي لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة"[١٠].

قال الثعلبي: أي:"لصرتم من المغلوبين بالعقوبة وذهاب الدّنيا والآخرة"[١١].

قال الزجاج:" أي لولا أنْ منَّ الله عليكم بالتوبة بعد أن كفرتم مع عظيم هذه الآيات، {لكنتم من الخاسرين}"[١٢].

قال الواحدي: الخسران):" ذهاب رأس المال، وهو هاهنا هلاك النفس، لأنها بمنزلة رأس المال"[١٣].

وذكر القفال في تفسير قوله تعالى:{فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[البقرة:٦٤]، وجهين[١٤]:

---

(١) تفسير السعدي:٥٤.
(٢) المحرر الوجيز: ١٥٩/١.
(٣) أنظر: التفسير البسيط: ٦٣٢/٢، أخذه عن "تهذيب اللغة" (ولى) ١/ ٣٩٥٧، وانظر: "إصلاح الوجوه والنظائر" ص ٤٩٩، و"نزهة الأعين" النواظر ص ٢١٥، و"مفردات الراغب" ص ٥٣٤.
(٤) تفسير الطبري: ١٦٤/٢.
(٥) الكشاف: ١٤٧/١.
(٦) صفوة التفاسير: ٥٦/١.
(٧) تفسير الثعلبي: ٢١٢/١، وانظر: التفسير البسيط: ٦٣٢/٢.
(٨) أخرجه الطبري(١١٣٦):ص١٦٦/٢.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(١١٣٧):ص١٦٦/٢.
(١٠) صفوة التفاسير: ٥٦/١.
(١١) تفسير الثعلبي: ٢١٢/١.
(١٢) معاني القرآن: ١٤٨/١.
(١٣) التفسير البسيط: ٦٣٣/٢.
قال أهل العلم: وأصل الخسران في التجارة أن يبتاع الرجل شيئًا فيوضع من رأس ماله، وهي الوضيعة فيه، والمصدر: الخسارة والخسر، وصفقة خاسرة غير مربحة، هذا هو الأصل ، ثم قيل لكل صائر إلى مكروه: خاسر، لنقصان حظه من الخير، والقوم نقصوا بكفرهم راحة أنفسهم التي كانت لهم لو آمنوا، فاستحقوا العقوبة وفاتتهم المثوبة.[التفسير البسيط: ٢٨٨/٢، و التهذيب: (خسر) ١/ ١٠٢٨، ومفردات الراغب: ١٤٧].
(١٤) انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٠١/٢.

الأول: لولا ما تفضل الله به عليكم من إمهالكم وتأخير العذاب عنكم لكنتم من الخاسرين أي من الهالكين الذين باعوا أنفسهم بنار جهنم فدل هذا القول على أنهم إنما خرجوا عن هذا الخسران لأن الله تعالى تفضل عليهم بالإمهال حتى تابوا.
والثاني: أن يكون الخبر قد انتهى عند قوله تعالى: {ثم توليتم من بعد ذالك} ثم قيل: {فلولا فضل الله عليكم ورحمته} رجوعا بالكلام إلى أوله، أي لولا لطف الله بكم برفع الجبل فوقكم لدمتم على ردكم الكتاب ولكنه تفضل عليكم ورحمكم فلطف بكم بذلك حتى تبتم.
واختلف أهل العلم في مخرج الخطاب في الآية الكريمة على أقوال[١]:
أحدها: قالوا: وإن كان خطابا لمن كان بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ من أهل الكتاب أيام رسول الله ﷺ، فإنما هو خبر عن أسلافهم، فأخرج الخبر مخرج المخبر عنهم - على نحو ما قد بينا فيما مضى، من أن القبيلة من العرب تخاطب القبيلة عند الفخار أو غيره، بما مضى من فعل أسلاف المخاطِب بأسلاف المخاطَب، فتضيف فعل أسلاف المخاطِب إلى نفسها، فتقول : فعلنا بكم، وفعلنا بكم.
قال ابن عطية:" الجمهور على أن المراد بالمعنى من سلف"[٢].
والثاني: أن الخطاب في هذه الآيات، إنما أخرج بإضافة الفعل إلى المخاطبين به، والفعل لغيرهم، لأن المخاطبين بذلك كانوا يتولون من كان فعل ذلك من أوائل بني إسرائيل، فصيرهم الله منهم من أجل ولايتهم لهم.
والثالث: وقال بعضهم : إنما قيل ذلك كذلك، لأن سامعيه كانوا عالمين - وإن كان الخطاب خرج خطابا للأحياء من بني إسرائيل وأهل الكتاب - أن المعنى في ذلك إنما هو خبر عما قص الله من أنباء أسلافهم. فاستغنى بعلم السامعين بذلك، عن ذكر أسلافهم بأعيانهم. ومثل ذلك يقول الشاعر[٣] :
إذ ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ولم تجدي من أن تقري به بدا
فقال : (إذا ما انتسبنا)، و (إذا) تقتضي من الفعل مستقبلا ثم قال : (لم تلدني لئيمة)، فأخبر عن ماض من الفعل. وذلك أن الولادة قد مضت وتقدمت. وإنما فعل ذلك - عند المحتج به - لأن السامع قد فهم معناه. فجعل ما ذكرنا - من خطاب الله أهل الكتاب الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ أيام رسول الله ﷺ، بإضافة أفعال أسلافهم إليهم - نظير ذلك.
والقول الأول، هو الصحيح، وهو المستفيض من كلام العرب وخطابها[٤]. والله أعلم.
الفوائد:
١. من فوائد الآية: لؤم بني إسرائيل؛ لأنهم بعد أن رجع الجبل إلى مكانه تولوا، كما قال تعالى: {ثم توليتم من بعد ذلك}؛ وهذا من اللؤم؛ لأن من الواجب أن يذكروا رفع الجبل فوقهم حتى يستقيموا، ويستمروا على الأخذ بقوة؛ لكنهم تولوا من بعد ما رأوا الآية.
٢. ومنها: بيان فضل الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: {فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين}.
٣. ومنها: أن الإنسان لا يستقل بنفسه في التوفيق؛ لقوله تعالى: {فلولا فضل الله عليكم ورحمته}.
٤. ومنها: إثبات فضل الله تعالى على بني إسرائيل بما أعطاهم من الآية الكونية، والشرعية.
٥. ومنها: إثبات الأسباب، وربطها بمسبباتها؛ لقوله تعالى: {فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين}؛ فهذا صريح في إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّباتها.
القرآن
{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)} [البقرة : ٦٥]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٦٤/٢-١٦٥.
(٢) المحرر الوجيز: ١٥٩/١.
(٣)في حاشية الأمير على مغنى اللبيب ١ : ٢٥ قال : " في حاشية السيوطي " قائله زائدة ابن صعصعة الفقعسي ، يعرض بزوجته ، وكانت أمها سرية " ، ولم ينسبه السيوطي في شرحه على شواهد المغنى : ٣٣ .
(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٦٥/٢.

التفسير:
ولقد علمتم -يا معشر اليهود- ما حلَّ من البأس بأسلافكم من أهل القرية التي عصت الله، فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت، فاحتالوا لاصطياد السمك في يوم السبت، بوضع الشِّباك وحفر البِرَك، ثم اصطادوا السمك يوم الأحد حيلة إلى المحرم، فلما فعلوا ذلك، مسخهم الله قردة منبوذين.
قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ}[البقرة:٦٥]، أي: "ولقد عرفتم"[١].
قال ابن عثيمين:" أي: علمتم عِلم اليقين، وعرفتم معرفة تامة. الخطاب لبني إسرائيل"[٢].
قال الزجاج:"معنى {علمتم} -هنا-:عرفتم، ومثله قوله عز وجل {لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}[الأنفال:٦٠]، ومعناه لا تعرفونهم الله يعرفهم"[٣].
قال ابن عباس:" يقول: ولقد عرفتم. وهذا تحذير لهم من المعصية، يقول : احذروا أن يصيبكم ما أصاب أصحاب السبت، إذ عصوني"[٤].
قوله تعالى:{الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ}[البقرة: ٦٥]، " أي الذين تجاوزوا حدي، وركبوا ما نهيتهم عنه في يوم السبت"[٥].
قال ابن عباس:" يقول : اجترؤوا في السبت"[٦].
قال الزجاج:" ظلموا وجاوزوا ما حُدَّ لهُم"[٧].
قال الصابوني:" أي:الذين" خالفوا واصطادوا يوم السبت وقد نهيناهم عن ذلك"[٨].
و(الاعتداء): أصله تجاوز الحد في كل شيء"[٩].
وقوله تعالى{فِي السَّبْتِ}[١٠]، أي: في الحكم الذي حكم الله به عليهم يوم السبت؛ وذلك أن الله حرم عليهم العمل والصيد في ذلك اليوم ليتفرغوا للعبادة؛ فابتلاهم بكثرة الحيتان يوم السبت حتى تكون فوق الماء شُرَّعاً، ثم لا يرونها بعد ذلك؛ فتحيلوا على صيدها بحيلة، حيث وضعوا شباكاً يوم الجمعة، فتدخل فيه الحيتان إذا جاءت يوم السبت، ثم يأخذونها يوم الأحد، ويقولون: نحن لم نصدها يوم السبت [١١].
وفي تسميته بـ«السبت»، أربعة أقاويل[١٢]:
أحدها : أن السبت هو اسم للقطعة من الدهر، فسمي ذلك اليوم به، وهذا قول الزجاج[١٣].
والثاني : أنه سُمِّي بذلك لأنه سَبَت خَلْق كل شيء، أي قطع وفرغ منه، وهذا قول أبي عبيدة[١٤].
والثالث : أنه سُمِّي بذلك، لأن اليهود يَسْبِتُون فيه، أي: يقطعون فيه الأعمال.
والرابع : أن أصل السبت، الهدوء والسكون في راحة ودعة، ولذلك قيل للنائم مسبوت لاستراحته وسكون جسده، كما قال تعالى:{وَجَعَلْنَا نَوْمَكُم سُبَاتَا}، فَسُمِّي به اليوم لاستراحة اليهود فيه .

---

(١) تفسير الطبري:١٦٦/٢.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٢٢٩/١.
(٣) معاني القرآن: ١٤٨/١.
(٤) أخرجه الطبري(١١٣٨):ص١٦٧/٢.
(٥) تفسير الطبري:١٦٦/٢.
(٦) أخرجه الطبري(١١٣٨):ص١٦٧/٢.
(٧) معاني القرآن: ١٤٨/١.
(٨) صفوة التفاسير: ٥٦/٢.
(٩) تفسير الطبري:١٦٧/٢.
(١٠)وهذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف ، حيث يقول تعالى : { وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [الأعراف : ١٦٣] القصة بكمالها.
(١١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٢٨/١. وانظر الأخبار حول ذلك في تفسير الطبري(١١٣٩)، و(١١٤٠)، و(١١٤١) و(١١٤٢)١١:ص١٦٨/٢-١٧٢.
(١٢) أنظر: اللسان، وتهذيب اللغة، مادة "سبت"، والنكت والعيون: ١٣٥/١.
(١٣) أنظر: النكت والعيون: ١٣٥/١.
(١٤) أنظر: النكت والعيون: ١٣٥/١.

قوله تعالى: {فَقُلْنَا لَهُمْ}[البقرة:٦٥]، " فقلنا للذين اعتدوا في السبت"[١]
قوله تعالى:{كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ}[البقرة:٦٥]، " أي : صيروا كذلك"[٢].
قال الصابوني:"أي: مسخناهم قردة بعد أن كانوا بشراً مع الذلة والإهانة"[٣].
قال ابن عباس:" فمسخهم الله قردة بمعصيتهم"[٤].
قال قتادة:" فصاروا قردة لها أذناب، تعاوى بعد ما كانوا رجالا ونساء"[٥].
قال ابن كثير:"يعني أذلة صاغرين"[٦].

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى:{فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}[البقرة:٦٥]، على وجهين[٧]:

الأول: أنهم مُسِخُوا قردةً، فصاروا لأجل اعتدائهم في السبت في صورة القردة المخلوقين من قبل، في الأيام الستة. قاله ابن عباس[٨]، وقتادة[٩]، والسدي[١٠].

قال ابن عباس : "لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل"[١١].

والثاني: أنهم لم يمسخوا قردة، وإنما مسخت قلوبهم، وهو مَثَلَ ضربه الله لهم، كما قال تعالى:{كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَاً}[الجمعة:٥] . قاله مجاهد[١٢]. واعترض عليه الطبري[١٣] وابن كثير[١٤].

وقال ابن كثير:"وهذا قول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} الآية [المائدة : ٦٠]"[١٥].

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس :{فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [البقرة:٦٥]، فجعل الله منهم القردة والخنازير، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة والمشيخة صاروا خنازير.

قلت: والصحيح في هذه المسألة: أن مسخهم قرودا، إنما كان معنويًا لا صوريًا خلاف ما ذهب إليه مجاهد[١٦]، رحمه الله. ورجحه ابن كثير[١].

---

(١) تفسير الطبري: ١٧٤/٢.
(٢) تفسير الطبري:١٧٤/٢.
(٣) صفوة التفاسير: ٥٦/١.
(٤) أخرجه الطبري(١١٣٨):ص١٦٧/٢-١٦٨. وهذا النص قطعة من الخبر.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(١١٤٠):ص١٧٠/٢-١٧١.
(٦) تفسير ابن كثير: ٢٩٠/١.
(٧) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٨٩/١-٢٩٠.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(١١٣٨)، و(١١٣٩):ص١٦٧/٢-١٧٠.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(١١٤٠)، و(١١٤١):ص١٧٠/٢-١٧١.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(١١٤٢):ص١٧٢/٢.
(١١) أخرجه الطبري(١١٣٨):ص١٦٧/٢-١٦٨. وهذا النص قطعة من الخبر.
(١٢) أنظر: تفسير الطبري(١١٤٣)، و(١١٤٤):ص١٧٢/٢-١٧٣.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري: ١٧٣/٢.
(١٤)تفسير ابن كثير: ٢٨٩/١.
(١٥)تفسير ابن كثير: ٢٨٩/١.
(١٦) إن المروي عن مجاهد أنه سبحانه وتعالى مسخ قلوبهم بمعنى الطبع والختم لا أنه مسخ صورهم وهو مثل قوله تعالى: {كمثل الحمار يحمل أسفارا} (الجمعة: ٥) ونظيره أن يقول الأستاذ للمتعلم البليد الذي لا ينجح في تعليمه: كن حمارا، واحتج على امتناعه بأمرين:
الأول: أن الإنسان هو هذا الهيكل المشاهد والبنية المحسوسة فإذا أبطلها وخلق في تلك الأجسام تركيب القرد وشكله كان ذلك إعداما للإنسان وإيجادا للقرد فيرجع حاصل المسخ على هذا القول إلى أنه تعالى أعدم الأعراض التي باعتبارها كانت تلك الأجسام إنسانا وخلق فيها الأعراض التي باعتبارها كانت قردا فهذا يكون إعداما وإيجادا لا أنه يكون مسخا.
والثاني: إن جوزنا ذلك لما آمنا في كل ما نراه قردا وكلبا أنه كان إنسانا عاقلا، وذلك يفضي إلى الشك في المشاهدات.
وأجيب عن الأول بأن الإنسان ليس هو تمام هذا الهيكل، وذلك لأن هذا الإنسان قد يصير سمينا بعد أن كان هزيلا، وبالعكس فالأجزاء متبدلة والإنسان المعين هو الذي كان موجودا والباقي غير الزائل، فالإنسان أمر وراء هذا الهيكل المحسوس، وذلك الأمر إما أن يكون جسما ساريا في البدن أو جزءا في بعض جوانب البدن كقلب أو دماغ أو موجودا مجردا على ما يقوله

وفي قوله تعالى:{خاسئين}[البقرة:٦٥]، أربعة أقوال:
أحدها : أن معناه: مبعدين. ومنه: خَسَأتُ الكلب أخسؤه خَسْئاً، أي بَاعدته وطردْته. قاله الزجاج[٢].
والثاني : أن معناه: أذلة صاغرين، وهذا قول أبي العالية[٣]، والربيع[٤]، وروي عن مجاهد وقتادة وأبي مالك نحو ذلك[٥].
والثالث: معناه: صاغرين. قاله مجاهد[٦].
والرابع: :أن معنى: خاسئا، أي: ذليلاً . قاله ابن عباس[٧].
قال الطبري:في معنى {الخاسئين}: "أي: مبعدين من الخير أذلاء صغراء"[٨]، وبالتالي إن جميع الأقوال الثلاثة ضمن المعنى الصحيح. والله تعالى أعلم.
و(الخاسئ): " المبعد المطرود، كما يخسأ الكلب يقال منه : " خسأته أخسؤه خسأ وخسوءا، وهو يخسأ خسوءا " . قال : ويقال : " خسأته فخسأ وانخسأ " . ومنه قول الراجز[٩] :
كالكلب إن قلت له اخسأ انخسأ
يعني : إن طردته انطرد ذليلا صاغرا"[١٠].
وأنشد الفراء[١١]:
وَإذا زَجَرْتُ الْكَلْبَ قُلْتُ اخْسَأ لَهُ   وَالْكَلْبُ مِثْلُكَ ياخُرَيْمُ سَوَاءُ
وأنشد ابن الأنباري لعمران بن حطان[١٢]:
لاَ تَجْعَلَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْزِلِي   يَا رَبِّ مَنْزِلَ خَاسِئٍ مَدْحُورِ
الفوائد:
١. من فوائد الآية: توبيخ اليهود الموجودين في عهد الرسول ﷺ على عدم الإيمان به؛ ووجه ذلك أنهم علموا ما حلّ بأسلافهم من النكال بسبب المخالفة؛ فكان عليهم أن يكون ذلك موعظة لهم يرتدعون به عن معصية الله ورسوله.

الفلاسفة وعلى جميع التقديرات فلا امتناع في بقاء ذلك الشيء مع تطرق التغير إلى هذا الهيكل وهذا هو المسخ وبهذا التقدير يجوز في المالك الذي تكون جثته في غاية العظم أن يدخل حجرة الرسول عليه السلام.
وعن الثاني أن الأمان يحصل بإجماع الأمة، ولما ثبت بما قررنا جواز المسخ أمكن إجراء الآية على ظاهرها، ولم يكن بنا حاجة إلى التأويل الذي ذكره مجاهد رحمه الله وإن كان ما ذكره غير مستبعد جدا، لأن الإنسان إذا أصر على جهالته بعد ظهور الآيات وجلاء البينات فقد يقال في العرف الظاهر إنه حمار وقرد، وإذا كان هذا المجاز من المجازات الظاهرة المشهورة لم يكن في المصير إليه محذور ألبتة.(انظر: تفسير الرازي: ١٠٤/٢).
(١) انظر: تفسيره: ١٩١/١.
(٢) أنظر: معاني القرآن: ١!/٤٩.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٧٤):ص١٣٣/١.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(١١٤٩):ص١٧٥/٢.
(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٣٣/١.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(١١٤٦)، و(١١٤٧):ص١٧٥/٢.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(١١٥٠):ص١٧٥/٢.
(٨) تفسير الطبري:١٧٤/٢.
(٩)) لسان العرب : (خسأ) ، وروايته : " إن قيل له ".
(١٠) تفسير الطبري: ١٧٤/٢، وانظر: "تهذيب اللغة" (خسأ) ١/ ١٠٢٨، "جمهرة أمثال العرب" ٣/ ٢٣٧، "الصحاح" (خسأ) ١/ ٤٧.
(١١) لم أعثر على قائله، والبيت من شواهد الواحدي في التفسير البسيط: ٦٣٨/١.
(١٢) البيت ذكره الواحدي في تفسيره: ٦٣٩/٢، و لم أجده فيما اطلعت عليه من شعر عمران بن حطان ضمن "ديوان الخوارج" جمع نايف محمود معروف، ولا في "شعر الخوارج" لـ (إحسان عباس).
وهو عمران بن حطان من بني عمرو بن سيبان بن ذهل، كان رأس القَعدة من الصُّفْرية إحدى فرق الخوارج، وكان خطيبًا شاعرا، توفي سنة أربع وثمانين ذكر الجاحظ أخباره في "البيان والتبيين" ١/ ٤٧، والمبرد في "الكامل" ٣/ ١٦٧، وانظر: "تهذيب التهذيب" ٣/ ٣١٧.

٢. ومنها: تحريم الحيل، وأن المتحيل على المحارم لا يخرج عن العدوان؛ لقوله تعالى: {الذين اعتدوا منكم في السبت}؛ بل الحيل على فعل محرم أعظم إثماً من إتيان المحرم على وجه صريح؛ لأنه جمع بين المعصية، والخداع؛ ولهذا كان المنافقون أشد جرماً وعداوة للمؤمنين من الكفار الصرحاء؛ قال أيوب السختياني . رحمه الله . في المتحيلين: "إنهم يخادعون الله كما يخادعون الصبيان؛ ولو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون"؛ وصدق رحمه الله؛ وللحيل مفاسد كثيرة . راجع إن شئت كتاب "إغاثة اللهفان" لابن القيم . رحمه الله . وغيره.

وأنت إذا تأملت حيل اليهود في السبت، وحيلهم في بيع شحوم الميتة وقد حرمت عليهم، ثم أذابوها، وباعوها، وأكلوا ثمنها؛ وتأملت حيل بعض المسلمين اليوم على الربا وغيره. وجدت أن حيل بعض المسلمين اليوم على ما ذُكر أشد حيلة من حيل اليهود . ومع ذلك أحل الله بهم نقمته، وقد نهانا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: "لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل"[١] ؛ فالمتحيل على المحرَّم واقع فيه، ولا تنفعه الحيلة.

٣. ومن فوائد الآيتين: بيان حكمة الله في مناسبة العقوبة للذنب؛ لأن عقوبة هؤلاء المتحيلين أنهم مسخوا قردة خاسئين؛ والذنب الذي فعلوه أنهم فعلوا شيئاً صورته صورة المباح؛ ولكن حقيقته غير مباح؛ فصورة القرد شبيهة بالآدمي، ولكنه ليس بآدمي؛ وهذا؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى: {فكلًا أخذنا بذنبه} [العنكبوت: ٤٠].

٤. ومنها: بيان قدرة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {كونوا قردة خاسئين}؛ فكانوا في لحظة قردة.

القرآن

{فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)} [البقرة : ٦٦]

التفسير:

فجعلنا هذه القرية عبرة لمن بحضرتها من القرى، يبلغهم خبرها وما حلَّ بها، وعبرة لمن يعمل بعدها مثل تلك الذُّنوب، وجعلناها تذكرة للصالحين؛ ليعلموا أنهم على الحق، فيثبتوا عليه.

قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهَا} [البقرة : ٦٦]، أي "فجعلنا عقوبتنا ومسخنا إياهم"[١].

قال ابن عثيمين: أي :صيّرناها"[٢].

واختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله تعالى{فَجَعَلْنَاهَا} [البقرة : ٦٦] على ستة أقوال[٣]:

الأول: أنه يعود على القرية؛ لقوله تعالى في سورة الأعراف: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأعراف : ١٦٣]؛ فيكون مرجع الضمير مفهوماً من السياق.

والثاني: أنه يعود على العقوبة-وهي المسخة-، أي فجعلنا العقوبة؛ لقوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ(٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة :٦٥- ٦٦] ؛ فيكون المعنى: فجعلنا هذه العقوبة نكالاً. وهذا في رواية الضحاك عن ابن عباس[٤].

والثالث: أنه يعود على المسخة، لأن معنى: {كُونُوا قِرَدَةً}[البقرة:٦٥]، مسخناهم قردة، فوقعت الكناية عن الكلام المتقدم. قاله الفراء [٥].

والرابع: وقال الأخفش: أي جعلنا القردة نكالا[٦].

---

(١) قال ابن القيم: [رواه أبو عبد الله ابن بطة: "حدثنا أحمد بن سلام حدثنا الحسن بن صباح حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو"، وهذا إسناد جيد يصحح مثله الترمذي]. أهـ. إغاثة اللهفان ٥١٣/١؛ عون المعبود مع شرح ابن القيم ٣٤٠/٩.

(١) تفسير الطبري:١٧٥/٢.

(٢)انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٢٨/١.

(٣)انظر: تفسير الطبري:١٧٥/٢-١٧٦، وتفسير ابن عثيمين: ١٢٨/١.

(٤) أنظر: تفسير الطبر(١١٥١):ص١٧٥/٢.

(٥) أنظر: معاني القرآن: ٤٣/١.

(٦) انظر: تفسير الرازي: ١٠٥/٢.

والخامس: أنه يعود على الأمة التي مسخت، لأن قوله: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ}[البقرة:٦٥]، يدل على أنهم كانوا أمة وفرقة من الناس، فرجع العائد على المعنى. قاله الزجاج[١].
والسادس: أنه يعود على الحيتان. وذلك في رواية أبيّ عن ابن عباس[٢].
أي: جعلنا هذه الأمة نكالا، لأن قوله تعالى: {ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت} يدل على الأمة والجماعة أو نحوها[٣].
والصحيح أن الضمير عائد على القرية، أي : فجعل الله هذه القرية، والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم"[٤]. والله أعلم.
قوله تعالى:{نَكَالاً}[البقرة:٦٦]، "أي عقوبة زاجرة لمن يأتي بعدها من الأمم"[٥].
قال الثعلبي:"أي:" عقوبة وعبرة وفضيحة شاهرة"[٦].
قال ابن كثير:"أي : عاقبناهم عقوبة، فجعلناها،عبرة، كما قال الله عن فرعون:{فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأولَى} [النازعات : ٢٥]" [٧].
وأصل (النكال)، العقوبة[٨]، كما قال عدي بن زيد العباد [٩]:
لا يسخط الضليل ما يسع العبـ د ولا في نكاله تنكير
قال القفال: النكال: "العقوبة الغليظة الرادعة للناس عن الإقدام على مثل تلك المعصية وأصله من المنع والحبس"[١٠].
وفي قوله تعالى:{نَكَالاً}[البقرة:٦٦]، ثلاثة تأويلات[١١]:
أحدها : عقوبة، وهو قول ابن عباس[١٢]، وأبو العالية[١٣].
والثاني : عبرة ينكل بها من رآها .
والثالث : أن النكال الاشتهار بالفضيحة .
قوله تعالى:{لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا}[البقرة:٦٦]، "أي لمن يأتي بعدها من الأمم"[١٤].
قال سعيد بن جبير:" من بحضرتها يومئذ من الناس"[١٥].
وقال إسماعيل بن أبي خالد:" ما كان قبلها من الماضين في شأن السبت"[١٦].
وروي عن قتادة وعطية نحو ذلك.
وقال أبو العالية: " أي عقوبة لما خلا من ذنوبهم"[١٧]، وروي عن الربيع بن أنس، ومجاهد والسدي وقتادة في رواية معمر والحسن وعكرمة نحو ذلك[١].

---

(١) أنظر: معاني القرآن: ١٤٩/١.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(١١٥١):ص١٧٦/٢.
(٣)انظر: تفسير الرازي: ١٠٥/٢.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٩١/١.
(٥) صفوة التفاسير: ٥٦/١.
(٦) تفسير الثعلبي: ٢١٣/١.
(٧)تفسير ابن كثير: ٢٩١/١.
(٨) أنظر: تهذيب اللغة: ٤/ ٣٦٦٥، واللسان" ٨/ ٤٥٤٤، تفسير الطبري: ١٧٧/٢.
(٩) البيت في تفسير الطبري: ١٧٧/٢، ولم اجده في الكراجع التي ذكرت قصيدة عدي بن ياد التي كتبها في النعمان من محبسه.
(١٠)نقلا عن :مفاتيح الغيب: ١٠٥/٢.
(١١) أنظر: النكت والعيون: ١٣٧/١.
(١٢) أنظر: تفسير الطبر(١١٥١):ص١٧٥/٢.
(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٧٥):ص١٣٣/١.
(١٤) صفوة التفاسير: ٥٦/١.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٧٩):ص١٣٤/١.
(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٧٨):ص١٣٤/١.
(١٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٧٧):ص١٣٤/١.

قوله تعالى: {وَمَا خَلْفَهَا}[البقرة:٦٦]، "أي جعلنا مسخهم قردة عبرة لمن شهدها وعاينها"[٢].

قال عطية:" لما كان من بعدهم من بني إسرائيل، لا يعملوا فيها بمثل أعمالهم"[٣].

وفي قوله تعالى:{لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا}[البقرة:٦٦]، ثمانية تأويلات:

أحدها : ما بين يديها وما خلفها من القرى، وهذه رواية عكرمة عن ابن عباس[٤]. واختاره ابن كثير[٥].

والثاني : ما بين يديها يعني من بعدهم من الأمم، وما خلفها، الذين كانوا معهم باقين، وهذه رواية الضحاك عن ابن عباس[٦]. واختاره الطبري[٧].

والثالث : ما بين يديها، يعني من دونها، وما خلفها، يعني لمن يأتي بعدهم من الأمم، وهذا قول السدي[٨] .

والرابع : لما بين يديها من ذنوب القوم، وما خلفها للحيتان التي أصابوها، وهذا قول قتادة[٩].

والخامس : ما بين يديها: ما مضى من خطاياهم، وما خلفها : خطاياهم التي أُهْلِكُوا بها، وهذا قول مجاهد[١٠].

والسادس: ما بين يديها: الذنوب التي عملوا قبل الحيتان، وما خلفها: ما عملوا بعد الحيتان. وهذه رواية أبي عن أبيه عن ابن عباس[١١].

والسابع: ما بين يديها: عقوبة لما مضى من ذنوبهم، وما خلفهما: وعبرة لما بعدهم. قاله أبو العالية[١٢] والربيع[١٣].

والثامن: وقيل: "{لِما بَيْنَ يَدَيْها}، من عقوبة الآخرة {وَما خَلْفَها}، من نصيحتهم في دنياهم فيذكّرون بها إلى يوم قيام السّاعة"[١٤].

والقول الأول والثاني تحتملهما الآية، وإن كان الأول منهما هو الأشبه إلى الصواب، إذ أن "المراد بما بين يديها وما خلفها : من بحضرتها من القرى التي يبلغهم خبرها، وما حل بها، كما قال : {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأحقاف : ٢٧] وقال تعالى: {وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ} [الرعد : ٣١]، وقال {أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} [الأنبياء : ٤٤]، فجعلهم عبرة ونكالا لمن في زمانهم، وعبرة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال :{وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ}"[١٥].

قوله تعالى: {وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ}[البقرة:٦٦]، "أي عظةً وذكرى لكل عبدٍ صالحٍ متّقٍ لله سبحانه وتعالى"[١٦].

قال ابن عباس:" وتذكرة وعبرة للمتقين"[١٧].

وأخرج الطبري عن ابن عباس: {وموعظة للمتقين}، يقول : للمؤمنين الذين يتقون الشرك ويعملون بطاعتي"[١].

---

(١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٣٤/١، وانظر: تفسير الثعلبي:٢١٣/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٥٦/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٨٣):ص١٣٥/١.

(٤) تفسير الطبري(١١٥٦):ص١٧٨/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٦٨٠):ص١٣٤/١.

(٥)أنظر: تفسير ابن كثير: ٢٩٣/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري(١١٥٦):ص١٧٨/٢.

(٧) أنظر: تفسيره: ١٧٩/٢.

(٨) أنظر: تفسير الطبري(١١٦٢):ص١٧٨/٢.

(٩) أنظر: تفسير الطبري(١١٥٧)، و(١١٥٨):ص١٧٨/٢.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري(١١٥٩)، و(١١٦٠)، و(١١٦١):ص١٧٨/٢.

(١١) أنظر: تفسير الطبري(١١٦٣):ص١٧٩/٢.

(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٧٧) و(٦٨٠):ص١٣٤/١.

(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٣٤/١.

(١٤) تفسير الثعلبي:٢١٣/١.

(١٥) تفسير ابن كثير: ٢٩٣/١.

(١٦) صفوة التفاسير: ٥٧/١.

(١٧) أخرجه الطبري(١١٦٤):ص١٨٠/٢-١٨١.

وقال الربيع:" فكانت موعظة للمتقين خاصة"[٢]. وروي عن أبو العالية[٣] مثل ذلك.
قال الطبري:أي:" وتذكرة للمتقين، ليتعظوا بها، ويعتبروا، ويتذكروا بها"[٤].
قال الزجاج:" أي يتعظ بها أهل التقوى، فيلزمون ما هم عليه"[٥].
واختلف في المعني بقوله تعالى:{وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ}[البقرة:٦٦]، على وجهين[٦]:
الأول: المراد بهم: الذين من بعدهم إلى يوم القيامة. قاله ابن عباس[٧]، والحسن[٨]، وقتادة[٩]، وابن جريج[١٠]، وهو قول الجمهور.
والثاني: أن المراد بهم: أمة محمد ﷺ. قاله السدي[١١]، وعطية[١٢]، واختاره الثعلبي[١٣].
والقول الأول هو الصحيح، لأنه أعم، وعليه الجمهور. والله أعلم.
و"المراد بالموعظة هاهنا الزاجر، أي : جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما روي عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : " لا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ"[١٤]"[١٥].
وقال الرازي: " أما قوله تعالى: {وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ}[البقرة:٦٦]،، ففيه وجهان:
أحدهما: أن من عرف الأمر الذي نزل بهم يتعظ به ويخاف إن فعل مثل فعلهم أن ينزل به مثل ما نزل بهم، وإن لم ينزل عاجلا فلا بد من أن يخاف من العقاب الآجل الذي هو أعظم وأدوم، وأما تخصيصه المتقين بالذكر فكمثل ما بيناه في أول السورة عند قوله: {هدى للمتقين} لأنهم إذا اختصموا بالاتعاظ والانزجار والانتفاع بذلك صلح أن يخصوا به، لأنه ليس بمنفعة لغيرهم.
الثاني: أن يكون معنى قوله: {وموعظة للمتقين} أن يعظ المتقون بعضهم بعضا أي جعلناها نكالا وليعظ به بعض المتقين بعضا فتكون الموعظة مضافة إلى المتقين على معنى أنهم يتعظون بها، وهذا خاص لهم دون غير المتقين والله أعلم"[١٦].
الفوائد:
١. من فوائد الآية: إثبات القول لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين}.

---

(١) تفسير الطبري(١١٦٥):ص١٨١/٢.
(٢) تفسير الطبري(١١٧٠):ص١٨١/٢.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٨٥):ص١٣٥/١.
(٤) تفسير الطبري:٢/!٨٠.
(٥) معاني القرآن: ١٤٩/١.
(٦) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٩٣/١.
(٧) تفسير الطبري(١١٦٦):ص١٨١/٢، وابن أبي حاتم(٦٨٤):ص١٣٥/١.
(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٨٦):ص١٣٥/١.
(٩) تفسير الطبري(١١٦٧):ص١٨١/٢.
(١٠) تفسير الطبري(١١٧١):ص١٨٢/٢.
(١١) تفسير الطبري(١١٦٩):ص١٨١/٢، وابن أبي حاتم(٦٨٨):ص١٣٥/١.
(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٨٧):ص١٣٥/١.
(١٣) أنظر: تفسير الثعلبي: ٢١٣/١. ثم قال:" فلا يفعلون مثل فعلهم".
(١٤)حديث مرفوع عن أبي هريرة، أخرجه الإمام ابن بطة العكبري في إبطال الحيل - رقم(٥٦) - قال: حدثنا به أبو الحسن أحمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد الصبّاح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحديث. وانظر: الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية " (ق ٢/١١ و١٤٤ و٢). وقال ابن كثير في تفسيره (٢٩٣/١):" هذا إسناد جيد، وأحمد بن محمد مسلم هذا وثّقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي، وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح". وقال ابن القيم في تهذيب السنن (١٠٣/٥):"إسناده حسن وإسناده مما يُصحح الترمذي". وقال الإلباني في (إرواء الغليل ٣٧٥/٥):"وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات معروفون من رجال التهذيب، غير أبي الحسن أحمد بن محمد بن مسلم وهو المخرمي، كما جاء منسوباً في أكثر من موضع في كتابه الآخر الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية".
(١٥) تفسير ابن كثير: ٢٩٣/١.
(١٦) تفسير الرازي: ١٠٦/٢.

٢. ومنها: أن الذين مسخوا قردة من هذه القرية هم الذين اعتدوا في السبت؛ وأما الذين نَهَوا عن السوء فقد نجوا؛ وأما الذين سكتوا عن المعتدين، ولم يشاركوهم فقد سكت الله عنهم؛ فنسكت عنهم.
٣. ومنها: أن العقوبات فيها تنكيل لغير العامل؛ لقوله تعالى: {فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها}؛ ولهذا يقص الله علينا من نبأ المكذبين للرسل ما يكون لنا فيه عبرة، كما قال عزّ وجلّ: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} [يوسف: ١١١] .
٤. ومنها: أن الحدود الشرعية نكال للفاعل أن يعود مرة أخرى إلى هذا الذنب، ولغير الفاعل.
٥. ومنها: أن الذين ينتفعون بمثل هذه المواعظ هم المتقون.
٦. ومنها: أن المواعظ قسمان: كونية، وشرعية؛ فالموعظة هنا كونية قدرية؛ لأن الله أحل بهم العقوبة التي تكون نكالاً لما بين يديها، وما خلفها، وموعظة للمتقين؛ وأما الشرعية فمثل قوله تعالى: {يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور} [يونس: ٥٧] ؛ والمواعظ الكونية أشد تأثيراً لأصحاب القلوب القاسية؛ أما المواعظ الشرعية فهي أعظم تأثيراً في قلوب العارفين بالله اللينة قلوبهم؛ لأن انتفاع المؤمن بالشرائع أعظم من انتفاعه بالمقدورات.
٧. ومن فوائد الآيتين: أن الذين ينتفعون بالمواعظ هم المتقون؛ وأما غير المتقي فإنه لا ينتفع لا بالمواعظ الكونية، ولا بالمواعظ الشرعية؛ قد ينتفع بالمواعظ الكونية اضطراراً، وإكراهاً؛ وقد لا ينتفع؛ وقد يقول: هذه الأشياء ظواهر كونية طبيعية عادية، كما قال تعالى: {وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم} [الطور: ٤٤] ؛ وقد ينتفع، ويرجع إلى الله تعالى، كما قال تعالى: {فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجَّاهم إلى البر إذا هم يشركون} [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: {وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجَّاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختَّار كفور} [لقمان: ٣٢] .
٨. ومن فوائد الآيتين: أن من فوائد التقوى ـ وما أكثر فوائدها ـ أن المتقي يتعظ بآيات الله سبحانه وتعالى الكونية، والشرعية.
القرآن
{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)} [البقرة : ٦٧]
التفسير:
واذكروا يا بني إسرائيل جناية أسلافكم، وكثرة تعنتهم وجدالهم لموسى عليه الصلاة والسلام، حين قال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فقالوا -مستكبرين-: أتجعلنا موضعًا للسخرية والاستخفاف؟ فردَّ عليهم موسى بقوله: أستجير بالله أن أكون من المستهزئين.
قال ابن عطية:" "وسبب هذه الآية على ما روي، أن رجلا من بني إسرائيل أسنّ وكان له مال، فاستبطأ ابن أخيه موته، وقيل أخوه، وقيل ابنا عمه، وقيل ورثة كثير غير معينين، فقتله ليرثه وألقاه في سبط آخر غير سبطه، ليأخذ ديته ويلطخهم بدمه، وقيل: كانت بنو إسرائيل في قريتين متجاورتين، فألقاه إلى باب إحدى المدينتين، وهي التي لم يقتل فيها، ثم جعل يطلبه هو وسبطه حتى وجده قتيلا، فتعلق بالسبط أو بسكان المدينة التي وجد القتيل عندها، فأنكروا قتله، فوقع بين بني إسرائيل في ذلك لحاء حتى دخلوا في السلاح، فقال أهل النهي منهم: أنقتل ورسول الله معنا؟ فذهبوا إلى موسى عليه السلام فقصوا عليه القصة، وسألوه البيان، فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة فيضرب القتيل ببعضها، فيحيى ويخبر بقاتله فقال لهم: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ

تَذْبَحُوا بَقَرَةً}[البقرة:٦٧]"[١]. روي ذلك عن ابن عباس[٢]، وعبيدة[٣]، وأبي العالية[٤]، والسدي[٥]، وقتادة[٦]، ومجاهد[٧]، ووهب بن منبّه[٨]، وابن زيد[٩]، ومحمد بن كعب القرظي[١٠]، ومحمد بن قيس[١١].

قال ابن كثير:" وهذه السياقات كلها عن عبيدة وأبي العالية والسدي وغيرهم، فيها اختلاف ما، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا نصدق ولا نكذب فلهذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم"[١٢].

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ}[البقرة: ٦٧]، " أي واذكروا يا بني إسرائيل إذ قال موسى لقومه"[١٣].

قال الليث[١٤]: القوم الرجال دون النساء، ومنه قوله عز وجل: {لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ} [الحجرات: ١١] أي رجال من رجال، ثم قال: {وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ} قال زهير[١٥]:

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي   أَقَوْمٌ آل حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

وقوم كل رجل: شيعته وعشيرته"[١٦].

وقال أبو العباس: "القوم والنفر والرهط معناه الجمع، ولا واحد لها من لفظها، وهم الرجال دون النساء"[١٧].

قال الواحدي:" والمراد بالقوم هاهنا شيعة موسى وأتباعه. وقد يذكر القوم فيدخل فيه النساء كقوله: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} [نوح: ١] وكان مرسلاً إلى الإناث والذكور جميعاً، وجاز ذلك لأن الغالب من أمر النساء اتباع الأزواج فاكتفى بهم منهن لغلبتهم عليهن"[١٨].

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}[البقرة:٦٧]،

و(البقرة) واحدة البقر.

قال الأصمعي: "يقال: رأيت لبني فلان بَقَرًا وبَقِيرًا وبَاقُورَةً وبَاقِرًا وبَوَاقِرَ، كله جمع البقر، وأنشد [١٩]:

---

(١) المحرر الوجيز: ١٦١/١.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(١١٨٠):ص١٨٨/٢.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(١١٧٢):ص١٨٣/٢-١٨٥.
(٤) نقلا عن تفسير ابن كثير: ٢٩٤/١، قال ابن كثير:"رواه آدم بن أبي إياس في تفسيره".
(٥) أنظر: تفسير الطبري(١١٧٤):ص١٨٥/٢-١٨٧.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(١١٧٥):ص١٨٧/٢.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(١١٧٦)، و(١١٧٧):ص١٨٧/٢.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(١١٧٨):ص١٨٧/٢.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(١١٨١):ص١٨٨/٢-١٨٩.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(١١٨٢):ص١٨٩/٢.
(١١) أنظر: تفسير الطبري(١١٨٢):ص١٨٩/٢.
(١٢) تفسير ابن كثير: ٢٩٨/١.
(١٣) تفسير ابن عثيمين:٢٣٤/١.
(١٤)هو: الليث بن المظفر، وقيل: ابن، وقيل: ابن رافع بن يسار الخرساني، وكان بارعا في الأدب، بصيرًا بالشعر والغريب والنحو، وكان كاتبا للبرامكة. ينظر: "بغية الوعاة" ٢/ ٢٧٠، و"معجم الأدباء" ١٧/ ٤٣.
(١٥)البيت من قصيدة قالها زهير في هجاء بيت من كلب من بني عليم. ورد في "تهذيب اللغة" (قام) ٣/ ٢٨٦٣، و"مجمل اللغة" (قوم) ٢/ ٧٣٨، "المقاييس" (قوم) ٥/ ٤٣، و"المعاني الكبير" ١/ ٥٩٣، و"المخصص" ٣/ ١١٩، و"مغني اللبيب" ١/ ٤١، ١٣٩، ٢/ ٣٩٣، ٣٩٨، و"الهمع" ٢/ ٢٣٠، ٤/ ٥٤، ٣٧٦، و"معاهد التنصيص" ٣/ ١٦٥، و"اللسان" (قوم) ٦/ ٣٧٨٦، و"فتح القدير" ١/ ١٣٥.
(١٦)تهذيب اللغة" (قام) ٣/ ٢٨٦٣، وانظر: "الزاهر" ٢/ ١٦٩، "اللسان" (قوم) ٦/ ٣٧٨٦، والتفسير البسيط: ٧/٣.
(١٧) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة: عن المنذري عن أبي العباس (قام) ٣/ ٢٨٦٣، وانظر: "اللسان" (قوم) ٦/ ٣٧٨٦، والتفسير البسيط: ٧/٣.
(١٨) التفسير البسيط: ٨/٣، ونظر: الزاهر:١٧٠/٢.
(١٩)البيت لقيس بن العَيْزَارَة وشطره الأول:
فَسَكَّنْتُهُمْ بِالْقَوْلِ حَتَّى كَأَنَّهُمْ

بَوَاقِرُ جُلْحٌ أسْكَنَتْها الْمَرَاتِعُ
وقال آخر[١]:
خَلَقًا كَحَوْضِ الْبَاقِرِ الْمُتَهَدِّمِ
ويقال لجماعة البقرة: بيْقُور أيضاً، وقال أمية [٢]:
وعَالَت الْبَيْقُورَا"[٣].
وقيل في أصل (البقر) وجهين[٤]:
الأول: أن أصله من (البَقْر) الذي هو الشقّ، يقال: بقر بطنه إذا شقّه وفتحه، وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين[٥] رضي الله عنهما "الباقر"، لأنه بقر العلم وعرف أصله، أي شقه وفتحه"[٦].
والثاني: التوسع في الشيء وفتح الشيء، وفي حديث حذيفة: "فما بال هؤلاء الذين يَبْقُرونَ بيوتنا"[٧]، أي يفتحونها ويوسعونها.
ومنه قوله عليه السلام: "فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ"[٨]، والبقرة هنا هي القِدر الكبير الواسع.
قال الماوردي: "وإنما أمر -والله أعلم- بذبح البقرة دون غيرها، لأنها من جنس ما عبدوه من العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته "[٩].
قوله تعالى: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا}[البقرة:٦٧]، " أي قالوا : أ تجعلنا موضع سخرية وتهزأ بنا ؟"[١٠].

و (الجُلْح): البقر لا قرون لها، (أسكنتها المراتع): طابت أنفسها بالمرعى فسكنت. ورد البيت في "شرح أشعار الهذليين" ٢/ ٥٩٠، "تهذيب اللغة" (بقر) ١/ ٣٧٠، "مقاييس اللغة" ١/ ٢٧٨، "اللسان" (بقر) ١/ ٤٢٣، و (جلح) ٢/ ٦٥١.
(١) البيت للحارث بن خالد المخزومي، البيت بتمامه:
مَالِي رَأَيْتُكَ بَعْدَ أَهْلِكَ مُوحِشًا ... قَفْرًا كَحَوْضِ البَاقِرِ المُتَهَدِمِ
ورد البيت في "جمهرة أمثال العرب" ١/ ٢٧٠، و"تفسير الثعلبي" ١/ ٨٤ أ، والسجاوندي في ص ٥٣، و"البحر المحيط" ١/ ٢٥٤.
(٢) وتمامه:
سَلْعٌ مَّا وَمِثْلُهُ عُشَرٌ مَّا عَائِلٌ مَّا وَعَالَتِ الْبَيْقَورَا
و (السلع): نبت، و (عائل): من قولهم: عالني أثقلني، و (عالت البيقورا): أي أثقلت هذه السنة البيقور بالهزال. قال في مغني اللبيب: قال عيسى بن عمر: لا أدري ما معناه، ولا رأيت أحدا يعرفه، وقال غيره: كانوا إذا أرادوا الاستسقاء في سنة الجدب عقدوا في أذناب البقر وبين عراقيبها السَّلْع والعُشَر، وهما ضربان من الشجر، ثم أوقدوا فيها النار وصعدوا بها الجبال، ورفعوا أصواتهم بالدعاء. "مغني اللبيب" ١/ ٣١٤، وانظر: "جمهرة أمثال العرب" ١/ ٢٧٠، "تهذيب اللغة" (بقر) ١/ ٣٧٠، و (سلع) ٢/ ١٧٣٣، "الأزهية" ص ٨١، "اللسان" (بقر) ١/ ٣٢٤، و (علا) ٥/ ٣٠٩٠.
(٣) التفسير البسيط: ٩/٣. وانظر:
(٤)انظر: تهذيب اللغة" (بقر) ١/ ٣٦٩، "الصحاح" (بقر) ٢/ ٥٩٥، ومقاييس اللغة" ١/ ٢٧٧ - ٢٨٠.
(٥) هو: محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو جعفر، الباقر خامس الأئمة الاثني عشر عند الشيعة الإمامية، كان ناسكًا عابدًا، توفي سنة أربع عشرة ومائة ، وقيل: ثماني عشرة. انظر: "حلية الأولياء" ٣/ ١٨٠، "تهذيب التهذيب" ٣٠٩٠/٥.
(٦) التفسير البسيط: ٩/٣. وانظر:
(٧) أخرجه البخاري(٤٦٥٨).
(٨) أخرجه أحمد في مسنده(٢٨١٧):ص٣١٠/١. من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "لما كانت الليلة التي أسري بي فيها أتت عليّ رائحة طيبة فقلت: يا جبريل: ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، قال: قلت: وما شأنها؟ قال: بينا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقطت المدرى المشط من يديها فقالت :باسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت لا.. ولكن ربي ورب أبيك الله، قالت: أخبره بذلك؟ قالت: نعم، فأخبرته، فدعاها فقال: يا فلانة وإن لك رباً غيري؟ قالت: نعم ربي وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا، قال: ذلك لك علينا من الحق، قال: فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحداً واحداً إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مرضع وكأنها تقاعست من أجله، قال المرضع :يا أمه اقتحمي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فاقتحمت".
(٩) النكت والعيون: ١٣٧/١.
(١٠) تفسير المراغي: ١٤٣/١.

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي، أنهم عندما سمعوا قول موسى بذبح البقرة، فقالوا:"نسألك عن القتيل ومن قتله، وتقول اذبحوا بقرة، أتهزأ بنا؟"[١].

قال الثعلبي:"وإنّما قالوا ذلك لتباعد الأمرين في الظّاهر، ولم يدروا ما الحكمة فيه"[٢].

قال المراغي:" فهذا القول منهم دليل على السفه وخفّة الأحلام، وجفاء الطبع والجهل بقدرة الله تعالى"[٣].

وقال ابن عطية:" وهذا القول من بني إسرائيل ظاهره فساد اعتقاد ممن قاله، ولا يصح الإيمان ممن يقول لنبي قد ظهرت معجزاته، وقال: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، أَتَتَّخِذُنا هُزُواً، ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبي ﷺ لوجب تكفيره، وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية، على نحو ما قال القائل للنبي ﷺ في قسمة غنائم حنين: "إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله"[٤]، وكما قال له الآخر: "اعدل يا محمد"[٥]، وكلّ محتمل، والله أعلم"[٦].

و(الهزؤ): اللعب والسخرية، كما قال الراجز[٧]:

قد هزئت مني أم طيسله قالت أراه معدما لا شيء له

يعني بقوله : قد هزئت : قد سخرت ولعبت[٨].

وقرأ ابن محيصن: {أيتّخذنا}، بالياء قال: "يعنون الله، ولا يستبعد هذا من جهلهم لأنّهم الّذين قالوا: {اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ}[الأعراف:١٣٨]"[٩].

وفي قوله تعالى {هُزُوًا}[البقرة:٦٧]، ثلاثة لغات[١٠]:

أحدها: بالتخفيف والهمز، ومثله {كفؤا}، وهي قراءة الأعمش وحمزة وخلف وإسماعيل.

والثاني:{هزؤا} و{كفؤا}، مثقلان مهموزان، وهي قراءة أبي عمرو وأهل الحجاز والشام واختيار الكسائي وأبي عبيد وأبي حاتم.

والثالث: و{هزوا} و{كفوا}، مثقلان بغير همزة. في رواية حفص بن سليمان البزّاز عن عاصم.

قال الثعلبي:" وكلّها لغات صحيحة معناها الاستهزاء"[١١].

قوله تعالى:{قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ}[البقرة:٦٧]، " أي ألتجئ إلى الله"[١٢].

قال البغوي: أي:"أمتنع بالله"[١٣].

قوله تعالى:{أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ} [البقرة:٦٧]،أي" أن أكون في زمرة المستهزئين الجاهلين"[١٤].

قال الثعلبي:" أي من المستهزئين بالمؤمنين"[١].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٦٩١):ص١٣٦/١.

(٢) تفسير الثعلبي: ٢١٤/١.

(٣) تفسير المراغي: ١٤٣/١.

(٤) أخرجه البخاري(٣٢٢٤):ص١٤٤٩/٣، وأحمد في مسنده(٣٥٩٧):ص٣٨٠/١، من حديث عبدالله.

(٥) رواه أحمد(١٤٤٠٦):ص٣٥٥/٣، وابن ماجة(١٧٢):ص٦١/١. من حديث جابر بن عبدالله.

(٦) المحرر الوجيز: ١٦٢/١.

(٧) البيت لصخير بن عمير التميمي ، ويقال إن القصيدة للأصمعي نفسه. أنظر: الأصمعيات : ٥٨ ، وأمالي القالي ٢ : ٢٨٤ ، ، وانظر تحقيق ما قيل فيها في تعليق سمط اللآلي للراجكوتي : ٩٣٠ وروايتهم جميعا :

تهزأ مني أخت آل طيسله ... .

ويروى " مملقا لا شيء له " و " مبلطا " ، وكلها بمعنى واحد : فقيرا لا شيء له .

(٨) أنظر: تفسير الطبري:١٨٢/٢.

(٩) تفسير الثعلبي:٢١٤/١.

(١٠) أنظر: الحجة للقراء السبعة: ٨١-٨٢، وتفسير الثعلبي: ٢١٤/١.

(١١) تفسير الثعلبي:٢١٤/١. وفيه وجهان آخران من القراءة ذكرهما ابن عطية، أحدهما: ضم الهاء والزاي والهمزة بين بين، والثاني: بضم الهاء وتشديد الزاي «هزّا». قرأ بها أبو جعفر وشيبة".[المحرر الوجيز: ١٦١/١-١٦٢].

(١٢) تفسير المراغي: ١٤٣/١، وانظر: صفوة التفاسير: ٥٩/١.

(١٣) تفسير البغوي: ١٠٦/١.

(١٤) صفوة التفاسير: ٥٩/١.

قال الطبري:" يعني من السفهاء الذين يروون عن الله الكذب والباطل"[٢].
قال البغوي: "وقيل : من الجاهلين بالجواب لا على وفق السؤال لأن الجواب لا على وفق السؤال جهل"[٣].
قال المراغي:"أي: من الهزؤ والسخرية بالناس"[٤].
وقوله تعالى:{أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ}[البقرة:٦٧]، يحتمل معنيين[٥]:
أحدهما: الاستعاذة من الجهل في أن يخبر عن الله تعالى مستهزئا.
والثاني: الإستعاذة من الجهل كما جهلوا في قولهم {أَتَتَّخِذُنا هُزُواً}، لمن يخبرهم عن الله تعالى.
الفوائد:
١. من فوائد الآية: تعظيم الله عزّ وجلّ، حيث أسند الأمر إليه بصيغة الغائب، كقوله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} [النحل: ٩٠].
٢. ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يسلك الأسباب التي تؤدي إلى قبول الأمر، أو الخبر؛ لقوله: {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة}.
٣. ومنها: استهتار بني إسرائيل، حيث قالوا لنبيهم عليه الصلاة والسلام: {أتتخذنا هزواً} وقد أخبرهم أن الله تعالى أمرهم أن يذبحوا بقرة؛ فلم يحملوا هذا محمل الجدّ مع أن الواجب أن يحملوا هذا محمل الجدّ؛ لأنه أمر من الله عزّ وجلّ.
٤. ومنها: أن الاستهزاء بالناس من الجهل وهو الحمق، والسفه؛ لقول موسى عليه الصلاة والسلام: {أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين}.
٥. ومنها: أن جميع الخلق محتاجون إلى الله تعالى، وإلى الاعتصام به عزّ وجلّ؛ فإن موسى صلى الله عليه وسلم كان من أولي العزم من الرسل؛ ومع ذلك فهو محتاج إلى ربه تبارك وتعالى؛ لقوله تعالى: {قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين}؛ والاستعاذة لا تكون إلا بالله عزّ وجلّ؛ وقد تكون بالمخلوق فيما يقدر عليه، مثل قوله ﷺ: "فمن وجد معاذاً فليعذ به"[١] .
القرآن
{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)} [البقرة : ٦٨]
التفسير:
قالوا: ادع لنا ربَّك يوضح لنا صفة هذه البقرة، فأجابهم: إن الله يقول لكم: صفتها ألا تكون مسنَّة هَرِمة، ولا صغيرة فَتِيَّة، وإنما هي متوسطة بينهما، فسارِعوا إلى امتثال أمر ربكم.
قوله تعالى:{قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ}[البقرة:٦٨]، " أي سله لأجلنا أن يكشف لنا عن الصفات المميزة لها"[٦].
قال الصابوني:" أي ما هي هذه البقرة وأي شيء صفتها؟"[٧].
قال السعدي:" أي: ما سنها؟"[٨].
قال البيضاوي:" تكرير للسؤال الأول واستكشاف زائد"[١].

---

(١) تفسير الثعلبي: ٢١٤/١.
(٢) تفسير الطبري: ١٨٣/٢.
(٣) تفسير البغوي: ١٠٦/١.
(٤) تفسير المراغي: ١٤٣/١.
(٥) أنظر: المحرر الوجيز: ١٦٢/١.
(١) أخرجه البخاري ص٥٩٠ – ٥٩١، كتاب الفتن، باب ٩: تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، حديث رقم ٧٠٨١؛ وأخرجه مسلم ص١١٧٧ – ١١٧٨، كتاب الفتن، باب ٣: نزول الفتن كمواقع القطر، حديث رقم ٧٢٤٩ [١٢] ٢٨٨٦.
(٦) تفسير المراغي: ١٤٣/١.
(٧) صفوة التفاسير: ٥٩/١.
(٨) تفسير السعدي: ٥٤.

قال الزجاج:" وإنَّما سألوا ما هي، لأنهم لا يعلمون أن بقرةً يحيا بضرب بعضها ميت"[٢].

قال النسفي:" وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشان"[٣].

ولغة بني عامر «ادع» بكسر العين[٤].

قوله تعالى:{إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ}[البقرة:٦٨]، أي: إنها بقرة" لا مسنة ولا فتية"[٥].

قال الزجاج: "أي ليست بكبيرة ولا صغيرة"[٦].

قال الثعلبي:أي" لا كبيرة ولا صغيرة"[٧].

واختلف في معنى{الفارض}[البقرة:٦٨]، على ثلاثة أوجه[٨]:

الأول: الفارض: المسنة(الهرمة)، قاله ابن عباس[٩]، ومجاهد[١٠]، وأبو العالية[١١]، والربيع[١٢]، وقتادة[١٣]، والسدي[١٤]، وابن زيد[١٥]، والضحاك[١٦]، ووهب بن منبّه[١٧]، وعطاء الخراساني[١٨]، وبه قال جمهور أهل التفسير.

يقال منه فرضت تفرض فروضا، أي أسنت، ويقال للشيء القديم فارض، قال الراجز[١٩] :

شيب أصداغي فرأسي أبيض   محامل فيها رجال فرض

يعني هرمي، قال آخر[٢٠] :

لعمرك قد أعطيت جارك فارضا   تساق إليه ما تقوم على رجل

أي قديما، وقال آخر[٢١] :

---

(١) تفسير البيضاوي: ٨٧/١.

(٢) معاني القرآن: ١٥٠/١.

(٣) تفسير النسفي: ٦٩/١.

(٤) انظر: المحرر الوجيز: ١٦٢/١.

(٥) تفسير البيضاوي: ٨٦/١.

(٦) معاني القرآن: ١٥٠/١.

(٧) تفسير الثعلبي: ٢١٦/١.

(٨)انظر: تفسير القرطبي: ٤٤٨/١-٤٤٩.

(٩) أنظر: تفسير الطبري(١١٨٥)، و(١١٨٦)، و(١١٨٦):ص١٩١/٢.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري(١١٨٤)، و(١١٨٨):ص١٩١/٢.

(١١) أنظر: تفسير الطبري(١١٩٠):ص١٩٢/٢.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري(١١٩١):ص١٩٢/٢.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري(١١٩٢):ص١٩٢/٢.

(١٤) أنظر: تفسير الطبري(١١٩٤):ص١٩٢/٢.

(١٥) أنظر: تفسير الطبري(١١٩٥):ص١٩٢/٢.

(١٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٣٧/١.

(١٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٣٧/١.

(١٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٣٧/١.

(١٩)انظر: الصحاح للجوهري: (محافل) بالفاء وفيه رواية أخرى رواها ابن الاعرابي هي: (محامل بيض وقوم فرض) يريد أنهم ثقال كالمحامل. وانظر: اللسان مادة (فرض).

(٢٠)لبيت في تفسير القرطبي ٤٤٨/١، ومجمع البيان ١٣١/١، والرواية فيهما: (أعطيت جارك). وعزي مع آخر في البحر ٢٤٨/١ إلى خفاف بن ندبة السلمي، انظر شعره: ١٣٣. وعزي في اللسان والتاج (ف ر ض) إلى علقمة بن عوف. وهو بلا نسبة في الأفعال للسرقسطي ١٥/٤، والدرّ المصون ٤٢٠/١، والأضداد: ٣٧٦. وفي الإتقان في علوم القرآن: يساق... يقوم، وهو تصحيف

(٢١)مجالس ثعلب : ٣٦٤ ، والمعاني الكبير : ٨٥٠ ، ١١٤٣ ، والحيوان ٦ : ٦٦ - ٦٧ ، والأضداد : ٢٢ ، وكتاب القرطين ١ : ٤٤ ، ٧٧ ، واللسان) فرض (، وغيرها ، وصواب إنشاده:

يـارب مـولى حاسد مباغض   عـليّ ذي ضغن وضب فـارض

والضب : الغيظ والحقد تضمره في القلب . قروء وأقراء جمع قرء) بضم فسكون : (وهو وقت الحيض قال ابن قتيبة" : أي له أوقات تهيج فيها عداوته "، وقال الجاحظ" : كأنه ذهب إلى أن حقده يخبو ثم يستعر ، ثم يخبو ثم يستعر. "

يا رب ذي ضغن علي فارض   له قروء كقروء الحائض
والثاني: أن الفارض: لا كبيرة ولا صغيرة، قد ولدت بطنا أو بطنين. قاله مجاهد[١]، وروي عن عطية[٢] مثل ذلك.
والثالث: أن الفارض: التي قد ولدت بطونا كثيرة فيتسع جوفها لذلك، لأن معنى الفارض في اللغة الواسع، قاله بعض المتأخرين[٣].
واختلف في معنى{البكر}[البقرة:٦٨]، على وجوه:
الأول: معناه: الصغيرة التي لم تحمل. قاله ابن عباس[٤]، ومجاهد[٥]، وقتادة[٦]، وأبو العالية[٧]، والربيع[٨].
والثاني: لم تلد إلا ولدا واحدا. قاله السدي[٩].
والثالث: الأول من الأولاد، قال الكميت[١٠]:
يا بِكر بكرين ويا خلب الكبد   أصبحت مني كذراع من عضد
والرابع: البكر أيضا في إناث البهائم وبني آدم: ما لم يفتحله الفحل، وهي مكسورة الباء، وبفتحها الفتي من الإبل. قاله الطبري[١١].
قوله تعالى:{عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ}[البقرة:٦٨]، " أي وسط بين الكبيرة والصغيرة"[١٢].
قال الحسن: أي بين الهرمة والفتية"[١٣].
واختلف في معنى الـ{عوان}[البقرة: ٦٨]، على أقوال[١٤]:
أحدها: النصف التي قد ولدت بطنا أو بطنين، وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه، بخلاف الخيل، وهذه الدلالة المعني بها في الآية أي: وسط قد ولدت بطنا أو بطنين.
وهذا مذهب ابن عباس[١٥]، وأبي العالية[١٦]، ومجاهد[١٧]، والسدي[١٨]، والربيع بن أنس[١٩]، وعطاء الخراساني[٢٠]، وقتادة[١]، والضحاك[٢]، وعكرمة[٣]، وابن زيد[٤].

---

(١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٩٥):ص١٣٧/١.
(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٣٧/١.
(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٤٤٨/١-٤٤٩.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(١١٩٩):ص١٩٣/٢، وابن أبي حاتم(٦٩٦)، و(٦٩٧):ص١/!٣٧.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(١١٩٦):ص١٩٢/٢.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(١٢٠٠):ص١٩٣/٢.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(١٢٠٢):ص١٩٣/٢.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(١٢٠٣):ص١٩٣/٢.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(١٢٠٤):ص١٩٣/٢، وابن أبي حاتم(٦٩٨):ص١٣٧/١.
(١٠)أنظر: اللسان(بكر)، والصحاح(بكر)، وأمالي القالي: ٢٤/١، ولم ينسبه أحد منهم، والبيت للكميت في ديوانه:١٦٦/١.
(١١) تفسير الطبري: ١٩٢/٢.
(١٢) صفوة التفاسير: ٥٩/١.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٠٢):ص١٣٨/١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري: ١٩٣/٢-١٩٤، و المحرر الوجيز: ١٦٢/١، وتفسير القرطبي: ٤٤٨/١-٤٤٩، وتهذيب اللغة للأزهري: ٢٠٢/٣-٢٠٣،و الصحاح للجوهري: ٢١٦٨/٦، وتفسير ابن أبي حاتم: ١٣٨/١، معاني القرآن للفراء: ٤٤/١، ومعاني القرآن للزجاج: ١٢٢/١، والبسيط للواحدي-تحقيق الفوزان-: ١٠٣٥/٣-١٠٣٧، ومعالم التنزيل للبغوي: ١٠٥/١، والكشاف للزمخشري: ٢٧٦/١، والنكت والعيون للماوردي: ١٣٩/١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٣٨/١-١٣٩، والبحر المحيط لأبي حيان: ٢٥١/١، والدر المصون للسمين الحلبي: ٢٥٥/١، والمفردات للراغب الأصفهاني: ٣٥٤، وروح المعاني للألوسي: ٢٨٧/١، وغيرها.
(١٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٩٩):ص١٣٨/١، وتفسير الطبري(١٢١٠):ص١٩٥/٢.
(١٦) أنظر: تفسير الطبري(١٢١٢):ص١٩٦/٢.
(١٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٠١):ص١٣٨/١، وتفسير الطبري(١٢٠٦):ص١٩٥/٢.
(١٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٠٠):ص١٣٨/١.
(١٩) أنظر: تفسير الطبري(١٢١٣):ص١٩٦/٢.
(٢٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٣٨/١.

ومن ذلك قول الشاعر يصف فرسا [٥]:

كميت بهيم اللون ليس بفارض   ولا بعوان ذات لون مخصف

فرس أخصف : إذا ارتفع البلق من بطنه إلى جنبه.

ومنه قول الأخطل[٦]:

وما بمكة من شُمط مُحَفِّلة   وما بيثرب من عُونٍ وأبكار

وجمعها :(عون)، يقال: امرأة عوان من نسوة عون، ومنه قول تميم بن مقبل[٧]:

ومأتم كالدمي حورٍ مدامعها   لم تبأس العيش أبكارا ولا عونا

الثاني: العوان من البقرة هي التي قد ولدت مرة[٨].

الثالث: إن العوان النخلة الطويلة، وهي فيما زعموا لغة يمانية[٩].

الرابع: العوان: التي قد ولدت مرة بعد مرة، قاله مجاهد[١٠]، وحكاه أهل اللغة[١١].

ومنه حرب عوان : قد قوتل فيها مرتين فما زاد، يمثل ذلك بالمرأة التي ولدت بطنا بعد بطن، قال زهير[١٢] :

إذا لقحت حرب عوان مضرة   ضروس تهر الناس أنيابها عصل

وكذلك يقال:(حاجة عوان)، إذا كانت قد قضيت مرة بعد مرة، ومنه قول الفرزدق[١٣]:

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(١٢١٤):ص١٩٦/٢.

(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٣٨/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري(١٢٠٩):ص١٩٥/٢.

(٤) أنظر: تفسير الطبري(١٢١٦):ص١٩٦/٢.

(٥)تفسير القرطبي : ١ / ٤٤٩ ، لسان العرب : ٧ / ٢٠٤.

(٦)يوانه : ١١٩ ، وهو يخالف ما رواه الطبري ، وقبله:

إني حلفت برب الراقصات وما   أضحي بمكة من حجب وأستار

وبالهدي - إذا احمرت مذارعها   في يوم نسك وتشريق وتنحار

وما بزمزم من شمط محلقه   وما بيثرب من عون وأبكار

يعني : حلقوا رؤوسهم ، وقد تحللوا من إحرامهم وقضوا حجتهم ، والشمط جمع أشمط : وهو الذي خالط سواد شعره بياض الشيب . فإن صحت رواية الطبري"شمط مُحَفِّلَةٍ "، فكأنها من الحفيل والاحتفال : وهو الجد والاجتهاد ، يقال منه : رجل ذو حفيل ، وذو حفل وحفلة : له جد واجتهاد ومبالغة فيما أخذ فيه من الأمور . فكأنه عنى : مجتهدون في العبادة والنسك.

(٧)جمهرة أشعار العرب : ١٦٢ ، من جيد شعر تميم بن أبي بن مقبل . والمأتم عند العرب : جماعة النساء - أو الرجال - في خير أو شر . قالوا : والعامة تغلط فتظن أن"المأتم "النوح والنياحة . والدمى جمع دمية : الصورة أو التمثال ، يتنوق في صنعتها ويبالغ في تحسينها ، والعرب تكثر من تشبيه النساء بالدمي . والحور جمع حوراء . والحور أن يشتد بياض بياض العين ، وسواد سوادها ، تستدير حدقتها ، وترق جفونها ، ويبيض ما حولها . وقوله" : لم تبأس "أي لم يلحقها بؤس عيش ، أو لم تشك بؤس عيش بئس يبأس بؤسا ، فهو بائس وبئيس ، افتقر واشتد عليه البؤس . وفي الأصل المطبوع ، وفي اللسان) أتم" : (لم تيأس "بالياء المثناة ، وهو خطأ.

(٨) أنظر: البحر المحيط:٢١٠/١.

(٩) أنظر: تفسير الطبري: ٤٤٩/١.

(١٠) نقلا عن المحرر الوجيز: ١٦٢/١، والقرطبي: ٤٤٩/١. قال المحقق: وأخرج قول المجاهد الطبري: ٨٩/٢. وهذا خطأ، لأن الطبري لم يخرج عنه بهذا المعنى ولا بنحوه، وإنما أخرج عنه معنى القول الأول، فقال(١٢٠٦):ص١٩٥/٢:" ولدت بطنا أو بطنين"، وفي لفظ آخر(١٢٠٧):ص١٩٥/٢:" العانس النصف"، ولفظه الآخر(١٢٠٨):ص١٩٥/٢:"العوان:النصف"، وفي موضع آخر (١٢١٤):ص١٩٥/٢: " قد نتجت بكرة أو بكرتين".

(١١) أنظر: المحرر الوجيز: ١٦٢/١.

(١٢)شرح ديوان زهير لثعلب: ١٠٤.

(١٣)ديوان الفرزدق : ٢٢٧ ، وطبقات فحول الشعراء : ٢٥٦ ، وتاريخ الطبري : ١٣٨ ، وغيرها ، والشعر في زياد، وقبله:

دعاني زياد للعطاء ولم أكن   لأقربه ما ساق ذو حسب وفرا

وعند زياد، لو يريد عطاءهم,   رجال كثير قد يرى بهمُ فقرا

قعـود لدى الأبواب طلاب حاجة   عوانٍ من الحاجات أو حاجةً بكرا

قوله تعالى:{فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ}[البقرة:٦٨]، " أي افعلوا ما أمركم به ربكم ولا تتعنتوا ولا تشدّدوا فيشدّد الله عليكم"[١].

قال الثعلبي:"أي: من ذبح البقرة ولا تكرّروا السؤال"[٢].

قال السعدي:" واتركوا التشديد والتعنت"[٣].

الفوائد:

١. ومنها: استكبار بني إسرائيل، حيث قالوا لموسى . عليه الصلاة والسلام: {ادع لنا ربك}؛ فأمروه أمراً، ثم أضافوا ربوبية الله عزّ وجلّ إلى موسى، كأنهم متبرئون من ذلك؛ فلم يقولوا: "ادع ربنا"، أو "ادع الله"؛ ومما يدل على استكبارهم كونهم طلبوا من موسى . عليه الصلاة والسلام . أن يبين لهم ما هذه البقرة مع أن البقرة معروفة؛ وهي عند الإطلاق تشمل أيّ واحدة.

٢. ومنها: تأكيد الأمر على بني إسرائيل أن يفعلوه؛ لقوله: {فافعلوا ما تؤمرون}؛ ومع ذلك لم يمتثلوا؛ بل تعنتوا.

القرآن

{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩)} [البقرة : ٦٩]

التفسير:

فعادوا إلى جدالهم قائلين: ادع لنا ربك يوضح لنا لونها. قال: إنه يقول: إنها بقرة صفراء شديدة الصُّفْرة، تَسُرُّ مَن ينظر إليها.

قوله تعالى: {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا}[البقرة:٦٩]، "أي: ادع لنا ربك يبين لنا ما لون البقرة التي أمرتنا بذبحها"[٤].

قوله تعالى:{قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها}[البقرة:٦٩]، " أي إنها بقرة صفراء، شديدة الصفرة"[٥].

واختلف أهل التأويل في معنى قوله : {صَفْراءُ}[البقرة:٦٩]، على ثلاثة أقوال:[٦]:

أحدها: أن معناه: سوداء شديدة السواد. قاله الحسن[٧].

قال ابن عطية:" وهذا شاذ لا يستعمل مجازا إلا في الإبل"[٨].

والثاني: أن معناه: صفراء القرن والظلف. قاله سعيد بن جبير[٩]، وفي رواية أشعث عن الحسن[١٠].

والثالث:أنها صفراء اللون. قاله ابن زيد[١١].

قال الإمام الطبري : وأحسب أن الذي قال في قوله : (صفراء)، يعني به سوداء، ذهب إلى قوله في نعت الإبل السود :هذه إبل صفر، وهذه ناقة صفراء، يعني بها سوداء. وإنما قيل ذلك في الإبل لأن سوادها يضرب إلى الصفرة، ومنه قول الأعشى[١] :

ويروى : قعودا ، ورواية ابن سلام"طالب حاجة "، ونصب"أو حاجة بكرا "عطفا على محل"حاجة عوان "، فمحلها نصب بقوله" : طلاب. "

(١) صفوة التفاسير: ٥٩/١.

(٢) تفسير الثعلبي: ٢١٧/١.

(٣) تفسير السعدي: ٥٤.

(٤) تفسير الطبري: ١٩٨/٢.

(٥) صفوة التفاسير: ٥٩/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٩٩/٢-٢٠١.

(٧) أنظر: تفسير الطبري(١٢١٨)، و(١٢١٩):ص١٩٩/٢. في رواية محمد بن يوسف، وأبي رجاء.

(٨) المحرر الوجيز: ١٦٣/١.

(٩) أنظر: تفسير الطبري(١٢٢٢):ص١٩٩/٢.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري(١٢٢٠):ص١٩٩/٢.

(١١) أنظر: تفسير الطبري(١٢٢٣):ص١٩٩/٢.

تلك خيلي منه وتلك ركابي   هن صفر أولادها كالزبيب

يعني بقوله : (هن صفر)، هن سود وذلك إن وصفت الإبل به، فليس مما توصف به البقر، مع أن العرب لا تصف السواد بالفقوع، وإنما تصف السواد إذا وصفته بالشدة بالحلوكة ونحوها، فتقول : هو أسود حالك وحانك وحُلكوك، وأسود غِربيب ودَجوجي، ولا تقول : هو أسود فاقع. وإنما تقول : هو أصفر فاقع، فوصفه إياه بالفقوع، من الدليل البين على خلاف التأويل الذي تأول قوله: (إنها بقرة صفراء فاقع) المتأول، بأن معناه سوداء شديدة السواد[٢].

قوله تعالى: {فَاقِعٌ لَوْنُهَا}[البقرة:٦٩]، "يعني: خالص لونها"[٣].

قال ابن عثيمين:" ليس فيه ما يشوبه، ويخرجه عن الصفرة"[٤].

قال قتادة:" هي الصافي لونها"[٥]. وروي عن أبي العالية[٦]، والربيع[٧]، والسدي[٨]، مثل ذلك.

وأخرج الطبري عن ابن عباس:" شديدة الصفرة، تكاد من صفرتها تَبْيَضُّ. وقال أبو جعفر : أُراه أبيض!"[٩]. وروي عن ابن زيد مثل قول ابن عباس[١٠].

و(الفقوع)، في الصفر، نظير النصوع في البياض، وهو شدته وصفاؤه، ومنه قول الشاعر[١١]:

حملت عليه الوَرد حتى تركته   ذليلا يسُف الترب واللون فاقع

وقرأ الضّحاك:" {لَوْنُها}، قال الثعلبي:"نصبا كانّه عمل فيه لسببين وجعل ما صلة"[١٢].

قوله: {تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}[البقرة:٦٩]، " أي تعجب الناظرين"[١٣].

قال الطبري: أي:تعجب هذه البقرة - في حسن خلقها ومنظرها وهيئتها - الناظر إليها[١٤].

قال الصابوني:أي: من"حسن منظرها تسر كل من رآها"[١٥].

قال قتادة:" أي تعجب الناظرين"[١٦]. وروي عن السدي[١٧] مثل ذلك.

وقال وهب:" إذا نظرت إليها، يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها"[١٨].

قال الثعلبي:" تعجبهم من حسنها وصفاء لونها لأنّ العين تسر وتولع بالنظر إلى الشيء، الحسن"[١٩].

قال ابن عثيمين:" يعني ليست صفرتها صفرة توجب الغم؛ أو صفرتها مستكرهة؛ بل هي صفرة تجلب السرور لمن نظر إليها؛ فصار التضييق من ثلاثة أوجه: صفراء؛ والثاني: فاقع لونها؛ والثالث: تسر الناظرين"[٢٠].

---

(١): ٢١٩ ، والأضداد : ١٣٨ ، واللسان (صفر) ، وغيرها . من قصيدة يمدح بها أبا الأشعث قيس بن معد يكرب الكندي .
(٢) تفسير الطبري: ٢٠١/٢-٢٠١.
(٣) تفسير الطبري: ٢٠١/٢.
(٤) تفسير ابن عثيمين: ٢٣٧/١.
(٥) أخرجه الطبري(١٢٢٥):ص٢٠١/٢.
(٦) أخرجه الطبري(١٢٢٦):ص٢٠١/٢.
(٧) أخرجه الطبري(١٢٢٧):ص٢٠١/٢.
(٨) أخرجه الطبري(١٢٢٨):ص٢٠١/٢.
(٩) تفسير الطبري(١٢٢٩):ص٢٠١/٢-٢٠٢. أظنه اعترض على كلامه، أراد بأنه إذا خفت الصفرة ابيضت.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(١٢٣٠):ص٢٠٢/٢.
(١١) البيت ورد في تفسير الطبري ص: ٢٠٢/٢، ولم أتعرف على قائله. والورد فرسه.
(١٢) تفسير الثعلبي: ٢١٧/٢.
(١٣) معاني القرآن للزجاج: ١٥٢/١.
(١٤)تفسير الطبري:٢٠٢/٢.
(١٥) صفوة التفاسير: ٥٩/١.
(١٦) أخرجه الطبري(١٢٣١):ص٢٠٢/٢.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(١٢٣٣):ص٢٠٢/٢.
(١٨) أخرجه الطبري(١٢٣٢):ص٢٠٢/٢.
(١٩) تفسير الثعلبي: ٢١٧/١.
(٢٠) تفسير ابن عثيمين:٢٣٧/١.

قال السمين الحلبي:" و(السرورُ) لَذَّةٌ في القلب عند حصولِ نَفْع أو توقُّعِه، ومنه «السريرُ» الذي يُجْلَسُ عليه إذا كان لأولي النِّعمةِ، وسريرُ الميّت تشبيهاً به في الصورة وتفاؤلاً بذلك"[١].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن بني إسرائيل أرادوا أن يتقهقروا عن تنفيذ أمر الله عزّ وجلّ بقولهم: {ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها}؛ مرة أخرى.

٢. ومنها: أن الإنسان إذا لم يقبل هدى الله عزّ وجلّ من أول مرة فإنه يوشك أن يشدد الله عليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: "إن الدين يسر؛ ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه"[٢].

القرآن

{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)} [البقرة : ٧٠]

التفسير:

قال بنو إسرائيل لموسى: ادع لنا ربك يوضح لنا صفات أخرى غير ما سبق؛ لأن البقر -بهذه الصفات- كثير فاشْتَبَهَ علينا ماذا نختار؟ وإننا -إن شاء الله- لمهتدون إلى البقرة المأمور بذبحها.

قوله تعالى: {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ}[البقرة:٧٠]،أي: سله لأجلنا أن يكشف لنا" أسائمة أم عاملة"[٢].

قال ابن عثيمين: "أي من حيث العمل"[٣].

قال البيضاوي:" تكرير للسؤال الأول واستكشاف زائد"[٤].

قوله تعالى: {إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا}[البقرة:٧٠]، " أي اشتبه علينا البقرة المطلوبة"[٥].

قال البيضاوي: " أي إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا"[٦].

قال السعدي:" فلم نهتد إلى ما تريد"[٧].

قال الصابوني:" أي التبس الأمر علينا فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها"[٨].

قال ابن عثيمين:" وفي الحقيقة أنه ليس في هذا اشتباه؛ إذ ذُكر لهم أنها بقرة، وذكر لهم سنها؛ وذكر لهم لونها؛ فأين التشابه؟! لكن هذا من عنادهم، وتعنتهم، وتباطئهم في تنفيذ أمر الله"[٩].

و(البقر) جماع بقرة، وقد قرأ بعضهم : (إن الباقر)، وذلك - وإن كان في الكلام جائزا، لمجيئه في كلام العرب وأشعارها، كما قال الأعشى[١٠]:

وما ذنبه أن عافت الماء باقر   وما إن تعاف الماء إلا ليضربا

واختلفت القراءة في قوله تعالى:{إِنَّ الْبَقَرَ}[البقرة:٧٠]، على وجهين[١]:

---

(١) الدر المصون: ٤٢٦/١، وانر: تفسير النسفي: ٦٩/١.

(٢) أخرجه البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٢٩: الدين يسر، حديث رقم ٣٩.

(٢) تفسير الثعلبي: ٢١٧/١.

(٣) تفسير ابن عثيمين:٢٢٧/١.

(٤) تفسير البيضاوي: ٨٧/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين:٢٣٧/١.

(٦) تفسير البيضاوي: ٨٧/١.

(٧) تفسير السعدي: ٥٥.

(٨) صفوة التفاسير: ٥٩/١.

(٩) تفسير ابن عثيمين:٢٣٧/١.

(١٠)ديوانه : ٩٠ ، والحيوان ١ : ١٩ (وانظر أيضًا ١ : ٣٠١ ، ٦ : ١٧٤) ، واللسان (ثور) وغيرها . من قصيدة يقولها لبني قيس بن سعد ، وما كان بينه وبينهم من قطيعة بعد مواصلة ومودة ، وقبل البيت : وإني وما كلفتموني - وربكم ... ليعلم من أمسى أعق وأحربا
لكالثور ، والجِنِّيّ يضرب ظهره ... وما ذنبه إن عافت الماء مشربا
قال الجاحظ : " كانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب ، إما لكدر الماء أو لقلة العطش ، ضربوا الثور ليقتحم ، لأن البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل ، وكما تتبع أتن الوحش الحمار . وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء ، حتى تمسك البقر عن الشرب ، حتى تهلك . كأنه قال : إذا كان يضرب أبدا لأنها عافت الماء ، فكأنها إنما عافت الماء ليضرب " .

الأول: :{إِنَّ الْبَقَرَ}، وهذه قراءة العامة.
والثاني:{إن الباقر}، قرأ بها محمد ذو الشامة الأموي. وهو جمع البقر.
وقوله تعالى:{تَشَابَهَ عَلَيْنَا}[البقرة:٧٠]، في {تَشَابَهَ}، سبع قراءات:
أحدها: {تَشَابَهَ}: بفتح التاء والهاء وتخفيف الشّين، وهي قراءة العامة وهو فعل ماض ويذكر موحد.
والثاني: وقرأ الحسن: {تَشَابهُ}، بتاء مفتوحة وهاء مضمومة وتخفيف الشّين أراد تشابه.
والثالث: وقرأ الأعرج: {تَشّابهُ}: بفتح التاء وتشديد الشّين وضم الهاء، على معنى: يتشابه.
والرابع: وقرأ مجاهد: {تشبّه}، كقراءة الأعرج إلّا إنّه بغير ألف لقولهم: تحمل وتحامل.
والخامس: وفي مصحف أبيّ: {تشابهت}، على وزن تفاعلت [فالتاء] لتأنيث البقر.
والسادس: وقرأ ابن أبي إسحاق: {تشّابهت}، بتشديد الشين قال أبو حاتم: "هذا غلط لأن التاء لا تدغم في هذا الباب إلّا في المضارعة"[٢].
والسابع: وقرأ الأعمش: {متشابه علينا}،- جعله اسما.
والصواب في ذلك من القراءة: {إن البقر تَشَابَهَ علينا}، بتخفيف (شين): تشابه، ونصب (هائه)، بمعنى: تفاعل، لإجماع الحجة من القراء على تصويب ذلك، ودفعهم ما سواه من القراءات، ولا يعترض على الحجة بقول من يَجُوز عليه فيما نقل السهو والغفلة والخطأ[٣].
قوله تعالى:{وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ}[البقرة:٧٠]، "أي سنتهدي إلى معرفتها إن شاء الله"[٤].
قال الثعلبي:" إلى وصفها"[٥].
قال البيضاوي: "أي: إلى المراد ذبحها، أو إلى القاتل"[٦].
قال بعض السلف: "لو لم يقولوا: {إن شاء الله} لم يهتدوا إليها أبداً"[٧]، وهذا فيما إذا كان قصدهم تفويض الأمر إلى الله عزّ وجلّ؛ ويحتمل أن يكون قصدهم أنهم لو لم يهتدوا لاحتجوا بالمشيئة، وقالوا: "إن الله لم يشأ أن نهتدي"! وما هذا الاحتمال ببعيد عليهم"[٨].
الفوائد:
١. من فوئاد الآية: أن بني إسرائيل أرادوا أن يتقهقروا عن تنفيذ أمر الله عزّ وجلّ بقولهم: {ادع لنا ربك يبين لنا ما هي} مرة أخرى.
٢- ومنها: أهمية الاستثناء في تيسير الأمور وحصول مراد العبد، لذلك قيل "أنهم لما قرنوا بالمراجعة الأخيرة قولهما : {وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} وفقهم الله لمعرفة ما سالوا عنه ولترك التعنت"[٩].
القرآن

---

(١) أنظر: تفسير الثعلبي: ٢١٧/١.
(٢) تفسير الثعلبي: ٢١٨/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٢١١/٢.

(٤) صفوة التفاسير: ٥٩/١.
(٥) تفسير الثعلبي: ٢١٨/١.
(٦) تفسير البيضاوي: ٨٧/١.
(٧) أخرج الطبري عن ابن جريج ، قال رسول الله ﷺ : إنما أمروا بأدنى بقرة ، ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شُدد الله عليهم ؛ وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد". [تفسير الطبري(١٢٤٢):ص٢٠٥/٢].
وهو حديث مرسل لا تقوم به حجة . وأخرجه الطبري في موضع آخر عن قتادة(١٢٤٤) مرسلا . وذكر معناه ابن كثير :(٣٠٠/١)، من تفسيرى ابن أبي حاتم وابن مردويه ، بإسناديهما ، من رواية الحسن ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة ، مرفوعا: عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : "لولا أن بني إسرائيل قالوا : { وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ } ما أعطوا أبدًا ، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوا لأجزأت عنهم ، ولكنهم شددوا ، فشدد الله عليهم".
قال ابن كثير : " وهذا حديث غريب من هذا الوجه . وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة كما تقدم مثله عن السدي ".[تفسير ابن كثير: ٣٠٠/١].
(٨) تفسير ابن عثيمين:٢٣٧/١.
(٩) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٢٧/١.

{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)} [البقرة : ٧١]

التفسير:

قال لهم موسى: إن الله يقول: إنها بقرة غير مذللة للعمل في حراثة الأرض للزراعة، وغير معدة للسقي من الساقية، وخالية من العيوب جميعها، وليس فيها علامة من لون غير لون جلدها. قالوا: الآن جئت بحقيقة وصف البقرة، فاضطروا إلى ذبحها بعد طول المراوغة، وقد قاربوا ألا يفعلوا ذلك لعنادهم. وهكذا شددوا فشدَّد الله عليهم.

قوله تعالى:{قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ}[البقرة:٧١]، "أي: إنها ليست مذللة بالحراثة"[١].

قال أبو السعود:" أي لم تُذلَّلْ للكِراب وسقى الحرث"[٢].

قال الصابوني:"أي: ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض"[٣].

قال قتادة:" ليست بذلول تثير الأرض"[٤].

قال مجاهد:" ليست بذلول فتفعل ذلك"[٥].

قال الحسن:" كانت وحشية"[٦].

قال الثعلبي:أي: لا" مذلّلة بالعمل"[٧].

واختلفت اقراءة في قوله تعالى:{لا ذَلُولٌ}[البقرة:٧١]، على وجهين[٨]:

الأول: قرأ الجمهور {لا ذَلُولٌ}، بالرفع على، الصفة لبقرة.

قال الأخفش : "لا ذلول" نعته ولا يجوز نصبه"[٩].

والثاني: وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي {لا ذلولَ} بالنصب على النفي والخبر مضمر.

قال القرطبي:"ويجوز: لا هي ذلول، لا هي تسقى الحرث، هي مسلمة[١٠]. بالنصب.

واختلف في قوله تعالى{تُثِيرُ الأَرْضَ}[البقرة:٧١]، على وجهين:

الأول: قال الجمهور: بأن البقرة لا تثير الأرض، قال الحسن : "وكانت تلك البقرة وحشية ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث"[١١]. قال الإمام القرطبي: "والوقف ههنا حسن"[١٢].

٢-وقال قوم : "تثير" فعل مستأنف والمعنى إيجاب الحرث لها وأنها كانت تحرث ولا تسقي، والوقف على هذا التأويل {لا ذلول}.

والقول الأول أصح لوجهين [١٣]:

أحدهما : ما ذكره النحاس، عن علي بن سليمان أنه قال : "لا يجوز أن يكون {تثير} مستأنفا، لأن بعده {ولا تسقي الحرث}، فلو كان مستأنفا لما جمع بين الواو و{لا}"[١٤].

الثاني: أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذللتها، والله تعالى قد نفى عنها الذل بقوله : {لا ذَلُولٌ}.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣٠٠/١.
(٢) تفسير أبي السعود: ١١٢/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٥٩/١.
(٤) أخرجه الطبري(١٢٥٢):ص٢١٣/٢.
(٥) أخرجه الطبري(١٢٥٢):ص٢١٣/٢.
(٦)أخرجه الطبري(١٢٥٤):ص٢١٣/٢.
(٧) تفسير الثعلبي: ٢١٨/١.
(٨) انظر: تفسير القرطبي: ٤٥٢/١.
(٩) نقل عنه القرطبي: ٤٥٢/١، ولم أجده فلم معاني القرآن ولا الحجة للقراء السبة، ولا السبعة في القراءات.
(١٠) تفسير القرطبي: ٤٥٢/١.
(١١) تفسير القرطبي: ٤٥٣/١.
(١٢) تفسير القرطبي: ٤٥٣/١.
(١٣) أنظر: تفسير القرطبي: ٤٥٣/١.
(١٤) إعراب القرآن: ٢٣٦/١.

قال الإمام القرطبي : ويحتمل أن تكون {تُثِيرُ الأَرْضَ} في غير العمل مرحا ونشاطا، كما قال امرؤ القيس[١]:

يهيل ويذري تربه ويثيره   إثارة نباث الهواجر[٢] مخمس

أي: تثير الأرض مرحا ونشاطا لا حرثا وعملا، فعلى هذا يكون {تثير} مستأنفا، {ولا تسقي} معطوف عليه، فتأمله[٣].

و(إثارة الأرض): "تحريكها وبحثها، ومنه الحديث : "أثيروا القرآن فإنه علم الأولين والآخرين" وفي رواية أخرى : "من أراد العلم فليثور القرآن" وقد تقدم. وفي التنزيل : {وَأَثَارُوا الأَرْضَ} [الروم : ٩] أي قلبوها للزراعة. والحرث : ما حرث وزرع"[٤].

قوله تعالى:{وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ}[البقرة:٧١]، "أي ليست بساقية"[٥].

قال قتادة:" ولا تسقي الحرث"[٦].

قال ابن كثير: أي"ولا معدة للسقي في السانية، بل هي مكرمة حسنة صبيحة"[٧].

قوله تعالى: {مُسَلَّمَةٌ}[البقرة:٧١]، "أي: صحيحة لا عيب فيها"[٨].

قال أبو السعود:" أي سلَّمها الله تعالى من العيوب"[٩].

واختلف أهل التفسير في المعنى الذي سلمت منه، فوصفها الله بالسلامة منه، وذكرو فيه وجهين[١٠]:

احدهما: مسلمة من الشية، أي: لا بياض فيها ولا سواد. قاله مجاهد[١١].

والثاني: مسلمة من العيوب. قاله ابن عباس[١٢]، و قتادة[١٣]، وأبو العالية[١٤]، والربيع[١٥].

والقول الثاني هو الصحيح، "لأن سلامتها لو كانت من سائر أنواع الألوان سوى لون جلدها، لكان في قوله : {مسلمة} مُكْتَفًى عن قوله : {لا شية فيها}، وفي قوله :{لا شية فيها}، ما يوضح عن أن معنى قوله : {مُسَلَّمة}، غير معنى قوله : {لا شية فيها}"[١٦].

قوله تعالى: {لا شِيَةَ فِيهَا}[البقرة:٧١]، أي:" لا لون فيها يخالف لون جلدها"[١٧].

قال ابن كثير: "أي : ليس فيها لون غير لونها"[١٨].

قال أبو السعود:" أي لا لونَ فيها يخالف لونَ جلدِها حتى قَرْنُها وظِلْفُها"[١٩].

---

(١) ديوان امرىء القيس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦: ص ٨٧، وجمهرة اللغة:٤٢/٢، ونبات الهواجر: يعني رجل اشتد عليه حر الهاجرة، فجعل ينبت التراب، أي: يثيره ويستخرجه ليصل إلى برد الثرى، فيباشره، يدفع بذلك شدة الحر والعطش، والمخمس: الذي ترد إبله الخمس، فشبه الثور بهذا الرجل المخمس في فعله هكذا.

(٢)قوله (نبات الهواجر) يعني الرجل الذي إذا اشتد عليه الحر هال التراب ليصل إلى ثراه. والعسر: صاحب الابل التي ترد خمسا.

(٣) تفسير القرطبي: ٤٥٣/١. وانظر: الدر المصون في علم الكتاب المكنون: ٣٢٤/١.

(٤) تفسير القرطبي: ٤٥٣/١.

(٥) تفسير البغوي: ١٠٨/١.

(٦) أخرجه الطبري(١٢٥٢):ص٢١٣/٢.

(٧) تفسير ابن كثير: ٣٠٠/١.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣٠٠/١.

(٩) تفسير أبو السعود: ١١٢/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٢١٢/٢-٢١٣، وتفسير ابن كثير: ٣٠٠/١.

(١١) أنظر: تفسير الطبري(١٢٥٥)، و(١٢٥٦)، و(١٢٥٧):ص٢١٣/٢-٢١٤.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري(١٢٦٢):ص٢١٤/٢.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري(١٢٥٨):ص٢١٤/٢.

(١٤) أنظر: تفسير الطبري(١٢٦٠):ص٢١٤/٢.

(١٥) أنظر: تفسير الطبري(١٢٦١):ص٢١٤/٢.

(١٦) انظ: تفسير الطبري: ٢١٤/٢.

(١٧) تفسير الطبري:٢١٥/٢.

(١٨) تفسير ابن كثير: ٣٠٠/١.

(١٩) تفسير أبي السعود: ١١٢/١.

قال الزجاج:" أي ليس فيها لون يفارق لونها، والوَشى في اللغة خلطُ لون بلون"[١].
وأصله من: وشي الثوب، وهو تحسين عيوبه التي تكون فيه، بضروب مختلفة من ألوان سداه ولحمته، ومنه قيل للساعي بالرجل إلى السلطان أو غيره : (واش)، لكذبه عليه عنده، وتحسينه كذبه بالأباطيل، يقال منه : وشيت به إلى السلطان وشاية، ومنه قول كعب بن زهير[٢]:

تسعى الوشاة جَنَابَيْها وقولهُمُ   إنك يا ابن أبي سُلمى لمقتول

و(الوشاة) جمع (واش)، يعني أنهم يتقولون بالأباطيل، ويخبرونه أنه إن لحق بالنبي ﷺ قتله.
وقد زعم بعض أهل العربية أن (الوشي)، العلامة، وذلك لا معنى له، إلا أن يكون أراد بذلك تحسين الثوب بالأعلام، لأنه معلوم أن القائل : وشيت بفلان إلى فلان غير جائز أن يتوهم عليه أنه أراد : جعلت له عنده علامة، وإنما قيل : (لا شية فيها) وهي من " وشيت "، لأن (الواو) لما أسقطت من أولها أبدلت مكانها (الهاء) في آخرها، كما قيل : وزنته زنة و وسن سِنة و وعدته عِدة ووديته دِية[٣].
قوله تعالى: {قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ}[البقرة:٧١]، "أى بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكال في أمرها"[٤].
قال أبو السعود: " أي بحقيقة وصفِ البقرةِ بحيث ميَّزْتها عن جميع ما عداها ولم يبقَ لنا في شأنها اشتباهٌ"[٥].
واختلف في قوله تعالى: {قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ}[البقرة:٧١]، على ثلاثة أوجه[٦]:
أحدهما: الآن بينت لنا الحق، فتبيناه، وعرفنا أيّة بقرة عنيت. قاله قتادة[٧].
والثاني: يعني :"الآن عرفنا أنك لست تستهزئ؛ وإنما أنت صادق". قاله الشيخ ابن عثيمين[٨].
واستدل بأن "(الحق) هنا ضد الهزء، والباطل؛ يدل على ذلك أنهم صدروا هذه القصة بقولهم: {أتتخذنا هزواً} ؛ فبعد هذه المناقشات مع موسى، والسؤالات، وطلب الله عزّ وجلّ قالوا: الآن جئت بالحق، وعرفنا أنك لست مستهزئاً بنا؛ بل إنك جادّ فيما تقول"[٩].
الثالث: معناه :أنه حين بيّنها لهم، قالوا هذه بقرة فلان، الآن جئت بالحق فيها. قاله ابن زيد[١٠].
أي:"أنه ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن القوم أنهم نسبوا نبي الله موسى صلوات الله عليه، إلى أنه لم يكن يأتيهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك"[١١].
والقولين الأول والثاني، تحتملهما الآية، والقول الأول هو الأقرب، أي: الآن بينت لنا الحق في أمر البقرة، فعرفنا أيها الواجب علينا ذبحها منها، لأن الله جل ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم قد أطاعوه فذبحوها، بعد قيلهم هذا. مع غلظ مؤونة ذبحها عليهم، وثقل أمرها، فقال : {فذبحوها وما كادوا يفعلون}.
قال الإمام الطبري: " وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى : {الآن جئت بالحق}، ويزعم أنهم نفوا أن يكون موسى أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك من فعلهم

---

(١) معاني القرآن:١٥٢/١.
(٢)ديوانه : ١٩ ، وسيرة ابن هشام ٤ : ١٥٣ ، والروض الأنف ٢ : ٣١٤ ، والفائق (قحل) ورواية الديوان " بجنبيها " ورواية ابن هشام : " تسعى الغواة " . وقوله : " جنابيها " . والجناب : الناحية ، ويريد ناحية الجنب . يقال : " جنبيه ، وجانبيه ، وجنابيه ، . والضمير في قوله : " جنابيها " لناقته التي ذكرها قبل . وقوله : " وقولهم : إنك . . " ، حال ، أي : وهم يقولون ، والمعنى يكثرون القول عليه : إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول ، كأنهم لا يقولون غير ذلك ، ترهيبا له وتخويفا .
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٢١٥/٢-٢١٦.
(٤) الكشاف: ١٥٢/١.
(٥) تفسير أبي السعود: ١١٢/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٢١٧-٢١٨.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(١٢٧٢):ص٢١٧/٢.
(٨) أنظر: تفسير ابن عثيمين:٢٣٨/١.
(٩) تفسير ابن عثيمين:٢٣٨/١.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(١٢٧٣):ص٢١٧/٢.
(١١) تفسير الطبري:٢١٧/٢.

وقيلهم كفر، وليس الذي قال من ذلك عندنا كما قال، لأنهم أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قيلهم الذي قالوه لموسى جهلة منهم وهفوة من هفواتهم"[١].

قوله تعالى{فَذَبَحُوهَا}[البقرة:٧١]، أي: "فذبح قوم موسى البقرة "[٢].

قال الزمخشري:" أى: فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها، فذبحوها"[٣].

قال أبو السعود: "أي فحصّلوا البقرةَ فذبحوها"[٤].

قوله تعالى:{وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ}[البقرة:٧١]، أي: " وقد قاربوا أن يَدَعوا ذبحها"[٥].

وقد اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله كادوا أن يضيعوا فرض الله عليهم، في ذبح ما أمرهم بذبحه من ذلك، وذكرا فيه ثلاثة أقوال[٦]:

أحدها: أنهم كادوا ألاّ يفعلوا لغلاء ثمنها.

قاله محمد بن كعب القرظي[٧]، ومحمد بن قيس[٨]، وروي نحوه عن مجاهد[٩]، ووهب بن منبه[١٠]، ورواية أبي عن أبيه عن ابن عباس[١١]، وأبي العالية[١٢]، وعبيدة،[١٣] وابن زيد[١٤].

وروي عن السدي: قال "اشتروها بوزنها عشر مرات ذهبا، فباعهم صاحبها إياها وأخذ ثمنها"[١٥].

وعن محمد بن سيرين، عن عبيدة قال : اشتروها بملء جلدها دنانير"[١٦].

وهذا الوجه فيه نظر، "لأن كثرة ثمنها لم يثبت إلا من نقل بني إسرائيل.وفيه اختلاف،، ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك. عن عكرمة، قال : ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير وهذا إسناد جيد عن عكرمة، والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضًا"[١٧].

والثاني : وقيل:لخوف الفضيحة في ظهور القاتل. وهذا قول وهب[١٨].

والثالث: وقيل: لصغر خطرها وقلة قيمتها، كما روي ذلك عن عكرمة[١٩].

وروي عن الحسن قال:" كانت وحشية"[٢٠].

والرابع: أنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبحونها، وما كادت تنتهي سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم. قاله الزمخشري[٢١].

قلت: هذا الذي ذهب إليه الزمخشري وجه حسن، يحتمله الآية. والله أعلم.

---

(١) تفسير الطبري: ٢١٨/٢.
(٢) تفسير الطبري:٢١٨/٢.
(٣) الكشاف: ١٥٢/١.
(٤) تفسير أبي السعود: ١١٢/١.
(٥) تفسير الطبري:٢١٨/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٢١٩-٢٢٠.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(١٢٧٤):ص٢١٩/٢.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(١٢٧٦):ص٢١٩/٢.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(١٢٨٠)، و(١٢٨١):ص٢٢٠/٢.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(١٢٨٢):ص٢٢٠/٢.
(١١) أنظر: تفسير الطبري(١٢٨٣):ص٢٢٠/٢-٢٢١.
(١٢) أنظر: تفسير الطبري(١٢٨٤):ص٢٢١/٢.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري(١٢٨٥):ص٢٢١/٢.
(١٤) أنظر: تفسير الطبري(١٢٧٨):ص٢٢١/٢.
(١٥) أخرجه الطبري(١٢٧٨):ص٢٢٠/٢.
(١٦) أخرجه الطبري(١٢٧٩):ص٢٢٠/٢.
(١٧) تفسير ابن كثير: ٣٠١/١.
(١٨) أنظر: تفسير الطبري(١٢٨٩):ص ٢٢١/٢.
(١٩) أنظر: تفسير الطبري(١٢٨٨):ص ٢٢١/٢.
(٢٠)أخرجه الطبري(١٢٥٤):ص٢١٣/٢.
(٢١) الكشاف: ١٥٢/١.

وعند الإمام الطبري: العلتان الأولى والثانية صحيحتان، إحداهما غلاء ثمنها، والأخرى خوف عظيم الفضيحة على أنفسهم، بإظهار الله نبيه موسى صلوات الله عليه وأتباعه - على قاتله[١].

واعترض ابن كثير على ترجيح الإمام الطبري، قائلا: "وفي هذا نظر، بل الصواب - والله أعلم - رواية الضحاك، عن ابن عباس : كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا ألا يذبحوها، يعني أنَّهم مع هذا البيان، وهذه الأسئلة، والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها[٢].

وكان ابن عباس يقول : "إن القوم، بعد أن أحيا الله الميت فأخبرهم بقاتله، أنكرت قتلته قتله، فقالوا : والله ما قتلناه ؛ بعد أن رأوا الآية والحق"[٣].

يقول العلامة السعدي:" واعلم أن كثيرا من المفسرين رحمهم الله، قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيرا لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج "[٤]، والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيرا لكتاب الله قطعا إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: " لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ"[٥]، فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكا فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعا بها ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل"[٦].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن من شدد على نفسه شدد الله عليه . كما حصل لهؤلاء؛ فإنهم لو امتثلوا أول ما أُمِروا، فذبحوا أيّ بقرة لكفاهم؛ ولكنهم شددوا، وتعنتوا، فشدد الله عليهم؛ على أنه يمكن أن يكون تعنتهم هذا للتباطؤ في تنفيذ الأمر.

٢. ومنها: بيان ما يدل أيضاً على تعنتهم؛ وذلك أنهم طلبوا بيان هل البقرة عاملة، أو غير عاملة.

٣. ومنها: أن استعمال البقر في الحرث والسقي كان قديماً معروفاً بين الأمم، ولا يزال إلى وقتنا هذا قبل أن تظهر الآلات الحديدية.

٤. ومنها: تشديد الله عليهم، حيث أمرهم بذبح بقرة موصوفة بهذه الصفات التي يعز وجودها في بقرة واحدة؛ وذلك بأن تكون متوسطة في السن لا فارضاً ولا بكراً؛ وأن تكون صفراء فاقعاً لونها تسر الناظرين؛ وألا تكون ذلولاً تثير الأرض وتسقي الحرث؛ وأن تكون مسلَّمة ليس فيها شيء من العيوب.
وألا يخالط لونها لون آخر؛ لقوله: (لا شية فيها).

٥. ومنها: استهتار بني إسرائيل، حيث قالوا: {الآن جئت بالحق}؛ فكأنهم يقولون: الآن رضينا بوصف هذه البقرة، ثم قاموا بذبحها على مضض؛ وكل هذا يدل على استهتارهم بأوامر الله عزّ وجلّ.

٦. ومنها: تذكير بني إسرائيل بهذه النعمة التي أنعم الله بها عليهم ببيان الأمر الواقع حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم.

٧. ومنها: تأخير ذكر السبب بعد القصة، والمبادرة بذكر النعمة قبل بيان سببها.

القرآن

{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)} [البقرة : ٧٢]

التفسير:

---

(١) انظ: تفسير الطبري: ٢٢٠/٢.
(٢) تفسير ابن كثير: ٣٠١/١.
(٣) أخرجه الطبري (١٢٩٠):ص ٢٢١/٢-٢٢٢.
(٤) سنن أبي داود(٣٦٦٢):ص٣٢٢/٣، ومصنف ابن أبي شيبة(١٨٢):ص٢٣٦/٦.
(٥) صحيح البخاري(٢٥٣٩):ص٩٥٤/٢.
(٦) تفسير السعدي:٥٥-٥٦.

واذكروا إذ قتلتم نفسًا فتنازعتم بشأنها، كلٌّ يدفع عن نفسه تهمة القتل، والله مخرج ما كنتم تخفون مِن قَتْل القتيل.

قوله تعالى: {وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفْساً}[البقرة٧٢]، أي" واذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم نفسا"[١].

قال الماوردي:" يعني من قتل الإسرائيلي ؟ الذي قتله ابن أخيه"[٢].

وهذا الكلام مقدم على أول القصة، التقدير : وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها، فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا. وهذا الأسلوب كقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قِيَماً} [الكهف : ١ - ٢] أي أنزل على عبده قيما ولم يجعل له عوجا، ومثله كثير في القرآن الكريم[٣].

قوله تعالى:{فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا}[البقرة٧٢]، أي: فاختلفتم فِيها [٤].

قال الطبري:" يعني فاختلفتم وتنازعتم"[٥].

قال الزجاج: " أي تدافعتم، أي ألقى بعضكم على بَعْض"[٦].

قال مجاهد:" اختلفتم فيها"[٧].

وقال عطاء الخراساني:" اختصمتم فيها"[٨].وروي عن الضحاك مثل ذلك[٩].

وروي عن ابن جريج:" قال بعضهم : أنتم قتلتموه. وقال الآخرون : أنتم قتلتموه"[١٠].

واختلف في الأصل اللغوي لقوله {فَادَّارَأْتُم}[البقرة:٧٢]، على ثلاثة أوجه[١١]:

الأول:أن (الَّدْرءَ): العوج[١٢]، ومنه قول أبي النجم العجلي[١٣] :

خشية ضَغّام إذا هم جَسَر　　　يأكل ذا الدرء ويقصي من حقر

يعني : ذا العوج والعسر.

قال رؤبة بن العجاج[١٤]:

أدركتها قدام كل مِدْرَهِ　　　بالدفع عني درء كل عُنْجُهِ

والثاني: الدفع[١٥]؛ والمعنى: دفع ذلك بعضهم عن بعض[١٦]،قال أبو عبيد: "وهي المشاغبة والمخالفة على صاحبك"[١].

---

(١) تفسير الطبري: ٢٢٢/٢.

(٢) النكت والعيون: ١٤٢/١.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٤٥٥/١.

(٤) انظر: البخاري-فتح-: ٥٠٧/٦. وهذا القول قول ابن عباس ومجاهد والسدي، انظر تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٨/١، وجامع البيان للطبري: ٢٢٢/٢، وزاد المسير لابن الجوزي: ١٠١/١، والنكت والعيون للماوردي: ١٤٢/١. كما قال به أبو عبيدة في مجاز القرآن: ٤٥/١، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: ٥٤/١، وابن جرير في جامع البيان: ٢٢٢/٢.

(٥) تفسير الطبري: ٢٢٢/٢.

(٦) معاني القرآن: ١٥٣/١.

(٧) أخرجه الطبري(١٢٩٢):ص٢٢٥/٢.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٤٧):ص١٤٤/١.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١/!٤٤.

(١٠) أخرجه الطبري(١٢٩٤):ص٢٢٥/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٢٢٤/٢-٢٢٥.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري: ٢٢٢/٢.

(١٣) لم أجد البيت في مكان إلا تفسير الطبري:٢٢٢/٢.

(١٤)ديوانه : ١٦٦ من قصيدة يصف بها نفسه . والضمير في قوله : " أدركتها " إلى ما سبق في رجزه . وَحقّةٍ ليست بقول التره

وقوله : " حقة " ، يعني خصومة أو منافرة أو مفاخرة ، أو ما أشبه ذلك . والمدره : هو المدافع الذي يقدم عند الخصومة ، بلسان أو يد . والعنجه والعنجهي : ذو الكبر والعظمة حتى كاد يبلغ الجهل والحمق ومنه العنجهية .

(١٥) أنظر: لسان العرب:(درأ): ص٧١/١.

(١٦) وقال بعضهم معناه: تدافعتم، انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٥٣/١، والنكت والعيون للماوردي: ١٤٢/١، والدر للسمين الحلبي: ٢٦٢/١، ووضح البرهان للنيسابوري: ١٤٤/١ وغيرها، وقال الألوسي في روح المعاني: ٢٩٣/١ (فَادَّارَأْتُم فيهَا) أصله: تدارأتم من الدرء، وهو الدفع... والتدارؤ هنا إما مجازاً عن الاختلاف والاختصام أو كناية عنه؛ إذ المتخاصمان

ومنه حديث قيس بن السائب: "كان رسول الله ﷺ شريكي، فكان خير شريك لا يدارئ ولا يماري"[٢].
قال الواحدي: وكل من دفعته عنك فقد دارأته،قال أبو زبيد [٣]:
كانَ عَنِّي يردُّ دَرْؤُكَ بَعْدَ اللهِ شَغْبَ المُستَصْعَبِ المِرِّيدِ
يعني كان دفعك[٤].
وأصله: (تدارأتم)، ثم أُدغمت التاءُ في الدال وأُدخلت الألفُ لِيسلَمَ سكونُ الحرف الأول"[٥]، ومنه قول الشاعر[٦]:
تُولِي الضَّجِيعَ إذا مَا اسْتَافَهَا خَصِراً عَذْبَ المَذَاقِ إِذَا مَا اتَّابَعَ القُبَلُ
ومنه قول الله جل ثناؤه : {حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا}[الأعراف : ٣٨]، إنما هو :تداركوا، ولكن التاء منها أدغمت في الدال، فصارت دالا مشددة، وجعلت فيها ألف - إذ وصلت بكلام قبلها ليسلم الإدغام. وإذا لم يكن قبل ذلك ما يواصله، وابتدئ به، قيل : تداركوا وتثاقلوا، فأظهروا الإدغام. وقد قيل يقال : اداركوا، وادارءوا.
والثالث: التدافع، أي: فتدافعتم في القتل. من قول القائل : درأت هذا الأمر عني، ومن قول الله : {ويدرأ عنها العذاب} [النور : ٨]، بمعنى يدفع عنها العذاب.
وهذا قول قريب المعنى من القول السابق، لأن القوم إنما تدافعوا قتل قتيل، فانتفى كل فريق منهم أن يكون قاتله[٧].
وفي سبب قتله قولان[٨]:

يدفع كل منهما الآخر، أو مستعمل في حقيقته، أعني التدافع بأن طرح قتلَها كلٌ عن نفسه إلى صاحبه، فكل منهما من حيث إنه مطروح عليه يدفع الآخر من حيث إنه طارح، وقيل: إن طرح القتل في نفسه نفس طرح الصاحب، وكل من الطارحين دافع فتطارحهما تدافع، وقيل: إن كلاً منهما يدفع الآخر عن البراءة إلى التهمة، فإذا قال أحدهما: أنا بريء وأنت متهم، والآخر: بل أنت المتهم وأنا البريء، ولا يخفى أن ما ذكر-على ما فيه-بالمجاز أليق).
(١)غريب الحديث:١/ ٣٣٧، وانظر: تهذيب اللغة" (درى) ٢/ ١١٨١، والتفسير البسيط: ٥٩/٣.
(٢)لحديث أخرجه أحمد في "مسنده" عن قائد السائب عن السائب، وعن مجاهد عن السائب بن أبي السائب ٣/ ٤٢٥. وأبو داود عن قائد السائب عن السائب. "سنن أبي داود" كتاب الأدب، باب: كراهية المراء. وابن ماجه عن قائد السائب عن السائب (٢٢٨٧) كتاب: التجارة، باب: الشركة والمضاربة.
وأخرجه الطبري عن السائب، وقد تكلم شاكر في حاشية الطبري عن الحديث وبين ما في سنده من ضعف، وما في الحديث من اضطراب. "تفسير الطبري" مع "حاشية شاكر" ٢/ ٢٢٣.
والحديث أورده أبو عبيد في "الغريب" ١/ ٣٣٦، ٣٣٧. والأزهري في "تهذيب اللغة" (درى) ٢/ ١١٨١. وذكر الحديث ابن حجر في "الإصابة" وقال: (أخرجه البغوي والحسن بن سفيان وغيرهما من طريق محمد بن مسلم الطائفي عن إبراهيم بن ميسرة عن مجاهد، وأخرجه أبو بشر الدولابي في "الكنى" من هذا الوجه، لكنه قال: أبو قيس بن السائب كذا عنده، وقيس بن السائب أصح ...).
"الإصابة" ٣/ ٢٣٨. [حاشية التفسير البسيط: ٦٠/٣].
(٣)البيت من قصيدة لأبي زبيد رثى بها ابن أخته، (الشغب): تهييج الشر، و (المرّيد): مبالغة في المارد، يقول: كان دفعك عني بعد الله يرد عني شر كل مريد. ورد البيت في "غريب الحديث" لأبي عبيد ١/ ٢٠٢، "اللسان" (درأ) ٣/ ١٣٤٧، و (شغب) ٤/ ٢٢٨٣، "الخزانة" ٩/ ٧٦.
وأبو زبيد: هو حرملة بن المنذر الطائي، شاعر مشهور، أدرك الإسلام واختلف في إسلامه. انظر: "الشعر والشعراء" ص ١٨٥، و"الإصابة" ٤/ ٨٠، "الخزانة" ٤/ ١٩٢.
(٤) أنظر: اللسان(درأ):ص٧١/١.
(٥) التفسير البسيط: ٦١/٣.
(٦)لم أعرف قائله. والبيت ورد في :معاني القرآن للفراء: ١/ ٤٣٨، وتفسير الطبري" ٢/٢٢٤-٢٢٥.، و١٠/ ١٣٣، "تفسير القرطبي: ٨/ ١٤٠.
وساف الشيء يسوفه سوفا واستافه : دنا منه وشمه . واستعاره للقبلة ، كما استعاروا الشم للقبلة ، لأن دنو الأنف يسبق ما أراد المريد، و (الخصر): البارد من كل شيء، ويريد الريق.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٢/٢٢٤-٢٢٥.
(٨)انظر: تفسير القرطبي: ٤٥٥/١.

أحدهما : لابنة له حسناء احب أن يتزوجها ابن عمها فمنعه عمه، فقتله وحمله من قريته إلى قرية أخرى فألقاه هناك، وقيل : ألقاه بين قريتين[١].

الثاني : قتله طلبا لميراثه، فإنه كان فقيرا وادعى قتله على بعض الأسباط. قاله قتادة[٢]، وابن عباس[٣]، ومجاهد[٤]، محمد بن كعب القرظي[٥]، ومحمد بن قيس[٦]، وعبيدة[٧].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[البقرة:٧٢]، " أي مظهر ما تخفونه"[٨].

قال الواحدي: أي: " من أمر القتيل"[٩].

قال الطبري:"، والله معلن ما كنتم تسرونه من قتل القتيل الذي قتلتم"[١٠].

قال الزمخشري:أي:" مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتل، لا يتركه مكتوماً"[١١].

وأخرج ابن أبي حاتم "عن مجاهد:{والله مخرج ما كنتم تكتمون}، قال: ما تغيبون"[١٢].

ومعنى (الإخراج)، -هنا-:"الإظهار والإعلان لمن خفي ذلك عنه، وإطلاعهم عليه، كما قال الله تعالى ذكره : {أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}[النمل : ٢٥] يعني بذلك : يظهره ويطلعه من مخبئه بعد خفائه.. والذي كانوا يكتمونه فأخرجه، هو قتل القاتل القتيل.. حتى أظهره الله وأخرجه، فأعلن أمره لمن لا يعلم أمره"[١٣].

الفوائد:

١.من فوئاد الآية: أن بيان الأمور الخفية التي يحصل فيها الاختلاف، والنّزاع، من نعمة الله عزّ وجلّ؛ يعني مثلاً إذا اختلفنا في أمور، وكاد الأمر يتفاقم، ويصل إلى الفتنة، ثم أظهر الله ما يبينه فإن هذا من نعمة الله سبحانه وتعالى علينا؛ لأنه يزيل بذلك هذا الخلاف، وهذا النّزاع.

٢. ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يخرج ما كان يكتمه أهل الباطل، ويبينه للناس؛ لقوله تعالى: {والله مخرج ما كنتم تكتمون}؛ واذكروا قول الله تعالى: {يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً} [النساء: ١٠٨].

٣. ومنها: التحذير من أن يكتم الإنسان شيئاً لا يرضاه الله عزّ وجلّ؛ فإنه مهما يكتم الإنسان شيئاً مما لا يُرضي الله عزّ وجلّ فإن الله سوف يطلع خلقه عليه . إلا أن يعفو الله عنه .

٤. ومنها: القاتل بغير حق لا يرث من المقتول شيئًا لحديث عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول "لَيْسَ لِقَاتِلٍ شَيْءٌ"[١٤] وفي السنن الكبرى للبيهقي "ليس للقاتل من الميراث شيء"[١٥]، والحكمة في ذلك تهمة استعجال موته والقاعدة : أن من تعجل شيء قبل أوانه عوقب بحرمانه٠

واختلف العلماء في القتل المانع من الميراث على أقوال:

---

(١)انظر: تفسير القرطبي: ٤٥٥/١.

(٢) أنظر: تفسير الطبري(١٢٩٨):ص٢٢٦/٢.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(١٢٩٩):ص٢٢٦/٢.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(١٣٠٠):ص٢٢٧/٢.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(١٣٠٠):ص٢٢٧/٢.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(١٢٩٩):ص٢٢٦/٢.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(١٣٠١):ص٢٢٧/٢-٢٢٨.
(٨) صفوة التفاسير: ٥٩/١.
(٩) التفسير البسيط: ٦٣/٣.
(١٠) تفسير الطبري:٢٢٨/٢.
(١١) الكشاف: ١٥٣/١.
(١٢) تفسير ابن أبي حاتم(٧٤٨):ص١٤٤/١، وتفسير الطبري(١٣٠٣)، و(١٣٠٤):ص٢٢٩/٢.
(١٣) تفسير الطبري:٢٢٨/٢.
(١٤)رواه مالك في الموطأ وأحمد
(١٥)تيسير فقه المواريث ٤٩

القول الأول: لايرث القاتل مطلقاً ولو كان بحق كقاضٍ ومنفذ قصاص وشاهدٍ عليه ونحو ذلك وكذا لو قتله خطأً كنائمٍ ومجنون وطفلٍ أو ضربه لتأديب أو بط جرحه لمعالجة فمات فلا يرث، ومن باب أولى قاتل العمد، وهذا هو الصحيح من مذهب الشافعي(١).

القول الثاني: المانع من الإرث هو القتل بغير حق وهو المضمون بقودٍ أو ديةٍ أو كفارة كالعمد وشبه العمد والخطأ وما جرى مجرى الخطأ كقتل الصبي والمجنون والنائم فلا يرثون، وسواء كان القتل بمباشرة أو سبب مثل أن يلقي قشر موز أو بطيخ بطريق فيهلك به مورثه فلا يرثه لأنه قاتل كالمباشر أو يكون القتل بسبب جناية مضمونة من بهيمة لكونها ضارية أو لكون يده عليها، وسواء انفرد بالقتل أو شارك فيه غيره لأن شريك القاتل قاتل وكذا لو قتله بسحر فلا يرثه ولو شربت الحامل دواء فأسقطت جنينها لم ترث من الغرة شيئًا بجنايتها المضمونة، وأما القتل بحق كالقتل قصاصاً وحداً ودفعاً عن نفسه وقتل الباغي أو قصد مصلحته بسقيه دواءً أو قتل بشهادة حق من وارثه أو زكي الشاهد عليه بحق أو حكم بقتله بحق ونحو ذلك فهذا يرث وهذا مذهب الحنابلة(٢).

القول الثالث: لا يرث القاتل عمداً وأما من قتل خطأً فيرث المال لأنه لم يتعجل قتله ولا يرث من الدية لأنها واجبةٌ عليه فكيف يرث شيئاً وجب عليه وهو مذهب المالكية(٣).

القول الرابع: المانع من الإرث هو ما أوجب قصاصاً أو كفارة كالعمد وشبهه والخطأ الموجب للكفارة وهو ما باشره بنفسه كانقلاب نائم على شخصٍ فقتله أو سقط عليه من أعلى كسطح بيت فقتله فهنا لا يرث، وأما الخطأ الذي لا يوجب كفارة فلا يمنع من الميراث كقتل الصبي والمجنون أوكان القتل فيه بسببه دون مباشرته كما لو حفر بئراً فسقط فيه مورثه فمات أو وضع حجراً في الطريق فعثرت فيه دابة مورثه فسقط فمات أو نحو ذلك فهذا لا يمنع من الميراث وهو مذهب الأحناف(٤).

والراجح - والله أعلم- مذهب الحنابلة لأن الحكم بمنع من تسبب في القتل الخطأ من الميراث فيه سدٌ لذريعة القتل وطلبًا للتحرز عنه، وأما منع الشافعية للقاتل بحق من الميراث ففيه تعطيلٌ للحدود ومنعاً لإستيفاء الحقوق المشروعة كقتال الباغي ونحو ذلك(٥).

القرآن

{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)} [البقرة : ٧٣]

التفسير:

فقلنا: اضربوا القتيل بجزء من هذه البقرة المذبوحة، فإن الله سيبعثه حيًا، ويخبركم عن قاتله. فضربوه ببعضها فأحياه الله وأخبر بقاتله. كذلك يُحيي الله الموتى يوم القيامة، ويريكم- يا بني إسرائيل- معجزاته الدالة على كمال قدرته تعالى؛ لكي تتفكروا بعقولكم، فتمتنعوا عن معاصيه.

قوله تعالى: {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا}[البقرة:٧٣]، "أي اضربوا هذا القتيل ببعض هذه البقرة"(٦).

قال المراغي:" أي اضربوا المقتول ببعض البقرة.. وإنما أمرهم بالضرب ولم يضرب بنفسه نفيا للتهمة، كيلا ينسب إلى السحر والشعوذة"(٧).

واختلفوا في ذلك البعض الذي ضربوا القتيل على أقوال(٨):

أحدها: العضم الذي يلي الغضروف. قاله ابن عباس(٩).

---

(١) انظر: حفة المحتاج ٦/ ٤١٧، ونهاية المحتاج ٦/ ٢٨.
(٢) انظر: شرح منتهى الإرادات ٤/ ٦٦٣، وكشاف القناع ١٠/ ٥١٧.
(٣)الشرح الصغير ٢/ ٥١٣، وحاشية الدسوقي ٤/ ٤٨٦.
(٤) انظر: حاشية ابن عابدين ٦/ ٨٢٠ – ٨٢١. وانظر: التحقيقات المرضية في المباحث الفرضية، الشيخ صالح الفوزان:٥٤ و الوجيز للهاشم، الشيخ صالح الفوزان: ص٤٨.
(٥)التحقيقات المرضية : ٥٦.
(٦) تفسير ابن عثيمين: ٢٤٠/١.
(٧) تفسير المراغي: ١٤٥/١.
(٨) انظر: تفسير الرازي: ١١٦/٢. وتفسير الطبري: ٢٣٠/٢-٢٣١.
(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٥١):ص١٤٥/١.

والثاني: فخذها. قاله مجاهد[١]، وعكرمة[٢]، وقتادة[٣].
والثالث: وقيل: البضعة بين الكتفين. قاله السدي[٤].
والرابع: عضم من عضامها. قاله أبو العالية[٥].
والخامس: وقيل: ببعض آرابها[٦]. قاله ابن زيد[٧].

قلت: والأقرب أنهم كانوا مخيرين في أبعاض البقرة لأنهم أمروا بضرب القتيل ببعض البقرة وأي بعض من أبعاض البقرة ضربوا القتيل به، فإنهم كانوا ممتثلين لمقتضى قوله: {اضربوه ببعضها} والإتيان بالمأمور به يدل على الخروج عن العهدة على ما ثبت في أصول الفقه، وذلك يقتضي التخيير.

قال ابن عثيمين:" ولم يعين الله تعالى البعض: أهو الساق؛ أو الفخذ؛ أو الرقبة؛ أو الرأس، أو أيّ جزء من أجزائها، فليس لنا أن نعينه بجزء منها"[٨].

وقال الطبري: "لا دلالة في الآية، ولا في خبر تقوم به حجة، على أي أبعاضها التي أمر القوم أن يضربوا القتيل به. وجائز أن يكون الذي أمروا أن يضربوه به هو الفخذ، وجائز أن يكون ذلك الذنب وغضروف الكتف، وغير ذلك من أبعاضها. ولا يضر الجهل بأي ذلك ضربوا القتيل، ولا ينفع العلم به، مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها فأحياه الله"[٩].

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى}[البقرة:٧٣]، "أي مثل إحياء هذا القتيل يحيي الله عزّ وجلّ الموتى"[١٠].

قال المراغي:" أي مثل ذلك الإحياء العجيب يحيى الله الموتى يوم القيامة"[١١].

قال الحسن: "فضربوه ببعضها، فقام حيا، فقال: قتلني فلان، ثم مات، لم يزد على ذلك"[١٢].

والخطاب في قوله تعالى: : {كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى}[البقرة:٧٣]، يحتمل وجهين[١٣]:

الأول: إما أن يكون خطابا للذين حضروا حياة القتيل بمعنى وقلنا لهم : كذلك يحيى الله الموتى يوم القيامة وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ
ودلائله على أنه قادر على كل شيء {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}،
تعملون على قضية عقولكم. وأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص حتى لا تنكروا البعث.

والثاني: وإما أن يكون خطابا للمنكرين في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: {وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ}[البقرة:٧٣]، "أي يظهرها لكم حتى تروها"[١٤].

قال الطبري:" : ويريكم الله أيها الكافرون المكذبون بمحمد ﷺ، وبما جاء به من عند الله - من آياته وآياته : أعلامه وحججه الدالة على نبوته"[١٥].

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(١٣٠٥):ص٢٢٩/٢، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٤٥/١.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(١٣٠٧):ص٢٣٠/٢، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٥٢):ص١٤٥/١.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(١٣١٠):ص٢٢٩/٢، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٤٥/١.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(١٣١١):ص٢٣٠/٢.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(١٣١٢):ص٢٣١/٢.
(٦)آراب جمع إرب (بكسر فسكون) : وهو العضو ، يقال : قطعه إربا إربا ، أي عضوا عضوا .
(٧) أنظر: تفسير الطبري(١٣١٣):ص٢٣١/٢.
(٨) تفسير ابن عثيمين:٢٤٠/١.
(٩) تفسير الطبري: ٢٣١/٢.
(١٠) تفسير ابن عثيمين:٢٤٠/١.
(١١) تفسير المراغي: ١٤٥/١.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٥٤):ص١٤٥/١.
(١٣) أنظر: تفسير الكشاف: ١٥٣/١.
(١٤) تفسير ابن عثيمين:٢٤٠/١.
(١٥) تفسير الطبري: ٢٣٣/٢.

قال ابن عثيمين:" والمراد بـ "الآيات" هنا الآيات الكونية؛ لأنها إحياء ميت بضربه بجزء من أجزاء هذه البقرة؛ ويحتمل أن يكون المراد آياته الشرعية أيضاً؛ لأن موسى- عليه الصلاة والسلام- أمرهم بذلك؛ فضربوا الميت ببعض هذه البقرة؛ فصار ذلك مصداقاً لقول موسى. عليه الصلاة والسلام"[١].

قوله تعالى:{لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[البقرة:٧٣]، أي لأجل أن تعقلوا عن الله تعالى آياته، وتفهموها"[٢].

قال القاسمي: أي:" على رجاء من أن يحصل لكم عقل، فيرشدكم إلى اعتقاد البعث وغيره، مما تخبر به الرسل عن الله تعالى"[٣].

قال الطبري:" لتعقلوا وتفهموا أنه محق صادق، فتؤمنوا به وتتبعوه"[٤].

قال الصابوني:" لتتفكروا وتتدبروا وتعلموا أن الله على كل شيء قدير"[٥].

قال المراغي:" أي لعلكم تفقهون أسرار الشريعة وفائدة الخضوع لها، وتمنعون أنفسكم من اتباع أهوائها، وتطيعون الله فيما يأمركم به"[٦].

قال البغوي: "قيل: تمنعون أنفسكم من المعاصي"[٧].

وقال الواحدي:" أي لعلكم تمتنعون من عصيانه"[٨].

وذكر الآلوسي في قوله تعالى{لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[البقرة:٧٣]: ثلاة أوجه[٩]:

الأول: لكي تعقلوا الحياة بعد الموت والبعث والحشر، فإن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها، لعدم الاختصاص، قال تعالى: {ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ}[لقمان: ٢٨].

والثاني: لكي يكمل عقلكم.

والثالث: لعلكم تمتنعون من عصيانه وتعملون على قضية عقولكم.

قال ابن عثيمين:" والعقل هو ما يحجز الإنسان عن فعل ما لا ينبغي؛ وهو خلاف الذكاء؛ الذكاء هو سرعة البديهة، والفهم؛ وقد يكون الإنسان ذكياً، ولكنه ليس بعاقل"[١٠].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن قول الرسول قول لمرسله إذا كان بأمره؛ لقوله تعالى: {فقلنا اضربوه ببعضها}.

٢. منها: أن البعض الذي ضرب به هذا القتيل من البقرة غير معلوم؛ لقوله تعالى: {ببعضها}؛ فقد أبهمه الله؛ ومحاولة بعض المفسرين أن يعينوه محاولة ليس لها داع؛ لأن المقصود الآية.

٣. ومنها: أنه ينبغي لطالب العلم أن يعتني بمعنى القصة، وغرضها دون من وقعت عليه؛ لقوله تعالى: {ببعضها}؛ ولم يعين لهم ذلك توسعة عليهم؛ ليحصل المقصود بأيّ جزء منها؛ ولهذا نرى أنه من التكلف ما يفعله بعض الناس إذا سمع حديثاً أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله.." كذا وكذا؛ تجد بعض الناس يتعب، ويتكلف في تعيين هذا الرجل؛ وهذا ليس بلازم؛ المهم معنى القصة، وموضوعها؛ أما أن تعرف من هذا الرجل؟ من هذا الأعرابي؟ ما هذه الناقة مثلاً؟ ما هذا البعير؟ فليس بلازم؛ إذ إن المقصود في الأمور معانيها، وأغراضها، وما توصل إليه؛ فلا يضر الإبهام . اللهم إلا أن يتوقف فهم المعنى على التعيين.

٤. ومن فوائد الآية: أن المبهم في أمور متعددة أيسر على المكلف من المعين؛ وذلك إذا كانوا قد أمروا أن يضربوه ببعضها فقط؛ فإذا قيل لك: "افعل بعض هذه الأشياء" يكون أسهل مما إذا قيل لك: "افعل هذا الشيء بعينه"؛ فيكون في هذا توسعة على العباد إذا خيروا في أمور متعددة . والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن عثيمين:٢٤٠/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٢٤٠/١.
(٣) محاسن التأويل: ٣٢٨/١.
(٤) تفسير الطبري: ٢٣٣/٢.
(٥) صفوة التفاسير: ٥٩/١.
(٦) تفسير المراغي: ١٤٥/١.
(٧) تفسير البغوي: ١٠٩/١.
(٨) البحر المحيط: ٢٢٢/١.
(٩) أنظر: روح المعاني: ٢٩٤/١.
(١٠) تفسير ابن عثيمين:٢٤٠/١.

٥. ومنها: أن هذه الآية من آيات الله عزّ وجلّ . وهي أن تكون البقرة سبباً لحياة هذا القتيل؛ إذ لا رابطة في المعقول بين أن تُذبح البقرة، ويضرب القتيل ببعضها، فيحيى.

القرآن

{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)} [البقرة : ٧٤]

التفسير:

ولكنكم لم تنتفعوا بذلك؛ إذ بعد كل هذه المعجزات الخارقة اشتدت قلوبكم وغلظت، فلم يَنْفُذ إليها خير، ولم تَلِنْ أمام الآيات الباهرة التي أريتكموها، حتى صارت قلوبكم مثل الحجارة الصمَّاء، بل هي أشد منها غلظة؛ لأن من الحجارة ما يتسع وينفرج حتى تنصبَّ منه المياه صبًا، فتصير أنهارًا جاريةً، ومن الحجارة ما يتصدع فينشق، فتخرج منه العيون والينابيع، ومن الحجارة ما يسقط من أعالي الجبال مِن خشية الله تعالى وتعظيمه. وما الله بغافل عما تعملون.

قوله تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ}[البقرة:٧٤]، " أي: اشتدت وغلظت، فلم تؤثر فيها الموعظة"[١].

قال أبو العالية:" يعني به بني إسرائيل"[٢]. وروي عن ابن عباس[٣] مثل ذلك.

قال الصابوني: "أي صلبت قلوبهم يا معشر اليهود فلا يؤثر فيها وعظٌ ولا تذكير"[٤].

قال ابن عطية:" أي صلبت وجفت، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى"[٥].

قال البيضاوي:" القساوة عبارة عن الغلظ مع الصلابة، كما في الحجر. وقساوة القلب مثل في نبوه عن الاعتبار"[٦].

قال الزمخشري:" وصفة القلوب بالقسوة والغلظ، مثل لنبوّها عن الاعتبار وأنّ المواعظ لا تؤثر فيها"[٧].

وفي المشار إليهم بها في قوله تعالى:{قُلُوبُكُمْ}[البقرة:٧٤]، قولان[٨]:

احدهما: جميع بني اسرائيل. وهو الظاهر.

والثاني: القاتل. قال ابن عباس: " أنكرت قتلته قتله، فقالوا : والله ما قتلناه ؛ بعد أن رأوا الآية والحق"[٩].

قوله تعالى: {مِّن بَعْدِ ذلك}[البقرة:٧٤]، "أي من بعد رؤية المعجزات الباهرة"[١٠].

قال قتادة:" من بعد ما أراهم ما أحيا من الموتى، ومن بعد ما أراهم من أمر القتيل ما أراهم"[١١].

قال البيضاوي:" يعني إحياء القتيل، أو جميع ما عدد من الآيات فإنها مما توجب لين القلب"[١٢].

قال السعدي:" أي: من بعد ما أنعم عليكم بالنعم العظيمة وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم، لأن ما شاهدتم، مما يوجب رقة القلب وانقياده"[١٣].

وقوله تعالى: {مِّن بَعْدِ ذلك}[البقرة:٧٤]، يحتمل وجهين من التفسير[١٤]:

الأول: أن{ذلِكَ}، إشارة إلى إحياء القتيل. فيكون الخطاب لجميع بني اسرائيل. قاله قتادة[١].

---

(١) تفسير السعدي: ٥٥.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٥٥):ص١٤٦/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٥٦):ص١٤٦/١.
(٤) صفوة التفاسير: ٥٩/١.
(٥) المحرر الوجيز: ١٦٦/١.
(٦) تفسير البيضاوي: ٨٨/١.
(٧) الكشاف: ١٥٥/١.
(٨) انظر: زاد المسير: ١٠٢/١.
(٩) أخرجه الطبري(١٢٩٠):ص٢٢٢/٢.
(١٠) صفوة التفاسير: ٥٩/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٥٧):ص١٤٦/١.
(١٢) تفسير البيضاوي: ٨٨/١.
(١٣) تفسير السعدي: ٥٥.
(١٤) أنظر: الكشاف: ١٥٥/١، وزاد المسير: ١٠٣/١.

والثاني: أنه اشارة الى كلام القتيل، فيكون الخطاب للقاتل.
والثاني: أنه اشارة إلى جميع ما تقدّم من الآيات المعدودة، من مسخ القردة والخنازير ورفع الجبل وانبجاس الماء وإحياء القتيل.

قوله تعالى: {فَهِيَ كالحجارة}[البقرة:٧٤]، أي:" فهي في قسوتها مثل الحجارة"[٢].

قال البيضاوي: أي:" أنها في القساوة مثل الحجارة"[٣].

قال الصابوني: "أي: بعضها كالحجارة"[٤].

والحَجَر: "الجوهر الصلب المعروف، وجمعه: أحجار وحِجَارَة"[٥].

قوله تعالى:{أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}[البقرة:٧٤]، أي: "وبعضها أشد قسوة من الحجارة"[٦].

قال البيضاوي:" أو أزيد عليها"[٧].

قال السعدي:" أي: إنها لا تقصر عن قساوة الأحجار"[٨].

قال ابن عباس:" وقست قلوبهم بعد ذلك، حتى كانت كالحجارة أو أشد قسوة"[٩].

وقرأ أبو حياة: {أو أشد قساوة}[١٠]، وقال الكسائي:" القسوة والقساوة واحد كالشقوة والشّقاوة"[١١].

وفي قراءة الأعمش{أشدَّ}، بنصبِ (الدال)، عطفاً على الحجارة[١٢].

قوله تعالى{أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}[البقرة:٧٤]، ذكروا في {أو}، من التأويل الصحيح وجوه[١٣]:
أحدها: أنها على جهة الإبهام على المخاطب.

فقالوا: إنما أراد الله جل ثناؤه بقوله : {فهي كالحجارة أو أشد قسوة}، وما أشبه ذلك من الأخبار التي تأتي ب(أو)، كقوله : {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}[الصافات : ١٤٧]، وكقول الله جل ذكره :{وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [سبأ : ٢٤] الإبهام على من خاطبه، فهو عالم أي ذلك كان، قالوا : ونظير ذلك قول القائل : أكلت بسرة أو رطبة، وهو عالم أي ذلك أكل، ولكنه أبهم على المخاطب، كما قال أبو الأسود الدؤلي[١٤]:

أُحِبُّ محمداً حُبَّاً شديداً   وعَبَّاساً وحمزةَ أو عَلِيَّا
فإن يك حبهم رشدا أصبه   ولست بمخطئ إن كان غيا

قالوا : ولم يشك أبو الأسود، وإنما قصد الإبهام على السامع، وقد ذكر عن أبي الأسود أنه لما قال هذه الأبيات قيل له : شككت! فقال : كلا والله! ثم انتزع بقول الله عز وجل : {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}[السبأ:٢٤][١٥]، فقال : أَوَ كان شاكا من أخبر بهذا في الهادي من الضلال.

قال السمين الحلبي:" وإنما قَصَد رحمه الله الإبهامَ على المخاطب"[١٦].

---

(١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٥٧)، و(٧٥٨):ص١٤٦/١.
(٢) الكشاف: ١٥٥/١.
(٣) تفسير البيضاوي: ٨٨/١.
(٤) صفوة التفاسير: ٥٩/١.
(٥) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني: ٢٢٠.
(٦) صفوة التفاسير: ٥٩/١.
(٧) تفسير البيضاوي: ٨٨/١.
(٨) تفسير السعدي: ٥٥.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٥٩):ص١٤٦/١.
(١٠) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٢١/١، والكشاف: ١٥٥/١.
(١١) تفسير الثعلبي: ٢٢١/١.
(١٢) أنظر: الدر المصون: ٤٣٧/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٥/٢-٢٣٨، والمحرر الوجيز: ١٦٦/١، ومفاتيح الغيب: ١١٩/٢.
(١٤" ديوانه : ٣٢ (من نفائس المخطوطات)، وفيه(ووصيا)، وانظر: الأغاني ١١ : ١١٣ ، وإنباه الرواة ١ : ١٧.
(١٥) قال ابن عطية:" وهذه الآية مفارقة لبيت أبي الأسود، ولا يتم معنى الآية إلا ب «أو»".[المحرر الوجيز: ١٦٦/١].
(١٦) الدر المصون: ٤٣٦/١.

والثاني: وقيل: إنما أراد الله تعالى أن فيهم من قلبه كالحجر، وفيهم من قلبه أشد من الحجر، فالمعنى فهي فرقتان كالحجارة أو أشد، ومثل هذا قولك: أطعمتك الحلو أو الحامض، تريد أنه لم يخرج ما أطعمته عن هذين[١].

والثالث: أن (أو) هنا تفيد معنى الإباحة. قاله الزجاج[٢].

أي: "شبهوها بالحجارة تصيبوا، أو بأشد من الحجارة تصيبوا"[٣].

والرابع: أنها بمعنى (الواو)، أي: وأشد قسوة، كما قال تبارك وتعالى: {ولا تطع منهم آثما أو كفورا} [الإنسان : ٢٤] بمعنى : وكفورا .

ومنه قول جرير بن عطية[٤] :

نَالَ الْخِلافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدَرًا   كَمَا أَتَى رَبَّه مُوسَى عَلَى قَدَرِ

يعني : نال الخلافة، وكانت له قدرا، وكما قال النابغة[٥] :

قالت : ألا ليتما هذا الحمام لنا   إلى حمامتنا أو نصفه فقد

يريد ونصفه.

قال الزجاج: "ولا يصلح أن تكون (أو) ههنا بمعنى الواو"[٦].

والخامس:أن (أو) في هذا الموضع بمعنى (بل) للإضراب، اختاره الثعلبي[٧]، وابن عاشور[٨].

فكان تأويله عندهم : فهي كالحجارة بل أشد قسوة، كما قال جل ثناؤه : {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [الصافات : ١٤٧]، بمعنى : بل يزيدون[٩].

ومنه قول الشاعر[١٠]:

فو الله ما أدري أسلمى تغولت   أم القوم أو كلٌ إلي حبيب

قالوا: أراد بل كل[١١].

ومنه قول الآخر[١٢]:

مثل قرن الشمس في رونق الضحى   وصورتها أو أنت في العين أملح

أي: بل أنت في العين أملح[١٣].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١٦٦/١.

(٢) أنظر: معاني القرآن: ١٥٦/١، ثم قال:" تقول: الذين ينبغي أن يؤخذ عنهم العلم الحسن أو ابن سيرين. فلست بشاك، وإنما المعنى ههنا: هذان أهل أن يؤخذ عنهما العلم، فإن أخذته عن الحسن فأنت مصيب، وإن أخذته عن ابن سيرين فأنت مصيب، وإن أخذته عنهما جميعاً فأنت مصيب، فالتأويل اعلموا أن قلوب هُؤلاء إن شبهتم قسوتها بالحجارة فأنتم مصيبون، أو بما هو أشد، فأنتم مصيبون، ومنه قوله تعالى: {مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً . . أوكَصَيِّبٍ}، أي إن مثَلْتَهمْ بالمستوقد فذلك مثلهم، وإن مثلتهم بالصَيِّبِ فهو لهم مثلٌ".

(٣) المحرر الوجيز: ١٦٦/١.

(٤)ديوانه : ٢٧٥، وأمالي الشجري ١ : ٣١٧ ، يقولها في أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز . وروايته " إذ كانت " ، وفي المطبوعة : " جاء الخلافة " ، وهي رواية سقيمة .

(٥" ديوانه : ٣٢ ، وروايته هناك " ونصفه " . وهو من قصيدته المشهورة التي يعتذر فيها إلى النعمان . والضمير في قوله : " قالت " إلى " فتاة الحي ، المذكورة في شعر قبله ، وهي زرقاء اليمامة . وهو خبر مشهور ، لا نطيل بذكره .

(٦) معاني القرآن: ١٥٦/١.

(٧) أنظر: تفسير الثعلبي: ٢٢١/١.

(٨) أنظر: التحرير والتنوير: ٥٦٣/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري:٢٣٧/٢.

(١٠)لم أعرف قائله، ورد البيت في : معاني القرآن للفراء ١ : ٧٢ ، واللسان (أمم) ، والصاحبي : ٩٨

(١١) انظر: مفاتيح الغيب:: ١١٩/٢.

(١٢) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الثعلبي في تفسيره: ٢٢١/١، ومجمع البيان: ٢٨١/١، ونسبه ابن عاشور في الحرير والتنوير: ٥٦٤/١، لذي الرمة.

(١٣) أنظر: تفسير الثعلبي: ٢٢١/١.

والسادس: أنها على بابها في الشك. ومعناه: عندكم أيها المخاطبون وفي نظركم، أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم أهي كالحجارة أو أشد من الحجارة[١].
والسابع: أن (أو) للتنويع[٢]. اختاره الواحدي[٣].
أي: "وكأن قلوبهم على قسمين : قلوب كالحجارة قسوة، وقلوب أشدّ قسوة من الحجارة"[٤].
قلت: لكل ما قيل من الأقوال السابقة وجه ومخرج من كلام العرب، بعد الإجماع على استحالة كونها للشكّ. والله أعلم بما أراد في كتابه.
وأما الرفع في قوله : قوله تعالى{أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}[البقرة:٧٤]، فمن وجهين[٥]:
أحدهما : أن يكون عطفا على معنى (الكاف) في قوله : {كالحجارة}، لأن معناها الرفع، فيكون المعنى: فهي مثل الحجارة أو أشد قسوة من الحجارة.
والوجه الآخر : أن يكون مرفوعا، على معنى تكرير (هي) عليه، فيكون تأويل ذلك: فهي كالحجارة، أو هي أشد قسوة من الحجارة".
وقد ذكروا بأن وصف الله تعالى تلك القلوب بأنها أشد قسوة لوجوه[٦]:
أحدها: أن الحجارة لو كانت عاقلة ولقيتها هذه الآية لقبلتها، كما قال: {لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله} [الحشر: ٢١].
وثانيها: أن الحجارة ليس فيها امتناع مما يحدث فيها بأمر الله تعالى، وإن كانت قاسية بل هي منصرفة على مراد الله غير ممتنعة من تسخيره، وهؤلاء اليهود مع ما وصفنا من أحوالهم في اتصال الآيات عندهم وتتابع النعم من الله عليهم يمتنعون من طاعته ولا تلين قلوبهم لمعرفة حقه وهو كقوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ} (الأنعام:٣٨- ٣٩)؛ كأن المعنى أن الحيوانات من غير بني آدم أممٌ سُخِّر كل واحد منها لشيء وهو منقاد لما أريد منه وهؤلاء الكفار يمتنعون عما أراد الله منهم.
وثالثها: أو أشد قسوة، لأن الأحجار يُنتفع بها من بعض الوجوه، ويظهر منها الماء في بعض الأحوال، أما قلوب هؤلاء فلا نفع فيها البتة ولا تلين لطاعة الله بوجه من الوجوه.
وقال تعالى: {أشد قسوة} ولم يقل (أقسى)، لوجهين[٧]:
الأول: لأن ذلك أدل على فرط القسوة.
والثاني: ووجهٌ آخر وهو أن لا يقصد معنى الأقسى، ولكن قصد وصف القسوة بالشدة كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة وقلوبهم أشد قسوة.
وقد فضل الله سبحانه وتعالى الحجارة على قلوبهم، بأن بين أن الحجارة قد يحصل منها ثلاثة أنواع من المنافع، ولا يوجد في قلوب هؤلاء شيء من المنافع[٨]:
فأولها: قوله تعالى: {وإن من الحجارة لما يتفجر منه الانهار}، قرىء: "وإن" بالتخفيف وهي إن المخففة من الثقيلة التي تلزمها اللام الفارقة، ومنها قوله تعالى: {وإن كل لما جميع لدينا محضرون} [يس: ٣٢].
وثانيها: قوله تعالى: {وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء}، أي من الحجارة لما ينصدع فيخرج منه الماء فيكون عينا لا نهرا جاريا.
وثالثها: من المميزات الأخرى للحجارة على قلوب هؤلاء: {وإن منها لما يهبط من خشية الله}، وقوله تعالى:{وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}.أي الهبوط من خشية الله[١].

---

(١) أنظر: المحرر الوجيز: ١٦٦/١.
(٢) أنظر: البحر المحيط: ٢٢٣/١.
(٣) أنظر: البحر المحيط: ٢٢٣/١.
(٤) البحر المحيط: ٢٢٣/١.
(٥) أنظر: تفسير الطبري:٢٣٧/٢.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب: ١١٩/٢.
(٧) أنظر: مفاتيح الغيب: ٥٥٦/٣.
(٨) انظر: مفاتيح الغيب: ٥٥٦/٣.

قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ}[البقرة:٧٤]، " يعني إن بعض الحجارة تتفجر منها الأنهار"[٢].

قال الطبري:أي"وإن من الحجارة حجارة يتفجر منها الماء الذي تكون منه الأنهار"[٣].

قال الماوردي:" يعني: أن من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم القاسية، لِتَفَجّرِ الأنهار منها"[٤].

قال الزمخشري:" المعنى: إنّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير الغزير"[٥].

قال أبو السعود:" بيانٌ لأشَدِّيةِ قلوبِهم من الحجارة في القساوة وعدمِ التأثر واستحالةِ صدورِ الخيرِ منها يعني أن الحجارةَ ربما تتأثر حيث يكون منها ما يتفجر منه المياهُ العظيمة"[٦].

وقال يحيى بن يعقوب في قوله تعالى:{وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار}، قال: هو كثرة البكاء"[٧].

قلت: ولا يخفى ما في هذا الوجه من البعد والتكلف، مع تسليمنا بصدق ما يتضمنه من معان نفيسة. والله أعلم.

و(التفجر) :التفعل، من :تفجر الماء، وذلك إذا تنزل خارجا من منبعه، وكل سائل شخص خارجا من موضعه ومكانه، فقد انفجر، ماء كان ذلك أو دما أو صديدا أو غير ذلك، ومنه قوله عمر بن لجأ[٨] :

ولما أن قرنت إلى جرير أبى ذو بطنه إلا انفجارا

يعني : إلا خروجا وسيلانا[٩].

وقرأ قتادة: «وإن» مخففة من الثقيلة، وكذلك في الثانية والثالثة، وقرأ مالك بن دينار: {ينفجر} بالنون وياء من تحت قبلها وكسر الجيم، ووحد الضمير في {مِنْهُ} حملا على لفظ «ما»، وقرأ أبي بن كعب والضحاك {منها الأنهار}، حملا على الحجارة[١٠].

قوله تعالى:{وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ}[البقرة:٧٤]، " أي من الحجارة ما يتصدع إشفاقاً من عظمة الله فينبع منه الماء"[١١].

قال أبو السعود: أي:" يتشقق فيخرج منه العيون"[١٢].

قال الزمخشري:"ومنها ما ينشق انشقاقا بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضا"[١٣].

وقرأ طلحة بن مصرف: «لمّا» بتشديد الميم في الموضعين، وهي قراءة غير متجهة، وقرأ ابن مصرف {ينشقق} بالنون[١٤].

قوله تعالى:{وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}[البقرة:٧٤]، "أي: ومنها ما يتفتت ويتردّى من رءوس الجبال من خشية الله"[١].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٥٥٧/٣ وما بعدها.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٢٤٦/١.
(٣) تفسير الطبري: ٢٣٨/٢.
(٤) النكت والعيون: ١٤٦/١.
(٥) الكشاف: ١٥٥/١.
(٦) تفسير أبو السعود: ١١٥/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٦٠):ص١٤٦/١.
(٨)طبقات فحول الشعراء : ٣٦٩ ، والأغاني ٨ : ٧٢ ، وروايتهما " إلا انحدارا " ، وراوية الطبري أعرق في الشعر . وفي المطبوعة " قربت " ، وهو خطأ محض . قاله عمر بن لجأ حين أخذهما أبو بكر ابن حزم - بأمر الوليد بن عبد الملك - فقرنهما ، وأقامهما على البلس يشهر بهما ، فكان التميمي ينشد هذا البيت في هجاء جرير . وقوله : " ذو بطنه " ، كناية جيدة عما يشمأز من ذكره .
(٩) انظر: تفسير الطبري:٢٣٨/٢.
(١٠) أنظر: المحرر الوجيز: ١٦٧/١، وتفسير الثعلبي: ٢٢١/١.
(١١) صفوة التفاسير: ٦٠/١.
(١٢) تفسير أبو السعود: ١١٥/١.
(١٣) الكشاف: ١٥٥/١.
(١٤) أنظر: المحرر الوجيز: ١٦٧/١.

قال الطبري:" أي يتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح، من خوف الله وخشيته"[٢].

قال ابن عباس:" أي وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق"[٣]. وروي عن إسحاق[٤] نحو ذلك.

وقال مجاهد:" كل حجر يتفجر منه الماء، أو يتشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، فهو من خشية الله عز وجل، نزل بذلك القرآن"[٥]. وروي عن ابن جريج[٦] مثل ذلك.

وقرئ قوله{يَهْبُطُ}، بضم الباء[٧].

واختلفوا في ضمير الهاء في {وَإِنَّ مِنْهَا}[البقرة:٧٤]، إلى ماذا يرجع ؟ على قولين [٨]:

أحدهما : إلى القلوب لا إلى الحجارة، فيكون معنى الكلام : وإن من القلوب لما يخضع من خشية الله، ذكره ابن بحر[٩].

والقول الثاني : أنها ترجع إلى الحجارة، لأنها أقرب مذكور .

واختلفوا في هذه (الحجارة) على قولين[١٠]:

أحدهما : أنها البرد الهابط من السَّحاب، وهذا قول تفرد به بعض المتكلمين .

والثاني:وهو قول جمهور المفسرين : أنها حجارة الجبال الصلدة، لأنها أشد صلابة.

واختلف أهل التفسير في معنى هبوط ما هبط من الحجارة من خشية الله، على وجوه[١١]:

الأول: إن هبوط ما هبط منها من خشية الله تفيؤ ظلاله، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [النحل : ٤٨].

والثاني: إنه الجبل الذي صار دكا حين تجلى له ربه. كما قال تعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا}[الأعراف:١٤٣].

والثالث: أن الله جل ذكره أعطى بعض الحجارة المعرفة والفهم، فعقل طاعة الله فأطاعه، كالذي روي عن النبي ﷺ أنه قال : " إن حجرا كان يسلم علي في الجاهلية إني لأعرفه الآن "[١٢].

والرابع: وقيل: أن قوله : {يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} كقوله :{جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ} ولا إرادة له. قالوا وإنما أريد بذلك أنه من عظم أمر الله، يرى كأنه هابط خاشع من ذل خشية الله، كما قال زيد الخيل [١٣]:

---

(١) صفوة التفاسير: ٦٠/١.
(٢) تفسير الطبري: ٢٣٩/٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٦٥):ص١٤٧/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣١٦):ص٢٤٠/٢.
(٥) أخرجه الطبري(١٣١٧):ص٢٤٠/٢.
(٦) أخرجه الطبري(١٣٢٢):ص٢٤٠/٢-٢٤١.
(٧) أنظر: الكشاف: ١٥٥/١
(٨) انظر: النكت والعيون: ١٤٦/١.
(٩) نقلا عن: النكت والعيون: ١٤٦/١.
(١٠) أنظر: النكت والعيون: ١٤٦/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري: ٢٤١/٢-٢٤٣.
(١٢)روى مسلم في صحيحه ٢ : ٢٠٣ - ٢٠٤ ، عن جابر بن سمرة قال : " قال رسول الله ﷺ : إني لأعرف حجرا بمكة ، كان يسلم عليّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن " . وذكره ابن كثير في التاريخ ٦ : ١٣٤ ، من مسند أحمد ، ثم نسبه لصحيح مسلم ، ومسند الطيالسي .
(١٣) انظر: الكامل ١ : ٢٥٨ ، والمعاني الكبير : ٨٩٠ ، والأضداد لابن الأنباري : ٢٥٦ ، وحماسة ابن الشجري : ١٩ ، ومجموعة المعاني : ١٩٢ ، وغيرها . والباء في قوله " بجمع " متعلقة ببيت سالف هو : بَنِي عَامِرٍ ، هَلْ تَعْرِفُونَ إِذَا غَدَا ... أَبُو مِكْنَفٍ قَدْ شَدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ؟
والبلق جمع أبلق وبلقاء : الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين. والحجرات جمع حجرة (بفتح فسكون) : الناحية. والأكم (بضم فسكون ، وأصلها بضمتين) جمع إكام ، جمع أكمة : وهي تل يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، دون الجبل ، غليظ فيه حجارة . قال ابن قتيبة في المعاني الكبير : " يقول : إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، فغيرها أحرى أن يضل. يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر " . وفي المطبوعة هنا " فيه " والجيد ما أثبته ، والضمير في " منه " للجيش أو الجمع.

بجمع تضل البلق في حَجَراته   ترى الأكْمَ منه سجدا للحوافر

وكما قال سويد بن أبي كاهل يصف عدوا له [١]:

ساجد المنخر لا يرفعه   خاشع الطرف أصم المستمع

يريد أنه ذليل.

وكما قال جرير بن عطية [٢]:

لما أتى خبر الرسول تضعضعت   سور المدينة والجبال الخشع

أي: من رأى الحجر هابطا تخيل فيه الخشية.

قال ابن عطية:" وهذا قول ضعيف: لأن براعة معنى الآية تختل به، بل القوي أن الله تعالى يخلق للحجارة قدرا ما من الإدراك تقع به الخشية والحركة"[٣].

السادس: وقيل: أن معنى قوله : {يهبط من خشية الله}، أي : يوجب الخشية لغيره، بدلالته على صانعه، كما قيل : " ناقة تاجرة "، إذا كانت من نجابتها وفراهتها تدعو الناس إلى الرغبة فيها، كما قال جرير بن عطية[٤]:

وأعور من نبهان، أما نهاره   فأعمى، وأما ليله فبصير

فجعل الصفة لليل والنهار، وهو يريد بذلك صاحبه النبهاني الذي يهجوه، من أجل أنه فيهما كان ما وصفه به.

قال الطبري: " وهذه الأقوال، وإن كانت غير بعيدات المعنى مما تحتمله الآية من التأويل، فإن تأويل أهل التأويل من علماء سلف الأمة بخلافها، فلذلك لم نستجز صرف تأويل الآية إلى معنى منها[٥].

قوله تعالى:{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة : ٧٤]، أي: وما الله" بتارك عقوبة ما تعملون، بل يجازيكم به"[٦].

قال سعيد بن جبير:" يعني بما يكون عليم"[٧].

قال الصابوني:" أي أنه تعالى رقيب على أعمالهم لا تخفى عليه خافية، وسيجازيهم عليها يوم القيامة، وفي هذا وعيد تهديد"[٨].

قال الطبري:" فأخبرهم تعالى ذكره أنه غير غافل عن أفعالهم الخبيثة، ولا ساه عنها، بل هو لها محص، ولها حافظ"[١].

---

(١)المفضليات : ٤٠٧ ، والأضداد لابن الأنباري : ٢٥٧ . من قصيدته المحكمة . و " ساجد " منصوب إذ قبله ، في ذكر عدوه هذا : ثم ولى وهو لا يحمى استه ... طائر الإتراف عنه قد وقع وفي الأصل المطبوع : " إذ يرفعه " ، وهو خلل في الكلام . وأثبت ما في المفضليات ، ورواية ابن الأنباري : " ما يرفعه " . يقول أذله فطأطأ رأسه خزيا ، وألزم الأرض بصره ، وصار كأنه أصم لا يسمع ما يقال له ، فهو لا حراك به ، مات وهو حي قائم ، لا يحير جوابا . ولذلك قال بعده : فر مني هاربا شيطانه   حيث لا يعطى ، ولا شيئا منع

(٢)ديوان جرير : ٣٤٥ ، والنقائض : ٩٦٩ ، وطبقات ابن سعد : ٣/١/ ٧٩ ، وسيبويه ١ : ٢٥ ، والأضداد لابن الأنباري : ٢٥٨ ، والخزانة ٢ : ١٦٦ . استشهد به سيبويه على أن تاء التأنيث جاءت للفعل ، لما أضاف " سور " إلى مؤنث وهو " المدينة " ، وهو بعض منها . قال سيبويه : " وربما قالوا في بعض الكلام : " ذهبت بعض أصابعه " ، وإنما أنث البعض ، لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه ، ولو لم يكن منه لم يؤنثه . لأنه لو قال : " ذهبت عبد أمك " لم يحسن . (١ : ٢٥) . وهذا البيت يعير به الفرزدق بالغدر ويهجوه ، فإن الزبير بن العوام رضي الله عنه حين انصرف يوم الجمل ، عرض له رجل من بني مجاشع رهط الفرزدق ، فرماه فقتله غيلة . ووصف الجبال بأنها " خشع " . يريد عند موته ، خشعت وطأطأت من هول المصيبة في حواري رسول الله ﷺ ، ومن قبح ما لقي من غدر بني مجاشع .

(٣) المحرر الوجيز: ١/!٦٧.

(٤)ديوانه : ٢٠٦ ، والنقائض : ٣٥ ، والمؤتلف والمختلف : ٣٩ ، ١٦١ ، ومعجم الشعراء ٢٥٣ ، من شعر في هجاء الأعور النبهاني ، وكان هجا جريرًا ، فأكله جرير . قال أبو عبيدة : " أي هو أعور النهار عن الخيرات ، بصير الليل بالسوءات ، يسرق ويزني " .

(٥) تفسير الطبري: ٢٤٣/٢.

(٦) تفسير الثعلبي:٢٢١/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٦٧):ص١٤٧/١.

(٨) صفوة التفاسير: ٦٠/١.

قال السعدي:" بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه"[٢].
قال أبو السعود:" وعيدٌ شديد على ما هم عليه من قساوة القلوب وما يترتبُ عليها من الأعمال السيئة"[٣].
وقال الآلوسي:" وعيد على ما ذكر كأنه قيل: إن الله تعالى لبالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم حافظ لأعمالهم محص لها، فهو مجازيهم بها في الدنيا والآخرة"[٤].
وأصل (الغفلة) عن الشيء، "تركه على وجه السهو عنه، والنسيان له"[٥].
وقرأ ابن كثير {يعملون} بالياء، والمخاطبة على هذا لمحمد ﷺ[٦].
الفوائد:
١. من فوائد الآية: لؤم بني إسرائيل الذين جاءتهم هذه النعم ومع ذلك فهم لم يلينوا للحق؛ بل قست قلوبهم على ظهور هذه النعم.
٢. ومنها: تشبيه المعقول بالمحسوس في قوله تعالى: {فهي كالحجارة}؛ لأن الحجارة أمر محسوس؛ والقلب قسوته أمر معقول؛ إذ إنه ليس المعنى أن القلب الذي هو المضغة يقسو؛ القلب هو هو؛ لكن المراد: أنه يقسو قسوة معنوية بإعراضه عن الحق، واستكباره عليه؛ فهو أمر معنوي شبه بالأمر الحسي؛ وهذا من بلاغة القرآن تشبيه المعقول بالمحسوس حتى يتبين.
٣. ومنها: أن الحجارة أقسى شيء يضرب به المثل.
٤. ومنها: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث جعل هذه الحجارة الصماء تتفجر منها الأنهار؛ وقد كان موسى . عليه الصلاة والسلام . يضرب بعصاه الحجر، فينبجس، ويتفجر عيوناً بقدرة الله . تبارك وتعالى
٥. ومنها: أن الحجارة خير من قلوب هؤلاء بأن فيها خيراً؛ فإن من الحجارة ما يتفجر منه الأنهار؛ ومنها ما يشقق، فيخرج منه الماء؛ ومنها ما يهبط من خشية الله؛ وهذه كلها خير، وليس في قلوب هؤلاء خير.
٦. ومنها: أن الجمادات تعرف الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {وإن منها لما يهبط من خشية الله}؛ وهذا أمر معلوم من آيات أخرى، كقوله تعالى: {يسبح لله ما في السموات وما في الأرض} [الجمعة: ١]، وقوله تعالى: {تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم} [الإسراء: ٤٤]، وقوله تعالى: {ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين} [فصلت: ١١] : ففهمتا الأمر، وانقادتا.
٧. ومن فوائد الآية: عظمة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {من خشية الله}؛ والخشية هي الخوف المقرون بالعلم؛ لقوله تعالى: {إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء} [فاطر: ٢٨]؛ فمن علم عظمة الله سبحانه وتعالى فلا بد أن يخشاه.
٨. ومنها: سعة علم الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون}؛ وهذه الصفة من صفات الله سبحانه وتعالى السلبية؛ والصفات السلبية هي التي ينفيها الله سبحانه وتعالى عن نفسه. وتتضمن أمرين هما: نفي هذه الصفة؛ وإثبات كمال ضدها.
القرآن
{أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)} [البقرة : ٧٥]
التفسير:

---
(١) تفسير الطبري: ٢٤٤/٢.
(٢) تفسير السعدي: ٥٥.
(٣) تفسير أبو السعود: ١١٥/١.
(٤) روح المعاني: ٢٩٧/١.
(٥) تفسير الطبري: ٢٤٤/٢.
(٦) أنظر: المحرر الوجيز: ١٦٧/١.

أيها المسلمون أنسيتم أفعال بني إسرائيل، فطمعت نفوسكم أن يصدِّقِ اليهودُ بدينكم؟ وقد كان علماؤهم يسمعون كلام الله من التوراة، ثم يحرفونه بِصَرْفِهِ إلى غير معناه الصحيح بعد ما عقلوا حقيقته، أو بتحريف ألفاظه، وهم يعلمون أنهم يحرفون كلام رب العالمين عمدًا وكذبًا.

اختلف في سبب نزول الآية، على قولين[١]:

أحدهما: أنها: "نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى ليذهبوا معه إلى الله تعالى، فلما ذهبوا معه إلى الميقات وسمعوا كلام الله تعالى وهو يأمره وينهاه، رجعوا إلى قومهم، فأما الصادقون فأدوا ما سمعوا، وقالت طائفة منهم: سمعنا الله في آخر كلامه يقول: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا ولا بأس"[٢]. حكاه الواحدي عن ابن عباس[٣]، ومقاتل[٤]، وروي عن ابن إسحاق[٥]، والكلبي[٦]، نحو ذلك.

والثاني: أنها:"نزلت في الذين غيروا آية الرجم وصفة محمد - ﷺ -"[٧]. وهذا قول أكثر المفسرين[٨].

قوله تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ}[البقرة:٧٥]، " أي أترجون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم"[٩].

قال الثعلبي:أي"لن يصدّقكم اليهود"[١٠].

قال الطبري:"، أي : أفترجون يا معشر المؤمنين.. أن يؤمن لكم يهود بني إسرائيل؟"[١١].

قال ابن كثير: " أي : ينقاد لكم بالطاعة، وهم الفرقة الضالة من اليهود، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك "[١٢].

قال السعدي:" هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطمعوا في إيمانهم وحالتهم لا تقتضي الطمع فيهم"[١٣].

وقد اختلفوا في قوله:{أَفَتَطْمَعُونَ}[البقرة:٧٥]، على وجهين[١٤]:

أحدهما: آيسهم الله تعالى من إيمان هذه الفرقة وهم جماعة بأعيانهم. قاله ابن عباس[١٥].

والثاني: أن الله لم يؤيسهم من ذلك إلا من جهة الاستبعاد له منهم، مع ما هم عليه من التحريف والتبديل والعناد، قالوا: وهو كما لا نطمع لعبيدنا وخدمنا أن يملكوا بلادنا، ثم إنا لا نقطع بأنهم لا يملكون بل نستبعد ذلك.

والراجح، أن الهمزة للاستفهام؛ "والمراد به الاستبعاد، والتيئيس. أي تيئيس المسلمين من أن يؤمن هؤلاء اليهود لهم"[١٦]. والله أعلم.

واختلفوا في الخطاب الموجه في قوله تعالى[أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ}[البقرة:٧٥]، على أربعة

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي: ٢٨، والعجاب في بيان الأسباب: ٢٦٢/١.
(٢)أسباب النزول للواحدي: ٢٨.
(٣) انظر: أسباب النزول للواحدي: ٢٨.
(٤) انظر: تفسير مقاتل بن حيان: ٤٧/١-٤٩. أورده مطولا.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٣)، و(١٣٣٤):ص٢٤٦/٢-٢٤٧.
(٦) أنظر: العجاب في تفسير الأسباب: ٢٦٤/١. حكاه عنه يحيي بن سلام.
(٧) أسباب النزول للواحدي: ٢٨.
(٨) نقل الأكثرية الواحدي، انظر: أسباب النزول: ٢٨.
(٩) صفوة التفاسير: ٦٢/١.
(١٠) تفسير الثعلبي: ٢٢٢/١.
(١١) تفسير الطبري: ٢٤٤/٢.
(١٢) تفسير ابن كثير: ٣٠٨/١.
(١٣) تفسير السعدي: ٥٦.
(١٤) انظر: مفاتيح الغيب: ٥٦١/٣.
(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٦٨):ص١٤٨/١.
(١٦) تفسير ابن عثيمين:٢٤٩/١.
(١٧) انظر: زاد المسير: ١٠٣/١، وتفسير أبي الليث: ١٣١/١، ومفاتيح الغيب: ٥٥٩/٣، والمحرر الوجيز: ١٦٧/١، وتفسير القرطبي: ١/٢.

أحدها: أنه خطاب مع النبي ﷺ خاصة. قاله ابن عباس ومقاتل[١].

قال الرازي: "لأنه هو الداعي وهو المقصود بالاستجابة واللفظ وإن كان للعموم، لكنا حملناه على الخصوص لهذه القرينة، روي أنه عليه السلام حين دخل المدينة ودعا اليهود إلى كتاب الله وكذبوه فأنزل الله تعالى هذه الآية"[٢].

والثاني: أنه خطاب مع المؤمنون، تقديره أفتطمعون أن تصدقوا نبيكم. قاله أبو العالية وقتادة[٣].

والثالث: أنه مع الأنصار، إذ أنهم لما أسلموا أحبوا إسلام اليهود للرضاعة التي كانت بينهم. ذكره النقاش[٤]، واختاره ابن عطية[٥].

والرابع: أنه خطاب مع الرسول والمؤمنين. قاله ابن عباس[٦]، وروي عن الربيع بن أنس[٧] والحسن[٨] نحو ذلك.

وهذا القول الأخير"أليق بالظاهر لأنه عليه السلام وإن كان الأصل في الدعاء فقد كان في الصحابة من يدعوهم إلى الإيمان ويظهر لهم الدلائل وينبههم عليها، فصح أن يقول تعالى: {أفتطمعون أن يؤمنوا لكم} ويريد به الرسول ومن هذا حاله من أصحابه وإذا كان ذلك صحيحا فلا وجه لترك الظاهر"[٩].

وقد ذكروا في سبب الاستبعاد وجوها[١٠]:

أحدها: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم مع أنهم ما آمنوا بموسى عليه السلام، وكان هو السبب في أن الله خلصهم من الذل وفضلهم على الكل، ومع ظهور المعجزات المتوالية على يده وظهور أنواع العذاب على المتمردين.

الثاني: أفتطمعون أن يؤمنوا ويظهروا التصديق ومن علم منهم الحق لم يعترف بذلك، بل غيره وبدله.

الثالث: أفتطمعون أن يؤمن لكم هؤلاء من طريق النظر والاستدلال وكيف وقد كان فريق من أسلافهم يسمعون كلام الله ويعلمون أنه حق ثم يعاندونه.

قوله تعالى: {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ}[البقرة:٧٥]، "أي والحال قد كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم"[١١].

قال البيضاوي:أي" طائفة من أسلافهم"[١٢].

و(الفريق) فجمع، كالطائفة، لا واحد له من لفظه، وهو (فعيل) من (التفرق) سمي به الجماع، كما سميت الجماعة ب(الحزب)، من(التحزب)، وما أشبه ذلك، ومنه قول أعشى بني ثعلبة[١٣]:

أجَدّوا فلما خفت أن يتفرقوا فريقين، منهم مُصعِد ومُصوّب

قوله تعالى:{يَسْمَعُونَ كَلاَمَ الله}[البقرة:٧٥]،أي:" يتلون كتاب الله ويسمعونه بيناً جلياً"[١٤].

قال الثعلبي: "يعني التوراة"[١٥].

قال السدي:" هي التوراة حرفوها"[١].

---

(١) نقلا عن: زاد المسير: ١٠٣/١، وتفسير أبي الليث: ١٣١/١، ومفاتيح الغيب: ٥٥٩/٣.
(٢) مفاتيح الغيب: ٥٥٩/٣.
(٣)نقلا عن: زاد المسير: ١٠٣/١
(٤) نقلا عن زاد المسير: ١٠٣/١. وقال ذكره الزجاج. ولم أجده في معاني القرآن، وانظر: المحرر الوجيز: ١٦٧/١، وتفسير القرطبي: ١/٢.
(٥) انظر: المحرر الوجيز: ١٦٧/١.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٦٨):ص١٤٨/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٦٩):ص١٤٨/١.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٤٨/١.
(٩) مفاتيح الغيب: ٥٦٠/٣.
(١٠) انظر مفاتيح الغيب: ٥٦٠/٣.
(١١) صفوة التفاسير: ٦٢/١.
(١٢) تفسير البيضاوي: ٨٩/١.
(١٣)ديوانه : ١٣٧، أجد السير : انكمش فيه وأسرع مصعد : مبتدئ في صعوده إلى نجد والحجاز . ومُصَوِّب منحدر في رجوعه إلى العراق والشام وأشباه ذلك وبعد البيت من تمامه . طلبتهمُ ، تَطوى بي البيد جَسْرَة شُوَيْقَةُ النابين وجَناء ذِعْلب
(١٤) صفوة التفاسير: ٦٢/١.
(١٥) تفسير الثعلبي: ٢٢٢/١. (بتصرف بسيط).

وقال أبو العالية:" عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد- ﷺ-، فحرفوه عن مواضعه""[٢].
وقرأ الأعمش: {كلم الله}[٣]، جمع كلمة، وقد يراد بالكلمة : الكلام، فتكون القراءتان بمعنى واحد[٤].
قوله تعالى:{ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ}[البقرة:٧٥] أي:" ثم يبدلون معناه وتأويله ويغيرونه"[٥].
قال الثعلبي: أي"يغيرون ما فيه من الأحكام"[٦].
قال ابن كثير: " أي : يتأولونه على غير تأويله "[٧].
قال البيضاوي:" كنعت محمد صلّى الله عليه وسلّم، وآية الرجم. أو تأويله فيفسرونه بما يشتهون"[٨].
وتحريف الشيء: "إحالته من حال إلى حال"[٩].
وفي كيفية تعريفهم لكلام الله وجهين:
أحدهما: أن تحريفهم وتبديلهم إنما هو بالتأويل، ولفظ التوراة باق. قاله ابن عباس[١٠].
والثاني: أنهم بدلوا ألفاظا من تلقائهم. وهذا قول الجمهور[١١].
قال ابن عطية: "وأن ذلك ممكن في التوراة لأنهم استحفظوها، وغير ممكن في القرآن لأن الله تعالى ضمن حفظه"[١٢].
وقد اختلف أهل التفسير في الذين عنى الله بقوله {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ}[البقرة:٧٥]، على ثلاثة أقوال[١٣]:
أحدهما: أنهم علماء اليهود والذين يحرفونه التوراة فيجعلون الحلال حراماً والحرام حلالاً ابتاعاً لأهوائهم وإعانة لراشيهم. وهذا قول مجاهد[١٤] والسدي[١٥]، وابن زيد[١٦].
والثاني: أنهم الذين اختارهم موسى من قومه، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره وحرفوا القول في إخبارهم لقومهم، وهذا قول الربيع بن أنس[١٧] وابن إسحاق[١٨]، واختاره الطبري[١٩].
واستنكره الحكيم الترمذي[٢٠]، وابن عطية[٢١]، وابن الجوزي[٢٢]، وقالوا: بأن التكليم، من فضائل موسى واختصاصه[٢٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٧٤):ص١٤٩/١.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٧٥):ص١٤٩/١.
(٣) انظر: المحرر الوجيز: ١٦٨/١.
(٤) انظر: البحر المحيط: ٢٣٢/١.
(٥) تفسير الطبري: ٢٤٨/٢.
(٦) تفسير الثعلبي: ٢٢٢/١. (بتصرف بسيط).
(٧) تفسير ابن كثير: ٣٠٨/١.
(٨) تفسير البيضاوي: ٨٩/١.
(٩) المحرر الوجيز: ١٦٨/١.
(١٠) انظر: المحرر الوجيز: ١٦٨/١.
(١١) انظر: البحر المحيط: ٢٣٢/١.
(١٢) المحرر الوجيز: ١٦٨/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٤٦/٢-٢٤٧، والنكت والعيون: ١٤٧/١-١٤٨.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٨):ص٢٤٥/٢.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٠):ص٢٤٦/٢.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٠):ص٢٤٦/٢.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٢):ص٢٤٦/٢، وابن أبي حاتم(٧٧١):ص١٤٨/١.
(١٨) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٣)، و(١٣٣٤):ص٢٤٦/٢-٢٤٧.
(١٩) انظر: تفسير الطبري: ٢٤٧/٢.
(٢٠) نقلا عن: زاد المسير: ١٠٣/١-١٠٤، قال ابن الجوزي: "وقد أنكر بعض أهل العلم منهم الترمذي صاحب النوادر هذا القول إنكار شديد وقال إنما خص بالكلام موسى وحده".
(٢١) أنظر: المحرر الوجيز: ١٦٨/١.
(٢٢) انظر: زاد المسير: ١٠٣/١.
(٢٣)انظر: زاد المسير: ١٠٣/١، والمحرر الوجيز: ١٦٨/١.

قلت: ولعل ترجيح الطبري لهذا القول، يكمن في كونه الأقرب إلى يدل عليه ظاهر الآية، إذ أخبر الله تعالى "عن خاص من اليهود، كانوا أعطوا من مباشرتهم سماعَ كلام الله ما لم يعطه أحد غير الأنبياء والرسل، ثم بدلوا وحرفوا ما سمعوا من ذلك"(١).

الثالث: وقيل: المراد بـ{كلام الله}: القرآن، والمراد بالفريق من كان في زمن محمد عليه الصلاة والسلام، قاله الرازي(٢)، وشيخنا ابن عثيمين(٣).

واستدلوا من وجهين:

الأول: لأن القرآن كلام الله؛ وقد قال الله تعالى: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله} [التوبة: ٦] أي حتى يسمع القرآن(٤).

والثاني: لأن الضمير في قوله تعالى: {وقد كان فريق منهم} راجع إلى ما تقدم وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: {أفتطمعون أن يؤمنوا لكم}، والذين تعلق الطمع بإيمانهم هم الذين كانوا في زمن محمد عليه الصلاة والسلام(٥).

وذكر أهل التفسير في {كَلامَ اللَّهِ}[البقرة:٧٥]، الذي يسمعونه وجهين (٦):

الأول: أنه الوحي، فكانوا يسمعون منه كما يسمع أهل النبوة، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون.

والثاني: وقيل: أنها التوراة التي عَلِمَها علماء اليهود. قاله السدي(٧).

قوله تعالى:{مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ}[البقرة:٧٥]، أي" من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم"(٨).

قال الثعلبي: أي"علموه وفهموه"(٩).

قال ابن الجوزي:أي:" سمعوه ووعوه "(١٠).

قال ابن كثير:" أي : فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة "(١١).

قال الزمخشري:أي: "من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم، ولم تبق لهم شبهة في صحته"(١٢).

قوله تعالى: {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة:٧٥]، " أنهم مفترون مبطلون"(١٣).

قال ابن كثير: أي"أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله"(١٤).

قال الزمخشري:"أي: "أنهم كاذبون مفترون"(١٥).

قال الصابوني: "أي: أنهم يخالفونه على بصيرة لا عن خطأ أو نسيان"(١٦).

قال السدي:" فيعلمون أنهم قد أذنبوا"(١٧).

---

(١) تفسير الطبري: ٢٤٧/٢.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٥٦٠/٣.

(٣) انظر: تفسير ابن عثيمين:٢٥٠/١. قال ابن عثيمين: "وقد بحثت في كتب التفسير التي لدي فلم أجد احتمالاً ثالثاً. وهو أن المراد بـ {كلام الله} القرآن، وأنهم يسمعونه، ثم يحرفونه؛ لأن القرآن كلام الله؛ وقد قال الله تعالى: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله} [التوبة: ٦] أي حتى يسمع القرآن؛ فإن كان هذا الاحتمال صحيحاً فهو أقرب من القولين السابقين. والله أعلم بمراده".[قلت: يبدو أن شيخنا-رحمه الله-لم يصله كلام الرازي، الذي قال بهذا الإحتمال ورجّحه].

(٤)انظر: تفسير ابن عثيمين:٢٥٠/١.

(٥)مفاتيح الغيب: ٥٦٠/٣.

(٦) أنظر: تفسير الطبري: ٢٤٦/٢، والنكت والعيون: ١٤٨/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٧٤):ص٤٩/١!.

(٨) صفوة التفاسير: ٦٢/١.

(٩) تفسير الثعلبي:٢٢٢/١.

(١٠) زاد المسير: ١٠٤/١.

(١١) تفسير ابن كثير: ٣٠٨/١.

(١٢) الكشاف: ١٥٦/١، وانظر: البحر المحيط: ٢٣٢/١.

(١٣) تفسير البيضاوي: ٨٩/١.

(١٤) تفسير ابن كثير: ٣٠٧/١.

(١٥) الكشاف: ١٥٦/١.

(١٦) صفوة التفاسير: ٦٢/١.

(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٧٧):ص١٤٩/١.

وقوله تعالى:{وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة:٧٥]، يحتمل وجهين.
أحدهما : وهم يعلمون أنهم يحرفونه . قاله الطبري[١]
والثاني : وهم يعلمون عقاب تحريفه.
وكلا الوجهين تحتملهما الآية، وإن كان الأول منهما أشبه بظاهر القول، والمعنى: يعلمون أنهم يحرفون الكلم أي كلام الله عزّ وجلّ، ويعلمون أن التحريف محرم [وفيه من العقوبة ما فيه]، فتعدوا الحدود، وحرفوا كلام الله عزّ وجلّ، وارتكبوا الإثم عن بصيرة"[٢].
الفوائد:
١. من فوائد الآية: أن من كان لا يؤمن بما هو أظهر فإنه يبعد أن يؤمن بما هو أخفى؛ لأن من يسمع كلام الله، ثم يحرفه، أبْعَدُ قبولاً للحق ممن لم يسمعه.
٢. ومنها: أن الله تعالى يسلي رسوله ﷺ بما يذهب عنه الأسى، والحزن؛ حيث بين له حال هؤلاء، وأنهم قوم عتاة لا مطمع في إيمانهم.
٣. ومنها: إثبات أن الله يتكلم، وأن كلامه بصوت مسموع؛ لقوله تعالى: {يسمعون كلام الله}؛ وكلام الله . تبارك وتعالى . صفة حقيقية تتضمن اللفظ، والمعنى؛ فهو سبحانه وتعالى يتكلم بحروف، وأصوات مسموعة؛ وتفصيل ذلك والرد على من خالفه مذكور في كتب العقائد.
٤.ومنها: أن كلام الله سبحانه وتعالى من صفاته الفعلية باعتبار آحاده؛ وأما باعتبار أصل الصفة فهو صفة ذاتية؛ والفرق بين الصفات الذاتية، والفعلية أن الصفات الذاتية لازمة لذات الله أزلاً، وأبداً . ومعنى "أزلاً" أي فيما مضى؛ و"أبداً" أي فيما يستقبل . مثل الحياة، والعلم، والقدرة، والقوة، والعزة، والسمع، والبصر إلى غير ذلك، و الصفات الفعلية هي التي تتعلق بمشيئته، فتحْدُث إذا شاء، كالاستواء على العرش، والنُّزول إلى سماء الدنيا، والمجيء يوم القيامة للفصل بين العباد، والفرح، والرضا، والغضب. عند وجود أسبابها.
٥. ومن فوائد الآية: الرد على الأشعرية، وغيرهم ممن يرون أن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه؛ وأن الحروف، والأصوات عبارة عن كلام الله، وليست كلام الله؛ بل خلقها الله ليعبر بها عما في نفسه؛ و الرد عليهم مفصلاً في كتب العقائد.
٦. ومنها: أن هؤلاء اليهود قد حرفوا كلام الله، لقوله تعالى: {ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه}.
٧. ومنها: بيان قبح تحريف هؤلاء اليهود، لأنهم حرفوا ما عقلوه؛ والتحريف بعد عقل المعنى أعظم؛ لأن الإنسان الجاهل قد يعذر بجهله؛ لكن الإنسان العالم الذي عقل الشيء يكون عمله أقبح؛ لأنه تجرأ على المعصية مع علمه بها . فيكون أعظم.
٨. ومنها: قبح تحريف كلام الله، وأن ذلك من صفات اليهود؛ ومن هذه الأمة من ارتكبه، لكن القرآن محفوظ؛ فلا يمكن وقوع التحريف اللفظي فيه؛ لأنه يعلمه كل أحد؛ وأما التحريف المعنوي فواقع، لكن يقيض الله عزّ وجلّ من الأئمة، وأتباعهم من يبينه، ويكشف عوار فاعله.
القرآن
{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)} [البقرة : ٧٦]
التفسير:
هؤلاء اليهود إذا لقوا الذين آمنوا قالوا بلسانهم: آمنَّا بدينكم ورسولكم المبشَّر به في التوراة، وإذا خلا بعض هؤلاء المنافقين من اليهود إلى بعض قالوا في إنكار: أتحدِّثون المؤمنين بما بيَّن الله لكم في التوراة من أمر محمد؛ لتكون لهم الحجة عليكم عند ربكم يوم القيامة؟ أفلا تفقهون فتحذروا؟
في سبب نزول الآية أقوال[٣]:

(١) تفسير الطبري:٢/ ٢٤٨.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٢٥٠/١.

(٣) انظر: العجاب في بيان الأسباب: ٢٦٦/١-٢٦٨.

أحدها: روي أن رسول الله -ﷺ- قال:" لا يدخلن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن، فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق : اذهبوا فقولوا آمنا، واكفروا إذا رجعتم. قال : فكانوا يأتون المدينة بالبُكَر ويرجعون إليهم بعد العصر وقرأ قول الله : {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[آل عمران : ٧٢]. وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة : نحن مسلمون. ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره، فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر. فلما أخبر الله نبيه ﷺ بهم، قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون. وكان المؤمنون الذين مع رسول الله ﷺ يظنون أنهم مؤمنون، فيقولون لهم : أليس قد قال الله لكم كذا وكذا ؟ فيقولون : بلى! فإذا رجعوا إلى قومهم [يعني الرؤساء] - قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم "، الآية"[١].

والثاني: فأخرج عبد الرزاق في تفسيره عن معمر عن قتادة قال:" كانوا يقولون إنه سيكون نبي[٢]، فخلا بعضهم إلى بعض فقالوا: أتحدثونهم بهذا فيحتجون عليكم به"[٣]. وأخرج الطبري عن أبو العالية نحو ذلك[٤].

والثالث: وأخرج ابن أبي حاتم " عن عكرمة: أن امرأة من اليهود أصابت فاحشة فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبتغون منه الحكم رجاء الرخصة، فدعا رسول الله- ﷺ- عالمهم وهو ابن صوريا، فقال له: احكم. قال فجبوه. قال عكرمة: التجبية يحملونه على حمار ويجعلون وجهه إلى ذنب الحمار- وذكر فيه كلاما- فقال له رسول الله- ﷺ: أبحكم الله حكمت؟ أو بما أنزل على موسى؟ قال: لا. ولكن نساءنا كن حسانا فأسرع فيهن رجالنا فغيرنا الحكم، وفيه أنزلت:{وإذا خلا بعضهم إلى بعض}،قال عكرمة: إنهم غيروا الحكم منذ ستمائة سنة"[٥].

والقول الثاني أوفق بسياق الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا}[البقرة:٧٦]، "أي إذا قابلوا الذين صدّقوا بالله ورسوله محمد ﷺ"[٦].

واختلف في {الَّذِينَ آمَنُوا}[البقرة:٧٦]، في هذه الآية على وجهين:

الأول: أنهم: أبو بكر وعمر وجماعة من المؤمنين، قاله جمهور المفسرين[٧].

والثاني:أنهم: جماعة من اليهود آمنوا وأخلصوا في إيمانهم.

واختلف في عود الضمير في قوله تعالى:{لَقُوا}[البقرة:٧٦]، على أقوال[٨]:

الأول: أنها تعود على جماعة من اليهود غير معينة، باقين على دينهم.

والثاني: أنها تعود لجماعة منهم أسلموا ثم نافقوا.

والثالث: أنها لليهود الذين أمرهم رؤساؤهم من بني قريظة أن يدخلوا المدينة ويتجسسوا أخبار النبي صلى الله عليه وسلّم، قالوا : ادخلوا المدينة وأظهروا الإيمان، فإنه "نهى أن يدخل المدينة إلا مؤمن"[٩].

وقرأ ابن السميفع : لاقوا، قالوا : على التكثير[١٠].

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٤٩):ص٢/٢٥٣-٢٥٤.

(٢) أي في آخر الزمن. انظر: العجاب في بيان الأسباب: ٢٦٨/١.

(٣) تفسير عبدالرزاق: ٨، وانظر: العجاب في بيان الأسباب: ٢٦٨/١-٢٦٩.

(٤)انظر: تفسير الطبري(١٣٤١):ص٢/٢٥١، من طريق أبي العالية ولفظه: يعني بما أنزل الله في كتابكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم".

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٨٠):ص١/١٥٠.

والخبر ضعيف. ففي السند حفص بن عمر العدني وهو متفق على ضعفه. انظر "الجرح والتعديل" "٣/ ١٨٢" و"المجروحين" "١/ ٢٥٧" و"تهذيب الكمال" "٧/ ٤٢" و"الميزان" "١/ ٥٦٠" و"التهذيب" "٢/ ٤١٠" والحكم مختلف فيه انظر ترجمته في "الميزان" "١/ ٥٦٩". وفي ترجمته موسى بن عبد العزيز العدني الراوي عن الحكم في "الميزان" "٤/ ٢١٢-٢١٣" قال الذهبي أيضًا: "وحديثه في المنكرات لا سيما والحكم بن أبان ليس بالثبت أيضًا".[انظر: حاشية العجاب: ٢٧٠/١].

(٦) تفسير ابن عثيمين:٢٥٢/١.

(٧) نقل الإجماع أبو حيان في البحر المحيط: ٢٦٨/١.

(٨) انظر: البحر المحيط: ٢٦٨/١.

(٩) الخبر رواه الطبري(١٣٤٩):ص٢/٢٥٣. ولفظه ﷺ:" لا يدخلن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن". وقصبة القرية : وسطها وجوفها . وقصبة البلاد : مدينتها ، لأنها تكون في أوسطها .

(١٠) انظر: البحر المحيط: ٢٧٢/١.

قال أبو حيان:" ولا يظهر التكثير، إنما هو من فاعل الذي هو بمعنى الفعل المجرّد. فمعنى لاقوا، ومعنى لقوا واحد"[(١)].

قوله تعالى:{قَالُوا آمَنَّا}[البقر:٧٦]، أي قالوا:"صدقنا بمحمد وبما صدقتم به، وأقررنا بذلك"[(٢)].

قال ابن عثيمين:"أي: قالوا بألسنتهم دخلنا في الإيمان كإيمانكم وآمنا بالرسول محمد ﷺ"[(٣)].

قال ابن عباس:"، يعني المنافقين من اليهود، كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا : آمنا"[(٤)].

وقال السدي:" هؤلاء ناس من اليهود، آمنوا ثم نافقوا"[(٥)].

قال ابن زيد:" فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق : اذهبوا فقولوا آمنا، واكفروا إذا رجعتم. قال : فكانوا يأتون المدينة بالبُكَر ويرجعون إليهم بعد العصر"[(٦)].

قوله تعالى:{وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ}[البقرة:٧٦]، "أي إذا أوى بعضهم إلى بعض وانفرد به"[(٧)].

قال الصابوني:" أي إذا انفرد واختلى بعضهم ببعض"[(٨)].

قال أبو حيان:" أي : وإذا انفرد بعضهم ببعض، أي الذين لم ينافقوا إلى من نافق"[(٩)].

قال الحسن:" وإذا خلا بعضهم إلى بعضهم، قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم، ليحاجوكم به عند ربكم فيخصمونكم"[(١٠)].

وفي هؤلاء الذين ذكرهم الله في قوله تعالى:{وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ}[البقرة:٧٦]، قولان[(١١)]:

أحدهما : أنهم اليهود، إذا خلوا مع المنافقين، قال لهم المنافقون : أتحدثون المسلمين، بما فتح الله عليكم.

والثاني : أنهم اليهود، قال بعضهم لبعض :{أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيكُم}. قاله ابن عباس[(١٢)].

قوله تعالى:{قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ}[البقرة:٧٦]، أي"كيف تحدثون المؤمنين بالله ورسوله"[(١٣)].

قال أبو حيان: أي قالوا عاتبين عليهم، أتحدّثون المؤمنين"[(١٤)].

قال ابن عثيمين: " الاستفهام هنا للإنكار، والتعجب[(١٥)].

ومعنى التحديث: "الإخبار عن حوادث الزمان"[(١٦)].

قوله تعالى:{بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ}[البقرة:٧٦]، أي" بما فتح الله عليكم من بعث محمد ﷺ إلى خلقه "[(١٧)]

قال ابن عثيمين:" أي من العلم بصحة رسالة النبي ﷺ"[(١٨)].

قال ابن عباس:" وذلك أن نفرا من اليهود كانوا إذا لقوا محمدا ﷺ قالوا : آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم"[(١٩)].

---

(١) البحر المحيط: ٢٧٢/١.
(٢) تفسير الطبري: ٢٤٩/٢.
(٣)تفسير ابن عثيمين:٢٥٢/١.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٣٦):ص٢٤٩/٢.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٣٨):ص٢٥٠/٢.
(٦) أخرجه الطبري(١٣٤٩):ص٢٥٣/٢.
(٧) تفسير ابن عثيمين: ٢٥٢/١.
(٨) صفوة التفاسير: ٦٢/١.
(٩) البحر المحيط: ٢٦٨/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٨٥):ص١٥١/١.
(١١) انظر: النكت والعيون: ١٤٨/١.
(١٢) أخرجه الطبري(١٣٣٦):ص٢٥٠/٢.
(١٣)تفسير ابن عثيمين:٢٥٣/١.
(١٤) البحر المحيط: ٢٦٨/١.
(١٥) تفسير ابن عثيمين:٢٥٣/١.
(١٦) التفسير البسيط: ٨٢/٣.
(١٧) تفسير الطبري: ٢٥٥/٢.
(١٨) تفسير ابن عثيمين:٢٥٣/١.
(١٩) أخرجه الطبري(١٣٣٦):ص٢٥٠/٢.

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ}[البقرة:٧٦]، على أقوال[١]:
أحدها : بما فتح الله عليكم، أي بما أمركم الله به، رواه الضحاك عن ابن عباس[٢].
والثاني : بما أنزل الله عليكم في التوراة، من نبوة محمد - ﷺ- وبعثه.{لِيُحَآجُّوكم بَهِ عِنْدَ رَبِّكُم}، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس[٣]، وهو قول أبي العالية[٤] وقتادة[٥].
والثالث : أنهم أرادوا قول يهود بني قريظة، حين شبههم النبي -ﷺ-، بأنهم إخوة القردة، فقالوا : من حدثك بهذا ؟ وذلك حين أرسل إليهم، علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهذا قول مجاهد[٦].
والرابع : أن ناساً من اليهود أسلموا، ثم نافقوا فكانوا يحدثون المسلمين من
العرب، بما عُذِّبَ به آباؤهم، فقال بعضهم لبعض، أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب، وهذا قول السدي[٧].

وفي{فتح الله}، وجهان :
أحدهما : بما علمكم الله .
والثاني : بما قضاه الله لكم وعليكم. قاله عطاء الخراساني[٨].
والفتح عند العرب: النصر والقضاء، يقال منه : اللهم افتح بيني وبين فلان، أي احكم بيني وبينه، ومنه قول الشاعر [٩]:

ألا أبلغ بني عُصُم رسولاً   بأني عن فِتاحِكُم غنيُّ

ويُقَالُ للقاضي:الفتّاح، ومنه قوله تعالى{رَبَّنَا افْتَح بَيْنَنَا وَبَينَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [الأعراف : ٨٩]، أي احكم بيننا وبينهم [١٠].
قوله تعالى:{لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ}[البقرة:٧٦]، " أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم في الآخرة في ترك اتباع الرسول مع العلم بصدقه"[١١].
قال قتادة:" ليحتجوا به عليكم"[١٢].
قال ابن عثيمين:" أي أن ما حدثتموهم به ستكون عاقبته أن يحاجوكم به عند ربكم"[١٣].
ويحتمل قوله تعالى: {عِندَ رَبِّكُمْ}[البقرة:٧٦]، وجهين[١٤]:
أحدهما: أنه معمول لقوله : {ليحاجوكم}، والمعنى: ليحاجوكم به في الآخرة.
والثاني: أن (عند) بمعنى (في)، أي: في ربكم، أي فيكونون أحق به.
والثالث: وقيل: أي ليحاجوكم به عند ذكر ربكم.
والرابع: وقيل معناه : إنه جعل المحاجة في كتابكم محاجة عند الله، ألا تراك تقول هو في كتاب الله كذا، وهو عند الله كذا، بمعنى واحد ؟
والخامس: وقيل : هو معمول لقوله : {بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ}، أي من عند ربكم ليحاجوكم، وهو بعث النبي صلى الله عليه وسلّم، وأخذ ميثاقهم بتصديقه.

---

(١) انظر: تفسير البغوي: ١١٤/١، والنكت والعيون: ١٤٨/١-١٤٩.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٩):ص٢٥٠/٢-٢٥١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٠):ص٢٥١/٢.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٨١):ص١٥٠/١، وتفسير الطبري(١٣٤١):ص٢٥٠/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٢)، و(١٣٤٣):ص٢٥١/٢-٢٥٢.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٨٢):ص١٥٠/١، وتفسير الطبري(١٣٤٥)، و(١٣٤٦)، و(١٣٤٧):ص٢٥٢/٢-٢٥٣.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٨٣):ص١٥٠/١، وتفسير الطبري(١٣٤٨):ص٢٥٣/٢.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٨٤):ص١٥٠/١.
(٩) البيت ينسب للأسعر الجعفي ، ومحمد بن حمران بن أبي حمران . انظر تعليق الراجكوتي في سمط اللآلئ : ٩٢٧.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٤/٢، والنكت والعيون: ١٤٩/١.
(١١) صفوة التفاسير: ٦٢/١.
(١٢) أخرجه الطبري(١٣٤٣):ص٢٥٢/٢.
(١٣) تفسير ابن عثيمين:٢٥٣/١.
(١٤) انظر: البحر المحيط: ٢٦٨/١.

قال ابن أبي الفضل : "وهذا القول هو الصحيح، لأن الاحتجاج عليهم هو بما كان في الدنيا"[١].
وضعّفه أبو حيان قائلا:" فبعيد جداً، لأن ليحاجوكم متعلق بقوله : أتحدثونهم، وعند ربكم متعلق بقوله : بما فتح الله عليكم، فتكون قد فصلت بين قوله : عند ربكم، وبين العامل فيه الذي هو : فتح الله عليكم، بقوله : ليحاجوكم، وهو أجنبي منهما، إذ هو متعلق بقوله : أتحدثونهم على الأظهر، ويبعد أن يجيء هذا التركيب هكذا في فصيح الكلام، فكيف يجيء في كلام الله الذي هو أفصح الكلام ؟"[٢].
قال أبو حيان: والأولى حمل اللفظ على ظاهره من غير تقديم ولا تأخير، إذا أمكن ذلك، وقد أمكن بجعل قوله : {عِندَ رَبِّكُمْ} على بعض المعاني التي ذكرناها"[٣].
قوله تعالى:{أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[البقرة:٧٦]، " أي أفليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم في حجة عليكم؟"[٤].
قال الواحدي:أي:" أفليس لكم ذهن الإنسانية، هذا من كلام رؤسائهم لهم في لومهم إياهم"[٥].
قال السعدي:" أي: أفلا يكون لكم عقل، فتتركون ما هو حجة عليكم؟ هذا يقوله بعضهم لبعض"[٦].
قال الطبري:أي" أفلا تفقهون أيها القوم وتعقلون، أن إخباركم أصحاب النبي ﷺ بما في كتبكم أنه نبي مبعوث، حجة لهم عليكم عند ربكم، يحتجون بها عليكم ؟ أي : فلا تفعلوا ذلك، ولا تقولوا لهم مثل ما قلتم"[٧].
قال ابن عثيمين:" والمراد به التوبيخ؛ يعني: أين عقولكم؟! أنتم إذا حدثتموهم بهذا، وقلتم: إن هذا الذي بُعث حق، وأنه نبي يحاجونكم به عند الله يوم القيامة"[٨].
واختلف في الخطاب الموجه في قوله تعالى: {أَفَلا تَعْقِلُونَ}[البقرة:٧٦]، على وجهين[٩]:
أحدهما: أنه من قول الأحبار للأتباع.
والثاني: أنه خطاب من الله تعالى للمؤمنين.
والقول الثاني هو الصحيح، فهو خطاب من الله تعالى للمؤمنين، أي أفلا تعقلون أن بني إسرائيل لا يؤمنون وهم بهذه الأحوال، ثم وبخهم توبيخا يتلى فقال : {أَوَلا يَعْلَمُونَ} الآية[١٠].
الفوائد:
١. من فوائد الآية: أن في اليهود منافقين؛ لقوله تعالى: {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا..} إلخ.
٢. ومنها: أن من سجايا اليهود وطبائعهم الغدر؛ لقوله تعالى: {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض..} إلخ؛ لأن هذا نوع من الغدر بالمؤمنين.
٣. منها: أن بعضهم يلوم بعضاً على بيان الحقيقة حينما يرجعون إليهم؛ لقوله تعالى: {وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم}.
٤. ومنها: أن العلم من الفتح؛ لقولهم: {بما فتح الله عليكم}؛ ولا شك أن العلم فتح يفتح الله به على المرء من أنواع العلوم والمعارف ما ينير به قلبه.
٥. ومنها: أن المؤمن، والكافر يتحاجّان عند الله يوم القيامة؛ لقولهم: {ليحاجُّوكم به عند ربكم}؛ ويؤيده قوله تعالى: {ثم إنكم بعد ذلك لميِّتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون} [المؤمنون: ١٥].
٦. ومنها: سفه اليهود الذين يتخذون من صنيعهم سلاحاً عليهم؛ لقولهم: {أفلا تعقلون}.

---

(١) نقلا عن البحر المحيط: ٢٦٨/١.
(٢) البحر المحيط: ٢٦٨/١.
(٣) البحر المحيط: ٢٦٨/١.
(٤) صفوة التفاسير: ٦٢/١.
(٥) التفسير البسيط: ٨٤/٣.
(٦) تفسير السعدي: ٥٦.
(٧) تفسير الطبري: ٢٥٥/٢.
(٨) تفسير ابن عثيمين:٢٥٣/١.
(٩) انظر: تفسير القرطبي: ٤/٢.
(١٠) انظر: تفسير القرطبي: ٤/٢.

٧. ومنها: الثناء على العقل، والحكمة؛ لأن قولهم: {أفلا تعقلون} توبيخ لهم على هذا الفعل؛ وأنه ينبغي للإنسان أن يكون عاقلاً؛ ما يخطو خطوة إلا وقد عرف أين يضع قدمه؛ ولا يتكلم إلا وينظر ما النتيجة من الكلام؛ ولا يفعل إلا وينظر ما النتيجة من الفعل: قال النبي ﷺ "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً، أو ليصمت"[١].

٨. ومنها: أن كفر اليهود بالرسول محمد ﷺ عن علم؛ ولهذا صاروا مغضوباً عليهم.

القرآن

{أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)} [البقرة : ٧٧]

التفسير:

أيفعلون كلَّ هذه الجرائم، ولا يعلمون أن الله يعلم جميع ما يخفونه وما يظهرونه؟

قال الراغب:" هذا تبكيت لهم وإنكار لما يتعاطونه مع تكلمهم أن الله لا يخفى عليه خافية"[١].

قوله تعالى: {أَوَلَا يَعْلَمُونَ} [البقرة : ٧٧]، "أي ألا يعلم هؤلاء اليهود"[٢].

وهو استفهام هنا للتوبيخ، والإنكار عليهم لكونهم نزَّلوا أنفسهم منْزلة الجاهل[٣]، والمعنى: إذا كان علم الله محيطاً بجميع أفعالهم، وهم عالمون بذلك، فكيف يسوغ لهم أن ينافقوا ويتظاهروا للمؤمنين بما يعلم الله منهم خلافه، فلا يجامع حالة نفاقهم بحالة علمهم بأن الله عالم بذلك والأولى حمل ما يسرون وما يعلنون على العموم، إذ هو ظاهر اللفظ[٤].

وقرأ الجمهور {يعلمون} بالياء، وابن محيصن {أولا تعلمون]، بالتاء، خطابا للمؤمنين[٥]، وفيه تنبيه لهم على جهلهم بعالم السر والعلانية، وفائدته التنبيه على سماع ما يأتي بعده، ثم أعرض عن خطابهم وأعاد الضمير إلى الغيبة، إهمالاً لهم، فيكون ذلك من باب الالتفات[٦].

قوله تعالى:{أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}[البقرة:٧٧]، "أي ألا يعلم هؤلاء اليهود أن الله يعلم ما يخفون وما يظهرون"[٧].

قال الزمخشري:" ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان"[٨].

قال الشوكاني:" من جميع أنواع الأسرار وأنواع الإعلان ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان"[٩].

قال القاسمي: أي: أن الله يعلم ما: يخفون من قولهم لأصحابهم، ومن غيره وَما يُعْلِنُونَ أي يظهرون من ذلك، فيخبر به أولياءه"[١٠].

قال السعدي:" فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين، فإن هذا غلط منهم وجهل كبير، فإن الله يعلم سرهم وعلنهم، فيظهر لعباده ما أنتم عليه"[١١].

واختلف في الذي أسروه هؤلاء، على وجوه[١٢]:

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٠٩، كتاب الأدب، باب ٣١؛ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم ٦٠١٨؛ وأخرجه مسلم ص٦٨٨، كتاب الإيمان، باب ١٩: الحث على إكرام الجار...، حديث رقم ١٧٣ [٧٤] ٤٧.

(١) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٣٨/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٦٣/١.

(٣) انظر: تفسير ابن عثيمين:٢٥٤/١.

(٤) انظر: تفسير البحر المحيط: ٤٤١/١.

(٥) انظر:تفسير الثعلبي: ٢٢٣/١، والمحرر الوجيز: ١٦٩/١.

(٦) انظر: تفسير البحر المحيط: ٤٤١/١، وتفسير القرطبي: ٤/٢.

(٧) صفوة التفاسير: ٦٣/١.

(٨) الكشاف: ١٥٧/١.

(٩) فتح القدير: ١٠٣/١.

(١٠) محاسن التأويل: ٣٣٧/١.

(١١) تفسير السعدي: ٥٦.

(١٢) انظر: تفسير البحر الميط: ٤٤١/١.

أحدها: أن الذي أسرّوه كفرهم، والذي أعلنوه الإيمان. قاله قتادة[١]، وأبو العالية[٢]، وروي عن الحسن والربيع نحو ذلك[٣].
الثاني: وقيل : العداوة والصداقة .
والثالث: وقيل : قولهم لشياطينهم إنا معكم، وقولهم للمؤمنين آمنا.
والرابع:وقيل : صفة النبي ﷺ، وتغيير صفته إلى صفة أخرى، حتى لا تقوم عليهم الحجة .
والرابع: كان ما أسرّوا أنهم إذا تولوا عن أصحاب محمد وخلا بعضهم إلى بعض تناهوا أن يخبر أحدهم منهم أصحاب محمد بما فتح الله عليهم في كتابهم خشية أن يحاجهم أصحاب محمد بما في كتابهم عند ربهم ليخاصموهم. قاله الحسن[٤].
قال ابن عطية:" والذي أسروه كفرهم، والذي أعلنوه قولهم آمنا، هذا في سائر اليهود، والذي أسره الأحبار صفة محمد ﷺ والمعرفة به، والذي أعلنوه الجحد به، ولفظ الآية يعم الجميع"[٥].
وفي هذه الآية وما أشبهها دليل على أن رسول الله ﷺ كان يغضي عن المنافقين، مع أن الله أظهره على نفاقهم، وذلك رجاء أن يؤمنوا، فأغضى عنهم، حتى قبل الله منهم من قبل، وأهلك من أهلك . واختلف، هل هذا الحكم باق، أو نسخ؟[٦]:
أحدها:أنه نسخ، لأنه كان يفعل ذلك ﷺ، تأليفاً للقلوب، وقد أعز الله الإسلام وأغنى عنهم، فلا حاجة إلى التأليف.
والثاني: أنه باق إلى الآن، لأن أهل الكفر أكثر من أهل الإيمان، فيحتاجون إلى زيادة الأنصار وكثرة عددهم.
والقول الأول هو الأشهر[٧]. والله أعلم.
قال أبو حيان: "وفي قوله : {يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}، حجة على من زعم أن الله لا يعلم الجزئيات، بل يعلم الكليات"[٨].
الفوائد:
١. من فوئاد الآية: توبيخ اليهود على التحريف؛ لقوله تعالى: {أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون.
٢. ومنها: إثبات عموم علم الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {يعلم ما يسرون وما يعلنون}
٣. ومنها: الوعيد على مخالفة أمر الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {أولا يعلمون أن الله يعلم..} الآية؛ لأن المقصود بذلك تهديد هؤلاء، وتحذيرهم.
القرآن
{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)} [البقرة : ٧٨]
التفسير:
ومن اليهود جماعة يجهلون القراءة والكتابة، ولا يعلمون التوراة وما فيها من صفات نبي الله ورسوله محمد ﷺ، وما عندهم من ذلك إلا أكاذيبُ وظنون فاسدة.
قال القاسمي:" ولما ذكر العلماء من اليهود الذين عاندوا بالتحريف، مع العلم والاستيقان، ذكر العوامّ الذين قلدوهم، ونبّه على أنهم في الضلال سواء. لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه، وعلى العاميّ أن لا يرضى بالتقليد والظن، وهو متمكن من العلم"[٩].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٣٥٠):ص٢٥٦/٢.
(٢)انظر: تفسير الطبري(١٣٥١):ص٢٥٦/٢-٢٥٧.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٥١/١.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٨٧):ص١٥١/١.
(٥) المحرر الوجيز: ١٦٩/١.
(٦) انظر: تفسير البحر المحيط: ٤٤١/١.
(٧) انظر: تفسير البحر المحيط: ٤٤١/١.
(٨)تفسير البحر المحيط: ٤٤١/١.
(٩) محاسن التأويل: ٣٣٧/١.

قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ}[البقرة:٧٨]، أي" من اليهود أميون لا يحسنون القراءة والكتابة"[١].
قال السعدي:" أي: عوام، ليسوا من أهل العلم"[٢].
واختلف في الذين نعتهم الله بالأمية في قوله{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ}[البقرة:٧٨]، على قولين[٣]:
أحدهما: أي من اليهود. قاله أبو العالية[٤]، والربيع[٥]، ومجاهد[٦]. وهو الظاهر من الآية.
والثاني: من اليهود والمنافقين أميون[٧].
قال ابن عطية: " وقول أبي العالية ومجاهد أوجه هذه الأقوال"[٨].
وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة :{أميون}، بتخفيف (الميم)[٩].
والأمي: أي من لا يكتب ولا يقرأ، وهو المنسوب إلى ما عليه جبلته أمه[١٠]، واحدهم أمي، منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادة أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها، ومنه قوله عليه السلام: " إنَّا أمَّة أمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين "[١١].

---

(١) تفسير البغوي: ١١٤/١.
(٢) تفسير السعدي: ٥٦.
(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٥/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٥٢):ص٢٥٧/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٥٣):ص٢٥٧/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٥٤):ص٢٥٧/٢.
(٧) انظر: تفسير القرطبي: ٥/٢.
(٨) المحرر الوجيز: ١٦٩/١.
(٩) انظر: المحرر الوجيز: ١٦٩/١.
(١٠) انظر: معاني القرآن" ١/ ١٥٩. وفي "تهذيب اللغة" ١/ ٢٠٤ مادة (أم).
(١١)رواه البخاري (١٨١٤) ومسلم(١٠٨٠)، وقد ورد هذا الحديث في مسألة دخول الشهر الهلالي ، وهو يدل على أنه لا في معرفة دخول الشهر إلى الحسابات الفلكية وإنما يُعتمد على الرؤية الظاهرة للقمر عند ولادته فنعرف دخول الشهر ، فالحديث سيق لبيان أنّ الاعتماد على الرؤية لا على الحساب ولم يأت لحثّ الأمة الإسلامية للبقاء على الجهل وترك تعلّم الحساب العادي وسائر العلوم النافعة ولذلك فلا ينافي هذا الحديث ما يتعلمه المسلمون اليوم من العلوم المختلفة التي تفيدهم في دنياهم ، والإسلام دين العلم ، وهو يدعو إليه ويوجبه على كلّ مسلم أن يتعلّم ما افترضه الله عليه ويتعلم أحكام ما يحتاج إليه من العبادات والمعاملات وأما العلوم الدنيوية كالطبّ والهندسة والزراعة وغيرها فيجب على المسلمين أن يتعلّموا منها ما تحتاج إليه الأمّة ولو احتاج المسلمون لصنع إبرة لوجب عليهم أن يكون فيهم من يتعلّم صنعة تلك الإبرة .
قال الراغب الأصفهاني: "والأُمِّيُّ: هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وعليه حمل: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ} قال قطرب: الأُمِّيَّة: الغفلة والجهالة، فالأميّ منه، وذلك هو قلة المعرفة، ومنه قوله تعالى : {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ} أي: إلا أن يتلى عليهم، وقال الفرّاء: هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب، {والنَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ} قيل: منسوب إلى الأمّة الذين لم يكتبوا، لكونه على عادتهم كقولك: عامّي، لكونه على عادة العامّة، وقيل: سمي بذلك لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب، وذلك فضيلة له لاستغنائه بحفظه، واعتماده على ضمان الله منه بقوله: {سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى}.
وقيل: سمّي بذلك لنسبته إلى أمّ القرى["(المفردات في غريب القرآن- كتاب الألف: ٨٧/١].
يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "«إنا أمة أمية» ليس هو طلبًا؛ فإنهم أميون قبل الشريعة كما قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} وقال: "{وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ}، فإذا كانت هذه صفة ثابتة لهم قبل المبعث لم يكونوا مأمورين بابتدائها. نعم قد يؤمرون بالبقاء على بعض أحكامها فإنا سنبين أنهم لم يؤمروا أن يبقوا على ما كانوا عليه مطلقًا" [مجموع الفتاوى: [٢٥/ ١٦٦-١٦٧].
وقال أيضًا: "فالأمة التي بُعث فيها النبي ﷺ أولاً هم العرب وبواسطتهم حصلت الدعوة لسائر الأمم؛ لأنه إنما بعث بلسانهم فكانوا أميين عامة ليست فيهم مزية علم ولا كتاب ولا غيره مع كون فطرهم كانت مستعدة للعلم أكمل من استعداد سائر الأمم. بمنزلة أرض الحرث القابلة للزرع؛ لكن ليس لها من يقوم عليها فلم يكن لهم كتاب يقرؤونه منزل من عند الله كما لأهل الكتاب ولا علوم قياسية مستنبطة كما للصابئة ونحوهم. وكان الخط فيهم قليلاً جدًا، وكان لهم من العلم ما يُنال بالفطرة التي لا يخرج بها الإنسان عن الأُمُوَّة العامة. كالعلم بالصانع سبحانه وتعظيم مكارم الأخلاق وعلم الأنواء. والأنساب والشعر. فاستحقوا اسم الأمية من كل وجه. كما قال فيهم: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ} [الجمعة:٢] وقال تعالى: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ} [آل عمران:٢٠] فجعل الأميين مقابلين لأهل الكتاب. فالكتابي غير الأمي. فلما بُعث فيهم ووجب عليهم اتباع ما جاء به من الكتاب وتدبره وعقله والعمل به -وقد جعله

تفصيلًا لكل شيء وعلمهم نبيهم كل شيء حتى الخراءة- صاروا أهل كتاب وعلم. بل صاروا أعلم الخلق وأفضلهم في العلوم النافعة وزالت عنهم الأمية المذمومة الناقصة وهي عدم العلم والكتاب المنزل إلى أن علموا الكتاب والحكمة وأورثوا الكتاب" [انظر: مجموع الفتاوي: ٢٥/ ١٦٧-١٦٩].

و يقول ابن خلدون: "ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فُتيا، ولا كان يؤخذ عن جميعهم وإنما كان ذلك للحاملين للقرآن، العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه، وسائر دلالاته مما تلقوه من النبي وممن سمعه منه من عليتهم، وكانوا يُسَمَّوْنَ لذلك القراء، أي: الذين يقرءون الكتاب؛ لأن العرب كانوا أمة أمية، فاختص من كان منهم قارئا للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ، وبقي الأمر كذلك صدر الملة، ثم عظمت الأمصار وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعةً وعلماً، فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء" [تاريخ ابن خلدون: ١/ ٥٦٣- ٥٦٤].

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز: "أما وصف الأمة بالأمية فليس المقصود منه ترغيبهم في البقاء عليها وإنما المقصود الإخبار عن واقعهم وحالهم حين بعث الله إليهم محمداً ﷺ وقد دل الكتاب والسنة على الترغيب في التعلم والكتابة والخروج من وصف الأمية فقال الله سبحانه: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر:٩] وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة:١١]، وقال سبحانه: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر:٢٨]. وقال النبي ﷺ: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقا إلى الجنة» [رواه الإمام مسلم في صحيحه(٢٦٩٩):ص٤:٢٠٧٤]. وقال أيضًا عليه الصلاة والسلام: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» [صحيح البخاري(٧١):ص٣٩/١] ، والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة وبالله التوفيق . فلاحظ كيف يُقيّد العلماء "الأمية" بما ورد فيه نصُّها، وكيف أنها في الأساس هي "عدم العلم"، وقد زالت أمية هذه الأمة بما أنزل الله عليها من علم؛ فكيف يكون من مفاخرها -أو من مكبِّلاتها- أنها أمة "أمية" لا تعلم حتى ما يدور حولها من أفعال الناس وتصرفاتهم على الأرض وبين ظهرانيها، ومما يسمى بفقه الواقع؟! بل حتى في الآية التي تصف الأمة بالأميين، فيها إشارة واضحة إلى أن مصير هذه الأمية إلى زوال، فتدبَّر قولَه تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة:٢]، فوظيفة الرسول أن يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وذلك هو زوال الأمّيّة عن هذه الأمة. نعم هي أمية فيما ينبغي لها أن تكون كذلك، كالأمر الذي ورد فيه الحديث من علم التنجيم ونحوه، وينبغي لها أن تكون أعلم أهل الأرض في كل ما كان من شأن الخواص، فهي الأمة المهيَّئة للخيرية في كل شيء.

والأمّية معجزة للنبي منقصة في غيره: لقد وُصِف النبي ﷺ بأنه أميّ، ونحن نؤمن أنه أميّ، لكنَّ أُمّيّته ليست أكثر من أنها على الفطرة، وأنه لا يكتب بيده ولا يقرأ الخط، لكنه أعلم الناس على الإطلاق وأقرأ البشر، بما علمه ربُّنا سبحانه. أما ترى أن هذا النبي الأمي يحدِّث الناس عن دقائق العلوم التي يحار فيها المتخصصون، من علوم الأجنة والأفلاك وأعماق البحار أعالي الأفلاك والطبّ وغيرها مما حواه القرآن الكريم والسنة النبوية من معجزات؟! ولم يكتشفه أهل الاختصاص إلى بعد القرون المُقرَّنة؟ قال شيخ الإسلام: "كذلك إذا وُصف ﷺ بأنه أمي كما وصفه الله بذلك فهي مدحة له وفضيلة ثابتة فيه وقاعدة معجزته، إذ معجزته العظيمة في القرآن العظيم إنما هي متعلقة بطريق المعارف والعلوم مع ما مُنح ﷺ وفُضِّل به من ذلك كما قدمناه في القسم الأول. ووجود مثل ذلك من رجل لم يقرأ ولم يكتب ولم يدارس ولا لُقِّن مقتضى العجب ومنتهى العبر ومعجزة البشر. وليس في ذلك نقيصة إذ المطلوب من القراءة والكتابة المعرفة، وإنما هي آلة لها وواسطة موصلة إليها غير مرادة في نفسها، فإذا حصلت الثمرة والمطلوب استغنى عن الواسطة والسبب؛ والأمية في غيره نقيصة لأنها سبب الجهالة وعنوان الغباوة"(ابن تيمية، الإخنائية (الرد على الإخنائي)، تحقيق أحمد بن مونس العنزي، دار الخراز، جدة، ط١، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ص: ٢٢٦).

أهذا شأن الأمي الذي لا يعلم؟! حاشا أن يكون نبيًا أميًا لا يعلم... وإنما هو أُمِّيٌّ فطريٌّ لا يكتب بيده ولا يقرأ الخط، وثمَّ مكمن الإعجاز الرباني! وهي التي زلَّ فيها أقوام، ولم ينتبهوا إلى الفرق، حتى قال بعضهم: "نحن أمة أمية" وعلوم الآلة من أصول فقه وقواعده ونحو ذلك علوم دقائق، لا يجوز أن نتعلمها أو نشتغل بها! أمتنا تقرأ وتحفظ ولو لم تحسب وتكتب قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم بل لو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظاً في قلوب الأمة، وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه. كما في الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا». فلم يقل إنا لا نقرأ كتاباً ولا نحفظ، بل قال «لا نكتب ولا نحسب»؛ فديننا لا يحتاج أن يكتب ويحسب كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم وفطرهم بكتاب وحساب ودينهم معلق بالكتب لو عدمت لم يعرفوا دينهم" (مجموع الفتاوي، [١٧/ ٤٣٦].

وهي فعلاً علوم دقائق، ولو طبَّقنا عليها قاعدة "علوم الخواص" امتنع تناولها والأخذ بها، ولكن الأمر ليس كذلك. فلا يصح -إذن- أن نتهم الشريعة بأنها لا تفقه الواقع السياسي، ولا أن علماءها لا يشترط لهم فقه الواقع السياسي أو أنهم عاجزون عن فهم الواقع وتنزيله على حكم الشارع، ثم نترك الفاسدين يعيثون في سياسة الأمة بأفكارهم العَلمانية، ثم إذا خرج عالم شرعي عن هذا التأصيل الخاطئ، ويحاول أن يوجه بوصلة السياسة وجهة شرعية، ويحاول أن يفقه الواقع ليحمله على الشرع، قام شرعيون آخرون فألجموه بفقه تجهيل الأمة وأمية الشريعة، فيتعلمن الواقع السياسي بتأصيلات هي هي الأُمّية!

فيمكن القول بأن لفظ (الأمي) جاء في القرآن بالمعنيين اللذين ذكرهما أهل اللغة وأهل التفسير:

وقد تعددت أقوال أهل العلم في تعريف (الأميين)، على وجوه[١]:
أحدها : أن الأُمّي : الذي لا يكتب ولا يقرأ، وهو قول مجاهد[٢].
والثاني : أنَّ الأُمّيين : قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، وكتبوا كتاباً بأيديهم، وقال الجهال لقومهم : هذا من عند الله، وهذا قول ابن عباس[٣].
والثالث: وقال أبو عبيدة : "إنما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم، كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب، فكأنه قال : ومنهم أهل الكتاب لا يعلمون الكتاب"[٤].
والرابع: وقيل:هم قوم من أهل الكتاب، رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أميين[٥].
والخامس: أنهم نصارى العرب. قاله عكرمة والضحاك[٦].
السادس: أنهم المجوس. قاله علي -رضي الله عنه-[٧].
والقول الأول أظهر مع تفسير الآية، والله تعالى أعلم. وقال به الماوردي[٨] وابن عطية[٩]، والقرطبي[١٠]، وغيرهم.
وفي الأصل اللغوي للأميّ، وتسميته به قولان[١١] :
أحدهما : أنه مأخوذ من الأمة، أي على أصل ما عليه الأمّة، لأنه باق على خلقته من أنه لا يكتب، قاله أبو إسحاق[١٢]، ومنه قول الأعشى[١٣]:
وإنّ معاويةَ الأكرمين   حسانُ الوجوه طوال الأمَمْ
والثاني : أنه مأخوذ من الأُم. قاله ابن الأنباري[١٤].
وذكروا في سبب أخذ (الأمي) من (الأُم) قولين[١٥]:
أحدهما : أنه مأخوذ منها، لأنه على ما ولدته أُمُّهُ من أنه لا يكتب.
والثاني : أنه نُسِبَ إلى أُمّهِ، لأن الكتاب في الرجال دون النساء، فنسب من لا يكتب من الرجال إلى أمه، لجهلها بالكتاب دونه أبيه[١]. واختاره الطبري[٢].

الأول: الذي لايكتب ولا يقرأ من كتاب.
والثاني: الذي ولد في أم القرى، وهي مكة، ونشأ فيها.
ولكن المعنى الظاهر المتبادر هو المعنى الذي كانوا فيه من الزاهدين، وذكره بعضهم، وقال: إنه ضعيف! فالقرآن كلما ذكر (الأميّ) أو(الأميين) نسبة إلى أم القرى،لم يأت له ببيان، لكونه واضحا في معناه، ولكن حينما جاء بهذا اللفظ في معنى قلة العلم أو عدم العلم جاء بعده بما يفسره، حيث قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[البقرة:٧٨]، فجاء {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ}، بيانا لقوله تعالى: {ومنهم أميُّونَ}، ولم يستعمل القرآن هذا اللفظ في سياق الذمّ، وبمعنى عدم العلم إلا لبني إسرائيل، وكلما استعمله للنبي ﷺ، أو استعمله لأصحابه استعمله لبيان واقعهم، وهو كونهم من أمّ القرى.
(١)انظر: تفسير القرطبي: ٥/٢.
(٢) انظر: النكت واعيون: ١٤٩/١.
(٣) نقل عنه القرطبي: ٥/٢، وانظر نحوه في تفسير الطبري(١٣٥٨):ص٢٥٨/٢.
(٤) نقله عنه القرطبي: ٥/٢، والسمين الحلبي في الدر المصون: ٤٤٥/٢، وابن عادل الحنبلي في اللباب: ٣٠٣/٢، والذي في مجا القرآن لأبي عبيدة:٩٠/١:" أن الأميين هم الذين لم يأتهم الأنبياء بالكتب".
(٥) انظر: تفسير القرطبي: ٥/٢.
(٦) انظر: تفسير القرطبي: ٥/٢.
(٧) انظر: المحرر الوجيز: ١٦٩/١، وتفسير الطبري: ٥/٢.
(٨) انظر: النكت واعيون: ١٤٩/١.
(٩) انظر: المحرر الوجيز: ١٦٩/١.
(١٠) انظر: تفسير القرطبي: ٥/٢.
(١١) انظر: النكت والعيون: ١٥٠/١.
(١٢) انظر: معاني القرآن" ١/ ١٥٩، و تهذيب اللغة" ١/ ٢٠٤ مادة (أم).
(١٣) انظر: معجم مقاييس اللغة(أم):٢٩/١، و النكت والعيون: ١٥٠/١.
(١٤) انظر: معاني القرآن" ١/ ١٥٩. وفي "تهذيب اللغة" ١/ ٢٠٤ مادة (أم)، واللسان:١٢٣/١.
(١٥) انظر: النكت والعيون: ١٥٠/١، والمحرر الوجيز: ١٦٩/١.

قوله تعالى:{لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ}[البقرة:٧٨]، "أي: ليس لهم حظ من كتاب الله"[٣].
قال إبراهيم النخعي:" ومنهم من لا يحسن أن يكتب"[٤].
وقال ابن زيد:" أميون، لا يقرءون الكتاب من اليهود"[٥].
وقال قتادة:" لا يعلمون الكتاب ولا يدرون ما فيه"[٦]. وعنه أيضا:" إنما هم أمثال البهائم، لا يعلمون شيئا"[٧].
وقال أبو العالية:" لا يدرون ما فيه"[٨]. أي من الكتباب، وروي عن ابن عباس مثل ذلك[٩].
وقال ابن عباس:" لا يعرفون الكتاب الذي أنزله الله"[١٠].
وعني بـ{الكتاب}: "التوراة، ولذلك أدخلت فيه (الألف واللام)، لأنه قصد به كتاب معروف بعينه"[١١].
قال الطبري:" لا يعلمون ما في الكتاب الذي أنزله الله، ولا يدرون ما أودعه الله من حدوده وأحكامه وفرائضه"[١٢].
قوله تعالى:{إِلاَّ أَمَانِيَّ}[البقرة:٧٨]، " أي إلا قراءة بدون فهم للمعنى"[١٣].
قال الصابوني:أي" إلا التلاوة فقط"[١٤].
و(الأماني) جمع أمنية، أصلها: "أمنوية، أفعولة، من منى إذا قدر، وهي في الأصل: ما يقدره في نفسه"[١٥].
وقوله {إِلَّا أَمانِيَّ}[البقرة:٧٨]، فيه وجهان من القراءة[١٦]:
أحدهما: {إِلَّا أَمانِيَّ}، بتشديد الياء. قرأ بها العامة.
والثاني:{أَمانِيَ}، بتخفيف الياء في كلّ القرآن. قرأ بها الحسن وأبو جعفر وشيبة والأعرج، إذ حذفوا إحدى الياءين استحفافا وهي ياء الجمع مثل مفاتح ومفاتيح.
وقال أبو حاتم: "كل جمع من هذا الجنس واحد مشدّد فلك فيه التّضعيف والتشديد مثل فخاتي وأماني وأغاني وغيرها"[١٧].
واختلف أهل التفسير في قوله تعالى{لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ}[البقرة:٧٨]، على أربعة أقوال :
أحدها : إِلاَّ أَمَانِيَّ : يعني : إلا كذباً. قاله ابن عباس[١٨]، وهو قول مجاهد[١٩]، واختيار الفراء[٢٠]، والكلبي[١]، والزجاج[٢] في احد قوليه، والطبري[٣]، وابن كثير[٤].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة:١/ ٢٠٤ - ٢٠٥، والمحيط في اللغة،للصاحب بن عباد: ١٠/ ٤٥٩، ، والتفسير البسيط: ٨٤/٣، وتفسير القرطبي" ٢/ ٤، و"اللسان" ١/ ١٢٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٩/٢.
(٣) تفسير السعدي: ٥٦.
(٤) أخرجه الطبري: (١٣٥٦):ص٢٥٧/٢-٢٥٨.
(٥) أخرجه الطبري: (١٣٥٧):ص٢٥٨/٢.
(٦) أخرجه الطبري: (١٣٦٠):ص٢٦٠/٢.
(٧) أخرجه الطبري: (١٣٥٩):ص٢٥٩/٢-٢٦٠.
(٨) أخرجه الطبري: (١٣٦١):ص٢٦٠/٢.
(٩) أخرجه الطبري: (١٣٦٢):ص٢٦٠/٢.
(١٠) أخرجه الطبري: (١٣٦٤):ص٢٦٠/٢.
(١١) تفسير الطبري: ٢٦٠/٢.
(١٢) تفسير الطبري: ٢٥٩/٢.
(١٣) تفسير ابن عثيمين:٢٥٦/١.
(١٤) تفسير السعدي: ٥٦.
(١٥) تفسير الطبري: ٢٦٥/٢.
(١٦) نظر: تفسير الثعلبي: ٢٢٣/١.
(١٧) تفسير الثعلبي: ٢٢٣/١.
(١٨)انظر: تفسير الطبري(١٣٦٥):ص٢٦١/٢. وبنحوه أخرجه ابن أبي حاتم (٧٩٢):ص١٥٢/١.
(١٩)تفسير مجاهد: ٨١/١، وأخرجه الطبري(١٣٦٦):ص٢٦١/٢، وابن أبي حاتم(٧٩٤) :ص١٥٢/١.
(٢٠) انظر: معاني القرآن للفراء:٥٠/١.

ومنه قول عثمان رضي الله عنه : " لا تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه و سلم "[٥]، فقوله (ما تمنيت) أي ما كذبت.
ومنه قول الشاعر[٦]:
ولكنما ذاك الذي كان منكما أمانّي ما لاقت سماء ولا أرضا
والثاني : {إِلاَّ أَمَانِيَّ}، يعني،أنهم يَتَمَنَّوْنَ على الله ما ليس لهم.
قاله قتادة[٧]، ومجاهد[٨]، وأبو العالي[٩]، وابن زيد[١٠]، وابن عباس[١١] في رواية علي بن أبي طلحة عنه.
والثالث : إِلاَّ أَمَانِيَّ، يعني: إلا تلاوة من غير فهم.
وهو اختيار البغوي[١٢] والراغب الأصفهاني[١٣] والواحدي[١٤]، والسعدي[١٥]، وأبو عبيدة[١٦]، وابن الأنباري[١٧]، وابن قتيبة[١٨]، والزجاج في أحد قوليه[١٩]، ونسبه الرازي إلى الأكثرين[١].

---

(١)ذكره الثعلبي في "تفسيره" ١/ ٢٢٣، وينظر: "البغوي" ١/ ١١٥، "الخازن" ١/ ٧٧.
(٢) نقلا عن التفسير البسيط: ٨٦/٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري٢٦٢/٢.
(٤)انظر: تفسير ابن كثير: ١١٨/١،
(٥)أخرجه ابن ماجه في سنن (١١٣/١) قال: حدثنا علي بن محمد حدثنا وكيع حدثنا الصلت بن دينار عن عقبة بن صهبان قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: وذكر الحديث،، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير - (ج ٥ / ص ١٩٢) قال: حدثنا أحمد بن زهير التستري ثنا محمد بن عبيد بن ثعلبة ثنا أبو يحيى الحماني ثنا عبد الأعلى بن أبي المساور عن الشعبي عن زيد بن أرقم قال : أرسلني النبي صلى الله عليه و سلم إلى أبي بكر رضي الله عنه فبشرته بالجنة ثم أرسلني إلى عمر رضي الله عنه فبشرته بالجنة ثم أرسلني إلى عثمان فبشرته بالجنة على بلوي تصيبه فأخذ عثمان بيدي فانطلق أو ذهب بي حتى أتى النبي صلى الله عليه و سلم فقال : يا رسول الله ما هذه البلوى التي تصيبني ؟ فوالله ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست فرجي بيميني منذ أسلمت أو منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه و سلم ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام فقال له : إن الله مقمصك قميصا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه . وذكر ابن حجر في المطالب العالية (١١ / ٧٦) عن الصقر بن عبد الرحمن ابن بنت مالك بن مغول ، ثنا عبد الله بن إدريس ، عن المختار بن فلفل ، عن أنس ، قال : « جاء النبي ﷺ ، فدخل إلى بستان ، فجاء آت ، فدق الباب ، فقال : » يا أنس ، « قم فافتح له ، وبشره بالجنة ، وبشره بالخلافة من بعدي » قال : قلت : يا رسول الله ، أعلمه ؟ قال : « أعلمه » فإذا أبو بكر ، قلت : أبشر بالجنة ، وأبشر بالخلافة من بعد رسول الله ﷺ ثم جاء آت ، فدق الباب ، فقال : « يا أنس » فذكر بمثله سواء ، فإذا عمر ، فقلت له : أبشر بالجنة ، وبالخلافة من بعد أبي بكر قال : ثم جاء آت ، فدق الباب ، فقال : « يا أنس ، قم فافتح له ، وبشره الجنة ، وبشره بالخلافة من بعد عمر ، وأنه مقتول » قال : فخرجت ، فإذا عثمان ، فقلت له : أبشر بالجنة ، وبالخلافة من بعد عمر ، وأنك مقتول فدخل على النبي ﷺ ، فقال له : يا رسول الله ، والله ما تغنيت ، ولا تمنيت ، ولا مسست فرجي منذ بايعتك قال : « هو ذاك يا عثمان » هذا حديث موضوع ، قد أخرجه ابن أبي خيثمة في تاريخه من طريق عبد الأعلى بن أبي المساور وأخرجه البزار من طريق بكر بن المختار وبكر ، وعبد الأعلى واهيان ، والصقر أوهى منهما ، فلعله تحمله عن بكر ، أو عبد الأعلى ، فقلبه عن عبد الله بن إدريس ليروج ، ولو كان هذا وقع ، ما قال أبو بكر للأنصار : قد رضيت لكم أحد الرجلين : عمر ، أو أبا عبيدة ولما قال عمر : الأمر شورى في ستة.
(٦) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الماوردي في النكت والعيون: ١٥٠/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٧١):ص٢٦١/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٣٦٨):ص٢٦١/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٣٧٢):ص٢٦١/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٧٣):ص٢٦١/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٣٧٠):ص٢٦١/٢.
(١٢) انظر: تفسيره: ١١٤/١.
(١٣) انظر: تفسيره: ٢٣٩/١.
(١٤) انظر: التفسير البسيط: ٨٦/٣.
(١٥) انظر: تفسيره: ٥٦.
(١٦)انظر: تفسير الثعلبي: ٢٢٣/١.
(١٧) انظر: تهذيب اللغة" ٤/ ٣٤٥٦.
(١٨) انظر: تفسير غريب القرآن: ٤٦.
(١٩) انظر: معاني القرآن: ١٥٩/١.

وأيدوا رأيهم بقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحج : ٥٢]، أي إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته[٢].

قال ابن القيم: "والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلى ألقى الشيطان في تلاوته"[٣].

وقال ابن الأزهري: "والتلاوة سميت أمنية؛ لأن تالي القرآن إذا مر بآية رحمة تمنّاها، وإذا مرّ بآية عذاب تمنّى أن يُوَقّاه"[٤].

لكن اعترض على هذا القول بأنه لا يتناسب مع قولـه تعالى {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ}؛ لأن الأمي لا يقرأ.

وممن اعترض بهذا: البيضاوي[٥] والشنقيطي[٦].

إلا أن هذا الاعتراض مردود بأن المراد هو حصول التلاوة، وهي حاصلة من غير هؤلاء الأميين، بأن يسمعونه من غيرهم، كما فسره بهذا جمع من أهل العلم، بل، إن هذا الاعتراض أيضاً مردود، حتى على القول بأنهم هم الذين يقرأون؛ لأن معرفة القراءة لا ترفع وصف الأمي، فنحن نرى بعض كبار السن، وبعض الأعاجم لا يعرف من القراءة، إلا قراءة القرآن الكريم، وهذا لا يرفع وصف الأمية عنه. ولذا، يقول الراغب الأصفهاني:" وقال غيره-يعني غير مجاهد- إلا تلاوة مجردة عن المعرفة، من حيث إن التلاوة بلا معرفة المعنى تجري عند صاحبها مجرى أمنية تمنيتها على التخمين"[٧].

ومن ذلك قال الشاعر [٨]:

ليس بيني وبين قيس عتاب   غير طعن الكُلَى وضرب الرقاب

وقال كعب بن مالك[٩]:

تمنّى كتابَ الله أولَ ليلِهِ   وآخرها لاقى حِمَام المقادر

أي: قرأ وتلا كتاب الله في أول الليل، وفى آخر الليل وافاه أجله.

قال الواحدي: "ويسمّى القراءة تمنِّيًا، لأنها تشبه التحدث، وما تمناه الإنسان فهو مما يحدث به نفسه؛ ولهذا فُسِّرت الأماني في هذه الآية بالأحاديث"[١٠].

وقال آخر[١١]:

تمنى كتاب الله آخر ليله   تمني داود الزبور على رسل

أي تلا كتاب الله مترسلا فيه كما تلا داود الزبور مترسّلا فيه[١].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٥٦٤/٣.

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٥٩/١، وتفسير الثعلبي: ٢٢٣/١.

(٣)إغاثة اللهفان: ٩٣/١ . وانظر: تفسير البغوي: ٢٩٣/٣، والوسيط" للواحدي: ٢٧٦/٣، وزاد المسير: ٤٤٣/٥، وأضواء البيان:٢٨٤/٥ . ونسبوه للأكثرين من أهل العلم.

(٤) تهذيب اللغة: ٥٣٤/١٥.

(٥) انظر: تفسير البيضاوي:٣٤٩/١.

(٦)انظر: أضواء البيان:٣٩/١، والعذب النمير:١٥٣/١.

(٧) المفردات في غريب القرآن: ٤٧٦.

(٨)سيبويه ١ : ٣٦٥ ، والوحشيات رقم : ٥٥ ، ومعجم الشعراء : ٢٤٢ ، وحماسة البحتري : ٣٢ ، وانظر تحقيق الراجكوتي في سمط اللآلئ : ١٨٤ . والشعر يقوله في هجاء قيس عيلان يقول فيها :

قاتل الله قيس عيلان طرا   ما لهم دون غدرة من حجاب

ثم إن سيبويه أنشد البيت برفع " غير " ، على البدل من " عتاب " ، اتساعا ومجازا .

(٩)البيت في "ديوانه" ص ٢٩٤ قاله في رثاء عثمان بن عفان، وينظر "تفسير ابن عطية" ١/ ١٦٩، "القرطبي" ٢/ ٥، وقيل: هو لحسان بن ثابت كما في "تفسير أبي حيان" ٦/ ٣٨٦، وليس في "ديوانه"، وبلا نسبة في: الزاهر في معاني كلمات الناس للأزهري(١٥٠/٢)، مقاييس اللغة"لابن فارس (٢٧٧/٥)، المحكم والمحيط الأعظم:(٥١١/١٠)، الفائق"للزمخشري(٣٩٢/٣)، لسان العرب (٢٩٥/١٥)، و، وكتاب "العين" ٨/ ٣٩٠، المسائل والأجوبة لابن قتيبة: ٢٣٤، تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة: ٥٣ ، وغريب الحديث لابن قتيبة:٧٣/٢، وانظر: المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية، للدكتور أميل بديع يعقوب: ٣/ ٣٧٠. وحمام المقادر: الموت.

(١٠) التفسير البسيط: ٨٦/٣، وانظر: القاموس" ١٣٣٦: (مادة: المنا).

(١١) البيت ورد في اللسان: ٢٩٤/١٥، مادة(منى)، وقد نسبه ابن منظور إلى حسان،

والرابع : أنَّ الأَمَانِيَّ : التقدير، قاله ابن سكيت[٢]، والفراء[٣]، وأنشد قول الشاعر[٤] :

ولا تقولَنْ لشيء سوف أفعله حتى تَبَيّنَ ما يَمْني لَكَ الماني

أي: ما يقدر لك القادر[٥].

و(إلا) : في هذا الموضع بمعنى (لكن) وهو عندهم من الاستثناء المنقطع، ومنه قوله تعالى:{مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنَّ} [النساء : ١٥٧] قال النابغة[٦]:

حلفت يميناً غير ذي مثنوية ولا علم إلا حسن ظن بصاحب

قوله تعالى:{وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[البقرة:٧٨]، أي:" إلا يشكون، ولا يعلمون حقيقته وصحته"[٧].

قال الواحدي: "أي: لا يعلمون، أراد: ما هُمْ إلا ظانّينَ ظنًّا وتوهمًا لا حقِيقَةً ويقينًا"[٨].

قال ابن عباس:" أي لا يعلمون ولا يدرون ما فيه، وهم يجحدون نبوتك بالظن"[٩]. وروي عن أبي العالية[١٠]، والربيع[١١]، نحو ذلك.

وذكروا في قوله تعالى:{وَإِنْ هُم إِلاَّ يَظُنُّونَ}[البقرة:٧٨]، ثلاثة أوجه :

أحدها : يكذبون، قاله مجاهد [١٢].

والثاني : يحدثون، قاله البصريون[١٣].

والثالث: يظنون الظنون بغير الحق. قاله قتادة[١٤] وأبو العالية[١٥]، وعن الربيع[١٦] نحوه.

قال السعدي:" ذكر في هذه الآيات علماءهم، وعوامهم، ومنافقيهم، ومن لم ينافق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم، لا بصيرة عندهم فلا مطمع لكم في الطائفتين"[١٧].

---

(١)معاني القرآن: ٣/٤٣٥-٤٣٣.

(٢) نقله عنه صاحب تهذيب اللغة" ٤/ ٣٤٥٤، ولم أجده في كتابيه:"تهذيب الألفاظ"، و"إصلاح المنطق".

(٣) نقله عنه ابن الأزهري في :تهذيب اللغة: ٤/ ٣٤٥٤. ولم أجده في معاني القرآن.

(٤)البيت لأبي قلابة الهذلي، في "شرح أشعار الهذليين" ص ٧١٣، ولسويد بن عامر "المصطلقي في لسان العرب" ٧/ ٤٢٨٢، وذكره في "تهذيب اللغة" عن الفراء ولم ينسبه ٤/ ٣٤٥٤.

(٥) انظر: التفسير البسيط: ٣/٨٥.

(٦) ديوانه : ٤٢ ، وسيبويه ١ : ٣٦٥ ، وغيرهما ، وروايتهم جميعا : " بصاحب " ، وكان في الأصل المطبوع " بغائب " ، وأظن أن ما كان في الطبري خطأ من النساخ ، لأنه لا يتفق مع الشعر . فالنابغة يمدح بهذه الأبيات عمرو بن الحارث الأعرج الغساني ، فيقول قبله :

على لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ، ليست ، بذات عقارب

حلفت يمينا . . . .

لئن كان للقبرين : قبر بجلق وقبر بصيداء الذي عند حارب

وللحارث الجفني سيد قومه ليلتمسن بالجيش دار المحارب

وقوله : " مثنوية " أي استثناء . فهو يقول لعمرو : حلفت يمينا لئن كان من هو - من ولد هؤلاء الملوك من آبائه ، الذين عدد قبورهم ومآثرهم - ليغزون من حاربه في عقر داره وليهزمنه ، ولم أقل هذا عن علم إلا ما عندي في صاحبي من حسن الظن . فرواية الطبري لا تستقيم ، إن صحت عنه .

(٧) تفسير الطبري: ٢/٢٦٥.

(٨) التفسير البسيط: ٣/٩٠.

(٩) أخرجه الطبري(١٣٧٧):ص٢/٢٦٦.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٧٩):ص٢/٢٦٦-٢٦٧.

(١١)انظر: تفسير الطبري(١٣٨٠):ص٢/٢٦٧.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٧٤):ص٢/٢٦٦.

(١٣) انظر: النكت والعيون: ١/١٥١.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٧٨):ص٢/٢٦٦.

(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٧٩):ص٢/٢٦٦-٢٦٧.

(١٦)انظر: تفسير الطبري(١٣٨٠):ص٢/٢٦٧.

(١٧) تفسير السعدي:٥٦.

قالَ أصحاب المعاني: "ذمّ الله بهذه الآية قومًا من اليهود، لا يحسنون شيئًا وليسُوا على بصيرة إلّا ما يحدّثونَ به، أو إلّا ما يقرءون عن غَيْرِ عِلم به، ففيه حثٌّ علَى تعلّم العلم؛ حتّى لا يحتاج الإنسان إلى تقليد غيره، وأن يقرأ شيئًا لا يكون له به معرفة"[١].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن الأُمّية يوصف بها من لا يقرأ، ومن يقرأ ولا يفهم؛ لقوله تعالى: {ومنم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني}.

٢. ومنها: ذم من لا يعتني بمعرفة معاني كتاب الله عزّ وجلّ.

٣. ومنها: أن من لا يفهم المعنى فإنه لا يتكلم إلا بالظن؛ لقوله تعالى: {وإن هم إلا يظنون}؛ العامي يقرأ القرآن من أوله إلى آخره، لكن لا يفهم معناه؛ فإذا تكلم في حكم من أحكام الله الشرعية التي دل عليها الكتاب فإنما كلامه عن ظن؛ لأنه في الحقيقة لا يعلم؛ ولا يمكن أن يعلم إلا إذا فهم المعنى.

٤. ومنها: ذم الحكم بالظن، وأنه من صفات اليهود؛ وهذا موجود كثيراً عند بعض الناس الذين يحبون أن يقال عنهم: "إنهم علماء"؛ تجده يفتي بدون علم، وربما أفتى بما يخالف القرآن، والسنة وهو لا يعلم.

القرآن

{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)} [البقرة : ٧٩]

التفسير:

فهلاك ووعيد شديد لأحبار السوء من اليهود الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله وهو مخالف لما أنزل الله على نبيّه موسى عليه الصلاة والسلام؛ ليأخذوا في مقابل هذا عرض الدنيا. فلهم عقوبة مهلكة بسبب كتابتهم هذا الباطل بأيديهم، ولهم عقوبة مهلكة بسبب ما يأخذونه في المقابل من المال الحرام، كالرشوة وغيرها.

في سبب نزول الآية قولان[٢]:

أحدهما: أنها نزلت في اليهود الذين "عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه، يبتغون بذلك عرضا من عرض الدنيا". قاله أبو العالية[٣]، و عثمان بن عفان[٤].

والثاني: وقيل أنها نزلت في: "ناس من اليهود كتبوا كتابا من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله، ليأخذوا به ثمنا قليلا". قاله السدي[٥]، وابن عباس[٦]، ومجاهد[٧]، وقتادة[٨].

قوله تعالى:{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [البقرة : ٧٩]، " أي هلاك وعذاب لأولئك الذين حرّفوا التوراة، وكتبوا تلك الآيات المحرفة بأيديهم"[٩].

قال الثعلبي:أي:" من تغيير نعت محمّد"[١٠].

قال المراغي:" أي هلاك عظيم لأولئك العلماء الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون لعوامّهم: هذا المحرّف من عند الله في التوراة"[١].

---

(١) التفسير البسيط: ٩٠/٣.

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي: ٢٦، والعجاب في بيان الأسباب: ٢٦١/١-٢٧٣. قال الواحدي: "نزلت في الذين غيروا صفة النبي - ﷺ - وبدلوا نعته، قال الكلبي بالإسناد الذي ذكرنا: إنهم غيروا صفة رسول الله - ﷺ - في كتابهم وجعلوه آدم سبطا طويلا، وكان ربعة أسمر، وقالوا لأصحابهم وأتباعهم: انظروا إلى صفة النبي، الذي يبعث في آخر الزمان، ليس يشبه نعت هذا، وكانت للأحبار والعلماء مأكلة من سائر اليهود، فخافوا أن يذهبوا مأكلتهم إن بينوا الصفة، فمن ثم غيروا".

(٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٩٤):ص٢٧١/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٩٥):ص٢٧١/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٨٨):ص٢٧١/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٨٩):ص٢٧٠/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٩٠):ص٢٧٠/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٣٩٢):ص٢٧١/٢.

(٩) صفوة التفاسير: ٦٣/١.

(١٠) تفسير الثعلبي: ٢٢٤/١.

قال ابن عطية:هذا" بيان لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم الله، وفرق بين من كتب وبين من أمر، إذ المتولي للفعل أشد مواقعة ممن لم يتوله، وإن كان رأيا له"[٢].

واختلف أهل التفسير في تحريف اليهود للكتاب على قولين:

أحدهما: أنه: "كان ناس من اليهود كتبوا كتابا من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله، ليأخذوا به ثمنا قليلا". قاله السدي[٣]، وابن عباس[٤]، ومجاهد[٥]، وقتادة[٦].

والثاني: أنه في اليهود، "عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه، يبتغون بذلك عرضا من عرض الدنيا". قاله أبو العالية[٧]، و عثمان بن عفان[٨].

اختلف أهل التفسير في قوله {فَوَيلٌ}[البقرة: ٧٩]، على أقاويل :

أحدها : أنه العذاب، قاله ابن عباس[٩]، والزجاج[١٠].

والثاني : أنه ما يسيل من صديد في أصل جهنم. قاله أبو العياض[١١]، وشقيق[١٢].

والثالث: أنه التقبيح، وهو قول الأصمعي[١٣]، ومنه قوله تعالى:{وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}[الأنبياء : ١٨]، ومنه قول الشاعر[١٤] :

كسا اللؤم سهما خضرة في جلودها   فويل لسهم من سرابيلها الخُضْرِ

والثالث : أنه الحزن، قاله المفضل[١٥]، وابن كيسان[١٦].

يقال : تويل الرجل إذا دعا بالويل، وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه، ومنه قوله : {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [البقرة : ٧٩]، ومنه قول الشاعر[١٧]:

تَوَيّل إذ ملأتُ يدي وكانَتْ   يميني لا تعلّلُ بالقليل

والرابع : أنه الخزي والهوان .

والخامس : أن الويل وادٍ في جهنم، وهذا قول أبي سعيد الخدري[١٨]، وعطاء بن يسار[١].

والسادس : أنه جبل في النار، وهو قول عثمان بن عفان[٢] .

---

(١) تفسير المراغي: ١٥٢/١.
(٢) المحرر الوجيز: ١٧٠/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٨٨):ص٢٧١/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٨٩):ص٢٧٠/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٩٠):ص٢٧٠/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٩٢):ص٢٧١/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٩٤):ص٢٧١/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٣٩٥):ص٢٧١/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٣٨١):ص٢٦٧/٢.
(١٠) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٦٠/١.
(١١)انظر: تفسير الطبري(١٣٨٢)، و(١٣٨٣)، و(١٣٨٤):ص٢٦٧/٢-٢٦٨، وابن أبي حاتم(٧٩٩):ص١٥٣/١.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٨٥):ص٢٦٨/٢.
(١٣) انظر: اللسان: ٧٣٩/١١.
(١٤) لم أتعرف على قائله، وانظر البيت في لسان العرب: ١١/ ٧٣٨، وتفسير القرطبي: ٥/ ٢٥٤.
(١٥) هو قول المفضل كما في النكت والعيون للماوردي: ١٥١/١، وابن عرفة كما في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٨/٢، إذ قال: (الويل: الحزن، يقال تويل الرجل إذا دعا بالويل) وعزاه لهما أبو حيان في البحر المحيط: ٢٧٠/١، وانظر: انظر: تهذيب اللغة:٣٩٦٩/٤، وطرح التثريب: ١٥٤/١، والمصباح المنير: ٥٩٧.
(١٦) انظر: الممتع في التصريف:٢/ ٥٦٨، ولسان العرب: ٨/ ٤٩٣٩، والمعجم المفصل:٦/ ٥٨٧.
(١٧) لم أتعرف على قائله، والبيت في: الممتع في التصريف" ٢/ ٥٦٨، وفي "لسان العرب" ٨/ ٤٩٣٩، "المعجم المفصل" ٦/ ٥٨٧.
(١٨)أخرجه أحمد ٣/ ٧٥، وعبد بن حميد ٩٢٤، والترمذي في التفسير، سورة الأنبياء برقم (٣١٦٤)، وتفسير الطبري(١٣٨٧):ص٢٦٩/٢، وابن أبي حاتم(٧٩٨):ص١٥٣/١، والحاكم ٢/ ٥٠٧ أبو يعلى في "مسنده" ٢/ ٥٢٣ والبيهقي في "البعث والنشور" برقم ٥٣٧ من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري، ودراج ضعيف.

والسابع: وقيل: هي كلمة تقال لمن وقع في هلكة يستحقها[٣]، وأصله الهلكة، وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومنه قوله تعالى: {يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ} [الكهف : ٤٩].

قال سيبويه[٤]: (ويح) كلمة زجر لمن أشرف على هلكة، و(ويل) لمن وقع فيها[٥].

والثامن: وقيل: ويل كلمة وعيد[٦].

وهي الويل والويلة، وهما الهلكة، والجمع الويلات، قال الشاعر[٧] :

لَهُ الوَيْلُ إنْ أمْسَى وَلا أُمُّ هَاشِمٍ قرِيبٌ وَلا البَسباسَةُ ابنةُ يَشكُرَا

وقال أيضا[٨] :

ويَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ فَقَالَتْ: لَكَ الوَيْلاَتُ!، إنَّكَ مُرْجِلِي

والتاسع: أنه باب من أبواب جهنم. حكاه الزهراوي[٩].

نستنتج مما سبق بأن (الْوَيْلُ): هو الْهَلَاكُ والحزن والعذاب والهوان في اللغة، وقيل: هو وادٍ في جهنم من عصارة أهل النار، والله أعلم [١٠].

وقد اختلف أهل العلم في ثبوت هذا الحديث فصححه الحاكم ووافقه الذهبي في التلخيص، وصححه ابن حبان والشيخ أحمد شاكر في تخريجه لأحاديث الطبري، وحسنه حمزة الزين في تخريجه لأحاديث المسند. وضعفه الترمذي في السنن إذ قال بعد تخريجه له: "هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث ابن لهيعة"، وتعقبه ابن كثير في دعوى تفرد ابن لهيعة به مع قوله بتضعيفه إذ قال في التفسير: ١٤٩/١ "قلت: لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى ولكن الآفة ممن بعده وهذا الحديث بهذا الإسناد-مرفوعاً-منكر، والله أعلم". كما ضعفه الألباني في ضعيف الجامع: ٨٨٧ رقم: ٦١٤٨، وشعيب الأرناؤوط في تخريجه لصحيح ابن حبان، وحسين سليم أسد في تخريجه لمسند أبي يعلى، ومدار ذلك على دراج بن سمعان السهمي وفيه خلاف كثير، فوثقه ابن معين وابن حبان، وضعفه الجمهور كأحمد والنسائي والدارقطني وابن عدي وغيرهم، انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: ٤٤١/٣، وميزان الاعتدال للذهبي: ٢٤/٢، وتهذيب التهذيب لابن حجر: ٢٠٨/٣، وغيرها. والأظهر فيه الضعف، وبالتالي عدم ثبوت هذا الحديث.

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٠٠):ص٢٥٣/١، والطبري(١٣٩٦):ص٢٧١/٢-٢٧٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٨٦):ص٢٦٨/٢. في الحديث راويان لم نجد لهما ذكرا ولا ترجمة، وهما إبراهيم بن عبدالسلام بن صالح التستري، وعلي بن جرير. عليه لا أظن يقوم إسناده، ووصفه ابن كثير بأنه "غريب جدا"، انظر تفسيره:٢١٧/١، وقد ذكره السيوطي أيضًا ١ /٨٢ ، ولم ينسباه لغير الطبري. فالله أعلم.

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٦٠/١، وزاد المسير لابن الجوزي: ١٠٦/١، وهذا القول على أن ويل مصدر لا فعل له يراد به الدعاء بشدة الشر والهلاك، انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٢٧٧/١، ومبهمات القرآن للبلنسي: ١٦٣/١.

(٤) هو: الإمام أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، رأس البصريين في النحو، وسيبويه لقبه، أخذ عن الخليل وأبي زيد وغيرهم، توفي عام: ١٨٠هـ، ومن مصنفاته: الكتاب. انظر: أخبار النحويين للسيرافي: ٦٣، وفيات الأعيان لابن خلكان: ٤٦٣/٣، بغية الوعاة للسيوطي: ٢٢٩/٢، المدارس النحوية لشوقي ضيف: ٥٧.

(٥) انظر: الكتاب لسيبويه: ٣٣١/١، وقد ذكر عن سيبويه التفريق غير واحد كابن منظور في لسان العرب: ٤٩٣٩/٦، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ٨/٢، والسمين في الدر المصون: ٢٧٠/١.

(٦) قال الكوكباني في تيسير المنان تفسير القرآن: ١٠٥١/٢ (فَوَيْلٌ): "كلمة وعيد"، وقال الرازي في مفاتيح الغيب: ١٥٠/٣: "قال القاضي: (وَيْل) يتضمن نهاية الوعيد"، ووعيد القادر يلزم منه الخوف والردع.

(٧) البيت لامرىء القيس، انظر: ديوانه بتحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٩٥: ص: ٣٤١.

(٨) ديوانه: ٣٠.

(٩) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٠/١.

١٠ جاء في فتح القدير للشوكاني (١/ ١٢٣): وَقَالَ الْفَرَّاءُ: الْأَصْلُ فِي الْوَيْلِ وَيْ: أَيْ حُزْنٌ، كَمَا تَقُولُ: وَيْ لِفُلَانٍ: أَيْ حُزْنٌ لَهُ، فَوَصَلَتْهُ الْعَرَبُ بِاللَّامِ، قَالَ الْخَلِيلُ: وَلَمْ نَسْمَعْ عَلَى بِنَائِهِ إِلَّا وَيْحَ، وَوَيْسَ، وَوَيْهَ، وَوَيْكَ، وَوَيْبَ، وَكُلُّهُ مُتَقَارِبٌ فِي الْمَعْنَى، وَقَدْ فَرَّقَ بَيْنَهَا قَوْمٌ وَهِيَ مَصَادِرُ لَمْ يَنْطِقِ الْعَرَبُ بِأَفْعَالِهَا، وَجَازَ الِابْتِدَاءُ به وإن كان نكرة لأن فِيهِ مَعْنَى الدُّعَاءِ.انتهى. وقال أبو السعود في تفسيره (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١/ ١٢٠): ومعنى الويلِ شدةُ الشر قاله الخليل. وقال الأصمعيُّ: الويلُ التفجُّع ، والويحُ الترحُّم. وقال سيبويه: ويلٌ لمن وقع في الهَلَكة، وويحٌ زجرٌ لمن أشرف على الهلاك. وقيل الويلُ الحزن، وهل ويح وويب وويس بذلك المعنى أو بينه وبينها فرق؟ وقيل: ويل في الدعاء عليه، وويح وما بعده في الترحم عليه. وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ الله عنهما: الويلُ العذاب الأليم. وعن سفيان الثوري أنه صديدُ أهلِ جهنم. ورَوى أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ الله تعالى عنه عنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم أنه قال: الويلُ وادٍ في جهنمَ يهوي فيه الكافرُ أربعينَ خريفاً قبل أنْ يبلُغ قَعْرَه.(قال الألباني: ضعيف، التعليق الرغيب (٤ / ٢٢٩)، ضعيف الجامع الصغير (٦١٤٨). وقال سعيد ابن المسيب: إنه

وفي قوله تعالى:{بِأَيْدِيهِمْ}[البقرة: ٧٩]، تأويلان [١]:
أحدهما : أنه أراد بذلك تحقيق الإضافة، وإن كانت الكتابة لا تكون إلا باليد، وقد أُكدّت الإضافة بذكر اليد فيما لا يُرادُ باليد فيه الجارحة، كقوله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥] وقوله: {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} [يس: ٧١]. ومعناه: مما تولينا عمله، ولما توليت خلقه.
والثاني : أن معنى {بِأَيْدِيهِمْ}، أي من تلقاء أنفسهم، من غير أن يكون أُنزل عَلَيهم أو على من قبلهم. قاله ابن السراج[٢].
قال الواحدي :" وهذا كما يقال للذي يُبدعُ قولًا لَم يُقَلْ قبله: هذا أنت تقوله، يراد بذلك: أنت ابتدعت هذا المذهب وهذا الحكم"[٣].
وقال الراغب: وفيها وجهٌ آخر، وهو أن الفعل ضربان: ابتداء، واقتداء، فيُقال فيما كان ابتداء: (هذا مما عملته يدي فلان)، فقوله: {مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ} أي مما اخترعوه من تلقائهم، وليس ما أُملى عليهم فكتبوه، وعلى هذا قد يحمل قوله تعالى: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} [٤].
قوله تعالى: {ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [البقرة : ٧٩]، "أي بعدما كتبوه بأيديهم، وعرفوا أنه من صُنْع أيديهم، يقولون هذا أنزل من عند الله"[٥].
قال السعدي:" وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم"[٦].
قوله تعالى: {لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} [البقرة : ٧٩]، " أي لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني"[٧].
قال المراغي:" أي ليأخذوا لأنفسهم في مقابلة هذا المحرّف ثمنا، وهى الرّشى التي كانوا يأخذونها جزاء ما صنعوا"[٨].
قال الآلوسي:" أي ليحصلوا- بما أشاروا إليه- غرضا من أغراض الدنيا الدنيئة، وهو- وإن جل- أقل قليل بالنسبة إلى ما استوجبوه من العذاب الدائم، وحرموه من الثواب المقيم"[٩].
قال ابن عثيمين: أي ليأخذوا به عوضاً قليلاً وهذا العوض القليل هو الرئاسة، والجاه، والمال، وغير ذلك من أمور الدنيا، كما قال تعالى: {قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى} [النساء: ٧٧] ؛ فمهما حصل في الدنيا من رئاسة، وجاه، ومال، وولد، فهو قليل بالنسبة للآخرة؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها"[١٠]"[١١].
وأخرج ابن أبي حاتم " عن إبراهيم، أنه كره كتابة المصاحف بالأجر وتلا هذه الآية: {فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم}"[١٢].
واختلف في سبب وصف (الثمن) بالقليل، في قوله تعالى:{لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنَاً قَلِيلاً}[البقرة:٧٩]، وذكروا فيه وجهين:

وادٍ في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لماعت من شدة حرّه. وقال ابن بريدة: جبلُ قيحٍ ودمٍ وقيل صهريج في جهنم وحكى الزهراوي أنه باب من أبواب جهنم. انتهى.
(١) انظر: النكت والعيون: ١٥١/١، والتفسير البسيط: ٩٣/٣.
(٢) انظر المحرر الوجيز: ١٧٠/١، وتفسير القرطبي: ٩/٢، والتفسير البسيط: ٩٣/٣.
(٣) التفسير البسيط:٩٣/٣.
٤ تفسير الراغب الأصفهاني :١/ ٢٤٠. (بتصرف يسير).
(٥) تفسير ابن عثيمين:٢٥٨/١. (بتصرف بسيط).
(٦) تفسير السعدي: ٥٦.
(٧) صفوة التفاسير: ٦٣/١.
(٨) تفسير المراغي: ١٥٢/١.
(٩) روح المعاني: ٣٠٣/١
(١٠)أخرجه أحمد ٣٣٠/٥، حديث رقم ٢٣١٨٣؛ وأخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد والسير، باب ٧٣: فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم ٢٨٩٢.
(١١) تفسير ابن عثيمين: ٢٥٨/١.
(١٢) تفسير ابن أبي حاتم(٨٠٧):ص١٥٤/١.

أحدهما : أن الثمن هو عرض الدنيا، ووصفه بالقلة لفنائه، كما قال تعالى:{قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ}، وهذا قول ابن عباس[١]، وأبي العالية[٢].

وسئل الحسن عن قوله: {ثمنا قليلا}، قال: "الثمن القليل الدنيا بحذافيرها"[٣].

والثاني : أن الثمن القليل هو الرشا والمآكل التي كانت لهم، ووصفه بالقليل لكونه حراما. روي عن السدي[٤] نحوه ذلك.

قال المراغي:" ووصف الثمن بالقلة وقد يكون كثيرا، لأن كل ما يباع به الحق ويترك لأجله فهو قليل، لأن الحق أثمن الأشياء وأغلاها"[٥].

فيمكن القول بأن صف الله تعالى ما يأخذونه بالقلة، إما لفنائه وعدم ثباته، وإما لكونه حراما، لأن الحرام لا بركة فيه ولا يربو عند الله. قال ابن إسحاق والكلبي : كانت صفة رسول الله ﷺ في كتابهم ربعة أسمر، فجعلوه آدم سبطا طويلا، وقالوا لأصحابهم وأتباعهم : انظروا إلى صفة النبي - ﷺ - الذي يبعث في آخر الزمان ليس يشبهه نعت هذا، وكانت للأحبار والعلماء رياسة ومكاسب، فخافوا إن بينوا أن تذهب مآكلهم ورياستهم، فمن ثم غيروا[٦].

وقال السعدي:" والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركا يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق، بل بأبطل الباطل، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبا وسرقة ونحوهما"[٧].

وقال الرازي: "أما قوله تعالى: {ليشتروا به ثمنا قليلا} فهو تنبيه على أمرين:

الأول: أنه تنبيه على نهاية شقاوتهم لأن العاقل يجب أن لا يرضى بالوزر القليل في الآخرة لأجل الأجر العظيم في الدنيا، فكيف يليق به أن يرضى بالعقاب العظيم في الآخرة لأجل النفع الحقير في الدنيا.

الثاني: أنه يدل على أنهم ما فعلوا ذلك التحريف ديانةً؛ بل إنما فعلوه طلبا للمال والجاه، وهذا يدل على أن أخذ المال على الباطل وإن كان بالتراضي فهو محرم، لأن الذي كانوا يعطونه من المال كان على محبةٍ ورضا، ومع ذلك فقد نبَّه تعالى على تحريمه"[٨].

قوله تعالى:{فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ}[البقرة:٧٩]، "أي: من التحريف والباطل"[٩].

قال الصابوني:" أي فشدة عذاب لهم على ما فعلوا من تحريف الكتاب"[١٠].

قال المراغي:" أي فلهم عقوبة عظيمة من أجل كتابتهم هذا المحرّف"[١١].

قوله تعالى:{وَوَيلٌ لَّهُم مِمَّا يَكْسِبُونَ}[البقرة:٧٩]، " وويل لهم من أخذهم الرشوة وفعلهم للمعاصي"[١٢].

قال الطبري: أي:" مما يعملون من الخطايا، ويجترحون من الآثام، ويكسبون من الحرام، بكتابهم الذي يكتبونه بأيديهم"[١٣].

قال ابن كثير:أي" وويل لهم مما أكلوا به من السحت"[١٤].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٣٨٩):ص٢٧٠/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٩٤):ص٢٧١/٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٨١٠):ص١/!٥٥.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٨٨):ص٢٧٠/٢.
(٥) تفسير المراغي: ١٥٢/١.
(٦) انظر: تفسير القرطبي: ٩/٢.
(٧) تفسير السعدي: ٥٦.
(٨) تفسير الرازي :٣/ ٥٦٥.
(٩) تفسير السعدي: ٥٦.
(١٠) صفوة التفاسير: ٦٣/١.
(١١) تفسير المراغي: ١٥٢/١.
(١٢) تفسير المراغي: ١٥٢/١.
(١٣) تفسير الطبري: ٢٧٣/٢.
(١٤) تفسير ابن كثير: ٣١٣/١.

قال الثعلبي: يعني "من المأكول"[١].
قال البيضاوي:" يريد به الرشى"[٢].
قال الصابوني:" أي وويل لهم مما يصيبون من الحرام والسحت"[٣].
قال القرطبي:"وقد كرر الويل تغليظا لفعلهم"[٤].
وفي قوله تعالى:{وَوَيلٌ لَّهُم مِمَّا يَكْسِبُونَ}[البقرة:٧٩]، وجهان :
أحدهما : من المعاصي والخطايا .وهذا قول أبي العالية[٥].
والثاني : من المال الذي تضمنه ذكر الثمن. وهذا قول ابن عباس[٦].
وأصل (الكسب): "العمل، فكل عامل عملا بمباشرة منه لما عمل ومعاناة باحتراف، فهو كاسب لما عمل"[٧]، كما قال لبيد بن ربيعة[٨] :
لِمعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ غُبْسٌ كَوَاسِبُ لا يُمَنَّ طَعَامُهَا
قال الراغب: "إن قيل: لم ذكر {يَكْسِبُونَ} بلفظ المستقبل و{كَتَبَتْ} بلفظ الماضي؟ قيل: تنبيها على ما قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: "من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة"[٩]، فنبَّه بالآية أن ما أضلّوه وأثبتوه من التأويلات الفاسدة، التي يعتمدها الجهلة، هو اكتساب وزر يكتسبونه باستمرار وكل وقتٍ ومع كل مَن يضله هذا الي صنعوه، فقد صنعوا عملية مستمرة من الضلال والإضلال عبر

---

(١) تفسير الثعلبي: ٢٢٥/١.
(٢) تفسير البيضاوي: ٩٠/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٦٣/١.
(٤) تفسير القرطبي: ٩/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٩٨):ص٢٧٣/٢.
(٦)انظر: تفسير الطبري(١٣٩٨):ص٢٧٣/٢.
(٧) تفسير الطبري:٢٧٣/٢.
(٨) انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني: ١٠٠، والبيت من معلقته النبيلة . واللام في قوله " لمعفر " ، ترده إلى البيت قبله :
خنساء ضيعت الفَرِيرَ ، فلم يَرِم ... عُرض الشقائق طوفها وبُغَامها
والخنساء : البقرة الوحشية ، والفرير : ولدها . والشقائق : أرض غليظة بين رملتين ، أودعت هناك فيه ولدها . وطوفها طوافها حائرة . بغامها : صوتها صائحة باكية . ظلت تطوف وتنادي ولدها .وقوله : " لمعفر " ، أي طوفها وبغامها من أجل " معفر " . والمعفر : الذي ألقي في العفر ، وهو التراب ، صادت ولدها الذئاب. قهد : هو ولد البقر ، لطيف الجسم أبيض اللون. والشلو : العضو من اللحم ، أو الجسد كله. وغبس : غبر ، وهي الذئاب. لا يمن طعامها : تكسب طعامها بنفسها ، فلا يمن عليها أحد.
(٩)رواه مسلم (١٠١٧)، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ . وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ .
وفي الحديث "التحذير من السنن السيئة ، وأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، حتى لو كانت في أول الأمر سهلة ثم توسعت فإن عليه وزر هذا التوسع ، مثل لو أن أحدا من الناس رخص لأحد في شيء من المباح الذي يكون ذريعة واضحة إلى المحرم وقريبا ، فإنه إذا توسع الأمر بسبب ما أفتى به الناس فإن عليه الوزر ، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " . شرح رياض الصالحين" (ص ١٩٩).
وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ) رواه البخاري (٣٣٣٦) ومسلم (١٦٧٧)
قال النووي: وَهَذَا الْحَدِيث مِنْ قَوَاعِد الْإِسْلَام ، وَهُوَ : أَنَّ كُلّ مَنْ اِبْتَدَعَ شَيْئًا مِنْ الشَّرّ كَانَ عَلَيْهِ مِثْل وِزْر كُلّ مَنْ اِقْتَدَى بِهِ فِي ذَلِكَ الْعَمَل إِلَى يَوْم الْقِيَامَة" انتهى.
فالأب الذي أساء تربية أولاده ، وكان قدوة سيئة لهم ، واقتدوا به في سلوكياته في المنحرفة ، يتحمل وزر أولاده ، لأنه هو السبب في انحرافهم ، وعلى الأولاد أيضاً وزر أفعالهم كاملاً ، لا ينتقص منها شيء، وقد كان الواجب على هذا الأب أن يحسن تربية أولاده ، ويقوم بالمسؤولية التي أوجبها الله عليه خير قيام ، وقد قال رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ... وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) رواه البخاري (٧١٣٨) ومسلم (١٨٢٩).
قال الشيخ ابن عثيمين: "الرجل راع في أهل بيته ، في زوجته ، في ابنه ، في بنته ، في أخته ، في عمته ، في خالته ، كل من في بيته ، هو راع في أهل بيته ، ومسؤول عن رعيته ، يجب عليه أن يرعاهم أحسن رعاية ، لأنه مسؤول عنهم ". شرح رياض الصالحين" (ص ٣٣٧). والله أعلم.

العصور، و(إن قيل) لم ذكر الكتابة دون القول؟ (قيل) لمّا كانت الكتابة متضمنة للقول وزائدة عليه، إذ هو كذب باللسان واليد، صار أبلغ. ولأن كلام اليد يبقى رسمه وأثره في الهداية أو الإضلال، والقول ربما يضمحل أثره"(١).

الفوائد:

١. من فوائد الآية: الوعيد على الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله وهم كاذبون.

٢. ومنها: أنهم يفعلون ذلك من أجل الرئاسة، والمال، والجاه؛ لقوله تعالى: {ليشتروا به ثمناً قليلاً}؛ وقد ورد الوعيد على من طلب علماً يبتغى به وجه الله لينال عرضاً من الدنيا.

٣. ومنها: أن الدنيا كلها مهما بلغت فهي قليل، كما قال تعالى: {قل متاع الدنيا قليل} [النساء: ٧٧].

٤. ومنها: أن الجزاء بحسب العمل؛ لقوله تعالى: {فويل لهم مما كتبت أيديهم}.

٥. ومنها: إثبات العلل، والأسباب؛ لقوله تعالى: {مما كتبت أيديهم}؛ فإن هذا بيان لعلة الوعيد؛ وهذه غير الفائدة السابقة؛ لأن الفائدة السابقة جزاؤهم بقدر ما كتبوا؛ وهذه بيان السبب.

٦. ومنها: أن عقوبة القول على الله بغير علم تشمل الفعل، وما ينتج عنه من كسب محرم؛ لقوله تعالى: {فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون}؛ فما نتج عن المحرم من الكسب فإنه يأثم به الإنسان؛ مثلاً: إنسان عمل عملاً محرماً . كالغش . فإنه آثم بالغش؛ وهذا الكسب الذي حصل به هو أيضاً آثم به.

٧. ومن الفوائد أيضا، ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، قال شيخ الإسلام: "فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة، على ما أصله من البدع الباطلة، وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتابا بيده مخالفا لكتاب الله، لينال به دنيا وقال: إنه من عند الله، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين، الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية، ومتناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة، لئلا يحتج به مخالفه في الحق الذي يقوله.

وهذه الأمور كثيرة جدا في أهل الأهواء جملة، كالرافضة، وتفصيلا مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء مع شعبة من حال الأهواء"(٢).

والحقيقة أن القرآن بمثل هذا الحديث المتكرر والموثق عن بني إسرائيل وفظائعهم ينبه على أمرين:

أحدهما: أن تاريخ اليهود والنصارى كفرع عنهم هو تاريخ متصل، وما أشبه الليلة بالبارحة.

والثاني: أن الله تعالى يمُنُّ على أمة محمد ﷺ ببيان زلات ومهالك ومهاوي الذين من قبلهم حتى يعلوا ما نشأ من شرٍ فيهم فيتداركوه. والحمد لله رب العالمين.

القرآن

{وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)} [البقرة : ٨٠]

التفسير:

وقال بنو إسرائيل: لن تصيبنا النار في الآخرة إلا أيامًا قليلة العدد. قل لهم -أيها الرسول مبطلا دعواهم-: أعندكم عهد من الله بهذا، فإن الله لا يخلف عهده؟ بل إنكم تقولون على الله ما لا تعلمون بافترائكم الكذب.

اختلف في سبب نزول الآية على أقوال(٣):

أحدها: قيل :إن النبي ﷺ قال لليهود : "من أهل النار" . قالوا : نحن، ثم تخلفونا أنتم، فقال : "كذبتم لقد علمتم أنا لا نخلفكم"، فنزلت هذه الآية(٤).

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٤١/١.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، شيخ الاسلام ابن تيمية(ت٧٢٨هـ)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤١١هـ، ١٩٩١م: ٧٧/١-٧٨.

(٣) انظر: أسباب النزول للواحدي: ٢٦، والعجاب في بيان الأسباب: ٢٧٣/١-٢٧٦، وانظر:الطبري: ٢٧٤/٢-٢٧٥، وتفسير القرطبي: ١٠/٢-١١. وتفسير ابن كثير: ٣١٣/١-٣١٤.

(٤)قال الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله : حدثنا عبد الرحمن بن جعفر ، حدثنا محمد بن محمد بن صخر ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ ، حدثنا ليث بن سعد ، حدثني سعيد بن أبي سعيد ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : لما فتحت خيبر

والثاني: روي عن ابن عباس: " كانت يهود يقولون : إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الله الناس يوم القيامة بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا من أيام الآخرة، وإنها سبعة أيام. فأنزل الله في ذلك من قولهم : {وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة} الآية"[١]، وروي عن مجاهد[٢] وابن زيد[٣]، نحو ذلك.
والثالث: وقيل: أن اليهود قالت إن الله أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوما عدد عبادتهم العجل، فأكذبهم الله، كما تقدم. قاله ابن عباس[٤]، وقتادة[٥]، وعن السدي[٦]، وأبي العالية[٧]، والضحاك[٨]، نحو ذلك
والرابع: وقيل: زعم اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوبا أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم. وقالوا : إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك. قاله ابن عباس[٩]، وري عن الضحاك[١٠] مثل ذلك.

قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً}[البقرة:٨٠]، أي قال اليهود"لن ندخل النار إلا أياماً قلائل"[١١].

قال الزمخشري: "أربعين يوما عدد أيام عبادة العجل"[١٢].

قال السعدي:" ذكر أفعالهم القبيحة، ثم ذكر مع هذا أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله، والفوز بثوابه، وأنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودة، أي: قليلة تعد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن"[١٣].

وفي (الأيام المعدودة)، قولان[١٤] :
أحدهما : أنها أربعون يوماً، وهذا قول قتادة[١٥]، والسدي[١٦]، وعكرمة[١٧]، وأبي العالية[١٨]، ورواه الضحاك عن ابن عباس[١٩].

ومن قال بهذا اختلفوا في تقديرهم لها بالأربعين على وجهين:

أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم ، فقال رسول الله ﷺ : "اجمعوا لي من كان من اليهود هاهنا" فقال لهم رسول الله ﷺ : "من أبوكم ؟" قالوا : فلان. قال : "كذبتم ، بل أبوكم فلان". فقالوا : صدقت وبَرِرْت ، ثم قال لهم : "هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه ؟". قالوا : نعم ، يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ : "من أهل النار ؟" فقالوا : نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ : "اخسأوا ، والله لا نخلفكم فيها أبدًا". ثم قال لهم رسول الله ﷺ : "هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه ؟". قالوا : نعم يا أبا القاسم. فقال : "هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا ؟". فقالوا : نعم. قال : "فما حملكم على ذلك ؟". فقالوا : أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك ، وإن كنت نبيًا لم يضرك.[مسند أحمد (٤٥١/٢) وصحيح البخاري برقم (٣١٦١ ، ٤٢٤٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٥٥)، وأخرج نحوه الطبري(١٤٠٦)، و(١٤٠٧):٢٧٦/٢-٢٧٧، ونحوه أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة(٨١٥):ص١٥٦/١، وانظر: تفسير ابن كثير: ٣١٤/١].

(١) أخرجه الطبري(١٤١٠)، و(١٤١١):ص٢٧٧/٢-٢٧٨، وابن أبي حاتم(٨١٣):ص١٥٥/١.
(٢) أخرجه الطبري(١٤١٢)، و(١٤١٣)، و(١٤١٤):ص: ٢٧٨/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٤٠٩):ص٢٧٧/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٩٩):ص٢٧٤/٢-٢٧٥
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٤٠٠):ص٢٧٥/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٤٠١):ص٢٧٥/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٤٠٢):ص٢٧٥/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٤٠٨):ص٢٧٧/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٤٠٤):ص٢٧٥/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٨١٤):ص١٥٦/١.
(١١) صفوة التفاسير: ٦٣/١.
(١٢) الكشاف: ١٥٨/١.
(١٣) تفسير السعدي: ٥٧.
(١٤) انظر: النكت والعيون: ١٥٣/١-١٥٤.
(١٥)انظر: تفسير الطبري(١٤٠٣):ص٢٧٥/٢.
(١٦)انظر: تفسير الطبري(١٤٠١):ص٢٧٥/٢.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(١٤٠٦)، و(١٤٠٧):ص٢٧٦/٢-٢٧٧.
(١٨)انظر: تفسير الطبري(١٤٠٢):ص٢٧٥/٢.
(١٩) انظر: تفسير الطبري(١٣٩٩):ص٢٧٤/٢-٢٧٥.

الأول: قال بعضهم : لأنها عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل . روي ذلك عن ابن عباس[١]، وقتادة[٢].
والآخر: وقيل: أن اليهود يزعمون أنهم، وجدوا في التوراة مكتوباً، أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، وهم يقطعون مسيرة كل سنة في يوم، فإذا انقطع المسير انقضى العذاب، وهلكت النار. روي ذلك عن ابن عباس[٣]، وهذا قول من قدر (المعدودة) بالأربعين.
والقول الثاني : أن المعدودة التي تمسهم فيها النار سبعة أيام، لأنهم زعموا، أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، وأنهم يُعَذَّبُون عن كل ألف سنة يوماً، وهذا قول مجاهد[٤]، ورواية سعيد بن جبير، عن ابن عباس[٥]، وروي عن ابن زيد[٦]، نحو ذلك.

قوله تعالى: {قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا} [البقرة : ٨٠]، أي: قل يا محمد"هل أعطاكم الله الميثاق والعهد بذلك؟"[٧].

قال مجاهد:" موثقا من الله بذلك أنه كما تقولون؟"[٨].

قال قتادة:" فقال الله:أتخذتم عند الله عهدا بهذا الذي تقولون؟ ألكم بهذا حجة وبرهان"[٩]. وروي عن الربيع بن أنس[١٠] نحو ذلك.

قال الحسن:" أي هل عندكم من الله من عهد أنه ليس معذبكم؟ أم هل أرضيتم الله بأعمالكم فعملتم بما افترض عليكم وعهد إليكم"[١١].

قال ابن عثيمين:" أي أأخذتم عند الله عهداً أن لا تمسكم النار إلا أياماً معدودة"[١٢].

قال النسفي:" أي عهد إليكم أنه لا يعذبكم إلا هذا المقدار"[١٣].

قال أبو السعود: أي هل عندكم من الله" خبَراً أو وعداً بما تزعمون فإن ما تدّعون لا يكون إلا بناءً على وعدٍ قوي ولذلك عَبَّر عنه بالعهد"[١٤].

واختلف في تفسير (العهد) هنا، على قولين[١٥]:
الأول: أن العهد من الله تعالى في هذه الآية الميثاق والوعد، والمعنى: هل عاهدكم الله على هذا الذي تدعون؟
والثاني: وقال ابن عباس وغيره: "معناه هل قلتم لا إله إلا الله وآمنتم وأطعتم فتدلون بذلك وتعلمون أنكم خارجون من النار؟"[١٦]. والمعنى: هل أسلفتم عند الله أعمالا توجب ما تدعون؟

قوله تعالى: {فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ} [البقرة : ٨٠]، أي:" إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده"[١٧].

قال أبو السعود:" أي إن كان الأمر كذلك فلن يُخلِفَه"[١٨].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٣٩٩):ص٢٧٤/٢.
(٢)انظر: تفسير الطبري(١٣٤٠):ص٢٧٥/٢، وابن أبي حاتم(٨١٦):ص١٥٦/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٤٠٤):ص٢٧٥/٢.
(٤) أخرجه الطبري(١٤١٢)، و(١٤١٣)، و(١٤١٤):ص: ٢٧٨/٢.
(٥) أخرجه الطبري(١٤١٠)، و(١٤١١):ص٢٧٧/٢-٢٧٨.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٤٠٩):ص٢٧٧/٢.
(٧)صفوة التفاسير: ٦٣/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٨١٩):ص١٥٧/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٨١٨):ص١٥٧/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٥٧/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٢٠):ص١٥٧/١.
(١٢) تفسير ابن عثيمين:٢٦٠/١.
(١٣) تفسير النسفي: ٧٣/١.
(١٤) تفسير أبي السعود:١٢١/١.(بتصرف بسيط).
(١٥) انظر: المحرر الوجيز: ١٧١/١.
(١٦) نقلا عن: المحرر الوجيز: ١٧١/١.
(١٧) الكشاف: ١٥٨/١، وانظر: تفسير النسفي: ٧٣/١.
(١٨) تفسير أبي السعود: ١٢١/١.

قال ابن عثيمين: "أي إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلفه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد"[١].
قوله تعالى: {أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٨٠]، "أي أم تكذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقله"[٢].
قال قتادة:" قال القوم الكذب والباطل، وقالوا على الله ما لا يعلمون"[٣].
وفي إعراب{أم}[البقرة:٨٠]، قولان[٤]:
أحدهما: أن تكون معادلة بمعنى أى الأمرين كائن على سبيل التقرير، لأن العلم واقع بكون أحدهما.
قال أبو السعود:" وام متصلةٌ والاستفهام للتقرير المؤدي إلى التبكيت لتحقق العلمِ بالشق الأخيرِ كأنه قيل أم لم تتخذوه بل تتقوّلون عليه تعالى"[٥].
والثاني: أن تكون منقطعة بمعنى (بَلى)، وإثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله : {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ}، أى بلى تمسكم أبدا، بدليل قوله : {هُمْ فِيها خالِدُونَ، والاستفهام لإنكار الاتخاذِ ونفيِه.
قال السعدي:" فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقفة على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما:
الأول: إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهدا، فتكون دعواهم صحيحة.
والثاني: وإما أن يكونوا متقولين عليه فتكون كاذبة، فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم.
وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهدا، لتكذيبهم كثيرا من الأنبياء، حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولنكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق، فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون، قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم، من أعظم المحرمات، وأشنع القبيحات"[٦].
الفوائد:
١. من فوائد الآية: أن اليهود يقرون بالآخرة، وأن هناك ناراً، لقوله تعالى: {وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة}؛ لكن هذا الإقرار لا ينفعهم؛ لأنهم كذبوا محمداً ﷺ؛ وعلى هذا ليسوا بمؤمنين.
٢. ومنها: أنهم قالوا على الله ما لا يعلمون، إما كذباً، وإما جهلاً؛ والأول أقرب؛ لقوله تعالى: {أم تقولون على الله ما تعلمون.
٣. ومنها: حسن مجادلة القرآن؛ لأنه حصر هذه الدعوى في واحد من أمرين، وكلاهما منتفٍ: {أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون}؛ وهذا على القول بأن {أم} هنا متصلة؛ أما على القول بأنها منقطعة فإنه ليس فيها إلا إلزام واحد.
٤. ومنها: أن الله سبحانه وتعالى لن يخلف وعده؛ وكونه لا يخلف الوعد يتضمن صفتين عظيمتين هما: الصدق، والقدرة، لأن إخلاف الوعد إما لكَذِب، وإما لعجز؛ فكون الله ـ جلَّ وعلا ـ لا يخلف الميعاد يقتضي كمال صدقه، وكمال قدرته.
٥. ومنها: أن من دأب اليهود القول على الله بلا علم؛ لقوله تعالى: {أم تقولون على الله ما لا تعلمون}؛ والقول على الله يتضمن القول عليه في أحكامه، وفي ذاته، وصفاته؛ من قال عليه ما لا يعلم بأنه حلَّل، أو حرَّم، أو أوجب، فقد قال على الله بلا علم؛ ومن أثبت له شيئاً من أسماء، أو صفات لم يثبته الله لنفسه فقد قال على الله بلا علم؛ ومن نفى شيئاً من أسمائه وصفاته فقد قال على الله بلا علم؛ ومن صرف شيئاً عن ظاهره من نصوص الكتاب والسنة بلا دليل فقد قال على الله بلا علم.
٦. ومن فوائد الآية: تحريم الإفتاء بلا علم؛ وعلى هذا يجب على المفتي أن يتقي الله عزّ وجلّ، وألا يتسرع في الإفتاء؛ لأن الأمر خطير.
٧. ومن فوائد الآية: أن كثيرا من الناس يعتمدون على صحبة الأولياء، ويطلقون عنان أنفسهم فى المعاصي والشهوات، ويقولون : سمعنا من سيدى فلان يقول : من رآنا لا تمسه النار. وهذا غلط وغرور، وقد قَامَ

(١) تفسير ابن عثيمين:٢٦٠/١.
(٢) صفوة التفاسير: ٦٣/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٢١):ص١٥٧/١.
(٤) انظر: الكشاف: ١٥٨/١، وتفسير النسفي: ٧٣/١.
(٥) تفسير أبي السعود: ١٢١/١.
(٦) تفسير السعدي: ٥٧.

رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} قَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"[١] وقد روي عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوَضوئه وحاجته، فقال لي: "سل"، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: "أَوْ غيرَ ذلك؟!"، قلت: هو ذاك، قال: "فأعني على نفسك بكثرة السجود"[٢].

---

(١)رواه البخاري (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٦). فهذا كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأقاربه الأقربين : عمه ، وعمته ، وابنته ؛ فما بالك بمن هم أبعد ؟ فعدم إغنائه عنهم شيئا من باب أولى ، فهؤلاء الذين يتعلقون بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ويلوذون به ، ويستجيرون به الموجودون في هذا الزمن وقبله : قد غرهم الشيطان واجتالهم عن طريق الحق ؛ لأنهم تعلقوا بما ليس بمتعلق؛ إذ الذي ينفع بالنسبة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الإيمان به واتباعه.

ففي الحديث امتثال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمر ربه في قوله تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ) الشعراء/٢١٤، فإنه قام بهذا الأمر أتم القيام ؛ فدعا وعم وخصص ، وبين أنه لا ينجي أحدا من عذاب الله بأي وسيلة ، بل الذي ينجي هو الإيمان به واتباع ما جاء به ، وإذا كان القرب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يغني عن القريب شيئا ؛ دل ذلك على منع التوسل بجاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لأن جاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينتفع به إلا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولهذا كان أصح قولي أهل العلم تحريم التوسل بجاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " انتهى مختصرا ".(مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين " (٢٨٥/٩-٢٨٨).

ويقول الشيخ ابن باز رحمه الله: " المعيار الحقيقي هو اتباع ما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة قولا وعملا واعتقادا ، أما الأنساب فإنها لا تنفع ولا تجدي ، كما قال ﷺ: "من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه" – رواه مسلم - وقال : "يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا"، وهكذا قال لعمه العباس وعمته صفية وابنته فاطمة ، ولو كان النسب ينفع أحدا لنفع هؤلاء " انتهى. مجموع فتاوى ابن باز " (٩٨/٣).والله أعلم.

(٢)رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه ١/ ٣٥٣ (٤٨٩).

ويتعلق بهذا الحديث فوائد:

الفائدة الأولى :لقد كان ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه يخدم النبي ﷺ ويبيت معه، ويأتيه بوَضوئه وحاجته، وكانت نفسه تواقة بذلك إلى الجنة؛ ولذلك سأل النبي ﷺ أن يدعو له أن يكون رفيقًا له في الجنة، وهذا يدل على علو همته؛ إذ كان بإمكانه أن يسأل الدنيا بأسرها، يسأل المال والمتاع الزائل، إلا إنه لما خيره الرسول ﷺ بشيء يشفع له فيه عند ربه لم تَتُقْ نفسُه إلا إلى أعلى المعالي، فقال له النبي ﷺ وهو ينظر إلى خيرة أخرى: "أَوْ غيرَ ذلك"، فتمسك بما اختاره أولًا، وهكذا المؤمن ينبغي أن يكون ذا همة عالية مترفعة عن الدنايا، تواقة إلى ما عند الله تعالى.

الفائدة الثانية :دل الحديث على استحباب شكر الإنسان لمن يقدم له خدمة أو عملًا؛ فالنبي ﷺ أحب أن يكافئ ربيعة على خدمته له؛ فلذلك خيره فيما يريد، وقد جاء في حديث الأشعث بن قيس الكندي وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: "لا يشكر اللهَ مَن لا يشكر الناسَ"؛ رواه أحمد:٢١١ /٥ ، ٢١٢، ومن طريقه الضياء في الأحاديث المختارة ٤/ ٣٠٧، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٧١)، وحديث أبي هريرة نحوه: رواه أحمد ٢/ ٢٥٨، ٢٩٥، ٣٠٢، ٣٨٨، ٤٦١، ٤٩٢، وأبو داود في كتاب الأدب، باب في شكر المعروف ٤/ ٢٥٥ (٤٨١١)، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ٤/ ٣٣٩ (١٩٥٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والبخاري في الأدب المفرد ص٨٥ (٢١٨)، والطيالسي ص ٣٢٦، وصححه ابن حبان ٨/ ١٩٨ (٣٤٠٧)، والألباني في صحيح الجامع (٦٦٠١) وصحيح الترغيب والترهيب (٩٧٣)، فالإحسان للمحسن وشكره من محاسن الأخلاق التي دعا إليها النبي ﷺ بقوله وفعله، وجحود ذلك وإهماله من مساوئ الأخلاق التي ينبغي أن يترفع عنها المؤمن.

الفائدة الثالثة :لما كانت الجنة لا تنال إلا بالعمل الصالح أمر النبي ﷺ ربيعة رضي الله عنه أن يكثر من الصلاة، وفي هذا دليل على مشروعية الإكثار من صلاة النوافل، وقد شرع الله تعالى لنا في اليوم والليلة صلوات كثيرة، وصلاة النفل مشروعةٌ في كل وقت، إلا أوقات النهي عن الصلاة(وهي ثلاثة على الإجمال، وخمسة على التفصيل، وهي إجمالًا: من صلاة الفجر حتى ارتفاع الشمس قِيدَ رمح، ومن استواء الشمس في وسط السماء حتى تزول، ومن صلاة العصر حتى تغيب الشمس.)، وأفضلها صلاة الليل، وفي حديث ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة"؛ رواه أحمد وابن ماجه وهو صحيح(رواه أحمد ٥/ ٢٧٦، وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها، باب المحافظة على الوضوء ١/ ١٠١ (٢٧٧)، والدارمي ١/ ١٧٤ (٦٥٥)، وصححه ابن حبان ٣/ ٣١١ (١٠٣٧)، وقال الحاكم في المستدرك على الصحيحين ١/ ٢٢١: صحيح على شرط الشيخين، وقال العقيلي في الضعفاء ٤/ ١٦٨: إسناده ثابت عن ثوبان، وقال المنذري (الترغيب والترهيب ١/ ٩٧): رواه ابن ماجه بإسناد صحيح، وقال ابن عبدالهادي (تنقيح تحقيق أحاديث التعليق ٣/ ١٤٢): هو حديث صحيح، وقال الحافظ (فتح الباري ٤/ ١٠٨): الحديث صحيح، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٢/ ١٣٥ (٤١٢) وصحيح الجامع (٩٥٢)، فينبغي للمسلم ألا يغفل عن نوافل اليوم. والليلة؛ كالسنن الرواتب، وصلاة الضحى،

القرآن
{بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)} [البقرة : ٨١]
التفسير:
فحُكْمُ الله ثابت: أن من ارتكب الآثام حتى جَرَّته إلى الكفر، واستولت عليه ذنوبه مِن جميع جوانبه وهذا لا يكون إلا فيمن أشرك بالله، فالمشركون والكفار هم الذين يلازمون نار جهنم ملازمة دائمة لا تنقطع.
قوله تعالى: {بَلَى}[البقرة:٨١]، " أي: بلى تمسكم النار وتخلدون فيها"[١].
قال الزمخشري:" أى بلى تمسكم أبدا، بدليل قوله: {هُمْ فِيها خالِدُونَ}"[٢].
قا السعدي:" أي: ليس الأمر كما ذكرتم، فإنه قول لا حقيقة له"[٣].
قال المراغي:" أي ليس الأمر كما ذكرتم، بل تمسّكم النار وتمسّ غيركم دهرا طويلا"[٤].
قال ابن كثير:"يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون"[٥].
قال الواحدي:" ومعنى الآية: أنه ردّ على اليهود قولَهم: {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ} فقال: (بلى) أُعذِّبُ من كَسَبَ سَيِّئَةً"[٦].
قال الطبري:" تكذيب من الله القائلين من اليهود :{لن تمسنا النار إلا أياما معدودة}"[٧].
وقال الزجاج:" فألحق في هذه الآية، والإجماع أن هذا لليهود خاصة لأنه عزَّ وجلَّ في ذكرهم..والذي جرى في هذه الأقاصيص إنما هو إخبار عن إليهود"[٨].
وقوله : {بَلى}، إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ}، أي بلى تمسكم أبدا، بدليل قوله {هُمْ فِيها خالِدُونَ}"[٩].
وقوله{بَلَى}: حرف جواب كنعم، والفرق بينهما أن (بلى) لا يقع إلا فى جواب النفي ويصير إثباتا، تقول : ألم يأت زيد؟ فتقول بلى. أي : أتى، قال تعالى: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى..}[الأعراف: ١٧٢]، ومثله : قالُوا {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ} فقال تعالى: (بلى) أي تمسكم، أى تدخلوها بذنوبكم، ويخلد فيها كل كافر بالله معاند لحكمه[١٠]، بخلاف (نعم) فإنها لتقرير ما قبلها نفيا أو إثباتا، فإذا قيل : ألم يأت زيد؟ فقلت : نعم، أي لم يأت، وإذا قيل : هل أتى زيد فقلت: نعم، أي أتى، وقد نظم ذلك بعضهم فقال : «بلى» جواب النفي لكنه يصير إثباتا، كذا حرّروا[١١].
قوله تعالى:{مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً}[البقرة:٨١]، أي" من عمل سيئة"[١٢].
قال ابن عباس:" أي : من عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به"[١٣].
قال الثعلبي:"يعني الشرك"[١].

وقيام الليل، وصلاة الوتر، فهي مما يقربه من الله تعالى، ويدنيه من الجنة التي لأجلها شمر الصالحون، واجتهد المجتهدون. (انظر: حديث: أعني على نفسك بكثرة السجود، الشيخ عبدالرحمن بن فهد الودعان الدوسري، شبكة الآلوكة).
(١) محاسن التأويل: ٦٣/١.
(٢) الكشاف: ١٥٨/١.
(٣) تفسير السعدي:٥٧.
(٤) تفسير المراغي: ١٥٤/١.
(٥) تفسير ابن كثير: ٣١٥/١.
(٦) التفسير البسيط: ٩٦/٣.
(٧) تفسير الطبري: ٢٨٠/٢.
(٨) معاني القرآن: ١٦٢/١.
(٩) محاسن التأويل: ٣٤١/١.
(١٠) جاء في الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للحلبي(١/ ٤٥٥): أي بلى تَمَسُّكم أبداً، بدليلِ قولِه: {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} قاله الزمخشري، يريد أن «أبداً» في مقابَلَةِ قولهم: {إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} وهو تقديرٌ حَسَنٌ. قلتُ: وإن كنت أشم في تقدير الزمخشري رائحة نصرة عقيدته في الاعتزال، والتي فيها تخليد أصحاب الكبائر في جهنم.
(١١) انظر: تفسير البحر المديد: ١٢٥/١-١٢٦.
(١٢) تفسير ابن كثير: ٣١٥/١.
(١٣) أخرجه الطبري(١٤٢٠):ص٢٨٠/٢.

قال أبو السعود:" والكسبُ استجلابُ النفعِ وتعليقُه بالسيئة على طريقة {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[آل عمران:٢١، التوبة:٣٤، الانشقاق:٢٤]"[٢].

واختلف في تفسير {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً}[البقرة:٨١]، على وجهين[٣]:

أحدهما : أنها الشرك، وهذا قول ابن عباس[٤]، وروي عن أبي وائل[٥]، وأبي العالية[٦]، ومجاهد[٧]، وعكرمة[٨]، وعطاء[٩]، والحسن[١٠]في أحد قوليه، وقتادة[١١]، والربيع بن أنس[١٢]، مثل ذلك.

قال الواحدي:" وإجماع أهل التفسير: أن السيئةَ هاهُنا الشرك، وأنّ الآية وردت في اليهود"[١٣].

قلت: والصحيح: أن هذا قول أكثر السلف[١٤]، ولعل الذي دفع الواحدي لحكاية الإجماع، الرد على من حمل الآية على عصاة المؤمنين، كالمعتزلة والخوارج. والله أعلم.

والثاني : أن(السيئة) كبائر الذنوب التي وعد الله تعالى عليها النار، وأن (الخطيئة) هي الكفر، وهذا قول السدي[١٥] والحسن[١٦]، وقواه ابن عطية: فقال: "ولفظ الإحاطة تقوي هذا القول"[١٧].

والراجح هو أن (السيئة) التي ذكر الله في هذا المكان، فإنها الشرك بالله، وهو اختيار الإمام الطبري إذ تعضده مجموعة من الروايات حسنة الإسناد[١٨].

وأصحاب القولين على أن الآية إنما هي في الكفار لا في العصاة؛ لأن الله توعد أهل هذه الآية بالخلود في النار، وهذا إنما يكون في حق الكفار فقط، قال الواحدي:" والمؤمنون لا يدخلون في حكم هذه الآية، لأن الله تعالى أوعد بالخلود في النار من أحاطت به خطيئته، وتقدمت منه سيئة هي الشرك، والمؤمن ومن عمل الكبائر فلم يوجد منه شرك"[١٩].

قال القاسمي:" ذهب أهل السنة والجماعة إلى أنّ الخلود في النار إنما هو للكفار والمشركين لما ثبت في السنة، تواترا، من خروج عصاة الموحدين من النار، فيتعين تفسير السيئة والخطيئة، في هذه الآية، بالكفر والشرك. ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود"[٢٠].

قوله تعالى:{وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}[البقرة:٨١]، أي" اجتمعت عليه فمات عليها، قبل الإنابة والتوبة منها"[٢١].

---

(١) تفسير الثعلبي: ٢٢٦/١.
(٢) تفسير أبي السعود: ١٢٢/١.
(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٣١٥/١.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٢٣):ص١٥٧/١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٤٢١):ص٢٨١/٢.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٥٨/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٤٢٢):ص٢٨١/٢.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٥٨/١.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٤٢٧):ص٢٨٢/٢.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٥٨/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٤٢٤):ص٢٨١/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٤٢٨):ص٢٨٢/٢.
(١٣) التفسير البسيط: ٩٨/٣.
(١٤) انظر: "مجموع فتاوي ابن تيمية" ١٤/ ٤٨ وما بعدها، و"البحر المحيط" ١/ ٢٧٩، و"تفسير ابن كثير" ١/ ١١٩، وكتاب "الإجماع في التفسير" ص ١٧٧.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٤٢٦):ص٢٨١/٢-٢٨٢.
(١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٢٤):ص١٥٨/١.
(١٧) المحرر الوجيز: ١٧١/١.

(١٨) انظر: تفسير الطبري: ٢٨١/٢.
(١٩) الوسيط: ١/ ١٦٥.
(٢٠) محاسن التأويل: ٣٤١/١.
(٢١) تفسير الطبري: ٢٨٤/٢.

قال ابن عباس:" حتى يحيط كفره بما له من حسنة"[١].
وقال الضحاك:" قال : مات بذنبه"[٢].
قال الصابوني:" أي غمرته من جميع جوانبه، وسدّت عليه مسالك النجاة، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود"[٣].
قال أبو السعود:أي" من جميع جوانبِه بحيثُ لم يبقَ له جانبٌ من قلبه ولسانه وجوارحِه إلا وقد اشتملت واستولت عليه"[٤].
قال السعدي:" أي: أحاطت بعاملها، فلم تدع له منفذا، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته"[٥].
قال الزمخشري: أي"استولت عليه، كما يحيط العدوّ"[٦].
قال الأخفَش: "الخطأ: الإثم وهو ما أصابه متعمدًا، والخِطء غير المتعمد"[٧].
وقال اللّيث: "الخطيئة: الذنب على عمد"[٨].
و قال أبو علي: "والخطيئة تقع على الصغير والكبير، فمن وقوعها على الصغير قوله: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} [الشعراء: ٨٢]. ووقوعها على الكبير قوله: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}"[٩].
وأصل (الإحاطة بالشيء)، الإحداق به، بمنزلة (الحائط) الذي تحاط به الدار فتحدق به، ومنه قول الله جل ثناؤه: {نارا أحاط بهم سرادقها} [الكهف : ٢٩][١٠].
واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}[البقرة:٨١]، وذكروا فيه وجوها:
أحدها: أنه مات عليها، وهذا قول ابن جبير، وروي عن السدي[١١]، والربيع بن خُثَيم[١٢]، والضحاك[١٣]، وأبي رزين[١٤]، والأعمش،[١٥] نحو ذلك. وهو اختيار الطبري[١٦].
والثاني: أن معناه: سَدَّتْ عليه مسالك النجاة، وهذا قول ابن السراج[١٧].
والثالث: وقال مجاهد:"{وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} قال: بقلبه"[١٨].
والرابع: وقيل: أحاط به شركه. قاله أبو هريرة[١٩]، وابن عباس[٢٠]، وأبو وائل[١]، وعطاء[٢]، والحسن في رواية عباد بن منصور[٣].

---

(١) أخرجه الطبري(١٤٢٠):ص٢/٢٨٠.
(٢) أخرجه الطبري(١٤٢٩):ص٢/٢٨٤.
(٣) صفوة التفاسير: ٦٣/١.
(٤) تفسير أبي السعود: ١٢٢/١.
(٥) تفسير السعدي: ٥٧.
(٦) الكشاف: ١٥٨/١. وتمام قوله:" ولم ينقص عنها بالتوبة. انتهى كلامه. قال الواحدي: "وهذا من دسائسه التي ضمنها كتابه ، إذ اعتقاد المعتزلة أن من أتى كبيرة ، ولم يتب منها ، ومات ، كان خالداً في النار".[البحر المحيط: ٢٣٩/١].
(٧) الحجة: ١/ ١١٥. وبنحوه في: معاني القرآن: ٤٢٢/٢،
(٨)التفسير البسيط: ٩٩/٣، وذكره في "تهذيب اللغة" ١/ ١٠٦٠، "اللسان" ٢/ ١٢٠٥ولم ينسبه لليث.

(٩)"الحجة" لأبي علي ١/ ١١٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٢٨٤/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٤٤١):ص٢/٢٨٦.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٤٣٠):ص٢/٢٨٤، وابن أبي حاتم(٨٢٨):ص١/١٥٨.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٤٢٩):ص٢/٢٨٤.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٤٣٧):ص٢/٢٨٥.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٤٣٩):ص٢/٢٨٥.
(١٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٨٤/٢.
(١٧) انظر: النكت والعيون: ١٥٣/١، والتفسير البسيط: ٩٩/٣.
(١٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٢٥):ص١/١٥٨.
(١٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٢٧):ص١/١٥٨.
(٢٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٢٦):ص١/١٥٨.

والخامس: أن الخطيئة: الكبيرة الموجبة. قاله أبو العالية[٤]، ومجاهد[٥]، والحسن[٦]، وقتادة[٧]، والربيع بن أنس[٨].
السادس: وقال الكلبي: أوبقته ذنوبه، ودليله قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ}[يوسف:٦٦]، أي تهلكوا جميعا[٩].
وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، والله أعلم. ويذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمرو بن قتادة عن عبد ربه، عن أبي عياض، عن عبد الله بن مسعود : أن رسول الله ﷺ قال : "إيَّاكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه". وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهُنَّ مثلا كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، وأججوا نارًا، فأنضجوا ما قذفوا فيها[١٠][١١].
وذكر الواحدي في تفسير قوله تعالى:{وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُه}[البقرة:٨١]، ثلاثة أوجه[١٢]:
الأول: أحاطت بحسنته خطيئته، أي: أحبطتها من حيثُ كان المحِيط أكبر مِنَ المحاط به، فيكون كقوله: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [العنكبوت: ٥٤]، وقوله: {أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} [الكهف: ٢٩].
والثاني: أهلكته، من ذلك قوله: {لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ} [يوسف: ٦٦]، وقوله: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ} [يونس: ٢٢]، وقوله: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} [الكهف: ٤٢] وهذا كله في معنى البوار.
والثالث: العلم، ومن ذلك قوله: {وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا} [الكهف: ٩١]. وقال: {وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ} [البروج: ٢٠]، أي: عالم.
وقرأ أهل المدينة {خطيّاته}، بالجمع، وقرأ الباقون {خَطِيئَتُهُ}، على الواحدة، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم[١٣].
قال أبو السعود: وفي القراءة بصيغة الجمع، "إيذانٌ بكثرة فنون كفرهم"[١٤].
قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة : ٨١]، " أي فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبداً"[١٥].
قال ابن عباس:" أي خالدون أبدا"[١٦].
وقال السدي:" لا يخرجون منها أبدا"[١٧].
قال البيضاوي:" ملازموها في الآخرة كما أنهم ملازمون أسبابها في الدنيا"[١٨].
قال أبو حيان:" ويعني بـ{أصحاب النار}: الذين هم أهلها حقيقة، لا من دخلها ثم خرج منها"[١٩].

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٥٨/١.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٥٨/١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٥٨/١.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٢٩):ص١/!٥٩.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٤٣٢):ص٢٨٤/٢-٢٨٥.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٤٣٥):ص٢٨٥/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٤٣٣):ص٢٨٥/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٤٤٠):ص٢٨٥/٢.
(٩) اظر: تفسير الثعلبي: ٢٢٧/١.
(١٠)المسند (٤٠٢/١) الرقم(٣٨٠٣). حسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٧).
(١١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣١٥/١-٣١٦.
(١٢) انظر: التفسير البسيط: ٩٨/٣، والحجة للقراء السبعة" ٢/ ١١٤ - ١١٥.
(١٣) انظر: السبعة: ١٦٢، وتفسير الثعلبي: ٢٢٦/١.
(١٤) تفسير أبي السعود: ١٢٢/١.
(١٥) صفوة التفاسير: ٦٣/١.
(١٦) أخرجه الطبري(١٤٤٣):ص٢٨٦/٢.
(١٧) أخرجه الطبري(١٤٤٤):ص٢٨٧/٢.
(١٨) تفسير البيضاوي: ٩٠/١.
(١٩) البحر المحيط: ٢٤٠/١.

قال السعدي:" وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بآية، أو حديث صحيح على قوله الباطل فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه"(١).

وقال أبو السعود:" فلا حجةَ في الآيةِ الكريمةِ على خلود صاحبِ الكبيرة لما عرفت من اختصاصها بالكافر ولا حاجة إلى حمل الخلودِ على اللُّبث الطويل على أن فيه تهوينَ الخطب في مقام التهويل"(٢).

قال ابن عطية:" والخلود في هذه الآية على الإطلاق والتأبيد في المشركين، ومستعار بمعنى الطول والدوام في العصاة وإن علم انقطاعه، كما يقال ملك خالد ويدعى للملك بالخلد"(٣).

الفوائد:

١. من فوئاد الآية: أن الثواب والعقاب لا يترتب على الأشخاص بحسب النسب، أو الانتماء؛ وإنما هو بحسب العمل.

٨. ومنها: أن من أحاطت به خطيئته فلم يكن له حسنة فإنه من أصحاب النار الذين لا يخرجون منها.

٩. ومنها: أن من كسب سيئة لكن لم تحط به الخطيئة فإنه ليس من أصحاب النار؛ لكن إن كان عليه سيئات فإنه يعذب بقدرها . ما لم يعف الله سبحانه وتعالى عنه.

١٠. ومنها: إثبات النار، وأنها دار الكافرين

١١. ومنها: خلود أهل النار فيها؛ وهو خلود مؤبد لا يخفف عنهم فيه العذاب، وقد صرح الله عزّ وجلّ بتأبيد الخلود فيها في ثلاثة مواضع من القرآن؛ الأول: في سورة النساء في قوله تعالى: {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً} [النساء: ١٦٨، ١٦٩] ؛ الموضع الثاني: في سورة الأحزاب في قوله تعالى: {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً * خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً} [الأحزاب: ٦٤، ٦٥] ؛ الموضع الثالث: في سورة الجن في قوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً} [الجن: ٢٣] .

١٢. ومن فوائد الآية: أن أهل الجنة هم الذين قاموا بالإيمان، والعمل الصالح؛ ولا يكون العمل صالحاً إلا بأمرين: الإخلاص لله عزّ وجلّ، والمتابعة للرسول ﷺ، والدليل على ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"(١). وهذا فُقِدَ فيه الإخلاص؛ وقول النبي ﷺ: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ"(٢) . وهذا فُقِدَ فيه المتابعة؛ وكذلك قول الرسول ﷺ "فأيما شرط كان ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مِائة شرط(٣).

القرآن

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)} [البقرة : ٨٢]

التفسير:

وحكم الله الثابتُ في مقابل هذا: أنَّ الذين صدَّقوا بالله ورسله تصديقًا خالصًا، وعملوا الأعمال المتفقة مع شريعة الله التي أوحاها إلى رسله، هؤلاء يلازمون الجنة في الآخرة ملازمةً دائمةً لا تنقطع.

قال أبو حيان:" لما ذكر أهل النار، وما أعد لهم من الهلاك : أتبع ذلك بذكر أهل الإيمان، وما أعد لهم في الخلود في الجنان. وقلّ ما ذكر في القرآن آية في الوعيد، إلا وذكرت آية في الوعد. وفائدة ذلك ظهور عدله تعالى، واعتدال رجاء المؤمن وخوفه، وكمال رحمته بوعده وحكمته بوعيده"(٤).

---

(١) تفسير السعدي: ٥٧.

(٢) تفسير أبي السع

(٣) المحرر الوجيز: ١٧١/١.

(١) سبق تخريجه ص٩٠.

(٢) سبق تخريجه ص٩١.

(٣) أخرجه البخاري ص٢٠١ – ٢٠٢، كتاب المكاتب، باب ٣: استعانة المكاتب وسؤاله الناس، حديث رقم ٢٥٦٣؛ وأخرجه مسلم ص٩٣٧، كتاب العتق، باب ١: ذكر سعاية العبد، حديث رقم ٣٧٧٩ [٨] ١٥٠٤.

(٤) البحر المحيط: ٢٤٠/١.

قوله تعالى: {والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات}[البقرة:٨٢]، "أي وأما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان، والعمل الصالح"[١].
قال ابن عباس:" أي من آمن بما كفرتم وعمل ما تركتم من دينه"[٢].
قال الطبري: أي: والذين "صدقوا بما جاء به محمد ﷺ، وأطاعوا الله فأقاموا حدوده، وأدوا فرائضه، واجتنبوا محارمه"[٣].
قال ابن عثيمين:" أي الذين صدقوا بما يجب الإيمان به مع القبول، والإذعان؛ فلا يكون الإيمان مجرد تصديق؛ بل لا بد من قبول للشيء، واعتراف به، ثم إذعان، وتسليم لما يقتضيه ذلك الإيمان، وعملوا الأعمال الصالحات؛ والعمل يصدق على القول، والفعل؛ وليس العمل مقابل القول؛ بل الذي يقابل القول: الفعل؛ وإلا فالقول، والفعل كلاهما عمل؛ لأن القول عمل اللسان، والفعل عمل الجوارح"[٤].
قال السعدي :"ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعا بها سنة رسوله، فحاصل هاتين الآيتين، أن أهل النجاة والفوز، هم أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار المشركون بالله، الكافرون به"[٥].
وأخرج الطبري عن ابن زيد، أنه: "{والذين آمنوا وعملوا الصلحات}، محمد ﷺ وأصحابه"[٦].
واختلف في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}[البقرة:٨٢]، على قولين[٧]:
أحدهما: أن المراد بـ{الذين آمنوا}، أمّة محمد صلى الله عليه وسلّم، ومؤمنوا الأمم قبله، قاله ابن عباس[٨] وغيره.
والثاني: أنه خاص بالنبي -صلى الله عليه وسلّم- وأمّته. قاله ابن زيد[٩].
قوله تعالى: {أولئك أَصْحَابُ الجنة}[البقرة:٨٢]، "أي أهلها الملازمون لها"[١٠].
قال ابن عثيمين: "لأن الصحبة ملازمة"[١١].
و{الجنة}:الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين؛ وفيها كما قال الرسول ﷺ "ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[١٢]، كقوله تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون} [السجدة: ١٧] "[١٣].
قوله تعالى:{هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة:٨٢]، "أي مخلدون في الجنان لا يخرجون منها أبداً"[١٤].
قال ابن عثيمين: "أي ماكثون لا يخرجون منها"[١٥].
قال ابن عباس:"فلهم الجنة خالدين فيها، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله لا انقطاع له"[١٦].

---

(١) صفوة التفاسير: ٦٣/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٣٢):ص١٥٩/١.
(٣) تفسير الطبري:٢٨٧/٢.
(٤) تفسير ابن عثيمين:٢٦٢/١.
(٥) تفسير السعدي: ٥٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٤٤٦):ص٢٨٧/٢-٢٨٨، وابن أبي حاتم(٨٣١):ص١٥٩/١.
(٧) انظر: البحر المحيط: ٢٤٠/١.
(٨) انظر: البحر المحيط: ٢٤٠/١.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٤٤٦):ص٢٨٧/٢-٢٨٨، وابن أبي حاتم(٨٣١):ص١٥٩/١.
(١٠) تفسير ابن عثيمين:٢٦٣/١.
(١١) تفسير ابن عثيمين:٢٦٣/١.
(١٢)اخرجه البخاري ص٢٦٣، كتاب بدء الخلق، باب ٨: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم ٣٢٤٤؛ وأخرجه مسلم ص١١٦٩، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ١: صفة الجنة، حديث رقم ٧١٣٠ [٢] ٢٨٢٤.
(١٣) تفسير ابن عثيمين:٢٦٣/١.
(١٤) صفوة التفاسير: ٦٣/١.
(١٥) تفسير ابن عثيمين:٩٣/١.
(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٣٢):ص١٥٩/١.

من فوائد الآية:
١. أن أهل الجنة هم الذين قاموا بالإيمان، والعمل الصالح؛ ولا يكون العمل صالحاً إلا بأمرين: الإخلاص لله عزّ وجلّ، والمتابعة للرسول ﷺ، والدليل على ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"[١]. وهذا فُقِدَ فيه الإخلاص؛ وقول النبي ﷺ: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ"[٢]. وهذا فُقِدَ فيه المتابعة؛ وكذلك قول الرسول ﷺ "فأيما شرط كان ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مِائة شرط[٣] ".
٢. ومن فوائد الآية: أن الإيمان وحده لا يكفي لدخول الجنة؛ بل لا بد من عمل صالح.
٣. ومنها: أن العمل وحده لا يكفي حتى يكون صادراً عن إيمان؛ لقوله تعالى:{آمنوا وعملوا الصالحات{، ولذلك لم ينفع المنافقين عملهم؛ لفقد الإيمان في قلوبهم.
٤. ومنها: بلاغة القرآن، وحسن تعليمه؛ حيث إنه لما ذكر أصحاب النار ذكر أصحاب الجنة؛ وهذا من معنى قول الله تعالى: {الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني} [الزمر: ٢٣] ؛ فإن من معاني المثاني أن تثنى فيه الأمور؛ فيذكر الترغيب والترهيب؛ والمؤمن والكافر؛ والضار والنافع؛ وما أشبه ذلك.
٥. ومنها: إثبات الجنة.
٦. ومنها: أن أصحاب الجنة مخلدون فيها؛ وتأبيد الخلود في الجنة صرح الله سبحانه وتعالى به في آيات عديدة[١].

القرآن
{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)} [البقرة : ٨٣]

التفسير:
واذكروا يا بني إسرائيل حين أَخَذْنا عليكم عهدًا مؤكدًا: بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تحسنوا للوالدين، وللأقربين، وللأولاد الذين مات آباؤهم وهم دون بلوغ الحلم، وللمساكين، وأن تقولوا للناس أطيب الكلام، مع أداء الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم أَعْرَضْتم ونقضتم العهد -إلا قليلا منكم ثبت عليه- وأنتم مستمرون في إعراضكم.
قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}[البقرة:٨٣]، " أي اذكروا إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل"[٢].
قال الصابوني:" أي اذكروا حين أخذنا على أسلافكم يا معشر اليهود العهد المؤكد غاية التأكيد"[٣].
واختلف أهل العلم في الميثاق على قولين[٤]:
الأول: أنه "الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذر". قاله مكي[٥].
وضعّفه ابن عطية[٦].

---

(١) أخرجه مسلم ص١١٩٥، كتاب الزهد، باب ٤: تحريم الرياء، حديث رقم ٧٤٧٥ [٤٦] ٢٩٨٥.
(٢) أخرجه البخاري ص٢١٤، كتاب الصلح، باب ٥: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم ٢٦٩٧؛ وأخرجه مسلم ص٩٨٢ – ٩٨٣، كتاب الأقضية، باب ٨: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم ٤٤٩٣ [١٨] ١٧١٨، واللفظ لمسلم.
(٣) أخرجه البخاري ص٢٠١ – ٢٠٢، كتاب المكاتب، باب ٣: استعانة المكاتب وسؤاله الناس، حديث رقم ٢٥٦٣؛ وأخرجه مسلم ص٩٣٧، كتاب العتق، باب ١: ذكر سعاية العبد، حديث رقم ٣٧٧٩ [٨] ١٥٠٤.
(١) قال ابن عطية:" يدل هذا التقسيم على أن قوله {مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً}، الآية في الكفار لا في العصاة، ويدل على ذلك أيضا قوله: {أَحاطَتْ}، لأن العاصي مؤمن فلم تحط به خطيئته، ويدل على ذلك أيضا أن الرد كان على كفار ادعوا أن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة فهم المراد بالخلود، والله أعلم".[المحرر الوجيز: ١٧١/١].
(٢) تفسير ابن عثيمين:٢٦٦/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٦٥/١.
(٤) انظر: تفسير القرطبي: ١٢/٢.
(٥) المحرر الوجيز: ١٧٢/١.
(٦) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٢/١.

والثاني: وقيل : هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على ألسنة أنبيائهم، وهو قوله : {لا تعبدون إلا الله} وعبادة الله إثبات توحيده، وتصديق رسله، والعمل بما أنزل في كتبه.

قال ابن جريج: " الميثاق الذي أخذ عليهم في سورة المائدة[١]"[٢]. وروي عن أبي العالية نحوه[٣].

والراجح -والله أعلم- هو القول الثاني، " وإنما هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم، على لسان موسى عليه السلام وغيره من أنبيائهم عليهم السلام"[٤].

قوله تعالى: {لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} [البقرة : ٨٣]، أي:" بأن لا تعبدوا غير الله"[٥].

قال أبو العالية:" أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له ولا يعبدوا غيره"[٦].

واختلف في موضع {لَا تَعْبُدُونَ}[البقرة:٨٣]، من الأعراب على خمسة أقوال[٧]:

القول الأول: قال الكسائي[٨]: رفعه على: أن لا يعبدوا، كأنه قيل: أخذنا ميثاقهم بأن لا يعبدوا، إلا أنه لما أسقطت (أن) رفع الفعل كما قال طرفة[٩]:

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى   وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

أراد أن أحضر ولذلك عطف عليه (أن)، وأجاز هذا الوجه الأخفش[١٠] والفراء[١١] والزجاج[١٢] وقطرب وعلي بن عيسى وأبو مسلم.

وأنكر المبرد هذا القول، وقال: هو خطأ من وجهين[١٣]:

أحدهما: أن كل ما أضمر في العربية فهو يعمل عمله مُظْهَرًا، كقولهم: وبلدٍ قطعت، يراد: ورُبَّ بلد قطعت، وكقوله تعالى: {نَاقَةَ اللهِ} [الشمس: ١٣] أي: احذروا، وكقوله: {قَالُوا مَعْذِرَةً} [الأعراف: ١٦٤] أي: موعظتنا معذرة.

والثاني: أنه لا يجوز حذف الموصول في شيء من الكلام.

واعترض الواحدي على قول المبرد فقال:"وليس الأمر على ما قاله المبرد، فقد أجاز قولَ الكسائي: الأخفشُ والفراءُ وقطرب والزجّاج وعلي بن عيسى [١][٢]، ودعواه أن كل ما أضمر في العربيّة فهو يعمل

---

(١)ذكره في الآية(٧) {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [المائدة : ٧].
والآية(١٢): {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [المائدة : ١٢]
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٣٥):ص١٦٠/١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٣٤):ص١٦٠/١.
(٤) المحرر الوجيز: ١٧٢/١.
(٥) صفوة التفاسير: ٦٥/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٣٤):١٦٠/١.
(٧) انظر: تفسير الثعلبي: ١/ ١٠١٣، والتفسير البسيط: ١٠٣/٣-١٠٥، ومعاني القرآن" للأخفش ١/ ١٣٣، "تفسير الطبري" ١/ ٣٨٨ - ٣٨٩، اولبيان لابن الأنباري ١/ ١٠١، والبحر المحيط" ١/ ٢٨٣، ومفاتيح الغيب: ١٥٠/٢.
(٨) نقله عن الكسائي الثعلبي في "تفسيره" ١/ ١٠١٣، وينظر: "معاني القرآن" للأخفش ١/ ١٣٣، "تفسير الطبري" ١/ ٣٨٨ - ٣٨٩، "البيان" لابن الأنباري ١/ ١٠١، "البحر المحيط" ١/ ٢٨٣.
(٩)البيت لطرفة بن العبد في ديوانه ص ٣٢؛ والإنصات ٢/ ٥٦٠؛ وخزانة الأدب ١/ ١١٩، ٨/ ٥٧٩؛ والدرر ١/ ٧٤؛ وسر صناعة الإعراب ١/ ٢٨٥؛ وشرح شواهد المغني ٢/ ٨٠٠؛ والكتاب ٣/ ٩٩، ١٠٠، ولسان العرب ١٣/ ٣٢ (أنن)، ١٤/ ٢٧٢ (دنا)؛ والمقاصد النحوية ٤/ ٤٠٢؛ والمقتضب ٢/ ٨٥؛ وبلا نسبة في خزانة الأدب ١/ ٤٦٣، ٨/ ٥٠٧، ٥٨٠، ٥٨٥؛ والدرر ٣/ ٣٣، ٩/ ٩٤؛ ورصف المباني ص ١١٣؛ وشرح ابن عقيل ص ٥٩٧؛ ومجالس ثعلب ص ٣٨٣؛ ومغني اللبيب ٢/ ٣٨٣، ٦٤١؛ وهمع الهوامع ٢/ ١٧.
اللغة والمعنى: الوغى: الحرب. مخلدي: ضامن بقائي خالدا.
(١٠) انظر: معاني القرآن للأخفش ١/ ١٢٦.
(١١) انظر: معاني القرآن للفراء: ٥٣/١.
(١٢) انظر: معاني القرآن: ١٦٣/١.
(١٣)مقولة المبرد نقلها الواحدي في التفسير البسيط: ١٠٣/٣، والقرطبي في تفسيره: ٢/ ١٣.

عمله مظهرًا ليس كذلك، وهو على ضربين: منه ما هو على ما ذكر، ومنه ما ليس كذلك (٣)، كحروف الجر إذا حذفت وهي تزاد، كقوله[٣]:

أمرتُك الخيرَ فافعل ما أُمِرتَ به فقد تركتُك ذا مالٍ وذا نَشَبِ

يريد بالخير، وقال الله تعالى: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ} [الأعراف: ١٥٥] فلما حَذف مِنْ وصل الفعل فنصب. كذلك هاهُنا لمّا حذف (أن) وصل عامل الرفع فرفع الفعل، وقوله: لا يحذف الموصول في شيء من الكلام ليس كذلك؛ لأن الموصول مع صلته بمنزلة اسم واحد، والاسم الواحد قد يحذف بعضه بالترخيم"[٤].

القول الثاني: موضعه رفع على أنه جواب القسم، كأنه قيل: وإذا أقسمنا عليهم لا يعبدون، وأجاز هذا الوجه المبرد[٥] والكسائي[٦] والفراء[٧] والزجاج[٨] وهو أحد قولي الأخفش[٩].

والدليل على ذلك قوله: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ} [آل عمران: ٨١]، القسم بـ (لام)، فكذلك هو في النفي بـ (لا)، وكان المعنى: استحلَفناهم وقلنا لهم: والله لا تعبدون[١٠].

القول الثالث: وقيل: هو في موضع الحال، أي أخذنا ميثاقهم موحدين، أو غير عابدين إلا الله، أو غير معاندين، قاله قطرب والمبرد أيضا[١١].

القول الرابع: قول الفراء[١٢] أن موضع {لا تعبدون} على النهي، إلا أنه جاء على لفظ الخبر كقوله تعالى: {لا تضار والدة بولدها} [البقرة: ٢٣٣] بالرفع والمعنى على النهي، والذي يؤكد كونه نهيا أمور:

أحدها: قوله: {أقيموا}، وثانيها؛ أنه ينصره قراءة عبد الله وأبي: {لا تعبدوا}. وثالثها: أن الإخبار في معنى الأمر والنهي آكد وأبلغ من صريح الأمر والنهي، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه.

القول الخامس: التقدير أن لا تعبدوا تكون "أن" مع الفعل بدلا عن الميثاق، كأنه قيل: أخذنا ميثاق بني إسرائيل بتوحيدهم.

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {لَا تَعْبُدُونَ}[البقرة : ٨٣]، على وجوه[١٣]:

أحدها:{لا يعبدون}، بالياء. قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي.

والثاني:{لَا تَعْبُدُونَ}، بالتاء من فوق، قرأ بها أبو عمرو ونافع وعاصم وابن عامر، حكاية ما قيل لهم.

والثالث:{لا تعبدوا}، على النهي، قرأ بها أبيّ بن كعب وابن مسعود.

قوله تعالى:{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}[البقرة:٨٣]، " أي "وأمرناهم بالوالدين إحسانا"[١٤].

---

(١)ينظر في الأقوال في المسألة: "معاني القرآن" للفراء ١/ ٥٣ ـ ٥٤، "معاني القرآن" للأخفش ١/ ١٢٦، "معاني القرآن" للزجاج ١/ ١٦٢، "البحر المحيط" ١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٢)هو: علي بن عيسى بن الفرج بن صالح، أبو الحسن الربعي النحوي، صاحب أبي علي الفارسي، درس النحو وتفنن فيه حتى ما بقي له شيء يحتاج أن يسأل عنه، من مؤلفاته: "شرح مختصر الجرمي"، توفي سنة هـ ٤٢٠ ص. وينظر "إنباه الرواة" ٢/ ٢٩٧، و"تاريخ بغداد" ١٢/ ١٧ ـ ١٨.

(٣)البيت: لعمرو بن معد يكرب، وتتمته:

أمرتُك الخيرَ فافعل ما أُمِرتَ به ... فقد تركتُك ذا مالٍ وذا نَشَبِ

"مغني اللبيب" ١/ ٣١٥، وقد عزاه في "الكتاب" ١/ ٣٧ لعمرو بن معدي كرب الزبيدي، واختلف في قائله كما في "الخزانة" ١/ ١٦٤ ـ ١٦٦، والنشب: المال الثابت كالضياع ونحوها، من نشب الشيء، والمال: الإبل أو هو عام، والشاهد فيه: أمرتك الخير أراد: أمرتك بالخير.

(٤) التفسير البسيط: ١٠٤/٣-١٠٥. والترخيم: ما حذف من آخره حرف واحد أو أكثر للتخفيف، نحو: يا فاطم.

(٥) انظر: التفسير البسيط: ١٠٥/٣، والبحر المحيط ١/ ٢٨، وتفسير القرطبي: ١١/٢.

(٦) انظر: التفسير البسيط: ١٠٥/٣، والبحر المحيط ١/ ٢٨، وتفسير القرطبي: ١١/٢.

(٧) انظر: معاني القرآن: ٥٤/١.

(٨) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٦٣/١.

(٩) انظر: معاني القرآن للأخفش :١/ ١٢٦.

(١٠) انظر: معاني القرآن" للفراء ١/ ٥٤، والبحر المحيط ١/ ٢٨، والتفسير البسيط: ١٠٥/٣، وتفسير القرطبي: ١١/٢.

(١١) انظر: التفسير البسيط: ١٠٣/٣، والبحر المحيط: ٢٨٢/١، تفسير القرطبي: ١٣/٢.

(١٢) انظر: معانيا لقرآت للفراء: ٥٣/١.

(١٣) انظر:السبعة في القراءات: ١٦٣، والمحرر الوجيز: ١٧٢/١.

(١٤) تفسير القرطبي: ١٣/٢.

قال مقاتل بن حيان:" فيما أمركم به من حق الوالدين"[١].
قال الصابوني:"أي وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً"[٢].
قال القرطبي:"وقرن الله عز وجل في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد، لأن النشأة الأولى من عند الله، والنشء الثاني - وهو التربية - من جهة الوالدين، ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره فقال : {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} [لقمان : ١٤]. والإحسان إلى الوالدين : معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتثال أمرهما، والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما، وصلة أهل ودهما"[٣].
واختلف في اتصال (الباء) وانتصابه، في قوله تعالى {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}[البقرة:٨٣]،على أقوال[٤]:
الأول: قال الزجاج: انتصب على معنى أحسنوا بالوالدين إحسانا، فجعل (الباء) التي في {الوالدين} من صلة الإحسان، مقدمة عليه[٥].
وقد اعترض الإمام الطبري على هذا الوجه[٦].
والثاني: قيل:على معنى وصيناهم بالوالدين إحسانا، لأن اتصال الباء به أحسن على هذا الوجه ولو كان على الأول لكان، وإلى الوالدين كأنه قيل: وأحسنوا إلى الوالدين[٧].
والثالث: وقيل: بل هو على الخبر المعطوف على المعنى الأول يعني أن تعبدوا وتحسنوا.
قال الإمام الطبري: :وقوله جل ثناؤه : {وبالوالدين إحسانا} عطف على موضع (أن) المحذوفة في(لا تعبدون إلا الله)، فكان معنى الكلام : وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل بأن لا تعبدوا إلا الله وبالوالدين إحسانا. فرفع(لا تعبدون) لما حذف (أن)، ثم عطف بالوالدين على موضعها، كما قال الشاعر[٨] :
معاوي إننا بشر فأسجح   فلسنا بالجبال ولا الحديدا
فنصب(الحديد)على العطف به على موضع (الجبال)، لأنها لو لم تكن فيها (باء) خافضة كانت نصبا، فعطف بـ(الحديد) على معنى (الجبال)، لا على لفظها. فكذلك ما وصفت من قوله : (وبالوالدين إحسانا)"[٩].
قلت: وهذا الذي ذكره القرطبي وجه حسن.
وأما (الإحسان) الذي أخذ عليهم وبالوالدين الميثاق، فيشمل : "فعل المعروف لهما، والقول الجميل، وخفض جناح الذل رحمة بهما، والتحنن عليهما، والرأفة بهما، والدعاء بالخير لهما، وما أشبه ذلك من الأفعال التي ندب الله عباده أن يفعلوا بهما"[١٠].
قوله تعالى: {وَذِي الْقُرْبَى}[البقرة:٨٣]، أي "وإحساناً بذي القربى"[١١].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٣٧):ص١/!٦٠.
(٢) صفوة التفاسير: ٦٥/١.
(٣) تفسير القرطبي: ١٣/٢.
(٤) انظر: تفسير الرازي: ١٥١/٢.
(٥) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٦٣/١، وانظر: معاني القرآن للأخفش: ١٢٧/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٩١/٢.
(٧) انظر: تفسير الثعلبي: ١/ ١٠١٤، والتفسير البسيط: ١٠٧/٣، والبحر المحيط: ١/ ٢٨٣ - ٢٨٤.
(٨)البيت للشاعر عقيبة بن هبيرة الأسدي ، جاهلي إسلامي، انظر: سيبويه ١ : ٣٤ ، ٣٧٥ ، ٤٤٨ ، والخزانة ١ : ٣٤٣ ، وسمط اللآلئ : ١٤٩ وفيه تحقيق جيد . وهذا البيت مما أخطأ فيه سيبويه ، وكان عقيبة وفد على معاوية ، ودفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات :
معاوي إننا بشر فأسجح   فلسنا بالجبال ولا الحديد
فهبها أمة ذهبت ضياعا   يزيد أميرها وأبو يزيد
أكلتم أرضنا فجردتموها   فهل من قائم أو من حصيد ؟
ذروا خَوْنَ الخلافة واستقيموا   وتأمير الأراذل والعبيد
وأعطونا السوية ، لا تزركم   جنود مردفات بالجنود
فدعاه معاوية فقال له : ما أجرأك علي ؟ قال : نصحتك إذ غشوك ، وصدقتك إذ كذبوك . فقال معاوية : ما أظنك إلا صادقا .
(٩) تفسير الطبري: ٢٩٠/٢-٢٩١.
(١٠) تفسير الطبري: ٢٩٢/٢.
(١١) تفسير ابن عثيمين:٢٦٧/١.

قال مقاتل بن حيان:" يعني القرابة"[١].

قال القرطبي:"أي وأمرناهم بالإحسان إلى القرابات بصلة أرحامهم"[٢].

قال أبو حيان:" القربى: مصدر كالرجعى، والألف فيه للتأنيث، وهي قرابة الرحم والصلب"[٣]، ومنه قول طرفة[٤]:

وَقَرّبْتُ بالقُرْبَى وَجدَّ كَإِنَّني   متى يَـــكُ أَمْــرٌ لِلنّكيثَةِ أَشْهَدِ

قال ابن عثيمين: ويشمل القرابة من "قِبَل الأم، ومن قِبَل الأب، لأن {القربى} جاءت بعد {الوالدين}[٥].

قوله تعالى:{وَالْيَتَامَى}[البقرة:٨٣]، أي يحسنوا أيضا إلى" اليتامى، الذين مات آباؤهم وهم صغار"[٦].

و{اليتامى}: "جمع يتيم، مثل: نديم وندَامى، ويجمع أيتامًا أيضًا، واليُتمْ في الناس فُقْدان الأب، وفي غير الإنسان من قبل الأم"[٧].

واختلف في أصل (اليتيم) في اللغة على ثلاثة أوجه[٨]:

أحدها: أن (اليتيم) في كلام العرب: الإنفراد. قاله أحمد بن يحيى[٩].

والثاني: أن أصله(الغفلة)، وبه سُمي اليتيم؛ لأنه يُتَغَافل عن بره. قاله المفضل[١٠].

والثالث: أن (اليتيم)، من الإبطاء. يقال: ما في سَيرِه أَتَمٌ ويتم أي: إبطاء، ومنه أُخِذَ اليتيم؛ لأن البرّ يبطيء عنه. قاله أبو عمرو[١١].

وقال ابن العربي:" اليتيم: هو في اللغة عبارة عن المفرد من أبيه، وقد يطلق على المفرد من أمه، والأول أظهر لغة، وعليه وردت الأخبار والآثار، ولأن الذي فقد أباه عدم النصرة، والذي فقد أمه عدم الحضانة، وقد تنصر الأم لكن نصرة الأب أكثر، وقد يحضن الأب لكن الأم أرفق حضانة"[١٢].

قوله تعالى:{وَالْمَسَاكِينِ}[البقرة:٨٣]، أي يحسنوا أيضا إلى"المساكين الذين عجزوا عن الكسب"[١٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٣٨):ص١٦٠/١.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ١٤/٢.

(٣) البحر المحيط:٢٨١/١، وانظر: التفسير البسيط: ١٠٧/٣.

(٤) شرح المعلقات السبع للزوزني: ٦٢.

(٥) انظر: تفسير ابن عثيمين:٢٦٨/١.

(٦) صفوة التفاسير: ٦٥/١.

(٧) التفسير البسيط: ١٠٨/٣، وانظر: معاني القرآن" للزجاج ١/ ١٦٣، "أحكام القرآن" للجصاص ١/ ٤٥٢ "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٩٧٤، "اللسان" ١٢/ ٦٤٥.

(٨) انظر: تهذيب اللغة" ٤/ ٣٩٧٤، "البحر المحيط" ١/ ٢٨١، "اللسان" ٨/ ٤٩٤٨، "القاموس" ١١٧٢، والتفسير البسيط: ١٠٩/٣،

(٩) انظر: "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٩٧٤، "البحر المحيط" ١/ ٢٨١، "اللسان" ٨/ ٤٩٤٨، "القاموس" ١١٧٢.
وقال أحمد بن يحيى:" قال: وأنشدنا ابن الأعرابي بيتًا، قال: فقلت له: زدنا، فقال: البيتُ يتيمٌ، أي: هو منفرد ليس قبله ولا بعده شيء، ومنه قولهم: درة يتيمة، إذا لم يوجد لها نظير".
وقال الأصمعي: "اليتيمة: الرملة المنفردة، قال: وكل منفرد ومنفردة عند العرب يتيم ويتيمة".[انظر: تهذيب اللغة" ٤/ ٣٩٧٤، "البحر المحيط" ١/ ٢٨١، "اللسان" ٨/ ٤٩٤٨].

(١٠) انظر: "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٩٧٤، "البحر المحيط" ١/ ٢٨١، "اللسان" ٨/ ٤٩٤٨، "القاموس" ١١٧٢.
وقال أحمد بن يحيى:" قال: وأنشدنا ابن الأعرابي بيتًا، قال: فقلت له: زدنا، فقال: البيتُ يتيمٌ، أي: هو منفرد ليس قبله ولا بعده شيء، ومنه قولهم: درة يتيمة، إذا لم يوجد لها نظير".
وقال الأصمعي: "اليتيمة: الرملة المنفردة، قال: وكل منفرد ومنفردة عند العرب يتيم ويتيمة".[انظر: تهذيب اللغة" ٤/ ٣٩٧٤، "البحر المحيط" ١/ ٢٨١، "اللسان" ٨/ ٤٩٤٨].

(١١) انظر: "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٩٧٤، "البحر المحيط" ١/ ٢٨١، "اللسان" ٨/ ٤٩٤٨، "القاموس" ١١٧٢.
وقال أحمد بن يحيى:" قال: وأنشدنا ابن الأعرابي بيتًا، قال: فقلت له: زدنا، فقال: البيتُ يتيمٌ، أي: هو منفرد ليس قبله ولا بعده شيء، ومنه قولهم: درة يتيمة، إذا لم يوجد لها نظير".
وقال الأصمعي: "اليتيمة: الرملة المنفردة، قال: وكل منفرد ومنفردة عند العرب يتيم ويتيمة".[انظر: تهذيب اللغة" ٤/ ٣٩٧٤، "البحر المحيط" ١/ ٢٨١، "اللسان" ٨/ ٤٩٤٨].

(١٢)أحكام القرآن ١/ ٢١٥.

(١٣) صفوة التفاسير: ٦٥/١.

قال الثعلبي:" يعني الفقراء"[١].

قال شيخنا ابن عثيمين:" {المساكين}، جمع مسكين، وهو الفقير الذي أسكنه الفقر؛ لأن الإنسان إذا اغتنى فإنه يطغى، ويزداد، ويرتفع، ويعلو؛ وإذا كان فقيراً فإنه بالعكس، وهنا يدخل الفقراء مع {المساكين} ؛ لأن "الفقراء"، و"المساكين" من الأسماء التي إذا قرنت افترقت؛ وإذا افترقت اجتمعت؛ فكلمة "الفقراء" إذا كانت وحدها شملت الفقراء، والمساكين؛ و"المساكين" إذا كانت وحدها شملت الفقراء، والمساكين؛ وإذا قيل: فقراء ومساكين. مثل آية الزكاة: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين} [التوبة: ٦٠] . صار "الفقراء" لها معنى؛ و"المساكين" لها معنى؛ لما اجتمعت الآن افترقت: فـ"الفقير": من لا يجد شيئاً من الكفاية، أو يجد دون النصف؛ و"المسكين": من يجد نصف الكفاية دون كمالها"[٢].

قوله تعالى:{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}[البقرة:٨٣]، " أي قولاً حسناً بخفض الجناح، ولين الجانب، مع الكلام الطيّب"[٣].

قال ابن عثيمين:"والقول الحسن يشمل: الحسن في هيئته؛ وفي معناه، ففي هيئته: أن يكون باللطف، واللين، وعدم الغلظة، والشدة، وفي معناه: بأن يكون خيراً؛ لأن كل قولٍ حسنٍ فهو خير؛ وكل قول خير فهو حسن"[٤].

قال السعدي:" ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب، ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: {وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيها في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملا لكل أحد، صبورا على ما يناله من أذى الخلق، امتثالا لأمر الله، ورجاء لثوابه"[٥].

وقد اختلف أهل التفسير في قوله تعالى{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً}[البقرة:٨٣]، على أقوال[٦]:

الأول: أن المعنى قولوا لهم: لا إله إلا الله، ومروهم بها. قاله ابن عباس[٧].

والثاني: قولوا: صدقا في شأن محمد ﷺ، ولا تكتموا أمره، ولا تغيروا نعته. قاله ابن جريج[٨]. ومقاتل بن حيان[٩].

والثالث: يعني: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر. قاله سفيان الثوري[١٠].

والرابع: قولوا للناس معروفا . قاله أبو العالية[١١]، وروي عن الحسن[١٢] نحوه.

والخامس: قولوا: الحسن من القول. قاله عطاء بن أبي رباح[١٣]، وجعفر[١٤].

وكل الأقوال متشابهة فما بينها، وحثت على مكارم الأخلاق. والله أعلم.

ويحتمل {الناس}، في قوله تعالى{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً}[البقرة:٨٣]، وجهين:

---

(١) تفسير الثعلبي: ٢٢٨/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٢٦٨/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٦٦/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين:٢٦٩/١.
(٥) تفسير السعدي: ٥٧-٥٨.
(٦) تفسير القرطبي: ١٦/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٤٥١):ص٢٩٦/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٤٥٣):ص٢٩٦/٢.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٤٥):ص١٦١/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٤٥٤):ص٢٩٦/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٤٥٢):ص٢٩٦/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٤٥١):ص٢٩٦/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٨٤٦):ص١٦١/١-١٦٢.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٤٥٥):ص٢٩٦/٢.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٤٥٥):ص٢٩٦/٢.

أحدهما: الناس عامة. قاله عطاء بن أبي رباح[١]، وعكرمة[٢]، وهو المشهور.
والثاني. وقيل: "أراد بالناس محمدا ﷺ، كقوله : {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء : ٥٤]. فكأنه قال : قولوا للنبي ﷺ حسنا"[٣].

قال القرطبي: "فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لينا ووجهه منبسطا طلقا مع البر والفاجر، والسني والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون : {فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً} [طه : ٤٤]. فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه"[٤].

واختلف في نسخ قوله تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً}[البقرة:٨٣]، على ثلاثة أقوال[٥]:
الأول: حكى المهدوي عن قتادة أن قوله : {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً} منسوخ بآية السيف[٦]، وحكاه أبو نصر عبدالرحيم عن ابن عباس بأنه قال: "نزلت هذه الآية في الابتداء ثم نسختها آية السيف"[٧].

وأخرج ابن أبي حاتم " عن إسماعيل بن أبي خالد: {وقولوا للناس حسنا}، قال: هذه الآية أمر بها قبل أن يؤمر بالجهاد"[٨].

والثاني: أن الآية محكمة، وقولوا جميع الناس حسنا، وحسن القول للكافر أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر[٩]، وهذا قول عطاء بن أبي رباح[١٠]، وأبي جعفر المدني[١١].
والثالث: وقال آخرون أن هذا خبر من الله تعالى عما خاطب به بني إسرائيل، وعليه فإنه خبر عن الماضي لا يدخل عليه النسخ[١٢].

قال ابن عطية : "وهذا يدل على أن هذه الأمة خوطبت بمثل هذا اللفظ في صدر الإسلام، وأما الخبر عن بني إسرائيل وما أمروا به فلا نسخ فيه"[١٣].

والراجح -والله أعلم- هو القول الأخير، لأنه أليق بسياق الآية، فالله أخبرنا بما أخذه من الميثاق على بني إسرائيل، وأما المسلمون فليسوا مخاطبين بهذه الآية.

واختلفت القراءة في قوله تعالى:{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}[البقرة:٨٣]، على وجهين[١٤]:
الأول: {حُسْنًا}، بالضم والتخفيف، قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم وابن عامر.
والثاني: {حسنا}، بالفتح والتثقيل، قرأ بها حمزة والكسائي[١٥].

واختلف أهل العربية في الفرق بين معنى قوله :{حُسْنا} و{حَسَنا} على وجهين[١٦]:

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٤٥٦):ص٢٩٦/٢-٢٩٧.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٦١/١.
(٣) ذكره الواحدي في الوسيط: ١٦٧/١، وانظر: تفسير القرطبي: ١٦/٢.
(٤) تفسير القرطبي: ١٦/٢.
(٥) انظر: الناسخ والمنسوخ، للبغدادي: ١٧٠.
(٦) المحرر الوجيز:٧٣!/١.
(٧) انظر: مجمع البيان:٣٣٦/١.
(٨) تفسير ابن أبي حاتم(٨٤٧):ص١٦٢/١.
(٩) انظر: الناسخ والمنسوخ، لأبي منصور البغدادي: ١٧٠.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٤٥٦):ص٢٩٦/٢-٢٩٧.
(١١) انظر: الناسخ والمنسوخ، للبغدادي: ١٧٠.
(١٢) انظر: الناسخ والمنسوخ لأبي منصور البغدادي: ١٧٠.
(١٣) المحرر الوجيز: ١٧٣/١.
(١٤) انظر: السبعة في القراءات: ١٦٣.
(١٥) قال ابن مجاهد: "وقرأ الكوفيون عاصم وحمزة والكسائي في سورة الأحقاف {إحسانا}[١٥]بألف، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ونافع {حسنا}".[السبعة في القراءات: ١٦٣].
(١٦) تفسير الطبري: ٢٩٤/٢-٢٩٥.

الأول: قال بعض البصريين : هو على أحد وجهين : إما أن يكون يراد بـ(الحَسَن) (الحُسن)، وكلاهما لغة، كما يقال :(البُخل و البَخَل)، وإما أن يكون جعل (الحُسن) هو (الحَسن) في التشبيه. وذلك أن الحُسن (مصدر) و(الحَسن) هو الشيء الحسن، ويكون ذلك حينئذ كقولك : (إنما أنت أكل وشرب)، وكما قال الشاعر[١]:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

فجعل " التحية " ضربا.

والثاني: وقال آخر : بل(الحُسن) هو الاسم العام الجامع جميع معاني الحسن. و(الحسن) هو البعض من معاني (الحُسن)، ولذلك قال جل ثناؤه إذ أوصى بالوالدين : {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} [العنكبوت : ٨] يعني بذلك أنه وصاه فيهما بجميع معاني الحُسن، وأمر في سائر الناس ببعض الذي أمره به في والديه، فقال : (وقولوا للناس حسنا)، يعني بذلك بعض معاني الحُسن.

قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}[البقرة : ٨٣]، أي:" أدوها بحقوقها الواجبة عليكم فيها"[٢].

قال الصابوني: أي: صلّوها كما فرض الله عليكم[٣].

قال شيخنا ابن عثيمين:" أي ائتوا بها قائمة. أي قويمة ليس فيها نقص؛ وذلك بأن يأتوا بها بشروطها، وأركانها، وواجباتها؛ وكمال ذلك أن يأتوا بمستحباتها؛ و {الصلاة} تشمل الفريضة، والنافلة"[٤].

وروي عن ابن مسعود قال : "{وأقيموا الصلاة}، هذه و(إقامة الصلاة): تمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع، والإقبال عليها فيها"[٥].

قوله تعالى:{وَآتُوا الزَّكَاةَ}[البقرة : ٨٣]،" أي أعطوها مستحقها"[٦].

قال ابن عثيمين: "و(الزكاة) هي النصيب الذي أوجبه الله لمستحقه في الأموال الزكوية"[٧].

قال ابن عباس:" إيتاء الزكاة، ما كان الله فرض عليهم في أموالهم من الزكاة، وهي سنة كانت لهم غير سنة محمد ﷺ. كانت زكاة أموالهم قربانا تهبط إليه نار فتحملها، فكان ذلك تقبله. ومن لم تفعل النار به ذلك كان غير متقبل، وكان الذي قرب من مكسب لا يحل : من ظلم أو غشم، أو أخذ بغير ما أمره الله به وبينه له"[٨].

وذكروا في تفسير قوله تعالى:{وَآتُوا الزَّكَاةَ}[البقرة : ٨٣]، وجهين:

أحدهما: أنه ما فرض عليهم في أموالهم من الزكاة. وذلك في رواية الضحاك عن ابن عباس[٩].

والثاني: يعني بـ{الزكاة}: طاعة الله والإخلاص. وهذا في روياة علي بن طلحة عن ابن عباس[١٠].

قوله تعالى:{ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ}[البقرة : ٨٣]،" أي ثم رفضتم وأسلافكم الميثاق رفضاً باتاً، إلاّ قليلاً منكم ثبتوا عليه"[١١].

قال السعدي:"هذا استثناء، لئلا يوهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلا منهم، عصمهم الله وثبتهم"[١٢].

قال ابن عطية:" تولّى تفعّل، وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعا ومجازا.. والمراد بـ(القليل): جميع مؤمنيهم قديما من أسلافهم وحديثا

---

(١)يقال هو : عمرو بن معد يكرب الزبيدي . (الخزانة ٤ : ٥٦) ، وليس في قصيدته التي على هذا الوزن في الأصمعيات : ٤٣ ، ولكنه أتى في نوادر أبي زيد : ١٤٩ - ١٥٠ أنه لعمرو بن معد يكرب . فكأنه له ، وكأنه سقط من رواية الأصمعي ، وهو في رواية غيره . انظر: نوادر أبي زيد : ١٥٠ ، وسيبويه ١ : ٣٦٥ ، ٤٢٩ والخزانة ٤ : ٥٣ . وغيرها .

(٢) تفسير الطبري: ٢٩٧/٢.

(٣) انظر: صفوة التفاسير: ٦٥/١.

(٤) تفسير ابن عثيمين:٢٦٩/١.

(٥) أخرجه الطبري(١٤٥٨):ص٢٩٦/٢.

(٦) تفسير ابن عثيمين:٢٦٩/١.

(٧) تفسير ابن عثيمين:٢٦٩/١.

(٨) أخرجه الطبري(١٤٥٩):ص٢٩٧/٢-٢٩٨.

(٩) انظر: تفسير الطبري(١٤٥٩):ص٢٩٧/٢-٢٩٨.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٤٦٠):ص٢٩٨/٢.

(١١) صفوة التفاسير: ٦٦/١.

(١٢) تفسير السعدي :٥٧-٥٨.

كابن سلام وغيره، و(القلة) على هذه هي في عدد الأشخاص، ويحتمل أن تكون القلة في الإيمان أي لم يبق حين عصوا وكفر آخرهم بمحمد ﷺ إلا إيمان قليل، إذ لا ينفعهم، والأول أقوى"[١].
وقرأ قوم {إلا قليلٌ} بالرفع، ، ورويت عن أبي عمرو[٢].
قال ابن عباس: لما فرض الله جل وعز عليهم - يعني : على هؤلاء الذين وصف الله أمرهم في كتابه من بني إسرائيل - هذا الذي ذكر أنه أخذ ميثاقهم به، أعرضوا عنه استثقالا له وكراهية، وطلبوا ما خف عليهم إلا قليلا منهم، وهم الذين استثنى الله فقال:{ثم توليتم}، يقول : أعرضتم عن طاعتي، {إلا قليلا منكم}، قال : القليل الذين اخترتهم لطاعتي، وسيحل عقابي بمن تولى وأعرض عنها يقول : تركها استخفافا بها"[٣].
وذكروا في قوله تعالى:{ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ}[البقرة : ٨٣]، وجهين من التفسير:
الأول: ثم: أعرضتم عن طاعتي. في رواية الضحاك عن ابن عباس[٤].
والثاني: أي: تركتم ذلك كله. في رواية عكرمة عن ابن عباس أيضا[٥].
قوله تعالى:{وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ}[البقرة : ٨٣]، " أي: وأنتم أيضًا كأوائلكم في الإعراض عما عُهِد إليكم فيه"[٦].
قال ابن عثيمين:"أي توليتم في إعراض"[٧].
قال الطبري:أي "وأنتم يا معشر بقاياهم[اليهود]، معرضون أيضا عن الميثاق الذي أخذ عليكم بذلك، وتاركوه ترك أوائلكم"[٨].
قال المراغي:" وأنتم في حال الإعراض عنه وعدم الاهتمام بشأنه"[٩].
قال الواحدي:" ومعنى (الإعراض): الذهَاب عن المواجهة، إلى جهة العرض"[١٠].
وفي قوله تعالى:{ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ}[البقرة : ٨٣]،"التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ وفائدته: إدخال الموجودين في عهد النبي ﷺ في هذا الحكم. أعني التولي؛ و "التولي" ترك الشيء وراء الظهر؛ وهذا أبلغ من الإعراض؛ لأن الإعراض قد يكون بالقلب، أو بالبدن مع عدم استدبار"[١١].
قال المراغي:" و في قوله : {وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ}، مبالغة في الترك المستفاد من التولي، لأن الإنسان قد يتولى عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويؤدى ما يجب له، فليس كل من تولّى عن شيء يكون معرضا عنه، وقد كان من توليهم وإعراضهم أن اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا مشرّعين يحلّون ويحرّمون، ويبيحون ويحظرون، ويزيدون ما شاءوا من الشعائر والمناسك الدينية، فكأنهم شركاء لله يشرّعون لهم ما لم يأذن به الله، كما كان من توليهم أن بخلوا بالمال في الواجبات الدينية كالنفقة على ذوى القربي وأداء الزكاة، وتركوا النهى عن المنكر إلى نحو ذلك مما يدل على الاستهتار بأمور الدين"[١٢].
واختلف في الخطاب في قوله تعالى:{ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلا قَلِيلا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ}[البقرة:٨٣]،على وجوه[١٣]:

---

(١) المحرر الوجيز: ١٥٩/١.
(٢) انظر: المحرر الوجي: ١٧٣/١. قال ابن عطية:" وهذا على بدل {قليل} من الضمير في {تَوَلَّيْتُمْ}، وجاز ذلك مع أن الكلام لم يتقدم فيه نفي لأن {تَوَلَّيْتُمْ}، معناه النفي كأنه قال ثم لم تفوا بالميثاق إلا قليل".
(٣) أخرجه الطبري(١٤٦١):ص٢٩٨/٢-٢٩٩.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٤٦١):ص٢٩٨/٢-٢٩٩.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٤٦٢):ص٢٩٩/٢.
(٦) التفسير البسيط: ١١٢/٣.
(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين:٢٦٩/١.
(٨) تفسير الطبري: ٢٩٩/٢.
(٩) تفسير المراغي: ١٥٩/١.
(١٠) التفسير البسيط: ١١٢/٣.
(١١) انظر: تفسير ابن عثيمين:٢٦٩/١.
(١٢) تفسير المراغي: ١/!٥٩.
(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٩٨/٢-٢٩٩.

الأول: أنه خبر من الله جل ثناؤه عن يهود بني إسرائيل، بأنهم نكثوا عهده ونقضوا ميثاقه، بعدما أخذ الله ميثاقهم على الوفاء له. قاله الطبري(١).
والثاني: وقيل: عنى الله جل ثناؤه بقوله : {وأنتم معرضون}، اليهود الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وعنى بسائر الآية أسلافهم. كأنه ذهب إلى أن معنى الكلام : {ثم توليتم إلا قليلا منكم} : ثم تولى سلفكم إلا قليلا منهم، ولكنه جعل خطابا لبقايا نسلهم، ثم قال : وأنتم يا معشر بقاياهم معرضون أيضا عن الميثاق الذي أخذ عليكم بذلك، وتاركوه ترك أوائلكم.
والثالث: أن "الآية خطاب لمعاصري محمد ﷺ أسند إليهم تولي أسلافهم، إذ هم كلهم بتلك السبيل. قاله ابن عطية(٢)، وروي نحوه ابن عباس(٣).
والقول الأول هو الاقرب إلى الصواب، وهو اختيار الجمهور، ومنهم الامام الطبري(٤). والله أعلم.
الفوائد:
١. ن فوائد الآية: بيان عظمة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {وإذ أخذنا}؛ لأن الضمير هنا للتعظيم؛ وهو سبحانه وتعالى العظيم الذي لا أعظم منه.
٢. ومنها: أن التوحيد جاءت به الرسل جميعاً؛ لقوله تعالى: (لا تعبدون إلا الله).
٣. ومنها: أن العبادة خاصة بالله . تبارك وتعالى؛ فلا يعبد غيره؛ لقوله تعالى: {لا تعبدون إلا الله}؛ لأن هذا يفيد الحصر.
٤. ومنها: وجوب الإحسان إلى الوالدين؛ لقوله تعالى: {وبالوالدين إحساناً}؛ وإنما أوجب ذلك؛ لأن نعمة الوالدين على ولدهما هي التي تلي نعمة الله عزّ وجلّ؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في سورة لقمان: {أن اشكر لي ولوالديك} [لقمان: ١٤] ؛ فهما سبب وجودك، وإمدادك، وإعدادك . وإن كان أصل ذلك من الله؛ فلولا الوالدان ما كنت شيئاً؛ والإحسان إلى الوالدين شامل للإحسان بالقول، والفعل، والمال، والجاه، وغير ذلك من أنواع الإحسان؛ وضده أمران؛ أحدهما أن يسيء إليهما؛ والثاني: أن لا يحسن، ولا يسيء؛ وكلاهما تقصير في حق الوالدين مناف لبرهما؛ وفي الإساءة زيادة الاعتداء.
٥. ومن فوائد الآية: وجوب الإحسان إلى ذوي القربى . أي قرابة الإنسان . وهم من يجتمعون به بالأب الرابع، فما دون؛ ولكن يجب أن نعلم أن الإحسان يتفاوت؛ فكل من كان أقرب فهو أولى بالإحسان؛ لأن الحكم إذا عُلِّق بوصف قوي بحسب قوة ذلك الوصف؛ فمثلاً يجب عليك من صلة العم أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد العم؛ ويجب عليك من صلة الخال أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد الخال.
وقد اتفق العلماء أن حكم صلة الرحم المؤمنة الصالحة المضرة دنيوياً غير واجبة، قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: "أجمعوا على أنه يجوز الهجر فوق ثلاث، لمن كانت مكالمته تجلب نقصاً على المخاطب في دينه، أو مضرة تحصل عليه في نفسه، أو دنياه، فرب هجر جميل خير من مخالطة مؤذية"(٥).
وقال رسول الله - ﷺ - "لا ضرر ولا ضرار"(٦)، وأما حكم صلة الرحم المؤمنة الصالحة المؤذية دنيوياً فغير واجبة على مذهب بعض أهل العلم طبعاً باستثناء الوالدين ، وقالوا عن حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلا قَالَ: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلُم عنهم ويجهلون عليّ، فقال:: " لئن كنت كما قلت فكأنما تُسِفُّهم المَلّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك"(٧)، أن الحديث محمول على استحباب صلة الرحم المؤذية لا وجوب ذلك، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، والورع يا عبدالله يقتضي صلة الرحم المؤمنة الصالحة المؤذية مالم تصل إلى حد الضرر ،

---

(١) تفسير الطبري: ٢٩٨/٢.
(٢) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٣/١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٣٣):ص١٥٩/١. ولفظه:" يؤنبهم وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل أي ميثاقكم لا تعبدون إلا الله".
(٤) تفسير الطبري: ٢٩٨/٢.
(٥)سبل السلام، الإمام الصنعاني: ٢٢٨/٤.
(٦)حديث حسن ، رواه ابن ماجه [انظر رق : ٢٣٤١] والدارقطني] رقم : ٤/ ٢٢٨] وغيرهما مسندا.
(٧)أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، (١٩٨٢/٤)، برقم: (٢٥٥٨).

والفرق بين الضرر والأذى ـ والله أعلم ـ أن الأذى هو الضرر اليسير، قال ابن عطية: قوله تعالى: لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً ـ معناه: لن يصيبكم منهم ضرر في الأبدان ولا في الأموال، وإنما هو أذى بالألسنة. وقال القرطبي: "وَالْمَعْنَى لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا ضَرًّا يَسِيرًا"(١).
ولكن لا يلزم أن يكون هذا التفريق الثابت هنا ثابتا أيضا في لفظي المضرة والأذى المذكور في كلام ابن عبد البر، علما بأن الصلة تبدأ من السلام عند اللقاء، أو بمكالمة هاتفية أثناء الغيبة، وبهذا يخرج المرء من إثم الهجرة، ثم تمتد لتشمل كل أنواع البر الأخرى، فمن عجز عن درجة معينة من درجاتها فلا ينبغي أن يعجز عما تتحقق به الصلة في حدودها الدنيا.
أما كيفية التوفيق بين قول النبي ﷺ: " مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إمَّا أن يحذيك، وإمَّا أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجد منه ريحًا طيّبة، ونافخ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، وإمَّا أن تجد ريحًا خبيثة"(٢)، وفيه التنفير من مجالسة رفيق السوء وكذلك قوله: لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم فلما رأى الله ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم ببعض ثم لعنهم الحديث، وفيه التنفير من الفساق وكذلك قول الرسول ﷺ: لا تصاحب إلا مؤمنا ـ وبين قول النبي عليه الصلاة والسلام: صل من قطعك ـ وقوله: ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها ـ ومن المعلوم بأن القاطع للرحم فاسق؟ الصلة لا تستلزم مصاحبة، فالصلة تحصل بكل ما اعتبره العرف صلة كالزيارة والإهداء والاتصال ونحو ذلك، ثم إن قول النبي ﷺ: ") لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، فجلس رسول الله -ﷺ- وكان متكئاً فقال: لا، والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرًا"(٣)، حديث ضعيف الإسناد وضعفه الألباني ، وبالتالي لا يُحتج به في الأحكام(٤).
٦. ومنها: وجوب الإحسان إلى اليتامى؛ وهو يشمل الإحسان إليهم أنفسهم؛ والإحسان في أموالهم؛ لقوله تعالى: {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن} [الأنعام: ١٥٢] .
٧. ومنها: وجوب الإحسان إلى المساكين؛ وذلك بإعطائهم ما يستحقون من الزكاة، ودفع الضرورة، وما أشبه ذلك.
٨. ومنها: وجوب القول الحسن؛ لقوله تعالى: {وقولوا للناس حسناً}؛ وضد القول الحسن قولان؛ قول سوء؛ وقول ليس بسوء، ولا حسن؛ أما قول السوء فإنه منهي عنه؛ وأما القول الذي ليس بسوء، ولا حسن فليس مأموراً به، ولا منهياً عنه؛ لكن تركه أفضل؛ ولهذا وصف الله عباد الرحمن بأنهم: {لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مرُّوا كراماً} [الفرقان: ٧٢] ؛ وقال الرسول ﷺ "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً؛ أو ليصمت"(١) .
٩. ومنها: الأمر بإقامة الصلاة على وجه الوجوب فيما لا تصح الصلاة إلا به؛ وعلى وجه الاستحباب فيما تصح الصلاة بدونه وهو من كمالها.
١٠. ومنها: أن الصلوات مفروضة على من كان قبلنا.
١١. ومنها: وجوب إيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: {وآتوا الزكاة}.
١٢. ومنها: وجوب الزكاة على من كان قبلنا؛ ولكن لا يلزم أن يكونوا مساوين لنا في الأموال التي تجب فيها الزكاة، ولا في مقدار الزكاة، ولا في أهلها الذين تدفع إليهم.
١٣. ومنها :أن بني إسرائيل مع هذا الميثاق الذي أخذه الله عليهم لم يقوموا به إلا القليل منهم.
١٤. ومنها: أن تولي بني إسرائيل كان تولياً كبيراً، حيث كان تولياً بإعراض.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٧٣/٤.
(٢) رواه البخاري(٥٥٣٤)، ومسلم(٢٦٢٨)، واللفظ للبخاري.
(٣)أخرجه الترمذي، باب: ومن سورة المائدة، (٢٥٢/٥)، رقم: (٣٠٤٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم: (٤٧٧٣).
(٤)انظر: المسلم وحقوق الآخرين، أبو فيصل البدراني: ٣٧.
(١) سبق تخريجه ص٢٥٥.

١٥. ومنها: أن المتولي المعرض أشد من المتولي غير المعرض.
١٦. ومنها: أن التولي قد يكون بإعراض، وقد يكون بغير إعراض؛ لأنه لو كان بإعراض مطلقاً لم يستقم قوله: {وأنتم معرضون}.
القرآن
{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤)} [البقرة : ٨٤]
التفسير:
واذكروا -يا بني إسرائيل- حين أَخَذْنا عليكم عهدًا مؤكدًا في التوراة: يحرم سفك بعضكم دم بعض، وإخراج بعضكم بعضًا من دياركم، ثم اعترفتم بذلك، وأنتم تشهدون على صحته.
قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ}[البقرة:٨٤]، "إذ أخذنا عليكم العهد"[١].
قال الرازي: أي:"أمرناكم وأكدنا الأمر وقبلتم وأقررتم بلزومه ووجوبه"[٢].
واختلف أهل التفسير في الخطاب في قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ}[البقرة:٨٤]، على ثلاثة أوجه[٣]:
أحدها: أنه خطاب لعلماء اليهود في عصر النبي ﷺ.
وثانيها: أنه خطاب مع أسلافهم، وتقديره وإذ أخذنا ميثاق آبائكم.
وثالثها: أنه خطاب للأسلاف وتقريع للأخلاف.
قوله تعالى:{لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ}[البقرة:٨٤]، " أي:"لا يريق بعضكم دم بعض"[٤].
قال الثعلبي:" لا تريقون دِماءَكُمْ"[٥].
و(السفك) في اللغة: "الصب"[٦].
و{دماء}: جمع دم، واختلف في أصله على أقوال[٧]:
الأول: قال الزجاج: وأصل دم: (دَماء) في قول أكثر النحويين، ومنه قول الشاعر[٨]:
فلو أنا على حجر ذبحنا جرى الدميان بالخبر اليقين
وأنشد أبو زيد[٩]:
غفَلَتْ ثم أتت ترقبه فإذا هي بعظام ودَمَا
والثاني: أن أصله: (دمْي)، إلا أنه لما حذف ورد إليه ما حذف منه، حركت الميم لتدل الحركة على أنه استعمل محذوفا. وهذا مذهب سيبويه[١٠].
والثالث: وقال اللَيْث: أصله (دَمَيٌ)؛ لأنك تقول: دَمِيَتْ يده[١١].واختاره ابن عطية[١٢].
قال الواحدي: "والأجود: ما حكاه الزجاج في أصل الدم. و(الدُّميَةُ) من الدم، كأنها الحَيَوان ذُو الدم"[١].

---

(١) تفسير المراغي: ١٦١/١.
(٢) مفاتيح الغيب: ١٥٦/٢.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ١٥٦/٢-١٥٧.
(٤) تفسير المراغي: ١٦١/١.
(٥) تفسير الثعلبي: ٢٢٩/١.
(٦) انظر: اللسان:٢٠٣٠/٤، والقاموس:٩٤٢٥، والتفسير البسيط: ١١٣/٣.
(٧) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٦٥/١.
(٨) البيت من شواهد الزجاج في معاني القرآن: ١٦٥/١.
(٩)ورد البيت هكذا:
غفلت ثم أتت تطلبه
ينظر: "الخزانة" ٧/ ٤٩١، و"التنبيه" لابن بري ٢/ ٢٣٥، و"شرح التسهيل" ١/ ٢٥٠، و"تلخيص الشواهد" ص ٧٧، وينظر: "البحر المحيط" ٢/ ١٢٣١ ولم ينسبوه.
(١٠) انظر: اللسان: ٢٦٨/٤.
(١١) انظر: تهذيب اللغة: ٢١٦/١٤، واللسان:٢٦٨/٤.
(١٢) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٣/١.

قال ابن عثيمين:و(السفك)، و"السفح" بمعنى واحد؛ والمراد بسفك الدم: القتل، كما قال الرسول ﷺ في مكة: "لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً"[١] أي يقتل نفساً بغير حق؛ و{دماءكم} أي دماء بعضكم؛ لكن الأمة الواحدة كالجسد الواحد؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: "ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم"[٢]، وقال: "ويجير عليهم أقصاهم[٣] ""[٢].

وفي قوله تعالى: {تَسْفِكُونَ}[البقرة:٨٤]، ثلاثة أوجه من القراءة:

الأول: {تُسْفِكُونَ}، بكسر الفاء. قراءة الجماعة.

والثاني: وقرأ طلحة بن مصرف{تُسْفِكُونَ}، بضم (الفاء) [٣].

قال الثعلبي :" وهما لغتان، مثل: يعرُشون، ويعكُفون"[٤].

والثالث: وقرأ أبو مجلز: {تُسَفِّكُونَ}، بالتشديد على التكثير [٥].

قال الثعلبي: وإنّما قال {دِماءَكُمْ}[البقرة:٨٤]، لمعنيين:

أحدهما: إن كلّ قوم اجتمعوا على دين واحد فهم كنفس واحدة.

والآخر: هو أنّ الرجل إذا قتل غيره كأنّما قتل نفسه لأنّه يقاد ويقتصّ منه"[٦].

وقوله تعالى:{لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُم}[البقرة:٨٤]، فيه إشكال، وهو أن الإنسان ملجأ إلى أن لا يقتل نفسه، وإذا كان كذلك فلا فائدة في النهي عنه، والجواب عنه من أوجه وهي[٧]:

الأول: لا يقتل الإنسان نفسه، ولا يخرج من داره سفها، كما ثبت في أهل بعض دول العالم، أنهم يقدرون في قتل النفس التخلص من عالم الفساد واللحوق بعالم النور والصلاح، أو كثير ممن صعب عليه الزمان، وثقل عليه أمر من الأمور، فيقتل نفسه، من جهد وبلاء يصيبه، أو يهيم في الصحراء ولا يأوي البيوت جهلا في ديانته وسفها في حلمه، فهو عموم في جميع ذلك، فإذا انتفى كون الإنسان ملجأ إلى ترك قتله نفسه صح كونه مكلفا به[٨].

---

(١) التفسير البسيط: ١١٤/٣.

(١) أخرجه البخاري ص١٢، كتاب العلم، باب ٣٧: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، حديث رقم ١٠٤؛ وأخرجه مسلم ص٩٠٣ – ٩٠٤، كتاب الحج، باب ٨٢: تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها...، حديث رقم ٣٣٠٤ [٤٤٦] ١٣٥٤.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٥٧، كتاب الجزية والموادعة، باب ١٧: إثم من عاهد ثم غدر، حديث رقم ٣١٧٩؛ وأخرجه مسلم ص٩٠٥، كتاب الحج، باب ٨٥: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة...، حديث رقم ٣٣٢٧ [٤٦٧] ١٣٧٠.

(٣) اخرجه أبو داود ص١٤٢٨، كتاب الجهاد، باب ١٤٧: في السرية ترد على أهل العسكر، حديث رقم ٢٧٥١؛ وأخرجه ابن ماجه ص٢٦٣٨، كتاب الديات، باب ٣١: المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث رقم ٢٦٨٥، قال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ١٧٠/٢.

(٢) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٤٦/١..

(٣) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٢٩/١.

(٤) تفسير الثعلبي: ٢٢٩/١.

(٥) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٢٩/١.

(٦) تفسير الثعلبي: ٢٢٩/١.

(٧) انظر: تفسير الرازي: ١٥٦/٢-١٥٧، وتفسير القرطبي: ١٨/٢-١٩.

(٨)عن أنس ﷺ قال: جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني: أصوم وأفطر، وأُصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"، ولفظ مسلم: "أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله، وأثنى عليه فقال: "ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني: أصلّي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني". [متفق عليه: البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، برقم ٥٠٦٣، ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، برقم ١٤٠١].

والثاني: المراد لا يقتل بعضكم بعضا، وجعل غير الرجل نفسه إذا اتصل به نسبا ودينا وهو كقوله تعالى: {فاقتلوا أنفسكم} [البقرة: ٥٤]. وهذا قول أبي العالية[١] والسدي[٢]. وروي عن قتادة[٣]، والربيع بن أنس نحو ذلك[٤]. واختاره ابن عطية[٥].

والثالث: وقيل: المراد القصاص، أي لا يقتل أحد فيقتل قصاصا، فكأنه سفك دمه. أجازه الطبري[٦]. وقال ابن عطية:" وهذا تأويل فيه تكلف[٧]،

والرابع: لا تتعرضوا لمقاتلة من يقتلكم فتكونوا قد قتلتم أنفسكم.

والخامس: لا تسفكون دماءكم من قوامكم في مصالح الدنيا بهم فتكونون مهلكين لأنفسكم.

والصحيح "إنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقا أن لا يقتل بعضهم بعضا ولا ينفيه ولا يسترقه ولا يدعه يسترق إلى غير ذلك من الطاعات"[٨]. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى:{وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ}[البقرة:٨٤]، أي " ولا يخرج بعضكم بعضا من داره"[٩].

قال الواحدي:" أي: لا يخرج بَعضكُم بعضًا مِن دَاره ويغلبه عَليها"[١٠].

قال ابن عطية:أي:" ولا ينفي بعضكم بعضا بالفتنة والبغي"[١١].

وقد ذكروا في قوله تعالى:{وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ}[البقرة:٨٤]، ثلاثة أوجه من التفسير:

الأول: لا تفعلوا ما تستحقون بسببه أن تخرجوا من دياركم.

الثاني: المراد النهي عن إخراج بعضهم بعضا من ديارهم لأن ذلك مما يعظم فيه المحنة والشدة حتى يقرب من الهلاك[١٢]. وهذا قول أبي العالية[١٣]. وروي عن الحسن[١٤] والسدي[١٥] ومقاتل بن حيان[١٦] نحو ذلك.

والثالث: ولا تسبوا من جاوركم فتلجئوهم إلى الخروج بسوء جواركم. قاله الثعلبي[١٧].

قال ابن عثيمين:"ولا شك أن الإخراج من الوطن شاق على النفوس؛ وربما يكون أشق من القتل"[١٨].

قوله تعالى:{ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ}[البقرة:٨٤]، " أي: قبلتم ذلك وأقررتم به"[١٩].

قال أبو العالية: "يقول: : أقررتم بهذا الميثاق"[٢٠]. وروي عن الربيع مثله[٢١].

قال الزجاج:" أي اعترفتم بأن هذا أخذ عليكم في العهد وأخذ على آبائكم"[٢٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٥١):ص١٦٢/١.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٥٢):ص١٦٣/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٤٦٤):٣٠٠/٢.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٦٣/١.
(٥) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٣/١.
(٦) انظر: تفسيره: ٣٠٠/٢.
(٧) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٣/١.
(٨) المحرر الوجيز: ١٧٣/١، وانظر: تفسير القرطبي: ١٨/٢.
(٩) تفسير الثعلبي: ٢٢٩/١، وانظر: تفسير المراغي: ١٦١/١.
(١٠) التفسير البسيط: ١١٥/٣.
(١١) المحرر الوجيز: ١٧٣/١.
(١٢) تفسير الرازي: ١٥٧/٢.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٥٣):ص١٦٣/١.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٦٣/١.
(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٦٣/١.
(١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٦٣/١.
(١٧) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٢٩/١. قال المحقق وجدته عن هامش المخطوط.
(١٨) تفسير ابن عثيمين:١٤٧/١.
(١٩) التفسير البسيط: ١١٥/٣.
(٢٠) أخرجه الطبري(١٤٦٧):ص٣٠١/٢.
(٢١) انظر: تفسير الطبري(١٤٦٨):ص٣٠١/٢.
(٢٢) معاني القرآن للزجاج: ١٦٥/١.

قال الثعلبي:اي: "بهذا العهد إنّه حقّ"[١].
قال الزمخشري:أي" بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه"[٢].
قال ابن عطية:" أي خلفا بعد سلف أن هذا الميثاق أخذ عليكم والتزمتموه فيتجه في هذه اللفظة أن تكون من الإقرار الذي هو ضد الجحد وتتعدى بالباء، وأن تكون من الإقرار الذي هو إبقاء الأمر على حاله، أي أقررتم هذا الميثاق ملتزما"[٣].
قوله تعالى:{وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}[البقرة:٨٤]، أي:" وأنتم أيها الباقون المخاطبون تشهدون أن هذا حق"[٤].
قال الثعلبي: أي: تشهدون "اليوم على ذلك يا معشر اليهود"[٥].
واختلف في الخطاب في قوله تعالى{وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}[البقرة:٨٤]، على وجهين:
الأول: أنه خطاب لليهود المعاصرين للرسول-ﷺ-، والمعنى "وأنتم شهداء أي بينة أن هذا الميثاق أخذ على أسلافكم فمن بعدهم"[٦]. وهذا مذهب ابن عباس[٧].
والثاني: أنه خبر من الله جل ثناؤه عن أوائلهم، أخرجه بذلك عنهم مُخرج المخاطبة. قاله أبو العالية[٨].
والراجح أنه خبر عن أسلافهم، ويدخل فيه المخاطبون منهم، "الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما كان قوله :{وإذ أخذنا ميثاقكم} خبرا عن أسلافهم، وإن كان خطابا للذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٩]. وهذا اختيار الطبري[١٠].
وقد ذكر أهل التفسير في قوله تعالى:{ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}[البقرة:٨٤]، وجوها [١١]:
الأول: أي: ثم أقررتم بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه وأنتم تشهدون عليها كقولك فلان مقر على نفسه بكذا أي شاهد عليها. قاله الزمخشري[١٢]. وقواه القرطبي[١٣].
والثاني: اعترفتم بقبوله وشهد بعضكم على بعض بذلك، لأنه كان شائعا فيما بينهم مشهورا.
والثالث: وأنتم تشهدون اليوم يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق.
والرابع: الإقرار الذي هو الرضاء بالأمر والصبر عليه كأن يقال: فلان لا يقر على الضيم، فيكون المعنى أنه تعالى يأمركم بذلك ورضيتم به فأقمتم عليه وشهدتم بوجوبه وصحته.
قال الرازي: "وإن قيل: لم قال: {ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ} والمعنى واحد، قلنا فيه ثلاثة أقوال: الأول: أقررتم يعني أسلافكم وأنتم تشهدون الآن يعني على إقرارهم، الثاني: أقررتم في وقت الميثاق الذي مضى وأنتم بعد ذلك تشهدون، الثالث: أنه للتأكيد"[١٤].
الفوائد:
١. من فوائد الآية: أن بني إسرائيل أُخذ عليهم تحريم قتال بعضهم بعضاً؛ لقوله تعالى: {وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم}.
٢. ومنها: تحريم إخراج بعضهم بعضاً من ديارهم.
٣. ومنها: أن الأمة كالنفس الواحدة؛ لقوله تعالى: {لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم}.

---

(١) تفسير الثعلبي:٢٢٩/١.
(٢) الكشاف: ١٦٠/١، وانظر: تفسير البيضاوي: ٩١/١.
(٣) المحرر الوجيز: ١٧٤/١.
(٤) معاني القرآن للزجاج: ١٦٥/١.
(٥) تفسير الثعلبي:٢٢٩/١.
(٦) المحرر الوجيز: ١٧٤/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٤٦٩):ص٣٠٢/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٤٧٠):ص٣٠٢/٢.
(٩) تفسير الطبري: ٣٠٢/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٠٢/٢.
(١١) انظر: الكشاف: ١٦٠/١، ومفاتيح الغيب: ١٥٦/٢-١٥٧، وتفسير القرطبي: ١٨/٢.
(١٢) انظر: الكشاف: ١٦٠/١، تفسير القرطبي: ١٨/٢.
(١٣) انظر: تفسير القرطبي: ١٨/٢.
(١٤) تفسير الرازي: ١٥٧/٢.

٤. ومنها: الأسلوب البليغ في قوله تعالى: {لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم}؛ وذلك أن مثل هذا التعبير فيه الحث البليغ على اجتناب ما نُهي عنه، وكأن الذي اعتدى على غيره قد اعتدى على نفسه
٥. ومنها: أن بني إسرائيل قد أقروا على أنفسهم بهذا الميثاق، وشهد بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: {ثم أقررتم وأنتم تشهدون.}.

القرآن

{ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)} [البقرة : ٨٥]

التفسير:

ثم أنتم يا هؤلاء يقتل بعضكم بعضًا، ويُخرج بعضكم بعضًا من ديارهم، ويَتَقَوَّى كل فريق منكم على إخوانه بالأعداء بغيًا وعدوانًا. وأن يأتوكم أسارى في يد الأعداء سعيتم في تحريرهم من الأسر، بدفع الفدية، مع أنه محرم عليكم إخراجهم من ديارهم. ما أقبح ما تفعلون حين تؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعضها! فليس جزاء مَن يفعل ذلك منكم إلا ذُلا وفضيحة في الدنيا، ويوم القيامة يردُّهم الله إلى أفظع العذاب في النار، وما الله بغافل عما تعملون.

في سبب نزول الآية: قال ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس: " كانوا فريقين: طائفة منهم من بني قينقاع حلفاء الخزرج[١]، والنضير وقريظة[٢] حلفاء الأوس[٣]، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى يتسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة، يعرفون منها ما عليهم وما لهم. والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان،لا يعرفون جنة ولا نارا، ولا بعثا ولا قيامة، ولا كتابا، ولا حراما ولا حلالا فإذا وضعت الحرب أوزارها، افتدوا أسراهم، تصديقا لما في التوراة، وأخذا به، بعضهم من بعض. يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، وتفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلون ما أصابوا من الدماء، وقتلى من قتلوا منهم فيما بينهم، مظاهرة لأهل الشرك عليهم. يقول الله تعالى ذكره، حين أنبهم بذلك : {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض}، أي تفادونه بحكم التوراة وتقتلونه - وفي حكم التوراة أن لا يقتل، ولا يخرج من داره، ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه - ابتغاء عرض من عرض الدنيا". قال ابن اسحاق: "ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج - فيما بلغني - نزلت هذه القصة"[٤].

أخرجه الطبري[٥]،وروي عن السدي[٦]، وابن زيد نحو ذلك[٧].

قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ}[البقرة:٨٥]، "أي ثم أنتم بعد ذلك التوكيد في الميثاق تنقضون العهد فتقتلون أنفسكم"[١].

---

(١)هم الخزرج بن حارثة بطن من الأزد من القحطانية، كانوا يقطنون المدينة مع الأوس، وكانت العرب جميعًا في الجاهلية يسمون الأوس والخزرج جميعًا الخزرج، وكانوا هم والأوس يحجون ويقفون مع الناس. ينظر: "معجم قبائل العرب" ١/ ٣٤٢.

(٢)قريظة والنضير: قبيلتان من اليهود في المدينة، وهما من بني الخزرج الصريح بن التوءمان بن السبط بن اليسع بن سعد بن لاوي بن خير بن النحام بن تنحوم بن عازر بن عذري بن هارون بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. ينظر "السيرة النبوية" لابن هشام ١/ ٦١.

(٣)هم بنو الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف، من أعظم بطون الأزد من القحطانية، أهل عز ومنعة، فيهم عدة أفخار، كان موطنهم الأصلي بلاد اليمن، فهاجروا إلى يثرب، وعاشوا مع الخزرج والقبائل اليهودية، ونشبت حروب طويلة بينهم وبين الخزرج كيوم بعاث والدرك وغيرها. ينظر: "معجم قبائل العرب القديمة والحديثة" ١/ ٥٠.

(٤) تفسير الطبري(١٤٧٤):ص٣٠٧/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري(١٤٧١):ص٣٠٤/٢-٤٠٥.

(٦)انظر: تفسير الطبري(١٤٧٢):ص٣٠٧/٢-٣٠٨.

(٧) أخرجه الطبري(١٤٧٤):ص٣٠٧/٢.

قال ابن عباس:" أي أهل الشرك حتى يسفكوا دماءهم معهم"[٢].
وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس: "{ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم}، يقول: يقتل بعضكم بعضا"[٣].
وروي عن الحسن وقتادة نحو ذلك[٤].
قال المراغي:" أي يقتل بعضكم بعضا كما كان يفعل من قبلكم، مع أنكم معترفون بأن الميثاق أخذ عليكم كما أخذ عليهم"[٥].
قال الصابوني:"أي ثم نقضتم أيضاً الميثاق يا معشر اليهود بعد إقراركم به، فقتلتم إخوانكم في الدين، وارتكبتم ما نهيتم عنه من القتل"[٦].
وروي عن السدي أنه قال: "كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون في حرب سمير فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها. النضير وحلفاءهم. وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها ويغلبون فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها فإذا أسر رجل من الفريقين ليهما جمعوا له حتى يفدوه فتعيرهم العرب بذلك، ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم، قالوا: أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم، قالوا: إنا نستحي أن يستذل بحلفائنا. فذلك حين عيرهم الله فقال: ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم"[٧].
قال ابن عطية:" {هؤُلاءِ} دالة على أن المخاطبة للحاضرين لا تحتمل ردا إلى الأسلاف"[٨]. وكذا قاله الواحدي[٩].
قال ابن عثيمين:" والخطاب لمن كان في عهد الرسول ﷺ؛ وإنما وجه إليهم؛ لأنهم من الأمة التي فعلت ذلك، ورضوا به"[١٠].
وقوله تعالى{ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ}[البقرة:٨٥]، يحتمل وجهين[١١]:
الأول: أن يكون أريد به:ثم أنتم يا هؤلاء، فترك (يا)،استغناء بدلالة الكلام عليه، كما قال:{يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا}[يوسف : ٢٩]، أي: يا يوسف أعرض عن هذا. اختاره الثعلبي[١٢].
والثاني: أن يكون معناه : ثم أنتم قوم تقتلون أنفسكم، فيرجع إلى الخبر عن (أنتم). وقد اعترض بينهم وبين الخبر عنهم بـ{هؤلاء}، كما تقول العرب : أنا ذا أقوم، وأنا هذا أجلس، وإذْ قيل : أنا هذا أجلس، كان صحيحا جائزا كذلك : أنت ذاك تقوم .
قال الإمام الطبري: "وقد زعم بعض البصريين أن قوله {هؤلاء} في قوله : {ثم أنتم هؤلاء}، تنبيه وتوكيد لـ {أنتم}، وزعم أن {أنتم} وإن كانت كناية أسماء جماع المخاطبين، فإنما جاز أن يؤكدوا بـ {هؤلاء} و(أولاء)،لأنها كناية عن المخاطبين، كما قال خفاف بن ندبة[١٣]:

---

(١) تفسير المراغي: ١٦١/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥٦):ص١٦٣/١-١٦٤.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥٨):ص١٦٤/١.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٥٨):ص١٦٤/١.
(٥) تفسير المراغي: ١٦١/١.
(٦) صفوة التفاسير: ٦٦/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥٧):ص١٦٤/١.
(٨) المحرر الوجيز: ١٧٤/١.
(٩) التفسير البسيط: ١١٦/٣.
(١٠) تفسير ابن عثيمين:٢٧٤/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري: ٣٠٤/٢.
(١٢) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٢٩/١.
(١٣)الأغاني ٢ : ٣٢٩/ ١٣ : ١٣٤ ، ١٦/١٣٥ : ١٣٤ ، والخزانة ٢ : ٤٧٠ ، وغيرهما ، ويأتي في الطبري ١ : ٣١٤ ، ٤٣٧ . يقول الشعر في مقتل ابن عمه معاوية بن عمرو أخى الخنساء . ومالك ، هو مالك بن حِمَار الشمخي الفزاري . والبيت الذي قبله:
فَإِن تَكُ خَيْلِي قد أُصِيبَ صَمِيمُها فَعَمْدًا على عَيْنٍ تَيَمَّمْتُ مَالِكَا

أقولُ له، والرُّمحُ يأطِرُ مَتْنَهُ :   تأمَّل خُفافًا، إنني أنا ذلِكَا

يريد : أنا هذا، وكما قال جل ثناؤه :{حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ}[يونس : ٢٢].

وقد اختلف أهل التأويل فيمن عُني بهذه الآية، نحو اختلافهم فيمن عَني بقوله :{وأنتم تشهدون}[١]:

الأول: أن الآية خطاب لقريظة والنضير وبني قينقاع، وذلك أن النضير وقريظة حالفت الأوس، وبني قينقاع حالفت الخزرج، فكانوا إذا وقعت الحرب بين بني قيلة ذهبت كل طائفة من بني إسرائيل مع أحلافها فقتل بعضهم بعضا وأخرج بعضهم بعضا من ديارهم، وكانوا مع ذلك يفدي بعضهم أسرى بعض اتباعا لحكم التوراة وهم قد خالفوها بالقتال والإخراج [٢]. قاله ابن عباس[٣]،وروي عن السدي[٤]، وابن زيد نحو ذلك[٥].

قال ابن إسحاق: "ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج - فيما بلغني - نزلت هذه القصة"[٦].

والثاني: قال أبو العالية: "كان في بني إسرائيل : إذا استضعفوا قوما أخرجوهم من ديارهم. وقد أخذ عليهم الميثاق أن لا يسفكوا دماءهم، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم"[٧].

وقوله {تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ}، قراءة العامّة بالتخفيف، من القتل، وقرأ الحسن: {تُقَتِّلُونَ}، بالتثقيل من التقتيل[٨].

قوله تعالى:{وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ}[البقرة:٨٥]، "أي كما طردتموهم من ديارهم من غير التفات إلى العهد الوثيق"[٩].

روي عن ابن عباس: {وتخرجون فريقا منكم من ديارهم}، قال: يخرجونهم من ديارهم معهم"[١٠]. وروي عن الحسن، وقتادة نحو ذلك[١١].

قوله تعالى: {تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}[البقرة:٨٥]، أي تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم"[١٢].

قال الواحدي:" أي: تعاونون على أهل ملتكم بالمعصية والظلم"[١٣].

قال ابن عثيمين: أي بالمعصية والإعتداء على الغير بغير حق، فكل عدوان معصية؛ وليست كل معصية عدواناً. إلا على النفس: فالرجل الذي يشرب الخمر عاصٍ، وآثم؛ والرجل الذي يقتل معصوماً هذا آثم، ومعتد؛ والذي يخرجه من بلده آثم، ومعتد؛ ولهذا قال تعالى: {تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان} ؛ فهؤلاء بعد ما أخذ عليهم الميثاق مع الإقرار، والشهادة لم يقوموا به؛ أخرجوا أنفسهم من ديارهم، وتظاهروا عليهم بالإثم، والعدوان"[١٤].

والخيل هنا : هم فرسان الغارة ، وكان معاوية وخفاف غزوَا بني مرة وفزارة . والصميم : الخالص المحض من كل شيء . وأراد معاوية ومقتله يومئذ . ويقال : " فعلت هذا الأمر عمد عين ، وعمدًا على عين " ، إذا تعمدته مواجهة بجد ويقين . وتيمم : قصد وأمَّ

" أقول له " ، يعني لمالك بن حِمَار . وأطر الشيء يأطره أطرًا : هو أن تقبض على أحد طرفي الشيء ثم تعوجه وتعطفه وتثنيه . وأراد أن حر الطعنة جعله يتثنى من ألمها ، ثم ينحني ليهوى صريعًا إذ أصاب الرمح مقتله . وأرى أن الإشارة في هذا البيت إلى معنى غائب ، كأنه قال : " أنا ذلك الذي سمعت به وببأسه " .

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٠٥/٢-٣٠٧.
(٢) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٤/١، وتفسير الطبري: ٣٠٦/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٤٧١):ص٣٠٤/٢-٤٠٥.
(٤)انظر: تفسير الطبري(١٤٧٢):ص٣٠٧/٢-٣٠٨.
(٥) أخرجه الطبري(١٤٧٤):ص٣٠٧/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٤٧١):ص٣٠٤/٢-٤٠٥.
(٧) أخرجه الطبري(١٤٧٤):ص٣٠٧/٢.
(٨) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٢٩/١.
(٩) صفوة التفاسير: ٦٦/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥٩):ص١٦٤/١.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٦٤/١.
(١٢) صفوة التفاسير: ٦٦/١.
(١٣) التفسير البسيط: ١١٩/٣.
(١٤) تفسير ابن عثيمين: ٢٧٥/١.

قال ابن عباس:" كانوا إذا كان بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يتسافكوا دماءهم بينهم"[١].

وقوله تعالى: {تَظَّاهَرُونَ}[البقرة:٨٥]، أي: تتعاونون، مشتق من الظهر، لأن بعضهم يقوي بعضا فيكون له كالظهر[٢]، ومنه قول الشاعر[٣]:

تظاهرتم أستاه بيت تجمعت على واحد لا زلتم قرن واحد

و(الإثم) : "الفعل الذي يستحق عليه صاحبه الذم والعدوان : الإفراط في الظلم والتجاوز فيه"[٤].

قال سعيد بن جبير:" بالإثم بعد المعصية"[٥]. وروي عن مقاتل بن حيان مثل ذلك[٦].

وفي تفسير (العدوان) قولان[٧] :

أحدهما : أنه مجاوزة الحق .

والثاني : أنه في الإفراط في الظلم[٨]. روي نحوه عن سعيد بن جبير[٩].

وقد اختلف الْقَرَأَة في قراءة : {تظاهرون}[البقرة:٨٥]، على وجوه[١٠]:

الأول: قرأها بعضهم : {تظاهرون} على مثال (تفاعلون)، واختاره أبو عبيد ووجه هذه القراءة: إنّهم حذفوا تاء الفاعل وأبقوا تاء الخطاب كقوله {وَلا تَعاوَنُوا} [المائدة: ٢]، وقوله:{ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ}[الصافات:٢٥][١١].

والثاني: وقرأها أهل المدينة وأهل مكة: {تظَّاهرون}، فشدد، بتأويل : {تتظاهرون}، غير أنهم أدغموا التاء الثانية في الظاء، لتقارب مخرجيهما، فصيروهما ظاء مشددة. واختاره أبو حاتم[١٢].

والثالث: وقرأ الكوفيون {تظاهرون} مخففا، حذفوا التاء الثانية لدلالة الأولى عليها، وكذا {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} [التحريم : ٤].

والرابع: وقرأ قتادة و ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر {تظهرون عليهم}، وشددة الظاء، وكله راجع إلى معنى التعاون، ومنه : {وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً} [الفرقان : ٥٥] وقوله : {وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} [التحريم : ٤][١٣].

والقراءة الأولى والثانية، وإن اختلفت ألفاظهما، فإنهما متفقتا المعنى. فسواء بأي ذلك قرأ القارئ، لأنهما جميعا لغتان معروفتان، وقراءتان مستفيضتان في أمصار الإسلام بمعنى واحد، ليس في إحداهما معنى تستحق به اختيارها على الأخرى، إلا أن يختار مختار{تظاهرون}، المشددة طلبا منه تتمة الكلمة[١٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٦٠):ص١٦٤/١.
(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٢٠/٢.
(٣) لم أتعرف على قائله، والبيت ورد في تفسير القرطبي: ٢٠/٢، والشوكاني رواية البيت في تفسير الشوكاني هكذا: تظاهرتم من كل أوب ووجهة، انظر: تفسير الشوكاني: ١٨٩/١٨، و ١٩١/١٨، و٦١/١٣.
(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٢٠/٢.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٦٢):ص١٦٥/١.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٦٥/١.
(٧) انظر: النكت والعيون: ١٥٥/١.
(٨)معاني القرآن للزجاج: ١/ ١٦٦، وتفسير الثعلبي:١/ ٢٢٩.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٦٣):ص١٦٥/١.
(١٠) انظر: السبعة في القراءات: ٦٣، والمحرر الوجيز: ١٧٤/١، و تفسير الطبري: ٣٠٧/٢-٣٠٨، وتفسير القرطبي: ٢٠/٢.
(١١) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٢٩/١.
(١٢) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٢٩/١.
(١٣)وروى علي بن نصر عن أبي عمرو أنه يخفف {تظهرون عليهم}، وفارقهما عاصم في التي في سورة الأحزاب فقرأ {تظاهرون منهن أمهاتكم} برفع التاء مع التخفيف، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء مع التخفيف مثل التي في سورة البقرة.[انظر: السبعة:١٦٣].
(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٠٧/٢-٣٠٨.

قوله تعالى: {وَإِن يَأْتُوكُمْ أسارى تُفَادُوهُمْ}[البقرة:٨٥]، "أي إذا وقعوا في الأسر فاديتموهم، ودفعتم المال لتخليصهم من الأسر"[١].

قال ابن عباس:" وقد عرفتم أن ذلك عليكم في دينكم"[٢].

قال الواحدي: "إن أتوكم مأسورين يطلبون الفداء فديتموهم"[٣].

قال ابن عثيمين:" يعني: تفدون المأسورين وهو محرم عليكم إخراجهم من ديارهم؛ فأنتم لم تقوموا بالإيمان بالكتاب كله"[٤].

واختلفت القراءة في قوله {أسارى تُفَادُوهُمْ}[البقرة:٨٥]، على وجوه[٥]:

الأول: فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر {أسرى تفدوهم}.

والثاني: وقرأ نافع وعاصم والكسائي {أسارى تفادوهم}[٦] بألف فيهما.

والثالث: وقرأ حمزة{أسرى تفدوهم}، بغير ألف فيهما.

والرابع: وكان أبو عمرو وحمزة والكسائي يكسرون الراء.

والخامس: وكان عاصم وابن كثير يفتحان الراء.

والخامس: وكان نافع يقرأ بين الفتح والكسر.

وقد رجّح الإمام الطبري قراءة{وإن يأتوكم أسرى}، "لأن (فعالى) في جمع (فعيل)، غير مستفيض في كلام العرب "[٧].

وأصل الأسر في اللغة: الشدّ[٨]، و(الأسير) مشتق من الإسار، وهو القد الذي يشد به المحمل فسمي أسيرا، لأنه يشد وثاقه، والعرب تقول : قد أسر قتبه، أي شده، ثم سمي كل أخيذ أسيرا وإن لم يؤسر، وقال الأعشى[٩]:

وقيدني الشعر في بيته   كما قيد الآسرات الحمارا

أي أنا في بيته، يريد ذلك بلوغه النهاية فيه، فأما الأسر في قوله عز وجل : {وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ} [الإنسان : ٢٨] فهو الخلق. وأسرة الرجل رهطه، لأنه يتقوى بهم[١٠].

وفي الفرق بين (أَسْرَى) و(أُسَارَى) ثلاثة أقوال :

أحدها : أن (أَسْرَى)، جمع (أسير)، و(أُسَارَى) جمع (أَسْرَى)[١١].

والثاني: أنه ما صار في اليد فهم (أسارى)، وما جاء مستأسرا فهو (أسرى). وهذا قول أبي عمرو بن العلاء[١٢].

---

(١) صفوة التفاسير: ٦٦/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٦٤):ص١٦٥/١.
(٣) التفسير البسيط: ١١٩/٣.
(٤) تفسير ابن عثيمين: ٢٧٥/١.
(٥) انظر: السبعة في القراءات: ١٦٤.
(٦)قال الطبري: "وكان بعضهم يزعم أن معنى " الأسرى " مخالف معنى " الأسارى " ، ويزعم أن معنى " الأسرى " استئسار القوم بغير أسر من المستأسِر لهم ، وأن معنى " الأسارى " معنى مصير القوم المأسورين في أيدي الآسرين بأسرهم وأخذهم قهرا وغلبة...وذلك ما لا وجه له يفهم في لغة أحد من العرب. ولكن ذلك على ما وصفت من جمع " الأسير " مرة على " فَعلى " لما بينت من العلة ، ومرة على " فُعالى " ، لما ذكرت : من تشبيههم جمعه بجمع " سكران وكسلان " وما أشبه ذلك".(انظر: تفسير الطبري: ٣١١/٢).
(٧)تفسير الطبري: ٣١١/٢-٣١٢.
(٨) انظر: تهذيب اللغة(أسر):ص١٥٩/١، واللسان(أسر):٧٨/٤.
(٩) ديوانه: ٥٣. و أسرت السرج والرحل : ضممت بعضه إلى بعض بسيور ، و السيور تسمى : تأسير. (انظر معجم العين: مادة(اسر).
(١٠)تفسير القرطبي: ٢١/٢.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٥٥/١.
(١٢) تفسير الثعلبي: ٢٣٠/١.

قال أبو بكر النقاش:"سمعت أحمد بن يحيى ثعلب وقد قيل له هذا الكلام عن أبي عمرو فقال: هذا كلام المجانين. يعني لا فرق بينهما"[١].

والثالث: وحكي عن أبي سعيد الضرير إنّه قال: "(الأسارى): هم المقيّدون المشدّدون، و(الأسرى): هم المأسورون غير المقيدين"[٢].

و(الفداء) : طلب الفدية في الأسير الذي في أيديهم، قال الجوهري : " الفداء إذا كُسر أوّله يُمدُّ ويُقصر، وإذا فُتح فهو مقصور. يقال: قم فدًى لك أبي. ومن العرب مَن يكسر فداء للتنوين إذا جاور لام الجرّ خاصّة، فيقول: فِداءٍ لك؛ لأنّه نكرة، يريدون به معنى الدعاء.. ويقال: فداه وفاداه، إذا أعطى فداءه فأنقذه. وفداه بنفسه، وفداه تفديةً، إذا قال له: جُعلت فداءك"[٣]، وبذلك فإن (الفداء) يأتي بمعنى التخليص، وفكاك الأسير، نقول: فَدَتْ وَافْتَدَتْ وَفَادَتِ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا مِنْ زَوْجِهَا: بَذَلَتْ لَهُ مَالاً لِيُطَلِّقَهَا، وَقَال الْوَزِيرِ بْنِ الْمَعَرِّيّ: " يُقَال: فَدَى: إِذَا أَعْطَى مَالاً وَأَخَذَ رَجُلاً، وَأَفْدَى: إِذَا أَعْطَى رَجُلاً وَأَخَذَ مَالاً، وَفَادَى: إِذَا أَعْطَى رَجُلاً وَأَخَذَ رَجُلاً "، وَالْفِدَاءُ وَالْفِدْيَةُ وَالْفَدَى كُلُّهُ بِمَعْنًى واحد، وَالْفِدْيَةُ اسْمٌ لِلْمَال الَّذِي يُفْتَدَى بِهِ الأسِيرُ [٤].

أما في الاصطلاح الشرعي، فإن الفداء لا يخرج عن معناه اللغوي، وعليه فيمكن القول: إن الفداء اصطلاحاً هو: " بذل المال ونحوه من سلاح وغيره مقابل افتكاك الأسير من قبضة عدوه"[٥].

وأنشد الأصمعي للنابغة[٦]:

مهلا فداء لك الأقوام كلهم   وما أثمر من مال ومن ولد

وقد اتفق الفقهاء على مشروعية مفاداة أسرى المسلمين بالمال؛ بل تجب المفاداة إذا تعينت وسيلة لذلك؛ لأنَّ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فإن لم يفد الإمام والمسلمون أثموا جميعا، لأنها من فروض الكفاية التي تسقط بقيام البعض بها [٧].

وقوله تعالى{تُفَادُوهُم} قرئ بوجهين[٨]:

الأول: قرأ المدنيان نافع وأبو جعفر، وعاصم والكسائي ويعقوب (تفادوهم) بضم التاء وألف بعد الفاء.

والثاني: قرأ الباقون{تَفْدُوهم}، بفتح التاء وسكون الفاء من غير ألف.

قوله تعالى: {وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ}[البقرة:٨٥]، "أي فكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم؟"[٩].

أخرج ابن أبي حاتم:" عن ابن عباس: {وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم}، في كتابكم: إخراجهم"[١٠].

قال ابن عثيمين:أي:" "تفدون المأسورين وهو محرم عليكم إخراجهم من ديارهم"[١١].

وقال قتادة:" والله إن فداءهم لإيمان، وإن إخراجهم لكفر"[١].

---

(١)تفسير الثعلبي: ٢٣٠/١.

(٢)تفسير الثعلبي: ٢٣٠/١.

(٣) الصحاح: ٢٤٥٣/٦.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور (ج ١٥، ص ١٤٩)، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي (ص ١١٨٨).

(٥) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (ج ٣٢، ص ٥٩).

(٦)هذه البيت من البسيط قاله النابغة الذبياني من قصيدة مدح بها النعمان وتبرأ مما رماه به الوشاة عنده ومطلعها:

يا دار مية بالعلياء فالسند   أقوت وطال عليها سالف الأمد

«مهلا»: بمعنى أمهل وتأنّ والفداء: ما يفتدى به الشيء و «أثمر» أي: أجمع وأصلح، يقال: ثمّر فلان ماله إذا جمعه وأصلحه. والمعنى: لا تعجل عليّ بالانتقام فداك الأقوام وما أجمع من مال وولد. والشاهد فيه: أن «فداء» مما التزم فيه التنكير من أسماء الأفعال. انظر البيت في المفصل (ص ١٦٤) وابن يعيش (٤/ ٧٠)، والتذييل (٦/ ٣ ٢١٣) والخزانة (٣/ ٧)، واللسان (فدى). وديوان النابغة (ص ٢٦).

(٧) انظر: تفسير القرطبي (ج ٥، ص ٢٧٩)، الموسوعة الفقهية الكويتية (ج ٣٢، ص ٦٠).

(٨) انظر:السبعة: ص ١٦٢ - ١٦٣، والتيسير للداني ص ٦٤، والنشر: ٢/ ٢١٨.

(٩) صفوة التفاسير: ٦٦/١.

(١٠) تفسير ابن أبي حاتم(٨٦٧):ص١٦٥/١.

(١١) تفسير ابن عثيمين: ١٤٧/١.

وقوله تعالى {هُوَ}، يحتمل وجهين من الإعراب[٢]:
الأول: مبتدأ وهو كناية عن الإخراج الذي تقدم ذكره، كأنه قال : وتخرجون فريقا منكم من ديارهم، وإخراجهم محرم عليكم. ثم كرر (الإخراج) الذي بعد {وهو محرم عليكم}، تكريرا على {هو}، لما حال بين (الإخراج) و (هو) كلام، ويقرأ {وهو} بسكون الهاء لثقل الضمة، كما قال الشاعر[٣]:
فهْو لا تنمي رميته ماله لا عد من نفره[٤]
الثاني: أن يكون عمادا، لمّا كانت (الواو) التي مع {هو} تقتضي اسما يليها دون الفعل، فلما قدم الفعل قبل الاسم - الذي تقتضيه (الواو) أن يليها - أُولِيَتْ (هو)، لأنه اسم، كما تقول : أتيتك وهو قائم أبوك، بمعنى : وأبوك قائم، إذ كانت (الواو) تقتضي اسما، فعمدت بـ(هو)، إذ سبق الفعل الاسم ليصلح الكلام، كما قال الشاعر[٥] :
فأبلغ أبا يحيى إذا ما لقيته على العيس في آباطها عَرَق يَبْسُ
بأن السُّلامِيَّ الذي بِضَرِيَّة أميرَ الحمى، قد باع حَقِّي بني عبسِ
بثوب ودينار وشاة ودرهم فهل هو مرفوع بما ههنا رَأْسُ
فأوليت(هل) (هو) لطلبها الاسم العماد.
و(المحرم): الممنوعُ منه، والحرامُ: كلُّ ممنوع من فعله، ومن ذلك: البلد الحرام، والبيت الحرام؛ لأنه كان يمنع فيه ما هو مُبَاح في غيره، ورَجل مُحْرِم وحرام: إذا مَنَع نفسه ممّا يحظره الإحرام، والحُرُمات: كُلّ ما مُنِعَ ارتكابُه، وتقول: قد تَحَرَّمت بطعامك، أي: حَرُم عليك بهذا السبَب ما كان لك أخذه، والمحروم: الممنوع ما ناله سواه. وقول زُهَير[٦]:
يقول لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ وإن أتاه خليلٌ يومَ مسألةٍ
أي: ليس بممنوع[٧].
قوله تعالى:{أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}[البقرة:٨٥]، "أي: أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض؟"[٨].
قال السدي:" كان إيمانهم ببعض الكتاب حين فدوا الأسارى"[١].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٨٦٨):ص١٦٦/١.
(٢)تفسير الطبري:٢:٣١٢-٣١٣، وتفسير القرطبي: ٢٢/٢.
(٣) البيت لامرئ القيس في ديوانه ١٥٣، واللسان (نمى)، والرواية فيهما: "فهو لا تنمى."
(٤)تفسير القرطبي: ٢٢/٢.
(٥) لم أتعرف على قائل الأبيات، وهي وردت في معاني القرآن للفراء ١ : ٥٢ . والعيس : إبل بيض يخالطها شقرة يسيرة ، وهي من كرائم الإبل. ويبس يابس. قد يبس العرق في آباطها من طول الرحلة. السلامي : يعني رجلا كان - فيما أرجح - مصدقا وعاملا على الزكاة ، وأميرا على حمى ضرية ، ولست أعرف نسبته ، أهي قبيلة أم إلى بلد . وحمى ضرية : في نجد ، على طريق البصرة إلى مكة ، وهي إلى مكة أقرب ، وهي أرض طيبة مذكورة في شعرهم . وفي البيت إقواء، " بثوب " ، متعلق بقوله آنفًا " باع " . يقول : أخذ هذه الرشى التي عددها من بني عبس ، فأسلم إليهم حقي . وقوله : " فهل هو مرفوع بما هاهنا رأس " يقوله لأبي يحيى الذي ذكره ، ويقول : فهل نجد ناصرا ينصرنا وياخذ لناحقنا ، فنرفع رؤوسنا بعد ما نزل بنا من الضيم . وهذه كلمة يقولونها في مثل ذلك . قال الراعي (طبقات فحول الشعراء : ٤٤٢) :
فإن رفعت بهم رأسا نَعَشْتُهم وإن لَقُوا مثلها في قابل فسدوا
وقال أعرابي :
فتى مثل ضوء الشمس ، ليس بباخل بخير ، ولا مهد ملاما لباخل
ولا ناطق عوراء تؤذى جليسه ولا رافع رأسا بعوراء قائل
وجاءت هذه الكلمة في (باب فضل من علم وعلم) من حديث أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ (البخاري ١ : ٢٣) : " فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " .(انظر: تفسير الطبري:٢/ ٣١٢-٣١٣).
(٦)ديوانه : ٧٩.
(٧) انظر: هذيب اللغة: ١/ ٧٩٣ - ٧٩٧، ولسان العرب: ٢/ ٨٤٤، مادة (حرم)، والتفسير البسيط: ١٢٦/٣.
(٨) صفوة التفاسير: ٦٦/١.

قال ابن عباس:" أي تفاديه بحكم التوراة، وتقتله. وفي حكم التوراة ألا تفعل"(٢).
وقال أبو العالية:" آمنوا بالفدية ففدوا وكفروا بالإخراج من الديار فأخرجوا"(٣).
وقال عطاء الخراساني:" فكفرهم أنهم كانوا يقتلون أبناءهم وأنفسهم. وإيمانهم أنهم كانوا يرون حقا عليهم أن يفادوا من وجدوا منهم أسيرا"(٤).
وقال الثعلبي:" فأيمانهم بالفداء وكفرهم بالقتل والإخراج والمظاهرة"(٥).
قال ابن عثيمين: "والاستفهام هنا للإنكار، والتوبيخ؛ والفاء في قوله تعالى: {أفتؤمنون} عاطفة؛ وسبق الكلام على مثل ذلك؛ أعني وقوع العاطف بعد همزة الاستفهام(١) ؛ ووجه كونهم يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض: أنهم كفروا بما نهوا عنه من سفك الدماء، وإخراج أنفسهم من ديارهم؛ وآمنوا بفدائهم الأسرى؛ والذي يعبد الله على هذه الطريق لم يعبد الله حقيقة؛ وإنما عبد هواه؛ فإذا صار الحكم الشرعي يناسبه قال: آخذ به؛ وإذا كان لا يناسبه راوغ عنه بأنواع التحريف، والتماس الأعذار"(٦).
وقد قال علماؤنا : كان الله تعالى قد أخذ عليهم أربعة عهود : ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء أساراهم، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء، فوبخهم الله على ذلك توبيخا يتلى فقال : {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ} [البقرة : ٨٥] وهو التوراة {وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [البقرة : ٨٥] !!(٧).
وقال الواحدي:" ولم يذمّهم على الفداء، بل على المناقضة، إذ أتوا ببعض الواجب، وتركوا بعضاً. وتكون المناقضة آكد في الذمّ، ولا يقال الإخراج معصية. فلم سماها كفراً ؟ لأنا نقول : لعلهم صرّحوا بأن ترك الإخراج غير واجب، مع أن صريح التوراة كان دالاً على وجوبه. والبعض الذي آمنوا به، إن كان المراد بالكتاب التوراة، فيكون عامًّا فيما آمنوا به من أحكامها، وفداء الأسير من جملته. والبعض الذي كفروا به : هو قتل بعضهم بعضاً، وإخراج بعضهم من ديارهم، والمظاهرة بالإثم والعدوان، من جملة ما كفروا به من التوراة. وقيل : معناه يستعملون البعض ويتركون البعض، تفادون أسرى قبيلتكم، وتتركون أسرى أهل ملتكم ولا تفادونهم"(٨).
قال السعدي:" وهذا الفعل المذكور في هذه الآية، فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود، بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة، فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضا، والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، ففرض

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٦٩):ص١٦٦/١، وعنه أيضا(٨٧١):ص١٦٦/١:" كان إيمانهم ببعض الكتاب حين فدوا الأسارى وكفرهم حين قتل بعضهم بعضا".
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٧٠):ص١٦٦/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٧٢):ص١٦٦/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٧٣):ص١٦٦/١.
(٥) تفسير الثعلبي:٢٣١/١.
(١) يقصد به الفاء واقعة بعد همزة الاستفهام؛ وهذا يكثر في القرآن: { أفلا تعقلون }؛ { أفلا تذكرون }؛ { أفلم يسيروا }؛ { أو لم يسيروا }؛ { أثم إذا ما وقع آمنتم به }؛ وأشباه ذلك؛ يعني أنه يأتي حرف العطف بعد همزة الاستفهام؛ وهمزة الاستفهام لها الصدارة في جملتها؛ ولا صدارة مع وجود العاطف؛ لأن الفاء عاطفة؛ فقال بعض النحويين: إن بين الهمزة وحرف العطف جملة محذوفة عُطفت عليها الجملة التي بعد حرف العطف، وهذه الجملة تقدر بما يناسب المقام؛ وقال آخرون: بل إن الهمزة مقدمة؛ وإن حرف العطف هو الذي تأخر . يعني زُحلق حرف العطف عن مكانه، وجعلت الهمزة مكانه؛ وعلى هذا فيكون التقدير: فألا تعقلون؛ أما على الأول فيكون التقدير: أجهلتم فلا تعقلون؛ أو: أسفهتم فلا تعقلون... المهم يقدر شيء مناسب حسب السياق؛ فالقول الأول أدق؛ والثانية أسهل؛ لأن الثاني لا يحتاج عناءً وتكلفاً فيما تقدره بين الهمزة والعاطف.(انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٣٨/١).
(٦) تفسير ابن عثيمين: ١٤٧/١.
(٧)تفسير القرطبي: ٢٢/٢.
(٨) البحر المحيط: ٢٥١/١.

عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضا، وإذا وجدوا أسيرا منهم، وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك فقال: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ} وهو فداء الأسير {وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} وهو القتل والإخراج، وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان"[١].

قوله تعالى: {فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذلك مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحياة الدنيا}[البقرة:٨٥]، "أي ما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض إلا ذلٌ وهوان، ومقتٌ وغضب في الدنيا"[٢].

قال ابن عباس:" فأنبأهم بذلك من فعلهم، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فداء أسراهم"[٣].

قال السعدي:" وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجلى من أجلى"[٤].

قال الطبري:"(الجزاء): الثواب، وهو العوض مما فعل من ذلك والأجر عليه .. و(الخزي): الذل والصغار، يقال منه : " خزي الرجل يخزى خزيا"[٥].

والخزي: "الهوان والفضيحة، وقد أخزاه الله: أي: أهانه[٦]، قال شمر[٧]: أخزاه الله: فضحه، وفي القرآن: {وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِي} [هود: ٢٣٠] أي: لا تفضحوني[٨]، قال أبو عبيد:"يُقال: خزِي يخزى خِزيًا: إذا هلك"[٩].

وقال ابن السراج: "معنى أخزاه الله، أي: أوقفه موقفا يُستحيَا منه، مِن قولهم: خزي يخزَى خِزَايَةً: إذا استحيا"[١٠].

ثم اختلف في الخزي الذي أخزاهم الله بما سلف من معصيتهم إياه، على وجوه[١١]:

الأول: فقال بعضهم : ذلك هو حكم الله الذي أنزله إلى نبيه محمد ﷺ: من أخذ القاتل بمن قتل، والقود به قصاصا، والانتقام للمظلوم من الظالم[١٢].

والثاني: أن ذلك، هو أخذ الجزية منهم ما أقاموا على دينهم، ذلة لهم وصغارا[١٣].

والثالث: أنه كان خزي قريظة القتل والسّبي، وخزي بني النضير الجلاء والنفي عن منازلهم وجنانهم إلى أذرعات وريحا من الشّام، فكان ذلك خزيا في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم[١٤].

قوله تعالى:{وَيَوْمَ القيامة يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ العذاب}[البقرة:٨٥]، "أي وهم صائرون في الآخرة إلى عذاب أشدّ منه"[١٥].

قال السعدي: "أي أعظمه"[١٦].

---

(١) تفسير السعدي: ٥٨.
(٢) صفوة التفاسير: ٦٦/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٧٤):ص١٦٧/١.
(٤) تفسير السعدي: ٥٨.
(٥) تفسير الطبري: ٣١٤/٢.
(٦)انظر: تهذيب اللغة" ١/ ١٠٢٧، "اللسان" ٢/ ١١٥٥ مادة (خزا)، "تفسير الثعلبي" ١/ ١٠٢٣.
(٧)هو: شمر أبو عمرو بن حمدويه الهروي اللغوي الأديب الفاضل الكامل، إليه الرحلة في هذا الفن من كل مكان، كانت له عناية بعلم اللغة، توفي سنة ٢٥٥ هـ. ينظر: "إنباه الرواة" ٢/ ٧٧ - ٧٨، و"بغية الوعاة" ٢/ ٤ - ٥.
(٨)تهذيب اللغة" ١/ ١٠٢٧، اللسان" ٢/ ١١٥٥ (مادة: خزي).
(٩) غريب الحديث: ٢/ ٣٨١.
(١٠)انظر: غريب الحديث" لأبي عبيد ٢/ ٣٨١، "تهذيب اللغة" ١/ ١٠٢٧٤، (مادة: خزى)، "تفسير القرطبي" ٢/ ٢٣.
(١١) تفسير الطبري: ٣١٤/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:٣١٤/٢.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:٣١٤/٢.
(١٤) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٣١/١، وتفسير الطبري:٣١٤/٢.
(١٥) صفوة التفاسير: ٦٦/١.
(١٦) تفسير السعدي: ٥٨.

قال الثعلبي:" وهو عذاب النّار"[١].

و{يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي يوم البعث؛ وسمي بذلك؛ لأن الناس يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين؛ ولأنه يقوم فيه الأشهاد؛ ولأنه يقام فيه العدل؛ و(يوم القيامة) ظرف متعلق بـ(يردون) أي يرجعون من ذلّ الدنيا، وخزيها؛ (إلى أشد العذاب) أي أعظمه؛ و(العذاب): العقوبة[٢].

وفي قوله تعالى{أشد العذاب} ثلاثة أقوال [٣]:

أحدها: أنه عذاب لا رَوْح فيه[٤] تتصل أجزاؤه، فلا يفتر أبدا عنهم.

والثاني: عذابٌ أشدّ من عذاب الدنيا، بتضعيف الألم فيه.

والثالث: أن {أشد العذاب}، الخلود في جهنم.قاله ابن عطية[٥].

و(الردُّ): "الرجع. يقال: ردّه إلى كذا، ويقال للمُجبّر: ردّاد؛ لأنه يردّ العُضْو إلى ما كان. والرِّدّة: الرجوع عن الشيء، ومنه الردّة عن الإسلام"[٦].

وقرأ الحسن وابن هرمز: {تردون} بتاء، على الخطاب لقوله {مِنْكُمْ}، وقال: {يُردّون}، بلفظ الجمع لمعنى {مَنْ}[٧].

قوله تعالى:{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[البقرة:٨٥]، "أي الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لا يغفل عن أفعالهم"[٨].

قال ابن عثيمين:"نفى الله سبحانه وتعالى عن نفسه صفة الغفلة؛ وذلك لكمال علمه، ومراقبته"[٩].

واختلفت القراءة في قوله تعالى:{تَعْمَلُونَ}[البقرة:٨٥]، على وجهين[١٠]:

الأوزل:قرأ نافع وابن كثير {يعملون}، بـ(ياء) على ذكر الغائب، فالخطاب بالآية لأمة محمد ﷺ، والآية واعظة لهم بالمعنى إن الله تعالى بالمرصاد لكل كافر وعاص.

والثاني: وقرأ الباقون{تَعْمَلُونَ}، بـ(تاء) على الخطاب المحتمل أن يكون في سرد الآية. قال ابن عطية:"وهو الأظهر"[١١].

ويحتمل أن يكون الخطاب لأمة محمد ﷺ، لما روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: "إن بني إسرائيل قد مضوا، وإنكم أنتم تعنون بهذا الحديث[١٢]، يريد: وبما يجري مجراه[١٣].

الفوائد:

١. ومنها: بيان تمرد بني إسرائيل؛ حيث إنهم نقضوا العهد الذي أخذه الله عليهم، فصار بعضهم يقتل بعضاً، ويخرج بعضهم بعضاً من ديارهم.

٢. ومنها: أن بعضهم يتعالى على بعض بالإثم، والعدوان.

---

(١) تفسير الثعلبي: ٢٣١/١.

(٢)انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٤٨/١. قال الامام الطبري: " يعني بقوله : (ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) : ويوم تقوم الساعة يرد من يفعل ذلك منكم - بعد الخزي الذي يحل به في الدنيا جزاء على معصية الله - إلى أشد العذاب الذي أعد الله لأعدائه. وقد قال بعضهم : معنى ذلك : ويوم القيامة يردون إلى أشد من عذاب الدنيا. ولا معنى لقول قائل ذلك، ذلك بأن الله جل ثناؤه إنما أخبر أنهم يردون إلى أشد معاني العذاب ، ولذلك أدخل فيه " الألف واللام " ، لأنه عنى به جنس العذاب كله ، دون نوع منه.(تفسير الطبري: ٣١٥/٢).

(٣) انظر التفسير البسيط للواحدي (٣/ ١٢٧) نقلت عنه بتلخيص وتصرف يسير.

(٤)لا روح فيه: أي لا راحة فيه.

(٥) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٥/١.

(٦) انظر: هذيب اللغة" ٢/ ١٣٩٠ مادة (ردد)، والتفسير البسيط: ١٢٧/٣.

(٧) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٥/١.

(٨) تفسير البيضاوي: ٩٢/١.

(٩) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٤٨/١.

(١٠) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٥/١-١٧٦.

(١١) المحرر الوجيز: ١٧٦/١.

(١٢) أخرجه الطبري(١٤٨١):ص٣١٠/٢.

(١٣) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٦/١.

٣. ومنها: تحريم التظاهر على الغير بغير حق؛ لقوله تعالى: {تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان}؛ وأما إذا علا عليه بحق فإن هذا لا بأس به؛ فإن الله سبحانه وتعالى فضل العباد بعضهم على بعض، كما قال تعالى: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: {فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم} [محمد: ٣٥].
٤. ومنها: تناقض بني إسرائيل في دينهم، وقبولهم للشريعة؛ حيث إنه يقتل بعضهم بعضاً، ويخرج فريقاً من ديارهم؛ ثم إذ أتى بعضهم أسيراً فاداه . أي دفع فدية لفك أسره؛ لأنه واجب عليهم في شريعتهم أن يفدي بعضهم بعضاً؛ وهذا من الإيمان ببعض الكتاب، والكفر ببعضه؛ ولهذا قال الله تعالى: {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض}.
٥. ومنها: أن الكفر ببعض الشريعة كفر بجميعها؛ وجه ذلك أن الله توعد هؤلاء الذين يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض؛ ومثل ذلك إذا آمن ببعض الرسل دون بعض فإنه كفر بالجميع؛ ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى: {كذبت قوم نوح المرسلين} [الشعراء: ١٠٥] . ونوح هو أول الرسل لم يسبقه رسول؛ ومع ذلك جعل الله المكذبين له مكذبين لجميع الرسل؛ ولقوله تعالى: {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً} [النساء: ١٥٠، ١٥١] .
٦. ومن فوائد الآية: مضاعفة العقوبة على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: {فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب}.
٧. ومنها :إثبات يوم القيامة؛ وهو اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين مبعوثين من قبورهم.
٨. ومنها: تهديد الذين نقضوا العهد؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون}.
٩. ومنها: كمال علم الله سبحانه وتعالى، ومراقبته لخلقه.
١٠. ومنها: إثبات أن صفات الله تعالى ثبوتية، ومنفية؛ لكن يجب أن نعلم أن النفي المحض لا يوجد في صفات الله تعالى؛ وإنما النفي الواقع في صفاته لبيان كمال ضد ذلك المنفي؛ ففي قوله تبارك وتعالى: {ولا يظلم ربك أحداً} [الكهف: ٤٩] إثبات كمال العدل مع نفي الظلم عنه؛ وفي قوله تعالى: {وما مسَّنا من لغوب} [ق: ٣٨] إثبات كمال القوة مع نفي اللغوب عنه؛ وعلى هذا فقس؛ فالضابط في الصفات التي نفاها الله تعالى عن نفسه أنها تدل على نفي تلك الصفة، وعلى ثبوت كمال ضدها.

القرآن

{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)} [البقرة : ٨٦]

التفسير:

أولئك هم الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب، وليس لهم ناصر ينصرهم مِن عذاب الله.

قال ابن عباس : "نزلت في اليهود، الذين تقدّم ذكرهم أنهم آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض"(١).

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ}[البقرة:٨٦]، أي:" هؤلاء اليهود الذين نقضوا العهد، اختاروا الدنيا على الآخرة"(٢).

قال الثعلبي: أي:" استبدلوا"(٣).

قال النسفي:" اختاروها على الآخرة اختيار المشتري"(٤).

قال ابن كثير:" أي : استحبوها على الآخرة واختاروها"(٥).

قال القاسمي:" أي آثروا الْحَيَاةَ الدُّنْيا على خساستها. واستبدلوها بِالْآخِرَةِ مع نفاستها"(٦).

---

(١) انظر: زاد المسير: ١١٢/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين: ٢٧٦/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ٢٣١/١.
(٤) تفسير النسفي: ١٠٥/١.
(٥) تفسير ابن كثير: ٣٢٠/١-٣٢١.
(٦) محاسن التأويل: ٣٤٦/١.

قال الآلوسي:" أي آثروا الحياة الدنيا واستبدلوها بالآخرة وأعرضوا عنها مع تمكنهم من تحصيلها"(١).
قال الشوكاني:أي:" استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة"(٢).
قال قتادة:" استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة"(٣).
وقال ابن مسعود:" أخذوا الضلالة وتركوا الهدى"(٤).
قال ابن عطية:" جعل الله ترك الآخرة وأخذ الدنيا مع قدرتهم على التمسك بالآخرة بمنزلة من أخذها ثم باعها بالدنيا"(٥).
وقال الطبري:" وإنما وصفهم الله جل ثناؤه ببأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، لأنهم رضوا بالدنيا بكفرهم بالله فيها، عوضا من نعيم الآخرة الذي أعده الله للمؤمنين. فجعل حظوظهم من نعيم الآخرة بكفرهم بالله، ثمنا لما ابتاعوه به من خسيس الدنيا"(٦).
قال القرطبي:" والشراء هنا مستعار، والمعنى استحبوا الكفر على الإيمان، كما قال:" فاستحبوا العمى على الهدى " [فصلت: ١٧] فعبر عنه بالشراء، لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه"(٧).
قوله تعالى:{فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ}[البقرة:٨٦]، "أي لا يهوَّن عنهم، لا زمناً، ولا شدة، ولا قوة"(٨).
قال أبو العالية:" هو كقوله: {هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون} [المرسلات:٣٥]"(٩).
قال ابن كثير:" أي:لا يفتر عنهم ساعة واحدة"(١٠).
وقال الثعلبي: لا" يهون"(١١).
وقال القاسمي:" في واحدة من الدارين"(١٢).
قال الآلوسي: أي العذاب الموعود به "يوم القيامة، أو مطلق الْعَذابُ دنيويا كان أو أخرويا"(١٣).
وفي دخول الفاء في قوله: {فَلا يُخَفَّفُ}[البقرة: ٨٦]، قولان(١٤):
أحدهما: العطف على (اشتروا) والقول الآخر بمعنى جواب الأمر، كقولك أولئك الضلال انتبه فلا خير فيهم، والأول أوجه، لأنه لا حاجة فيه إلى الإضمار.
والثاني: أن بعضهم حمل التخفيف على أنه لا ينقطع بل يدوم، لأنه لو انقطع لكان قد خف، وحمله آخرون على شدته لا على دوامه، والأولى أن يقال: إن العذاب قد يخف بالانقطاع وقد يخف بالقلة في كل وقت أو في بعض الأوقات، فإذا وصف تعالى عذابهم بأنه لا يخفف اقتضى ذلك نفي جميع ما ذكرناه.
قوله تعالى:{وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ}[البقرة:٨٦]، " أي ولا أحد يمنع عنهم عذاب الله"(١٥).
قال ابن كثير:" أي : وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه"(١٦).
قال الثعلبي:أي ولا هم" يمنعون من عذاب الله"(١).

---

(١) روح المعاني: ٣١٥/١.
(٢) فتح القدير:١١٠/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٧٧):ص١٦٧/١.
(٤) أخرجه الطبري(٣٨١):ص٣١٢/١.
(٥) المحرر الوجيز: ١٧٦/١.
(٦) تفسير الطبري: ٣١٦/٢-٣١٧.
(٧)تفسير القرطبي: ٢١٠/١.
(٨) تفسير ابن عثيمين:٢٧٧/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٧٨):ص١٦٧/١.
(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٢٠/١-٣٢١.
(١١) تفسير الثعلبي: ٢٣٢/١، وانظر: تفسير البغوي: ١١٩/١.
(١٢) محاسن التأويل: ٣٤٦/١.
(١٣) روح المعاني:٣١٥/١.(بتصرف بسيط).
(١٤) انظر: مفاتيح الغيب: ١٦٠/٢.
(١٥) تفسير ابن عثيمين:٢٧٧/١.
(١٦) تفسير ابن كثير: ٣٢٠/١-٣٢١.

قال النسفي:" ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم"[٢].

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى:{وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ}[البقرة:٨٦]، على وجهين [٣]:

الأول: الأكثرون حملوه على نفي النصرة في الآخرة، يعني أن أحدا لا يدفع هذا العذاب عنهم ولا هم ينصرون على من يريد عذابهم. واختاره الرازي[٤].

والثاني: ومنهم من حمله على نفي النصرة في الدنيا.

والثالث: أنهم لا ينصرون لا في الدنيا ولا في الآخرة. قاله ابن عطية[٥].

والراجح هو القول الأخير، لأنه أشمل، ويجمع بين القولين.

فهم لا ينصرون بدفع الخزي إلى آخر الدنيا أو بدفع الجزية في الدنيا، والتعذيب في العقبى[٦]. والله أعلم.

الفوائد:

١. من فوائد الآية: توبيخ من اختار الدنيا على الآخرة؛ وهو مع كونه ضلالاً في الدين سفه في العقل؛ إذ إن الدنيا متاع قليل، ثم يزول؛ والآخرة خير، وأبقى.

٢. ومنها: أن هؤلاء القوم خالدون في العذاب أبد الآبدين؛ لقوله تعالى: {فلا يخفف عنهم العذاب}.

٣.ومنها: أن المجرم لا يجد ناصراً له يمنعه من عذاب الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {ولا هم ينصرون}.

القرآن

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)} [البقرة : ٨٧]

التفسير:

ولقد أعطينا موسى التوراة، وأتبعناه برسل من بني إسرائيل، وأعطينا عيسى ابن مريم المعجزات الواضحات، وقوَّيناه بجبريل عليه السلام. أفكلما جاءكم رسول بوحي من عند الله لا يوافق أهواءكم، استعليتم عليه، فكذَّبتم فريقًا وتقتلون فريقًا؟

قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}[البقرة:٨٧]، " أي أعطينا موسى التوراة"[٧].

قال البيضاوي: أي التوراة"[٨].

قال الثعلبي:أي:" التوراة جملة واحدة"[٩].

قوله تعالى:{وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ}[البقرة: ٨٧]، " أي أتبعنا من بعده بالرسل[١٠].

قال الثعلبي:أي:" أردفنا واتبعنا من بعده رسولا بعد رسول"[١١].

قال البيضاوي:" أي أرسلنا على أثره الرسل، كقوله سبحانه وتعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا}"[١٢].

قال الصابوني: " أي أتبعنا وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل"[١٣].

قال الواحدي: " أي: أرسلنا رسولًا يقفو رَسُولًا في الدعاء إلى توحيد الله والقيام بشرائع دينه"[١].

---

(١) تفسير الثعلبي: ٢٣٢/١، وانظر: تفسير البغوي: ١١٩/١.

(٢) تفسير النسفي: ١٠٥/١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ١٦٠/٢.

(٤) مفاتيح الغيب: ١٦٠/٢. قال الرازي:""لأنه تعالى جعل ذلك جزاء على صنيعهم، ولذلك قال: {فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ}، وهذه الصفة لا تليق إلا بالآخرة، لأن عذاب الدنيا وإن حصل فيصير كالحدود التي تقام على المقصر ولأن الكفار قد يصيرون غالبين للمؤمنين في بعض الأوقات".

(٥) انظر: المحرر الوجيز: ١٦٧/١.

(٦) انظر: روح المعاني: ٣١٥/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(٨) تفسير البيضاوي: ٩٢/١.

(٩) تفسير الثعلبي:٢٣٢/١.

(١٠) تفسير ابن عثيمين:٢٨١/١.

(١١) تفسير الثعلبي:٢٣٢/١.(بتصرف بسيط).

(١٢) تفسير البيضاوي: ٩٢/١.

(١٣) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

قال الطبري:" أتبعنا بعضهم بعضا على منهاج واحد، وشريعة واحدة لأن كل من بعثه الله نبيا بعد موسى عليه السلام إلى زمان عيسى بن مريم فإنما بعثه بأمر بني إسرائيل بإقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء إلى ما فيها"[٢].

قال أبو السعود:" أي: أرسلناهم على أَثَرِه كقوله تعالى ثُمَّ {أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تترا} وهم يوشَعُ وأشمَويلُ وشمعونُ وداودُ وسليمانُ وشَعْيا وأرميا وعُزيرٌ وحزْقيل وإلياسُ واليسعُ ويونسُ وزكريا ويحيى وغيرُهم عليهم الصلاة والسلام"[٣].

يقال: قفّي أثره، وقفّى غيرَه على أثره، أي: اتبعه إياه، والقفا: مُؤَخَّرُ العُنُق، ويقال للشيخ إذا هرم: رُدّ على قَفَاه، ورُدّ قَفًا، قال الشاعر[٤]:

إن تَلْقَ رَيْبَ المنايا أو تُرَدُّ قفًا لا أَبْكِ مِنك على دينٍ ولا حَسَب

ومنه: قافية الشعر[٥].

قوله تعالى:{عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ}[البقرة:٨٧]، " أي أعطينا عيسى الآيات البينات والمعجزات الواضحات الدالة على نبوته"[٦].

قال الواحدي: يعني: الآياتِ التي ذكرها في سورة آل عمران[٧] والمائدة[٨]"[٩].

قال البيضاوي:" المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص، والإخبار بالمغيبات. أو الإنجيل"[١٠].

قال ابن عثيمين:" وهذه الآية البينات، تشمل الآيات الشرعية، كالشريعة التي جاء بها؛ والآيات القدرية الكونية، كإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله"[١١].

وفي تفسير:{الْبَيِّنَاتِ}[البقرة:٨٧]، وجوه[١٢]:

أحدها: أن البينات التي أوتيها عيسى إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير، فيكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأسْقَام . قاله ابن عباس[١٣].

وثانيها: أنها الإنجيل.

وثالثها: وهو الأقوى أن الكل يدخل فيه، لأن المعجز يبين صحة نبوته كما أن الإنجيل يبين كيفية شريعته فلا يكون للتخصيص معنى.

و(عيسى) بالسرنانية: إيشوُعُ، ومعناه المبارك، ومريم بمعنى الخادم،وهو بالعبرية من النساء كالزير من الرجال، وبه فُسر قولُ رؤبة[١٤]:

---

(١) التفسير البسيط: ١٢٨/٣.

(٢) تفسير الطبري: ٣١٨/٢.

(٣) تفسير أبي السعود: ٢٧/١.

(٤)البيت بلا نسبة في: "لسان العرب" ٦/ ٣٧٠٨، و"أساس البلاغة" ص ٢/ ٢٦٩، والتفسير البسيط: ١٢٨/٣.

(٥) انظر: تهذيب اللغة" ٣/ ٣٠١٣، "المحرر الوجيز" ١/ ٣٨٥، والتفسير البسيط: ١٢٨/٣، واللسان" ٦/ ٣٧٠٨ مادة (قفا).

(٦) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(٧)في قوله تعالى: {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ} [آل عمران: ٤٩].

(٨)في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ} الآية: ١١٠ من سورة المائدة انظر: تفسير الثعلبي" ١/ ١٠٢٤.

(٩) التفسير البسيط: ١٢٨/٣.

(١٠) تفسير البيضاوي: ٩٢/١.

(١١) تفسير ابن عثيمين:٢٨١/١.

(١٢) انظر: النكت والعيون: ١٥٦/١، ومفاتيح الغيب: ١٦٢/٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٤٨٣):ص٣١٨/٢-٣١٩.

(١٤) اللسان(زور):ص٣٣٦/٤، والبيت من شواهد البيضاوي في تفسيره:٩٢/١، وأبي السعود في تفسيره: ١٢٧/١، وفي شرح الشافية: ١٧٧/٤، أنه لرؤبة، وقبله:

أرسل فيها بازلا يقرّمه وهو بها ينحو طريقا يعلمه

قلتُ لزيرٍ لم تصِلْه مَرْيمُه   ضليلِ أهواءِ الصِّبا تندّمُهْ[١]

وعيسى عليه السلام: "هو ابن مريم، كونه الله في بطنها بدون مس رجل، وأمه مريم ابنة عمران من سبط يهوذا"[٢].

قوله تعالى: {وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوح القدس}[البقرة: ٨٧]، "أي قويناه وشددنا أزره بجبريل عليه السلام"[٣].

قال الضحاك" يقول : نصرناه"[٤].

قال الواحدي:" أي: قويناه"[٥].

قال الثعلبي:" قويناه وأعناه[٦].

و«الأيد» و«الآد»: القوة، يقال: أَيَّدَه وآيده: إذا قواه، وآدَ يَئِيدُ أَيْدًا: إذا قوي، قال امرؤ القيس[٧]:

فَأَثَّتْ أَعَاليه وآدَتْ أُصولُه   ومال بقُنْيَانٍ من البُسْرِ أحمرا

أي: قويت وإياد كل شيء: ما يَقْوَى به[٨]، يقال منه : أيدك الله، أي قواك، وهو رجل ذو أَيْد، وذو آد، يراد : ذو قوة، ومنه قول العجاج[٩] :

من أن تبدلت بآدي آدا

يعني : بشبابي قوة المشيب، ومنه قول الآخر [١٠]:

إن القداح إذا اجتمعن فرامها   بالكسر ذو جَلَد وبطش أيِّد

يعني بالأيد : القوي[١١].

وقرأ مجاهد وابن محيصن {آيدناه}، بالمد، وهما لغتان[١٢].

وقرأ ابن كثير في تفسيره {القُدْس}، بإسكان الدال حيث جاء، والباقون بضمها[١٣]، "وهُما حسنان"[١]،

قال الثعلبي:"وهما لغتان مثل الرّعب والسّحت ونحوهما"[٢].

و(الزير): بكسر الزاي هو الرجل الذي يميل لمحادثة النساء ومجالستهن، وياؤه منقلبة عن الواو ووزنه فعل بكسر الفاء من زار يزور. وقوله (مريمه): أي المرأة التي ترغب في محادثته وهذا البيت من قصيدة مدح بها أبا جعفر المنصور.

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٩٢/١، وتفسير أبي السعود: ١٢٧/١.

(٢) التحرير والتنوير: ٥٩٥/١. ولد عيسى في مدة سلطنة أغسطس ملك رومية وفي مدة حكم هيرودس على القدس من جهة سلطان الرومان وذلك في سنة (٤٣٠) عشرين وستمائة قبل الهجرية المحمدية، وكانت ولادته بقرية تعرف ببيت لحم اليهودية، ولما بلغ ثلاثين سنة بعث رسولا إلى بني إسرائيل وبقي في الدنيا إلى أن بلغ سنه ثلاثا وثلاثين سنة.

وأما مريم أمه فهي مريم ابنة عمران بن ماثان من سبط يهوذا ولدت عيسى وهي ابنة ثلاث عشرة سنة فتكون ولادتها في سنة ثلاث عشرة قبل ميلاد عيسى وتوفيت بعد أن شاخت ولا تعرف سنة وفاتها، وكان أبوها مات قبل ولادتها فكفلها زكرياء من بني أبيا وهو زوج اليصابات خالة مريم وكان كاهنا من أحبار اليهود.[انظر: التحرير والتنوير:٥٩٥/١].

(٣) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(٤) أخرجه الطبري(١٤٨٤):ص٣١٩/٢.

(٥) التفسير البسيط: ١٢٩/٣، وانظر: "معاني القرآن" للزجاج ١/ ١٦٨، "تفسير الثعلبي" ١/ ١٠٢٤و"المحرر الوجيز" ١/ ٣٨٥.

(٦) تفسير الثعلبي: ٢٣٢/١.

(٧)يصف نخيلًا، انظر "ديوانه" ص ٦٠، "لسان العرب" ١/ ١٨٩ (مادة أيد). "المعجم المفصل" ٣/ ١٤٠.

(٤) ينظر "تهذيب اللغة" ١/ ٩٦، "اللسان" ١/ ١٨٩، وفيه: وإياد كل شيء: ما يقوى به من جانبيه، وهما إياداه.

(٨)تهذيب اللغة" ١/ ٩٦، "اللسان" ١/ ١٨٩.

(٩)زيادة ديوانه : ٧٦ ، واللسان (آود) (أيد) ومجاز القرآن : ٤٦ ، وأمالي الزجاجي : ٣٩ في خبر ، ورواه : فإن تبدلت بآدي آدا ... لم يك ينآد فأمسى انآدا

والقعاد : القواعد من النساء ، جمع على جمع المذكر ، كما قال القطامي : أبصارهن إلى الشبان مائلة ... وقد أراهن عني غير صداد

يعني : غير صواد .

(١٠)ينسب البيت - من أبيات - لعبد الملك بن مروان ، والصواب أنه لعبد الله بن عبد الأعلى ابن أبي عمرة الشيباني . مولى بني شيبان (تاريخ الطبري ٤ : ٢٢ / وسمط اللآلئ : ٩٦٣ ترجمته)

(١١) انظر: تفسير الطبري:٣١٩/٢-٣٢٠.

(١٢) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٣٢/١، تفسير القرطبي: ٢٣/٢، والتفسير البسيط: ١٣١/٣.

(١٣) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٣٢/١، تفسير القرطبي: ٢٣/٢، والتفسير البسيط: ١٣١/٣.

واختلف أهل التفسير في معنى {رُوح الْقُدُسِ}[البقرة:٨٧]، على وجوه:
القول الأول:أنه جبريل عليه السلام[٣] والقدس: الطهارة، هو قول قتادة[٤]، والربيع بن أنس[٥]، والسدي[٦]، والضحاك[٧]، ومحمد ابن كعب القرظي[٨]، وعطية العوفي[٩]، وإسماعيل بن أبي خالد[١٠]، و شهر بن حوشب الأشعري[١١]. واختاره الزجاج[١٢]، والطبري[١٣]، والشنقيطي[١٤]، وغيرهم.
ويؤيده قوله -ﷺ-: "اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك"[١٥].
ومنه قول حسان[١٦]:

وجبريل رسول الله ينادي   وروح القدس ليس به خفاء

---

(١) التفسير البسيط: ١٣١/٣.
(٢)تفسير الثعلبي: ٢٣٢/١، وانظر: تفسير القرطبي: ٢٣/٢.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٦٩/١-٢٧٠، جامع البيان للطبري: ٣٢٠/٢، النكت والعيون للماوردي: ١٥٦/١، زاد المسير لابن الجوزي: ١١٢/١. وذهب إليه: الزجاج في معاني القرآن: ١٦٨/١، والطبري في جامع البيان: ٣٢١/٢، والماوردي في النكت والعيون: ١٥٦/١، وابن عطية في المحرر الوجيز: ٢٨٧/١، والرازي في مفاتيح الغيب: ١٩١/١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ٢٤/٢، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ١٥٥/١، والسمين الحلبي في الدر المصون: ٢٩٤/١، وغيرهم.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٤٨٥):ص٣٢٠/٢
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٤٨٨):ص٣٢٠/٢
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٤٨٦):ص٣٢٠/٢
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٤٨٧):ص٣٢٠/٢
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٨٤):ص١٦٨/١.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٦٨/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٨٣):ص١٦٨/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٤٨٩):ص٣٢٠/٢
(١٢) انظر: معاني القرآن: للزجاج:١٦٨/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري: ص٣٢٠/٢
(١٤) انظر: أضواء البيان: ٤٥٣/٢.
(١٥)وكذا عزاه المزي في تحفة الأشراف (١٠/١٢) للبخاري ، وقال الحافظ ابن حجر في "النكت الظراف" : "لم أر هذا الموضع في صحيح البخاري ، وقد وصله أحمد والطبراني وصححه الحاكم".
(١٦)ديوانه: ١ / ١٧، ١٨، و " سيرة ابن هشام " ٢ / ٤٢١، ٤٢٤، والسهيلي ٢ / ٢٨٠، وابن سيد الناس ٢ / ١٨١، و " تهذيب ابن عساكر " ٤ / ١٣٠، ١٣١.
ونص الحديث: (حديث مرفوع) "أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ نَصْرٍ الصَّيْدَلانِيُّ ، بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ بِأَصْبَهَانَ ، قُلْتُ لَهُ : أَخْبَرَتْكُمْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ ، قِرَاءَةً عَلَيْهَا ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رِيذَةَ ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ الطَّبَرَانِيُّ ، حَدَّثَنَا مُطَّلِبُ بْنُ شُعَيْبٍ الأَزْدِيُّ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ ، حَدَّثَنِي اللَّيْثُ ، حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلالٍ ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ غَزِيَّةَ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، عَنْ عَائِشَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " اهْجُوا قُرَيْشًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ رَشْقِ النَّبْلِ " ، فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ ، فَقَالَ : اهْجُهُمْ فَهَجَاهُمْ ، فَلَمْ يَرْضَ ، فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ ، فَلَمَّا دَخَلَ حَسَّانٌ ، قَالَ : قَدْ آنَ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَى هَذَا الأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ ، دَلَعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ ، فَقَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَفْرِيَنَّهُمْ فَرْيَ الأَدِيمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لا تَعْجَلْ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا ، وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَبًا حَتَّى يَخْلُصَ لَكَ نَسَبِي " ، فَأَتَاهُ حَسَّانٌ ثُمَّ رَجَعَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ خَلَصَ لِي نَسَبُكَ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِحَسَّانَ : " إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ " ، قَالَ : فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " هَجَاهُمْ حَسَّانٌ فَشَفَى وَاشْتَفَى . " قَالَ حَسَّانٌ : هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ هَجَوْتَ مُحَمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا رَسُولَ اللَّهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ ثَكِلْتُ بُنَيَّتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَنَفِي كَدَاءُ تُنَازِعُنِي الأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ فَإِنْ أَعَرَضْتُمُ عَنَّا اعْتَمَرْنَا وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ وَإِلا فَاصْبِرُوا لِضِرَابِ يَوْمٍ يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا يَقُولُ الْحَقَّ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ تَلاقِي مِنْ مَعَدٍّ كُلَّ يَوْمٍ سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ وَجِبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِنَحْوِهِ ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ شُعَيْبِ بْنِ اللَّيْثِ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، بِإِسْنَادِهِ ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : يُبَارِينَ الأَعِنَّةَ".

وعن شهر بن حوشب الأشعري : أن نفرًا من اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : أخبرنا عن الروح. فقال : "أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل ؟ وهو الذي يأتيني ؟" قالوا : نعم"[١].

وفي صحيح ابن حبان أظنه عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : "إن روح القدس نفخ في روعي : إن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب" [٢].

واختلفوا في سبب تسمية (جبريل)، بروح القدس، على ثلاثة أقاويل[٣] :

أحدها : أنه سُمِّيَ رُوحاً، لأنَّه بمنزلة الأرواح للأبدان، يحيي بما يأتي به من البينات من الله عز وجل، كما قال عز وجل: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} [الأنعام: ١٢٢]، أي: "كان كافرًا فهديناه"[٤].

والثاني: أنه سمي روحاً، لأن الغالب على جسمه الروحانية، لرقته، وكذلك سائر الملائكة، وإنما يختص به جبريل تشريفاً .

والثالث : أنه سمي روحاً، لأنه كان بتكوين الله تعالى له روحاً من عنده من غير ولادة .

القول الثاني:أن المراد بروح القدس: الإنجيل، كما قال في القرآن:{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا} [الشورى : ٥٢]، وسمي به، لأن الدين يحيا به ومصالح الدنيا تنتظم لأجله[٥]. وهذا قول ابن زيد[٦].

والقول الثالث: أن روح القدس: اسم الله الأعظم الذي كان عيسى يُحيِي به الموتى[٧]، قاله: ابن عباس في رواية الضحاك عنه[٨]، وروي نحوه عن سعيد بن جبير[٩].

والقول الرابع: أن روح القدس عيسى-عليه السلام-، وإنما كان ذلك تأييداً له لأن تكوينه في ذلك الروح اللدني هو الذي هيأه لأن يأتي بالمعجزات العظيمة[١٠].

وقالوا " وسمى روحَه قُدُسًا؛ لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحولة، ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث"[١١].

والقول الأول أظهر، وهو قول الجمهور، لأن التسمية فيه أظهر مما عداه[١٢]، ولأن التأييد به على الحقيقة، ولأن الله-جل ثناؤه-أخبر أنه أيد عسى به في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} [المائدة:١١٠] وهي تدل من جهتين على أن (روح القدس) غير الإنجيل:

الأولى: قوله-عز وجل-: {تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ}[المائدة:١١٠] ونزول الإنجيل على عيسى كان في مرحلة الرجولة لا المهد.

والثانية: أنه لو كان المراد به الإنجيل لكان ذكر الإنجيل مرة أخرى لا معنى له،"وذلك خلف من الكلام والله-تعالى ذكره-يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة"[١٣]، لكن قد يقال: إن الكلام في معرض الامتنان فإعادة ذكر الإنجيل مرة أخرى لا تخلو من فائدة؛ لأنه في الأول امتنان بالتأييد وفي الثاني امتنان بالتعليم وهما شيئان مختلفان لكن الجهة الأولى لا جواب عنها. وكونه اسم الله الأعظم الذي كان عيسى يحي به الموتى يحتاج إلى نقل صحيح عن النبي ﷺ. أما كون المراد روح عيسى-عليه السلام-فوجه تأييد عيسى به متكلف. والله أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره(١٤٨٩):ص٣٢٠/٢، من طريق سلمة عن ابن إسحاق به.

(٢)ورواه البغوي في شرح السنة (٣٠٤/١٤) من طريق أبي عبيد عن هشيم عن إسماعيل بن أبي خالد عن زبيد اليامي ، عمن أخبره ، عن ابن مسعود به مرفوعًا.

(٣) انظر: النكت والعيون:١٥٦/١.

(٤) التفسير البسيط: ١٣٠/٣.

(٥) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (١/ ٨٦).

(٦) انظر: تفسير الطبري:(١٤٩٠):ص ٣٢١/٢، وزاد المسير لابن الجوزي: ١١٣/١، وغيرهما،

(٧)انظر: تفسير للطبري: ٣٢١/٢، وتفسير ابن أبي حاتم: ٢٧٠/١-٢٧١، وغيرهما.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٤٩١):ص٤٢١/٢، وابن أبي حاتم(٨٨٦):ص١٦٩/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٦٩/١.

(١٠)انظر: الكشاف للزمخشري: ٢٩٤/١، مفاتيح الغيب للرازي: ١٩٠/٣.

(١١) التفسير البسيط: ١٣١/٣، وتفسير الثعلبي: ٢٣٢/١.

(١٢) انظر: تفسير الرازي: ١٦٣/٢.

(١٣) تفسير الطبري: ٣٢٢/٢.

و(القُدُس)، فيه ثلاثة أقاويل[١]:
أحدها : هو الله تعالى، ولذلك سُمِّي عيسى عليه السلام روح القدس، لأن الله تعالى كوَّنه من غير أب، وهذا قول الحسن[٢]، والربيع[٣]، وجعفر[٤]، وابن زيد[٥].
والثاني : أن القدس: المطهر، قاله ابن عباس[٦]، كأنه دل به على التطهر من الذنوب، قال العَجّاج[٧]:
قد عَلِمَ القُدُّوس رَبُّ القُدْس
والثالث : أن القدس البركة، وهو قول السدي[٨].
قال الواحدي:" وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام هو أنه كان قرينه، يسير معه حيثما سار، وأيضًا فإنه صَعِد به إلى السماء، ودليل هذا التأويل: قوله عز وجل: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} [النحل: ١٠٢]، يعني: جبريل"[٩].
وقد وذكر ابن الجوزي في تأييد عيسى بروح القدس الذي هو جبريل ثلاثة أقوال[١٠]:
أحدها: أنه أُيد به لإظهار حجته وأمر دينه.
والثاني: لدفع بني إسرائيل عنه إذ أرادوا قتله.
والثالث: أنه أيد به في جميع أحواله.
قوله تعالى: {أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُكُمْ}[البقرة:٨٧]، " أي أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا يوافق هواكم"[١١].
قال القرطبي: "أي بما لا يوافقها ويلائمها"[١٢].
والخطاب لليهود من بني إسرائيل. قاله مجاهد[١٣].
وهذا القول: هو "نهاية الذم لهم، لأن اليهود من بني إسرائيل كانوا إذا أتاهم الرسول بخلاف ما يهوون كذبوه، وإن تهيأ لهم قتله قتلوه، وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الرفعة في الدنيا وطلبهم لذاتها والترؤس على عامتهم وأخذ أموالهم بغير حق، وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك فيكذبونهم لأجل ذلك ويوهمون عوامهم كونهم كاذبين ويحتجون في ذلك بالتحريف وسوء التأويل، ومنهم من كان يستكبر على الأنبياء استكبار إبليس على آدم"[١٤].
قال ابن عاشور: المرادب بـ(الهوى)، " ما تميل إليه أنفسهم من الانخلاع عن القيود الشرعية والانغماس في أنواع الملذات والتصميم على العقائد الضالة"[١٥].
وأصل (الهوى): الميل إلى الشيء، ويجمع أهواء، كما جاء في التنزيل، ولا يجمع أهوية، على أنهم قد قالوا في ندى أندية، قال الشاعر[١] :

---

(١) انظر: النكت والعيون:١٥٦/١.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٥٦/١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٨٧):ص١٦٩/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٤٩٣):ص٣٢٢/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٤٩٤):ص٣٢٣/٢.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٨٩):ص١٦٩/١.
(٧) انظر: التفسير البسيط: ١٣١/٣، واللسان" ٦/ ٣٥٥٠ (مادة: قدس)، وفيه: (مولى) بدل (رب). وبعده:
إن أبا العباس أولى نفس   بمعدن الملك القديم الكِرسِ
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٤٩٢):ص٣٢٢/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٨٨٨):ص١٦٩/١.
(٩) التفسير البسيط: ١٣٠/٣.
(١٠) انظر: زاد المسير:١/ ١١٢ - ١١٣.
(١١) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(١٢) انظر: تفسير القرطبي: ٢٤/٢.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٤٩٦):ص٣٢٣/٢.
(١٤) انظر: تفسير الرازي: ١٦٣/٢.
(١٥) التحرير والتنوير: ٥٩٨/١.

في ليلة من جمادى ذات أندية   لا يبصر الكلب في ظلمائها الطنبا

قال الجوهري : وهو شاذ وسمي الهوى لأنه يهوي بصاحبه إلى النار، ولذلك لا يستعمل في الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه، وهذه الآية من ذلك. وقد يستعمل في الحق، ومنه قول عمر رضي الله عنه في أسارى بدر : "فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت"[٢]، وقالت عائشة للنبي ﷺ في صحيح الحديث : "والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك"[٣]، أخرجهما مسلم[١].

---

(١) البيت لمرّة بن محكان في الأغاني ٣ / ٣١٨ ؛ والخصائص ٣ / ٥٢ ، ٣ / ٢٣٧ ؛ وسر صناعة الإعراب ص ٦٢٠ ؛ وشرح التصريح ٢ / ٢٩٣ ؛ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٥٦٣ ؛ ولسان العرب ١٥ / ٣١٨ (ندى) ؛ والمقاصد النحوية ٤ / ٥١٠ ؛ والمقتضب ٣ / ٨١ ؛ وبلا نسبة في شرح الأشموني ٣ / ٦٥٦ ؛ وشرح شافية ابن الحاجب ص ٣٢٩ ؛ وشرح المفصل ١٠ / ١٧ ؛ ولسان العرب ١١ / ٢٦٨ (رجل)، ومرة بن محكان وهو من شعراء الحماسة وقد اختار أبو تمام منها ابياتا في باب الاضياف والمديح وقبل البيت الشاهد قوله: يا ربة البيت قومي غير صاغرة * ضمي اليك رحال القوم والقربا وبعده بيت الشاهد وبعده قوله لا ينبح الكلب فيها غير واحدة * حتى يلف على خرطمه الذنبا ربة البيت: المراد منها امرأته وقوله (غير صاغرة) اراد غير مستهان بك وذلك لان اكرام الضيف عنده من اقدس الواجبات والرحال: جمع رحل يريد به متاع الضيفان. والقرب: جمع قراب مثل كتاب وكتب وهو جفن السيف وانما امرها ان تضم إليها قرب سيوفهم لانهم إذا نزلوا عنده امنوا ان يصيبهم مكروه وقوله (في ليلة من جمادى) اراد في ليلة من ليالى الشتاء وذلك لان الشتاء عندهم زمان الجدب والحاجة والاندية: جمع ندى والندى: البلل. وقيل ما سقط آخر الليل والطنب: الحبل الذى تشد به الخيمة. والاستشهاد بالبيت في قوله (اندية).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير من الصحيح، باب(١٨): رقم الحديث (٤٦٨٧). قال الامام: حَدَّثَنَا هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ حَدَّثَنِى سِمَاكٌ الْحَنَفِىُّ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ حَدَّثَنِى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ ح وَحَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ - وَاللَّفْظُ لَهُ - حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ الْحَنَفِىُّ حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ حَدَّثَنِى أَبُو زُمَيْلٍ - هُوَ سِمَاكٌ الْحَنَفِىُّ - حَدَّثَنِى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ قَالَ حَدَّثَنِى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلاَثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً فَاسْتَقْبَلَ نَبِىُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِى مَا وَعَدْتَنِى اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِى اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِى الأَرْضِ » . فَمَازَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ . وَقَالَ يَا نَبِىَّ اللَّهِ كَذَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ) فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلاَئِكَةِ . قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ فَحَدَّثَنِى ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِى أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ أَقْدِمْ حَيْزُومُ . فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِياً فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ . فَجَاءَ الأَنْصَارِىُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ « صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ » . فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ . قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ « مَا تَرَوْنَ فِى هَؤُلاَءِ الأُسَارَى » . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا نَبِىَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلاَمِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ » . قُلْتُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى الَّذِى رَأَى أَبُو بَكْرٍ وَلَكِنِّى أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمَكِّنِّى مِنْ فُلاَنٍ - نَسِيباً لِعُمَرَ - فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَإِنَّ هَؤُلاَءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا فَهَوِىَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِى مِنْ أَىِّ شَىْءٍ تَبْكِى أَنْتَ وَصَاحِبُكَ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَبْكِى لِلَّذِى عَرَضَ عَلَىَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَىَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ » . شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِىِّ اللَّهِ ﷺ . وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ) إِلَى قَوْلِهِ (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً) فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ . تحفة ٥٦٧٥ ، ١٠٤٩٦ - ٥٨/١٧٦٣ .

(٣) رواه مسلم، في كتاب الرضاع، باب جواز هبتها نوبتها لضرتها، حديث رقم(١٤٦٤)، قال الامام مسلم: "حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: " كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَقُولُ: وَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ} [الأحزاب: ٥١] " قَالَتْ: قُلْتُ: «وَاللَّهِ، مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ لَكَ فِي هَوَاكَ".

ومعنى الحديث: أن الله سبحانه وتعالى خص نبيه من بين سائر المؤمنين بأن أي امرأة وهبت نفسها له فله أن ينكحها. فعند نزول الآية المذكورة قالت عائشة: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. ومعناه كما قال ابن حجر: (أي ما أرى الله إلا موجداً لما تريد بلا تأخير، منزلا لما تحب وتختار. وقال القرطبي: هذا قول أبرزه الدلال والغيرة، وهو من نوع قولها: ما أحمدكما ولا أحمد إلا الله. وإضافة الهوى إلى النبي ﷺ لا يحمل على ظاهره لأنه لا ينطق عن الهوى، ولا يفعل بالهوى، ولو قالت إلى مرضاتك لكان أليق، و لكن الغيرة يغتفر لأجلها إطلاق مثل ذلك.

قوله تعالى: {اسْتَكْبَرْتُمْ}[البقرة:٨٧]، " أي تكبرتم عن اتباعه"[٢].
قال الواحدي: أي:" تعظمتم عن الإيمان به؛ لأنهم كانت لهم الرئاسة، وكانوا متبوعين، فآثروا الدنيا على الآخرة"[٣].
قال القرطبي:أي تكبرتم" عن إجابته احتقارا للرسل، واستبعادا للرسالة[٤].
قال البيضاوي: أي تكبرتم:" عن الإيمان واتباع الرسل"[٥].
قال أبو السعود: أي تكبرتم" عن الاتباع له والإيمانِ بما جآء به من عند الله تعالى"[٦].
قال ابن عاشور:" والاستكبار الاتصاف بالكبر وهو هنا الترفع عن اتباع الرسل وإعجاب المتكبرين بأنفسهم واعتقاد أنهم أعلى من أن يطيعوا الرسل ويكونوا أتباعا لهم، فالسين والتاء في استكبرتم للمبالغة"[٧].
وقال الراغب:" ثم زاد في ذمهم بوصفهم بالاستكبار إذ هو مقر النقائص، فإنه نتيجة الإعجاب، والإعجاب نتيجة الجهل بالنفس والجهل بالنفس مقارن للجهل بخالقها، ولذلك قال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ}[الحشر:١٩]"[٨].
قوله تعالى:{فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ}[البقرة:٨٧]، أي:"فطائفة منهم كذبتموهم"[٩].
قال سعيد بن جبير:" فريقا يعني طائفة"[١٠].
قال أبو السعود:أي كذبتم" منْ غيرِ أنْ تتعرضُوا لهم بشيء آخر من المضارّ"[١١].
قال الواحدي:" مثل: عيسى ومحمد"[١٢].
قال البيضاوي:" كموسى وعيسى عليهما السلام، والفاء للسببية أو للتفصيل"[١٣].
قال ابن عاشور:" فإنهم لما استكبروا بلغ بهم العصيان إلى حد أن كذبوا فريقا أي صرحوا بتكذيبهم أو عاملوهم معاملة الكاذب"[١٤].
قوله تعالى:{وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} [البقرة : ٨٧]، أي:" وطائفة قتلتموهم"[١٥].
قال أبو السعود أي:" غيرَ مكتفين بتكذيبهم، كزكريا ويحيى وغيرهما عليهم السلام"[١٦].
قال الواحدي:" مثل: يحيى وزكريا"[١٧].

وهذا الحديث دليل على عفة رسول الله ﷺ وعدم شهوانيته، لأن الله أباح له أي امرأة تهب نفسها له، وجاءه كثير من النساء وعرضن أنفسهن عليه وردهن، فقد أخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها له.(انظر: تفسير الطبري: ٢٨٥/٢٠ في صدد تفسيره الاية (٥٠ من سورة الاحزاب)، قال ابن حجر في الفتح: وإسناده حسن، والمراد أنه لم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان مباحاً له، لأنه انظر إلى إرادته لقوله تعالى (إن أراد النبي أن يستنكحها). والله أعلم. (انظر: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن ، سورة الأحزاب، الحديث رقم(٤٥٠٦): ٣٧٨/٨).

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢٥/٢.
(٢) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(٣) التفسير البسيط: ١٣٢/٣-١٣٣.
(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٢٥/٢.
(٥) تفسير البيضاوي: ٩٣/١.
(٦) تفسير أبي السعود: ١٢٧/١.
(٧) التحرير والتنوير: ٥٩٨/١.
(٨) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٥٦/١.
(٩) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩١):ص١٧٠/١.
(١١) تفسير أبي السعود:١٢٧/١.
(١٢) التفسير البسيط:١٣٣/٣.
(١٣) تفسير البيضاوي: ٩٣/١.
(١٤) التحرير والتنوير: ٥٩٨/١.
(١٥) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(١٦) تفسير أبي السعود: ١٢٧/١.
(١٧) التفسير البسيط:١٣٣/٣.

قال القرطبي: "فكان ممن كذبوه عيسى ومحمد عليهما السلام، وممن قتلوه يحيى وزكريا عليهما السلام"[١].

قال ابن عاشور:" وهذا كقوله تعالى عن أهل مدين {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} [هود : ٩١]"[٢].

قال الراغب:" فإن قيل : لم قال : {فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}[البقرة:٨٧]، وهلا جعلا ماضيين أو مستقبلين ؟

قيل : أما من حيث اللفظ، فلأنه لما لم يكن يفسد المعنى روعي فيه المجانسة بين الفواصل ليكون اللفظ أحسن، وأما من حيث المعنى : فللتنبيه أنهم لم يتوقفوا في تكذيب من جاءهم من الأنبياء، فذكره بلفظ الماضي، إذ لا مزاولة فيه، وذكر القتل بلفظ الاستقبال تنبيهاً أنهم يزاولون قتله قدروا عليه أم لم يقدروا"[٣].

وقال ابن عاشور:" وجاء في {تقتلون}، بالمضارع عوضا عن الماضي، لاستحضار الحالة الفظيعة وهي حالة قتلهم رسلهم، كقوله: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} [فاطر : ٩]، مع ما في صيغة {تقتلون}، من مراعاة الفواصل، فاكتمل بذلك بلاغة المعنى وحسن النظم"[٤].

وذكر البيضاوي في صيغة{تقتلون}[البقرة:٨٧]، ثلاثة أوجه[٥]:

أحدها: أنه ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية، استحضاراً لها في النفوس، فإن الأمر فظيع.

والثاني: مراعاة للفواصل.

والثالث: للدلالة على أنكم بعد فيه، فإنكم تحومون حول قتل محمد صلّى الله عليه وسلّم، لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة.

الفوائد:

١. من فوائد الآية: إثبات رسالة موسى؛ لقوله تعالى: {ولقد آتينا موسى الكتاب}.

٢. ومنها: تأكيد الخبر ذي الشأن . وإن لم ينكر المخاطب؛ لقوله تعالى: {ولقد آتينا}؛ فإنها مؤكدة بثلاث مؤكدات مع أنه لم يخاطب بها من ينكر؛ وتأكيد الكلام يكون في ثلاثة مواضع:

أولاً: إذا خوطب به المنكِر، وقد قال علماء البلاغة: إنه في هذه الحال يؤكد وجوباً.

ثانياً: إذا خوطب به المتردد؛ وقد قال علماء البلاغة: إنه في هذه الحال يؤكد استحساناً.

ثالثاً: إذا كان الخبر ذا أهمية بالغة فإنه يحسن توكيده . وإن خوطب به من لم ينكر، أو يتردد.

٣ . ومن فوائد الآية: أن من بعد موسى من الرسل من بني إسرائيل تبع له؛ لقوله تعالى: {وقفينا من بعده بالرسل}؛ ويشهد لهذا قوله تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار}[المائدة: ٤٤].

٤. ومنها: ثبوت رسالة عيسى؛ لقوله تعالى: {وآتينا عيسى بن مريم البينات}.

٥. ومنها: أن من ليس له أب فإنه ينسب إلى أمه؛ لأن عيسى عليه السلام نسب إلى أمه.

وبهذا نعرف أن القول الراجح من أقوال أهل العلم أن أم من ليس له أب شرعاً هي عصبته؛ فإن عدمت فعصبتها . خلافاً لمن قال: إن أمه ليس لها تعصيب؛ ويظهر أثر ذلك بالمثال: فلو مات من ليس له أب عن أمه، وخاله: فلأمه الثلث والباقي لخاله . على قول من يقول: إن الأم لا تعصيب لها؛ أما على القول الراجح: فلأمه الثلث فرضاً، والباقي تعصيباً.

٦. ومن فوائد الآية: أن عيسى بن مريم ﷺ أعطاه الله سبحانه وتعالى آيات كونية، وشرعية؛ مثال الشرعية: الإنجيل؛ ومثال الكونية: إحياء الموتى، وإخراجهم من القبور، وإبراء الأكمه، والأبرص، وأنه يخلق من

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢٥/٢.
(٢) التحرير والتنوير: ٥٩٨/١.
(٣) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٥٦/١.
(٤) التحرير والتنوير: ٥٩٨/١.
(٥) تفسير البيضاوي: ٩٣/١.

الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، فيكون طيراً يطير بإذن الله؛ وكذلك أيضاً يخبرهم بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم؛ قال العلماء: إنما أعطي هذه الآية الكونية؛ لأن الطب في عهده ارتقى إلى درجة عالية، فأتاهم بآيات لا يقدر الأطباء على مثلها؛ كما أن محمداً ﷺ ترقى في عهده الكلام إلى منْزلة عالية في البلاغة، والفصاحة؛ فآتاه الله سبحانه وتعالى القرآن العظيم الذي عجزوا أن يأتوا بمثله.
٧. ومن فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالى أيد عيسى بجبرائيل؛ لقوله تعالى :{وأيدناه بروح القدس.
٨. ومنها: أن الملائكة من جملة تسخيرهم للخلق أنهم يؤيدون من أمَرَهم الله بتأييده؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: "اللهم أيده بروح القدس"(١) .
٩. ومنها: بيان عتوّ بني إسرائيل، وأنهم لا يريدون الحق؛ لقوله تعالى: {أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون}.
١٠. ومنها: أن بني إسرائيل يبادرون بالاستكبار عند مجيء الرسل إليهم، ولا يتأنون؛ لقوله تعالى: {أفكلما جاءكم}، ثم قال تعالى: {استكبرتم}؛ لأن مقتضى ترتب الجزاء على الشرط أن يكون الجزاء عقيباً للشرط: كلما وجد الشرط وجد الجزاء فوراً.
١١. ومنها: توبيخ ولوم بني إسرائيل، وبيان مناهجهم بالنسبة للشرائع، وبالنسبة لمن جاء بالشرائع؛ ففي الشرائع: لا يقبلون إلا ما وافق أهواءهم، وبالنسبة لمن جاء بالشرائع بما لا تهوى أنفسهم: انقسموا إلى قسمين: فريقاً يكذبون؛ وفريقاً يقتلون مع التكذيب.
١٢. ومنها: أن من استكبر عن الحق إذا كان لا يوافق هواه من هذه الأمة فهو شبيه ببني إسرائيل؛ فإذا استكبر عن الحق ـ سواء تحيل على ذلك بالتحريف؛ أو أقر بأن هذا الحق، ولكنه استكبر عنه ـ فإنه مشابه ببني إسرائيل.
والخارجون عن الحق ينقسمون إلى قسمين: قسم يقرُّ به، ويعترف بأنه عاصٍ؛ وهذا أمره واضح، وسبيله بين، وقسم آخر يستكبر عن الحق، ويحاول أن يحرف النصوص إلى هواه؛ وهذا الأخير أشد على الإسلام من الأول؛ لأنه يتظاهر بالاتباع وهو ليس من أهله.
١٣. ومن فوائد الآية: أن بعض الناس يستكبر عن الحق؛ لأنه مخالف لهواه.
١٤. ومنها: أن بني إسرائيل انقسموا في الرسل الذين جاءوا بما لا تهوى أنفسهم إلى قسمين: قسم كذبوهم؛ وقسم آخر قتلوهم مع التكذيب.
القرآن
{وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)} [البقرة : ٨٨]
التفسير:
وقال بنو إسرائيل لنبي الله ورسوله محمد ﷺ: قلوبنا مغطاة، لا يَنْفُذ إليها قولك. وليس الأمر كما ادَّعَوْا، بل قلوبهم ملعونة، مطبوع عليها، وهم مطرودون من رحمة الله بسبب جحودهم، فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلا لا ينفعهم.
قوله تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ}[البقرة:٨٨]، "أي في أكنة لا تفقه ولا تعي ما تقوله يا محمد"(١).
قال ابن عثيمين:" يعني مغلفة لا تصل إليها دعوة الرسل؛ وهذه حجة باطلة"(٢).
قال النسفي:" أي هي خلقة مغشاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد عليه السلام ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لا يختن"(٣).
قال الصابوني: " والغرض إقناطه عليه السلام من إيمانهم"(٤).

---

(١) أخرجه البخاري ص٣٨، كتاب الصلاة، باب ٦٨: الشعر في المسجد، حديث رقم ٤٥٣؛ وأخرجه مسلم ص١١١٤ - ١١١٥، كتاب فضائل الصحابة، باب ٣٤: فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه، حديث رقم ٦٣٨٤ [١٥١] ٢٤٨٥.
(١) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٢٨٤/١.
(٣) تفسير النسفي: ٧٥/١.
(٤) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

قال السعدي:" أي: اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه، يا أيها الرسول، بأن قلوبهم غلف، أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول، يعني فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم"[١].

روي عن ابن عباس[٢] ومجاهد[٣] وقتادة[٤]في هذه الآية: إنهم قالوا استهزاءً وإنكارًا وجحدًا لما أتى به محمد: قلوبنا عليها غشاوة، فهي في أوعية، فلا تعي ولا تفقه ما تقول يا محمد[٥].

قال أبو عبيدة: "كل شيء في غلاف فهو أَغْلَف، قالوا: سيفٌ أَغْلَف، وقوس غلفاء، ورجل أغلف: لم يُختن"[٦].

قال الواحدي:" وما يدرك به المعلومات من الحواس وغيرها من الأعضاء إذا ذُكِر بأنه لا يعلم وُصِفَ بأن عليه مانعًا من ذلك ودونه حائلًا، فمن ذلك قوله: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]، كأن القُفْل لما كان حاجزًا بين المُقْفَل عليه وحائلًا من أن يدخله ما يدخل إذا لم يَكن مُقفلًا جُعِل مَثَلًا للقلوب في أنها لا تعي ولا تفقَه، وكذلك قوله {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي} [الكهف: ١٠١] (١)، ومثل هذه الآية في المعنى قوله: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} [فصلت: ٥]"[٧].

وفي قوله تعالى:{قُلُوبُنَا غُلْفٌ}[البقر:٨٨]، ثلاثة أقوال[٨]:

أحدها: يعني في أَغْطِيَةٍ وَأَكِنَّةٍ لا تفقه، وهذا قول ابن عباس[٩]، ومجاهد[١٠]، وقتادة[١١]، والسدي[١٢]، والأعمش[١٣]، وأبو العالية[١٤]، وابن زيد[١٥]، وسعيد بن جبير[١٦]، وعكرمة[١٧].

وقد روي عن حذيفة قال : "القلوب أربعة - ثم ذكرها - فقال فيما ذكر : وقلب أغلف، معصوب عليه، فذلك قلب الكافر"[١٨].

والثاني : يعني أوعية للعلم[١٩]، وهذا قول عطية[٢٠]، ورواية الضحاك عن ابن عباس[٢١]، وعطاء

---

(١) تفسير السعدي: ٥٨.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٤٩٨)، و(١٤٩٩):ص٢/٣٢٥-٣٢٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٥٠٠)، و(١٥٠١)، و(١٥٠٢):ص٣٢٦/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٥٠٤):ص٣٢٦/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٢٥/٢-٣٢٦.
(٦)مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/ ٤٦، ونقله عنه أبو علي في:الحجة: ٢/ ١٥٥، والواحدي في التفسير البسيط:١٣٣/٣.
(٧) التفسير البيسط: ١٣٤/٣، وانظر: الحجة للقراء السبعة:١٥٤/٢.
(٨) انظر:النكت والعيون: ١٥٧/١.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٤٩٨)، و(١٤٩٩):ص٣٢٥/٢-٣٢٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٥٠٠)، و(١٥٠١)، و(١٥٠٢):ص٣٢٦/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٥٠٤):ص٣٢٦/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٥٠٨):ص٣٢٧/٢.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٥٠٣):ص٣٢٦/٢.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٥٠٧):ص٣٢٦/٢.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٥٠٩):ص٣٢٧/٢.
(١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٧٠/١.
(١٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٩٩):ص١٧١/١.
(١٨) أخرجه الطبري(١٤٩٧):ص٣٢٧/٢، والخبر هذا موقوف على حذيفة ، وإسناده جيد ، إلا أنه منقطع.
(١٩) قال ابن القيم:" وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة، فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة. وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف، أي أوعية للعلم.
والغلاف قد يكون وعاء للجيد والرديء. فلا يلزم من كون القلب غلافا أن يكون داخله العلم والحكمة. وهذا ظاهر جدا".[تفسير القرآن الكريم لابن القيم: ص: ١٣٨].
(٢٠) انظر: تفسير الطبري(١٥١٠)، و(١٥١٠)، و(١٥١٢):ص٣٢٧/٢.
(٢١) أخرجه الطبري (١٥١٣):ص ٣٢٧/٢.
(٢٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٩٣):ص١٧٠/١.

وقال الكلبي: "يريدون أوعية لكلّ علم، فهي لا تسمع حديثا إلّا وعته إلّا حديثك، لا تفقهه ولا تعيه، ولو كان فيه خيرا لفهمته ووعته"[١].

الثالث: وقيل: غلف أي كالغلاف الخالي لا شيء فيه مما يدل على صحة قولك [٢].

واختلفت القراءة في قوله تعالى:{وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ}[البقرة:٨٨]، على وجهين[٣]:

الأول: {وقالوا قلوبنا غُلْف} مخففة اللام ساكنة. وهي قراءة عامة الأمصار في جميع الأقطار. والثاني: وقرأه بعضهم : {وقالوا قلوبنا غُلُف}، مثقلة اللام مضمومة.

قوله تعالى:{بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}[البقرة:٨٨]، " أي طردهم وأبعدهم من رحمته بسبب كفرهم وضلالهم"[٤].

قال السمين الحلبي:" فردَّ الله عليهم ذلك بأنَّ سببَه لَعْنُهم بكفرهم السابق"[٥].

قال الواحدي:" أي: أبعدهم من رحمته وطردهم"[٦].

قال الطبري:" يعني: بل أقصاهم الله، أبعدهم وطردهم وأخزاهم وأهلكهم بكفرهم، وجحودهم آيات الله وبيناته، وما ابتعث به رسله، وتكذيبهم أنبياءه. فأخبر تعالى ذكره أنه أبعدهم منه ومن رحمته بما كانوا يفعلون من ذلك[٧].

وقال الثعلبي:" طردهم وأبعدهم من كل خير"[٨].

قال السعدي:" أي: أنهم مطرودون ملعونون، بسبب كفرهم"[٩].

قال النسفي:" فرد الله أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك لأنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق، وإنما طردهم بكفرهم وزيغهم"[١٠].

قال النضر بن شميل: "الملعون المخزي المهلك"[١١].

وفي أصل (اللعن) أقوال:

الأول: الطرد والإبعاد والإقصاء، قال الشَّمَّاخ[١٢] :

ذَعَرْتُ به القَطَا وَنَفَيتُ عنه   مقام الذئبِ كالرجُلِ اللعينِ

والثاني: التعذيب، قال الليث: "ولعنه الله، أي: عذبه،واللعنة في القرآن: العذاب، واللعن: السب والشتم"[١٣].

والثالث: الخزي، قال شمر: أقرأنا ابن الأعرابي لعنترة[١٤]:

لُعِنَتْ بمحرومِ الشَّرابِ مُصَرّمِ

---

(١) تفسير الثعلبي:٢٣٤/١.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٢٤/٢ ومابعدها، وتفسير ابن كثير: ٣٢٤/١-٣٢٥. وتفسير الرازي:١٦٣/٢-١٦٤.

(٣) انظر: السبعة في القراءات: ١٦٤، وتفسير الطبري: ٣٢٤/٢.

(٤) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(٥) الدر المصون: ٥٠١/١.

(٦)التفسير البسيط: ١٣٥/٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري:٣٢٨/٢.

(٨) تفسير الثعلبي:٢٣٤/١.

(٩) تفسير السعدي: ٥٨.

(١٠) تفسير النسفي: ٧٥/١.

(١١) تفسير الثعلبي:٢٣٤/١.

(١٢) ديوانه: ٣٢١، ومجاز القرآن: ١/ ٤٦، ومعاني القرآن، للزجاج ١/ ١٧٠، وتفسير الثعلبي، ١/ ٢٣٤، "لسان العرب" ٧/ ٤٠٤٤، وتفسير القرطبي" ٢/ ٢٣، وذكره الطبري في "تفسيره" ٢/ ٣٢٨، برواية: مكان الذئب. وقبله:

وماء قد وردت لوصل أروى   عليه الطير كالورق اللجين

وأراد في البيت : مقام الذئب الطريد اللعين كالرجل. والرجل اللعين المطرود لا يزال منتبذا عن الناس ، شبه الذئب به ، يعني في ذله وشدة مخافته وذعره.

انظر: تفسير الطبري:٣٢٨/٢.

(١٣) انظر: تهذيب اللغة: ٢/ ٣٩٦، واللسان:١٣/ ٣٨٨، وتفسير القرطبي: ٢/ ٢٥.

(١٤)والبيت من معلقة عنترة بن شداد التي مطلعها:

هل غادر الشعراء من متردم

وفسّره، فقال: سُبَّت بذلك، أي: قيل: أخزاها الله فما لها در ولا لبن[١].
والرابع: المسخ، قاله الفراء[٢]. قال لله تعالى: {أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ} [النساء: ٤٧] أي: نمسخهم[٣].
قلت: وكل هذه الأقوال ضمن معنى الطرد والإبعاد. والله أعلم.
وقوله:{بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}، تسجيل عليهم وفضح لهم بأنهم صمموا على الكفر والتمسك بدينهم من غير التفاتٍ لحجة النبي ﷺ، فلما صمموا على ذلك عاقبهم الله باللعن والإبعاد عن الرحمة والخير فحرمهم التوفيق والتبصر في دلائل صدق الرسول، فاللعنة حصلت لهم عقابا على التصميم على الكفر وعلى الإعراض عن الحق [٤].
وفي ذلك رد لما أوهموه من أن قلوبهم خُلقت بعيدة عن الفهم لأن الله خلقهم كسائر العقلاء مستطيعين لإدراك الحق لو توجهوا إليه بالنظر وترك المكابرة. وهذا معتقد أهل الحق من المؤمنين عدا الجبرية. [٥]
وإن أعظم الذنوب ما تكون عقوبة الله تعالى عليها الإلزام بذنوب أشد منها، فأعقب استكبار اليهود على الأنبياء وتكذيبهم وقتلهم أن الله لعنهم وطبع على قلوبهم، فلا يفقهون الحق ولا يقبلونه [٦].
ويقول علماء السلف: إن من بركة الحسنة وعلامة قبولها الحسنةُ تتبعها. وإن من شؤم المعصية وعقابها المعصية تتبعها.
قوله تعالى: {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ}[البقرة:٨٨]، "أي فقليلٌ من يؤمن منهم[٧].
قال الواحدي:أي" فما يؤمنون قليلًا ولا كثيرًا"[٨].
قال الزمخشري:أي" فإيمانا قليلا يؤمنون"[٩].
وقد اختلفوا في معنى قوله : {فَقَلِيلا مَّا يُؤْمِنُونَ}[البقرة:٨٨]، على ثلاثة أقوال[١٠]:
الأول: معناها:فقليل من يؤمن منهم، وهذا قول قتادة[١١]، لأن مَن آمن من أهل الشرك أكثر ممن آمن مِنْ أهل الكتاب، واختاره الامام الطبري[١] وفخر الدين الرازي[٢].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة:٤/ ٣٢٧٤، ونقله في "لسان العرب" ٧/ ٤٠٤٥ وفيه: ولا بها لبن، وانظر: التفسير البسيط: ١٣٦/٣.
(٢) نقله عنه الواحدي في التفسير البسيط:١٣٦/٣، ولم أجده في معاني القرآن.
(٣) انظر: التفسير البسيط: ١٣٦/٣، ولم اجده في معاني القرآن.
(٤) يقول العلامة ابن قيم الجوزية: " فإن قيل: فما معنى الإضراب: ب«بل» على هذا القول الذي قويتموه ؟.
أما على القول الآخر فظاهر، أي ليست قلوبكم محلا للعلم والحكمة، بل مطبوع عليها.
قيل: وجه الإضراب هنا في غاية الظهور. وهو انهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه. فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أنّ قلوبهم خلقت في غلف، فهم معذورون في عدم الإيمان. فأكذبهم الله وقال: {بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ} وفي الآية الأخرى: {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ} فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم، وآثروه على الإيمان. فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة.
والمعنى: ان الله تعالى لم يخلق قلوبهم غلفا لا تعي ولا تفقه، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها".[تفسير القرآن الكريم لابن القيم: ص: ١٣٨].
(٥) التحرير والتنوير لابن عاشور :١/ ٦٠٠.
(٦)مستفاد من كلام الحرالي رحمه الله نقلا عن نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٢/ ٣٤). قال: كما كان في حق إبليس مع آدم عليه السلام، فانتظم صدر هذه السورة إظهار الشيطنتين من الجن (إبليس) ومن الإنس (اليهود) وهو الذي انختم به القرآن في قوله: {من الجِنَّة والناس} (الناس: ٦) ليتصل طرفاه، فيكون لا أول له ولا آخر، والفاتحة محيطة به لا يقال: هي أوله ولا آخره، ولذلك ختم بعض القراء بوصله (= قرأ الناس ثم (ألم) البقرة) حتى لا يتبين له طرف، كما قالت المراة العربية لما سُئلت عن بنيها: هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها. انتهى كلامه. فسبحان مَنْ جعل كلام متصلاً ككلمةٍ واحدةٍ لا أول لها ولا آخر.
(٧) صفوة التفاسير:٦٨/١.
(٨) التفسير البسيط: ١٣٦/٣.
(٩) انظر: الكشاف: ١٦٤/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٢٥/١، وانظر: تفسير الطبري: ٣٢٨/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٥١٤):ص٣٢٩/٢، وابن أبي حاتم(٩٠٠):ص١٧١/١.

والثاني: معناه فلا يؤمنون إلا بقليل مما في أيديهم، ويكفرون بأكثره، قاله أبو عبيدة[٣]، بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم، لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ.
والثالث: أن {ما}، تفيد النفي، والمعنى:"لا يؤمنون قليلا ولا كثيرا، وهذا كقول الرّجل لآخر: ما قل ما تفعل وكذا يريد لا تفعله البتة"[٤]. قاله الواقدي، وأجازه المخشري[٥]، واعترض عليه أبو حيان[٦].
وقد روى الفراء عن الكسائي: "مررنا بأرض قلّ ما ينبت الكراث والبصل، يريدون لا ينبت شيئا"[٧].
والمعنى إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قال:{فَقَلِيلا مَا يُؤْمِنُونَ} وهم بالجميع كافرون [٨].
والراجح هو القول الأول، وذلك لعلتين[٩]:
أحدهما: لأنه نظير قوله: {بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا} [النساء: ١٥٥].
والثاني:ولأن الجملة الأولى إذا كان المصرح فيها ذكر القوم فيجب أن يتناول الاستثناء بعض هؤلاء القوم. والله أعلم[١٠].
واختلف أهل العربية في معنى {ما} التي في قوله :{فَقَلِيلا مَّا يُؤْمِنُونَ}[البقرة:٨٨]، على ثلاثة أوجه [١١]:
الأول: أنها زائدة لا معنى لها، وهذا قول الأخفش[١٢]، والمعنى: فقليلا يؤمنون، كما قال جل ذكره :{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ}[آل عمران : ١٥٩]، والمعنى: فبرحمة من الله لنت لهم، وأنشدوا بيت مهلهل[١٣] :
لو بأبانين جاء يخطبها خضب ما أنف خاطب بدم
يعني: خضب أنف خاطب بدم، وأن (ما) زائدة[١٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٢٥/١، وانظر: تفسير الطبري: ٣٢٨/٢.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٥٩٨/٣.
(٣)انظر: تفسير الثعلبي:٢٣٤/١، والبحر المحيط" ١/ ٣٠٢.
(٤) تفسير الثعلبي:٢٣٤/١.
(٥) انظر: الكشاف: ١٦٤/١.
(٦) انظر: البحر المحيط: ٢٩٦/١. قال أبو حيان:" وما ذهبوا إليه من أن قليلاً يراد به النفي صحيح ، لكن في غير هذا التركيب ، أعني قوله تعالى : {فَقَلِيلا مَّا يُؤْمِنُونَ} ، لأن قليلاً انتصب بالفعل المثبت ، فصار نظير : قمت قليلاً ، أي قياماً قليلاً".
(٧) نقله عنه الثعلبي :٢٣٤/١، و انظر: تفسير ابن كثير: ٣٢٥/١، وتفسير القرطبي" ٢/ ٢٣، و"البحر المحيط" ١/ ٣٠٢.
(٨) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٢٥/١.
(٩) انظر: مفاتيح الغيب: ٥٩٨/٣.
(١٠)وذكر ابن الأنباري في هذه الآية ثلاثة أوجه سوى ما ذكرنا:
أحدها: فيؤمنون إيمانًا قليلًا، وذلك أنهم يؤمنون بأن الله خالقهم ورازقهم، ويكفرون بمحمد والقرآن، فيقلل ذلك إيمانهم، ودليل هذا التأويل: قوله: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦]، معناه: أنهم يعترفون بأن الله ربهم، ويكفرون بمحمد فيقلّ إيمانهم. وانتصب قليلًا على هذا الوجه لأنه نعتُ مصدرٍ محذوف.
الوجه الثاني: أن يكون المعنى: فيؤمنون قليلًا من الزَمَانِ ويكفرون أكثره، ودليل هذا التأويل: قوله: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [آل عمران: ٧٢]. فخّبر الله تعالى بقلة إيمانهم على معنى الوقت القصير الذي أظهروا فيه موافقة المسلمين ثم باينوهم بعده، وانتصب (قليلًا) في هذا الوجه؛ لأنه أقيم مقام الظرف، و (ما) في هذين الوجهين صلة.
الوجه الثالث: أن يكون (ما) مع الفعل مصدرًا، ويرتفع بـ "قليل"، وهو مقدم، ومعناه: فقليلًا إيمانهم، كما قالوا: راكبًا لقَائِيك ومُجَرَّدًا ضَرْبِيكَ.[انظر: التفسير البسيط:١٣٨/٣].
(١١) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٠/٢-٣٣١.
(١٢) انظر: معاني القرآن للأخفش: ١٤٢/١.
(١٣)الكامل ٢ : ٦٨ ، ومعجم ما استعجم : ٩٦ ، وشرح شواهد المغني : ٢٤٧ وغيرها قال أبو العباس : " أبان جبل : وهما أبانان : أبان الأسود ، وأبان الأبيض قال مهلهل ، وكان نزل في آخر حربهم - حرب البسوس - في جنب بن عمرو بن علة بن جلد بن مالك ، وهو مذحج ، وجنب حي من أحيائهم وضيع ، وخطبت ابنته ومهرت أدما فزوجها وقال قبله :
أنكحها فقدها الأراقم في جنب وكان الحباء من أدم
(١٤) انظر: معاني القرآن للأخفش: ١٤٢/١.

قال النسفي: و{ما} مزيدة، وهو إيمانهم ببعض الكتاب"[١].

وأنكر آخرون على احتجاج القول الأول ببيت المهلهل، وقالوا : إنما ذلك من المتكلم على ابتداء الكلام بالخبر عن عموم جميع الأشياء، إذ كانت(ما) كلمة تجمع كل الأشياء، ثم تخص وتعم ما عمته بما تذكره بعدها.

والثاني: أنها نافية[٢]،أي: فما يؤمنون قليلاً ولا كثيراً، ومثلُه: {قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ} [الأعراف: ١٠]، {قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: ٣].

قال السمين الحلبي: "وهذا قويٌ من جهة المعنى، وإنما يَضْعُفُ شيئاً من جهةٍ تقدُّم ما في حَيِّزها عليها، قاله أبو البقاء، وإليه ذهب ابن الأنبار إلا أنَّ تقديمَ ما في حَيِّزها عليها لم يُجْزِه البصريون، وأجازه الكوفيون"[٣].

والثالث:أنها زائدة لتوكيد (القلة)، قاله ابن عطية[٤]، وابن عثيمين[٥]، وأكثر المفسرين.

والقول الأخير أولى بالصواب، أي أنها مزيدة أفادت معنى التوكيد، وذلك "لأن زيادة {ما}، لا يفيد من الكلام معنى في الكلام، غير جائز إضافته إلى الله جل ثناؤه"[٦].

قال الواحدي:" "والآيه رَدٌّ على القدرية؛ لأن الله تعالى بيّن أن كفرهم بسبب لعنه آباءهم، فالله تعالى لما لعنهم وطردهم وأراد كفرهم وشقاوتهم منعهم الإيمان"[٧].

الفوائد:

١. من فائد الآية: أن هؤلاء الذين لم يقبلوا الحق احتجوا بما ليس بحجة؛ فقالوا: قلوبنا غلف.

٢. ومنها: أن من صنع مثل صنيعهم فهو شبيه بهم؛ يوجد أناس نسمع عنهم أنهم إذا نُصِحوا، ودُعوا إلى الحق قالوا: "ما هدانا الله"؛ وهؤلاء مشابهون لليهود الذين قالوا: {قلوبنا غلف}.

٣. ومنها: أن القلوب بفطرتها ليست غلفاء؛ لقوله تعالى: {بل لعنهم الله}؛ وهذا الإضراب للإبطال . يعني ليست القلوب غَلفاء لا تقبل الحق، لكن هناك شيء آخر هو الذي منع من وصل الحق؛ وهو لَعْن الله إياهم بسبب كفرهم.

٤. ومنها: أن الفطرة من حيث هي فطرة تقبل الحق، ولكن يوجد لها موانع.

٥. منها: بيان أن الأسباب مهما قويت إذا غلب عليها المانع لم تؤثر شيئاً؛ فالقلوب وإن كانت مفطورة على الدين القيم لكن إذا وجد موانع لم تتمكن من الهدى؛ وقد قيل: إن الأمور لا تتم إلا بوجود أسبابها، وانتفاء موانعها.

٦. ومنها: إثبات الأسباب، وأن لها تأثيراً في مسبباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: {بل لعنهم الله بكفرهم}.

٧. ومنها: أن الإيمان في هؤلاء اليهود قليل، أو معدوم؛ لقوله تعالى:{فقليلاً ما يؤمنون}.

القرآن

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)} [البقرة : ٨٩]

التفسير:

وحين جاءهم القرأن من عند الله مصدقا لما معهم من التوراة جحدوه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ، وكانوا قبل بعثته يستنصرون به على مشركي العرب، ويقولون: قَرُبَ مبعث نبيِّ آخرِ الزمان، وسنتبعه ونقاتلكم معه. فلمَّا جاءهم الرسول الذي عرفوا صفاتِه وصِدْقَه كفروا به وكذبوه. فلعنةُ الله على كل مَن كفر بنبي الله ورسوله محمد ﷺ، وكتابه الذي أوحاه الله إليه.

---

(١) تفسير النسفي: ٧٥/١.
(٢) انظر: الدر المصون: ٥٠٢/١.
(٣) الدر المصون: ٥٠٢/١-٥٠٣.
(٤) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٧/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين:٢٨٤/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٣١/٢.
(٧) التفسير البسيط: ١٣٨/٣.

في سبب نزول الآية وجوه[١]:
أحدها: أخرج الطبري عن ابن عباس: "أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب، كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة : يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته! فقال سَلام بن مِشْكَم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم! فأنزل الله جل ثناؤه في ذلك من قوله : {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [البقرة : ٨٩]"[٢].
والثاني: قال السدي: "كانت العرب تمر بيهود فيلقون منهم أذى، وكانت اليهود تجد نعت محمد في التوراة، ويسألون الله أن يبعثه فيقاتلون معه العرب، فلما جاءهم محمد - ﷺ - كفروا به حسدا، وقالوا: إنما كانت الرسل من بني إسرائيل، فما بال هذا من بني إسماعيل"[٣].
والثالث: قال أبو العالية: "كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى يعذب المشركين ويقتلهم! فلما بعث الله محمدا، ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسدا للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ: فقال الله : {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين}"[٤]. وروي عن ابن عباس[٥]، وقتادة[٦]، والسدي[٧]، وعطاء[٨]، وابن زيد[٩]، نحو ذلك.
الرابع: أن اليهود كانوا يقولون لمخالفيهم عند القتال: هذا نبي قد أظل زمانه ينصرنا عليكم، فلما بعث الله تعالى ذكره رسوله من قريش واتبعناه، كفروا به. يقول الله تعالى: {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به}، قاله ابن عباس[١٠]، وقتادة الأنصاري[١١] وروي عن مجاهد[١٢] نحوه.
الخامس: أن اليهود من قبل مبعث محمد عليه السلام ونزول القرآن، كانوا يستفتحون به على الناس. قاله علي الأزدي[١٣].
قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}[البقرة: ٨٩]، " أي: ولما جاءهم كتاب من عند الله وهو القرآن[١٤].
قال ابن عثيمين:" هو القرآن؛ ونكَّره هنا للتعظيم؛ وأكد تعظيمه بقوله تعالى:{من عند الله}، وأضافه الله تعالى إليه؛ لأنه كلامه"[١٥].

---

(١) انظر أساب النزول للواحدي: ٢٨-٢٩، والعجاب في بيان الأسباب: ٢٨٠/١-٢٨١.
(٢) تفسير الطبري(١٥٢٠):ص٣٣٣/٢-٣٣٤، وابن أبي حاتم (لباب النقول: ٢١) وأبو نعيم في "الدلائل " (١٩/١) من طريق ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما وإسناده حسن، ويشهد له: ما أخرجه ابن المنذر وأبو نعيم (فتح القدير: ١١٣/١) والبيهقي في "الدلائل" (٧٥/٢) من طريق إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من الأنصار بمعناه. وحسنه الوادعي (الصحيح المسند: ٢)، والخبر في سيرة ابن هشام: ١٩٦/٢. وانظر: تفسير ابن كثير: ٣٢٦/١.
(٣) أسباب النزول للواحدي: ٢٩، وأخرجه الطبري(١٥٢٧):ص٣٣٥/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٦):ص٣٣٥/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٢):ص٣٣٤/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٥):ص٣٣٤/٢-٣٣٥.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٧):ص٣٣٥/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٨):ص٣٣٥/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٥٣٢):ص٣٣٦/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٠):ص٣٣٣/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٥١٩):ص٣٣٢/٢-٣٣٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٥٣٠):ص٣٣٦/٢.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٣):ص٣٣٤/٢.
(١٤) انظر: تفسير السعدي:٥٨، وتفسير ابن عثيمين:٢٨٩/١.
(١٥) تفسير ابن عثيمين:٢٨٩/١.

قال قتادة:" وهو القرآن الذي أنزل على محمد، مصدق لما معهم من التوراة والإنجيل"[١]. وروي عن الربيع مثل ذلك[٢].

وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة {مصدقا}، بالنّصب على الحال[٣]،قيل: كيف جاز نصبها عن النكرة؟ قلنا: إذا وصفت النكرة تخصصت فصح انتصاب الحال عنها وقد وصف {كتاب} بقوله: {من عند الله}[٤].

وقال الزجاج:" تقرأ {جاءَهم}، بفتح الجيم والتفخيم، وهي لغة أهل الحجاز، وهي اللغة العليا القُدمى، والإمالةُ إلى الكسر لغة بني تميم وكثير من العرب"[٥].

و(الكتاب): "اشتقاقه من (الكَتْبِ)، وهي جمع (كَتْبة)، وهي الخرزة، وكل ما ضممت بعضه إلى بعض على جهة التقارب والاجتماع فقد كتبته، و(الكَتِيبَة): الفرقةُ التي تحارب من هذا اشتقاقها، لأن بعضَها منضم إلى بعض، وسمى كلام الله عزَّ وجلَّ الذي أنزل على نبيه: كِتَاباً، وقُرآناً وفُرقاناً"[٦].

قوله تعالى:{مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ}[البقرة: ٨٩]، أي: "المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة"[٧].

قال الثعلبي:"موافق لِما مَعَهُمْ"[٨].

قال الزجاج:" أيْ يصدقُ بالتوراة والإنجيل ويخبرهم بما في كتبهم مما لا يعلم إلا بوحي أو قراءَة كُتُبٍ، وقد علموا أن النبي - ﷺ - كان أمياً لا يكتب"[٩].

وقد ذكروا في قوله تعالى: {مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ}[البقرة:٨٩]، معنيين:[١٠]

الأول: مصدق بأن التوراة والإنجيل من عند الله عز وجل .

يعني: "أنه حكم بصدقها، كما قال في قوله تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله} [البقرة: ٢٨٥] ؛ فهو يقول عن التوراة: إنه حق، وعن الإنجيل: إنه حق؛ وعن الزبور: إنه حق؛ فهو يصدقها، كما لو أخبرك إنسان بخبر، فقلت: "صدقت" تكون مصدقاً له" [١١].

أحدهما : مصدق لما في التوراة والإنجيل من الأخبار التي فيهما .

يعني: أنه جاء مطابقاً لما أخبرت الكتب السابقة، التوراة، والإنجيل؛ فعيسى بن مريم ﷺ بشرهم بمجيء الرسول محمد ﷺ: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الصف : ٦]؛ فجاء هذا الكتاب مصدقاً لهذه البشارة"[١٢].

وقد أختلف أهل اللغة في جواب (لما)، على ثلاثة أوجه[١٣]:

أحدها: أنه محذوف، قال الإمام الطبري: "هو مما ترك جوابه، استغناء بمعرفة المخاطبين به بمعناه، وبما قد ذكر من أمثاله في سائر القرآن، وقد تفعل العرب ذلك إذا طال الكلام، فتأتي بأشياء لها أجوبة، فتحذف أجوبتها، لاستغناء سامعيها - بمعرفتهم بمعناها - عن ذكر الأجوبة، كما قال جل ثناؤه : {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا} [سورة الرعد : ٣١]، فترك جوابه

---

(١) أخرجه الطبري(١٥١٨):ص٣٣٢/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٥١٩):ص٣٣٢/٢.
(٣) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٣٤/١.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب: ٥٩٨/٣.
(٥) معاني القرآن: ١٧٠/١.
(٦) معاني القرآن للزجاج: ١٧٠/١.
(٧) تفسير السعدي: ٥٨.
(٨) تفسير الثعلبي: ٢٣٤/١.
(٩) معاني القرآن: ١٧١/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٥٣/١.
(١١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٥٣/١.
(١٢) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٥٣/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٦/٢-٣٣٧. و مفاتيح الغيب: ٥٩٨/٣.

والمعنى : " ولو أن قرآنا سوى هذا القرآن سيرت به الجبال لسيرت بهذا القرآن - استغناء بعلم السامعين بمعناه، قالوا: فكذلك قوله : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم)" وهذا قول الأخفش والزجاج
والثاني: "أن تكون الفاء جوابا للما الأولى {كفروا به} جوابا ل(لما) الثانية وهو كقوله: {فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم} [البقرة: ٣٨] [طه: ١٣٣] الآية"[٢]، أي: فإن الجواب قوله : (ولما جاءهم كتاب من عند الله) في " الفاء " التي في قوله : (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به)، وجواب الجزاءين في " كفروا به "، كقولك : " لما قمت، فلما جئتنا أحسنت "، بمعنى : لما جئتنا إذْ قمت أحسنت، حكي ذلك عن الفراء[٣].
والثالث: وقيل: أنه على التكرير لطول الكلام والجواب: كفروا به كقوله تعالى: {أيعدكم أنكم} إلى قوله تعالى: {أنكم مخرجون} [المؤمنون: ٣٥]، حكي ذلك عن المبرد[٤].
قوله تعالى:{وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ}[البقرة:٨٩]، أي وقد كانوا قبل مجيئه"[٥].
قال ابن كثير: " أي : وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب"[٦].
قال الزجاج: " وكانوا من قبل هذا"[٧].
قوله تعالى:{يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا}[البقرة:٨٩]،أي: " يستنصرون به على أعدائهم"[٨].
قال ابن كثير:أي"يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم"[٩].
قال الطبري:أي " يستنصرون الله بمحمد-ﷺ- على مشركي العرب من قبل مبعثه"[١٠].
قال أبو حيان:" أي: يستنصرون على المشركين إذا قاتلوهم"[١١].
قال الصابوني: أي: "يقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان، الذي نجد نعته في التوراة"[١٢].
قال ابن عثيمين:" أي: يستنصرون، ويقولون سيكون لنا الفتح، والنصر، من المشركين الذين هم الأوس، والخزرج، لأنهم كانوا على الكفر، ولم يكونوا من أهل الكتاب"[١٣].
قال السعدي:" وقد علموا به، وتيقنوه حتى إنهم كانوا إذا وقع بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب، استنصروا بهذا النبي، وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه"[١٤].
وقال المراغي:" أي وكانوا يستنصرون به على مشركي العرب وكفار مكة ويقولون إن كتابه سينصر التوحيد الذي جاء به موسى، ويخذل الوثنية التي تنتحلونها"[١٥].
قال الراغب:" «الاستفتاح»: طلب الفتح، والفتح ضربان، فتح إلاهي، وهو النصرة بالوصول إلى العلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثواب والمقامات المحمودة، وفتح دنيوي، وهو النصرة في الوصول إلى اللذات البدنية وعلى الأول قوله : {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، وقوله {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ} وعلى الثاني قوله :{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ}"[١٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٦/٢.
(٢) انظر: تفسير الرازي: ١٦٥/٢.
(٣)انظر: معاني القرآن للفراء ١ : ٥٩ .
(٤) انظر: تفسير الرازي: ١٦٥/٢.
(٥) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(٦) تفسير ابن كثير: ٣٢٥/١.
(٧) معاني القرآن: ١٧١/١.
(٨) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(٩) تفسير ابن كثير: ٣٢٥/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:٣٣٢/٢.(بتصرف بسيط).
(١١) البحر المحيط: ٢٦٠/١.
(١٢) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(١٣) تفسير ابن عثيمين:٢٩٠/١.
(١٤) تفسير السعدي:٥٨.
(١٥) تفسير المراغي: ١٦٧/١.
(١٦) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٥٧/١.

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى:{يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا}[البقرة:٨٩]، ثلاثة أوجه[١]:
أحدها: "معنى يستفتحون : أي يعلمون خبره من الناس مرّة، ويستنبطون ذكره من الكتب مرة"[٢].
فـ"كانوا يخبرون بصحة أمر النبي - ﷺ -"[٣]، روي نحوه عن قتادة[٤].
والثاني : أنهم: كانوا يقولون إنا ننصر بمحمد صلى الله عليه وسلّم على عبدة الأوثان. روي نحوه عن أبي العالية[٥]، والسدي[٦]، وعطاء[٧]، وابن زيد[٨]، ومجاهد[٩]، وابن عباس[١٠].
والثالث: أنهم كانوا بطلبون من الله بذكره الظفر[١١].
قال الراغب:" وكل ذلك داخل في عموم الاستفتاح"[١٢].
قلت: إن القول الثالث، لا تسنده روايات صحيحة، بل أكثرها ضعيفة، لم يعرّج ابن كثير على شيء منها، وكذلك فعل الإمام الطبري. والله أعلم.
قوله تعالى: {فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ}[البقرة:٨٩]، "أي فلما بعث محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي عرفوه حق المعرفة، كفروا برسالته"[١٣].
قال سعيد بن جبير: "هم اليهود، عرفوا محمدا أنه نبي وكفروا به"[١٤].
قال ابن عباس: فلما بعث الله محمدا ﷺ ورأوه من غيرهم، كفروا به وحسدوه"[١٥].
قال البغوي:"يعني محمدا ﷺ من غير بني إسرائيل، وعرفوا نعته وصفته، كفروا به بغيا وحسدا "[١٦].
قال الزجاج:" أي: ما كانوا يستنصرون وبصحته يخبرون، كفروا وهم يوقنون أنهم معْتَمِدُون للشقاق عداوة للهِ"[١٧].
قال الراغب:" فلما جاءهم كتاب لا منافاة بينه وبين التوراة في الأصول، وعرفوا عيانا ما كانوا عرفوه من قبل إخباراً كفروا به"[١٨].
قال أبو حيان:أي:" ستروه وجحدوه، وهذا أبلغ في ذمهم، إذ يكون الشيء المعورف لهم، المستقر في قلوبهم وقلوب من أعلموهم به كيانه ونعته يعمدون إلى ستره وجحده، قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}"[١٩].
قال السعدي:" فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا، كفروا به، بغيا وحسدا، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده"[٢٠].

---

(١) انظر:معاني القرآن للزجاج: ١٧١/١، وتفسير البيضاوي: ٩٣/١، والكشاف: ١٦٤/١، وتفسير الراغب الأصفهاني:٢٥٧/١-٢٥٨.
(٢)تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٥٨/١.، وانظر: البحر المحيط:٢٦٠/١.
(٣) معاني القرآن: ١٧١/١.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٠٤):ص١٧١/١-١٧٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٦):ص٣٣٥/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٧):ص٣٣٥/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٨):ص٣٣٥/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٥٣٣):ص٣٣٦/٢.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٠٧):ص١٧٢/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٥٣٢):ص٣٣٦/٢.
(١١) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٧١/١.
(١٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٥٨/١.
(١٣) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(١٤) أخجره الطبري(١٥٣١):ص٣٣٦/٢.
(١٥) أخرجه الطبري(١٥٢٢):ص٣٣٤/٢.
(١٦) تفسير البغوي: ١٢١/١.(بتصرف بسيط).
(١٧) معاني القرآن: ١/!٧١.
(١٨) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٥٨/١.
(١٩) البحر المحيط: ٢٦٠/١.
(٢٠) تفسير السعدي:٥٨.

قال المراغي:" وسبب هذا أنهم حسدوا العرب على أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم من بينهم فحملهم ذلك على الكفر به جحودا وعنادا"[١].

ويحتمل {ما}، في قوله تعالى:{مَّا عَرَفُوا}[البقرة:٨٩]، ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: أنه الكتاب، وهو الظاهر.، لأنه أتى بلفظ {ما}.

والثاني: ويحتمل أنه يراد به النبي صلى الله عليه وسلّم، لأن {ما}، قد يعبر بها عن صفات من يعقل.

والثالث: ويجوز أن يكون المعنى : ما عرفوه من الحق، فيندرج فيه معرفة نبوّته وشريعته وكتابه، وما تضمنه. قاله أبو حيان[٣].

قوله تعالى: {فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين}[البقرة:٨٩]، :" أي لعنة الله على اليهود الذين كفروا بخاتم المرسلين"[٤].

قال الطبري: أي:" فخزي الله وإبعاده على الجاحدين ما قد عرفوا من الحق عليهم لله ولأنبيائه "[٥].

قال المراغي:" فسجّل الله عليهم الطرد والإبعاد من رحمته، لجحودهم بالحق بعد أن تبين لهم"[٦].

قال الراغب:" (اللعن): هو إقصاء على وجه الإهانة، ومن قال : هو العذاب، فمن حيث أنه لا تنفك لعنة الله عن العذاب"[٧].

قال أبو حيان:" لما كان الكتاب جائياً من عند الله إليهم، فكذبوه وستروا ما سبق لهم عرفانه، فكان ذلك استهانة بالمرسل والمرسل به. قابلهم الله بالاستهانة والطرد، وأضاف اللعنة إلى الله تعالى على سبيل المبالغة، لأن من لعنه الله تعالى هو الملعون حقيقة. {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَالِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ} ؟ {وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَه نَصِيرًا} . ثم إنه لم يكتف باللعنة حتى جعلها مستعلية عليهم، كأنه شيء جاءهم من أعلاهم، فجللهم بها، ثم نبه على علة اللعنة وسببها، وهي الكفر، كما قال قبل : {بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}، وأقام الظاهر مقام المضمر لهذا المعنى، فتكون الألف واللام للعهد، أو تكون للعموم، فيكون هؤلاء فرداً من أفراد العموم"[٨].

وفي سبب كفرهم أقوال[٩]:

أحدها: أنهم كانوا يظنون أن المبعوث يكون من بني إسرائيل لكثرة من جاء من الأنبياء من بني إسرائيل وكانوا يرغبون الناس في دينه ويدعونهم إليه، فلما بعث الله تعالى محمدا من العرب من نسل إسماعيل صلوات الله عليه، عظم ذلك عليهم فأظهروا التكذيب وخالفوا طريقهم الأول.

وثانيها: اعترافهم بنبوته كان يوجب عليهم زوال رياساتهم وأموالهم فأبوا وأصروا على الإنكار.

وثالثها: لعلهم ظنوا أنه مبعوث إلى العرب خاصة فلا جرم كفروا به.

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن القرآن من عند الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى:{كتاب من عند الله}.

٢. ومنها: أن القرآن كلامه سبحانه وتعالى تكلم به حقيقة؛ لقوله تعالى: {كتاب من عند الله}؛ ومعلوم أن الكلام ليس جسماً يقوم بنفسه حتى نقول: إنه مخلوق.

٣. ومنها: التنويه بفضل القرآن؛ لقوله تعالى: {مصدق لما معهم}، ولقوله تعالى: {من عند الله}.

٤. ومنها: أن اليهود كانوا يعرفون أن النبي ﷺ سيبعث، وتكون له الغلبة؛ لقوله تعالى:

---

(١) تفسير المراغي: ١٦٨/١.
(٢) انظر: البحر المحيط: ٢٦٠/١.
(٣) انظر: البحر المحيط: ٢٦٠/١.
(٤) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(٥) تفسير الطبري: ٣٣٧/٢.
(٦) تفسير المراغي: ١٦٨/١.
(٧) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٥٨/١.
(٨) البحر المحيط: ٢٦٠/١.
(٩) انظر: مفاتيح الغيب: ٥٩٩/١.

{وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا} يعني يستنصرون . أي يطلبون النصر؛ أو يَعِدون به؛ فقبل نزول القرآن، وقبل مجيء الرسول ﷺ يقولون للعرب: إنه سيبعث نبي، وينْزل عليه كتاب، وننتصر به عليكم، ولما جاءهم الرسول الذي كانوا يستفتحون به كفروا به.

٥.ومنها: أن اليهود لم يخضعوا للحق؛ حتى الذي يقرون به لم يخضعوا له؛ لأنهم كفروا به؛ فيدل على عتوهم، وعنادهم.

٦. ومنها: أن الكافر مستحق للعنة الله، وواجبة عليه؛ لقوله تعالى: {فلعنة الله على الكافرين}.

٧. استدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز لعن الكافر المعين؛ ولكن لا دليل فيها؛ لأن اللعن الوارد في الآية على سبيل العموم؛ ثم هو خبر من الله عزّ وجلّ، ولا يلزم منه جواز الدعاء به؛ ويدل على منع لعن المعين أن النبي ﷺ كان يقول: "اللهم العن فلاناً، وفلاناً"[(١)] . لأئمة الكفر، فنهاه الله عن ذلك؛ ولأن الكافر المعين قد يهديه الله للإسلام إن كان حياً؛ وإن كان ميتاً فقد قال النبي ﷺ "لا تسبوا الأموات؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا"[(٢)] .

القرآن

{بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)} [البقرة : ٩٠]

التفسير:

قَبُحَ ما اختاره بنو إسرائيل لأنفسهم؛ إذ استبدلوا الكفر بالإيمان ظلمًا وحسدًا لإنزال الله من فضله القرآن على نبي الله ورسوله محمد ﷺ، فرجعوا بغضب من الله عليهم بسبب جحودهم بالنبي محمد ﷺ، بعد غضبه عليهم بسبب تحريفهم التوراة. وللجاحدين نبوَّة محمد ﷺ عذابٌ يذلُّهم ويخزيهم.

قوله تعالى:{{بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ}[البقرة:٩٠]، " أي بئس الشيء التافه الذي باع به هؤلاء اليهود أنفسهم"[(١)].

قال السدي:" باعوا به أنفسهم"[(٢)].

قال مجاهد:"شروا الحق بالباطل، وكتمان ما جاء به محمد ﷺ بأن بينوه"[(٣)].

قال الزجاج: "المعنى: ذلك الشيءُ المذموم"[(٤)].

قال الواحدي:" بئس شيئًا اشتروا به أنفسهم"[(٥)].

قال القرطبي:" بئس الشيء الذي اختاروا لأنفسهم"[(٦)].

وذكر الثعلبي في قوله تعالى:{{بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ}[البقرة:٩٠]، وجهين[(٧)]:

الأول: معناه: بئس الذي اختاروا لأنفسهم.

والثاني: وقيل: معناه بئس ما باعوا به حظ أنفسهم.

واختلف أهل العلم في معنى (الاشتراء) في قوله{اشْتَرَوْا}[البقرة:٩٠]، على قولين:

الأول: أن معنى الاشتراء هاهُنَا: (البيع). قاله الفراء[(٨)] وأبو حيان[(٩)]، والطبري[(١٠)]، وغيرهم.

---

(١) أخرجه البخاري ص٣٣٣، كتاب المغازي، باب ٢٢: (ليس لك من الأمر شيء)، حديث رقم ٤٠٦٩ .
(٢) أخرجه البخاري ص١٠٩، كتاب الجنائز، باب ٩٧: ما ينهى من سب الأموات، حديث رقم ١٣٩٣ .
(١) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٨):ص١٧٢/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٩):ص١٧٢/١.
(٤) معاني القرآن: ١٧٢/١
(٥) التفسير البسيط: ١٤٥/٣.
(٦) تفسير القرطبي: ٢٨/٢.
(٧) انظر: تفسير الثعلبي:٢٣٥/١.
(٨) انظر: معاني القرآن: ٥٦/١.
(٩) انظر: التفسير البسيط: ١٤٨/٣. ومعاني القرآن" للفراء ١/ ٥٦، "اللسان" ٤/ ٢٢٥٣ (شرى)
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٤١/٢.

قال الآلوسي: " فالأنفس بمنزلة المثمن، والكفر بمنزلة الثمن لأن أنفسهم الخبيثة لا تشترى بل تباع وهو على الاستعارة أي إنهم اختاروا الكفر على الإيمان وبذلوا أنفسهم فيه"[١].

يقال: اشتريته، أي: بعته، واشتريته، أي: ابتعته، وكذلك: شريته في المعنيين، وكذلك: بعته، قال الله تعالى: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ} [يوسف: ٢٠]، أي: باعوه، ومنه قول يزيد بن المُفَرِّغ[٢]:

وشُرَيْتُ بُردًا لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ بردٍ صِرتُ هامة

يعني به: بعت بردا. وربما استعمل (اشتريت) بمعنى : بعت، و (شريت) في معنى : (ابتعت)، والكلام المستفيض فيهم هو ما وصفت[٣].

ومنه قول المسيب بن علس[٤] :

يعطى بها ثمنا فيمنعها ويقول صاحبها ألا تشري

قال الفراء: وتقول" بع لي بدرهم تَمرًا، أي: اشتر لي"[٥]، وأنشد قول طرفة بن العبد[٦]:

ويأتيك بالأخبار مَن لم تَبِعْ له بَتَاتًا ولم تضربْ له وقتَ موعِدِ

المعنى: لم تشتر له بتاتا، قال الفراء: والبتات الزاد[٧].

ومعنى الآية: "بئس الشيء بَاعوا به أنفسهم الكفر؛ يريد: أنهم اختاروا الكُفر وأخذوه، وبذلوا أنفسهم للنار؛ لأن اليهود خصوصًا علموا صدق محمد - ﷺ -، وأن من كذبه فالنار عاقبته، فاختاروا الكفر، وسلموا أنفسهم للنار، فكان ذلك كالبيع منهم"[٨].

وقال المفسرون: في الآية إضمار، معناه: بئسما باعوا حظ أنفسهم بالكفر، وعلى هذا تكون الآية من باب حذف المضاف[٩].

وعلى الوجه السابق، تصح الآية من غير إضمار.

والثاني: أن (الإشتراء) على بابه بمعناه المشهور[١٠]، والمعنى: "اشتروا بحسب ظنهم، فإنهم ظنوا أنهم أنفسهم من العقاب بما فعلوا"[١١]، فقالوا بأن "المكلف إذا كان يخاف على نفسه من عقاب الله يأتي بأعمال أنها تخلصه من العقاب فكأنه قد اشترى نفسه بتلك الأعمال، فهؤلاء اليهود لما اعتقدوا فيما أتوا به أنها تخلصهم من العقاب، وتوصلهم إلى الثواب فقد ظنوا أنهم اشتروا أنفسهم بها، فذمهم الله تعالى، وقال: بئسما اشتروا به أنفسهم"[١٢]، ذكره أبو حيان عن صاحب المنتخب[١٣].

واختاره الفخر الرازي قائلا: وهذا الوجه أقرب إلى المعنى واللفظ من الأول[١٤].

---

(١) روح المعاني: ٣٢١/١.

(٢)البيت ليزيد بن مفرغ الحميري، في ديوانه ص ٢١٣، و"لسان العرب" ٤/ ٢٢٥٢ مادة (شرى).

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٤١/٢.

(٤)ديوانه : ٣٥٢ (من ملحق ديوان الأعشى - والمسيب خال الأعشى ، والأعشى راويته) ، ورواية الديوان " ويقول صاحبه " ، وهي الصواب. والبيت من أبيات آية في الجودة ، يصف الغواص الفقير ، قد ظفر بدرة لا شبيه لها ، فضن بها على البيع ، وقد أعطى فيها ما يغنى من الثمن ، فأبى ، وصاحبه يحضضه على بيعها،وبعده :

وترى الصراري يسجدون لها ويضمها بيديه للنحر

والصراري : الملاحون ، من أصحاب الغواصين. انظر: تفسير الطبري: ٣٤٠/٢-٣٤١.

(٥) معاني القرآن: ٥٦/١.

(٦) ديوانه:٤١.

(٧) انظر: معاني القرآن: ٥٦/١.

(٨) التفسير البيسط: ١٤٩/٣، وانظر: معاني القرآن للزجاج: ١٧٢/١.

(٩) انظر: التفسير البسيط: ١٤٩/٣، ومعاني القرآن للزجاج: ١٧٢/١.

(١٠) اختاره الرازي في مفاتيح الغيب: ٦٠١/٣.

(١١) تفسير البيضاوي: ٩٣/١.

(١٢) مفاتيح الغيب: ٦٠١/٣.

(١٣) انظر: البحر المحيط: ٣٠٥/١.

(١٤) مفاتيح الغيب: ٦٠١/٣.

قال أبو حيان: و"يرد عليه، {بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، حيث فعلوا ذلك على سبيل البغي والحسد"[١].

والراجح -والله أعلم- هو القول الأول، بأن(اشتروا) هنا، بمعنى (باعوا)، وذلك قول الأكثرين[٢].

قال الإمام الطبري: " فإن قال قائل : وكيف باعت اليهود أنفسها بالكفر، فقيل : {بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله} ؟ وهل يشتري بالكفر شيء ؟ قيل : إن معنى : الشراء و البيع عند العرب، هو إزالة مالك ملكه إلى غيره، بعوض يعتاضه منه. ثم تستعمل العرب ذلك في كل معتاض من عمله عوضا، شرا أو خيرا، فتقول : نعم ما باع به فلان نفسه وبئس ما باع به فلان نفسه، بمعنى : نعم الكسب أكسبها، وبئس الكسب أكسبها - إذا أورثها بسعيه عليها خيرا أو شرا. فكذلك معنى قوله جل ثناؤه : {بئس ما اشتروا به أنفسهم} - لما أوبقوا أنفسهم بكفرهم بمحمد ﷺ فأهلكوها، خاطبهم الله والعرب بالذي يعرفونه في كلامهم، فقال :{بئس ما اشتروا به أنفسهم}، يعني بذلك : بئس ما أكسبوا أنفسهم بسعيهم، وبئس العوض اعتاضوا، من كفرهم بالله في تكذيبهم محمدا، إذْ كانوا قد رضوا عوضا من ثواب الله وما أعد لهم - لو كانوا آمنوا بالله وما أنزل على أنبيائه - بالنار وما أعد لهم بكفرهم بذلك" [٣].

قوله تعالى:{أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}[البقرة:٩٠]، " أي كفرهم بالقرآن الذي أنزله الله"[٤].

قال الثعلبي:أي" حين استبدلوا الباطل بالحق، والكفر بالأيمان"[٥].

قال أبو العالية:" اليهود، كفروا بما أنزل على محمد ﷺ"[٦].

وقوله تعالى:{وبِما أَنْزَلَ اللَّهُ}[البقرة:٩٠]، يحتمل ثلاثة أوجه[٧]:

الأول: القرآن. قاله أبو العالية[٨]، واختاره الثعلبي[٩]، والواحدي[١٠]، والقرطبي[١١]، وغيره.

والثاني: التوراة، "لأنهم إذ كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام فقد كفروا بالتوراة"[١٢].

الثالث: ويحتمل أن يراد به: الجميع من توراة وإنجيل وقرآن، "لأن الكفر بالبعض يلزم الكفر بالكل"[١٣].

والوجه الأول أظهر مع سياق الآية. وبه قائل أكثر أهل التفسير، والله أعلم.

وأصل نعم وبئس:" نَعِمَ وبَئِسَ"[١٤]، يخبر بأحدهما عن الشيء المذموم، وبالثاني عن الممدوح.

قال الواحدي: {بئس} ذمٌّ بشدة الفساد، وأصل الكلمة من الشدة، ومنه (البأساء): وهو اسم للحرب والمشقة والضرر والشدة، ومنه {بِعَذَابٍ بَئِيسٍ} [الأعرف: ١٦٥] أي: شديد"[١٥].

ويجوز في(بئس) أربع لغات[١٦]:

---

(١) البحر المحيط: ٣٠٥/١. وقال الآلوسي:" واعترض بأنه كيف يدعي أنهم ظنوا ذلك مع قوله تعالى:{فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}، فإذا علموا مخالفة الحق كيف يظنون نجاتهم بما فعلوا وإرادة العقاب الدنيوي كترك الرياسة غير صحيح لأن لا يشترى به الأنفس؟ ويمكن الجواب بأن المراد أنهم ظنوا على ما هو ظاهر حالهم من التصلب في اليهودية والخوف فيما يأتون ويذرون وادعاء الحقية فيه فلا ينافي عدم ظنهم في الواقع على ما تدل عليه الآية".[روح المعاني: ٣٢١/١].

(٢) انظر: التفسير البسيط:١٤٧/٣-١٤٨، ومعاني القرآن للزجاج: ٥٨/١، والبحر المحيط: ٣٠٥/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٣/٢.

(٤) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(٥) تفسير الثعلبي:٢٣٥/١، ونقله القرطبي في تفسيره:٢٨/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٠):١٧٣/١.

(٧) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٨/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٥٣٨):ص٣٤٢/٢.

(٩) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٣٥/١.

(١٠) انظر: التفسير البسيط: ١٥٠/٣.

(١١) انظر: تفسير القرطبي: ٢٩/٢.

(١٢) المحرر الوجيز: ١٧٨/١.

(١٣) المحرر الوجيز: ١٧٨/١.

(١٤) انظر: المقتضب للمبرد: ٢/ ١٤٠ - ١٥٢، وتهذيب اللغة:١/ ٤١٢،واللسان:١/ ٢٠١ (بئس).

(١٥) التفسير البسيط: ١٤٣/٣.

(١٦) انظر: مفاتيح الغيب: ٥٩٩/٣-٦٠٠، والدر المصون: ٥٠٧/١.

الأول: على الأصل، بفتح الأول وكسر الثاني.
والثاني: اتباع الأول للثاني وهو أن يكون بكسر النون والعين.
الثالث: إسكان الحرف الحلقي المكسور وترك ما قبله على ما كان فيقال: نعم وبئس بفتح الأول وإسكان الثاني.
الرابع: أن يسكن الحرف الحلقي وتنقل كسرته إلى ما قبله فيقال: نعم، بكسر النون وإسكان العين.
كما أن هذا التغيير الأخير وإن كان في حد الجواز عند إطلاق هاتين الكلمتين إلا أنهم جعلوه لازما لهما لخروجهما عما وضعت له الأفعال الماضية من الإخبار عن وجود المصدر في الزمان الماضي وصيرورتهما كلمتي مدح وذم ويراد بهما المبالغة في المدح والذم، ليدل هذا التغيير اللازم في اللفظ على التغيير عن الأصل في المعنى فيقولون: نعم الرجل زيد ولا يذكرونه على الأصل إلا في ضرورة الشعر كما أنشد المبرد[(١)]:

ففداء لبني قيس على   ما أصاب الناس من شر وضر
ما أقلت قدماي إنهم   نعم الساعون في الأمر المبر

كما أنهما(نعم وبئس) فعلان من نعم ينعم وبئس ويبأس، والدليل عليه دخول التاء التي هي علامة التأنيث فيهما، فيقال: نعمت وبئست، والفراء يجعلهما بمنزلة الأسماء ويحتج بقول حسان ابن ثابت رضي الله عنه[(٢)]:

ألسنا بنعم الجار يؤلف بيته   من الناس ذا مال كثير ومعدما

وبما روي أن أعرابيا بشر بمولودة فقيل له: نعم المولود مولودتك، فقال: والله ما هي بنعم المولودة،والبصريون يجيبون عنه بأن ذلك بطريق الحكاية[(٣)].
وقد اختلف أهل العربية في معنى (ما) التي مع (بئسما) على قولين[(٤)]:
الأول: قال بعض نحويي البصرة : هي وحدها اسم، و{أن يكفروا} تفسير له، نحو : نعم رجلا زيد، و {أن ينزل الله} بدل من {أنزل الله}.
والثاني: وهو قول بعض نحويي الكوفة : أن معنى ذلك : بئس الشيء اشتروا به أنفسهم أن يكفروا، فـ(ما) اسم (بئس)، و (أن يكفروا) الاسم الثاني، وزعم أن : (أن يكفروا) إن شئت جعلت (أن) في موضع رفع، وإن شئت في موضع خفض، أما الرفع : فبئس الشيء هذا أن يفعلوه. وأما الخفض : فبئس الشيء اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا، ومن ذلك: قوله : {لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} [سورة المائدة : ٨٠].
والعرب تجعل (ما) وحدها في هذا الباب، بمنزلة الاسم التام، كقوله :{فنعما هي} [البقرة : ٢٧١]، و (بئسما أنت)، واستشهد لقوله ذلك برجز بعض الشاعر[(١)]:

---

(١) وفي رواية " فداء " بالرفع، أي نفسي فداء أو أنا فداء. وفي ديوان طرفة ٨٢ والخزانة (٤: ١٠١ بولاق)، وفي الديوان والخزانة: " من سر وضر " وهما بضم أولهما السراء والضراء.
(٢) الرواية الصحيحة للبيت:
ألستُ بِنِعْمَ الجارُ يُؤْلِفُ بَيْتَهُ   أخَا قِلَّةٍ أو مُعْدِمَ المال مُصْرِمَا،
هذا البيت نسب إلى حسان بن ثابت الأنصاري، والجار: أراد به هنا الذي يستجير به الناس من الفقر والحاجة فينزلون في حماه ويستظلون بظله ويجعلون عليه قضاء حاجاتهم، ويؤلف بيته ببناء الفعل للمعلوم: أي يجعل المقل يألف بيته، وذلك ببسط الكف وبذل العرف وبشاشة الوجه ونحو ذلك، وأخو القلة: الفقير الذي لا يجد كفايته، والمصرم: أراد به المعدم الذي لا يجد شيئًا، وأصله من الصرم الذي هو القطع، ومنه قالوا: ناقة صرماء، وناقة مصرمة، للتي انقطع لبنها وجفَّ، وذلك أن يصيب الضرع شيء فيكوى بالنار فلا يخرج منه لبن أبدًا والاستشهاد بالبيت في قوله "بنعم الجار" فإن الكوفيين استندوا إلى ظاهر هذه العبارة فزعموا أن "نعم" اسم بمعنى الممدوح بدليل دخول حرف الجر عليه. (انظر: الانصاف في مسائل الخلاف:٨١/١) وانظر: تفسير اللباب، ابن عادل: ٤٥٤/١، وانظر في هذه المسألة: التصريح للشيخ خالد "٢/ ١١٧ بولاق" وشرح الأشموني "٤/ ١٩٢" وما بعده، وحاشية الصبان "٣/ ٢٣ بولاق" وشرح رضي الدين على الكافية "٢/ ٢٨٩ وما بعدها" وشرح موفق الدين بن يعيش على المفصل "ص١٠٢٨ أوروبة" وأسرار العربية للمؤلف "ص٤١ ط ليدن" وشرح قطر الندى لابن هشام "ص٢٧ ط سنة ١٩٥٩" وشرح ابن عقيل على الألفية "٢/ ١٢٧.
(٣) انظر: تفسير الرازي: ١٦٧/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٠/٢.

لا تعجلا في السير وادْلُوها لبئسما بطءٌ ولا نرعاها

قال الإمام الطبري: "وأولى هذه الأقوال بالصواب، قول من جعل (بئسما) مرفوعا بالراجع من (الهاء) في قوله :{اشتروا به}، كما رفعوا ذلك بـ(عبد الله) إذ قالوا : (بئسما عبد الله)، وجعل (أن يكفروا) مترجمة عن (بئسما)، فيكون معنى الكلام حينئذ : بئس الشيء باع اليهود به أنفسهم، كفرهم بما أنزل الله بغيا وحسدا أن ينزل الله من فضله. وتكون (أن) التي في قوله : {أن ينزل الله}، في موضع نصب. لأنه يعني به {أن يكفروا بما أنزل الله}: من أجل أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، موضع (أن) جزاء، وكان بعض أهل العربية من الكوفيين يزعم أن (أن) في موضع خفض بنية (الباء)، وإنما اخترنا فيها النصب لتمام الخبر قبلها، ولا خافض معها يخفضها. والحرف الخافض لا يخفض مضمرا"(٢).

قوله تعالى:{بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}[البقرة:٩٠]، " أي حسداً منهم لأجل أن ينزل الله وحياً من فضله على من يشاء ويصطفيه من خلقه"(٣).

قال الزجاج:" معناه أنهم كفروا بغياً وعداوة للنبي - ﷺ - لأنهم لمْ يُشكُّوا في نبوته - ﷺ - وإنما حَسَدوه على ما أعطاه الله من الفضل"(٤).

قال ابن عطية:" {مِنْ فَضْلِهِ}، يعني من النبوة والرسالة"(٥).

ويحتمل قوله تعالى:{ومَنْ يَشاءُ}[البقرة:٩٠]، وجهان(٦):

الأول: يعني به محمدا -ﷺ-، لأنهم حسدوه لما لم يكن منهم وكان من العرب.

والثاني: ويدخل في المعنى: عيسى -عليه السلام- لأنهم قد كفروا به بغيا، والله قد تفضل عليه.

نستنتج بأن كفر اليهود، لم يكن شكًا ولا شيئًا اشتبه عليهم، وإنما كان ذلك سبب حسدهم: "أن الله جعل النبوة في غيرهم". قاله ابن عباس(٧).

وقرأ أبو عمرو وابن كثير {أن ينزل}، بالتخفيف في النون والزاي(٨).

والبغي:"الحسد". قاله أبو العالية"(٩). وعليه جمهور المفسرين(١٠).

قال اللحياني(١١): "بغيت على أخيك بغيًا، أي: حسدته، وقال الله تعالى: {ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ} [الحج: ٦٠]، وقال: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} [الشورى: ٣٩] فالبغي أصله الحَسَد، ثم سمي الظلم بغيًا؛ لأن الحاسِد يظلم المحسودَ جَهْدَه إرادة زوال نعمة الله عليه عنه"(١٢).

واختلف في أَصْل (البغي) على قولين(١٣):

الأول: الظلم والخروج عن النَّصَفَة والحدّ، يقال: بَغَى الفرس في عدوه، إذا اختال ومرح، وبَغَتِ السماء، إذا كثر مطرها حتى تجاوز الحدّ.

---

(١) لم أعرف قائله، والبيتان في اللسان (دلو) . دلوت الناقة دلوا : سقتها سوقا رفيقا رويدا ورعى الماشية وأرعاها : أطلقها في المرعى .

(٢) تفسير الطبري: ٣٤٠/٢.

(٣) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(٤) معاني القرآن: ١٧٣/١.

(٥) المحرر الوجيز: ١٧٩/١.

(٦) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٩/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٢):ص١٧٣/١.

(٨) انظر: المحرر الوجي: ١٧٩/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١١):ص١٧٣/١.

(١٠) انظر: معاني القرآن" للزجاج ١/ ١٧٣، "زاد المسير" ١/ ١١٤، "تفسير القرطبي" ٢/ ٢٥.

(١١)هو علي بن حازم اللحياني، لغوي معروف، عاصر الفراء وتصدر في أيامه. انظر ترجمته في "طبقات النحويين واللغويين" ص ١٩٥، "إنباه الرواة" ٢/ ٢٥٥، "معجم الأدباء" ١٤/ ١٠٦.

(١٢)تهذيب اللغة: ٣٦٧/١، وانظر: التفسير البسيط: ١٥١/٣.

(١٣) انظر في معاني البغي: تهذيب اللغة" ١/ ٣٦٧، "مقاييس اللغة" ١/ ٢٧١ - ٢٧٢، "المفردات" للراغب ص ٦٥، "اللسان" ١/ ٣٢٣.

والثاني: أن أصله: الطلب[(١)]، يقال: بغى الشيءَ، إذا طلبه، وأَبْغَاه، أعانه على الطلب. والبَغيّ: التي تطلب الزنا، ومنه قيل للأمة: بَغِيٌّ. وما ينبغي كذا، أي: ليس بصواب طلبه، والبَغْيُ: شدة الطلَب للتطاول.

قال الراغب:(البغى): هو التجاوز في الطلب. يقال: بَغَيْتُ الشيء: إذا طلبت أكثر ما يجب، وابْتَغَيْتُ كذلك، قال الله عزّ وجل: {لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ} [التوبة: ٤٨]، وقال تعالى:{يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ}[التوبة:٤٧]. فإذا كان طلبا في الحق فمحمود، وإن كان طلبا للباطل فمذموم كما قال تعالى: {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}[الشورى:٤٢]، فخصّ العقوبة ببغيه بغير الحق"[(٢)].

واختلف في انتصاب قوله{بَغْيًا}[البقرة:٩٠]، على وجهين:

الأول: أنه منصوب على المصدر؛ لأن ما قبله من الكلام يدلّ على بَغَوا، فكأنه قيل:بَغَوا بغيًا[(٣)].

والثاني: أنه انتصب؛ لأنه مفعول له، كما تقول: فعلت ذلك حِذارَ الشرّ، أي: لحذر الشر. قاله الزجاج[(٤)]، ومنه قول حاتم[(٥)][(٦)]:

وأغفر عَورَاءَ الكريم ادّخارَه وأُعْرِضُ عن شَتْم اللئيم تَكَرُّما

المعنى: لادخاره، وللتَّكرّم[(٧)].

قوله تعالى:{فَبَآءُو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ}[البقرة:٩٠]، " أي رجعوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم"[(٨)].

قال سعيد بن جبير:"{فباؤ بغضب على غضب}، يقول: استوجبوا"[(٩)].

قال الآلوسي:" أي فرجعوا متلبسين بِغَضَبٍ كائن عَلى غَضَبٍ مستحقين له حسبما اقترفوا من الكفر والحسد"[(١٠)].

قال الزجاج: "معنى {باءُوا} في اللغة احتملوا، يقال قد بُؤت بهذا الذنْبِ أيَ تحملته"[(١١)].

واختلف في تفسير قوله تعالى:{فَبَآءُو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ}[البقرة:٩٠]، على ثلاثة أوجه[(١٢)]:

---

(١) انظر: مقاييس اللغة(بغي):ص١/٢٧٢.

(٢)المفردات في غريب القرآن، للراغب:٦٥.

(٣) انظر: التبيان للعكبري:٧٥.

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١/١٧٣.

(٥) هو: حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني، فارس شاعر جواد، جاهلي يضرب المثل بجوده، كان من أهل نجد، شعره كثير ضاع معظمه. ينظر: "الشعر والشعراء" ص ١٤٣، و"الأعلام" ٢/ ١٥١.

(٦)"ديوانه" (ن: دار مكتبة الهلال): ٧٢، وورد منسوبًا له، في "كتاب سيبويه" ١/ ٣٦٨، "الإفصاح" ٢٧٩، "شرح المفصل" ٢/ ٥٤، "اللسان" ٥/ ٣١٦٥ (عور)، "التصريح بمضمون التوضيح" للأزهري: ١/ ٣٩٢، "شرح شواهد المغنى" ٢/ ٩٥٢، "الخزانة" ٣/ ١١٥، ١٢٢. "الجمل" للخليل: ٩٥، "معاني القرآن" للفرَّاء: ٢/ ٥، "معاني القرآن" للأخفش: ١/ ١٦٧، "الكامل" ١/ ٢٩١، "المقتضب" ٢/ ٣٤٨، "المحلى" (وجوه النصب)، لابن شقير: ٦٩، "وأسرار العربية" للأنباري: ١٨٧، "الاقتضاب" ١٠٩.

وورد في بعض المصادر بالروايات التالية: (.. اصطناعه وأعرض عن ذات ..) و (.. اصطناعه وأصفح عن ذات ..) و (.. وأصفح عن شتم ..). ومعنى (أغفر): استُر. و (العَوْراء): الكلمة، أو الفعلة القبيحة، و (الادِّخار)، افتعال من (الذُّخر)، بمعنى: الاتخاذ والحفظ، وأصلها: (اذتخار)، فقلبت التاء ذالًا، وأدْغِمَت فيها الذالُ الأصليةُ، فصارت ذالًا مشدوةً، ثم أبدِلَت الذالُ دالًا. انظر: "اللسان" ٣/ ١٤٩٠ (ذخر)، ٥/ ٣١٦٥ (عور)، ٦/ ٣٢٧٤ (غفر). ومعنى البيت: إذا جهل علي الكريمُ بكلمة أو فعلةٍ قبيحة، سترتها عليه، وسامحته، واحتملتها منه؛ للإبقاء على صداقته، ولادِّخاره ليوم احتاج إليه فيه. وإن شتمني اللئيمُ أعرضت عن شتمه والرد عليه؛ إكرامًا لنفسي.

(٧) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١/١٧٣. ونقله الواحدي في التفسير البسيط: ٣/١٥١-١٥٢.

(٨) صفوة التفاسير: ١/٦٨.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٣):ص١/١٧٣.

(١٠) روح المعاني: ١/٣٢٢.

(١١) معاني القرآن: ١/١٧٤.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٢/٣٤٥-٣٤٨، وتفسير ابن كثير: ١/٣٢٧، وتفسير روح المعاني: ١/٣٢٣.

أحدها: أن الغضب الأوّل: بكفرهم بعيسى عليه السّلام والإنجيل، والثاني: كفرهم بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم والقرآن. قاله أبو العالية[١]، وروي عن عكرمة[٢] وقتادة[٣] والشعبي[٤]، ومجاهد[٥]، وعبيد بن عمير[٦]، نحو ذلك.

والثاني: الغضب الأوّل: بعبادتهم العجل، والثاني: بكفرهم بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم وتبديل نعته. قاله السدي[٧].

والثالث: الغضب الأوّل بتضييعهم التوراة، والغضب الثاني بكفرهم بهذا النبيّ الذي اتخذه الله تعالى. قاله ابن عباس[٨].

والخامس: أن معناه: "بإثم استحقوا به النار على إثم تقدم استحقوا به النار". قاله الزجاج[٩]. وروي نحوه عن سعيد بن جبير[١٠].

والرابع: أنه لما كان الغضب لازماً لهم، كان ذلك توكيداً. قاله الماوردي [١١]، وحكاه الرازي عن أبي مسلم[١٢]، وذكره ابن عطية عن طائفة[١٣]، ونقله القرطبي[١٤].

وتجدر الإشارة بأن:"الغضب صفة وصف الله تعالى نفسه بها، وليس غضبه كغضبنا، كما أن ذاته ليست مثل ذواتنا، فليس هو مماثلا لأبداننا ولا لأرواحنا، وصفاته كذاته سبحانه، وما قيل: إن الغضب من الانفعالات النفسانية، فيُقال: نحن وذواتنا منفعلة، فكونها انفعالات فينا لا يجب أن يكون الله منفعلا بها. كما أن نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين. فصفاته كذلك ليست كصفات المخلوقين، ونسبة صفة المخلوق إليه كنسبة صفة الخالق إليه. وليس المنسوب كالمنسوب، والمنسوب إليه كالمنسوب إليه. كما قال صلّى الله عليه وسلّم: "إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته"[١٥]، فشبه الرؤية بالرؤية لا المرئيّ بالمرئيّ"[١٦].

وهذا يتبيّن بقاعدة: "هي أن كثيرًا من الناس يتوهم في بعض الصفات، أو في كثير منها، أو أكثرها، أو كلها، أنها تماثل صفات المخلوقين؛ ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير[١٧]:

الأول: كونه مثَّل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين، وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل.

الثاني: أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطّله بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله، فيبقى مع جنايته على النصوص، وظنه السيئ الذي ظنه بالله ورسوله - حيث ظن أن الذي يفهم من

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٤):ص١٧٣/١، وتفسير الطبري(١٥٥٣):ص٣٤٦/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٥٤٧)، و(١٥٤٨):ص٣٤٥/٢-٣٤٨.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٥٥١):ص٣٤٦/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٠):ص٣٤٦/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٢):ص٣٤٦/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٥):ص٣٤٧/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٤):ص٣٤٦/٢، وابن أبي حاتم(٩١٧):ص١٧٤/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٥٤٦):ص٣٤٥/٢، وابن أبي حاتم(٩١٥):ص١٧٣/١.
(٩) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٧٤/١، ونقله الواحدي في التفسير البسيط:١٥٣/٣، وانظر: البحر المحيط: ٣٠٦/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩١٦):ص١٧٤/١، ولفظه:" استوجبوا سخطا على سخط".
(١١) انظر: النكت والعيون: ١٥٩/١.
(١٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٤/ ٦٠٤، قال:" أن المراد به تأكيد الغضب وتكثيره لأجل أن هذا الكفر وإن كان واحدا إلا أنه عظم، وهو قول أبي مسلم".
(١٣) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٩/١.
(١٤) انظر: تفسير القرطبي: ٢٨/٢- ٢٩، قال:" وقيل: أن المراد التأبيد وشدة الحال عليهم، لا أنه أراد غضبين معللين بمعصيتين"، وانظر: تفسير روح المعاني: ٣٢٣/١.
(١٥) رواه البخاري في كتاب التوحي: (٧٤٣٤): ٤٢٩/١٣، وابن خزيمة: التوحيد: ١٧٨ ومابعدها، وابن أبي عاصم:/ السنة: ١٩٣.
(١٦) تفسير القاسمي(محاسن التأويل): ١/ ٣٥٠.
(١٧) انظر: التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، ابن تيمية: ٧٩-٨١. ونقله القاسمي في محاسن التأويل: ٣٥٠/١.

كلامهما هو التمثيل الباطل - قد عطل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من إثبات الصفات لله، والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله سبحانه.
الثالث: أنه ينفي تلك الصفات عن الله بغير علم، فيكون معطلا لما يستحقه الرب تعالى.
الرابع: أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات، أو صفات المعدومات.
فيكون قد عطَّل صفات الكمال التي يستحقها الرب تعالى، ومثَّله بالمنقوصات والمعدومات، وعطَّل النصوص عما دلت عليه من الصفات، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات، فيجمع في الله وفي كلام الله بين التعطيل والتمثيل"(١). سبحانه وتعالى عما يقول الظّالمون علوّا كبيرا. أفاده الإمام ابن تيمية. عليه الرحمة، في القاعدة التدمرية. والله تعالى أعلم.
قوله تعالى: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}[البقرة:٩٠]، " أي: ولهم عذاب شديد مع الإهانة والإذلال"(٢).
قال البيضاوي:" يراد به إذلالهم، بخلاف عذاب العاصي فإنه طهرة لذنوبه"(٣).
قال الثعلبي:أي" وللجاحدين [لدين] محمّد صلّى الله عليه وسلّم من النّاس كلهم، {عَذابٌ مُهِينٌ}، يهانون فلا يعزون"(٤).
قال مقاتل بن حيان:" يعني بالمهين الهوان"(٥).
قال السعدي: أي:عذاب "مؤلم موجع، وهو صلي الجحيم، وفوت النعيم المقيم، فبئس الحال حالهم، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به، وبكتبه، وبرسله، مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم"(٦).
وقيل أن (العذاب) على ضربين(٧):
أحدهما: عذاب مهين: وهو عذاب الكافرين، لأنه لا يمحص عنهم ذنوبهم.
والثاني : عذاب غير مهين: وهو ما كان فيه تمحيص عن صاحبه، كقطع يد السارق من المسلمين، وحد الزاني .
قال شيخنا ابن عثيمين: "وقوله تعالى: {عذاب} أي عقوبة؛ و{مهين}، أي ذو إهانة وإذلال؛ ولو لم يكن من إذلالهم، حين يقولون: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ} [المؤمنون : ١٠٧]، إلا قول الله عزّ وجلّ لهم: {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون : ١٠٨]، لكفى"(٨).
وقال ابن كثير: " لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر : ٦٠]، [أي : صاغرين حقيرين ذليلين راغمين]" (٩).
وقد روي عن النبي ﷺ قال : "يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا في جهنم، يقال له : بُولَس فيعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال : عصارة أهل النار" (١٠).
وقوله تعالى: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ}[البقرة:٩٠]، فهذا إظهار في موضع الإضمار فيما يظهر؛ لأن ظاهر السياق أن يكون بلفظ الضمير، أي ولهم عذاب مهين؛ والإظهار في موضع الإضمار له فوائد كثيرة، تظهر بحسب السياق منها(١):

(١)التدمرية: ٧٩-٨١.
(٢) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(٣) تفسير البيضاوي: ٩٤/١.
(٤) تفسير الثعلبي:٢٣٥/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٨):ص١٧٤/١.
(٦) تفسير السعدي: ٥٨/١.
(٧) انظر: النكت والعيون: ١٥٩/١، والمحرر الوجيز: ١٧٩/١.
(٨) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٥٥/١.
(٩) تفسير ابن كثير: ٣٢٨/١.
(١٠)مسند الإمام أحمد(٦٦٣٩): ص١٧٩/٢.

أولا: الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر.
ثانيا: بيان علة الحكم.
ثالثا: عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر(٢).
وقيل: أن قوله تعالى: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ}[البقرة:٩٠]، يدل على أنه لا عذاب إلا للكافرين، ثم احتجوا بهذه الآية، فريقان(٣):
أحدهما: الخوارج قالوا: ثبت بسائر الآيات أن الفاسق يعذب، وثبت بهذه الآية أنه لا يعذب إلا الكافر، فيلزم أن يقال الفاسق كافر.
وثانيها: المرجئة قالوا: ثبت بهذه الآية أنه لا يعذب إلا الكافر، وثبت أن الفاسق ليس بكافر، فوجب القطع بأنه لا يعذب.
قال الفخر الرازي:"وفساد هذين القولين لا يخفى"(٤)(٥).
ولا يخفى على كل ذي لبّ، بأن (الاختصاص) الذي يفهمه تقديم الخبر{لِلْكَافِرِينَ}، بالنسبة إليه، فغير الكافرين إذا عذب فإنما يعذب للتطهير- لا للإهانة والإذلال- ولذا لم يوصف عذاب غيرهم به في القرآن، فلا تمسك للخوارج بأنه خص العذاب بـ{الكافرين}، فيكون الفاسق كافرا، لأنه معذب ولا للمرجئة أيضا. هذا ما أفاده الآلوسي-رحمه الله-(٦).
الفوائد:
١. من فوائد الآية: أن كفر بني إسرائيل ما هو إلا بغي، وحسد؛ لقوله تعالى: {بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده}.
٢.ومنها: أن من رد الحق من هذه الأمة لأن فلاناً الذي يرى أنه أقل منه هو الذي جاء به؛ فقد شابه اليهود
٣. ومنها: أنه يجب على الإنسان أن يعرف الحق بالحق لا بالرجال؛ فما دام أن هذا الذي قيل حق فاتْبَعْه من أيٍّ كان مصدره؛ فاقبل الحق للحق؛ لا لأنه جاء به فلان، وفلان.
٤. ومنها: أن العلم من أعظم فضل الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {أن ينَزِّل الله من فضله على من يشاء}؛ ولا شك أن العلم أفضل من المال؛ وإذا أردت أن تعرف الفرق بين فضل العلم، وفضل المال فانظر إلى العلماء

---

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٨/١.
(٢) وهذا الأسلوب-أعني الإظهار في موضع الإضمار- كثير في القرآن الكريم، فمن ذلك قوله تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة:٩٨]، ولم يقل فإن الله عدو له، فأفاد هذا الإظهارُ:
أولا: الحكم بالكفر على من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال.
ثانيا: أن الله عدو لهم لكفرهم.
ثالثا: أن كل كافر فالله عدو له.
ومنه قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} [الأعراف:١٧٠]، ولم يقل إنا لا نضيع أجرهم؛ فأفاد ثلاثة أمور:
أولا: الحكم بالإصلاح للذين يمسكون الكتاب، ويقيمون الصلاة.
ثانيا: أن الله آجرهم لإصلاحهم.
ثالثا: أن كل مصلح فله أجر غير مضاع عند الله تعالى.[انظر: تفسير ابن عثيمين: ٦٧/١].
(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٠٢/٣.
(٤)مفاتيح الغيب: ٦٠٢/٣.
(٥) لابطال هذه الشبهة وغيرها لتلك الفرق، انظر: كتب شيخ الإسلام ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، والإيمان الكبري، والإيمان الأوسط، و منهاج السنة النبوية، ومجموع الفتاوى، وانظر: ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، لسفر بن عبد الرحمن الحوالي، والخوارج عقيدة ومكراً وفلسفة: د. عامر النجار، ص ١٩١، والمذاهب الإسلامية: محمد أحمد أبو زهرة ١٠٧، والمباحث العقدية المتعلقة بالكبائر ومرتكبها في الدنيا عند أهل السنة، د. سعود بن عبدالعزيز الخلف(بحث منشور في مجلة الجامعة الاسلامية ع١٢٣)، والتأويل وعلاقته بالإيمان والكفر عند الفرق الإسلامية في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة، د.هيا إسماعيل عبدالعزيز آل الشيخ ، ويمكن الرجوع للاستزادة إلى الكتب التي جمعت الكبائر مثل: كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيثمي، والكبائر للذهبي والذخائر شرح منظومة الكبائر للسفاريني.
(٦) انظر: روح المعاني: ٣٢٢/١.

في زمن الخلفاء السابقين؛ الخلفاء السابقون قَلّ ذكرهم؛ والعلماء في وقتهم بقي ذكرهم: هم يُدَرِّسون الناس وهم في قبورهم؛ وأولئك الخلفاء نُسوا؛ اللهم إلا من كان خليفة له مآثر موجودة، أو محمودة؛ فدل هذا على أن فضل العلم أعظم من فضل المال.

٥. ومن فوائد الآية: إثبات مشيئة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {على من يشاء}؛ وهي عامة فيما يحبه الله، وما لا يحب؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ وكل شيء عُلِّق بالمشيئة فهو مقرون بالحكمة؛ لقوله تعالى: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً} [الإنسان: ٣٠] ؛ فليست أفعال الله وأحكامه لمجرد المشيئة؛ بل هي لحكمة بالغة اقتضت المشيئة.

٦. ومن فوائد الآية: أن هذا الفضل الذي نزله الله لا يجعل المفضَّل به رباً يُعْبد؛ بل هو من العباد . حتى ولو تميز بالفضل؛ لقوله تعالى: {على من يشاء من عباده}.

وهذه الفائدة لها فروع نوضحها، فنقول: إن من آتاه الله فضلاً من العلم والنبوة لم يخرج به عن أن يكون عبداً؛ إذاً لا يرتقي إلى منْزلة الربوبية؛ فالرسول ﷺ عبد من عباد الله؛ فلا نقول لمن نزل عليه الوحي: إنه يرتفع حتى يكون رباً يملك النفع، والضرر، ويعلم الغيب.

ويتفرع عنها أن من آتاه الله من فضله من العلم، وغيره ينبغي أن يكون أعبد لله من غيره؛ لأن الله تعالى أعطاه من فضله؛ فكان حقه عليه أعظم من حقه على غيره؛ فكلما عظم الإحسان من الله عزّ وجلّ استوجب الشكر أكثر؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقوم في الليل حتى تتورم قدماه؛ فقيل له في ذلك؛ فقال: "أفلا أكون عبداً شكوراً[٣] ".

ويتفرع عنها فرع ثالث: أن بعض الناس اغتر بما آتاه الله من العلم، فيتعالى في نفسه، ويتعاظم حتى إنه ربما لا يقبل الحق؛ فحُرِم فضل العلم في الحقيقة.

٧.من فوائد الآية: أن العقوبات تتراكم بحسب الذنوب جزاءً وفاقاً؛ لقوله تعالى: {فباءوا بغضب على غضب}.

٨. ومنها: أن المستكبر يعاقب بنقيض حاله؛ لقوله تعالى: {عذاب مهين} بعد أن ترفعوا؛ فعوقبوا بما يليق بذنوبهم؛ وعلى هذا جرت سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه؛ قال الله تعالى: {فكلًّا أخذنا بذنبه} [العنكبوت: ٤٠]، وقال تعالى: {جزءًا وفاقاً} [النبأ: ٢٦].

٩. ومنها: أن الإظهار في موضع الإضمار من أساليب البلاغة، وفيه من الفوائد ما سبق ذكره قريباً.

١٠. ومنها: إثبات الغضب من الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: {فباءوا بغضب على غضب}؛ والغضب من صفات الله الفعلية المتعلقة بمشيئته؛ وهكذا كل صفة من صفات الله تكون على سبب.

١١. كما وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز لعن الكافر المعين؛ ولكن لا دليل فيها؛ لأن اللعن الوارد في الآية على سبيل العموم؛ ثم هو خبر من الله عزّ وجلّ، ولا يلزم منه جواز الدعاء به؛ ويدل على منع لعن المعين أن النبي ﷺ كان يقول: "اللهم العن فلاناً، وفلاناً"[١]، لأئمة الكفر، فنهاه الله عن ذلك؛ ولأن الكافر المعين قد يهديه الله للإسلام إن كان حياً؛ وإن كان ميتاً فقد قال النبي ﷺ "لا تسبوا الأموات؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا"[٢][١].

القرآن

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)} [البقرة : ٩١]

التفسير:

(٣) أخرجه البخاري ص٨٨، كتاب التهجد، باب ٦: قيام النبي ﷺ الليل، حديث رقم ١١٣٠؛ وأخرجه مسلم ص١١٦٩، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب ١٨: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم ٧١٢٤ [٧٩] ٢٨١٩.

(١) أخرجه البخاري ص٣٣٣، كتاب المغازي، باب ٢٢: (ليس لك من الأمر شيء)، حديث رقم ٤٠٦٩.

(٢) أخرجه البخاري ص١٠٩، كتاب الجنائز، باب ٩٧: ما ينهى من سب الأموات، حديث رقم ١٣٩٣.

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٥٥/١.

وإذا قال بعض المسلمين لليهود: صدِّقوا بما أنزل الله من القرآن، قالوا: نحن نصدِّق بما أنزل الله على أنبيائنا، ويجحدون ما أنزل الله بعد ذلك، وهو الحق مصدقًا لما معهم. فلو كانوا يؤمنون بكتبهم حقًّا لآمنوا بالقرآن الذي صدَّقها. قل لهم -يا محمد-: إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله عليكم، فلماذا قتلتم أنبياء الله مِن قبل؟

قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ }[البقرة:٩١]، " أي: وإذا قال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليهود المدينة وما حولها"(١).

قال ابن عثيمين:" وأبهم القائل ليكون شاملاً لكل من قال لهم هذا القول: إما الرسول صلى الله عليه وسلم وإما غيره"(٢).

قوله تعالى:{آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}[البقرة:٩١]، "أي آمنوا بما أنزل الله من القرآن وصدّقوه واتبعوه"(٣).

قال الثعلبي:" يعني: القرآن"(٤).

قال المراغي:" آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله"(٥).

قال ابن عثيمين:"أي: صدِّقوا به مع قبوله، والإذعان له، لأن الإيمان شرعاً: التصديق مع القبول، والإذعان؛ وليس كل من صدق يكون مؤمناً حتى يكون قابلاً مذعناً؛ والدليل على ذلك أن أبا طالب كان مصدقاً برسول الله ﷺ ولم يكن مؤمناً؛ لأنه لم يقبل، ولم يذعن"(٦).

قوله تعالى: {قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا}[البقرة:٩١]، "أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة"(٧).

قال الثعلبي:" يعني: التوراة"(٨).

قال القاسمي:"أي : من التوراة، ولا نقرّ إلا بها"(٩).

قال المراغي:" قالوا نحن دائبون على الإيمان بما أنزل على أنبياء بنى إسرائيل كالتوراة وغيرها"(١٠).

قوله تعالى :{وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ}[البقرة:٩١]، "يعني ويجحدون بما وراء التوراة"(١١).

قال الثعلبي:" أي: بما سواه وبعده"(١٢).

قال الزجاج:" معناه: ويكفرون بما بعده، أي بما بعد الذي أنزل عليهم"(١٣).

قال القاسمي:" أي: قالوا ما قالوا وهم يكفرون بما بعده"(١٤).

قال المراغي:" أي: وهم يكفرون بما سوى التوراة وهو القرآن"(١٥).

---

(١) تفسير المراغي: ١٧٠/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٢٩٦/١-٢٩٧.
(٣) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(٤) تفسير الثعلبي:٢٣٥/١.
(٥) تفسير المراغي: ١٧٠/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين:٢٩٧/١.
(٧) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(٨) تفسير الثعلبي:٢٣٦/١.
(٩) محاسن التأويل: ٣٥١/١.
(١٠) تفسير المراغي: ١٧٠/١.
(١١) تفسير الطبري: ٣٤٨/٢.
(١٢) تفسير الثعلبي:٢٣٦/١.
(١٣) معاني القرآن:١٧٤/١.
(١٤) محاسن التأويل:٣٥١/١.
(١٥) تفسير المراغي: ١٧٠/١.

وتفسير {وراءه}، في هذا الموضع «سوى»، كما يقال للرجل المتكلم بالحسن: ما وراء هذا الكلام شيء، يراد به : ليس عند المتكلم به شيء سوى ذلك الكلام، فكذلك معنى قوله : {ويكفرون بما وراءه}، أي بما سوى التوراة، وبما بعدها من كتب الله التي أنزلها إلى رسله[١].

قال ابن منظور: " «الوراء» جميعا يكون خلف وقدّام"[٢].

وعند ابن دريد: «الوراء»: الخلف، و«الوراء»: القدّام، وهو من الأضداد"[٣].

وقال أبو سعيد الأصمعي: "و«وراء»: خلف و«وراء»: قدّام، قال جلّ ثناؤه: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف : ٧٩]، وكان وراءهم أي: قدّامهم، وقال الشاعر[٤]:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

فقوله «ورائيا»، أي: قدّامي"[٥].

وقال الجوهري :" «وراء»: بمعنى: «خلف»، وقد تكون بمعنى «قدام». وهي من الأضداد"[٦].ق

قال الإمام القرطبي: "ومنه قول إبراهيم عليه السلام في حديث الشفاعة : " إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ"[٧]، و«الوراء»: ولد الولد أيضا[٨].

وقال ابن قتيبة: "«وراء»: تكون بمعنى«خلف»، وبمعنى «قدّام»، ومنها :الموراة، و التواري، فكل ما غاب عن عينيك فهو «وراء»، كان قدّامك أو خلفك"[٩].

وفي صدد شرحه لكلمة «وراء» في القرآن الكريم في مواضع مختلفة، فسّر الإمام ابن قتيبة الكلمة بحسب السياق الذي وردت فيه، فمثلا: في قوله تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف : ٧٩]، رجح ابن قتيبة أن تكون«وراء»-هنا- بمعنى «أمام»، وفي قراءة ابن عباس: وفي قوله تعالى: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الجاثية : ١٠]: أي أمامهم، وكذا في قوله تعالى: {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم : ١٧].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٨/٢.

(٢) اللسان: ٩٠٦/٦.

(٣) جمهرة اللغة، ٢٣٦/١، وانظر: مجمل اللغة: ٨٠/٣، ٩٣٢.

(٤) البيت لسوار بن المضرب السعدي، انظر: خزانة الأدب: ٤٦١/٢. وقيل انه لفرزدق انشده حين هرب من الحجاج(معجم البلدان: ٤٤٨/٢):

ترجو بنو مروان سمعي وطاعتي، وخلفي تميم والفلاة أماميا؟

(٥) أضداد الأصمعي: ٢٠.

(٦) مختار الصحاح: (ورى).

(٧) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها: (١٩٥)، قال الإمام مسلم: " حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ طَرِيفِ بْنِ خَلِيفَةَ الْبَجَلِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، حَدَّثَنَا أَبُو مَالِكٍ الْأَشْجَعِيُّ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبُو مَالِكٍ، عَنْ رِبْعِيٍّ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -[١٨٧]-: " يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ "، قَالَ: " فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ " قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: " أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا "، قَالَ: «وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنِ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ» وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا".

(٨) انظر: تفسير القرطبي: ٢٩/٢.

(٩) تأويل مشكل القرآن: ١٤٥. وانظر: الأضداد: ٥٦-٥٧.

فالكلمة «وراء» في الآيات السابقة جاءت بمعنى«أمام»، وليس بالمعنى المتبادر إلى الذهن، وهو معنى«خلف»، وقد اختلف في اشتقاق الكلمة على وجهين:
أحدهما: أنها مشتقة من التواري، أي: الإستتار، قال الإمام الشوكاني: " قال النحاس: {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم : ١٧] فقوله تعالى: "روَمِنْ وَرَائِهِ} أي: من أمامه، وليس من الأضداد، ولكنه من توارى، أي: استتر، فصارت جهنم من وراءه، لأنها لا ترى"[١].
والثاني: أنها على بابها، فهي-هنا- بمعنى: «خلف».
قال ابن عطية: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الجاثية : ١٠] فقوله تعالى: "{وَرَائِهِمْ} هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعي بها الزمان، وذلك أن الحدث المقدم الموجود هو: الأمام، والذي يأتي بعده هو: الوراء، وهو ما خلف، وذلك بخلاف ما يظهر بادي الرأي.."[٢].
وهكذا فقد لوحظ كيف تردد المفسرين بين المعنيين، غير جازمين بأحد الوجهين، ولعل السبب هو أن مثل هذه الظاهرة يحصل فيها الأشكال، فهي محتاجة إلى مزيد من الدلائل المحيطة بالنص لترجيح إحدى هذه الدلالات على الأخرى.
يتبيّن لنا مما سبق بأن كلمة «وراء» جاءت في القرآن على عدة معاني من أشهرها ثلاثة:
الأول: «وراء»، بمعنى: «أمام» زمانياً ومكانياً:

- فمن أمثلتها بمعنى «أمام» زمانياً، قول الله جل وعلا: {لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [المؤمنون : ١٠٠]، وقوله تعالى: {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم : ١٧]، يعنى هذا بمستقبل أيامه فحياة البرزخ والعذاب المتوعد به أهل النار لم يأتِ بعد، وإنما هو أمام المتوعد به.
- وأما «وراء» بمعنى «أمام» مكانياً، يقول الله جل وعلا على لسان الخضر: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف : ٧٩] فقوله تعالى:{وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} يعني أمامهم مكاناً ملك يأخذ كل سفينة غصبا، فأول معاني «وراء» في القرآن بمعنى: أمام.

الثاني: وتأتي بمعنى «خلف»، وهو الأصل في استخدامها اللغوي:
قال الله جل وعلا على لسان العبد الصالح شعيب: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [هود : ٩٢]، وظهر الإنسان خلفه وليس أمامه، فقوله: {وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا} نص بأنها تأتي بمعنى «خلف».
الثالث: ومن أشهر معانيها: «غير» أو «بعد»:
قال الله تعالى في النساء: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء : ٢٣]، فقال{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} ثم ذكر المحصنات ثم قال: {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ} أي ما بعد ذلك، ومنه قوله تعالى: {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود : ٧١].

([١]) تفسير الشوكاني: ١٣٦/٤.
([٢]) نقلا عن القرطبي في تفسيره: ٣٤/١١.

وقال جل وعلا: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)} [المؤمنون : ٥ - ٧]، فقوله تعالى(وَرَاءَ ذَلِكَ) أي غير ذلك.

قلت: وهذا مما يُميِّز اللغة العربية عن غيرها من اللغات، والملَكة العربية قادرة على أن تُميّز المعنى المناسب للسياق.

قوله تعالى:{وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ }[البقرة:٩١]، "مع أنه هو الحق موافقاً لما معهم من كلام الله"[١].

قال القاسمي:" وفيه ردّ لمقالتهم، لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها"[٢].

قال الزجاج:" فهذا يدل على أنهم قد كفروا بما معهم إذْ كفروا بما يُصَدِّقُ ما معهم"[٣].

وقوله تعالى{وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ }، فيه إشارة إلى ما يدل على وجوب الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبيانه من وجهين[٤]:

أحدهما: ما دل عليه قوله تعالى:{وَهُوَ الْحَقُّ} أنه لما ثبتت نبوة محمد ﷺ بالمعجزات التي ظهرت عليه، إنه عليه الصلاة والسلام أخبر أن هذا القرآن منزل من عند الله تعالى وأنه أمر المكلفين بالإيمان به وكان الإيمان به واجبا لا محالة، وعند هذا يظهر أن الإيمان ببعض الأنبياء وبعض الكتب مع الكفر ببعض الأنبياء وبعض الكتب محال.

والثاني:ما دل عليه قوله:{مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ}، وتقريره من وجهين:

الأول: أن محمدا صلوات الله وسلامه عليه لم يتعلم علما ولا استفاد من أستاذ، والثاني: أن القرآن يدل على نبوة محمد ﷺ فلما أخبر الله تعالى عنه أنه مصدق للتوراة وجب اشتمال التوراة على الإخبار عن نبوته، وإلا لم يكن القرآن مصدقا للتوراة بل مكذبا لها وإذا كانت التوراة مشتملة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وهم قد اعترفوا بوجوب الإيمان بالتوراة لزمهم من هذه الجهة وجوب الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: {قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ الله مِن قَبْلُ}[البقرة:٩١]، " أي قل لهم يا محمد إذا كان إيمانكم بما في التوراة صحيحا، فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل؟"[٥].

قال الواحدي:" هذا تكذيب من الله تعالى لهم في قولهم: {نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا}، أي: أيّ كتاب جوّز فيه قتل نبي، وأيّ دين وإيمان جوّز فيه ذلك"[٦].

قال ابن الأنباري: أي:" فلم توليتم آباءكم القاتلين ورضيتم ما كانوا عليه، وصوبتم أفعالهم"[٧].

قال القرطبي: أي" فلم رضيتم بقتل الأنبياء "[٨].

قال الزجاج: "أيْ: أيُّ كتاب جُوّز فيه قتل نبي، وأي دين وإيمان جُوز فيه"[٩].

قال القاسمي: أي:"فلم قتلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم وأنتم تعلمون صدقهم، فقتلتموهم بغيا وعنادا، واستكبارا على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي كما قال تعالى أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ [البقرة: ٨٧] "[١٠].

---

(١) صفوة التفاسير: ٦٩/١.
(٢) محاسن التأويل: ٣٥١/١.
(٣) معاني القرآن: ٧٤!/١.
(٤) انظر: تفسير الرازي: ١٧٠/٣.
(٥) صفوة التفاسير: ٦٩/١.
(٦) التفسير البسيط: ١٥٦/٣.
(٧) التفسير البسيط: ١٥٦/٣، وانظر: تفسير القرطبي: ٢٥/٢-٢٦.

(٨) تفسير القرطبي: ٣٠/٢. وانظر: تفسير الطبري: ٣٥١/٢.
(٩) معاني القرآن: ١٧٥/١.
(١٠) محاسن التأويل: ٣٥٢/١.

قال السدي:" فقال الله وهو يعيرهم: {فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين}"[١].
قال البيضاوي: "وإنما أسنده إليهم، لأنه فعل آبائهم، وأنهم راضون به عازمون عليه"[٢][٣].
وقرأ نافع وحده {أَنْبِيَاءَ اللَّهِ}، مهموزاً في جميع القرآن[٤].

قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[البقرة:٩١]، " أي إن كنتم معتقدين الإيمان"[٥].
قال الطبري:" إن كنتم مؤمنين بما نزل الله عليكم كما زعمتم"[٦].
قال القاسمي:" أي إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم"[٧].
قال ابن إسحاق:" إن كنتم صدقتم نبيي، بما جاءكم به عني"[٨].

قال القرطبي: "رد من الله تعالى عليهم في قولهم إنهم آمنوا بما أنزل عليهم، وتكذيب منه لهم وتوبيخ"[٩].
ويحتمل قوله تعالى: :{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[البقرة:٩١]، وجهان من التفسير[١٠]:
أحدهما: ما كنتم مؤمنين.
والثاني: إِنَّ إِيمانكم ليس بإيمان.
وقد اختلف أهل اللغة في ابتداء الخبر على لفظ المستقبل، في قوله تعالى{قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ}[البقرة:٩١]، على قولين[١١]:

أحدهما: إن الخطاب لمن شُوهِدَ من أهل مكةَ ومنْ غاب خطَابٌ واحد، فإذا قَتَل أسْلافُهم الأنبياءَ وهم مُقِيمُون على ذلك المذهب فقد شرَكُوهم في قَتْلِهِمْ.
والثاني: وقيل: لِمَ رَضيتمُ بذلك الفعل، ومنه قول الشاعر[١٢]:
إذا ما انتسبنا، لم تلدني لئيمة   ولم تجدي من أن تُقِري به بُدَّا
فالجزاء للمستقبل، والولادة كلها قد مضت، وذلك أن المعنى معروف، فجاز ذلك.
قال الزجاج: "وهذا القول الثاني يرجع إلى معنى الأول، وإنما جاز أنْ يُذكر هنا لفظُ الاستقبال والمعنى، المضي لقوله {من قبل}، ودليل ذلك قوله:{ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ}، فقوله: {فلم تَقتلون}، بمنزلة " فلم قتلتم"[١٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٢٥)ب: ١٧٥/١.
(٢) تفسير البيضاوي: ٩٤/١.
(٣) وفي معناه حديث أم سلمة قالت: قال رسول الله - ﷺ -: "إنها ستكون أمراء، تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع" رواه ابن أبي شيبة في "المصنف" ٨/ ٦٢١ وقوله - ﷺ -: "إن الخطيئة إذا عملت في الأرض كان من غاب عنها ورضيها كمن حضرها، ومن شهدها وسخطها كان كمن غاب عنها وأنكرها" رواه أبو داود.
(٤) انظر: تفسير البيضاوي: ٩٤/١.
(٥) تفسير القرطبي: ٣٠/٢. وانظر: تفسير الطبري: ٣٥١/٢.
(٦) تفسير الطبري: ٣٥٤/٢.
(٧) محاسن التأويل: ٣٥٢/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٢٦): ١٧٥/١.
(٩) تفسير القرطبي: ٣٠/٢.
(١٠) انظر: معاني القرآن للزجاج:١٧٥/١.
(١١)لنظر: معاني القرآن للزجاج :١٧٥/١، وتفسير الطبري: ٣٥٠/٢-٣٥٤.
(١٢)في حاشية الأمير على مغنى اللبيب ١ : ٢٥ قال : " في حاشية السيوطي " قائله زائدة ابن صعصعة الفقعسي ، يعرض بزوجته ، وكانت أمها سرية " ، ولم ينسبه السيوطي في شرحه على شواهد المغنى : ٣٣ . و ومعانى الفراء : ٦١ ، ١٧٨ وقبل البيت يقول لامرأته:
رمتنى عن قوس العدو ، وباعدت   عبيدة ، زاد الله ما بيننا بعدا
(١٣) معاني القرآن :١٧٥/١.

قال ابن عطية:" وفائدة سوق المستقبل في معنى الماضي الإعلام بأن الأمر مستمر، ألا ترى أن حاضري محمد - ﷺ - ولما كانوا راضين بفعل أسلافهم بقي لهم من قتل الأنبياء جزء"(١).

قلت: إن التغيير عن الفعل الماضي بالمستقبل، جائز في كلام العرب، وذلك فيما كان بمنزلة الصفة، كما قال جل ثناؤه : {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ...} [البقرة : ١٠٢]، أي : ما تلت، وكما قال الشاعر(٢):

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت عنه وقلت لا يعنيني

فقوله:(ولقد أمر) أي: ولقد مررت، واستدل على أن ذلك كذلك، بقوله :(فمضيت عنه)، ولم يقل : (فأمضي عنه).

ومنه قول الشاعر(٣):

وإني لآتيكم تَشَكُّرَ ما مضى من الأمر، واسْتِيجابَ ما كان في غد

يعني بذلك : ما يكون في غد، ومنه قول الحطيئة(٤):

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه أن الوليد أحق بالعذر

يعني : يشهد، وكما قال الآخر(٥):

فما أضحي ولا أمسيت إلا أراني منكم في كَوَّفان

فقال : أضحي، ثم قال : (ولا أمسيت).

---

(١) المحرر الوجيز: ١٧٩/١.

(٢) البيت لرجل من بني سلول، انظر: سيبويه ١ : ٤١٦ ، الخزانة ١ : ١٧٣ ، وشرح شواهد المغني : ١٠٧ وغيرها كثير . وروايتهم جميعا " ثمت قلت " . وبعده بيت آخر :

غضبان ممتلئا علي إهابه إني وربك سخطه يرضيني

(٣) البيت لطرمح بن حكيم الطائي، انظر: ديوانه: ١٤٦، وحماسة البحتري : ١٠٩ ، واللسان (كون) وقد كان في هذا الموضع " بشكرى " ، وهو خطأ ، سيأتي من رواية الطبري على الصواب . وروى اللسان : " واستنجاز ما كان " . وصواب الرواية : " فإني لآتيكم " فإنه قبله :

من كان لا يأتيك إلا لحاجة يروح بها فيما يروح ويغتدى

فإني لآتيكم . . . .

(٤)ديوانه : ٨٥ ، ونسب قريش : ١٣٨ ، والاستيعاب : ٦٠٤ ، وأنساب الأشراف ٥ : ٣٢ ، وسمط اللآلئ : ٦٧٤ . قالها الحطيئة في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وكان من رجالات قريش همة وسخاء . استعمله أبو بكر وعمر وعثمان ، فلما كان زمان عثمان ، رفعوا عليه أنه شرب الخمر ، فعزله عثمان وجلده الحد ، وكان لهذا شأن كبير ، فقال الحطيئة يعذره ويمدحه ، ويذكر عزله :

شهد الحطيئة حين يلقى ربه أن الوليد أحق بالعذر

خلعوا عنانك إذ جريت، ولو تركوا عنانك لم تزل تجري

ورأوا شمائل ماجد أنف يعطي على الميسور والعسر

فنزعت، مكذوبا عليك، ولم تردد إلى عوز ولا فقر

قال مصعب بن عبد الله الزبيري في نسب قريش : "فزادوا فيها من غير قول الحطيئة :

نادى وقد تمت صلاتهم أأزيدكم؟ ثملا ولا يدري

ليزيدهم خمسا، ولو فعلوا مرت صلاتهم على العشر

وقد أكثر الناس فيما كان من خبر الوليد ، وما كان من شعر الحطيئة فيه . وهذا نص من أعلم قريش بأمر قريش ، على أن البيتين قد نحلهما الحطيئة ، متكذب على الوليد ، لما كان له في الشأن في أمر عثمان رضي الله عنه . ولقد جلد الوليدبن عقبة مكذوبا عليه كما قال الحطيئة ، فاعتزل الناس . وروى أبو العباس المبرد في التعازي والمراثي (ورقة : ١٩٦) قال : "قال الوليد بن عقبة عند الموت ، وهو بالبليخ من أرض الجزيرة : "اللهم إن كان أهل الكوفة صدقوا على ، فلا تلق روحي منك روحا ولا ريحانا ، وإن كانوا كذبوا على فلا ترضهم بأمير ولا ترض أميرا عنهم . انتقم لي منهم ، واجعله كفارة لما لا يعلمون من ذنوبي" . فليت أهل الشر كفوا ألسنتهم عن رجل من عقلاء الرجال وأشرافهم.

(٥)لم أعرف قائله ، وهو في اللسان (كوف) والصاحبي : ١٨٧ . والكوفان (بتشديد الواو) : الاختلاط والشدة والعناء . يقال : إنا منه في كوفان ، أي في عنت وشقاء ودوران واختلاط .

قال السعدي:" رد عليهم تبارك وتعالى هنا ردا شافيا، وألزمهم إلزاما لا محيد لهم عنه، فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين فقال: {وَهُوَ الْحَقُّ} فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات، والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم، فالكفر به بعد ذلك كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: {مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ} أي: موافقا له في كل ما دل عليه من الحق ومهيمنا عليه، فلم تؤمنون بما أنزل عليكم، وتكفرون بنظيره؟ هل هذا إلا تعصب واتباع للهوى لا للهدى؟

وأيضا، فإن كون القرآن مصدقا لما معهم، يقتضي أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينة ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بينته، ثم يأتي هو لبينته وحجته، فيقدح فيها ويكذب بها؛ أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن، كفرا بما في أيديهم ونقضا له.

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: {قُلْ} لهم: {فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"[١].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: { آمنوا بما أنزل الله }؛ لأن ما أنزل الله هو القرآن . وهو كلام؛ والكلام ليس عيناً قائمة بذاتها؛ بل هو صفة في غيره؛ فإذا كان صفة في غيره، وهو نازل من عند الله لزم أن يكون كلام الله عزّ وجلّ..

٢. ومنها: علوّ الله سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا كان القرآن كلامه، وهو نازل من عنده دلَّ على علوّ المتكلم به

٣. ومنها: كذب اليهود في قولهم: { نؤمن بما أنزل علينا }؛ لأنهم لو آمنوا به لآمنوا بمحمد ﷺ، كما قال تعالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر...} [الأعراف: ١٥٧] إلخ..

٤. ومنها: عتوّ اليهود، وعنادهم؛ لأنهم يقولون: لا نؤمن إلا بما أنزل علينا..

٥. ومنها: أن من دُعي إلى الحق من هذه الأمة، وقال: "المذهب كذا، وكذا" . يعني ولا أرجع عنه ففيه شبه من اليهود . لأن الواجب إذا دعيت إلى الحق أن تقول: "سمعنا وأطعنا"؛ ولا تعارضه بأي قول كان، أو مذهب..

٦. ومنها: وجوب قبول الحق من كل من جاء به.

٧. ومنها: إفحام الخصم بإقامة الحجة عليه من فعله؛ ووجه ذلك أن الله أقام على اليهود الحجة على فعلهم؛ لأنهم قالوا: نؤمن بما أنزل علينا وهم قد قتلوا أنبياء الله الذين جاءوا بالكتاب إليهم؛ فإن قولهم: { نؤمن بما أنزل علينا } ليس بحق؛ لأنه لو كانوا مؤمنين حقيقة ما قتلوا الأنبياء؛ ولهذا قال تعالى: { قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين}.

٩. ومنها : أن القرآن حدثنا عن محاولات اليهود لقتل الأنبياء في مواضع كثيرة[٢] بحيث انك لو جمعت الآيات التي تحدثت عن هذه القضية، لاستبان لك : أن قتل الأنبياء، والغدر بهم، كان هدفا يهوديا خالصا، يسعى اليهود الى تحقيقه بكل وسيلة، وأقرأ ذلك – إن شئت – في سورة البقرة – آيات: [٦١، ٨٥، ٨٧،٩١] وفي سورة آل عمران آيات: [٢١، ١١٢، ١٨١، ١٨٣] وفى سورة النساء آيات: [١٥٥، ١٥٧]، وفى المائدة

---

(١) تفسير السعدي: ٥٩.

(٢) لقد اقتضت حكمة الله في سنته الجارية على خلقه أن يكون الأنبياء والرسل أئمة للناس في الخير والابتلاء ، بل هم أعظم ابتلاء إذ الابتلاء على قدر الإيمان ، لذا جرت سنن الله في إخراج الأنبياء والرسل إما تسليطاً من الكفار والأعداء عليهم ، وإما هجرة يؤمرون بها من قبل الله ، وإما سياحة في الأرض تفكراً في خلق الله ، وما جرى للرسل والأنبياء جرى لاتباعهم من حملة الرسالات والدعوات.

آية [٧٠]، ولا شك بأن قتل الأنبياء من أعظم الجرائم بل إن النبي ﷺ قال:"إن أشد الناس عذابا يوم القيامة من قتله نبي أو قتل نبيا "[١]، وقد قتل بنو إسرائيل عدة أنبياء لله تعالى كما هو منصوص عليه في القرآن الكريم.

وفى مقابل هذا الغدر وتلك الخيانة يصف القرآن اليهود بأنهم –في ميدان القتال – أجبن الناس، وأضعف الناس، قلوب خاوية، وهمم هاوية !! {لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ} [الحشر : ١٤]. وهذا في أحسن الأحوال، وإلا {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ} [البقرة ٢٤٦]. ثم تمتلئ قلوبهم رعبا، وخوفا، وجزعا، وفزعا فيقولون: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُون} [المائدة : ٢٤][٢].

القرآن

{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)} [البقرة : ٩٢]

التفسير:

ولقد جاءكم نبي الله موسى بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقه، كالطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع، وغير ذلك مما ذكره الله في القرآن العظيم، ومع ذلك اتخذتم العجل معبودًا، بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه، وأنتم متجاوزون حدود الله.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ} [البقرة : ٩٢]، أي "وقل لهم لقد جاءكم موسى"[٣] بالحجج الباهرات"[٤].

قال الثعلبي:أي" بالدلالات اللائحات- والعلامات الواضحات"[٥].

قال أبو السعود:" أي وبالله لقد جاءكم موسى ملتبسا بالمعجزات الظاهرة"[٦].

قال الطبري:" ولقد جاءكم - يا معشر يهود بني إسرائيل - موسى بالآيات البينات على أمره وصدقه وصحة نبوته "[٧].

---

(١)أخرجه: ابن حنبل، أحمد،تـ(٢٤١هـ/٨٥٥م)، مسند أحمد، طبعة مؤسسة قرطبة، مصر،ج١ص٤٠٧.وقال الهيثمي، علي بن أبي بكر،تـ(٨٠٧هـ/١٤٠٥م)، في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،طبعة دار الريان، القاهرة،١٤٠٧هـ، ج٥ص٢٣٦ قال: في الصحيح بعضه ورواه الطبراني وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس وبقية رجاله ثقات.

(٢) الناظر لسيرة الأنبياء والرسل-عليهم الصلاة والسلام- بأن الرسل مقطوع بنصرهم من الله _سبحانه_ وعصمتهم من القتل بخلاف الأنبياء ومن تتبع تعبير القرآن رأى عجباً فإن القرآن إذا قطع بالنصر عبر بلفظ الرسل كقوله: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة : ٢١]، {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} [الصافات : ١٧١]، وإذا جاء ذكر القتل عبر بلفظ النبيين {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [آل عمران : ١١٢]، {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [آل عمران : ١٨١]، {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء : ١٥٥]، والسبب – وعند الله العلم – أن رسول الأمة الأول لا يقتل أبداً ولا بد من تمكينه ونصره في الدنيا فعلاً. ودليل ذلك قوله _تعالى_ في سورة غافر: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} [غافر : ٥]، وقوله __جل ذكره__ في سورة إبراهيم _عليه السلام_: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} [إبراهيم : ١٣]، وقوله في سورة الأنبياء: {ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ} [الأنبياء : ٩].
أما الأنبياء الذين أرسلوا برسالة تجديدية لرسالة رسول الأمة الأول فإنهم قد يقتلون كرسل بني إسرائيل بعد موسى ، وهذا ما يحمل عليه قوله _تعالى_: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} [البقرة : ٨٧]، وإذا كان الأمر كذلك فإن من قدر الله أن تكتمل عوامل النصر والتمكين في دعوة رسول الأمة أكثر من النبي المجدد. والله تعالى أعلم.

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن:١/٢٢٤.

(٤) صفوة التفاسير:١/٦٩

(٥) تفسير الثعلبي:١/٢٣٦.

(٦) تفسير أبي السعود: ١/١٣٠.

(٧) تفسير الطبري: ٢/٣٥٥.

قال المراغي:" أي ومن عظيم كفرانكم للنعم أن موسى قد جاء بالأدلة القاطعة والبراهين الناصعة على توحيد الله وعظيم قدرته"(١).

قال البيضاوي:" "يعني الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ}[الإسراء:١٠١]"(٢).

قال ابن عثيمين:" الخطاب لليهود؛ والدليل على أنه لليهود قوله تعالى: {موسى} ؛ لأن موسى نبيهم؛ وهنا خاطبهم باعتبار الجنس لا باعتبار الشخص؛ إذ إن موسى لم يأت هؤلاء الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ لكنه أتى بني إسرائيل الذين هؤلاء منهم"(٣).

وذكروا في قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ} [البقرة : ٩٢]، وجهان(٤):

أحدهما: ما في الألواح من الحلال والحرام. قاله ابن عباس(٥).

والثاني: الآيات التسع. قاله مقاتل(٦)، وابن عباس في رواية عكرمة عنه(٧).

وقوله تعالى{بِالْبَيِّنَاتِ}[البقرة:٩٢]، "أي بالعلامات الدالة على رسالته"(٨)، وهي الآيات التسع: العصا، واليد، والسنون، ونقص الثمرات، والدم، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، وفلق البحر.أو غيرها مما كثر وقوعه من المعجزات الباهرات حجةً على بني إسرائيل في كفرهم(٩).

قال الإمام الطبري: " وإنما سماها الله (بينات) لتبينها للناظرين إليها أنها معجزة لا يقدر على أن يأتي بها بشر، إلا بتسخير الله ذلك له، وإنما هي جمع (بينة)، مثل (طيبة وطيبات)"(١٠).

قال الواحدي: "المراد بـ (ثُم) هاهنا: الاستعظام لكفرهم مع ما رأوا من الآيات التي أتى بها موسى عليه السلام"(١١).

قوله تعالى:{ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ}[البقرة:٩٢]، أي: "ثم اتخذتم العجل من بعد موسى إلها"(١٢).

قال ابن عطية:" أي من بعده، حين غاب عنكم في المناجاة"(١٣).

واختلف في (الهاء) في قوله{مِنْ بَعْدِهِ}[البقرة:٩٢]، على وجهين (١٤):

أحدهما: أنها تعود إلى {موسى}، وفيه وجهان من المعنى:

الأول: من بعد مجيء موسى.

الثاني: من بعد ذهابه، لأنهم اتخذوا العجل من بعد أن فارقهم موسى ماضيا إلى ربه لموعده. وهذا قول مقاتل(١٥)، والثعلبي(١٦).

والثاني: أنها تعود إلى {الآيات}، والمعنى: ثم اتخذتم العجل من بعد مجيء البينات، كما تقول: جئتني فكرهته، يعني كرهت مجيئك.

---

(١) تفسير المراغي: ١٧١/١.
(٢) تفسير البيضاوي: ٩٤/١.
(٣) تفسير ابن عثيمين:٢٩٩/١.
(٤) انظر: زاد المسير: ١١٥/١.
(٥)انظر: زاد المسير: ١١٥/١.
(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٣/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٢٧):ص١٧٥/١.
(٨) تفسير ابن عثيمين:٢٩٩/١.
(٩) انظر:تفسير الطبري: ١/ ٤٢١، والبحر المحيط:١/ ٣٠٨، إلا أنه عد بدل الأخيرين: السنين، والطوفان.
(١٠)تفسير الطبري: ٣٥٥/٢.
(١١) تفسير البسيط للواحدي: ١٥٨/٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٥/٢.
(١٣) البحر المحيط: ١٨٠/١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٥/٢، وتفسير البيضاوي: ٩٤/١.
(١٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٣/١.
(١٦) تفسير الثعلبي:٢٣٦/١.

قال أبو حيان:" الجمهور على إدغام الذال في التاء في قوله: {ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ}، وقرأ ابن كثير وحفص من السبعة : بالإظهار"[١].

قوله تعالى:{ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}[البقرة:٩٢]،أي وأنتم" ضارون لأنفسكم بالمعصية واضعون العبادة في غير موضعها"[٢].

قال محمد بن إسحاق: "يعني قوله: {وأنتم ظالمون}، أي المنافقين الذين يظهرون بألسنتهم الطاعة وقلوبهم مصرة على المعصية"[٣].

وفي قوله تعالى:{ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}[البقرة:٩٢]، وجهان[٤]:

الأول: أنه حال، بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته، أو بالإخلال بآيات الله تعالى.

والثاني: أنه اعتراض، بمعنى وأنتم قوم عادتكم الظلم.

قال البيضاوي: " ومساق الآية أيضاً لإبطال قولهم نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا والتنبيه على أن طريقتهم مع الرسول طريقة أسلافهم مع موسى عليهما الصلاة والسلام، لا لتكرير القصة وكذا ما بعدها"[٥].

وفي اتصال الآية بما قبلها يقول الراغب:" جعل ذلك أيضا دلالة على دلالة قولهم : (نؤمن بما أنزل علينا) فكأنه قيل : كيف آمنتم به وقد أتاكم موسى بالآيات البينات فما لبثتم أن عبدتم العجل ظلما ، وظلمهم الإخلال بآيات الله وبيناته وتلقيها بالكفران والكفر ، وفي تخصيص ثم زيادة فائدة ، وهي أن ذلك منكم بعد تدبر الآيات والتمكن من معرفتها ، والآيات"[٦].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: إقامة البرهان على عناد اليهود؛ ووجه ذلك أنه قد جاءهم موسى بالبينات، فاتخذوا العجل إلهاً..

٢ . ومنها: سفاهة اليهود، وغباوتهم، لاتخاذهم العجل إلهاً مع أنهم هم الذين صنعوه..

٣. ومنها: أن اليهود اغتنموا فرصة غياب موسى مما يدل على هيبتهم له؛ لقوله تعالى: { من بعده } يعني من بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه..

٤. ومنها: أن اليهود عبدوا العجل عن ظلم، وليس عن جهل؛ لقوله تعالى:{وأنتم ظالمون}.

القرآن

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)} [البقرة : ٩٣]

التفسير:

واذكروا حين أَخَذْنا عليكم عهدًا مؤكدًا بقَبول ما جاءكم به موسى من التوراة، فنقضتم العهد، فرفعنا جبل الطور فوق رؤوسكم، وقلنا لكم: خذوا ما آتيناكم بجدٍّ، واسمعوا وأطيعوا، وإلا أسقطنا الجبل عليكم، فقلتم: سمعنا قولك وعصينا أمرك؛ لأن عبادة العجل قد امتزجت بقلوبكم بسبب تماديكم في الكفر. قل لهم -أيها الرسول-: قَبُحَ ما يأمركم به إيمانكم من الكفر والضلال، إن كنتم مصدِّقين بما أنزل الله عليكم.

قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ}[البقرة:٩٣]، " أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أَخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة"[٧].

قوله تعالى:{ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ}[البقرة:٩٣]، أي:" ورفعنا فوقكم جبل الطور"[٨].

---

(١) البحر المحيط: ١٦٨/١.
(٢) تفسير البغوي: ٩٥/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٢٩):ص١٧٥/١.
(٤) انظر: تفسير البيضاوي: ٩٤/١.
(٥) تفسير البيضاوي: ٩٤/١.
(٦) تفسير الراغب الأصفهاني: ١/ ٢٦١.
(٧) صفوة التفاسير: ٧٠/١.
(٨) صفوة التفاسير: ٧٠/١.

قوله تعالى: { خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ}[البقرة:٩٣]، " أي قلنا لهم: خذوا ما أمرتم به في التوراة بجد"[١].

قال الصابوني:" أي بعزمٍ وحزم وإلاّ طرحنا الجبل فوقكم"[٢].

قوله تعالى:{ وَاسْمَعُوا}[البقرة:٩٣]، "أي استجيبوا وأطيعوا"[٣].

قال البيضاوي: أي:" سماع طاعة"[٤].

قال الصابون:" أي سماع طاعة وقبول"[٥].

قال الثعلبي:" سميت الطاعة سمعا على المجاز، لأنّه سبب الطّاعة والإجابة ومنه قولهم: سمع الله لمن حمده أي أجابه، وقال الشاعر[٦]:

دعوتُ اللهَ حتى خِفتُ أن لا يكونَ اللهُ يَسْمَعُ ما أقولُ

أي يجب"[٧].

قوله تعالى:{قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا}[البقرة:٩٣]،أي:" قالُوا: سَمِعْنا قولك وَعَصَيْنا أمرك"[٨].

قال الراغب:" أي: فهمنا قولك ولم نأتمر لك"[٩].

قال إسماعيل بن أبي خالد:" يقول: قد سمعنا ما تقول وعصيناك"[١٠].

وذكر أهل المعاني في قوله تعالى: { قالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا}[البقرة:٩٣]، وجهين[١١]:

الأول: أن معناه: قالُوا سَمِعْنا قولك. وَعَصَيْنا أمرك. وهو المشهور.

والثاني: سمعنا بالآذان وعصينا بالقلوب. قاله الحسن[١٢].

ومعنى {وَاسْمَعُوا}، أي: أطيعوا، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط، وإنما المراد اعلموا بما سمعتم والتزموه، ومنه قولهم : "سمع الله لمن حمده"[١٣]، أي قبل وأجاب، قال الشاعر[١٤]:

دعوت الله حتى خفت ألا يكون الله يسمع ما أقول

فقوله (يسمع الله ما أقول)، أي: يقبل ما أقول[١٥].

وقال الراجز[١٦]:

السمع والطاعة والتسليم خير وأعفى لبني تميم

---

(١) تفسير البيضاوي: ٩٤/١.
(٢) صفوة التفاسير: ٧٠/١.
(٣) تفسير الثعلبي:٢٣٦/١.
(٤) تفسير البيضاوي: ٩٤/١.
(٥) صفوة التفاسير: ٧٠/١.
(٦)البيت، لشمير بن الحارث الضبي، في "تاج العروس" ١١/ ٢٢٧ (مادة: سمع)، و"نوادر أبي زيد" ص ١٢٤، وبلا نسبة في "تفسير الثعلبي" ١/ ١٠٣٤ و"لسان العرب" ٤/ ٢٠٩٥.
(٧) تفسير الثعلبي:٢٣٦/١.
(٨) تفسير البيضاوي: ٩٤/١.
(٩) المفردات:٤٢٥.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٣٠):ص١٧٦/١.
(١١) انظر: تفسير الثعلبي:٢٣٦/١. والمعنى الثاني مكتوب على هامش المخطوط، كما قال المحقق.
(١٢)ذكره في الواحدي في الوسيط" ١/ ١٧٦، وذكره أبو حيان في البحر المحيط: ١/ ٣٠٨ ولم ينسبه.
(١٣) قال الخطابي: "قول(لا يسمع) معناه: لا يجاب، ومن هذا قول المصلي(سمع الله لمن حمده)، يريد استجاب الله دعاء من حمده.(مختصر سنن أبي داود، ومعه معالم السنن:١٦٠/٢).
(١٤) البيت لشُمير بن الحارث، انظر: النوادر: ١٢٤، والزاهر: ١٥٤/١،
(١٥) قال الخطابي: وعلى هذا المعنى يتأول قوله تعالى: {فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} [الروم : ٥٢]، يريد -والله أعلم- الكفار: أي انك لا تقدر أن تهديهم وتوفقهم لقبول الحق، وقد كانوا يسمعون كلام الله بآذانهم إذا تلي عليهم إلا انهم إذا لم يقبلوه، صاروا كأنهم لم يسمعوه، كما قال الشاعر: أصم عما ساءه سميع".(غريب الحديث: ٣٤٢/١).
(١٦)قائلة رجل من ضبة ، من بني ضرار يدعى جبير بن الضحاك ، ومن خبره أن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي والي البصرة في سنة ٥٥ ، خطب على منبرها فحصبه جبير هذا ، فأمر به عبد الله بن عمرو فقطعت يده . فقال الرجز . ورفعوا الأمر إلى معاوية فعزله (تاريخ الطبري ٦ : ١٦٧) .

قوله: (السمع)، قبول ما يسمع، و(الطاعة) لما يؤمر، فكذلك معنى قوله : (واسمعوا)، اقبلوا ما سمعتم واعملوا به[١].

واختلف المفسرون في قوله تعالى{ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا}[البقرة:٩٣]، على وجهين[٢]:

أحدهما: أنه صدر منهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقا. وهذا قول الجمهور[٣].

قال الرازي:" الأكثرون من المفسرين[٤] اعترفوا بأنهم قالوا هذا القول"[٥].

والثاني: إنّهم لم يقولوا هذا بألسنتهم، ولكن لما سمعوا الأمر وتلقوه بالعصيان نسب ذلك عنهم إلى القول أتساعا، ومنه قول الشاعر[٦]:

ومَنْهَلٍ ذِبَّانُه في غَيْطَلِ يَقُلْنَ للرائدِ أعْشَبْتَ انْزِلِ

أي أنهم فعلوا فعلا قام مقام القول، فيكون مجازا، ومن ذلك قول الشاعر [٧]:

امْتَلأَ الحَوْضُ وَقالَ قَطْنِي مَهْلا رُوَيْدا قَدْ مَلأْتَ بَطْني

وقال امرؤ القيس[٨]:

نواعِمُ يُتْبعنَ الهوى سُبُلَ الردَى يقلن لأهل الحِلم ضُلًّا بَتْضلال

قالوا: المعنى: يُضللن ذا الحلم، وليس الغرض حكاية قولهن[٩].

قال أبو مسلم: "وجائز أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالعصيان، فعبر عن ذلك بالقول وإن لم يقولوه كقوله تعالى: {أن يقول له كن فيكون}[البقرة: ١٧٧]، وكقوله: {قالتا أتينا طائعين} [فصلت: ١١]"[١٠].

والراجح هو القول الأول، لأن القول بالمجاز، هو صرف الكلام عن ظاهره بغير الدليل، وهذا لا يجوز. والله أعلم.

قال الرازي: " إن إظلال الجبل لاشك أنه من أعظم المخوفات ومع ذلك فقد أصروا على كفرهم وصرحوا بقولهم {سمعنا وعصينا} وهذا يدل على أن التخويف وإن عظم لا يوجب الانقياد"[١١].

قوله تعالى:{وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ}[البقرة:٩٣]، "أي خالط حبُّه قلوبهم، وتغلغل في سويدائها بسبب كفرهم"[١٢].

قال البيضاوي:أي:" تداخلهم حبه ورسخ في قلوبهم صورته، لفرط شغفهم به، كما يتداخل الصبغ الثوب، والشراب أعماق البدن"[١]. واختلف أهل العلم في قوله تعالى:{وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ}[البقرة:٩٣]، على وجهين[٢]:

([١]) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٧/٢.

([٢]) انظر: تفسير القرطبي: ٣١/٢.

([٣])بنحوه عن ابن عباس كما في "البحر المحيط" ١/ ٣٠٨ واستحسنه أبو حيان قال: لأنا لا نصير إلى التأويل مع إمكان حمل الشيء على ظاهره لا سيما إذا لم يقم دليل على خلافه اهـ. وحكى الواحدي في "الوسيط" ١/ ١٧٦ أن المفسرين اتفقوا على أنهم قالوا (سمعنا) لما أطل الجبل فوقهم، فلمَّا كشف عنهم قالوا (عصينا).

([٤]) وبه قال الإمام الطبري: " وأما قوله : (قالوا سمعنا) ، فإنه خبر من الله - عن اليهود الذين أخذ ميثاقهم أن يعملوا بما في التوراة ، وأن يطيعوا الله فيما يسمعون منها - أنهم قالوا حين قيل لهم ذلك : سمعنا قولك ، وعصينا أمرك".(تفسير الطبري: ٢٥٧/٢).

([٥]) مفاتيح الغيب: ٦٠٤/٣.

([٦])البيت لأبي النجم العِجْلي. ينظر: "الحيوان" ٣/ ٣١٤ و ٧/ ٢٥٩، وذكر الشطر الآخر منه "تهذيب اللغة" ٣/ ٢٤٤٨، "اللسان" ٥/ ٢٩٥١، "التاج" ٢/ ٢٣٣، وذكره الثعلبي في "تفسيره" ١/ ٢٣٦ بلا نسبة. والغيطل: شجر ملتف أو عشب ملتف.

(٧)الرجز بلا نسبة في إصلاح المنطق ص٥٧، ٣٤؛ وأمالي المرتضى ٢/ ٣٠٩؛ وتخليص الشواهد ص١١١؛ وجواهر الأدب ص١٥١؛ والخصائص ١/ ٢٣؛ ورصف المباني ص٣٦٢؛ وسمط اللآلي ص٤٧٥؛ وشرح المفصل ١/ ٨٢، ٢/ ١٣١، ٣/ ١٢٥؛ وكتاب اللامات ص١٤٠؛ ولسان العرب ٧/ ٣٨٢ "قطط"، ١٣/ ٣٤٤ "قطن"؛ ومجالس ثعلب ص١٨٩؛ والمقاصد النحوية ١/ ٣٦١.

([٨]) ديوانه:١٢٦.

([٩]) انظر: التفسير البسيط: ١٦٠/٣.

([١٠]) مفاتيح الغيب: ٦٠٤/٣.

([١١]) مفاتيح الغيب: ٦٠٤/٣.

([١٢]) صفوة التفاسير: ٧٠/١.

أحدهما: أن معناه: وأشربوا في قلوبهم حب العجل، فقوله تعالى: {وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ}، أي: حل فيها محل الشرب وقبلوه، يقال: ثوب مشرب أي: مصبوغ[٣].

وهذا قول الجمهور: كقتادة[٤]، وأبي العالية[٥]، والربيع[٦]، وذهب إلي الفراء[٧]، والزجاج[٨]، وابن قتيبة[٩]، وأبو عبيدة[١٠]، والطبري[١١]، والواحدي[١٢]، وابن الجوزي[١٣]، والزمخشري[١٤]، واالبيضاوي[١٥]، والرازي[١٦]، وابن عطية[١٧]، والقرطبي[١٨]، والسمين الحلبي[١٩]، وغيرههم

والثاني: أن المعنى: أنهم سقوا الماء الذي ذري فيه سحالة العجل. قاله علي بن أبي طالب[٢٠]، وسعيد بن جبير[٢١]، والسدي[٢٢].

قال الحافظ ابن حجر: "وهو[٢٣] من مجاز الحذف[٢٤]، أي: أشربوا في قلوبهم حب العجل، ومن قال إن العجل أحرق ثم ذري في الماء فشربوه[٢٥] فلم يعرف كلام العرب؛ لأنها لا تقول في الماء أشرب فلان في قلبه"[٢٦].

والراجح-والله أعلم- هو القول الأول، وهو قول الجمهور، وأن قوله تعالى{وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ}، من مجاز الحذف[٢٧]، أي: أشربوا في قلوبهم حب العجل.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٩٤/١.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٧/٢-٣٥٨.
(٣) انظر: الكشاف للزمخشري: ٢٩٧/١، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٧٠/١، وقال السمين الحلبي في الدر المصون: ٣٠٥/١. والإشراب: مخالطة المائع بالجامد ثم اتسع فيه حتى قيل في الألوان نحو: أشرب بياضه حمرة، والمعنى: أنهم دَاخَلَهم حب عبادته كما داخل الصبغ الثوب.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٣٤):ص١٧٦/١.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٣٥):ص١٧٦/١.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٣٦):ص١٧٦/١.
(٧) انظر: معاني القرآن: ٦١/١.
(٨)انظر:معاني القرآن: ١٧٥/١.
(٩)انظر: تفسير غريب القرآن: ٥٨.
(١٠)انظر: مجاز القرآن: ٤٧/١.
(١١)انظر: تفسير الطبري: ٣٥٧/٢-٣٥٨.
(١٢)انظر: الوسيط: ١٧٦/١.
(١٣)انظر: زاد المسير: ١١٥/١-١١٦
(١٤)انظر: الكشاف: ٢٩٧/١.
(١٥) تفسير البيضاوي: ٩٤/١.
(١٦)انظر:مفاتيح الغيب: ٦٠٤/٣.
(١٧)انظر: المحرر الوجيز: ٢٩٥/١.
(١٨)انظر: تفسير القرطبي: ٣٢/٢.
(١٩)انظر:الدر المصون: ٣٠٥/١-٣٠٦.
(٢٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٣١):ص١٧٦/١.
(٢١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٣٢):ص١٧٦/١.
(٢٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٣٣):ص١٧٦/١.
(٢٣) أي قوله تعالى: {وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ}.
(٢٤) أي: حذف المضاف، انظر: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام: ١١، وكتاب الطراز ليحيى بن حمزة العلوي: ١٠٥/٢-١٠٦، وحذف المضاف هنا لدلالة الكلام عليه لأن القلوب لا يصح وصفها بتشرب العجل على الحقيقة، انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي: ٧.
(٢٥) نسب هذا القول إلى سعيد بن جبير والسدي وابن جريج، وهو قول ضعيف، وهو من الإسرائيليات الصريحة، انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٨٣/١ وجامع البيان للطبري: ٣٥٧/٢-٣٥٨ وغيرهما.
(٢٦)الفتح: ٤٩٦/٦.
(٢٧) أي: حذف المضاف، انظر: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام: ١١، وكتاب الطراز ليحيى بن حمزة العلوي: ١٠٥/٢-١٠٦، وحذف المضاف هنا لدلالة الكلام عليه لأن القلوب لا يصح وصفها بتشرب العجل على الحقيقة، انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي: ٧.

فيقال منه : أشرب قلب فلان حب كذا، بمعنى سقي ذلك حتى غلب عليه وخالط قلبه، كما قال زهير[١]:

فصحوت عنها بعد حب داخل والحب يُشْرَبُه فؤادُك داء

فالشاعر ترك ذكر (الحب) اكتفاء بفهم السامع لمعنى الكلام، إذ كان معلوما أن العجل لا يُشرِب القلب، وأن الذي يشرب القلب منه حبه، كما قال جل ثناؤه : {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأعراف : ١٦٣]، {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [يوسف : ٨٢]، وكما قال طرفة بن العبد[٢]:

ألا إنني سُقِّيت أسود حالكا ألا بَجَلِي من الشراب ألا بَجَل

يعني بذلك سُمّا أسود، فاكتفى بذكر (أسود)، عن ذكر (السم)، لمعرفة السامع معنى ما أراد بقوله : سقيت أسود. ويروى :

ألا إنني سقيت أسود سالخا [٣]

وقد تقول العرب : " إذا سرك أن تنظر إلى السخاء فانظر إلى هرم، أو إلى حاتم "، فتجتزئ بذكر الاسم من ذكر فعله، إذا كان معروفا بشجاعة أو سخاء أو ما أشبه ذلك من الصفات، ومنه قول الشاعر[٤] :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة وإن جهادا طيئ وقتالها[٥]

قوله تعالى: {قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ}[البقرة:٩٣]، " أي قل لهم على سبيل التهكم بهم بئس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل"[٦].

قال الرازي:"المراد "بئسما يأمركم به إيمانكم بالتوراة، لأنه ليس في التوراة عبادة العجل وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم كما قال في قصة شعيب: {أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ..} [هود : ٨٧]، وكذلك إضافة الإيمان إليهم، والإيمان عرض ولا يصح منه الأمر والنهي، لكن الداعي إلى الفعل قد يشبه بالآمر كقوله تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ.. } [العنكبوت : ٤٥]"[٧].

---

(١)ديوانه : ٣٣٩ ، وهو هناك " تشربه " بضم التاء وسكون الشين وكسر الراء ونصب " فؤادك " ، وشرحه فيه دليل على ذلك ، فإنه قال : " تدخله " وقال : " تشربه " تلزمه ولكن استدلال الطبري ، كما ترى يدل على ضبطه مبنيا للمجهول ، ورفع " فؤادك " . وحب داخل ، وداء داخل : قد خالط الجوف فأدخل الفساد على العقل والبدن .

(٢)ديوانه : ٣٤٣ (أشعار الستة الجاهليين) ، ونوادر أبي زيد : ٨٣ ، واللسان (سود) . واختلف فيما أراد بقوله : " أسود " . قيل : الماء ، وقيل : المنية والموت . قال أبو زيد في نوادره : " يقال ما سقاني فلان من سويد قطرة ، (سويد : بالتصغير) هو الماء ، يدعى الأسود " . واستدل بالبيت . والصواب في ذلك أن يقال كما قال الطبري ، ويعني به : سوء ما لقى من هم وشقاء حالك في حب صاحبته الحنظلية ، التي ذكرها في شعره هذا قبل البيت :

فقل لخيال الحنظلية ينقلب إليها ، فإني واصل حبل من وصل

ألا إنما أبكى ليوم لقيته بجرثم قاس ، كل ما بعده جلل

إذا جاء ما لا بد منه فمرحبا به حين يأتي - لا كذاب ولا علل

ألا إنني . . . .

ويروى : " ألا بجلى من الحياة " ، وهي أجود . . ورواية الديوان واللسان : (ألا إنني شربت) ، والتي هنا أجود . وقوله : " بجل " ، أي حسبي ما سقيت منك ومن الحياة .(تفسير الطبري: ٣٥٩/٢).

(٣)السالخ من الحيات : الأسود الشديد السواد ، وهو أقتل ما يكون إذا سلخ جلده في إبانه من كل عام .

(٤) البيت لهرم بن سنان ، صاحب زهير بن أبي سلمى ، وحاتم : هو الطائي الذي لا يخفى له ذكر . انظر: معاني القرآن للفراء ١ : ٦١ - ٦٢،، ومجالس ثعلب : ٧٦ ، واللسان (غزا) ، ونسبه لجميل ، ولا أظنه إلا أخطأ ، لذكر جميل في البيت ، ولمشابهته لقول جميل : يقولون :

جاهد يا جميل بغزوة! وأي جهاد غيرهن أريد؟

ولكن البيت من شعر آخر ، لم أهتد إليه بعد البحث ، ويريد الأول : وإن الجهاد جهاد طيئ وقتالها ، فحذف واجتزأ .

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٨/٢-٣٥٩.

(٦) صفوة التفاسير: ٧٠/١.

(٧) مفايح الغيب: ٦٠٥/٣.

قال الواحدي:" فبئس الإيمان إيمانٌ يأمر بالكُفْر، وهذا تكذيب لهم؛ لأنهم كانوا يزعمون أنهم مؤمنون، وذلك أنهم قالوا: {نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا}، فكذّبهم الله عز وجل، وعيَّرهم بعبادة العجل، وذلك أنّ آباءهم ادعوا الإيمان ثم عبدوا العجل"[١].

قال المراغي:أي:" فبئس هذا الإيمان الذي يأمر بهذه الأعمال التي أنتم تفعلونها كعبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق ، فهذه دعوى لا تقبل منكم ، بل يجب القطع بعدم وجودها ، بدليل ما يصدر عنكم من الأعمال التي يستحيل أن تكون أثرا للإيمان"[٢].

قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[البقرة:٩٣]، " أي إن كنتم تزعمون الإيمان"[٣].

قال الصابوني:" والمعنى: لستم بمؤمنين لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل"[٤].

قال الرازي:" المراد التشكيك في إيمانهم والقدح في صحة دعواهم"[٥].

قال القاسمي:" قدح في صحة دعواهم. فإن الإيمان إنما يأمر بعبادة الله وحده لا بشركة العبادة لما هو في غاية البلادة. فهو غاية الاستهزاء، وحاصل الكلام: إن كنتم مؤمنين بها عاملين، فيما ذكر من القول والعمل، بما فيها، فبئسما يأمركم به إيمانكم بها. وإذ لا يسوغ الإيمان بها مثل تلك القبائح فلستم بمؤمنين بها قطعا. فجواب الشرط محذوف، كما ترى، لدلالة ما سبق عليه"[٦].

قال الواحدي: وقوله تعالى: {يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ}من المجاز وسعة العربية؛ لأن الإيمان لا يأمُر، وهو كقوله: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٤٥]، وكما تقول في الكلام: بئسما يأمرك العقل بشتم الناسِ، معناه: إن كنْتَ عاقلًا لم تشتمهم، كذلك المعنى في الآية: لو كنتم مؤمنين ما عبدتم العجل"[٧].

و(السَّمْعُ): قوّة في الأذن به يدرك الأصوات، وفعله يقال له السَّمْعُ أيضا، وقد سمع سمعا"[٨].

ومن جماليات الأسلوب القرآني، استخدام كلمة(السمع) لمعنيين مختلفين؛ وهى نكتة لغوية دلالية تحل كثيرا من الإشكاليات؛ كما في قوله تعالى: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ}[الأنفال: ٢١]، وقد ذكر الراغب المعنيين، وهما:

الأول:التعبير بالسمّع عن (الأذن)، ومنه قوله تعالى:{خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ} [البقرة: ٧]، أي على آذانهم فلا يسمعون، وقد يكون المقصود المصدر، كما عُبِّر عن فعل السَّمَاعِ في قوله تعالى: {إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ}[الشعراء: ٢١٢]، وقال تعالى:{أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}[ق: ٣٧].

والثاني: التعبير بالسمع عن (الفهم)، قال تعالى: {وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا} [الأنفال: ٣١]، وقوله تعالى:{سَمِعْنا وَعَصَيْنا}[النساء:٤٦]، أي: فهمنا قولك ولم نأتمر لك، وكذلك قوله: {سَمِعْنا وَأَطَعْنا }[البقرة:٢٨٥]، أي: فهمنا وامتثلنا [٩].

الفوائد.:

١. من فوائد الآية: أن الله تعالى أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالإيمان؛ لقوله تعالى: { وإذ أخذنا ميثاقكم... } إلخ..

٢.ومنها: أن بني إسرائيل ما آمنوا إلا عن كره؛ لأنهم لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور..

٣. ومنها: بيان قدرة الله عزّ وجلّ..

---

(١) التفسير البسيط: ١٦٢/٣.
(٢) تفسير المراغي: ١٧٢/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٧٠/١.
(٤) صفوة التفاسير: ٧٠/١.
(٥) مفايح الغيب: ٦٠٥/٣.
(٦) محاسن التأويل: ٣٥٣/١.
(٧) التفسير البسيط: ١٦٣/٣.
(٨)المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ٤٢٥.
(٩) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ٤٢٥-٤٢٧.(بتصرف بسيط).

٤. ومنها: أن أمر الكون كله بيد الله عزّ وجلّ، وأنه سبحانه وتعالى قادر على خرق العادات؛ لقوله تعالى: { ورفعنا فوقكم الطور..
٥. ومنها: وجوب تلقي شريعة الله بالقوة دون الكسل والفتور، لقوله تعالى: { خذوا ما آتيناكم بقوة }.
٦. ومنها: بيان عتوّ بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: { قالوا سمعنا وعصينا }؛ وهذا أبلغ ما يكون في العتوّ؛ لأنه كان يمكن أن يكون العصيان عن جهل؛ لكنهم قالوا: { سمعنا وعصينا }..
٧. ومنها: أن السمع نوعان: سمع استجابة، وسمع إدراك؛ مثال الأول: { خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا }؛ ومثال الثاني:{سمعنا وعصينا}
٨. ومنها: أن المؤمن حقاً لا يأمره إيمانه بالمعاصي؛ لقوله تعالى: { إن كنتم مؤمنين} يعني إن كنتم مؤمنين حقاً ما اتخذتم العجل إلهاً..
٩. ومنها: أن الشر لا يسنده الله تعالى إلى نفسه؛ بل يذكره بصيغة المبني لما لم يُسمَّ فاعله؛ لقوله تعالى: { وأشربوا في قلوبهم }؛ ولهذا نظير من القرآن، كقوله تعالى: {وأنَّا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً} [الجن: ١٠] ؛ والنبي ﷺ يقول: "والشر ليس إليك"[١] ؛ فالشر في المفعول. لا في الفعل؛ الخير والشر كل من خلْق الله عزّ وجلّ؛ لكن الشر بالنسبة لإيجاد الله له هو خير، وليس بشر؛ لأن الله سبحانه وتعالى ما أوجده إلا لحكمة بالغة، وغاية محمودة . وإن كان شراً . لكن الشر في المفعولات. أي المخلوقات؛ وأما نفس الفعل فهو ليس بشر؛ أرأيت الرجل يكوي ابنه بالنار . والنار مؤلمة محرقة . لكنه يريد أن يُشفى . فهذا المفعول الواقع من الفاعل شر مؤلم محرق لكن غايته محمودة . وهو شفاء الولد؛ فيكون خيراً باعتبار غايته..
١٠. ومن فوائد الآية: أن الله تعالى قد يبتلي العبد، فيملأ قلبه حباً لما يكرهه الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {وأشربوا في قلوبهم العجل}.
١١. ومنها: أن الإيمان الحقيقي لا يحمل صاحبه إلا على طاعة الله؛ لقوله تعالى:{قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين}.

القرآن

{قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)} [البقرة : ٩٤]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لليهود الذين يدَّعون أن الجنة خاصة بهم؛ لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس، وأنهم أبناؤه وأحباؤه: إن كان الأمر كذلك فادْعُوا على الكاذبين منكم أو من غيركم بالموت، إن كنتم صادقين في دعواكم هذه.

في سبب نزول الآية: قال الله تعالى لليهود: {إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت}، فلم يفعلوا حيث قالوا:{لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى}، وقالوا: {نحن أبناء الله وأحباؤه}، فقال الله لهم ذلك"[١]. وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك[٢].

قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً}[البقرة:٩٤]، أي" قل يا محمد: إن كان نعيم الدار الآخرة ولذاتها لكم يا معشر اليهود عند الله"[٣] خاصة.

قال الصابوني:" أي قل لهم يا محمد إن كانت الجنة لكم خاصة كما زعمتم"[٤].

قال السعدي:" يعني الجنة،كما زعمتم، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة"[١].

---

[١] سبق تخريجه ص٣٠٤.

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٣٥):ص١٧٧/١.
[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٧٧/١.
[٣] تفسير الطبري: ٣٦٥/٢.
[٤] صفوة التفاسير: ٧٠/١.

قال ابن عطية:" أمر محمد ﷺ أن يوبخهم، والمعنى: إن كان لكم نعيمها وحظوتها وخيرها فذلك يقتضي حرصكم على الوصول إليها"[٢].

واختلف في قوله تعالى:{خَالِصَةً}[البقرة:٩٤]، على قولين[٣]:

الأول: معناه: صافية. كما يقال : خلص لي فلان، بمعنى صار لي وحدي وصفا لي. قاله الطبري[٤].

والثاني: معناه: خاصة، قاله ابن عباس[٥]، واختاره الثعلبي[٦]، ومنه قوله تعالى: { خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا}[الأنعام:١٣٩]، وقوله:{ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[الأعراف:٣٢]، وقوله:{ خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ }[الأحزاب:٥٠]، " أي خاصة من دون الناس"[٧].

قال الطبري: "وذلك تأويل قريب من المعنى الأول"[٨].

قوله تعالى: {مِنْ دُونِ النَّاسِ}[البقرة:٩٤]، أي:" من دون جميع الناس"[٩].

قال الصابوني: أي:"لا يشارككم في نعيمها أحد"[١٠].

واختلف في قوله تعالى: {مِنْ دُونِ النَّاسِ}[البقرة:٩٤]، على قولين[١١]:

أحدهما : من دون الناس جميعهم، ويبين أن ذلك كان قولهم - من غير استثناء منهم من ذلك أحدا من بني آدم - إخبار الله عنهم أنهم قالوا :{ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [البقرة : ١١١]. وهذا قول الجمهور.

والثاني : من دون محمد وأصحابه الذين آمنوا به ، وهذا قول ابن عباس[١٢].

قوله تعالى:{ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ} [البقرة : ٩٤]،" أي اطلبوا حصوله"[١٣].

قال الثعلبي:" أي فأريدوا وحلوه لأن من علم أن الجنة مآبه حن إليها ولا سبيل إلى دخولها إلا بعد الموت فاستعجلوه بالتمني"[١٤].

قال المراغي:" أي: تشوفوا له واجعلوا نفوسكم ترتاح إليه وتود المصير إليه"[١٥].

قال ابن عباس:" أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ"[١٦].

قال ابن عباس أيضا:"لو تمنى اليهود الموت لماتوا"[١٧].

---

(١) تفسير السعدي: ٥٩.
(٢) المحرر الوجيز: ١٨١/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٥/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٥/٢.
(٥) أخرجه الطبري(١٥٧٥):ص٣٦٥/٢.
(٦) انظر: تفسير الثعلبي:٢٣٧/١.
(٧) تفسير الثعلبي:٢٣٧/١.
(٨) تفسير الطبري: ٣٦٥/٢.
(٩) تفسير الطبري: ٣٦٦/٢.
(١٠) صفوة التفاسير: ٧٠/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٥/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٥٧٦):ص٣٦٦/٢.
(١٣) تفسير ابن عثيمين: ٣٠٧/١.
(١٤) تفسير الثعلبي:٢٣٧/١.
(١٥) تفسير المراغي: ١٧٠/١.
(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٣٧):ص١٧٧/١، وفي رواية أخرى أخرده الطبري عنه(١٥٧٧):ص٣٦٦/٢:" فسلوا الموت". قال الطبري:" ولا يعرف " التمني " بمعنى " المسألة " في كلام العرب. ولكن أحسب أن ابن عباس وجه معنى " الأمنية " - إذ كانت محبة النفس وشهوتها - إلى معنى الرغبة والمسألة ، إذْ كانت المسألة ، هي رغبة السائل إلى الله فيما سأله".[تفسير الطبري: ٣٦٦/٢].
(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٣٨):ص١٧٧/١، وفي رواية(٩٣٦):ص١٧٧/١:" لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه"، وأخرجه الطبري(١٥٦٦):ص٣٦٢/٢، وبزيادة:" ولرأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ ، لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا ". وفي رواية أخرى عن ابن عباس أيضا:" لو تمنوه يوم قال ذلك لهم ، ما بقي على ظهر الأرض يهودي إلا مات".[أخرجه الطبري(١٥٧٠:ص٣٦٣/٢].

وقرأ ابن أبي إسحاق بكسر الواو من {تمنوا} للالتقاء، وحكى الأهوازي عن أبي عمرو أنه قرأ {تمنوا الموت} بفتح الواو، وحكي عن غيره اختلاس الحركة في الرفع، وقراءة الجماعة بضم الواو[١].

قوله تعالى:{ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة : ٩٤]، "أي إن صدق قولكم ، وصحت دعواكم"[٢].

قال الثعلبي: أي" في قولكم، محقين في دعواكم"[٣].

قال أبو العالية:" {إن كنتم صادقين} بما تقولون إنه كما تقولون"[٤].

قال ابن عثيمين:" أي في دعواكم أن الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس؛ لأنها حينئذٍ تكون لكم خيراً من الدنيا؛ فتمنوا الموت لتصلوا إليها؛ وهذا تحدٍ لهم؛ ولهذا قال الله تعالى هنا: {ولن يتمنوه أبداً} ؛ وفي سورة الجمعة قال تعالى: {ولا يتمنونه أبداً} [الجمعة: ٧] وذلك؛ لأنهم يعلمون كذب دعواهم أن لهم الدار الآخرة خالصة"[٥].

اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله أمر الله نبيه ﷺ أن يدعو اليهود أن يتمنوا الموت، وعلى أي وجه أمروا أن يتمنوه[٦]:

الأول: أن الله تعالى أمر نبيه -ﷺ- أن يتحداهم بأنه إن كانت الدار الآخرة لهم كما يزعمون، فليتمنوا الموت لِيَصِلوا إليها.

وهذا قول قتادة[٧]، وأبو العالية[٨]، والربيع[٩]، رجّحه الطبري[١٠] وكثير من المفسرين.

والثاني: أن المراد به المباهلة، أمروا أن يتمنوه على وجه الدعاء على الفريق الكاذب منهما، فما دعوا لعلمهم بكذبهم. روي ذلك عن ابن عباس[١١]. ورجّحه ابن كثير.

ورجح هذا ابن كثير؛ وضعف الأول بأنه لو كان المراد: {تمنوا}، حصول الموت لكانوا يحتجون أيضاً علينا نحن، ويقولون: أنتم أيضاً إن كنتم تقولون: إن الدار الآخرة لكم فتمنوا الموت؛ لأن تحديكم إيانا بذلك ليس بأولى من تحدينا إياكم به؛ لأنكم أنتم أيضاً تقولون: إن الدار الآخرة لكم، وأن اليهود بعد بعثة الرسول ﷺ في النار؛ فتمنوا الموت أنتم أيضاً[١٢].

وأجاب شيخنا ابن عثيمين على هذا الإشكال، فقال:" والجواب عن ذلك أنا لم ندع أن الدار الآخرة خالصة لنا من دون الناس؛ بل نؤمن بأن الدار الآخرة لكل من آمن وعمل صالحاً سواء كان من هذه الأمة أم من غيرها؛ وهذا المعنى الذي نحا إليه ابن كثير. رحمه الله. مخالف لظاهر السياق؛ فلا يعوَّل عليه؛ وقد عرفت الانفكاك منه"[١٣].

والراجح هو القول الأول، لأنه يدلّ عليه ظاهر الآية، وهو الأقرب إلى موافقة اللفظ، وبه قال جماعة من أهل التفسير.والله أعلم.

قال الطبري:" فامتنعت اليهود من إجابة النبي ﷺ إلى ذلك، لعلمها أنها تمنت الموت هلكت، فذهبت دنياها، وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها. كما امتنع فريق النصارى - الذين جادلوا النبي ﷺ في عيسى، إذْ دعوا إلى المباهلة - من المباهلة، فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : " لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١٨١/١.

(٢) تفسير المراغي: ١٧٢/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ٢٣٧/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٣٩):ص١٧٧/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين:٣٠٧/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٥/٢. وانظر: تفسير الرازي: ١٧٥/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٥٧٢):ص٣٦٤/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٥٧٣):ص٣٦٤/٢-٣٦٥.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٥٧٤):ص٣٦٥/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:٣٦٤/٣.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٥٧١):ص٣٦٤/٢.
(١٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٣٢/١.[بتصرف بسيط].
(١٣) تفسير ابن عثيمين:٣٠٨/١.

مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ، لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا"[١]... فانكشف - لمن كان مشكلا عليه أمر اليهود يومئذ - كذبهم وبهتهم وبغيهم على رسول الله ﷺ، وظهرت حجة رسول الله وحجة أصحابه عليهم، ولم تزل والحمد لله ظاهرة عليهم وعلى غيرهم من سائر أهل الملل"[٢].

الفوائد:

١. من فوائد الآيات: تكذيب اليهود الذين قالوا: "لنا الآخرة، ولكم الدنيا، لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة"؛ ووجهه: أن الله تعالى قال لهم: { فتمنوا الموت }، وقد قال تعالى: { ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم.

٢. ومنها: أنه إذا جاء الموت، فإن المؤمن يحب لقاء الله، لأنه قدّم أعماله الصالحة أمامه، وقد روي عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكِ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءهُ "[٣].

القرآن

{وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)} [البقرة : ٩٥]

التفسير:

ولن يفعلوا ذلك أبدًا؛ لما يعرفونه من صدق النبي محمد ﷺ ومن كذبهم وافترائهم، وبسبب ما ارتكبوه من الكفر والعصيان، المؤَدِّيَيْن إلى حرمانهم من الجنة ودخول النار. والله تعالى عليم بالظالمين من عباده، وسيجازيهم على ذلك.

قوله تعالى: {وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا}[البقرة:٩٥]، أي:" لن يتمنوه ما عاشوا"[٤].

قال الصابوني:"أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام"[٥].

قال الواحدي:" وذلك أنهم كفروا، وعرفوا أنهم كَفَرة، ولا نصيب لهم في الجنة؛ لأنهم تعمدوا كتمانَ أمر النبي - ﷺ - وتكذيبَه"[٦].

قال ابن عثيمين:" وذلك؛ لأنهم يعلمون كذب دعواهم أن لهم الدار الآخرة خالصة"[١].

([١])الحديث : إسناده صحيح . ذكر سنده الإمام الطبري عن: أبو كريب قال ، حدثنا زكريا بن عدي قال ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ، و أبو كريب : هو محمد بن العلاء . زكريا بن عدي ابن زريق التيمي الكوفي : ثقة جليل ورع قال ابن سعد : " كان رجلا صالحا صدوقا " . وهو مترجم في التهذيب ، وفي الكبير للبخاري ٢ /١ / ٣٨٧ - ٣٨٨ ، والصغير : ٢٣٢ ، وابن سعد ٦ : ٢٨٤ ، وابن أبي حاتم ٦٠٠/٢/١ ، ووقع هنا في المطبوعة " أبو زكريا " وزيادة " أبو " خطأ من ناسخ أو طابع ، عبيد الله بن عمرو : هو أبو وهب الجزري الرقي ، ثقة معروف أخرج له أصحاب الكتب الستة ، وترجمته في التهذيب ، وابن سعد ٧ /٢ /١٨٢ ، والصغير للبخاري : ٢٠٣ ، وابن أبي حاتم ٢ /٢ / ٣٢٨ - ٣٢٩ . عبد الكريم : هو ابن مالك الجزري الحراني ، وهو ثقة ثبت صاحب سنة ، من شيوخ ابن جريج ومالك والثوري وأضرابهم . ترجمته في التهذيب ، والصغير للبخاري : ١٤٨ ، وابن أبي حاتم ٣ / ١ /٥٨ - ٥٩ .

والحديث رواه أحمد في المسند : ٢٢٢٦ ، عن أحمد بن عبد الملك الحراني ، عن عبيد الله ، وهو ابن عمرو ، بهذا الإسناد ، ولكن لم يذكر لفظه ، أحاله على الرواية قبله : ٢٢٢٥ ، من طريق فرات بن سلمان الحضرمي ، عن عبد الكريم ، به ، بزيادة في أوله . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨ : ٢٢٨ ، عن الرواية المطولة ، وقال : " في الصحيح طرف من أوله " ، ثم قال : " رواه أحمد ، أبو يعلى ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح " . أقول : ورجال أحمد في الإسناد : ٢٢٢٦ - رجال الصحيح أيضًا . وذكر السيوطي ١ : ٨٩ بعضه ، ونسبه أيضًا إلى الشيخين ، والترمذي ، والنسائي ، وابن مردويه ، وأبي نعيم .

([٢]) تفسير الطبري: ٣٦١/٢-٣٦٢.

([٣]) صحيح البخاري(٦٠٦٢).

([٤]) روح المعاني:٣٢٨/١.

([٥]) صفوة التفاسير: ٧٠/١.

([٦]) التفسير البسيط: ١٦٤/٣.

وفي تركهم إظهار التمني قولان [٢]:
أحدهما:أنهم علموا أنهم لو تمنوا الموت لماتوا ، كما قاله النبي-ﷺ-، فلذلك لم يتمنوه وهذا قول ابن عباس[٣].
الثاني : أن الله صرفهم عن إظهار التمني، ليجعل ذلك آية لنبيه-ﷺ-. روي عن الحسن[٤] نحوه.
قوله تعالى:{بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}[البقرة:٩٥]،" بما أسلفته أيديهم"[٥].
قال الآلوسي:" أي بسبب ما عملوا من المعاصي الموجبة للنار كالكفر بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم، والقرآن، وقتل الأنبياء"[٦].
قال الواحدي:" أي: بما قدموه وعملوه، فأضاف ذلك إلى اليد، لأن أكثر جنايات الإنسان تكون بيده، فيضاف إلى اليد كل جناية، وإن لم يكن لليد فيها عمل، فيقال: هذا ما اجترحته يدك"[٧].
وقد ذكر أبو حيان في قوله تعالى: {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} [البقرة : ٩٥]، وجهين من التفسير[٨]:
الأول: كناية عما اجترحوه من المعاصي السابقة. ونسب التقديم لليد مجازاً ، والمعنى بما قدّموه ، إذ كانت اليد أكثر الجوارح تصرفاً في الخير والشر. وكثر هذا الاستعمال في القرآن : {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ} ، {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ} ، {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}.
والثاني: وقيل : المراد اليد حقيقة هنا ، والذي قدّمته أيديهم هو تغيير صفة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وكان ذلك بكتابة أيديهم.
قوله تعالى: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}[البقرة:٩٥]، "أي عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك"[٩].
روي عن ابن عباس في قوله {الظَّالِمِينَ}، قال:"الكافرين"[١٠].
وذكروا في تفسير قوله تعالى: {وَاللَّهُ عَلِيمًا بِالظَّالِمِينَ}[البقرة:٩٥]، وجهين[١١]:
أحدهما:أن هذه جملة خبرية، ومعناها : التهديد والوعيد ، وعلم الله متعلق بالظالم وغير الظالم. فالاقتصار على ذكر الظالم يدل على حصول الوعيد.
والثاني: معناه مجازيهم على ظلمهم ، فكنى بالعلم عن الجزاء.
قال ابن عاشور: وقوله تعالى {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}، "خبر مستعمل في التهديد لأن القدير إذا علم بظلم الظالم لم يتأخر عن معاقبته"[١٢] ومن ذلك قول زهير[١٣]:
فَلاَ تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
يقول: لا تخفوا من الله ما تضمرون من الغدر ونقض العهد ليخفى على الله ، ومهما يكتم من شيء يعلمه الله ، يريد أن الله عالم بالخفيات والسرائر ولا يخفى عليه شيء من ضمائر العباد ، فلا تضمروا الغدر ونقض العهد فإنكم إن أضمرتموه علمه الله؛ وقوله : يكتم الله ، أي يكتم من الله.

---

[١] تفسير ابن عثيمين:٣٠٧/١.
[٢] انظر: النكت والعيون: ١٦٢/١.
[٣] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٤٠):ص١٧٧/١.
[٤] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٤١):ص١٧٨/١.
[٥] انظر: تفسير الطبري: ٣٦٧/٢.
[٦] روح المعاني: ٣٢٨/١.
[٧] التفسير البسيط: ١٦٤/٣.
[٨] انظر: البحر المحيط: ٢٦٨/١.
[٩] صفوة التفاسير: ٧٠/١.
[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٤٣):ص١٧٨/١.
[١١] انظر: البحر المحيط: ٢٦٨/١.
[١٢] تفسير ابن عاشور: ٦١٦/١.
[١٣] ديوانه: ١٨، وشرح القصائد: ٢٦٦.
يقول الشاعر: لا تخفوا من الله ما تضمرون من الغدر ونقض العهد ليخفى على الله ، ومهما يكتم من شيء يعلمه الله ، يريد أن الله عالم بالخفيات والسرائر ولا يخفى عليه شيء من ضمائر العباد ، فلا تضمروا الغدر ونقض العهد فإنكم إن أضمرتموه علمه الله؛ وقوله : يكتم الله ، أي يكتم من الله

قال أبو حيان:" وإنما ذكر الظالمين، لأن الظلم هو تجاوز ما حدّ الله، ولا شيء أبلغ في التعدّي من ادعاء خلوص الجنة لمن لم يتلبس بشيء من مقتضاتها ، وانفراده بذلك دون الناس"[١].

قال ابن عطية:" وقوله تعالى: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}، ظاهرها الخبر ومضمنها الوعيد، لأن الله عليم بالظالمين وغيرهم، ففائدة تخصيصهم حصول الوعيد"[٢].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أنَّ الكافر يكره الموت لما يعلم من سوء العاقبة؛ لقوله تعالى:{بما قدمت أيديهم}.
٢. ومنها: إثبات السببية . تؤخذ من الباء في قوله تعالى:{ بما قدمت أيديهم}.
٣. منها: إثبات علم الله تعالى للمستقبل؛ لقوله تعالى: { ولن يتمنوه أبداً }؛ فوقع الأمر كما أخبر به..
٤. ومنها: جواز تخصيص العموم لغرض؛ لقوله تعالى: { والله عليم بالظالمين } فخص علمه بالظالمين تهديداً لهم.

القرآن

{وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)} [البقرة : ٩٦]

التفسير:

ولتعلمَنَّ -أيها الرسول- أن اليهود أشد الناس رغبة في طول الحياة أيًّا كانت هذه الحياة من الذلَّة والمهانة، بل تزيد رغبتهم في طول الحياة على رغبات المشركين. يتمنى اليهودي أن يعيش ألف سنة، ولا يُبْعده هذا العمر الطويل إن حصل من عذاب الله. والله تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها بما يستحقون من العذاب.

قوله تعالى: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا}[البقرة:٩٦]، "أي ولتجدنَّ اليهود أشدّ الناس حرصاً على الحياة، وأحرص من المشركين أنفسهم، وذلك لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار لإجرامهم"[٣].

قال ابن عباس:" وذلك أن المشرك لا يرجو بعثا بعد الموت ، فهو يحب طول الحياة ؛ وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي ، بما ضيع مما عنده من العلم"[٤].

وقوله تعالى: {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا}، قيل : المعنى وأحرص، فحذف (من الذين أشركوا) لمعرفتهم بذنوبهم وألا خير لهم عند الله، ومشركو العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة ولا علم لهم من الآخرة، ألا ترى قول شاعرهم[٥]:

تمتع من الدنيا فإنك فان   من النشوات والنساء الحسان

وإنما قال: {عَلَى حَيَاةٍ}[البقرة:٩٦] بالتنكير، لأنه حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبي {على الحياة}[٦].

وذكروا في (الواو) في قوله تعالى:{ وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ}[البقرة:٩٦]، ثلاثة أقول [٧]:

أحدها: أنها (واو) عطف، والمعنى أن اليهود أحرص الناس على حياة وأحرص من الذين أشركوا كقولك: هو أسخى الناس ومن حاتم، وهذا قول الفراء والأصم.

فإن قيل: ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس؟ قلنا: بلى ولكنهم أفردوا بالذكر لأن حرصهم شديد وفيه توبيخ عظيم لأن الذين أشركوا ألا يؤمنون بالمعاد وما يعرفون إلا الحياة الدنيا فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها

---

(١) البحر المحيط: ٢٦٨/١.
(٢) المحرر الوجيز: ١٨١/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٧١/١.
(٤) أخرجه الطبري(١٥٩٠):ص٣٧١/٢.
(٥) البيت لامريء القيس، انظر: ديوانه: ٨٧.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٠٩/٣.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٠٩/٣.

جنتهم فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان حقيقيا باعظم التوبيخ، فإن قيل: ولم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلنا: لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك.

القول الثاني: أنها (واو) استئناف، وقد تم الكلام عند قوله: "على حياة" (و) تقديره ومن الذين أشركوا أناس يود أحدهم على حذف الموصوف كقوله: {وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ} [الصافات : ١٦٤].

القول الثالث: أن فيه تقديما وتأخيرا وتقديره: ولتجدنهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص الناس على حياة، ثم فسر هذه المحبة بقوله: {يود أحدهم لو يعمر ألف سنة} وهو قول أبي مسلم.

قال الرازي:" والقول الأول أولى لأنه إذا كانت القصة في شأن اليهود خاصة فالأليق بالظاهر أن يكون المراد: ولتجدن اليهود أحرص على الحياة من سائر الناس ومن الذين أشركوا ليكون ذلك أبلغ في إبطال دعواهم وفي إظهار كذبهم في قولهم، إن الدار الآخرة لنا لا لغيرنا. والله أعلم[١].

قوله تعالى:{ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ}[البقرة:٩٦]، " أي يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة"[٢].

قال قتادة:" قال : حَبَّبَتْ إليهم الخطيئةُ طولَ العمر"[٣]. وروي عن أبي نجيح مثله[٤].

وقال ابن زيد:" يهود ، أحرص من هؤلاء على الحياة. وقد ود هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة"[٥].

وقال ابن عباس:" هو قول أحدهم إذا عطس : " زه هزار سال " ، يقول : عشرة آلاف سنة"[٦].

واختلف في الذين أخبر الله تعالى ذكره أن اليهود أحرص منهم في هذه الآية، وذكروا فيه وجهين [٧]:

الأول: أنهم مشركوا العرب، خصوا بذلك لأنهم لا يؤمنون بالبعث، فهم يتمنون طول العمر[٨]. وهذا قول ابن عباس[٩].

والثاني: أنهم المجوس، قاله أبو العلية[١٠]، والربيع[١١].

وذلك بين في أدعياتهم للعاطس بلغاتهم بما معناه: (عش ألف سنة)، وقيل أنهم كانوا يقولون لملكهم: "عش ألف نيروز وألف مهرجان"[١٢].

والصواب القول الأول، لأن الله جل ثناؤه قد وصف اليهود بأنهم أحرص الناس على الحياة، لعلمهم بما قد أعد لهم في الآخرة على كفرهم بما لا يقر به أهل الشرك، فهم للموت أكره من أهل الشرك الذين لا

([١])مفاتيح الغيب: ٦٠٩/٣.
([٢]) صفوة التفاسير: ٧١/١.
([٣]) أخرجه الطبري(١٥٩٣):ص٣٧٢/٢.
([٤])أخرجه الطبري(١٥٩٤):ص٣٧٢/٢.

([٥]) أخرجه الطبري(١٥٩٥):ص٣٧٢/٢.
([٦])أخرجه الطبري(١٥٩٦):ص٣٧٢/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٠/٢-٣٧١. وتفسير القرطبي: ٣٤/٢.
(٨) إن الإيمان بالبعث واجب لا يقبل الله إيمان عبد إلا به وهو جزء من أحداث يوم القيامة الركن السادس من أركان الإيمان ، المسمى باليوم الآخر ، والمسمى بيوم القيامة ، والمسمى بيوم البعث . وقد تعددت وتنوعت أسمائه وأوصافه لتنوع الأحداث التي تكون فيه فهو اليوم الآخر لأن ما قبله سابق وهو الأخير .
وهو يوم القيامة لأن الناس جميعاً يقومون من قبورهم لرب العالمين ويقومون في محشرهم لمجيء الرب سبحانه لفصل القضاء، وهو يوم البعث لأن الناس يبعثون فيه من قبورهم ويخرجون إلى محشرهم .[انظر: الحياة الآخرة، د.غالب عواجي، (١٣٣/١)].
([٩]) أخرجه الطبري(١٥٩٠):ص٣٧١/٢.
([١٠]) انظر: تفسير الطبري(١٥٨٧):ص٣٧١/٢.
([١١]) انظر: تفسير الطبري(١٥٨٨):ص٣٧١/٢.
([١٢]) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٠٩/٣. وقد ذكر الإمام الطبري خبرا مجهول الإسناد: "عن ابن عباس في قوله : {يود أحدهم لو يعمر ألف سنة} ، قال : هو قول أحدهم إذا عطس : " زه هزار سال "، يقول : عشرة آلاف سنة(انظر: تفسيره(١٥٩٦): ٣٧٣/٢). و (زه): عش باللغة الفارسية.

يؤمنون بالبعث، لأنهم يؤمنون بالبعث، ويعلمون ما لهم هنالك من العذاب. والمشركون لا يصدقون بالبعث ولا العقاب، فاليهود أحرص منهم على الحياة وأكره للموت[١].

وقوله تعالى :{وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ}[البقرة:٩٦]، " أي وما طول العمر - مهما عمر - بمبعده ومنجيه من عذاب الله"[٢].

قال البغوي:" أي طول عمره لا ينقذه"[٣].

قال ابن زيد:" لو عمر كما عمر إبليس لم ينفعه ذلك ، إذ كان كافرا ، ولم يزحزحه ذلك عن العذاب"[٤].

وقوله تعالى{بِمُزَحْزِحِهِ}[البقرة:٩٦]، يعني: بمبعده ومُنَجِّيه[٥]، روي عن ابن عباس[٦]، أبي العالية[٧]، والربيع[٨]، نحو ذلك.

ومن ذلك قول الحطيئة[٩] :

وقالوا : تزحزح ما بنا فضل حاجة إليك، وما منا لوَهْيِك راقع

يعني بقوله : (تزحزح)، تباعد، يقال منه : زحزحه يزحزحه زحزحة وزحزاحا، وهو عنك متزحزح ، أي متباعد.

ويكون لازما ومتعديا، فمن قول الشاعر في المتعدي [١٠]:

يا قابض الروح من نفس إذا احتضرت وغافر الذنب زحزحني عن النار

وقال آخر في اللازم [١١]:

خليلي ما بال الدجى لا يتزحزح وما بال ضوء الصبح لا يتوضح

وروى النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ زَحْزَحَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ بِذَلِكَ الْيَوْمِ سَبْعِينَ خَرِيفًا "[١].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢/٣٧٠-٣٧١.

(٢) صفوة التفاسير: ١/٧١.

(٣) تفسير البغوي: ١/١٢٣.

(٤) أخرجه الطبري(١٦٠٤):ص٢/٣٦٧.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٢/٣٧٥، وتفسير ابن أبي حاتم: ١/٢٨٨، وجامع البيان للطبري: ٢/٣٧٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/١٦٣، وقال اليزيدي في غريب القرآن وتفسيره: ٧٧، وأبو عبيدة في مجاز القرآن: ١/٤٨: بمبعده، وانظر: تهذيب اللغة للأزهري: ٣/٤١٥، معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٣/٧، لسان العرب لابن منظور: ٣/١٨١٦، جامع البيان للطبري: ٢/٣٧٥، المحرر الوجيز لابن عطية: ١/٢٩٩، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢/٣٥، مفاتيح الغيب للرازي: ٣/٢٠٩، الدر المصون للسمين الحلبي: ١/٣١١، أنوار التنزيل للبيضاوي: ١/٧١، روح المعاني للألوسي: ١/٣٣١، وتفسير غريب القرآ لابن قتيبة: ٥٨، في النكت والعيون: ١/١٦٢، وغيرها.

(٦) انظر: تفسير الطبري(١٦٠٠):ص٢/٣٥٨.

(٧) انظر: تفسير الطبري(١٦٠١):ص٢/٣٧٦.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٦٠٢):ص٢/٣٧٦.

(٩)البيت ليس للحطيئة ، وإنما هو لقيس بن الحدادية ، من قصيدة له نفيسة طويلة رواها أبو الفرج في أغانيه ١٣ : ٦ . يقول قبل البيت ، يذكر مجيئه إلى صاحبته أم مالك .

وما راعنى إلا المنادى : ألا اظعنوا وإلا الرواغى غدوة والقعاقع

فجئت كأني مستضيف وسائل لأخبرها كل الذي أنا صانع

فقالت : تزحزح! ما بنا كبر حاجة إليك ، ولا منا لفقرك راقع

فما زلت تحت الستر حتى كأنني من الحر ذو طمرين في البحر كارع

(١٠) البيت لذي الرمة، انظر: ملحقات ديوانه: ٦٦٧. وفي رواية: يا قابض الروح عن جسم عصى زمنا وغافر الذنب زحزحني عن النار.(انظر: تفسير القرطبي: ٢/٣٤).

(١١)ديوان بشار ٢: ١٠٤ وشرح المختار: ١٢ ومنها بيتان في كل من ديوان المعاني ١: ٣٥٠ ونهاية الأرب ١: ١٣٦ وحلبة الكميت: ٣٠٥ وثلاثة في هر الآداب: ٧٤٦ وتشبيهات ابن أبي عون: ٢٠٧. ورسالة الطيف، الورقة: ١٥٢ ب (١١٠).

وقد اختلف النحاة في (هُوَ) على وجوه[٢]:
أحدها: أن (هو) عائد إلى {أحدهم}، والتقدير: ما أحدهم بمزحزحه، وخبر الابتداء في المجرور. (أن يعمر) فاعل بمزحزح.
الثاني: وقالت جماعة : (هو) ضمير التعمير، والتقدير وما التعمير بمزحزحه، والخبر في المجرور، (أن يعمر) بدل من التعمير على هذا القول.
الثالث: وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت : (هو) عماد[٣].
قال القرطبي: "وهو قول فيه بُعدٌ، فإن حق العماد أن يكون بين شيئين متلازمين، مثل قوله : {إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ} [الأنفال : ٣٢]، وقوله : {وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} [الزخرف : ٧٦] ونحو ذلك"[٤].
الرابع: وقيل : (ما) عاملة حجازية، و(هو) اسمها، والخبر في {بِمُزَحْزِحِهِ}.
الخامس: وقالت طائفة : (هو) ضمير الأمر والشأن[٥]، وضعّفه القرطبي:" لأن المحفوظ عن النحاة أن يفسر بجملة سالمة من حرف جر"[٦].
وأظهر تلك الأقوال، هو القول الأول، أي: أن الضمير(هو) عائد إلى{أحدهم}، والله أعلم.
قوله تعالى:{ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}[البقرة:٩٦]، "أي مطّلع على أعمالهم فيجازيهم عليها"[٧].
قال ابن كثير:" أي : خبير بما يعمل عباده من خير وشر ، وسيجازي كل عامل بعمله"[٨].
قال السعدي:" تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم"[٩].
قال أبو حيان:"وهذه الجملة تتضمن التهديد والوعيد ، وأتى عنا بصفة بصير ، وإن كان الله تعالى متنزهاً عن الجارحة ، إعلاماً بأن علمه، بجميع الأعمال ، علم إحاطة وإدراك للخفيات... وأتى بصيغة المضارع ، وإن كان علمه تعالى محيطاً بأعمالهم السالفة والآتية لتواخي الفواصل"[١٠].

قال العلماء : وصف الله عز وجل نفسه بأنه بصير على معنى أنه عالم بخفيات الأمور. والبصير في كلام العرب : العالم بالشيء الخبير به، ومنه قولهم : فلان بصير بالطب، وبصير بالفقه، وبصير بملاقاة الرجال، قال الشاعر[١١] :
فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأدواء النساء طبيب
قال الخطابي : (البصير) العالم، و(البصير) المبصر، وقيل : وصف تعالى نفسه بأنه بصير على معنى جاعل الأشياء المبصرة ذوات إبصار، أي مدركة للمبصرات بما خلق لها من الآلة المدركة والقوة، فالله بصير بعباده، أي جاعل عباده مبصرين[١٢].

---

(١)رواه النسائي (٢٢١٢) وصححه الألباني ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٥٤٧) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٠٨) ، وأحمد (٧٩٣٠).
وفي رواية اخرى: "مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَعَّدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا "، رواه البخاري في الجهاد والسير باب فضل الصوم في سبيل الله (٢٨٤٠) ، ومسلم في الصيام (١١٥٣) ، والترمذي في الجهاد (١٥٤٨)والنسائي في الصيام (٢٢١٩)،وابن ماجه في الصيام (١٧٠٧) ، وأحمد (١٠٨٢٦) ،والدارمي في الجهاد (٢٢٩٢) وأخرجه ابن حبان (٣٤١٧) بسند صحيح ، والطيالسي (٢١٨٦) . وعند النسائي : "بَاعَدَ اللَّهُ وَجْهَهُ مِنْ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ عَامًا"، رواه النسائي في الصيام (٢٢١٥).
(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٣٤/٢-٣٥.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٤/٢.
(٤) تفسير القرطبي:٣٥/٢.
(٥) انظر: المحرر الوجيز: ١٨٢/١.
(٦) تفسير القرطبي: ٣٥/٢.
(٧) صفوة التفاسير: ٧١/١.
(٨) تفسير ابن كثير:٣٣٥/١.
(٩) تفسير السعدي: ٥٩.
(١٠) البحر المحيط: ٢٧١/١.
(١١) البيت لعلقمة الفحل، انظر: ديوانه: ١٣١.
(١٢) انظر: تفسير القرطبي: ٣٥/٢. وانظر: مقاييس اللغة: ٤٠٧/٣.

وقرأ الجمهور {يعملون}، بالياء ، على نسق الكلام السابق، وقرأ الحسن وقتادة والأعرج ويعقوب{تعلمون}، بالتاء، على سبيل الالتفات والخروج من العيبة إلى الخطاب[١].
الفوائد:

١. من فوائد الآية أن اليهود أحرص الناس على حياة..
٢. ومنها: إبطال قولهم: "لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة"، ثم يخرجون منها، ويكونون في الجنة؛ لأن من كان كذلك لا يكره الموت.
٣. ومنها: أن الناس يتفاوتون في الحرص على الحياة؛ لقوله تعالى: { أحرص }؛ و{ أحرص } اسم تفضيل.
٤. ومنها: أن المشركين من أحرص الناس على الحياة، وأنهم يكرهون الموت؛ لقوله تعالى: {ومن الذين أشركوا } مما يدل على أنهم في القمة في كراهة الموت ما عدا اليهود..
٥. ومنها: أن طول العمر لا يفيد المرء شيئاً إذا كان في معصية الله؛ لقوله تعالى:{وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر}.
٦. ومنها: غَوْرُ فهم السلف حين كرهوا أن يُدْعَى للإنسان بالبقاء؛ فإن الإمام أحمد كره أن يقول للإنسان: "أطال الله بقاءك"؛ لأن طول البقاء قد ينفع، وقد يضر؛ إذاً الطريق السليم أن تقول: "أطال الله بقاءك على طاعة الله"، أو نحو ذلك..

٧. ومنها: أن الله سبحانه وتعالى محيط بأعمال هؤلاء كغيرهم؛ لقوله تعالى: { والله بصير بما يعملون }؛ والبصر هنا بمعنى العلم؛ ويمكن أن يكون بمعنى الرؤية؛ قال النبي ﷺ "لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"[١] ؛ فأثبت لله بصراً؛ لكن تفسيره بالعلم أعم.
القرآن
{قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)} [البقرة : ٩٧]
التفسير:
قل-أيها الرسول- لليهود حين قالوا: إن جبريل هو عدونا من الملائكة: من كان عدوًا لجبريل فإنه نزَّل القرآن على قلبك بإذن الله تعالى مصدِّقًا لما سبقه من كتب الله، وهاديًا إلى الحق، ومبشرًا للمصدِّقين به بكل خير في الدنيا والآخرة.
قد أجمع أهل العلم بالتفسير على أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم[٢]، وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك على أقوال[٣]:
أحدها: أن سبب قيلهم ذلك، كا من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته. قاله ابن عباس[٤]، وشهر بن حوشب الأشعري[٥]، والقاسم بن أبي بزة[٦].

([١]) انظر: البحر المحيط: ٢٧١/١.
[١] أخرجه مسلم ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٧٩: في قوله عليه السلام: "إن الله لا ينام"...، حديث رقم ٤٤٢ [٢٩٣] ١٧٩.
([٢]) قال الإمام الرازي: " من الناس من استبعد أن يقول قوم من اليهود: إن جبريل عدوهم قالوا: لأنا نرى اليهود في زماننا هذا مطبقين على إنكار ذلك مصرين على أن أحدا من سلفهم لم يقل بذلك، واعلم أن هذا باطل لأن حكاية الله أصدق، ولأن جهلهم كان شديدا وهم الذين قالوا؛ {اجعل لنا إلاها كما لهم ءالهة} (الأعراف: ١٣٨)".(انظر: تفسيره: ١٧٩/٢).
وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: "ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من عند الله، ومع ذلك يبغضونه، وهذا أحط درجات الانحطاط في العقل والعقيدة، ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبئ عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام"(انظر تفسيره: ٦٢١/١.
([٣]) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٧/٢-٣٧٨. وتفسير القرطبي: ٣٦/٢.
([٤]) انظر: تفسير الطبري(١٦٠٥):٣٧٧/٢-٣٧٨.
([٥]) انظر: تفسير الطبري(١٦٠٦):٣٧٨/٢-٣٧٩.
([٦]) انظر: تفسير الطبري(١٦٠٧):٣٨٠/٢.

قال ابن عباس:" أقبلت اليهود إلى النبي - ﷺ - فقالوا: يا أبا القاسم نسألك عن أشياء فإن أجبتنا فيها اتبعناك، أخبرنا من الذي يأتيك من الملائكة؟ فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك من عند
ربه - عز وجل - بالرسالة بالوحي فمن صاحبك؟ قال: "جبريل" قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالمطر والرحمة اتبعناك، فأنزل الله تعالى: {قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك} إلى قوله: {فإن الله عدو للكافرين}"[1].
والثاني: وقال آخرون : بل كان سبب قيلهم ذلك، من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبينهم، في أمر النبي ﷺ. قاله الشعبي[2]، وقتادة[3]، والسدي[4].
الثالث: وقال أبو ليلى: " قالت اليهود للمسلمين : لو أن ميكائيل كان الذي ينزل عليكم لتبعناكم ، فإنه ينزل بالرحمة والغيث ، وإن جبريل ينزل بالعذاب والنقمة ، وهو لنا عدو. قال : فنزلت هذه الآية :{من كان عدوا لجبريل}"[5]. وروي عن عطاء نحو ذلك[6].
قوله تعالى:{ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ}[البقرة:٩٧]، " أي قل لهم يا محمد من كان عدواً لجبريل"[7].
قال المراغي:" أي قل لهم أيها النبي حاكيا لهم عن الله : من كان عدوّا لجبريل"[8].
واختلف في سبب عداوة اليهود لجبريل-عليه السلام- على أقوال:
الأول: أن سبب عداوة اليهود لجبريل أنه أُمِر باستمرار النبوة فنقلها لغيرهم. قاله مقاتل[9].
والثاني: أن سبب عداوتهم له، لكونه يطلع على أسرارهم. قاله قتادة[10].
الثالث: لأنه كان ينزل القرآن على محمد عليه السلام[11].
والرابع: إن عداوتهم لكونه ينزل بالعذاب[12].
الخامس: كونه حال دون قتل بخت نصر، الذي خرب مسجدهم وسفك دماءهم، وسبى ذراريهم[13]..
والأقرب أن يكون سبب عداوتهم له، أنه كان ينزل القرآن على محمد -عليه السلام-، لأن قوله: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ...} [البقرة : ٩٧] مشعر بأن هذا التنزيل لا ينبغي أن يكون سببا للعداوة لأنه إنما فعل ذلك بأمر الله فلا ينبغي أن يكون سببا للعداوة. قاله الرازي[14].
وأما (جِبْرِيلَ)، و(مِيكَالَ) فإن للعرب فيهما لغات[1]:

(١) أسباب النزول للواحدي: ٢٨، والخبر أخرجه الإمام أحمد (الفتح الرباني: ٧٣/١٨ - ح: ١١٥) والطبراني في "المعجم الكبير" (٤٥/١٢ - ح: ١٢٤٢٩) والنسائي (تفسير ابن كثير: ١٣٠/١) من طريق ابن شهاب به. وإسناده حسن بشواهده وهي: ما أخرجه الطبري في تفسيره(١٦٠٥):٣٧٧/٢-٣٧٨، والإمام أحمد (الفتح الرباني: ٧٤/١٨) وعبد بن حميد (المصدر السابق) وأبو داود الطيالسي (منحة المعبود: ١١/٢ - ح: ١٩٢٣) وابن أبي حاتم(٩٥٢):ص١٧٩/١، وأبو نعيم (فتح القدير: ١١٧/١) والبيهقي (دلائل النبوة: ٢٦٦/٦) كلهم من طريق عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه وسنده حسن.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٦٠٨):ص٣٨١/٢-٣٨٢، و(١٦١٤):ص٣٨٥/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٦١٠)، و_(١٦١١)، و(١٦١٢):ص٣٨٢/٢-٣٨٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٦١٣):ص٣٨٣/٢-٣٨٤.
(٥) أخرجه الطبري(١٦١٥):ص٣٨٦/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٦١٦):ص٣٨٦/٢.
(٧) صفوة التفاسير: ٧١/١،
(٨) تفسير المراغي:١٧٥/١.
(٩) انظر: أسباب النزول للوا حدي-تحقيق: أيمن شعبان-: ٣٣ رقم: ٤٥، ومعالم التنزيل للبغوي: ١٢٤/١، ومفاتيح الغيب للرازي: ٢١١/٣.
(١٠) أخرجه ابن جرير في جامع البيان: ٣٨٣/٢ رقم: ١٦١٠ عن قتادة في قصة عمر مع اليهود وفيها فقالوا: "من صاحبكم. فقال لهم: جبريل. فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء، يُطْلع محمداً على سرنا" وانظر: معالم التنزيل للبغوي: ١٢٤/١، ومفاتيح الغيب للرازي: ٢١٠/٣-٢١١، والبحر المحيط لأبي حيان: ٣١٩/١.
(١١) انظر: مفاتيح الغيب: ٦١١/٣.
(١٢) انظر: العجاب في بيان الأسباب: ٢٩٨/١.
(١٣) انظر: العجاب في بيان الأسباب: ٢٩٨/١.
(١٤) انظر: مفاتيح الغيب: ٦١١/٣.

أحدها: أهل الحجاز يقولون (جبريل)، و(ميكال)، بغير همز، بكسر الجيم والراء من (جبريل) وبالتخفيف، وعلى القراءة بذلك عامة قَرَأَة أهل المدينة والبصرة.

قال كعب بن مالك[٢]:

ويوم بدر لقيناهم لنا مدد فيه لدى النصر ميكال وجبريل

وقال آخر[٣]:

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجبرئيل وكذبوا ميكالا

والثاني:أما تميم وقيس وبعض نجد فيقولون: (جَبرئيل وميكائيل) على مثال (جبرعيل وميكاعيل)، بفتح الجيم والراء، وبهمز، وزيادة ياء بعد الهمزة، وعلى القراءة بذلك عامة قَرَأَة أهل الكوفة، كما قال جرير بن عطية[٤]:

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجَبرَئيل وكذبوا ميكالا

والثالث: وقد ذكر عن الحسن البصري وعبد الله بن كثير أنهما كانا يقرآن : (جبريل) بفتح الجيم، وترك الهمز، وهي قراءة غير جائزةٍ القراءةُ بها، لأن " فعليل " في كلام العرب غير موجود، وقد اختار ذلك بعضهم، وزعم أنه اسم أعجمي، كما يقال : " سمويل "، وأنشد في ذلك[٥]:

بحيث لو وزنت لخم بأجمعها ما وازنت ريشة من ريش سمويلا

والرابع: وأما بنو أسد فإنها تقول (جِبرين) بالنون.

والخامس: وقد حكي عن بعض العرب أنها تزيد في (جبريل) "ألفا " فتقول : (جبرابيل وميكابيل).

والسادس: وقد حكي عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأ : (جَبْرَئِلّ) بفتح الجيم، والهمز، وترك المد، وتشديد اللام، فأما " جبر " و " ميك "، فإنهما الاسمان اللذان أحدهما بمعنى : " عبد "، والآخر بمعنى : " عبيد وأما " إيل " فهو الله[٦].

قال الثعلبي:" فأجود اللغات (جَبْرَئيل) بفتح الجيم، والهمز، لأن الذي يروى عن النبي - ﷺ - في صاحب الصور " جَبْرَئِيل عن يمينه وميكائيل عن يساره[٧]، هذا الذي ضبطه أصحاب الحديث"[٨].

واختلف في معنى (جبريل)، على قولين:

([١]) انظر: السبعة في القراءات: ١٦٦، وتفسير الطبري: ٣٨٩/٢-٣٩٠.

([٢]) البيت في قصيدة وردت في السيرة: ١٤٧/١، وفي القرطبي: ٣٨/٢، والبحر المحيط: ٣١٨/١، وفي اللسان مادة(مكا) ونسبه لحسان بن ثابت.

([٣]) البيت لجرير من قصيدة يهجو بها الأخطل. انظر: ديوانه: ٤٥٠، تفسير القرطبي: ٣٨/٢، وتفسير البحر المحيط: ٣١٨/١.

([٤]) ديوانه : ٤٥٠ ، ونقائض جرير والأخطل : ٨٧ ، من قصيدته الدامغة في هجاء الأخطل ، والضمير إلى تغلب ، رهط الأخطل ، وقبله :

قبح الإله وجوه تغلب ، كلما شَبَح الحجيج وكبروا إهلالا

([٥])الأغاني ١٤ : ٩٢ ، ١٦ : ٢٢ ، واللسان (سمل) ، من أبيات أرسلها الربيع إلى النعمان ابن المنذر في خبر طويل ، حين قال لبيد في رجزه : مهلا ، أبيت اللعن ، لا تأكل معه، وزعم أنه أبرص الخبيثة ، وذكر من فعله قبيحا كريها ، فرحل الربيع عن النعمان ، وكان له نديما ، وأرسل إليه أبياته:

لئن رحلت جمالي لا إلى سعة ما مثلها سعة عرضا ولا طولا

بحيث لو وزنت لخم بأجمعها لم يعدلوا ريشة من ريش سمويلا

ترعى الروائم أحرار البقول بها لا مثل رعيكم ملحا وغسويلا

فاثبت بأرضك بعدي ، واخل متكئا مع النطاسي طورا وابن توفيلا

ولخم : هم رهط آل المنذر ملوك الحيرة .

([٦]) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٩/٢-٣٩٠.

(٧)أخرجه ابن حبان (٢٢١١)، و أحمد (١ / ١٩٩) و البزار (٢٥٧٤ - الكشف) و الطبراني في " المعجم الكبير " (١ / ١٣١ / ١) و النسائي في " الخصائص " رقم : (٢٥).

([٨]) تفسير الثعلبي:١٧٩/١.

الأول:أن معناه: عبد الله، فـ (جبر) عبد، و(إيل) الله: وميكائيل عبد الله وهو قول ابن عباس[١]، وعبدالله بن الحارث[٢]، وعكرمة[٣]، وعلي بن حسين[٤]، ومجاهد[٥]، والضحاك[٦]، وجماعة من أهل العلم.
والثاني: أن معناه: خادم ربه. قاله عبدالعزيز بن عمير[٧].
واعترض أبو علي الفارسي على القول الأول، ووصفه بأنه غير مستقيم، وذلك لوجهين[٨]:
أحدهما: أنه لا يعرف من أسماء الله (أيل).
والثاني: أنه لو كان كذلك لكان آخر الاسم مجرورا.
والراجح هو القول الأول، وأما وكلام السوسي فإنما يتأتى لو كان: «جبر» و «إيل» عربيتين، ولكنهما عبرانيتان، والاضافة في اللغة العبرانية لا توجب كسر الاسم باعتباره مضافا إليه. والله أعلم.
قوله تعالى: {فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله}[البقرة:٩٧]، "أي فإن جبريل الأمين نزّل هذا القرآن على قلبك يا محمد بأمر الله تعالى"[٩].
قال السعدي: أي" فإن جبريل هو الذي نزل بالقرآن من عند الله، على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره، وأرسله بذلك، فهو رسول محض"[١٠].
قال المراغي:أي" فإن من أحوال جبريل أنه نزّل القرآن على قلبك ، أي فهو عدو لوحى الله الذي يشمل التوراة"[١١].
قال ابن عباس: فأنزل الله إكذابا لهم: قل يا محمد: من كان عدوا لجبريل فإنه يقول: فإن جبريل نزله يقول: نزل القرآن من عندي"[١٢].
وقد اختلف في (الهاء) في قوله تعالى{فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ}[البقرة:٩٧]، على أقوال[١٣]:
أحدها: أن الهاء الأولى تعود على جبريل والثانية: على القرآن وإن لم يجر له ذكر، لأنه كالمعلوم، أي إن كانت عداوتهم لأن جبريل ينزل القرآن فإنما ينزله بإذن الله، وهذا كقوله: {مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ...} [فاطر : ٤٥] يعني على الأرض، وهذا قول ابن عباس[١٤] وأبو العالية[١٥]، والحسن[١٦] والربيع بن أنس[١٧]. وهو قول أكثر أهل العلم.
قال صاحب "الكشاف": إضمار ما لم يسبق ذكره فيه فخامة لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته"[١٨].
والثاني: أن المعنى: فإن الله نزل جبريل عليه السلام لا أنه نزل نفسه.
قال ابن عطية:" وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف"[١].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٠):ص٣٩٠/٢.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٣):ص٣٩٠/٢.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٤):ص٣٩٠/٢.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٥):ص٣٩٠/٢.
[٥] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٢/١.
[٦]انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٢/١.
[٧] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٦٨):ص١٨٣/١.
[٨] الحجة: ١٦٧/٢-١٦٨، ونقله الرازي في مفاتيح الغيب: ٦١٢/٣.
[٩] صفوة التفاسير: ٧١/١.
[١٠] تفسير السعدي:٦٠.
[١١] تفسير المراغي: ١٧٥/١-١٧٦.
[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٥٣):ص١٨٠/١.
[١٣] انظر: مفاتيح الغيب: ٦١٢/٣.
[١٤] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٥٥):ص١٨٠/١.
[١٥] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٥٤):ص١!٨٠.
[١٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٠/١.
[١٧]انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٠/١.
[١٨] الكشاف: ١٦٩/١.

وقال الرازي: "يرى أكثر الأمة على أنه أنزل القرآن عليه لا على قلبه إلا أنه خص القلب بالذكر لأجل أن الذي نزل به ثبت في قلبه حفظا حتى أداه إلى أمته، فلما كان سبب تمكنه من الأداء ثباته في قلبه حفظا جاز أن يقال: نزله على قلبك وإن كان في الحقيقة نزله عليه لا على قلبه[٢].

قال الزمخشري: "فإن قلت : كيف استقام قوله : {فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ} جزاء للشرط؟ قلت : فيه وجهان:

أحدهما: إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتابا مصدقا للكتب بين يديه ، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم.

والثاني : إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقا لكتابهم وموافقا له ، وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتابهم ، ولذلك كانوا يحرفونه ويجحدون موافقته له ، كقولك : إن عاداك فلان فقد أذيته وأسأت إليه"[٣].

وقد تعددت عبارات المفسرين في معنى قوله تعالى{ بِإِذْنِ اللَّهِ}[البقرة:٩٧]، على وجوه:

أحدها: بعلم الله. قاله الرازي، واحتج على ذلك بوجوه[٤]:

أولها: أن الإذن حقيقة في الأمر مجاز في العلم واللفظ واجب الحمل على حقيقته ما أمكن.

وثانيها: أن إنزاله كان من الواجبات والوجوب مستفاد من الأمر لا من العلم.

وثالثها: أن ذلك الإنزال إذا كان عن أمر لازم كان أوكد في الحجة.

والثاني: أن معناه: بأمر الله. قاله ابن عباس[٥]. واختاره في المنتخب[٦]، وأبو حيان[٧].

والثالث: بعلمه وتمكينه إياه من هذه المنزلة. قاله ابن عطية[٨].

والرابع: بإرادته وعلمه. قاله ابن كثير[٩].

والخامس: باختياره. قاله الماوردي[١٠].

والسادس: بتيسيره وتسهيله. قاله الزمخشري[١١].

والأقرب هو قول ابن عباس، والمعنى: بأمر الله، ومنه : {لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ}[هود: ١٠٥] ، {مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلا بِإِذْنِهِ}[البقرة:٢٥٥]، وقد صرح بذلك في : {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ}[مريم:٦٤]. والله أعلم.

وقوله تعالى:{مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}[البقرة:٩٧]، " أي: مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية"[١٢].

قال السعدي: أي:" مصدقا لما تقدمه من الكتب غير مخالف لها ولا مناقض"[١٣].

قال المراغي:" أي هو موافق للكتب التي تقدمته فيما يدعو إليه من توحيد الله والسير على السنن القويم"[١٤].

قال أبو العالية:" يعني من التوراة والإنجيل"[١٥]. وروي عن قتادة، والربيع نحوه[١٦].

---

(١) المحرر الوجيز: ١٨٣/١.
(٢)انظر: مفاتيح الغيب: ٦١٢/٣.
(٣) الكشاف: ١٧٠/١.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب: ٦١٢/٣.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٥٦):ص١٨٠/١.
(٦) انظر: البحر المحيط: ٢٧٥/١.
(٧) انظر: البحر المحيط: ٢٧٥/١.
(٨) انظر: المحرر الوجيز: ١٨٤/١.
(٩) تفسير ابن كثير: ٣٦/٢.
(١٠) نقلا عن البحر المحيط: ٢٧٥/١، ولم أجده في النكت والعيون.
(١١) انظر: الكشاف: ١٦٩/١-١٧٠.
(١٢) صفوة التفاسير: ٧١/١.
(١٣) تفسير السعدي: ٦٠.
(١٤) تفسير المراغي: ٧٦/١.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٥٨):ص١٨١/١.
(١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٨١/١.

وقال ابن عباس:" يقول: لما قبله من الكتب التي أنزلها الله، والآيات والرسل الذين بعثهم الله بالآيات نحو موسى وعيسى ونوح وهود وشعيب وصالح، وأشباههم من المرسلين مصدقا يقول: فأنت تلوا عليهم يا محمد وتخبرهم غدوة وعشية وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتابا ولم تبعث رسولا، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه وصدقه يقول اللهم في ذلك لهم عبرة، وبيان. وعليهم حجة لو كانوا يعقلون"(١).

قال ابن عاشور:و"تصديق الرسل السالفين من أول دلائل صدق المصدق لأن الدجاجلة المدعين النبوات يأتون بتكذيب من قبلهم لأن ما جاءوا به من الهدى يخالف ضلالات الدجالين فلا يسعهم تصديقهم ولذا حذر الأنبياء السابقون من المتنبئين الكذبة كما جاء في مواضع من التوراة والأناجيل، والمراد بـ{مَا بَيْنَ يَدَيْهِ}: ما سبقه، وهو كناية عن السبق لأن السابق يجيء قبل المسبوق ولما كان كناية عن السبق لم يناف طول المدة بين الكتب السابقة والقرآن ولأن اتصال العمل بها بين أممها إلى مجيء القرآن فجعل سبقهما مستمراً إلى وقت مجيء القرآن فكان سبقهما متصلاً"(٢).

وقوله تعالى:{وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}[البقرة٩٧]، " أي وفيه الهداية الكاملة، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم"(٣).

قال المراغي:" أي أنزله الله هاديا من الضلالات والبدع التي طرأت على الأديان، و بشرى لمن آمن به"(٤).

قال السعدي:أي" وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي، لمن آمن به"(٥).

قال الآلوسي: "وخص المؤمنين- بالذكر لأنه على غيرهم عمى"(٦).

قال قتادة:" جعل الله هذا القرآن: هدى وبشرى للمؤمنين، لأن المؤمن إذا سمع القرآن وحفظه ووعاه انتفع به واطمأن إليه، وصدق بموعود الله الذي، وعد وكان على يقين من ذلك"(٧).

فالهدى: "دليل وبرهان، والبشرى فإنها البشارة"(٨)، والمراد به أن القرآن مشتمل على أمرين(٩):

الأول: بيان ما وقع التكليف به من أعمال القلوب وأعمال الجوارح وهو من هذا الوجه هدى.

والثاني: بيان أن الآتي بتلك الأعمال كيف يكون ثوابه وهو من هذا الوجه بشرى، ولما كان الأول مقدما على الثاني في الوجود لا جرم قدم الله لفظ الهدى على لفظ البشرى.

وقال الرازي: "فإن قيل: ولم خص كونه هدى وبشرى بالمؤمنين مع أنه كذلك بالنسبة إلى الكل؟ الجواب من وجهين:

الأول: أنه تعالى إنما خصهم بذلك، لأنهم هم الذين اهتدوا بالكتاب فهو كقوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة : ٢].

والثاني: أنه لا يكون بشرى إلا للمؤمنين، وذلك لأن البشرى عبارة عن الخبر الدال على حصول الخير العظيم وهذا لا يحصل إلا في حق المؤمنين، فلهذا خصهم الله به"(١٠).

وبذلك فقد حصل من الأوصاف الخمسة للقرآن وهي أنه منزل من عند الله بإذن الله، وأنه منزل على قلب الرسول، وأنه مصدق لما سبقه من الكتب، وأنه هاد أبلغ هدى، وأنه بشرى للمؤمنين، الثناء على القرآن بكرم الأصل وكرم المقر وكرم الفئة ومفيض الخير على أتباعه الأخيار خيراً عاجلاً وواعد لهم بعاقبة الخير، وهذه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٥٧):ص١/١٨٠-١٨١.
(٢) تفسير ابن عاشور: ١/٦٢٢.
(٣) صفوة التفاسير: ١/٧١.
(٤) تفسير المراغي: ١/١٧٦.
(٥) تفسير السعدي:٦٠.
(٦) روح المعاني: ١/٣٣٣.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٥٩):ص١/١٨١، والطبري(١٦٣٣):ص٢/٣٩٣.
(٨) تفسير الطبري: ٢/٣٩٣.
(٩) انظر: مفاتيح الغيب: ٣/٦١٢.
(١٠) مفاتيح الغيب: ٣/٦١٢.

خصال الرجل الكريم محتده وبيته وقومه، السخي بالبذل الواعد به وهي خصال نظر إليها بيت زياد الأعجم[١]:
إنَّ المساحةَ والمروءةَ والنَّدى　　　في قبة ضُربت على ابن الحَشْرج[٢]

الفوائد:
١. من فوائد الآية: أن من الناس من يكون عدواً لملائكة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { قل من كان عدواً لجبريل }: ووجه ذلك: أن مثل هذا لكلام لو لم يكن له أصل لكان لغواً من القول؛ والقرآن منزه عن هذا اللغو..
٢. ومنها: فضيلة جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأن الله تعالى دافع عنه..
٣. ومنها: ذكر الوصف الذي يستحق أن يكون به ولياً لجبريل؛ لقوله تعالى: { فإنه نزله على قلبك } يعني: ومن كان هذه وظيفته فإنه يستحق أن يكون ولياً..
٤. . ومنها: إثبات علوّ الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { فإنه نزله }؛ وإنما نزل به من عند الله؛ والنّزول لا يكون إلا من أعلى..
٥. ومنها: أن النبي ﷺ قد وعى القرآن وعياً كاملاً لا يتطرق إليه الشك؛ لقوله تعالى: { نزله على قلبك }؛ لأن ما نفذ إلى القلب حلّ في القلب؛ وإذا حلّ في القلب فهو في حرز مكين..
٦. ومنها: أن هذا القرآن إنما نزل بإذن الله؛ لقوله تعالى: { نزله على قلبك بإذن الله }؛ والإذن هنا كوني؛ وقد ذكر العلماء أن إذن الله تعالى نوعان:.
كوني: وهو المتعلق بالخلق، والتكوين، ولا بد من وقوع ما أذِن الله تعالى فيه بهذا المعنى؛ مثاله قوله تعالى: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} [البقرة: ٢٥٥] ، وقوله تعالى: {وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله} [البقرة: ١٠٢] وقوله تعالى: {ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله} [التغابن: ١١..]
والثاني شرعي: وهو ما يتعلق بالشرع، والعبادة؛ مثاله قوله تعالى: {قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون} [يونس: ٥٩] ؛ وقوله تعالى: {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله} [الشورى: ٢١] ؛ والفرق بينهما أن المأذون به شرعاً قد يقع، وقد لا يقع؛ وأما المأذون به قدراً فواقع لا محالة؛ ومن جهة أخرى: أن المأذون به شرعاً محبوب إلى الله عزّ وجلّ؛ والمأذون به قدراً قد يكون محبوباً، وقد يكون غير محبوب..
٧ . ومن فوائد الآية: أن القرآن بشرى للمؤمنين؛ وعلامة ذلك أنك تنتفع به؛ فإذا وجدت نفسك منتفعاً به حريصاً عليه تالياً له حق تلاوته فهذا دليل على الإيمان، فتناله البشرى؛ وكلما رأى الإنسان من نفسه كراهة القرآن، أو كراهة العمل به، أو التثاقل في تطبيقه فليعلم أنه إنما فاقد للإيمان بالكلية، أو أن إيمانه ناقص.

٧. وقد دلت الآية على تعظيم جبريل والتنويه بقدره حيث جعله الواسطة بينه تعالى وبين أشرف خلقه، والمنزل بالكتاب الجامع للأوصاف المذكورة، ودلت على ذم اليهود حيث أبغضوا من كان بهذه المنزلة العظيمة الرفيعة عند الله تعالى، قيل: وتعلقت الباطنية بهذه الآية وقالوا: إن القرآن إلهام والحروف عبارة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ورد عليهم بأنه معجزة ظاهرة وباطنة وإن الله تعالى سماه قرآنا وكتابا وعربيا، وإن جبريل نزل به والملهم لا يحتاج إليه[٣].

القرآن

{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)} [البقرة : ٩٨]
التفسير:

---

(١) البيت لزياد الأعجم قاله في مدح ابن الحشرج: انظر: الأغاني ١٥ : ٣٨٦ .
(٢) انظر: تفسير ابن عاشور: ٦٢٢/١-٦٢٣.
(٣) انظر: روح المعاني: ٣٣٣/١.

من عادى الله وملائكته، ورسله من الملائكة أو البشر، وبخاصة المَلَكان جبريلُ وميكالُ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم، وميكال وليُّهم، فأعلمهم الله أنه من عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر، وعادى الله أيضًا، فإن الله عدو للجاحدين ما أنزل على رسوله محمد ﷺ.

في سبب نزول الآية أقوال[١]:

أحدها: أخرج الطبري "عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: إن يهوديا لقي عمر فقال له: إن جبريل الذي يذكره صاحبك، هو عدو لنا، فقال له عمر:{كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين}، قال : فنزلت على لسان عمر"[٢].

والثاني: وأخرج الطبري أيضا عن عبيد الله، عن رجل من قريش قال : "سأل النبي ﷺ اليهود فقال : أسالكم بكتابكم الذي تقرءون ، هل تجدون به قد بشر بي عيسى ابن مريم أن يأتيكم رسول اسمه أحمد ؟ فقالوا : اللهم وجدناك في كتابنا ، ولكنا كرهناك لأنك تستحل الأموال وتهَرِيق الدماء. فأنزل الله : {من كان عدوا لله وملائكته} الآية"[٣].

والثالث: وقال مقاتل: "قالت اليهود: إن جبريل عدونا أمر أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا، فأنزل الله هذه الآية"[٤].

والرابع: ال ابن عباس: إن حبرا من أحبار اليهود من فدك يقال له: عبد الله بن صوريا حاج النبي - ﷺ - فسأله عن أشياء فلما اتجهت الحجة عليه قال: أي ملك يأتي من السماء؟ قال: جبريل: ولم يبعث الله نبيا إلا وهو وليه قال: ذاك عدونا من الملائكة، ولو كان ميكائيل مكانه لآمنا بك، إن جبريل نزل بالعذاب والقتال والشدة، فإنه عادانا مرارا كثيرة، وكان أشد ذلك علينا أن الله أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرب على يدي رجل يقال له بختنصر، وأخبرنا بالحين الذي يخرب فيه، فلما كان وقته بعثنا رجلا من أقوياء بني إسرائيل في طلب بختنصر ليقتله، فانطلق يطلبه حتى لقيه ببابل غلاما مسكينا ليست له قوة، فأخذه صاحبنا ليقتله فدفع عنه جبريل، وقال لصاحبنا: إن كان ربكم الذي أذن في هلاككم فلا تسلط عليه، وإن لم يكن هذا فعلى أي شيء تقتله؟ فصدقه صاحبنا ورجع إلينا، وكبر بختنصر وقوي وغزانا وخرب بيت المقدس، فلهذا نتخذه عدوا فأنزل الله هذه الآية"[٥].

قوله تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ}[البقرة:٩٨]، " أي معادياً له مستكبراً عن عبادته"[٦].

قال البيضاوي:" أراد بعداوة الله مخالفته عناداً، أو معاداة المقربين من عباده، وصدر الكلام بذكره تفخيماً لشأنهم كقوله تعالى: {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ}[التوبة:٦٢]"[٧].

قال أبو السعود:" أريد بعداوته تعالى، مخالفةُ أمرِه عِناداً، والخروجُ عن طاعته مكابرة، أوعداوة خواصِّه ومقرَّبيه"[٨].

قال المراغي: " عداوة لله مخالفة أوامره وعدم القيام بطاعته ، والكفر بما ينزله لهداية الناس على لسان رسله"[٩].

قوله تعالى: {وَمَلَائِكَتِهِ}[البقرة:٩٨]، أي ومن كان" عدواً لملائكته"[١٠].

قال المراغي:" بكراهة العمل بما يعهد به إليهم ربهم من رسالات يبلغونها للناس"[١].

([١]) انظر: أسباب النول للواحدي: ٢٩-٣٠، والعجاب: ٢٩٧/١ وما بعدها.

([٢]) تفسير الطبري(١٦٣٥):ص٣٩٥/٢، وابن أبي حاتم(٩٦١):ص١٨٢/١، وأخرجه نحوه ابن أبي حاتم(٩٦٠):ص١٨١/١، عن عامر، وأخرج الواحدي بما معناه مطولا عن الشعبي عن عمر بن خطاب، انظر: أسباب النزول للواحدي: ٢٩-٣٠.

([٣])تفسير الطبري(١٦٣٤):ص٣٩٤/٢-٣٩٥.

([٤]) أسباب النزول للواحدي: ٣١.

([٥]) أسباب النزول للواحدي: ٣١.

([٦]) تفسير ابن عثيمين:٣١٤/١.

([٧]) تفسير البيضاوي: ٩٦/١.

([٨]) تفسير أبو السعود:١٣٤/١.

([٩]) تفسير المراغي:١٧٦/١.

([١٠]) تفسير ابن عثيمين:٣١٤/١.

قال ابن عثيمين:" و (الملائكة) جمع (ملَك)؛ وهم عالم غيبي خلقهم الله عزّ وجلّ من نور، وسخرهم لعبادته يسبحون الليل، والنهار لا يفترون؛ ومنهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل الذين كان النبي ﷺ يذكر أسماءهم في افتتاح صلاة الليل[٢]"[٣].

قوله تعالى:{وَرُسُلِهِ}[البقرة:٩٨]، أي ومن كان عدوا لرسل الله تعالى.

قال الواحدي:" يعني: محمدًا وعيسى، كفرت بهما اليهود"[٤].

قال المراغي:" بتكذيبهم في دعوى الرسالة مع قيام الأدلة على صدقها ، أو بقتل بعضهم كما فعلوا مع زكريا ويحيى"[٥].

قال ابن كثير:" - ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر ، كما قال تعالى : { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلا وَمِنَ النَّاسِ } [الحج : ٧٥]"[٦].

و(رسل): "جمع رسول؛ وهم الذين أوحى الله تعالى إليهم بشرع، وأمرهم بتبليغه؛ أولهم نوح، وآخرهم محمد. صلى الله عليهم وسلم أجمعين"[٧].

قوله تعالى:{وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}[البقرة:٩٨]، أي و" عادى على الوجه الأخص «جبريل وميكائيل»"[٨].

قال المراغي:" بادّعاء أن الأول يأتي بالآيات والنذر ، ومن عاداه فقد عادى ميكائيل ، لأن الداعي إلى محبتهم وعداوتهم واحد"[٩].

قوله تعالى:{فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة : ٩٨]، "أي من عادى الله وعادى هؤلاء المقربين عند الله، فالله عدوّ له"[١٠].

قال الزمخشري:" والمعنى من عاداهم، عاداه اللَّه وعاقبه أشدّ العقاب"[١١].

قال ابن عثيمين:" هذا جواب الشرط: من كان عدواً لله فالله عدو له؛ ومن كان عدواً للملائكة فإن الله عدو له؛ ومن كان عدواً لرسله فإن الله عدو له؛ ومن كان عدواً لجبريل فإن الله عدو له؛ ومن كان عدواً لميكائيل فإن الله عدو له"[١٢].

قال الواحدي: ومعنى الآية: من كان عدوًا لأحد هؤلاء فإن الله عدو له، لأن عدوّ الواحد عدو الجميع، وعدو محمدٍ عدوٌّ الله. ومثله قوله: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [النساء: ١٣٦]؛ لأن الكافر بالواحد كافر بالكل.. ولم يقل: فهم أعداء له؛ لأنه تولى تلك العداوة بنفسه، وكفى رسله وملائكته أمر من عاداهم. وإنما لم يقل: فإن الله عدو لهم أوله بالكناية؛ ليدل مع أنه عدو لهم على أنهم كافرون بهذه العداوة"[١٣].

قال الشوكاني:" والعداوة من العبد هي صدور المعاصي منه لله والبغض لأوليائه والعداوة من الله للعبد هي تعذيبه بذنبه وعدم التجاوز عنه والمغفرة له"[١٤].

قال ابن كثير:" وإنما أظهر الاسم هاهنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره ، وإعلامهم أن من عادى أولياء الله فقد عادى الله ، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة ، كما تقدم

---

(١) تفسير المراغي:١٧٦/١.
(٢)راجع صحيح مسلم ص٨٠٠، كتاب صلاة المسافرين، باب: ٢٦: صلاة النبي ﷺ ودعاؤه، حديث رقم ١٨١١ [٢٠٠] ٧٧٠.
(٣) تفسير ابن عثيمين:٣١٥/١-٣١٦.
(٤) التفسير البسيط: ١٧٨/٣.
(٥) تفسير المراغي: ١٧٦/١.
(٦) تفسير ابن كثير: ٣٤٢/١.
(٧) تفسير ابن عثيمين:٣١٥/١.
(٨) صفوة التفاسير: ٧١/١.
(٩) تفسير المراغي: ١٧٦/١.
(١٠) تفسير المراغي: ١٧٦/١.
(١١) الكشاف: ١٧٠/١.
(١٢) تفسير ابن عثيمين:٣١٥/١.
(١٣) التفسير البسيط: ١٧٩/٣ظن وانظر: زاد المسير: ١١٩/١، وتفسير ابن كثير: ١٤١/١.
(١٤) فتح القدير: ١١٧/١.

الحديث : "من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالحرب"[١]، وفي الحديث الآخر : "إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب"[٢]، وفي الحديث الصحيح : "وَمَن كنتُ خَصْمَه خَصَمْتُه"[٣]"[٤].

وقد أتى باسم {الله} ظاهراً ، ولم يأت: بأنه عدوّ، لاحتمال أن يفهم أن الضمير عائد على اسم الشرط فينقلب المعنى ، أو عائد على أقرب مذكور ، وهو ميكال ، فأظهر الاسم لزوال اللبس، أو للتعظيم والتفخيم ، لأن العرب إذا فخمت شيئاً كررته بالاسم الذي تقدم له، وذلك كقوله تعالى:{لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}[الحج: ٦٠][٥]، ومنه قول الشاعر[٦] :

لا أرى الموت يسبق الموت شيئا نغَّص الموتُ ذا الغنى والفقيرا

إذ كرر الشاعر(الموت) في جملة واحدة. فـ (الموت) الأول مفعول لـ (أرى)، و(يسبق الموت) مفعول ثانٍ، وكان ينبغي أن يقول: يسبقه شيءٌ؛ لأن الاسم الظاهر متى احتيج إلى تكرير ذكره في جملة واحدة، كان الاختيار أن يُذكر ضميرُهُ، ولكن التكرير قد يراد به التعظيم والتفخيم.

ومنه قول جرير[٧]:

ليتَ الغرابَ غداة ينعَبُ دائبا كان الغرابُ مقطَّع الأوداج

وقال الزمخشري:" "فجاء بالظاهر ليدل على أن الله عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة كفر. وإذا كانت عداوة الأنبياء كفراً ، فما بال الملائكة ؟ وهم أشرف"[٨].

قلت: وهذا عند المعتزلة، أما عند أهل السنة فالأنبياء أشرف.

وقد خص الله {جبريل وميكائيل}، بالذكر وإن كان ذكر الملائكة قد عمهما للأسباب الآتية[٩]:

الأول: قالوا أفردهما بالذكر تشريفا لهما، كما قال : {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} [الرحمن : ٦٨]، كقوله: {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} [الرحمن: ٦٨]، وكقوله: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} [الجن: ١٨]، بعد قوله: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [النجم:٣١].

قال الرازي: " لفضلهما كأنهما لكمال فضلهما صارا جنسا آخر سوى جنس الملائكة"[١٠].

والثاني: وقيل : خصا لأن اليهود ذكروهما، ونزلت الآية بسببهما، فذكرهما واجب لئلا تقول اليهود : إنا لم نعاد الله وجميع ملائكته، فنص الله تعالى عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص.

---

(١) هكذا ساق ابن كثير ـ رحمه الله ـ الحديث والظاهر أنه كتبه من حفظه، وهو حديث قدسي، كما هو ظاهر، وهو في البخاري:١١/٢٩٢-٢٩٣فتح، ولفظه:"إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب" فالمؤلف سها حين أثبت كلمة(بارزني)، بدل(آذنته). ومعنى الحديث ثابت من حديث عائشة، رواه أحمد في المسند:٢٥٦/٦، ومن حديث معاذ، رواه ابن ماجة(٣٩٨٩).

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وقد رواه أبو نعيم في الحلية:١١/١، موقوفا على ابن عباس:"وأنا الثائر لأوليائي يوم القيامة".

(٣) مسند الإمام أحمد(٨٤٧٧):ص٣٥٨/٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٤٣/١.

(٥) انظر: البحر المحيط: ٢٧٦/١.

(٦)وهو لعدي بن زيد، في "ديوانه" ٦٥. وورد منسوبًا له في "شرح ديوان الحماسة" للمرزوقي: ١/ ٣٦، "أمالي ابن الشجري" ١/ ٣٧٩، ٢/ ٦، "الأشباه والنظائر في النحو" للسيوطي: ٨/ ٣٠، "الخزانة" ١/ ٣٧٨، ٣٧٩، ٦/ ٩٠، ١١/ ٣٦٦. وقيل: البيت لسوادة بن عدي، وورد منسوبًا له في "كتاب سيبويه" ١/ ٦٢، والنكت في تفسير "كتاب سيبويه" للشنتمري: ١/ ١٩٨، "شرح شواهد المغني" ٢/ ٨٧٦، الاقتضاب" ٣٦٨، وقال في "لسان العرب": (لعدي أو سوادة بن عدي). ٨/ ٤٤٨٨ (نغص). وصحح البغداديُّ في "خزانة الأدب" ١/ ٣٨١ أن البيت لعدي بن زيد. وورد غير منسوب في "الخصائص" ٣/ ٥٣، "إيضاح الوقف والابتداء" ١/ ٣٢٠، ٢/ ٦٩٤، "شرح أبيات الكتاب" للنحاس: ٦٧، " القطع والائتناف" له: ٢١٨، "ضرورة الشعر" للسيرافي ١٩٠، "العمدة" لابن رشيق: ٦٨٦، "البيان" للأنباري: ١/ ٦٣، ١٢٢، ١٤٤، ٣٧٩، ٢/ ٤٤، ١٠٧، "مغني اللبيب"٦٥٠.

(٧)ديوانه ٨٩ ، وأمالي ابن الشجرى ١ : ٢٤٣ ، وغيرهما . ورواية ديوانه " ينعت بالنوى " وهو الجيد ، فإن قبله : إن الغراب بما كرهت لمولع ... بنوى الأحبة دائم التشحاج ، والأوداج جمع ودج : وهو عرق من عروق تكتنف الحلقوم .

(٨) الكشاف:١/!٧٠.

(٩) انظر: تفسير القرطبي: ٣٦/٢، والتفسير البسيط: ١٧٨/٣.

(١٠) تفسير الرازي: ١٨١/٣

قال الرازي: "أن الذي جرى بين الرسول واليهود هو ذكرهما والآية إنما نزلت بسببهما، فلا جرم نص على اسميهما، واعلم أن هذا يقتضي كونهما أشرف من جميع الملائكة وإلا لم يصح هذا التأويل، وإذا ثبت هذا فنقول: يجب أن يكون جبريل عليه السلام أفضل من ميكائيل"[١]، ثم علل ذلك لوجوه[٢]:
أحدها: أنه تعالى قدم جبريل عليه السلام في الذكر، وتقديم المفضول على الفاضل في الذكر مستقبح عرفا فوجب أن يكون مستقبحا شرعا لقوله عليه السلام: " مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ" [٣].
وثانيها: أن جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن والوحي والعلم وهو مادة بقاء الأرواح، وميكائيل ينزل بالخصب والأمطار وهي مادة بقاء الأبدان، ولما كان العلم أشرف من الأغذية وجب أن يكون جبريل أفضل من ميكائيل.
وثالثها: قوله تعالى في صفة جبريل: {مطاع ثم أمين} ذكره يوصف المطاع على الإطلاق، وظاهره يقتضي كونه مطاعا بالنسبة إلى ميكائيل فوجب أن يكون أفضل منه.
الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن من عادى الله فهو كافر؛ لقوله تعالى: { من كان عدواً لله }، ثم قال تعالى: {فإن الله عدوّ للكافرين}.
٢. ومنها: أن من كان عدواً للملائكة، أو للرسل فإنه عدو لله؛ لأن الملائكة رسل الله، كما قال تعالى: {جاعل الملائكة رسلاً} [فاطر: ١] ؛ والرسل البشريون أيضاً رسل لله؛ فمن عادى ملائكة الله من جبريل أو غيره، أو عادى الرسل من محمد أو غيره فقد عادى الله عزّ وجلّ..
فإن قيل: فهل من عادى المؤمنين يكون معادياً لله ؟
فالجواب: هذا محل توقف في دلالة الآية عليه؛ اللهم إلا إذا عادى المؤمنين لكونهم تمسكوا بشريعة الرسل؛ فهذا يظهر أن الله يكون عدواً لهم، لأن من عاداهم إنما فعل ذلك بسبب أنهم تمسكوا بما جاءت به الرسل؛ فكان حقيقة معاداتهم أنهم عادوا رسل الله، كما قال أهل العلم في قوله تعالى: {إن شانئك هو الأبتر} [الكوثر: ٣] أي مبغضك، ومبغض ما جئت به من السنة هو الأبتر؛ وفي الحديث الصحيح أن الله تعالى في الحديث القدسي قال: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب"[١] .
٣. ومن فوائد الآيتين: أن كل كافر فالله عدوّ له؛ لقوله تعالى:{ فإن الله عدوّ للكافرين}
٤. ومنها: إثبات صفة العداوة من الله . أي أن الله يعادي؛ وهي صفة فعلية كالرضا، والغضب، والسخط، والكراهة؛ و "المعاداة" ضدها الموالاة الثابتة للمؤمنين، كما قال الله تعالى: {الله وليّ الذين آمنوا} [البقرة: ٢٥٧].

القرآن
{وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)} [البقرة : ٩٩]
التفسير:
ولقد أنزلنا إليك-أيها الرسول- آيات بينات واضحات تدل على أنّك رسول من الله صدقا وحقا، وما ينكر تلك الآيات إلا الخارجون عن دين الله.

---

(١) تفسير الرازي: ١٨١/٣.
(٢) انظر: تفسير الرازي: ١٨١/٣-١٨٢.
(٣) رواه احمد(٣٧٩/١) (٣٦٠٠)، والطبراني: ١١٢/٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد(١١٧/١): رواه أحمد والبزار والطبراني ورجاله موثوقون، قال الألباني في (السلسلة الضعيفة والموضوعة)(٥٣٢): والأصح وقفه على ابن مسعود وقال: في (٥٣٣): لا أصل له مرفوعا وإنما ورد موقوفا على ابن مسعود رضي الله عته. وقال شعيب الأرناؤوط محقق(المسند) إسناده حسن

(١) أخرجه البخاري ص٥٤٥، كتاب الرقاق، باب ٣٨: التواضع، حديث رقم ٦٥٠٢.

في سبب نزول الآية: روي عن ابن عباس قال : "قال ابن صوريا الفِطيوني لرسول الله ﷺ: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها! فأنزل الله عز وجل :{وَلَقَدْ أَنزلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلا الْفَاسِقُونَ}!"[١].

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ }[البقرة:٩٩]، " أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك"[٢].

قال الصابوني:" أي والله لقد أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات دالآت على نبوتك"[٣].

قال ابن عباس:" يقول : فأنت تتلوه عليهم ، وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك ، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتابا ، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه. يقول الله : ففي ذلك لهم عبرة وبيان ، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون"[٤].

قال الواحدي:" و{البينات}: جمع بينة... والبينة: الدلالة الفاصلة بين القضية الصادقة والكاذبة؛ لأنها من إبانة أحد شيئين عن الآخر، فيزول الالتباس بها. واستقصاء الكلام في هذا عند قوله: {عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ} [البقرة: ٦٨]"[٥].

قال الطبري: وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله الذي أنزله إلى محمد ﷺ من خفايا علوم اليهود ومكنون سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم - وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه، من أحكامهم التي كانت في التوراة. فأطلعها الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، فكان، في ذلك من أمره، الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يدعه إلى إهلاكها الحسد والبغي. إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة، تصديق من أتى بمثل الذي أتى به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصفت من غير تعلم تعلمه من بشر، ولا أخذ شيء منه عن آدمي"[٦].

وفي تسمية القرآن بـ{الآيات}، وجوه[٧]:

أحدها: أن الآية هي الدالة وإذا كانت أبعاض القرآن دالة بفصاحتها على صدق المدعي كانت آيات.

وثانيها: أن منها ما يدل على الإخبار عن الغيوب فهي دالة على تلك الغيوب.

وثالثها: أنها دالة على دلائل التوحيد والنبوة والشرائع فهي آيات من هذه الجهة، فإن قيل: الدليل لا يكون إلا بينا فما معنى وصف الآيات بكونها بينة، وليس لأحد أن يقول المراد كون بعضها أبين من بعض لأن هذا إنما يصح لو أمكن في العلوم أن يكون بعضها أقوى من بعض وذلك محال، وذلك لأن العالم بالشيء إما أن يحصل معه تجويز نقيض ما اعتقده أو لا يحصل، فإن حصل معه ذلك التجويز لم يكن ذلك الاعتقاد علما وإن لم يحصل استحال أن يكون شيء آخر آكد منه.

قلنا-الإمام الرازي-: التفاوت لا يقع في نفس العلم بل في طريقه؛ فإن العلوم تنقسم إلى ما يكون طريق تحصيله والدليل الدال عليه أكثر مقدمات فيكون الوصول إليه أصعب، وإلى ما يكون أقل مقدمات فيكون الوصول إليه أقرب، وهذا هو الآية البينة[٨].

قوله تعالى: : { وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلا الْفَاسِقُونَ}[البقرة:٩٩]، " أي وما يجحد بهذه الآيات ويكذب إلا الخارجون عن الطاعة الماردون على الكفر"[٩].

---

(١) أخرجه الطبري(١٦٣٧):ص ٣٩٨/٢، وابن أبي حاتم(٩٧٠):ص١٨٣/١، والأثر ذكره ابن هشام ٢ / ١٩٦. وتفسير ابن كثير: ٣٤٤/١.

(٢) تفسير الطبري: ٣٩٧/٢.

(٣) صفوة التفاسير: ٧٣/١.

(٤) أخرجه الطبري(١٦٣٦):ص٣٩٧/٢.

(٥) التفسير البسيط: ١٨٠/٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٧/٢-٣٩٨.

(٧) انظر: تفسير الرازي: ١٨٢/٣-١٨٣.

(٨) انظر: تفسير الرازي: ١٨٢/٣-١٨٣.

(٩) صفوة التفاسير: ٧٣/١.

قال الواحدي:" أي: الخارجون عن أديانهم، واليهود خرجت بالكفر بمحمد - ﷺ - عن شريعة موسى عليه السلام"[١].
قال مجاهد: "{الفاسقون}، العاصون"[٢].
وعن زيد ابن أسلم: في قوله: {الفاسقون}، قال: الكاذبون"[٣].
قال السعدي:" تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحجة على من عاند، وهي في الوضوح والدلالة على الحق، قد بلغت مبلغا عظيما ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر"[٤].
قال ابن عاشور: "المعنى: ما يكفر بهاته الآيات إلا من كان الفسق شأنه ودأبه لأن ذلك بهيئه للكفر بمثل هذه الآيات، فالمراد بالفاسقين المتجاوزون الحد في الكفر المتمردون فيه، والإخبار وقع بالمضارع الدال على التجدد، والتوصيف وقع باسم الفاعل المعروف باللام[٥].
وفي قوله تعالى{ إِلا الْفَاسِقُونَ}[البقرة:٩٩]، وجهان[٦]:
أحدهما: أن كل كافر فاسق ولا ينعكس فكأن ذكر الفاسق يأتي على الكافر وغيره فكان أولى.
الثاني: أن يكون المراد ما يكفر بها إلا الكافر المتجاوز عن كل حد في كفره والمعنى أن هذه الآيات لما كانت بينة ظاهرة لم يكفر بها إلا الكافر الذي يبلغ في الكفر إلى النهاية القصوى وتجاوز عن كل حد مستحسن في العقل والشرع.
قال أبو حيان: "المراد بالفاسقين هنا : الكافرون، لأن كفر آيات الله تعالى هو من باب فسق العقائد، فليس من باب فسق الأفعال، وقال الحسن: "إذا استعمل الفسق في شيء من المعاصي، وقع على أعظمه من كفر أو غيره "[٧]. انتهى، وناسب قوله : {بينات} لفظ الكفر، وهو التغطية، لأن البين لا يقع فيه إلباس، فعدم الإيمان به ليس لشبهة لأنه بين، وإنما هو تغطية وستر لما هو واضح بين.. وكنى بالفسق هنا عن الكفر، لأن الفسق : خروج الإنسان عما حدّ له.. فكأنه قيل : وما يكفر بها إلا المبالغ في كفره، المنتهي فيه إلى أقصى غاية"[٨]وفى قوله سبحانه: {وَما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ} تهديد لليهود، ووعيد لهم، على كفرهم وفسقهم فإنه لا يكفر بهذه الآيات التي أنزلها على محمد -ﷺ- إلا الفاسق الخارج عن طاعة الله، فاليهود هم الكافرون الفاسقون، كفروا بمحمد-ﷺ-، وفسقوا عن دينهم الذي كانوا عليه، أي خرجوا عن دينهم، حين أنكروا ما فيه من أمر محمد-ﷺ- ورسالته[٩].
و(الفسق): "العصيان والترك لأمر الله عز وجل، والخروج عن طريق الحق"[١٠].
قال أبو العباس: (الفسق) في اللغة: الخروج[١١].
وقال الليث: "(الفسق) الترك لأمر الله، ومثله (الفسوق)"[١٢].
قال أبو عبيدة: وأصل(الفسق) في اللغة: الجور، الميل عن الطاعة، يقال: (فسق) إذا جار"[١٣]، ومنه قول الشاعر [١]:

---

(١)التفسير البسيط: ١٨٠/٣.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٧١):ص١٨٣/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٧٢):ص١٨٣/١.
(٤) تفسير السعدي:٦٠.
(٥) انظر: تفسير ابن عاشور: ٦٢٤/١.
(٦) انظر: تفسير الرازي: ١٨٣/٣.
(٧) وانظر قول الحسن في : الكشاف: ١٧١/١.
(٨)البحر المحيط: ٢٨٩/١.
(٩) انظر: التفسير القرآني للقرآن :١/ ١١٣.
(١٠) لسان العرب:(فسق):ص٣٠٨/١٠.
(١١) تهذيب اللغة،(فسق):٢٧٧٨/٣، ولسان العرب:(فسق):ص٣٠٨/١٠.
(١٢)تهذيب اللغة،(فسق):٢٧٨٨/٣.
(١٣)مجاز القرآن" ١/ ٤٠٦، "تهذيب اللغة" (فسق) ٣/ ٢٧٨٨.

يهوِين في نَجد وغورًا غائرا   فواسِقًا عَنْ قَصْدِهِ جَوَائِرا

قال الفراء (الفسق): "الخروج عن الطاعة، والعرب تقول: فسقت الرطبة من قشرها، لخروجها منه، وكأن الفأرة إنما سميت (فويسقة) لخروجها من جحرها على الناس، ومنه قوله تعالى:{ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ}[الكهف:٥٠] أي خرج عَن طاعة ربه"(٢).

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن القرآن وحي من الله عزّ وجلّ..

٢. ومنها: عظمة القرآن؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إليه، وجعله آية..

٣ . ومنها: ثبوت علوّ الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { ولقد أنزلنا إليك آيات بينات }؛ والنّزول لا يكون إلا من أعلى؛ وعلوّ الله سبحانه وتعالى من صفاته الذاتية اللازمة له التي لم يزل، ولا يزال متصفاً بها؛ وأما استواؤه على العرش فإنه من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته..

٤. ومنها: وصف القرآن بأنه آيات بينات، ولا ينافي هذا قوله تعالى: {منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات} [آل عمران: ٧] ؛ لأن هذا التشابه يكون متشابهاً على بعض الناس دون بعض؛ ولأنه يُحمل على المحكم، فيكون الجميع محكماً، كما قال تعالى: {فأما الذين في قلوبهم زيع فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم...} [آل عمران: ٧] الآية..

فالحاصل: أن القرآن . ولله الحمد . آيات بينات؛ ولكنه يحتاج إلى قلب ينفتح لهذا القرآن حتى يتبين؛ أما قلب يكره القرآن، ثم يأتي بما يُشتَبه فيه ليضرب القرآن بعضه ببعض فهذا لا يتبين له أبداً؛ إنما يتبين الهدى من القرآن لمن أراد الهدى؛ وأما من لم يرده فلا؛ ولهذا قال تعالى: { وما يكفر بها إلا الفاسقون }..

٥. ومن فوائد الآية: أنه لا يكفر بالقرآن إلا الفاسق..

٦. ومنها: أن من كفر به فهو فاسق..

٧. ومنها: إطلاق الفاسق على الكافر؛ وعلى هذا يكون الفسق على نوعين.:

فسق أكبر مخرج عن الملة، كما في قوله تعالى: {فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون * وأما الذين فسقوا فمأواهم النار} [السجدة: ١٩، ٢٠] الآية؛ ووجه الدلالة أنه تعالى جعل الفسق هنا مقابلاً للإيمان..

والثاني: فسق أصغر لا يخرج من الإيمان؛ ولكنه ينافي العدالة، كقوله تعالى: {ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان} [الحجرات: ٧] : فعطف {الفسوق} على {الكفر} ؛ والعطف يقتضي المغايرة..

مسألة :-

تنقسم آيات الله تعالى إلى قسمين: كونية، وشرعية؛ فالكونية مخلوقاته، كالشمس، والقمر، والنجوم، والإنسان، وغير ذلك؛ قال الله تعالى: {ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر} [فصلت: ٣٧] ، وقال تعالى: {ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين} [الروم: ٢٢] ؛ وأما الشرعية فهي ما أنزله الله تعالى على رسله من الشرائع، كقوله تعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته} [الجمعة: ٢] ، وقوله تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم..} [سبأ: ٤٣] الآية، وكذلك الآية التي نحن بصدد تفسيرها.

القرآن

{أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)} [البقرة : ١٠٠]

التفسير:

---

(١) البيت لرؤبة كما في "مجاز القرآن: ٤٠٦/١، وفيه (قصدها) بدل (قصده) ومثله عند "الطبري" ١٥/ ٢٦١، وبمثل رواية الواحدي ورد في "الزاهر" ١/ ٢١٨، "تهذيب اللغة" (فسق) ٣/ ٢٧٨٨، "اللسان" ٦/ ٣٤١٤، "القرطبي" ١/ ٢١٠. يصف الشاعر إبلا منعدلة عن قصد نجد.

(٢) معاني القرآن: ١٤٧/١، وانظر: التهذيب، (فسق): ٢٧٧٨/٣.

ما أقبح حال بني إسرائيل في نقضهم للعهود!! فكلما عاهدوا عهدًا طرح ذلك العهد فريق منهم، ونقضوه، فتراهم يُبْرِمون العهد اليوم وينقضونه غدًا، بل أكثرهم لا يصدِّقون بما جاء به نبي الله ورسوله محمد ﷺ.
اختلف في سبب نزول الآية على أقوال:
أحدها: قال المفسرون: "إن اليهود عاهدوا فيما بينهم، لئن خرج محمد - ﷺ - ليؤمنُنّ به، وليكونُنّ معه على مشركي العرب، فلما بُعِثَ نقضوا العهد وكفروا به "[١].
والثاني: وقال عطاء: "هي العهود التي كانت بين رسول الله - ﷺ - وبين اليهود، فنقضوها كفعل قريظة والنضير، عاهدوا ألا يعينوا عليه أحدًا، فنقضوا ذلك، وأعانوا عليه قريشًا يوم الخندق"[٢].
والثالث: أنها: "نزلت في مالك بن الصيف ، قال : والله ما أخذ علينا عهد في كتابنا أن نؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلّم ، ولا ميثاق"[٣].
قال الواحدي: "واتصال هذه الآية بما قبلها: من حيث إنهم كفروا بنقض العهد كما كفروا بالآيات"[٤].
قوله تعالى: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا}[البقرة:١٠٠]، أي "وكلّما أعطوا عهداً"[٥].
قال أبو حيان:" والمراد بهذا الاستفهام : الإنكار ، وإعظام ما يقدمون عليه من تكرر عهودهم ونقضها ، فصار ذلك عادة لهم وسجية. فينبغي أن لا يكترث بأمرهم ، وأن لا يصعب ذلك ، فهي تسلية للرسول صلى الله عليه وسلّم ، إذ كفروا بما أنزل عليه ، لأن ما كان ديدناً للشخص وخلقاً ، لا ينبغي أن يحتفل بأمره"[٦].
قال العلّامة ابن عثيمين: "قوله تعالى: {أوَ كلما}: الهمزة هنا للاستفهام؛ والواو للعطف؛ ومثل هذه الصيغة متكررة في القرآن كثيراً؛ وقد سبق الكلام عليها؛ أما { كلما } فإنها أداة شرط تفيد التكرار، أي كثرة وقوع شرطها، وجوابها؛ وكلما حصل الشرط حصل الجواب؛ فإذا قلت: "كلما جاء زيد فأكرمه" اقتضى تكرار إكرامه بتكرر مجيئه قلّ، أو كثر"[٧].
وقرأ أبو السمال العدوي وغيره : {أوْ كلما} بسكون الواو، وقرأ الحسن وأبو رجاء : {أو كلما عوهدوا}، على البناء للمفعول، وهي قراءة تخالف رسم المصحف، وقرئ:{عهدوا}، فيكون (عهدا) مصدرا[٨].
واختلف أهل العربية في حكم (الواو) التي في{أَوَكُلَّمَا}[البقرة:١٠٠]، على ثلاثة أوجه[٩]:
احدها: أنها زائدة، قاله الأخفش[١٠].
والثاني: أنها(أو) الساكنة(الواو)، حركت بالفتح، وهي بمعنى(بل). قاله الكسائي[١١].
قال أبو حيان:" وكلا القولين ضعيف"[١٢].
والثالث: أنها(واو) العطف، اختاره أبو حيان[١٣].
والراجح هو القول الأخير، بأنها حرف عطف، وقدّمت الهمزة لأن لها الصدارة في الكلام. والله أعلم.
وعلى هذا المذهب خرّج ذلك الزمخشري على أن يكون للعطف على {الفاسقين}، وقدّره : وما يكفر بها إلا الذين فسقوا ، أو نقضوا عهد الله مراراً كثيرة"[١].

([١]) التفسير البسيط: ١٨١/٣، وانظر: تفسير الثعلبي" ١/ ١٠٥٢، "الوسيط" ١/ ١٨١، "زاد المسير" ١/ ١٢٠، القرطبي ٢/ ٣٥.
([٢]) التفسير البسيط: ١٨١/٣، و ذكره الثعلبي في "تفسيره" ١/ ١٠٥٣، وابن الجوزي في "زاد المسير" ١/ ١٠٥، الرازي في "تفسيره" ٣/ ٢٠١، القرطبي في "تفسيره" ٢/ ٤٠ وأبو حيان في "البحر المحيط" ١/ ٢٧٨
([٣]) البحر المحيط: ٢٧٨/١.
([٤]) التفسير البسيط: ١٨١/٣.
([٥]) صفوة التفاسير: ٧٧٣/١.
([٦]) البحر المحيط: ٢٧٨/١.
([٧]) تفسير ابن عثيمين: ١٦٩/١.
([٨]) انظر: المحرر الوجيز: ١٨٥/١، والكشاف:١٧١/١، والبحر المحيط:٢٧٨/١، والقراءة في القراءات الشاذة:٨.
([٩]) انظر: البحر المحيط: ٢٧٨/١، وتفسير الطبري: ٣٩٩/٢-٤٠٠.
([١٠]) انظر: معاني القرآن له: ٣٢٦/١.
([١١]) انظر: تفسير القرطبي: ٣٩/٢، والبحر المحيط: ٢٧٨/١.
([١٢]) البحر المحيط: ٢٧٨/١.
([١٣]) انظر: البحر المحيط: ٢٧٨/١.

وعلى هذا النحو خرجه المهدوي وغيره على أن {أو} للخروج من كلام إلى غيره ، بمنزلة (أم) المنقطعة، فكأنه قال : بل كلما عاهدوا عهداً ، كقول الرجل للرجل ، لأعاقبنك ، فيقول له : أو يحسن الله رأيك ، أي بل يحسن رأيك أي بل يحسن رأيك ، وهذا التخريج هو على رأي الكوفيين ، إذ يكون أو عندهم بمنزلة (بل)، وأنشدوا شاهداً على هذه الدعوى قول الشاعر[٢] :

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى وصورتها أو أنت في العين أملح

وقد جاء أو بمعنى الواو في قوله[٣] :

من بين ملجم مهره أو سافع

وقوله[٤] :

صدور رماح أشرعت أو سلاسل

يريد : وشافع وسلاسل [٥].

قال الإمام الطبري: و"غير جائز أن يكون في كتاب الله حرف لا معنى له، وهذا يدل على فساد قول من زعم أن (الواو) و (الفاء) من قوله : (أو كلما) و(أفكلما) زائدتان لا معنى لهما"[٦].

قلتُ: إن وقوع الزيادة في القرآن، مختلف فيه بين أهل العلم، وكثير من أهل اللغة، والنحو، والبلاغة يقولون بوقوع الزيادة، ومرادهم بذلك أن الحروف زيدت لضرب من التأكيد، كما قال ابن يعيش في المفصل، وابن قتيبة في (تأويل مشكل القرآن) [٧].

ولو تتبعنا آراء علماء العربية والتفسير والنحو، لنتعرف على مقصدهم من معاني حروف الزيادة في الكتاب العزيز، لوجدناهم مختلفين بين مثبت لها وناف، فمنهم من أنكر أن يكون في كتاب الله حرف زائد، حيث أنكر من ذهب هذا المذهب كالرازي، وابن القيم أن يكون في كلام الله حشو، أو لغو، أو زيادة، وإن كان المثبتون لها هم أكثر أهل العلم حيث يسمونها أسماء أخر قال الزركشي في البرهان: "كثيرون ينكرون إطلاق هذه العبارة في كتاب الله، ويسمونه التأكيد ومنهم من يسميه بالصلة، ومنهم من يسميه المقحم، قال ابن جني : كل حرف زيد في كلام العرب، فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى"[٨].

والراجح في هذه المسألة: إثبات الزيادة بمعانيها التي وردت لها، وإنه لا يوجد حرف زائد في القرآن، أي دخولـه كخروجه، وقد أورد العلماء معاني هذه الحروف على أنها :

- تفيد توكيد العموم : أي توكيد المعنى العام للجملة.
- التنصيص على العموم.
- التوكيد لدفع توهم إرادة الجمع كما في لا.
- توكيد إثبات.
- توكيد نفي.

إلى غير ذلك من المعاني التي سأعرض لها عند تفسير الآيات التي تتضمن حروفاً زائدة وبيان دلالتها من خلال السياق، وإن كل مَنْ يدعى أنه لا زيادة في القرآن بالمعنى الذي ذكرت، إنما يذهب إلى إنزال القرآن منزلة أقل من مستوى كلام العرب الذين نزل القرآن

---

(١) الكشاف: ١٧١/١.

(٢) البين نسب لذي الرمة، وهو في محلق ديوانه: ١٨٥٧/٣، والخصائص: ٤٥٨/٢، والحتسب: ٩٩/١، ومعاني القرآن للفراء: ٧٢/١، والصحاح(أو) جون نسبة، وانظر: خزانة الأدب: ٦٥/١١، وما بعدها.

(٣) عجزب بيت، لحميد بن ثور، وصدره: قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم، انظر: ديوانه: ١١١. وسافع: آخذ بناصية مهره ليلجمه.

(٤) عجز بيت لجعفر بن علبة الحارثي، وصدره فقالوا لنا ثنتان لابد منهما، وهو في الأغاني: ٤٩/١٣، وشرح ديوان الحماسة: ٤٥/١، والصاهل والصاحج: ٥٤٧.

(٥) انظر: البحر المحيط: ٢٧٨/١.

(٦) تفسير الطبري: ٣٩٩/٢-٤٠٠.

(٧)الأشباه والنظائر، السيوطي: ٢٤٧.

(٨) البرهان: ٧٠/٣.

بلغتهم، وتحداهم وقهرهم وأعجزهم عن أن يأتوا بمثله، فكل زيادة وردت في الكتاب العزيز كان لها معنى ومدلول وسر بلاغي لم يفقهه إلا من تملك ناصية اللغة العربية، وأتقنها شعراً ونثراً وبلاغة، وهؤلاء هم أجلاء أهل العلم والفقه، من لدن أصحاب النبي ﷺ وحتى يومنا هذا، وإلى قيام الساعة.

ومن ردّ الزيادة بهذه المعاني التي ذكرت بعضها، وبدعوى أنها إساءة إلى كتاب الله تعالى، فقد قام بلي أعناق النصوص والآيات، وتجشم الصعاب متكلفاً ما لا طائل وراءه، وليس يشين كتاب الله إذا نهج على منوال كلام العرب، وسلك مسلكهم في الخطاب، أن تكون فيه هذه الزيادة الرائعة الحبيبة إلى النفس المتأولة تأويلاً سليماً.

و(العهد)، هو الميثاق الذي أعطته بنو إسرائيل ربهم ليعملن بما في التوراة مرة بعد أخرى، ثم نقض بعضهم ذلك مرة بعد أخرى. فوبخهم جل ذكره بما كان منهم من ذلك، وعير به أبناءهم إذ سلكوا منهاجهم في بعض ما كان جل ذكره أخذ عليهم بالإيمان به من أمر محمد ﷺ من العهد والميثاق، فكفروا وجحدوا ما في التوراة من نعته وصفته، فقال تعالى ذكره : أو كلما عاهد اليهود من بني إسرائيل ربهم عهدا وأوثقوه ميثاقا، نبذه فريق منهم، فتركه ونقضه[١].

قوله تعالى: {نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ}[البقرة:١٠٠]، أي:" نقضه جماعة منهم"[٢].

قال أبو حيان:أي" طرحه، أو نقضه، أو ترك العمل به، أو اعتزله، أو رماه. أقوال خمسة، وهي متقاربة المعنى"[٣].

قال البيضاوي:" وإنما قال فريق لأن بعضهم لم ينقض"[٤].

ونسبة (النبذ) إلى (العهد)، من المجاز ، لأن العهد معنى، والنبذ حقيقة ، إنما هو في المتجسدات : {فَأَخَذْنَـاهُ وَجُنُودَه فَنَبَذْنَـاهُمْ فِى الْيَمِّ}[القصص:٤٠][الذاريات:٤٠]، {إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا}[مريم:١٦]، فنبذ خاتمه ، فنبذ الناس خواتيمهم ، {لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ}[القلم:٤٩][٥] .

و(النبذ) أصله - في كلام العرب - الطرح، ولذلك قيل للملقوط : (المنبوذ)،لأنه مطروح مرمي به[٦]، وقال الزمخشري: " و(النبذ): الرمي بالذمام ورفضه"[٧].

ومنه سمي النبيذ (نبيذا)، لأنه زبيب أو تمر يطرح في وعاء، ثم يعالج بالماء. وأصله (مفعول) صرف إلى (فعيل)، أعني أن (النبيذ) أصله (منبوذ) ثم صرف إلى (فعيل) فقيل : (نبيذ)، كما قيل : (كف خضيب، ولحية دهين) - يعني : مخضوبة ومدهونة، يقال منه : (نبذته أنبذه نبذا)، كما قال أبو الأسود الدؤلي[٨]:

نظرت إلى عنوانه فنبذته كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا

وقال آخر[٩]:

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا نبذوا كتابك واستحلوا المحرما

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٠/٢.
(٢) صفوة التفاسير:٧٣/١.
(٣) البحر المحيط: ٢٧٨/١.
(٤) تفسير البيضاوي: ٩٧/١.
(٥) انظر: البحر المحيط: ٢٧٨/١.
(٦) انظر: لسان العرب(نبذ):ص٥١١/٣.
(٧)انظر: تفسير الكشاف: ١٧١/١.
(٨)ديوانه : ٢١ (في نفائس المخطوطات : ٢) ، وسيأتي في ٢٠ : ٤٩ - ٥٠ (بولاق) ، ومجاز القرآن : ٤٨ ، من أبيات كتب بها إلى صديقه الحصين بن الحر ، وهو وال على ميسان ، وكان كتب إليه في أمر يهمه ، فشغل عنه ؛ وقبل البيت :
وخبرني من كنت أرسلت أنما أخذت كتابي معرضا بشمالكا
(٩) البيت من شواهد القرطبي: ٤٠/٢، ولم اتعرف على قائله.

وهذا مثل يضرب لمن استخف بالشيء فلا يعمل به، تقول العرب : اجعل هذا خلف ظهرك، ودبرا منك، وتحت قدمك، أي اتركه وأعرض عنه، قال الله تعالى : {وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً} [هود : ٩٢]. وأنشد الفراء[١]:

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي   بظهر فلا يعيا علي جوابها

و(الفريق) الجماعة، لا واحد له من لفظه، بمنزلة (الجيش) و (الرهط) الذي لا واحد له من لفظه[٢].

قال الرازي: "إنما قال: {نبذه فريق}، لأن في جملة من عاهد من آمن أو يجوز أن يؤمن فلما لم يكن ذلك صفة جميعهم خص الفريق بالذكر، ثم لما كان يجوز أن يظن أن ذلك الفريق هم الأقلون بين أنهم الأكثرون فقال: {بل أكثرهم لا يؤمنون}.

قوله تعالى: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}[البقرة:١٠٠]، "أي بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق لذلك ينقضون العهود والمواثيق"[٣].

قال البيضاوي:" رد لما يتوهم من أن الفريق هم الأقلون، أو أن من لم ينبذ جهاراً فهم مؤمنون به خفاء"[٤].

وفي قوله تعالى: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}[البقرة:١٠٠] قولان[٥]:

الأول: أكثر أولئك الفساق لا يصدقون بك أبدا لحسدهم وبغيهم.

والثاني: لا يؤمنون: أي لا يصدقون بكتابهم لأنهم كانوا في قومهم كالمنافقين مع الرسول يظهرون لهم الإيمان بكتابهم ورسولهم ثم لا يعملون بموجبه ومقتضاه.

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن اليهود لا يوثق منهم بعهد؛ لأنهم كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم..

٢. ومنها: أن نبذ فريق من الأمة يعتبر نبذاً من الأمة كلها. ما لم يتبرؤوا منه؛ فإن تبرؤوا منه فإنهم لا يلحقهم عاره؛ لكن إذا سكتوا فإن نبذ الفريق نبذ للأمة كلهم؛ وجه ذلك أن الله وبخ هؤلاء على نبذ فريق منهم مع أنهم لم يباشروه..

٣. ومنها: أن من أهل الكتاب من لم ينبذ كتاب الله وراء ظهره؛ بل آمن به كالنجاشي من النصارى، وعبد الله بن سلام من اليهود..

٤.ومن فوائد الآية:أن من نبذ العهد من هذه الأمة فقد ارتكب محظورين:

أحدهما: النفاق؛ لقول النبي ﷺ: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف؛ وإذا اؤتمن خان"[١]، وفي الحديث الآخر: "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها..."[٢]، وذكر منها: "إذا عاهد غدر.. ".

والثاني: مشابهة اليهود[٦].

القرآن

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)} [البقرة : ١٠١]

---

(١) البيت للفرزدق، يخاطب تميم بن زيد القينى وكان على السند، انظر: النقائض: ٣٨١، طبع أوربا.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٠١/٢-٤٠٢.

(٣) صفوة التفاسير: ٧٣/١.

(٤) تفسير البيضاوي: ٩٧/١.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب:٦١٦/٣.

(١) أخرجه البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٢٤: علامات المنافق، حديث رقم ٣٣؛ وأخرجه مسلم ص٦٩٠، كتاب الإيمان، باب ٢٥: خصال المنافق، حديث رقم ٢١١ [١٠٧] ٥٩.

(٢) أخرجه البخاري ص١٩٣، كتاب المظالم، باب ١٧: إذا خاصم فجر، حديث رقم ٢٤٥٩؛ وأخرجه مسلم ص٦٩٠، كتاب الإيمان، باب ٢٥: خصال المنافق، حديث رقم ٢١٠ [١٠٦] ٥٨.

(٦) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٧٠/١.

التفسير:
ولما جاءهم محمد رسول الله ﷺ بالقرآن الموافق لما معهم من التوراة طرح فريق منهم كتاب الله، وجعلوه وراء ظهورهم، شأنهم شأن الجهال الذين لا يعلمون حقيقته.
قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}[البقرة:١٠١]، أي وحين جاءهم: رسول مرسل من عند الله. وهو محمد ﷺ"[١].
قال المراغي:" أي إنه حين جاء النبي صلى الله عليه وسلم"[٢].
قال السدي:" : لما جاءهم محمد ﷺ"[٣].
قال الزجاج:" يعني به النبي - ﷺ - لأن الذي جاءَ به مصَدّق التوْرَاةَ والإِنجيلَ"[٤].
قال البيضاوي:" كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام"[٥].
قال السعدي:" أي: ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق"[٦].
واختلف في قوله تعالى:{ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ}[البقرة:١٠١]، على ثلاثة أقوال[٧]:
أحدها: أن الرسول ، محمد صلى الله عليه وسلّم.
والثاني:أنه عيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام.
والثالث: أو معناه :الرسالة ، فيكون مصدراً ، كما فسروا بذلك قوله[٨]:
لقد كذب الواشون ما بحت عنده   بليلي ولا أرسلتهم برسول
أي برسالة.
قال الراغب:" فالكل صحيح ومراد"[٩].
قال أبو حيان:" والظاهر الأول ، لأن الكلام مع اليهود إنما سيق بالنسبة إلى محمد صلى الله عليه وسلّم"[١٠].
قال الآلوسي:"وقوله { مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، متعلق بجاء أو بمحذوف وقع صفة للرسول لإفادة مزيد تعظيمه إذ قدر الرسول على قدر المرسل"[١١].
قوله تعالى:{مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ}[البقرة:١٠١]، " شاهد للتوراة، والإنجيل بالصدق"[١٢].
قال السعدي:" الموافق لما معهم"[١٣].
قال المراغي:" بكتاب مصدّق للتوراة التي بين أيديهم بما فيه من أصول التوحيد ، وقواعد التشريع ، وروائع الحكم والمواعظ ، وأخبار الأمم الغابرة"[١٤].
قال الصابوني:" أي مصدقاً للتوراة وموافقاً لها في أصول الدين ومقرراً لنبوة موسى عليه السلام"[١٥].
قال ابن عثيمين:" أي للذي معهم من التوراة إن كانوا من اليهود، ومن الإنجيل إن كانوا من النصارى؛ والحديث في هذه الآيات كلها عن اليهود"[١٦].

---

(١) تفسير ابن عثيمين:٣٢٣/١.
(٢) تفسير المراغي: ١٧٩/١.
(٣) أخرجه الطبري(١٦٤٣):ص٤٠٣/٢.
(٤) معاني القرآن: ١٨٢/١.
(٥) تفسير البيضاوي: ٩٧/١.
(٦) تفسير السعدي: ٦٠.
(٧) انظر: البحر المحيط: ٣٣٥.
(٨) البيت لكثير عزة، انظر ديوانه: ٢٧٨. برواية: برسيل، بدل برسول.
(٩) تفسير الرابغ الأصفهاني: ٢٧٢/١.
(١٠) البحر المحيط: ٣١٦/١.
(١١) روح المعاني: ٣٣٥/١.
(١٢) تفسير ابن عثيمين:١٤٧/١.
(١٣) تفسير السعدي: ٦٠.
(١٤) تفسير المراغي: ١٧٩/١.
(١٥) صفوة التفاسير: ٧٣/١.
(١٦) تفسير ابن عثيمين:٣٢٣/١.

قال الطبري:" يعني به أن محمدا ﷺ يصدق التوراة والتوراة تصدقه ، في أنه لله نبي مبعوث إلى خلقه"[١].
قال الآلوسي:" من حيث إنه صلى الله تعالى عليه وسلم جاء على الوصف الذي ذكر فيها، أو أخبر بأنها كلام الله تعالى المنزل على نبيه موسى عليه السلام، أو صدق ما فيها من قواعد التوحيد وأصول الدين، وأخبار الأمم والمواعظ والحكم، أو أظهر ما سألوه عنه من غوامضها، وحمل بعضهم «ما» على العموم لتشمل جميع الكتب الإلهية التي نزلت قبل"[٢].
وإن تصديق القرآن لما معهم من وجهين[٣]:
الأول: أنه وقع مطابقاً لما أخبرت التوراة، والإنجيل به.
والثاني: أنه قد شهد لهما بالصدق؛ فالقرآن يدل دلالة واضحة على أن الله أنزل التوراة، وأنزل الإنجيل.
وهذه شهادة لهما بأنهما صدق؛ وكذلك التوراة، والإنجيل قد ذُكر فيهما من أوصاف القرآن، ومن أوصاف محمد-ﷺ- حتى صاروا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ فإذا وقع الأمر كما ذُكر فيهما صار ذلك تصديقاً لهما.
وقرأ ابن أبي عبلة «مصدقا» بالنصب على الحال من النكرة الموصوفة[٤].
قوله تعالى:{ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ}[البقرة:١٠١]، "أي طرح أحبارهم وعلماؤهم التوراة وأعرضوا عنها بالكلية"[٥].
قال ابن كثير: "أي : اطَّرَحَ طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم ، مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم"[٦].
قال السدي: ": لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها ، فاتفقت التوراة والقرآن ، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف ، وسحر هاروت وماروت"[٧].
قال الشعبي: "هو بين أيديهم يقرؤونها، ولكن نبذوا العمل به"[٨].
وقال سفيان بن عُيينة:"أدرجوه في الحرير والديباج، وحلَّوه بالذهب والفضة، ولم يُحِلّوا حلاله ولم يحرّموا حرامه، فذلك النبذ"[٩].
قال الطبري:" يعني بذلك : أنهم جحدوه ورفضوه بعد أن كانوا به مقرين ، حسدا منهم له وبغيا عليه"[١٠].
قال المراغي:" وقد جعل تركهم إياها وإنكارهم لها إلقاء لها وراء الظهر ، لأن من يلقى الشيء وراء ظهره لا يراه فلا يتذكره"[١١].
قال ابن عثيمين:" وأضيف [الكتاب] إلى الله، لأنه المتكلم به؛ فالقرآن الذي نقرؤه الآن هو كلام ربنا. تبارك وتعالى. تكلم به حقيقة بلفظه، ومعناه، وسمعه منه جبريل، ثم أتى به إلى النبي ﷺ فنزل به على قلب النبي ﷺ
حتى وعاه، وأداه إلى الصحابة؛ والصحابة أدوه إلى التابعين، وهكذا حتى بقي إلى يومنا هذا. ولله الحمد؛ وسمي القرآن كتاباً، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ؛ وفي الصحف التي بأيدي الملائكة؛ وفي الصحف التي بأيدي البشر"[١٢].
قال الواحدي:" وعنى بالـ{فريق} في هذه الآية: علماء اليهود الذين تواطؤوا على كتمان أمر محمد - صلى الله عليه وسلم -"[١٣].

([١]) تفسير الطبري:٤٠٣/٢.
([٢]) روح المعاني: ٣٣٥/١.
([٣]) انظر: تفسير ابن عثيمين:١٤٧/١.
([٤]) انظر: روح المعاني: ٣٣٥/١.
([٥]) صفوة التفاسير: ٧٣/١.
([٦]) تفسير ابن كثير:٣٤٥/١.
([٧]) أخرجه الطبري(١٦٤٤):ص٤٠٤/٢.
([٨]) انظر: تفسير الثعلبي:١/ ٢٤٢، وتفسير البغوي : ١/ ١٢٦، وفي بعض نسخ الثعلبي في "تفسيره" يقرؤونه، وفي بعضها: يقرؤونها، والتفسير البسيط: ١٨٢/٣.
([٩])انظر: تفسير الثعلبي:١/ ٢٤٢، وتفسير البغوي : ١/ ١٢٦، والتفسير البسيط: ١٨٢/٣.
([١٠]) تفسير الطبري:٤٠٣/٢.
([١١]) تفسير المراغي: ١٧٩/١.
([١٢]) تفسير ابن عثيمين:٣٢٣/١.
([١٣]) التفسير البسيط: ١٨٣/٣.

قال الآلوسي:" وهم اليهود الذين كانوا في عهده صلى الله تعالى عليه وسلم لا الذين كانوا في عهد سليمان عليه السلام- كما توهمه بعضهم من اللحاق- لأن- النبذ- عند مجيء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يتصور منهم"[١].

وفي قوله تعالى:{الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}[البقرة:١٠١]، قولان[٢]:

الأول: وهم علماء اليهود الذين أعطاهم الله العلم بالتوراة وما فيها. قاله الطبري[٣].

والدليل عليه أنه تعالى وصف هذا الفريق بالعلم عند قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

والثاني: أن المراد من يدعي التمسك بالكتاب سواء علمه أو لم يعلمه، وهذا كوصف المسلمين بأنهم من أهل القرآن لا يراد بذلك من يختص بمعرفة علومه، بل المراد من يؤمن به ويتمسك بموجبه.

واختلف في قوله تعالى:{ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ}[البقرة:١٠١]، على قولين[٤]:

أحدهما: القرآن. وهو قول الجمهور.

والثاني: التوراة. قاله الطبري[٥]، والقرطبي[٦]، وآخرون، وأجازه الزجاج[٧]، لأن الذين كفروا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - نبذوا التوراة.

قال الراغب: وكلاهم"صحيح، لأن المنكر لأحدهما في حكم النكر للآخر"[٨].

والأظهر هو القول الأول، " أي لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم من التوراة نبذوا كتاب الله الذي جاء به هذا الرسول"[٩].

وقد تعددت أقوال المفسرين في معنى قوله تعالى:{وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ}[البقرة:١٠١]، على أوجه:

أحدها: أنه "تمثيل للإعراض لأن من أعرض عن شيء تجاوزه فخلفه وراء ظهره "[١٠].

والثاني: أنه:" تشبيه بمن لا يعلم إذ فعلوا فعل الجاهل فيجيء من اللفظ أنهم كفروا على علم"[١١].

والثالث: أنه " مثل لإعراضهم عنه رأساً، بالإعراض عما يرمي به وراء الظهر لعدم الالتفات إليه"[١٢].

والرابع: أنه: مثل من يستخف بالشيء ولا يعمل به، تقول العرب: أجعل هذا خلف ظهرك، ودبر اذنك، وتحت قدمك: أي أتركه واعرض عنه قال الله تعالى: {وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا [هود:٩٢]، ومنه قول الفرزدق [١٣]:

تَمِيمُ بنَ قَيْسٍ لا تَكونَنَّ حاجَتِي   بظَهْرٍ فلا يَعْيا عَلَيَّ جَوابُها

أي لا تتركنها لا يُعْبَأ بها[١٤].

الخامس: أن معناه:" رموه بشدة وراء الظهر؛ وهو عبارة عن الانصراف التام عنه؛ لأنهم لو نبذوه أمامهم، أو عن اليمين، أو عن الشمال لكان من الجائز أن يكونوا يأخذون به؛ لكن من ألقاه وراء ظهره كان ذلك أبلغ في التولي، والإعراض عنه، وعدم الرجوع إليه؛ لأن الشيء إذا خُلِّف وراء الظهر فإنه لا يرجع إليه"[١٥].

([١]) روح المعاني: ٣٣٥/١.

([٢]) انظر: تفسير الرازي: ٦١٦/٣.

([٣]) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٣/٢.

([٤]) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٨٢/١.

([٥]) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٣/٢.

([٦]) انظر: تفسير القرطبي: ٤١/٢.

([٧]) انظر: معاني القرآن:١٨٢/١.

([٨]) تفسير الراغب الأصفهاني:٢٧٣/١.

([٩]) فتح القدير: ١١٩/١.

([١٠]) تفسير ابن عاشور: ٦٢٦/١.

([١١]) انظر: تفسير القرطبي: ٤١/٢.

([١٢]) تفسير البيضاوي: ٩٧/١.

([١٣]) البيت في اللسان(ظهر)، وتخالفه رواية الديوان: ٩٥، وانظر: الكامل: ٤٣٠، وذيل الأماني: ٧٨، وأضداد ابن الأنباري:٢٥٦، وتفسير الثعلبي:٢٤٢/١. ومعاني القرآن للزجاج: ٤٩٧/١.

([١٤]) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٤٢/١، ومعاني القرآن للزجاج: ٤٩٧/١.

([١٥]) تفسير ابن عثيمين:٣٢٣/١.

قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}[البقرة:١٠١]، أي:" كأنهم في نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم لا يعلمون أنه حق"[١].
قال الصابوني: "أي كأنهم لا يعلمون من دلائل نبوته شيئاً"[٢].
قال قتادة:" : أي أن القوم كانوا يعلمون ، ولكنهم أفسدوا علمهم ، وجحدوا وكفروا وكتموا"[٣].
قال البيضاوي:" يعني أن علمهم به رصين ولكن يتجاهلون عناداً"[٤].
قال الزجاج:" أَعْلَمَ أنهم علماء بكتابهم، وأنهم رفضوه على علم به، وعداوةً للنبي صلَّى الله عليه وسلم. وأَعْلَمَ أنَّهم نَبذوا كتاب الله"[٥].
قال المراغي:أي" أهملوها إهمالا تاما كأنهم لا يعلمون أنها من عند الله"[٦].
قال الشوكاني:" تشبيه لهم بمن لا يعلم شيئا مع كونهم يعلمون علما يقينا من التوراة بما يجب عليهم من الإيمان بهذا النبي ولكنهم لما لم يعملوا بالعلم بل عملوا عمل من لا يعلم من نبذ كتاب الله وراء ظهورهم كانوا بمنزلة من لا يعلم"[٧].
قال الراغب:" وقد دل تعالى بالأيتين أن جل اليهود ثلاث فرق ، فريق جاهر وأنبذ العهد ، وفريق لم يجاهروا بذلك ، لكنهم لم يؤمنوا به ، وهم أكثرهم ، وفريق أخر طرحوا حكم الكتاب عناداً ، فصاروا في حكم الجهلة ، وهذه القسمة عجيبة الشأن ، فإن دافعي الحق ثلاثة أقسام ، جاهل غير عالم بجهله ، وهو الشرير الذي لا مداواة له ، وإياه عنى بقوله:{أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ} ، وجاهل عالم بجهله ، وهو الشاك وإياه عنى بقوله : {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} ، ومعاند غير جاهل ، وإياه عنى بقوله : {نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} ووصف هذا الفريق بأن حكمهم حكم الجاهلين الذين هم فوق الموصوفين بأنهم لا يؤمنون، وكل من دافع الحق لا ينفك من الأقسام الثالثة التي ذكرناهم والله أعلم"[٨].
الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن رسالة النبي ﷺ حق؛ لقوله تعالى:{ من عند الله}.
٢. ومنها: أن الرسول ﷺ قد أخبرت به الكتب السابقة؛ لقوله تعالى:{مصدق لما معهم}.
٣. ومنها: أن رسالة النبي ﷺ تقرر ما سبق من رسالات الرسل، لقوله تعالى: {مصدق لما معهم}.
٤. ومنها: أنه مع هذا البيان والوضوح، فإن فريقاً من الذين أوتوا الكتاب نبذوا هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ.
٥. ومنها: أن نبذ من عنده كتاب وعلم أقبح ممن ليس عنده ذلك؛ ولهذا نص على قوله تعالى: { فريق من الذين أوتوا الكتاب }؛ لإظهار شدة القبح من هؤلاء في نبذهم؛ لأن النبذ مع العلم أقبح من النبذ مع الجهل.
٦. ومنها: أن القرآن كلام الله، لأن الله تعالى أضافه إليه في قوله تعالى:{كتاب الله}.
٧. ومنها: توكيد قبح ما صنع هؤلاء المكذبون؛ لقوله تعالى: { كأنهم لا يعلمون }؛ لأنهم في الواقع يعلمون؛ ولكن فعلهم كأنه فعل من لم يعلم؛ وكفر من علم أشد من كفر من لم يعلم..
٨. ومنها: أن هذا النبذ الذي كان منهم لا يرجى بعده قبول؛ لقوله تعالى: { وراء ظهورهم }؛ لأن النبذ لو كان أمامهم ربما يتلقونه بعد؛ كذلك لو كان عن اليمين، والشمال، لكن إذا كان وراء الظهر فمعناه استبعاد القبول منهم..
٩. ومنها: شدة كراهية اليهود للقرآن، واستهانتهم به، حيث نبذوه وراء ظهورهم..

---

[١] تفسير ابن عثيمين:٣٢٤/١.
[٢] صفوة التفاسير: ٧٣/١.
[٣] أخرجه الطبري(١٦٤٥):ص٤٠٤/٢.
[٤] تفسير البيضاوي: ٩٧/١.
[٥] معاني القرآن: ١٨٢/١.
[٦] تفسير المراغي: ١٧٩/١.
[٧] فتح القدير: ١١٩/١.
[٨] تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٧٣/١.

القرآن

{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)} [البقرة : ١٠٢]

التفسير:

واتبع اليهود ما تُحَدِّث الشياطينُ به السحرةَ على عهد ملك سليمان بن داود. وما كفر سليمان وما تَعَلَّم السِّحر، ولكنَّ الشياطين هم الذين كفروا بالله حين علَّموا الناس السحر؛ إفسادًا لدينهم. وكذلك اتبع اليهود السِّحر الذي أُنزل على الملَكَين هاروت وماروت، بأرض "بابل" في "العراق"؛ امتحانًا وابتلاء من الله لعباده، وما يعلِّم الملكان من أحد حتى ينصحاه ويحذِّراه من تعلم السحر، ويقولا له: لا تكفر بتعلم السِّحر وطاعة الشياطين. فيتعلم الناس من الملكين ما يُحْدِثون به الكراهية بين الزوجين حتى يتفرقا. ولا يستطيع السحرة أن يضروا به أحدًا إلا بإذن الله وقضائه. وما يتعلم السحرة إلا شرًا يضرهم ولا ينفعهم، وقد نقلته الشياطين إلى اليهود، فشاع فيهم حتى فضَّلوه على كتاب الله. ولقد علم اليهود أن من اختار السِّحر وترك الحق ما له في الآخرة من نصيب في الخير. ولبئس ما باعوا به أنفسهم من السحر والكفر عوضًا عن الإيمان ومتابعة الرسول، لو كان لهم عِلْمٌ يثمر العمل بما وُعِظوا به.

في سبب نزول الآية أقوال[١]:

أحدها: أخرج الواحدي عن ابن عباس: "إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء، فيجيء أحدهم بكلمة حق فإذا جرب من أحدهم الصدق كذب معها سبعين كذبة فيشربها قلوب الناس، فاطلع على ذلك سليمان، فأخذها فدفنها تحت الكرسي؛ فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال: ألا أدلكم على كنز سليمان المنيع الذي لا كنز له مثله؟ قالوا: نعم قال: تحت الكرسي فأخرجوه، فقالوا: هذا سحر. فتناسخته الأمم فأنزل الله عذر سليمان {واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان}"[٢]. وروي عن السدي[٣]، وسعيد بن جبير[٤]، وقتادة[٥]، ومجاهد[٦]، نحو ذلك.

والثاني: أخرج ابن أبي حاتم "عن ابن عباس، قال: قال: آصف كاتب سليمان، أخرجته الشياطين فكتبوا من كل سطرين سحرا وكفرا، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها. قال: فأكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبوه حتى أنزل على محمد: {واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا}"[٧]. وروي عن الكلبي[٨]، نحو ذلك.

الثالث: أخرج الواحدي "عن خصيف قال: كان سليمان إذا نبتت الشجرة قال: لأي داء أنت؟ فتقول لكذا وكذا؛ فلما نبتت شجرة الخرنوبة قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لمسجدك أخربه قال: تخربينه؟ قالت: نعم، قال: بئس الشجرة أنت، فلم يلبث أن توفي، فجعل الناس يقولون في مرضاهم: لو كان لنا مثل سليمان، فأخذت الشياطين فكتبوا كتابا وجعلوه في مصلى سليمان وقالوا: نحن ندلكم على ما كان سليمان يداوي به فانطلقوا فاستخرجوا

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي: ٣١-٣٣، والعجاب: ٣٠٥/١-٣١٤.

(٢) أسباب النزول:٣١-٣٢، وانظر تخريجه وطرقه في تفسير ابن كثير:١٣٤/١ - ١٣٦، وانظر نحوه في تفسير الطبري(١٦٦٢):ص٤١٥/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٩٨٤):ص١٨٥/١-١٨٦، وأخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب التفسير:٢٦٥/٢، وسكت عنه، وقال الذهبي في (التلخيص): "صحيح" ، وقال الزهراني في تخريجه لابن أبي حاتم: "إسناده صحيح لكن حصين هو ابن عبد الرحمن ثقة تغير حفظه، وساء آخر حياته".

(٣) انظر: تفسير الطبري(١٦٤٦):ص٤٠٥/٢-٤٠٦، وانب أبي حاتم(٩٨٧):ص١٨٦/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري(١٦٥٩):ص٤١٣/٢-٤١٤.

(٥) انظر: تفسير الطبري(١٦٦٣)، و(١٦٦٤):ص٤١٥/٢-٤١٦.

(٦) انظر: تفسير الطبري(١٦٦٥):ص٤١٦/٢.

(٧) تفسير ابن أبي حاتم(٩٨٢):ص١٨٥/١.

(٨) أسباب النزول للواحدي: ٣٢.

ذلك الكتاب فإذا فيه سحر رقى فأنزل الله تعالى: {واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان} إلى قوله: {فلا تكفر}"[١].

والرابع: أخرج الطبري عن ابن إسحاق: "عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السلام ، فكتبوا أصناف السحر : " من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا ، فليفعل كذا وكذا " . حتى إذا صنعوا أصناف السحر، جعلوه في كتاب ثم ختموا عليه بخاتم على نقش خاتم سليمان ، وكتبوا في عنوانه : " هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم " ، ثم دفنوه تحت كرسيه. فاستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حين أحدثوا ما أحدثوا ، فلما عثروا عليه قالوا : ما كان سليمان بن داود إلا بهذا! فأفشوا السحر في الناس وتعلموه وعلموه ، فليس في أحد أكثر منه في يهود. فلما ذكر رسول الله ﷺ ، فيما نزل عليه من الله ، سليمان بن داود وعده فيمن عده من المرسلين ، قال من كان بالمدينة من يهود : ألا تعجبون لمحمد! يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا! والله ما كان إلا ساحرا! فأنزل الله في ذلك من قولهم على محمد ﷺ : {واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا}"[٢]، وروي عن ابن عباس[٣]،وشهر بن حوشب[٤]، نحو ذلك.

الخامس: وأخرج الطبري " عن الربيع : إن اليهود سألوا محمدا ﷺ زمانا عن أمور من التوراة ، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله عليه ما سألوه عنه ، فيخصمهم، فلما رأوا ذلك قالوا : هذا أعلم بما أنزل إلينا منا! وأنهم سألوه عن السحر وخاصموه به ، فأنزل الله جل وعز : {واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر}، وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك ، فدفنوه تحت مجلس سليمان - وكان سليمان لا يعلم الغيب. فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا به الناس ، وقالوا : هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه! فأخبرهم النبي ﷺ بهذا الحديث ، فرجعوا من عنده وقد حزنوا ، وأدحض الله حجتهم"[٥]. وروي عن أبي العالية مثل لك[٦].

السادس: قال أبو مجلز: "أخذ سليمان من كل دابة عهدا ، فإذا أصيب رجل فسئل بذلك العهد ، خلي عنه. فرأى الناس السجع والسحر ، وقالوا : هذا كان يعمل به سليمان! فقال الله جل ثناؤه : {وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر}"[٧].

قوله تعالى:{ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ}[البقرة:١٠٢]، "أي واتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها الشياطين"[٨].

قال الزمخشري:أي:" نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها الشياطين"[٩].

أخرج ابن أبي حاتم " عن الحسن: {واتبعوا ما تتلوا الشياطين} قال: ثلث الشعر، وثلث السحر، وثلث الكهانة"[١٠].

وقال ابن عباس:" اتبعوا الشهوات التي كانت الشياطين تتلو، وهي المعازف واللعب، وكل شيء يصد عن ذكر الله"[١١].

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ٣٣، إسناده ضعيف لإعضاله (انقطاع أكثر من اثنين متتاليين) ولضعف خصيف (تقريب التهذيب: ٢٢٤/١ - رقم: ١٢٦) ولضعف رواية عتاب بن بشير عن خصيف خاصة (تهذيب التهذيب: ٩١/٧).

(٢) أخرجه الطبري(١٦٥٠):ص٤٠٧/٢-٤٠٨، و(١٦٦٧):ص٤١٧/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري(١٦٦٠):ص٤١٤/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري(١٦٦٦):٤١٦/٢-٤١٧.

(٥) تفسير الطبري(١٦٤٧):ص٤٠٦/٢-٤٠٧.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٨٥):ص١٨٦/١.

(٧) أخرجه الطبري(١٦٦١):ص٤١٤/٢-٤١٥.

(٨) صفوة التفاسير:٧٣/١.

(٩) الكشاف: ١٧٢/١. [بتصرف بسيط].

(١٠) تفسير ابن أبي حاتم(٩٨٣):ص١٨٥/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٨٤):ص١٨٦/١.

قوله تعالى:{ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}[البقرة:١٠٢]، أي"في عهد مُلك سليمان"[١].
قال الزمخشري: أي:" على عهد ملك سليمان وفي زمانه"[٢].
وقد اختلف أهل التفسير في الذين عنوا بقوله تعالى:{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}[البقرة:١-٢]، على وجوه [٣]:
أحدها: أنهم اليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه الصلاة والسلام، "لأنهم خاصموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوراة، فوجدوا التوراة للقرآن موافقة، تأمر من اتباع محمد ﷺ وتصديقه، بمثل الذي يأمر به القرآن. فخاصموا بالكتب التي كان الناس اكتتبوها من الكهنة على عهد سليمان"[٤]. قاله ابن عباس[٥]، والسدي [٦]، والربيع[٧]، وابن زيد[٨].
والثاني: أنهم اليهود الذين كانوا في زمن سليمان عليه السلام، لأن أكثر اليهود ينكرون نبوة سليمان عليه السلام ويعدونه من جملة الملوك في الدنيا، فالذين كانوا منهم في زمانه لا يمتنع أن يعتقدوا فيه أنه إنما وجد ذلك الملك العظيم بسبب السحر. قاله ابن جريج[٩]، وابن إسحاق[١٠].
والثالث: أنه يتناول الكل. واختاره الطبري[١١]، والرازي[١٢]، واحتجوا بأنه "لا دليل على التخصيص"[١٣]، أي "لا دلالة في الآية أن الله تعالى أراد بقوله : {واتبعوا} بعضا منهم دون بعض"[١٤].
قوله تعالى:{تَتْلُو}[البقرة:١٠٢]، لفظه مضارع لكن هو واقع موقع الماضي[١٥] وهو استعمال شائع، وقد اختلف في تفسيره على وجوه[١٦]:
أحدها: الثاني: أن معناه: ما تتبعه وترويه وتعمل به، ومنه قوله تعالى:{هُنَالِكَ تتلو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ} [يونس : ٣٠] ، "يعني بذلك تتبع"[١٧]، وهذا مذهب ابن عباس [١٨]، وأبي رزين[١٩].
والثاني: أن المراد منه التلاوة والإخبار، ومنه: فلان يتلو القرآن، بمعنى أنه يقرؤه ويدرسه، كما قال حسان بن ثابت[٢٠]:
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله   ويتلو كتاب الله في كل مشهد

([١]) تفسير أبي السعود:١٣٦/١، وانظر: صفوة التفاسير:٧٣/١.
([٢]) الكشاف: ١٧٢/١. [بتصرف بسيط].
([٣]) انظر: تفسير الرازي: ١٨٦/٣.
([٤]) تفسير الطبري: ٤٠٥/٢.
([٥]) انظر: المحرر الوجيز: ١٨٥/١.
([٦])انظر: تفسير الطبري(١٦٤٦):ص٤٠٥/٢-٤٠٦، وابن أبي حاتم(٩٨٧):ص١٨٦/١، وقد ذكر الأثر ابن كثير، انظر تفسيره: ٢٤٩/١.
([٧]) انظر: تفسير الطبري(١٦٤٧):ص٤٠٦/٢-٤٠٧.
([٨]) انظر: تفسير الطبري(١٦٤٨):ص٤٠٧/٢.
([٩]) انظر: تفسير الطبري(١٦٤٩):ص٤٠٧/٢.
([١٠]) انظر: تفسير الطبري(١٦٥٠):ص٤٠٧/٢-٤٠٨.
([١١]) انظر: تفسير الطبري:٤٠٩/٢.
([١٢]) انظر: مفاتيح الغيب: ٦١٧/٣.
([١٣]) مفاتيح الغيب: ٦١٧/٣.
([١٤]) تفسير الطبري: ٤٠٩/٢.
(١٥) والمعنى: ما تلت، انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٣٢٦/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٤٢/٢، البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري: ١١٣/١، الدر المصون للسمين: ٣١٨/١.
([١٦]) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٩/٢-٤١٠، ومفاتيح الغيب: ٦١٧/٣.
([١٧]) تفسير الطبري: ٤١١/٢.
([١٨]) انظر: تفسير الطبري (١٦٥٥):ص: ٤١٠/٢
([١٩]) انظر: تفسير الطبري (١٦٥٦):ص: ٤١٠/٢
([٢٠])ديوانه : ٨٨ ، من أبيات قالها حسان في خبر أم معبد ، حين خرج رسول الله مهاجرا إلى المدينة . ورواية الديوان : " في كل مسجد " ، ورواية الطبري أمثل .

والمعنى: أن الشياطين هي التي علمت الناس السحر وروته لهم. روي ذلك عن مجاهد[١]، وقتادة[٢]، وابن جريج[٣]، وابن عباس[٤].

الثالث: أن معناه: ما تكذب على ملك سليمان، يقال: تلا عليه إذا كذب وتلا عنه، إذا صدق وإذا أبهم جاز الأمران. قاله أبو مسلم[٥].

قال الإمام الطبري: " : والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عز وجل أخبر عن الذين أخبر عنهم أنهم اتبعوا ما تتلو الشياطين على عهد سليمان، باتباعهم ما تلته الشياطين.. ولم يخبرنا الله جل ثناؤه - بأى معنى (التلاوة) كانت تلاوة الشياطين الذين تلوا ما تلوه من السحر على عهد سليمان - بخبر يقطع العذر، وقد يجوز أن تكون الشياطين تلت ذلك دراسة ورواية وعملا فتكون كانت متبعته بالعمل، ودارسته بالرواية. فاتبعت اليهود منهاجها في ذلك، وعملت به، وروته"[٦].

واختلفوا في إعراب {ما}ـ في قوله تعالى: {مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ}[البقرة:١٠٢]، على وجهين[٧]:

أحدهما: أنها موصولة. وهذا قول الجمهور، وهو الصحيح.

والثاني: أنها نافية.

قال السمين الحلبي: " وهذا غلط فاحش لا يقتضيه الكلام البتة"[٨].

وقال ابن العربي:" ولا وجه لقول من قال إنه نفي لا في نظم الكلام ولا في صحة المعنى ولا يتعلق من كونه مفعولاً سياق الكلام بمحال عقلاً ولا يمتنع شرعا"[٩].

واختلف في قوله تعالى:{عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ}[البقرة:١٠٢]، على ثلاثة أوجه[١٠]:

أحدها: أن معناه: على عهد ملك سليمان.قاله الطبري[١١]، وغيره، وهو المشهور.

والثاني: وقيل المعنى: في ملك سليمان، أي: في قصصه وصفاته وأخباره. روي نحوه عن سلمة بن إسحاق[١٢].

والثالث: على شرعه ونبوته وحاله.

قوله تعالى:{ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ}[البقرة:١٠٢]، " أي وما كان سليمان ساحراً ولا كفر بتعلمه السحر"[١٣].

قال المراغي:" أي وما سحر ، لأنه لو فعل ذلك فقد كفر ، إذ كونه نبيّا ينافى كونه ساحرا ، فالسحر خداع وتمويه ، والأنبياء مبرءون من ذلك"[١٤].

قال سلمة بن إسحاق:" أي ما علم بالسحر، والسحر كفر لمن عمل به"[١٥].

وروي عن قتادة: "في قول الله: {وما كفر سليمان}، قال: ما كان عن مشورته ولا أمره"[١٦].

قال أبو السعود:" تنزيهٌ لساحته عليه السلام عن السحر وتكذيبٌ لمن افترى عليه بأنه كان يعتقده ويعمل به والتعرُّضُ لكونه كُفراً للمبالغة في إظهار نزاهتِه عليه لسلام وكذِبِ باهِتِيهِ بذلك"[١].

([١]) انظر: تفسير الطبري(١٦٥١):ص٤٠٩/٢-٤١٠.
([٢]) انظر: تفسير الطبري(١٦٥٢):ص٤١٠/٢.
([٣]) انظر: تفسير الطبري(١٦٥٣):ص٤١٠/٢.
([٤]) انظر: تفسير الطبري(١٦٥٤):ص٤١٠/٢.
([٥]) انظر: مفاتيح الغيب: ٦١٧/٣.
([٦]) تفسير الطبري: ٤١١/٢.
([٧])انظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢٥٢/١، والبحر المحيط لأبي حيان: ٣٢٦/١، وتفسير القرطبي: ٤٢/٢.
([٨]) الدر المصون:٣٢٦/١.
([٩]) أحكام القرآن: ٢٨/١.
([١٠]) انظر: المحرر الوجيز: ١٨٥/١.
([١١]) انظر: تفسير الطبري: ٤١١/٢.
([١٢]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٨٨):ص١٨٦/١.
([١٣]) صفوة التفاسير: ٧٣/١.
([١٤]) تفسير المراغي: ١٨٠/١.
([١٥]) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٩١):ص١٨٧/١.
([١٦]) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٩٠):ص١٨٧/١.

قال الزمخشري:" تكذيب للشياطين ودفع لما بهتت به سليمان من اعتقاد السحر والعمل به"[٢].
قوله تعالى:{ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}[البقرة:١٠٢]، " أي ولكنّ الشياطين هم الذين علموا الناس السحر حتى فشا أمره بين الناس"[٣].
قال المراغي:" أي ولكن الشياطين من الإنس والجن الذين نسبوا إليه ما انتحلوه من السحر ودوّنوه وعلموه الناس هم الذين كفروا"[٤].
قال الزمخشري: أي:"ولكن الشياطين هم الذين كَفَرُوا باستعمال السحر وتدوينه، يقصدون به إغواء الناس وإضلالهم"[٥].
قال قتادة:" ولكنه شيء افتعلته الشياطين، وذكر لنا أن الشياطين ابتدعت كتبا، وكتبت سحرا وأمرا عظيما في الناس وعلموهم إياه"[٦].
وقال الحسن:" اتباع السحر كفر، وليس من دين سليمان السحر. يقول: ولكن الشياطين كفروا بتركهم دين سليمان، واتباعهم ما تلت الشياطين على ملكه"[٧].
قال ابن عباس:" {يعلمون الناس السحر }، يعني: الصحف التي دفنوها"[٨].

وذكروا في قوله تعالى:{وَلَكْنَّ الشَيَاطِينَ كَفَرُوا}[البقرة:١٠٢]، وجهين[٩]:
أحدهما : أنهم كفروا بما نسبوه إلى سليمان من السحر .
والثاني : أنهم كفروا بما استخرجوه من السحر .
وفي قوله تعالى:{يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}[البقرة:١٠٢]، وجهان من التفسير[١٠]:
أحدهما : أنهم ألقوه في قلوبهم فتعلموه .
والثاني : أنهم دلوهم على إخراجه من تحت الكرسي فتعلموه .

واختلفت القراءة في قوله تعالى :{وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا}[البقرة:١٠٢]، على وجهين[١١]:
أحدهما: قرأ نافع وابن كثير وعاصم وأبو عمرو بتشديد نون (لكنَّ)، ونصب (الشياطينَ).
والثاني: وقرأ الباقون بتخفيف نون (لكن) وإسكانها ثم كسرها تخلصاً من التقاء الساكنين؛ و(الشياطينُ) برفع النون.
فعلى القراءة الأولى تكون الواو حرف عطف، و(لكنّ) حرف استدراك يعمل عمل "إنّ" ينصب الاسم، ويرفع الخبر، و (الشياطينَ) اسمها، وجملة: (كفروا) خبرها؛ وعلى قراءة التخفيف تكون الواو للعطف، و(لكن) حرف استدراك مبني على السكون حُرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين، و(الشياطين) مبتدأ، وجملة: (كفروا) خبر المبتدأ[١٢].
قال الرازي: " والمعنى واحد، وكذلك في الأنفال: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال : ١٧]، والاختيار أنه إذا كان

---

(١) تفسير أبي السعود:١٣٧/١.
(٢) الكشاف:١٧٢/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٧٣/١.
(٤) تفسير المراغي: ١٨٠/١.
(٥) الكشاف: ١/!٧٢.[بتصرف بسيط].
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٩٢):ص١٨٧/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٩٣):ص١٨٧/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٩٥):ص١٨٧/١.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٦٤/١.
(١٠) انظر: النكت والعيون:١٦٤/١-١٦٥.
(١١)انظر:السبعة في القراءات: ١٦٨.
(١٢)انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٧١/١

بالواو كان التشديد أحسن، وإذا كان بغير الواو فالتخفيف أحسن، والوجه فيه أن "لكن" بالتخفيف يكون عطفا فلا يحتاج إلى الواو لاتصال الكلام، والمشددة لا تكون عطفا لأنها تعمل عمل (إن)"[١].

و{الشَّيَاطِينَ} جمع شيطان؛ وجاءت بالجمع؛ لأن الشياطين يوحي بعضهم إلى بعض، ويعلم بعضهم بعضاً[٢].

و(السِّحر) في اللغة: يطلق على كل شيء خفي سببه ولطف ودق؛ ولذلك تقول العرب في الشيء الشديد الخفاء: أخفى من السِّحر؛ ومنه قول مسلم بن الوليد الأنصاري:

جعلت علامات المودة بيننا ... مصائد لحظ هن أخفى من السِّحر

فأعرف منها الوصل في لين طرفها ... وأعرف منها الهجر في النظر الشزر[٣]

قال الراغب: "تطلق مادة ـ س ح ر ـ عند علماء اللغة على معان جمّة، تبعاً لورود استعمالها في الوضع الذي وقع فيه التخاطب ومنها: التمويه بالحيل والخداع والخفاء والاستمالة واللطافة[٤]، فهو عبارة عما لطف أمره وخفي سببه[٥]، ومنه قوله ﷺ: "إنَّ من البيان لسحراً"[٦]، قال الحافظ رحمه الله تعالى: وشبَّهه بالسِّحر لأن السِّحر صرف الشيء عن حقيقته[٧].

وسُمِّي السَّحور سَحوراً لكونه يقع خفياً آخر الليل، والسَّحْر الرئة وهي محل الغذاء، وسُمِّيت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه؛ كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة: انتفخ سَحْرُه أي رئته من الخوف[٨]، وقالت عائشة رضي الله عنها: "توفي رسول الله ﷺ بين سَحْري ونَحْري"[٩]، وقوله تعالى: {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ} [الأعراف : ١١٦]، أي أخفوا عنهم عملهم.

و(السِّحر) في الاصطلاح لا يمكن تعريفه بحد جامع مانع؛ لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته، ولا يتحقق قدر مشترك بينها يكون جامعاً لها مانعاً لغيرها؛ ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حده اختلافاً متبايناً.

قال بعضهم: السِّحر عزائمُ ورُقَى وعُقَد يؤثِّر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرِّق بين المرء وزوجته ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه[١٠].

وقال ابن قدامة:"هو عُقَد ورُقَى يُتَكَلَّمُ به أو يكتبه الساحر أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له"[١١].

وقال البيضاوي: "المراد بالسِّحر ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس؛ فإن التناسب شرط في التضام والتعاون[١٢].

وقال ابن حجر الهيتمي: "وشرعاً يختص بكل أمر يخفى سببه وعمل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع"[١٣].

---

(١) تفسير الرازي: ١٩٨/٣.
(٢) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٧١/١-١٧٢.
(٣) لسان العرب ٣٤٨/٤ وما بعدها، معجم المقاييس:٥٠٧.
(٤) الأصفهاني: غريب القرآن، ص ٢٢٦، وانظر الجوهري (٦٧٨/٥).
(٥) ابن كثير: (١٤٧/١).
(٦) صحيح البخاري مع فتح الباري، (٢٣٧/١٠)، ومسلم برقم ١٤٣٧.
(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٠٢/٩.
(٨) انظر تفصيل الخبر في البداية والنهاية ٣٠٨/٣ ط الأولى دار أبي حيان.
(٩) رواه البخاري برقم ١٣٠٠ ومسلم برقم ٤٤٧٣.
(١٠) تيسير العزيز الحميد/٣٨٢.
(١١) المغني لابن قدامة المقدسي: ١٥٠/٨.
(١٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٧٩/١ وهو ناقل لهذا التعريف من الفخر الرازي في تفسيره المسمى: مفاتيح الغيب.
(١٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر: ١٦٣/٢.

وقال ابن عرفة رحمه الله في حدوده: "أمر خارق للعادة مسبَّب عن سَبَب معتاد كونه عنه، قال شارحه: معناه أن الخارق للعادة مسبب عن سبب معتاد كون ذلك المسبب عن ذلك السبب فأخرج به الكرامة والمعجزة" [١].

واختلف في (السّحر)، هل هو حقيقة أم هو تخييل لا حقيقة له:

والتحقيق أن منه ما هو حقيقة كما دلّ عليه قوله تعالى {قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [الأعراف : ١١٦]، لأن وصف سحرهم بالعظيم يدل على أنه غير خيال، وقوله تعالى {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [البقرة : ١٠٢]، فهذه الآية تدل على أنه شيء موجود له حقيقة تكون سبباً للتفريق بين الرجل وامرأته وقد عبَّر الله عنه بما الموصولة وهي تدل على أنه شيء له وجود حقيقي. ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} [الفلق : ٤]، يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن[٢]، فلولا أن السِّحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه[٢].

قال ابن قيم: "وقد دل قول الله تعالى: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} [الفلق : ٤]، وحديث عائشة[٣] رضي الله عنها على تأثير السحر وأنَّ له حقيقة"[٤].

ومن السّحر ما هو تخييل، كما في قوله تعالى {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} [طه : ٦٦]، وقوله {قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [الأعراف : ١١٦]، وبهاتين الآيتين احتج المعتزلة ومن قال بقولهم على أن السِّحر خيال لا حقيقة له.

قال النووي: "والصحيح أن له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة"[١].

قوله تعالى :{وَمَا أُنزلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ}[البقرة:١٠٢]، "أي: وكما اتبع رؤساء اليهود السحر، كذلك اتبعوا ما أنزل على الملَكين وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة، وقد أنزلهما الله ابتلاءً وامتحاناً للناس"[٥].

قال السعدي:أي " وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحانا وابتلاء من الله لعباده فيعلمانهم السحر "[٦].

وقرأ الزهري {هاروت وماروت}، بالرفع على: هما هاروت وماروت. وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف ، ولو كانا من :الهرت والمرت - وهو الكسر كما زعم بعضهم - لانصرفا[٧].

واختلف في العطف في قوله تعالى:{ وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}[البقرة:١٠٢]، على وجهين[٨]:

أحدهما: عطف على {السحر}، أى ويعلمونهم ما أنزل على الملكين.

---

[١]) شرح حدود ابن عرفة:٤٩٢ محمد بن قاسم الرصاع ـ الناشر دار الكتب العلمية.(

([٢]) انظر تفسير القرطبي، (٢٥٧/٢٠)، وابن كثير (٤|٥٧٣)، والقاسمي (٣٠٢/١٠).

([٢]) المغني، ابن قدامة:(١٥٠/٨).

([٣])عن عائشة قالت: سحر رسول الله ﷺ رجلٌ من بني زُريق، يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يُخيَّلُ إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم ـ أو ذات ليلة ـ وهو عندي، لكنه دعا رسول الله ﷺ ثم دعا، ثم دعا، ثم قال: يا عائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجف طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان. فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته، قال: قد عافاني الله، فكرهت أن أثير الناس فيه شراً، فأمر بها فدفنت". وفي رواية مسلم: قال: "فقلت: يا رسول الله ألا أحرقته".[صحيح البخاري، كتاب الطب (٢٢١/١٠)، ومسلم (٢١٨٩)].

([٤]) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد:٢٢٧/٢.

([١]) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: (٢٢٢/١٠).

([٥]) صفوة التفاسير: ٧٣/١.

([٦]) تفسير السعدي: ٦١.

([٧]) انظر: الكشاف: ١٧٣/١.

([٨]) انظر: الكشاف: ١٧٢/١.

والثاني: أنه عطف على {ما تتلو}، أى واتبعوا ما أنزل.
واختلف أهل العلم في تفسير(ما) التي في قوله :{وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}[البقرة:١٠٢]، على وحهين:
أحدهما: أنها تفيد النفي، وهي بمعنى(لم) معطوفا على قوله تعالى{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ}، أي: ولم ينزل على الملكين. قاله ابن عباس(١).
وانتصر له القرطبي، إذ قال: "قوله-تعالى: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَين}: (مَا) نفي، والواو: للعطف على قوله: (وَمَا كَفَرَ سُلَيمَان) وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر فنفى الله ذلك، وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فهاروت وماروت بدل من الشياطين في قوله: {وَلَكِنَّ الشَّيَاطينَ كَفَرُوا} هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى ما سواه"(٢).
والدافع لأصحاب هذا القول في نفي نزول السحر على الملكين أنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه وسفراؤه إلى رسله {لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم:٦]، وقوله {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} [الأنبياء:٢٦] ، وقوله {لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء:٢٧]، ومع كون العقل لا يدفع وقوع المعصية من الملائكة، لكن وقوع ذلك الجائز عقلاً لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح(٣).

كما أن نفي كون المنزل سحراً يأتي أيضاً على قول من جعلها معطوفة على السحر كما هو الظاهر لأنها معطوفة، والعطف يقتضي التغاير(٤).

والثاني:أنها موصوله بمعنى (الذي)، وتقديره الذي أنزل على الملكين.
ثم هؤلاء اختلفوا فيه على ثلاثة أقوال(٥):
الأول: أنه عطف على (السحر) أي يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أنزل على الملكين أيضا.
وثانيها: أنه عطف على قوله: {ما تتلوا الشياطين} أي واتبعوا الذي تلته الشياطين، ومنه ما تأثيره في التفريق بين المرء وزوجه وهو الذي أنزل على الملكين. وهذا قول ابن عباس في رواية أبي طلحة عنه(٦)، وأبي العالية(٧)، وروي عن خالد بن أبي عمران، والربيع بن أنس نحو ذلك(٨).
فكأنه تعالى أخبر عن اليهود أنهم اتبعوا كلا الأمرين ولم يقتصروا على أحدهما.
وثالثها: أن موضعه جر عطفا على (ملك سليمان) وتقديره ما تتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان وعلى ما أنزل على الملكين. وهو اختيار أبي مسلم رحمه الله(٩).
وأنكر أبو مسلم في الملكين أن يكون السحر نازلا عليهما واحتج عليه بوجوه(١٠):
الوجه الأول: أن السحر لو كان نازلا عليهما لكان منزله هو الله تعالى، وذلك غير جائز لأن السحر كفر وعبث ولا يليق بالله إنزال ذلك.
الوجه الثاني: أن قوله: {ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر} يدل على أن تعليم السحر كفر، فلو ثبت في الملائكة أنهم يعلمون السحر لزمهم الكفر، وذلك باطل.
الوجه الثالث: كما لا يجوز في الأنبياء أن يبعثوا لتعليم السحر فكذلك في الملائكة بطريق الأولى.

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٩٧):ص١٨٨/١.
(٢) تفسير القرطبي:٥٠/٢.
(٣) انظر: تفسير القرطبي:٥٠/٢، ومفاتيح الغيب: ٦٢٩/٣.
(٤)انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٣٢٨/١.
(٥) انظر:مفاتيح الغيب: ٦٢٩/٣.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٩٦):ص١٨٨/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٩٨):ص١٨٨/١.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٨/١.
(٩) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٢٩/٣.
(١٠) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٢٩/٣.

الوجه الرابع: أن السحر لا ينضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة، وكيف يضاف إلى الله ما ينهى عنه ويتوعد عليه بالعقاب؟ وهل السحر إلا الباطل المموه وقد جرت عادة الله تعالى بإبطاله كما قال في قصة موسى عليه السلام: {ما جئتم به السحر إن الله سيبطله} [يونس: ٨١] ثم إنه رحمه الله سلك في تفسير الآية نهجا آخر يخالف قول أكثر المفسرين، فقال: كما أن الشياطين نسبوا السحر إلى ملك سليمان مع أن ملك سليمان كان مبرأ عنه، فكذلك نسبوا ما أنزل على الملكين إلى السحر مع أن المنزل عليهما كان مبرأ عن السحر وذلك لأن المنزل عليهما كان هو الشرع والدين والدعاء إلى الخير، وإنما كانا يعلمان الناس ذلك مع قولهما: {إنما نحن فتنة فلا تكفر} توكيدا لبعثهم على القبول والتمسك، وكانت طائفة تتمسك وأخرى تخالف وتعدل عن ذلك ويتعلمون منهما أي من الفتنة والكفر مقدار ما يفرقون به بين المرء وزوجه، فهذا تقرير مذهب أبي مسلم[١].

والجمهور على أن(ما) في قوله تعالى: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}[البقرة:١٠٢]، هي موصولة[٢]، وذلك لأن "الحديث وما جاءَ في قِصَّةِ الملكين أشبه وأولى أن يؤخذ به[٣]. والله أعلم.

وفي { المَلَكَيْنِ}[البقرة:١٠٢]، قراءتان[٤]:

إحداهما :{ المَلِكَيْنِ}، بكسر اللام، وهي قراءة ابن عباس والضحاك[٥] وابن أبزى[٦] والحسن وابن جبير والزهري وأبي الأسود[٧].

ومن ثم اختلفوا في تعيينهما على قولين:

الأول: أنهما داود وسليمان. قاله ابن أبزى[٨].

والثاني: هما علجان من أهل بابل. قاله ابن عباس[٩]، والضحاك[١٠]، وأبو أسود الدؤلي[١١].

والذين كسروا (اللام) احتجوا بوجوه[١٢]:

أحدها: أنه لا يليق بالملائكة تعليم السحر.

وثانيها: كيف يجوز إنزال الملكين مع قوله: {ولو أنزلنا ملكا لقضى الامر ثم لا ينظرون} {الأنعام: ٨}.

وثالثها: لو أنزل الملكين لكان إما أن يجعلهما في صورة الرجلين أو لا يجعلهما كذلك، فإن جعلهما في صورة الرجلين مع أنهما ليسا برجلين كان ذلك تجهيلا وتلبيسا على الناس وهو غير جائز، ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن كل واحد من الناس الذين نشاهدهم لا يكون في الحقيقة إنسانا، بل ملكا من الملائكة؟ وإن لم يجعلهما في صورة الرجلين قدح ذلك في قوله تعالى: {ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا} [الأنعام: ٩].

وقد خَطَأَ الطبري هذه القراءة مستدلاً على ذلك بقوله:" فإجماع الحجة على خطأ القراءة بها، من الصحابة والتابعين وقراء الأمصار. وكفى بذلك شاهدا على خطئها"[١].

---

(١) انظر: تفسير الرازي: ١٩٩/٣.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري: ٤٢٤/٢-٤٢٦ والذي انتصر لذلك وأطال القول فيه، بحر العلوم للسمرقندي: ١٤٣/١، الكشاف للزمخشري: ٣٠١/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٢٨/١، الدر المصون للسمين: ٣٢٠/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٣٢٦/٣، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٧٣/١، تفسير النسفي: ٦٥/١، التحرير والتنوير لابن عاشور: ٦٣٩/١، وغيرها. وعلى قول الجمهور يكون المُنَزَل السحر فتنة للناس وامتحاناً، ولله-عز وجل-أن يمتحن عباده بما شاء.

(٣) معاني القرآن: ١٨٤/١.

(٤) انظر: وتفسير الثعلبي:١٨٣/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٢):ص١٨٩/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٠):ص١٨٨/١.

(٧) انظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني: ١٠٠/١، معالم التنزيل للبغوي: ١٢٩/١، زاد المسير لابن الجوزي: ١٢٢/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٢٩/١، وتفسير القرطبي: ٥٢/٢ وغيرها.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٠):ص١٨٨/١.

(٩) انظر: المحرر الوجيز:١٨٦/١.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٢):ص١٨٩/١.

(١١) انظر: المحرر الوجيز:١٨٦/١.

(١٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٣٠/٣.

والقراءة الثانية:{ المَلَكَيْنِ}، بفتح اللام من (الملائكة)[٢]، وهي قراءة الجمهور[٣].
قال الزجاج" و{المَلَكَيْنِ} أثْبتُ في الرواية والتفسير جميعاً"[٤].

وقال ابن الجوزي:" "وقراءة الجمهور أصح"[٥].

قال الحافظ ابن حجر: " وقصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن من حديث ابن عمر[٦] في مسند أحمد[٧]، وأطنب الطبري[٨] في إيراد طرقها بحيث يقضي بمجموعها على أن للقصة أصلاً خلافاً لمن زعم بطلانها كعياض ومن تبعه[٩]، ومحصلها: أن الله ركب الشهوة في ملكين من الملائكة اختباراً لهما، وأمرهما

([١]) تفسير الطبري: ٤٣٥/٢-٤٣٦.

([٢])وهذا قول ابن عطية، وعلي، انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٩٩)، و(١٠٠١):ص١٨٨/١.

([٣])انظر: معاني القرآن للفراء: ٦٤/١، إملاء ما من به الرحمن للعكبري: ٥٥/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٢٩/١.

([٤]) معاني القرآن:١٨٣/١، انظر: معاني القرآن للفراء: ٦٤/١، إملاء ما من به الرحمن للعكبري: ٥٥/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٢٩/١، زاد المسير لابن الجوزي: ١٢٢/١، وقال: (وقراءة الجمهور أصح).

([٥])زاد المسير: ١٢٢/١.

(٦) هو: أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي، صحابي مشهور، عالم فقيه، عابد زاهد، من أهل بيعة الرضوان، هاجر مع أبيه، أول غزواته الخندق ورد قبلها لصغره، أحد المكثرين من الرواية، توفي عام: ٧٣ هـ. انظر: الطبقات لابن سعد: ١٤٢/٤، أسد الغابة لابن الأثير: ٢٢٧/٣، سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١٣/٣، الإصابة لابن حجر: ٣٣٨/٢.

(٧) المسند-تحقيق الأرناؤوط وآخرين-: ٣١٧/١١٠-٣١٨ رقم: ٦١٧٨ وسيأتي الكلام على هذا الحديث وما يشبهه بعد في هامش: ١ ص: ٣٩٤-٣٩٦.

(٨) انظر: جامع البيان للطبري: ٤٢٧/٢-٤٣٥.

(٩) بلغت طرق قصة هاروت وماروت نيفاً وعشرين طريقاً كما ذكر ذلك الألوسي في روح المعاني: ٣٤١/١، وذكر جلها الحافظ ابن حجر في العجاب-تحقيق: الأنيس-: ٣١٤-٣٤٣ عند حديثه عن سبب نزول هذه الآية. وقد اختلف العلماء في ثبوتها، فمن من أثبتها الحافظ هنا وفي القول المسدد في الذب عن المسند: ٨٩-٩٠ إذ قال: "وله طرق كثيرة جمعتها في جزء مفرد يكاد يكون الواقف عليه أن يقطع بوقوع هذه القصة لكثرة الطرق الواردة فيها وقوة مخارج أكثرها، والله أعلم". كما أخرج حديثها ابن حبان في صحيحه: ٦٣/١٤-٦٤ رقم: ٦١٨٦، والحاكم في مستدركه: ٦٠٧/٤-٦٠٨ مصححاً له ووافقه الذهبي في التلخيص. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣١٤/٦: "ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن جبير، وهو ثقة". وصححه أيضاً ابن حجر الهيثمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر: ١٧٢/٢، وأفرد السيوطي في قصتهما جزءاً كما ذكر ذلك في الإتقان: ١٨٠/٢، ويظهر أن الألوسي في روح المعاني: ٣٤٣/١ نقل عنه اعتراضه على من أنكر القصة بأن "الإمام أحمد وابن حبان والبيهقي وغيرهم رووها مرفوعة وموقوفة على علي وابن عباس وابن عمر وابن مسعود-رضي الله عنهم-بأسانيد عديدة صحيحة يكاد الواقف عليها يقطع بصحتها لكثرتها وقوة مخرجيها". وعلي القارئ في شرح الشفا: ٣٢٠/٢-٣٢١ إذ قال بعد إيراده لبعض الطرق: "ولا يخفى أن الحديث كما تراه مرفوعاً وموقوفاً له أصل ثابت في الجملة لتعدد طرقه واختلاف سنده... وموقوفاً على علي وابن عباس كما مر، وعن ابن عمر وابن مسعود بأسانيد صحيحة وقد قيل: لهذه القصة طرق تفيد العلم لصحتها". وقد ضعف هذه الروايات القاضي عياض في الشفا-مع الشرح لعلي القاري-: ٣١٨/٢-٣٢٢ إذ قال: "فمما احتج به من لم يوجب عصمة جميعهم (أي: الملائكة) قصة هاروت وماروت وما ذكر فيها أهل الأخبار ونقلة المفسرين، وما روي عن علي وابن عباس في خبرهما وابتلائهما فاعلم-أكرمك الله-أن هذه الأخبار لم يرد منها شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وليس هو شيء يؤخذ بقياس والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف كما سنذكره، وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم كما قصه الله تعالى أول الآيات من افترائهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه وقد انطوت القصة على شُنَع عظيمة وها نحن نخبر في ذلك ما يكشف غطاء هذه الإشكالات إن شاء الله". ثم شرع في ذكر ما يزيف القصة ويبطلها من وجوه. ووافقه ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٣٢/٤-٣٤ فقال: (إن قوماً نسبوا إلى الله تعالى ما لم يأت به قط أثر يجب أن يشتغل به وإنما هو كذب مفترى-إلى أن قال-فصح أنها خرافة موضوعة) وابن العربي في أحكام القرآن: ٣٠/١ إذ قال: "وتحقيق القول فيه أنه لم يصح سنده ولكنه جائز كله في العقل لو صح النقل". وابن عطية في المحرر الوجيز: ٣١٨/١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ٥٢/٢ إذ قال: "قلنا: هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره لا يصح منه شيء فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه وسفراؤه إلى رسله، ومما يدل على عدم صحته أن الله تعالى خلق النجوم وهذه الكواكب حين خلق السماء ففي الخبر "أن السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دوارة زحل والمشتري وبهرام وعطارد والزهرة والشمس والقمر" وهذا معنى قول الله تعالى: {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس:٤٠]، فثبت بهذا أن الزهرة وسهيلاً قد كانا قبل خلق آدم". وأبو حيان في البحر المحيط: ٣٢٩/١، وابن كثير في البداية والنهاية: ٣٧/١-٣٨ إذ قال: "وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت... فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين، وإن كان قد أخرجه

أن يحكما في الأرض، فنزلا على صورة البشر وحكما بالعدل مدة، ثم افتتنا بامرأة جميلة فعوقبا بسبب ذلك بأن حبسا في بئر ببابل منكسين وابتليا بالنطق بعلم السحر، فصار يقصدهما من يطلب ذلك فلا ينطقان بحضرة أحد حتى يحذراه وينهياه، فإذا أصر تكلما بذلك ليتعلم منهما ذلك، وهما قد عرفا ذلك، فيتعلم منهما ما قص الله عنهما، والله أعلم"[١].

وفي{ الملائكة}[البقرة:١٠٢]، قولان :

أحدهما : أن سحرة اليهود زعموا، أن الله تعالى أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره : وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، وهما رجلان ببابل. روي ذلك عن عطية[٢].

كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل..."، وجعل في تفسيره: ١٧٥/١ رواية سالم عن ابن عمر عن كعب عند عبد الرزاق في التفسير: ٥٣/١-٥٤ أصح وأثبت من رواية نافع عن ابن عمر في المسند وغيره لأن سالماً أثبت في أبيه من مولاه نافع قال: "فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل والله أعلم". وقال في تفسيره أيضاً: ١٧٨/١: "وقد رويت قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال"، وابن الجوزي في زاد المسير: ١٢٤/١، والرازي في مفاتيح الغيب: ٢٣٧/٣ إذ قال: "واعلم بأن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة" ثم أخذ يعدد وجوه بطلانها، وأبو السعود في إرشاد العقل السليم: ١٣٨/١. ومن المعاصرين الألوسي في روح المعاني: ٣٤١/١ والعلامة أحمد شاكر في تخريجه لأحاديث الطبري: ٤٣٣/٢ رقم: ١٦٨٨ وفي تخريجه لأحاديث المسند: ٢٩/٩-٣٣ رقم: ٦١٧٨، وقال في: ٣٢/٩ معقباً على كلام ابن حجر السابق في القول المسدد "أما هذا الذي جزم به الحافظ بصحة وقوع هذه القصة صحة قريبة من القطع لكثرة طرقها وقوة مخارج أكثرها فلا، فإنها كلها طرق معلولة أو واهية بالإضافة إلى مخالفتها الواضحة للعقل لا من جهة عصمة الملائكة القطعية فقط بل من ناحية أن الكوكب الذي نراه صغيراً في عين الناظر قد يكون حجمه أضعاف جسم الكرة الأرضية بالآلاف المؤلفة من الأضعاف فأنى يكون جسم المرأة الصغير إلى هذه الأجرام الفلكية الهائلة". وعزا في نفس الموضع القول بوضع بني إسرائيل لها وأنها حكاية خرافية لأستاذه رشيد رضا. وكذا قال أبو شهبة في كتابه: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: ١٦٢-١٦٣، وضعف شعيب الأرناؤوط في تخريجه أحاديث ابن حبان: ٦٤/١٤ رقم: ٦١٨٦ حديث ابن عمر المرفوع، وقال عنه هو وزميلاه في تخريج أحاديث المسند: ٣١٨/١٠ رقم: ٦١٨٦ "إسناده ضعيف ومتنه باطل". والأظهر-والله أعلم-في هذه المسألة ثبوت الحادثة لكثرة طرقها وقوة مخارج أكثرها ولا ينبغي رد الأسانيد الثابتة بمثل تلك الاعتراضات، بل الواجب جمع تلك الروايات وأخذ التفاصيل الصحيحة ورد الضعيفة، قال ابن حجر في العجاب-تحقيق الأنيس-: ٣٣٢/١-٣٤٣ عند ذكره سبب نزول هذه الآية: "طعن في هذه القصة من أصلها بعض أهل العلم... وليس العجب من المتكلم والفقيه إنما العجب ممن ينتسب إلى الحديث كيف يطلق على خبر ورد بهذه الأسانيد القوية مع كثرة طرقها وتباين أسانيدها أنه باطل أو نحو ذلك من العبارة مع دعواهم تقوية أحاديث غريبة أو واردة من أوجه لكنها واهية، واحتجاجهم بها والعمل بمقتضاها-إلى أن قال-وأقول: إن في طرق هذه القصة القوي والضعيف ولا سبيل إلى رد الجميع فإنه ينادي على من أطلقه بقلة الاطلاع والإقدام على رد مالا يعلمه، لكن الأولى أن يُنظر إلى ما اختلفت فيه بالزيادة والنقص فيؤخذ بما اجتمعت عليه، ويؤخذ من المختلف بما قوي، ويطرح ما ضعف، أو ما اضطرب فإن الاضطراب إذا بعد به الجمع بين المختلف ولم يترجح شيء منه التحق بالضعيف المردود والله المستعان". أما ما قيل من عصمة الملائكة لأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ويفعلون ما يؤمرون فهو صدق لا خلاف فيه لكنه خبر عن حالهم وهو ما يجوز أن تتغير لاحقاً فيتم الإخبار عنها بذلك أيضاً بعد، وكله حق وصدق لا خلاف فيه. أو يكون من العام الذي دخله التخصيص ولا وجه لمنع ذلك، أو أن هذين الملكان قد خرجا عن صفة الملائكة لإلقاء نعت البشرية من الشهوة النفسية عليهما ابتلاء لهم في القضية، والعلم لله تعالى. انظر: أحكام القرآن لابن العربي: ٣٠/١، فتح القدير للشوكاني: ١٨٢/١-١٨٣، شرح الشفا لعلي القاري: ٣٢١/٢. وأما تحول المرأة إلى كوكب الزهرة فقد أخرج ابن أبي حاتم: ٣٠٥/١ رقم: ١٠١٢ عن ابن عباس القصة وفيها: (وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب"، قال ابن كثير في تفسيره: ٢٧٦/١-٢٧٧ بعد إيراده لها: "وقد رواه الحاكم في مستدركه مطولاً عن أبي زكريا العنبري... ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه فهذا أقرب ما روي في شأن الزهرة، والله أعلم). أما بقية الوجوه التي ذكرها من ضَعَّف هذه القصة مطلقاً سواء أكانت وجوهاً عقلية أم إسنادية فلا تقوم في وجه الأسانيد القوية التي وردت بها القصة، والله أعلم.

[١]الفتح: ٢٣٥/١٠.

[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٩٩):ص١٨٨/١.

والثاني : أن هاروت وماروت مَلَكان ، أَهْبَطَهُما الله عز وجل إلى الأرض. قاله ابن عباس[١]، وابن مسعود[٢]، وعلي[٣]، وكعب[٤]، والسدي[٥]، والربيع[٦]، وابن عمر[٧]، ومجاهد[٨].
أخرج الطبري عن ابن عباس قال : "إن الله أفرج السماء لملائكته ينظرون إلى أعمال بني آدم، فلما أبصروهم يعملون الخطايا قالوا : يا رب، هؤلاء بنو آدم الذي خلقته بيدك، وأسجدت له ملائكتك، وعلمته أسماء كل شيء، يعملون بالخطايا! قال : أما إنكم لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم. قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا! قال : فأمروا أن يختاروا من يهبط إلى الأرض، قال : فاختاروا هاروت وماروت. فاهبطا إلى الأرض، وأحل لهما ما فيها من شيء، غير أن لا يشركا بالله شيئا ولا يسرقا، ولا يزنيا، ولا يشربا الخمر، ولا يقتلا النفس التي حرم الله إلا بالحق. قال : فما استمرا حتى عرض لهما امرأة قد قسم لها نصف الحسن، يقال لها " بيذخت " فلما أبصراها أرادا بها زنا، فقالت : لا إلا أن تشركا بالله، وتشربا الخمر، وتقتلا النفس، وتسجدا لهذا الصنم! فقالا ما كنا لنشرك بالله شيئا! فقال أحدهما للآخر : ارجع إليها. فقالت : لا إلا أن تشربا الخمر. فشربا حتى ثملا ودخل عليهما سائل فقتلاه، فلما وقعا فيما وقع من الشر، أفرج الله السماء لملائكته، فقالوا : سبحانك! كنت أعلم! قال : فأوحى الله إلى سليمان بن داود أن يخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فكبلا من أكعبهما إلى أعناقهما بمثل أعناق البخت، وجعلا ببابل"[٩].
وقوله تعالى:{ بِبَابِلَ }[البقرة:١٠٢]، فإنه اسم قرية أو موضع من مواضع الأرض، وقد اختلف أهل العلم فيها على وجوه[١٠]:
احدها: أنها: بابل دُنْبَاوَنْد[١١]. قاله السدي[١٢].
والثاني:أنها: أنها الكوفة وسوادها، وسميت بذلك حيث تبلبلت الألسن بها، وهذا قول ابن مسعود[١٣].
والثالث: أنها بابل العراق. قالته عائشة-رضي الله عنها-[١٤]. واختاره الثعلبي[١٥]، وابن كثير[١٦].
والرابع: أنها بالمغرب. قال ابن عطية : "وهذا ضعيف"[١٧].
والخامس: أنها جبل نهاوند[١٨].
والسادس: أنها من نصيبين إلى رأس العين. قاله قتادة[١٩].

([١]) انظر: تفسير الطبري(١٦٨١):ص ٤٢٧/٢-٤٢٨.
([٢]) انظر: تفسير الطبري(١٦٨٢):٤٢٨/٢.
([٣]) انظر: تفسير الطبري(١٦٨٣):٤٢٩/٢.
([٤]) انظر: تفسير الطبري(١٦٨٤):٤٢٩/٢.
([٥]) انظر: تفسير الطبري(١٦٨٦):ص٤٣١/٢.
([٦]) انظر: تفسير الطبري(١٦٨٧):ص٤٣١/٢-٤٣٢.
([٧]) انظر: تفسير الطبري(١٦٨٨):ص٤٣٢/٢.
([٨])انظر: تفسير الطبري(١٦٨٩):ص٤٣٤/٢.
([٩]) تفسير الطبري(١٦٨١):ص ٤٢٧/٢-٤٢٨.
([١٠]) انظر: تفسير الطبري: ٤٣٦/٢، والمحرر الوجيز: ١٨٦/١-١٨٧، وتفسير القرطبي: ٥٣/٢.
([١١]) يقع جبل دماوند ضمن سلسلة جبال البرز بالقرب من بحر خزر وعلى مسافة ٧٠ كيلو متر من مدينة طهران ويقع ضمن محافظة مازندران الايرانية . هو جبل ذو نشاط بركاني ولكنه اليوم غير فعال ، يمكن روية الجبل في الايام الغير مغبرة من محافظة طهران.
يسمى كذلك في الكتب القديمة بجبل دنباوند اي بمعني الحرارة.
([١٢]) انظر: تفسير الطبري(١٦٨٦):ص٤٣١/٢، و(١٦٩٠):ص٤٣٦/٢.
([١٣]) انظر: تفسير ابن عطية: ١٨٧/١، والنكت والعيون: ١٦٨/١.
([١٤]) انظر: تفسير الطبري(١٦٩١):ص٤٣٦/٢.
([١٥]) انظر: تفسير الثعلبي: ١/ ٢٤٥، ومعجم ما استعجم:١/ ٢٠٢، ومعجم البلدان:١/ ٣٠٩.
([١٦]) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٦٢/١، ومعجم ما استعجم:١/ ٢٠٢، ومعجم البلدان:١/ ٣٠٩.
([١٧]) المحرر الوجيز: ١٨٧/١.
([١٨]) وهو قرب مدينة نهاوند الإيرانية التي تقع في منطقة جبلية إلى الجنوب من جبال زاغروس، أسسها داريوس الأول، وكانت المدينة عاصمة لإمبراطورية كسرى الأول،معظم سكانها من الكرد.
([١٩]) انظر: المحرر الوجيز: ١٨٧/١.

وقد رجح ابن كثير أنها بابل العراق، واستدل لذلك، بما أخرجه ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال: "إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلي ببابل فإنها ملعونة"[١] [٢].
واختلف في سبب تسميتها بـ(بابل) على أقوال [٣]:
أحدها: أنها سميت بذلك، لتبلبل الألسن بها حين سقط صرح نمروذ[٤].
والثاني: سميت به، لأن الله تعالى لما أراد أن يخالف بين ألسنة بني آدم بعث ريحا فحشرتهم من الآفاق إلى بابل، فبلبل الله ألسنتهم بها، ثم فرقتهم تلك الريح في البلاد[٥].
والبلبلة : التفريق[٦]، قال معناه الخليل.
قال أبو عمر بن عبدالبر : "من أخصر ما قيل في البلبلة وأحسنه ما رواه داود بن أبي هند عن علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام لما هبط إلى أسفل الجودي ابتنى قرية وسماها ثمانين، فأصبح ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها اللسان العربي، وكان لا يفهم بعضهم عن بعض"[٧].
قوله تعالى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ}، أي: "وما يعلم الملكان أحدا من الناس الذي أنزل عليهما من التفريق بين المرء وزوجه، حتى يقولا له : إنما نحن بلاء وفتنة لبني آدم، فلا تكفر بربك"[٨].
قال الصابوني:" أي إن الملَكَيْن لا يعلمان أحداً من الناس السحر حتى يبذلا له النصيحة ويقولا إن هذا الذي نصفه لك إنما هو امتحان من الله وابتلاء، فلا تستعمله للإضرار ولا تكفر بسببه، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس فقد نجا، ومن تعلمه ليلحق ضرره بالناس فقد هلك وضل"[٩].
قال البيضاوي:" ما يعلمان أحداً حتى ينصحاه ويقولا له إنما نحن ابتلاء من الله، فمن تعلم منا وعمل به كفر، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به، وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور، وإنما المنع من اتباعه والعمل به"[١٠].
قال ابن عثيمين: أي نحن" اختبار للناس؛ ليتبين من يريد السحر ممن لا يريده، فلا تكفر بتعلم السحر"[١١].
قال الزمخشري:" والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس. من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً ، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمنا"[١٢]، كما قال أبو فراس[١٣]:
عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لكِنْ لِتَوَقِّيهِ   وَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ النَّاسِ يقعْ فيهِ
أى عرفته لأجل التحفظ منه.
قال الحسن:" نعم أنزل الملكين بالسحر ليعلموا الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلمان أحدا حتى يقولا {إنما نحن فتنة فلا تكفر}. وهما يفعلان لا يعلمان أحدا حتى يقولا: {إنما نحن فتنة فلا تكفر}"[١٤]. وروي عن قتادة[١٥] مثله.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٣):ص١٨٩/١.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٦٢/١، وتفسير الثعلبي: ١/ ٢٤٥، ومعجم ما استعجم:١/ ٢٠٢، ومعجم البلدان:١/ ٣٠٩.
(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٥٣/٢.
(٤) انظر: تفسير البغوي: ١٢٩/١.
(٥)انظر: تفسير الثعلبي: ١/ ٢٤٥، وزاد المسير: ١٢٥/١، وتفسير القرطبي: ٥٣/٢.
(٦) انظر: تهذيب اللغة:٣٤٣/١٥، و القاموس: ٩٦٨ - ٩٦٩.
(٧) القصد والأمم: ٢٥، وانظر: تفسير القرطبي: ٥٣/٢.
(٨) تفسير الطبري: ٤٤٠/٢.
(٩) صفوة التفاسير: ٧٣/١-٧٤.
(١٠) تفسير البيضاوي: ٩٨/١.
(١١) تفسير ابن عثيمين:٣٢٩/١.
(١٢) الكشاف: ١٧٢/١.
(١٣) ديوان أبي فراس الحمداني، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٩٤م:ص٣٥٢.
(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١١):ص١٩٢/١.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١٢):ص١٩٢/١.

وقال السعدي:" أي: لا تتعلم السحر فإنه كفر، فينهيانه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام، وتعليم الملكين امتحانا مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة.
فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه"[١].

وقد استدل بهذه الآية على أن السحر كفر ومتعلمه كافر[٢]، وهو واضح في بعض أنواعه التي قدمتها[٣]، وهو التعبد للشياطين أو للكواكب، وأما النوع الآخر الذي هو من باب الشعوذة فلا يكفر به من تعلمه أصلاً[٤]، قال النووي[٥]: "عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع"[٦].

واختلفت القراءة في قوله تعالى :{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِن أَحَدٍ}[البقرة:١٠٢]، على وجهين:
أحدهما:{ يُعَلِّمَانِ} بالتشديد من التعليم.
والثاني: {يعْلمان}، وفي الشاذ بسكون العين من الإعلام[٧]، وهي قراءة طلحة بن مصرف، بناء على أن التضعيف يتعاقب مع الهمزة، وذلك أن الملكين لا يعلمان الناس السحر بل يُعْلِمَانِهم به وينهيانهم عنه.
والوجه الأول أشهر[٨].

واختلفوا في تعليم الملكين السحر، فذكر أهل التفسير فيه وجهين[٩]:
أحدهما: أنهما كانا لا يتعمدان تعليم السحر، ولكنهما يصفانه، ويذكران بطلانه، ويأمران الناس باجتنابه، وكانا يعلمان الناس وغيرهم ما يُسألان عنه، ويأمران باجتناب ما حُرِّم عليهم، وطاعة الله فيما أُمروا به، ونهوا عَنْهُ. وفي ذلك حكمة، لأن سائلًا لو سأل: ما الزنا؟ وما اللواط؟ لوجب أن يوقف عليه، ويعلم أنه حرام، فكذلك مجاز إعلام الملكين الناس السحر، وأمرهما السائل باجتنابه بعد الإعلام والإخبار أنه كفر حرام[١٠].
ويؤكد هذا الوجه: ما روى أبو العباس عن ابن الأعرابي أنه قال: عَلَّم بمعنى أعلم، وذلك أن التعليم لا ينفك عن الإعلام، كما يقال: تعلَّمْ بمعنى أعلَمْ؛ لأن من تعلم شيئا فقد عَلِمَه، فيوضع التَّعَلُّم موضع العلم[١١].
قال قيس بن زهَير[١]:

([١]) تفسير السعدي:٦١.

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي: ٢٨/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٤٣/٢، فتح القدير للشوكاني: ١٧٨/١، أحكام القرآن للجصاص: ٥٣/١، أضواء البيان للشنقيطي: ٤٤٢/٤، وغيرها.

(٣) انظر: فتح الباري: ٢٣٢/١٠-٢٣٣.

(٤) هذا الإيضاح والتفصيل في حكم السحر وتعلمه هو غاية التحقيق في المسألة، وبه يزول الإشكال وتجتمع الأدلة، فالسحر الذي من قبل الشياطين كفر لأنه لا يتأتى بدون الشرك وعبادة الشياطين والكواكب، وعلى هذا النوع يحمل كلام من أطلق من أهل العلم كفر السحر والساحر ومعلمه ومتعلمه إذ أنهم لا يرون سحراً في الاصطلاح غيره، أما النوع الآخر فليس بسحر في الاصطلاح عندهم وإن سمي سحراً فعلى سبيل المجاز كتسمية القول البليغ والنميمة سحراً. أما سحر الأدوية والتدخين والاستعانة بخواص الأشياء والأخذ بالعيون وخداعها حتى ترى الشيء على خلاف ما هو عليه: فليس بكفر، ولكنه حرام حرمة شديدة لمضرة بعضه واعتماد بعضه على الكذب على الناس وخداعهم، ويعزر من يفعله تعزيراً بليغاً، وعلى هذا النوع يحمل كلام من رأى من أهل العلم أن أنواعاً من السحر ليست بكفر، والله أعلم. انظر: الفروق للقرافي: ١٣٥/٤-١٤١، والمغني لابن قدامة: ٣٠٤/١٢، والإنصاف للمرداوي: ٣٤٩/١٠-٣٥٠، وتيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الله: ٣٨٣-٣٨٤، وأضواء البيان للشنقيطي: ٤٥٦/٤، ونواقض الإيمان القولية والعملية لـ د. العبد اللطيف: ٥٠٣ وما بعدها.

(٥) انظر: شرح النووي على مسلم: ٢٥٢/١٤-٢٥٣ عند الكلام على حديث عائشة رقم: ٢١٨٩، وسحر لبيد بن الأعصم اليهودي للنبي ﷺ.

(٦) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٧١/٣٥، مختصر الفتاوى المصرية: ١٥١، حاشية ابن عابدين: ٢٤٠/٤، نواقض الإيمان القولية والعملية لـ د. العبد اللطيف: ٥٠٣، السحر بين الحقيقة والخيال لـ د. الحمد: ١٤٦.

(٧) انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٣٣٠/١، الدر المصون للسمين: ٣٢٢/١.

(٨) انظر: الدر المصون للسمين: ٣٢٢/١، والبحر المحيط لأبي حيان: ٣٣٠/١، والفتح: ٣٣٦/٥.

([٩]) انظر: التفسير البسيط: ١٩٩/٣-٢٠١.

([١٠]) انظر: تهذيب اللغة للأزهري: ٣/ ٢٥٥٤ مادة (علم)، ومنه نقل الثعلبي ١/ ٢٥٠، والواحدي في البسيط: ١٩٩/٣.

([١١])نقله عن ابن الأعرابي والأزهري في "تهذيب اللغة" ٣/ ٢٥٥٤، والقرطبي في "تفسيره" ٢/ ٤٨، وينظر: "البحر المحيط" ١/ ٣٣٠، والواحدي في التفسير البسيط: ١٩٩/٣.

تَعَلَّمْ أنّ خيرَ الناس حيًّا   على جَفْر الهَباءةِ لا يَريم
أي: اعلم[٢].
قال ابن الأعرابي: ومن هذا قول الله: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ} قال معناه: إن السّاحر يأتي الملكين فيقول: أخبرني عمّا نهى الله عنه حتى أنتهي، فيقولان: نهى عن الزنى، فيستوصفُهما الزِنى، فيصفانه، فيقول: وعن ماذا؟ فيقولان: عن اللواط، ثم يقول: وعن ماذا؟ فيقولان عن السحر، فيقول: وما السحر؟ فيقولان: هو كذا، فحفظه، وينصرف فيخالف، فيكفر، فهذا معنى {يُعَلِّمَانِ}، ولا يكون تَعليم السحْر إذا كان إعلامًا كفرًا، ولا تعلّمه إذا كان على معنى الوقوف عليه ليجتنبه كفرًا، كما أن من عرَّف الزنى لم يأثم بأنه عرَّفه، إنما يأثم بالعمل[٣].
وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه قال:" الملكان يعلمان تعليم إنذار لا تعليم طلب"[٤].
ونصر هذا القول الطبري[٥]، وقواه الزجاج [٦]، قال ابن كثير: "وهذا الذي سلكه [يعني: ابن جرير] غريب جدًّا، وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن كما زعمه ابن حزم[٧].
الوجه الثاني: أن الله عز وجل امتحن الناسَ بالملكين في ذلك الوقت، وجعل المحنةَ في الكفر والإيمان أن يقبل القائل تعلُّم السحر، فيكفر بتعلّمه، ويؤمن بترك التعلّم، ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء، كما امتحن الله بنهر طالُوت في قوله: {إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ} [البقرة:٢٤٩].
ويدل على صحة هذا: قوله تعالى: {إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ} أي: محنة من الله نُخبرك أنَّ عملَ السحر كفر بالله، وننهاك عنه، فإن أطعتنا في ترك العمل بالسحر نجوتَ، وإن عصيتنا في ذلك هلكتَ[٨].
وروي عن ابن عباس أنه قال: "أما السحر فمما علّمت الشياطين، وأما الفرق بين المرء وزوجه فمما علّم الملكان"[٩].
وقال الجمهور: "بل التعليم على عرفه"[١٠]. والله أعلم.
قال الواحدي:" وجه تعليم الملكين، أنه يجوز أن يلهمهما الله ويعلّمهما من الأذكار والأسماء ما يعلمان أنها إذا استعلمت على جهة الدعاء أو على جهة الرقية أفادت التفريق بين المرء وزوجه، إذ لا يحسن بحالهما وما هما فيه من عقوبة الذنب السابق أن يشتغلا بارتكاب كبيرة مستأنفة"[١١].
وقد ذكر ابن حجر إجازة بعض العلماء تعلم (السحر) لأحد أمرين[١٢]:

---

(١)البيت لقيس بن زهير في "مقاييس اللغة" ٤/ ١١٠، و"لسان العرب" ٥/ ٣٠٨٣ مادة (علم).
(٢) انظر: التفسير البسيط: ١٩٩/٣.
(٣)نقل هذا بطوله الأزهري في "تهذيب اللغة" ٣/ ٢٥٥٥ مادة (علم)، ومنه أخذ الثعلبي في "تفسيره" ١/ ٢٥٠،
(٤) عزاه له أبو حيان في البحر المحيط: ٣٣٠/١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ٥٣/٢-٥٤.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٠/٢-٤٢٤.
(٦) انظر: معاني القرآن: ١/ ١٨٣ - ١٨٤.
(٧) تفسير ابن كثير: ٣٥٢/١.
(٨) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٥٠/١، و معاني القرآن" للزجاج ١/ ١٨٣، "تفسير الطبري: ٢/ ٤٢٥، "تفسير السمعاني" ١/ ٥٧٥، ومفاتيح الغيب: ٣/ ٢٨٣.
(٩)رواه بمعناه ابن أبي حاتم في تفسيره(٩٩٦)، و(٩٩٧):ص/١ ١٨٨، ورواه الطبري بسنده عن مجاهد(١٦٧٧):ص٤٢٣/٢، وروى نحوه(١٦٧٤):ص٤٢١/٢، وكذا ذكره الثعلبي في "تفسيره:١/ ٢٥٠ وعزاه في الدر:١/ ١٩٤ لعبد بن حميد.
(١٠) نقل الإجماع ابن عطية، انظر: المحرر الوجيز: ١٨٧/١.
(١١) التفسير البسيط: ٢٠١/٣.
(١٢) نقله ابن حجر، انظر: الفتح: ٢٢٦/١٠. ولم أهتد إلى القائل بذلك، لكن ممن أجاز تعلم السحر بإطلاق الرازي في مفاتيح الغيب: ٦٣٠/٣، بل وصل به الأمر إلى القول بوجوب ذلك، وقد تولى مناقشته والرد عليه ابن كثير في تفسيره: ٣٦٦/١-٣٦٧، وانظر: أضواء البيان للشنقيطي: ٤٦٢/٤-٤٦٤. وأجاز أبو حيان في البحر المحيط: ٣٢٨/١ تعلم ما كان منه على صفة التخييل والدك والشعبذة إذا لم يقصد العمل به بل قصد معرفته لئلا تتم عليه مخايل السحرة وخدعهم، وجعله من المكروه إذا قصد به اللهو واللعب وتفريج الناس. والصحيح-والله أعلم-أن ما كان من السحر فيه استعانة بالشياطين فلا يجوز تعلمه؛ لأن ذلك يستلزم وقوع المتعلم في أنواع كثيرة من الكفريات كسب الله-عز وجل-أو كتابه أو أحد من رسله أو ملائكته، وكادعاء علم الغيب، وكاعتقاد انفراد الكواكب أو بعضها بالربوبية، أو السجود للشياطين أو الذبح والنذر لها... إلخ وينبغي أن لا يكون خلافاً في حرمة تعلم ذلك. أما ما كان فيه تعلم سفك دم وتفريق بين الزوجين وخداع للخلق وكذب عليهم فلا شك في حرمته، وما قيل من

أحدهما: تعلمه لتمييز ما فيه كفر عن غيره، فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد فإذا سلم الاعتقاد فمعرفة الشيء بمجرده لا تستلزم منعاً[١]، كمن يعرف كيفية عبادة أهل الأوثان للأوثان[٢]؛ لأن كيفية ما يعلمه الساحر إنما هي حكاية قول أو فعل، بخلاف تعاطيه والعمل به.
والثاني: تعلم السحر لإزالته عمن وقع فيه، فإن كان لا يتم كما زعم بعضهم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق فلا يحل أصلاً وإلا جاز للمعنى المذكور[٣]... والله أعلم[٤].
وقوله تعالى: {إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ}[البقرة:١٠٢]، "أي: ابتلاء واختبار لكم"[٥].
وقد ذكروا في قوله تعالى: {إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ}[البقرة:١٠٢]، وجهين من التفسير[٦]:
أحدهما: إنما نحن ابتلاء من الله، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به.
والثاني: أن هذا السحر بلاء ابتلينا به، وإنما نحن مفتونان فلا تكن مثلنا. قاله قتادة[٧].
مفتونان فلا تكن مثلنا.

ومعنى (الفتنة) في كلام العرب: الابتلاء والامتحان[٨]، وأصلها مأخوذ من قولك: فتنتُ الفضة والذهب: إنا أذبتهما بالنار؛ ليتميز الرديء من الجيد، وتعرف جودتهما من الرداءة، ومن هذا قوله عز وجل: {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} [الذاريات: ١٣]، أي: يحرقون بالنار، ومن هذا قيل للحجارة السود التي كأنها أحرقت بالنار: الفتين[٩]، ثم جعل كل امتحان فِتْنَة، وقد جعل الله امتحانه عبيده المؤمنين باللأواء ليبلو صبرَهم فيثيبهم، أو جزعهم على ما ابتلاهم به فيجزيهم، جزاؤهم فتنة فقال: {الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ} إلى قوله: {وَهُمْ لَا

حله لمن أراد تعلمه لكي لا ينطلي عليه خداع السحرة وحيلهم فلا؛ لأن الله-عز وجل-قال: {وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ} [البقرة:١٠٢] وإذا أثبت الله أن السحر ضار ونفى أنه نافع، فكيف يجوز تعلم ما هو ضرر محض لا نفع فيه؟ وكيف يدعى فيه النفع؟ بالإضافة إلى أن تعلمه قد يكون ذريعة إلى العمل به والذريعة المفضية إلى الحرام يجب سدها. وأما ما كان فيه لهو ولعب وإظهار خفة الصنعة مع تصريحه بأن الأمر معتمد على مهارته وذكائه وليونة جسده مثلاً، لا أن يزعم أنه يستعين بشيطان أو يستعمل أدوية وأبخرة ونحو ذلك فالأمر متردد بين الجواز والكراهة حسب إغراقه لنفسه في ذلك من عدمه، والأولى تركه، ولكن لا ينبغي أن يسمى هذا النوع سحراً في غير اللغة. وأما إن كان يستعمل أدوية وأبخرة ونحو ذلك، فالأظهر الحرمة؛ لأن ذلك في الغالب ذريعة إلى التمادي في ذلك والكذب على الناس وخداعهم والاستعانة بالمردة والشياطين وتعليق قلوب الخلق بغير الله-عز وجل-، والله أعلم. انظر: الفروق للقرافي: ١٤٠/٤، أضواء البيان للشنقيطي: ٤٦٣/٤-٤٦٤، السحر بين الحقيقة والخيال د. الحمد: ١٥٢-١٥٣، وغيرها.

(١) لكنها لا تستلزم تعلم ممارسته إذ يمكن معرفة حقيقة السحر وأنواعه بدون تعلم ممارسته، وامتلاك القدرة على ذلك، كالاجتهاد يمكن لكل أحد معرفة حده وشروطه دون أن يكون قادراً على ممارسته، وكاللغات يمكن لكل أحد التعرف على خصائصها والفروق بينها دون أن يكون قادراً على نطقها، انظر: السحر بين الحقيقة والخيال للحمد: ١٥٣-١٥٤.

(٢) قال د. الحمد في كتابه السحر بين الحقيقة والخيال: ١٥٤: "المثال الذي قاس عليه ابن حجر: الجواز مختلف عن المقاس تماماً لأن عبادة الأوثان بأي صفة كانت-دعاء أو ذبحاً أو خوفاً أو رجاء أو غيرها-علمها لذاته ليس محذوراً بل هو مشروع، وإنما المحذور فيها صرفها لغير مستحقها الله-تبارك وتعالى-أما السحر فهو ممنوع تعلماً وتطبيقاً، ومر ذكر رأي الجمهور في منع تعلم السحر مطلقاً فالحال مختلفة وحكمها كذلك".

(٣) الصحيح أن تعلم السحر لحل السحر وإزالته عمن وقع فيه لا يجوز لما سبق بيانه في حكم تعلم السحر. وحل السحر عن المسحور يختلف حكمه من حالة إلى أخرى، فإن كان بسحر فإما أن يكون كفراً إن كان ذلك باستخدام الشياطين وتقديم القرابين لها، وإما أن يكون معصية وفسقاً إن كان بالرقى والعقد والنفث وسائر الأمور غير المشروعية. وأما إن كان بدواء حسي مباح عرف عن طريق الوحي أو التجربة نفعها كاستخراج السحر من المكان الذي وضع فيه وإبطاله وكسدر وعسل وحبة سوداء ونحو ذلك، أو كان بدواء معنوي كقراءة القرآن والأدعية المأثورة أو المباحة فأمر جائز بل مشروع لأنه من باب الدواء والمعالجة وفيه فضل كبير لمن ابتغى به وجه الله تعالى . انظر: زاد المعاد لابن القيم: ١٢٤/٤-١٢٧، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لعبد الرحمن ابن حسن: ٢٤١-٢٤٣، القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين: ٦٩/٢-٧٦، السحر بين الحقيقة والخيال د. الحمد: ١٨٧-١٩٦.

(٤) الفتح: ٢٢٦/١٠.
(٥) التفسير البسيط: ٢٠٥/٣.
(٦) انظر: تفسير البيضاوي: ٩٨/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠١٢):ص١٩٢/١.
(٨) انظر: مقاييس اللغة: ٤/ ٤٧٢، مادة:(فتن).
(٩) انظر: تهذيب اللغة:٣/ ٢٧٣٨، مادة: (فتن).

يُفْتَنُونَ} [العنكبوت:١ - ٢] قيل في تفسيره: وهم لا يُبلَون في أنفسهم وأموالهم، وكذلك قوله: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [العنكبوت: ٣]، أي: اختبرنا[١].

و(الفتنة) تستعمل في معانٍ كثيرة، ترجع كلها إلى الأصل الذي ذكرنا وهو الابتلاء والامتحان، والفتنة مصدر؛ لذلك لم يُثَنَّ[٢].

ويقال: فَتَنَه وأَفْتَنَه، والأول: لغة أهل الحجاز، والثاني: لغة أهل نجد، وقال أعشى همْدان[٣]:

لئن فَتَنَتْني لَهْيَ بالأمس أَفْتَنَتْ   سعيدًا فأمسى قد قَلَى كلَّ مُسلم

وكان الأصمعي ينكر أفتَنَه، وذُكر له هذا البيت فلم يعبأ به [٤].   وأكثر أهل اللغة أجازوا اللغتين[٥]، ومعنى فتنته فلانة: أي: اختبرته، كأنه اختبر بها لجمالها[٦].

واختلف في قوله تعالى:{ فَلَا تَكْفُرْ}[البقرة:١٠٢]، على وجوه[٧]:

أحدها: فلا تكفر: بتعلم السحر.

والثاني:فلا تكفر باستعماله.

والثالث: وحكى المهدوي أن قولهما: {إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ} استهزاء، لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحققا ضلاله.

قوله تعالى: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ}[البقرة:١٠٢]، "أي يتعلمون منهما من علم السحر ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين"[٨].

قال الزمخشري:" أى فيتعلم الناس من الملكين علم السحر الذي يكون سببا في التفريق بين الزوجين من حيلة وتمويه ، كالنفث في العقد ، ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرك والنشوز والخلاف ابتلاء منه ، لا أنّ السحر له في نفسه"[٩].

قال قتادة:" وتفريقهم أن يمسكوا كل واحد منهما عن صاحبه ويبغضوا كل واحد منهما إلى صاحبه"[١٠].

قال الشوكاني: "في إسناد التفريق إلى السحرة وجعل السحر سبباً لذلك دليل على أن للسحر تأثيراً في القلوب بالحب والبغض والجمع والفرقة والقرب والبعد"[٣] .

و(المرء)معناه : رجل من أسماء بني آدم، والأنثى منه:(المرأة)، يوحد ويثنى، ولا تجمع ثلاثته على صورته، وكذلك: المرأة توحد وتثنى ولا تجمع على صورتها [١١].

وفي {المرء}[البقرة:١٠٢]، أربع قراءات[١٢]:

إحداها: قرأ الحسن: {المرّ} بفتح الميم وتشديد الرّاء جعله عوضا عن الهمزة.

والثانية: وقرأ الزهري: {المُرء}، بضم الميم والهمزة.

والثالث: وحكى يعقوب عن جدّه: بكسر الميم والهمزة.

والرابعة: وقرأ الباقون: بفتح الميم والهمزة.

([١]) انظر: التفسير البسيط: ٢٠٣/٣-٢٠٤، وتهذيب اللغة: ٣/ ٢٧٣٨، مادة: (فتن).

([٢]) انظر: الوسيط: ١٨٥/١.

([٣])وقيل: لابن قيس الرقيات، كما في "اللسان" ٦/ ٣٣٤٥، (مادة: فتن) وذكر أنه قيل في سعيد بن جبير، وقال الأصمعي: هذا سمعناه من مخنث، وليس بثبت، لأنه كان ينكر أفتن. وينظر: "تهذيب اللغة" ٣/ ٢٧٣٩، مادة:(فتن).

([٤]) انظر: تهذيب اللغة" ٣/ ٢٧٣٩، مادة: (فتن)، واللسان: ١٣/ ٣١٧. مادة:(فتن).

([٥]) انظر: تهذيب اللغة" ٣/ ٢٧٣٩، مادة: (فتن)، واللسان: ١٣/ ٣١٧. مادة:(فتن).

([٦]) انظر: التفسير البسيط: ٢٠٤/٣.

([٧]) انظر: المحرر الوجيز: ١٨٧/١.

([٨]) صفوة التفاسير: ٧٤/١.

([٩]) الكشاف: ١٧٣/١.

([١٠]) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١٥):ص١٩٣/١.

)[٣] تفسير فتح القدير: (١٢٠/١).

([١١]) انظر: تفسير الطبري: ٤٤٦/٢.

([١٢]) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٤٩/١.

وأما (الزوج)، فإن أهل الحجاز يقولون لامرأة الرجل : هي زوجه، بمنزلة الزوج الذكر، ومن ذلك قول الله تعالى ذكره : {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ}[سورة الأحزاب : ٣٧]، وتميم وكثير من قيس وأهل نجد يقولون : هي زوجته، كما قال الفرزدق[١]:

وإن الذي يمشي يحرش زوجتي كماش إلى أسد الشرى يستبيلها

والزوج في الآية: امرأة الرجل[٢].

قوله تعالى:{ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}[البقرة:١٠٢]، " أي وما هم بما استعملوه من السحر يضرون أحداً إلا إذا شاء الله"[٣].

قال ابن حجر:"أي: نتركهم يفعلون ذلك، وليس المراد بالإذن إباحة الإضرار بالسحر[٤]"[٥].

قال الثعلبي:" أي بعلمه وقضائه ومشيئته وتكوينه، والساحر يسحر ولا يكون شيء"[٦].

قال السعدي:" وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: {فَإِنَّهُ نزلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ} وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين"[٧].

وقرأ الجمهور {بضارين به}، وقرأ الأعمش {بضاري به من أحد}، فقيل: حذفت النون تخفيفا، وقيل: حذفت للإضافة إلى أَحَدٍ وحيل بين المضاف والمضاف إليه بالمجرور[٨].

واختلفوا في تفسير قوله تعالى:{ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}[البقرة:١٠٢] على وجهين:

أحدهما: أنه يعني: "لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه". قاله الحسن[٩].

والثاني: أن معناه:"من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون ضر أحد إلا بإذن الله". قاله الحسن كذلك[١٠].

وذكروا في قوله تعالى: {إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}[البقرة:١٠٢]، ثلاثة أوجه:

---

(١)ديوانه : ٦٠٥ ، والأغاني ٩ : ٣٢٦ ، و١٩ : ٨ (ساسى) ، في قصته مع النوار ، ويقول هذا الشعر لبني أم النسير (طبقات فحول الشعراء : ٢٨١ ، والأغاني) ، وكانت خرجت مع رجل يقال له زهير بن ثعلبة ومع بني أم النسير ، فقال هذا الشعر ، وبعد البيت :

ومن دون أبوال الأسود بسالة وصولة أيد يمنع الضيم طولها

ورواية الديوان وغيره : وإن امرءا يسعى يخبب زوجتي. وقوله : " يخبب " ، أي يفسدها على . ويحرش : يحرض ويغرى بيني وبينها . و " يستبيلها " : أي يطلب أن تبول في يده .

(٢) انظر: المحرر الوجيز: ١٨٨/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٧٤/١.

(٤) أي: أن الإذن في الآية مرادف للإرادة الكونية القدرية المعبر عنها بالخلق والإيجاد، والمتعلقة بالمشيئة لا الإرادة الشرعية المعبر عنها بالأمر والمتعلقة بالمحبة، فالله-عز وجل-أراد السحر كوناً وقدراً لأنه لا يكون في ملكه إلا ما شاء وأراد، ولم يرده شرعاً لأنه-سبحانه-لا يرضى الكفر والفسوق ولا يأمر بهما-سبحانه-بل ينهى عنهما. وعلى ذلك جاءت أقوال المفسرين، انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٨٦/١، أحكام القرآن لابن العربي: ٣١/١، جامع البيان للطبري: ٤٤٩/٢-٤٥٠، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٥٥/٢، تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٨٠/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٣٩/٣.

(٥)الفتح: ٢٢٦/٥.

(٦) تفسير الثعلبي:٢٥٠/١.

(٧) تفسير السعدي:٦١.

(٨) انظر: المحرر الوجيز: ١٨٨/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠١٧):ص١٩٣/١.

(١٠)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠١٨):ص١٩٣/١.

احدها: أن معناه: "إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد". قاله ابن إسحاق[١]، أي: أن الله-عز وجل-تركه يفعل، ولو شاء لم يمكنه من ذلك ولم يسلطه على أحد من خلقه[٢].
والثاني: أن معناه: "إلا بقضاء الله". قاله سفيان[٣].
والثالث: المعنى: "ما يُضلّون إلا من كان في علمي وقضائي وقدرتي أن أُضِلّه". روي ذلك عن ابن عباس[٤].
وقال المفسرون: "الإذن هاهُنا تأويله: إرادة التكوين، أي: لا يضرّون بالسحر إلا من أراد الله أن يلحقه ذلك الضرر"[٥].

ولـ لإذن " في كلام العرب أوجه[٦]:
احدها: الأمر على غير وجه الإلزام. وغير جائز أن يكون منه قوله : {وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله} ، لأن الله جل ثناؤه قد حرم التفريق بين المرء وحليلته بغير سحر - فكيف به على وجه السحر ؟ - على لسان الأمة.
والثاني: ومنها : التخلية بين المأذون له ، والمخلى بينه وبينه.
والثالث: ومنها العلم بالشيء ، يقال منه : " قد أذنت بهذا الأمر " إذا علمت به " آذن به إذنا " ، ومنه قول الحطيئة [٧]:
ألا يا هند إن جددت وصلا   وإلا فأذنيني بانصرام
يعنى فأعلميني، ومنه قوله جل ثناؤه :{فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ} [سورة البقرة : ٢٧٩][٨] .
قوله تعالى:{وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ}[البقرة:١٠٢]، "أي والحال أنهم بتعلم السحر يحصلون على الضرر لا على النفع"[٩].
قال الطبري:أي" يتعلمون منهما السحر الذي يضرهم في دينهم، ولا ينفعهم في معادهم. فأما في العاجل في الدنيا، فإنهم قد كانوا يكسبون به ويصيبون به معاشا[١٠].
قال الواحدي:" المعنى: إنه يضرهم في الآخرة، وإن تعجّلوا به في الدنيا نفعًا"[١١].
قال الزمخشري:" لأنهم يقصدون به الشر. وفيه أن اجتنابه أصلح كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجرّ إلى الغواية"[١٢].
قال ابن عثيمين:أي ويتعلم الناس منهم "ما مضرته محضة لا نفع فيها"[١٣].
وقرأ عبيد بن عمير: {مَا يُضِرُّهُمْ} من أضرّ يضرّ[١٤].
قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ}[البقرة:١٠٢]، " أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة لأنهم آثروا السحر على كتاب الله"[١٥].

---

(١) اخرجه ابن أبي حاتم(١٠١٩):ص١٩٣/١.
(٢)، انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٢٦):ص ٣١٢/١ رقم: ١٠٢٦، وتفسير كثير: ٣٦٤/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٧٠٤):ص٤٥٠/٢.
(٤) نقله عنه الواحدي في التفسير البسيط: ٢٠٨/٣. وليس في شيء من التفاسير المسندة.
(٥) التفسير البسيط: ٢٠٨/٣، وانظر: "معاني القرآن" للزجاج ١/ ١٨٦، "تفسير القرطبي" ٢/ ٤٩.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٤٤٩/٢.
(٧) البيت من شواهد الطبري: ٤٤٩/٢، ولم اجده في الديوان.
(٨) انظر: تفسير الطبري: ٤٤٩/٢.
(٩) صفوة التفاسير: ٧٤/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٤٥٠/٢
(١١) التفسير البسيط: ٢٠٩/٣.
(١٢) الكشاف: ١٧٣/١.
(١٣) تفسير ابن عثيمين: ٣٢٩/١.
(١٤) انظر: تفسير الثعلبي:٢٥١/١.
(١٥) صفوة التفاسير: ٧٤/١.

قال الزمخشري:" ولقد علم هؤلاء اليهود أن من اشتراه أى استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب الله ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ من نصيب"[١].

قال ابن عثيمين:" أي علم هؤلاء المتعلمون للسحر أن من ابتغاه بتعلمه ليس له نصيب في الآخرة؛ وعلموا ذلك من قول الملكين: {إنما نحن فتنة فلا تكفر}"[٢].

قال السعدي:" فلم يكن فعلهم إياه جهلا ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة"[٣].

قال قتادة:" وقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة"[٤].

وروي عن قتادة أيضا: "قوله:{ولقد علموا لمن اشتراه}، أي استحبه"[٥].

وعن ابن أبي نجيح قوله: {ولقد علموا لمن اشتراه}، اشترى ما يفرق به بين المرء وزوجه"[٦].

واختلف أهل التفسير في قوله : {مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ}[البقرة:١٠٢]، على وجوه[٧]:

احدها: الخلاق، في هذا الموضع : النصيب. قاله ابن عباس[٨]، ومجاهد[٩]، والسدي[١٠] وسفيان[١١].

الثاني: الخلاق: الحجة. قاله قتادة[١٢].

الثالث:أنه: الدين. قاله الحسن[١٣].

الرابع:أن (الخلاق) ههنا القوام. قاله ابن عباس[١٤].

الخامس: ليس له في الآخرة جهة عند الله.قاله قتادة[١٥].

والراجح أن (الخلاق) هنا، النصيب، ومنه قول النبي ﷺ : " ليؤيدن الله هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم"[١٦]، يعني لا نصيب لهم ولا حظ في الإسلام والدين. ومنه قول أمية بن أبي الصلت[١٧]:

يَدْعُون بالويل فيها لا خَلاق لهم إلا سرابيلُ من قِطْر وأغلال

يعني بذلك : لا نصيب لهم ولا حظ، إلا السرابيل والأغلال[١٨].

قال الواحدي:" والخلاق: النصيب الوافر من الخير، قال المفسرون في هذه الآية، الخلاقُ: النصيبُ من الجنة"[١٩].

---

(١) الكشاف: ١٧٣/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين:٣٣٠/١.

(٣) تفسير السعدي: ٦١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٩):ص١٩٥/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٤):ص١٩٥/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٥):ص١٩٥/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري:٤٥٢/٢-٤٥٤.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٢٦):ص١٩٥/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري: (١٧٠٩):ص٤٥٢/٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: (١٧١٠):ص٤٥٣/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري: (١٧١١):ص٤٥٣/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: (١٧١٢):ص٤٥٣/٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: (١٧١٣):ص٤٥٣/٢.

(١٤) انظر: تفسير الطبري: (١٧١٤):ص٤٥٣/٢.

(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٢٧):ص١٩٥/١.

(١٦)رواه أحمد في المسند ٥ : ٤٥ (حلبي) ، من حديث أبي بكرة ، بلفظ : " إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم " . الهيثمي في مجمع الزوائد ٥ : ٣٠٢ ، ثم قال : " رواه أحمد والطبراني ، ورجالهما ثقات " . وذكره أيضًا بعده ، من حديث أنس ، وقال : " رواه البزار والطبراني في الأوسط ، وأحد أسانيد البزار ثقات الرجال " . (كذا بالأصل) . وذكره السيوطي في الجامع الصغير : ١٨٣٨ ، ونسبه للنسائي وابن حبان من حديث أنس ، ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكرة . ونقل شارحه المناوي أن الحافظ العراقي قال : " إسناده جيد " . وحديث أنس رواه أيضًا أبو نعيم في الحلية ٦ : ٢٦٢ . ورواه قبل ذلك ٣ : ١٣ ، من حديث الحسن مرسلا . ثم أشار إلى حديث أنس .

(١٧)ديوانه : ٤٧ بيت مفرد : . وقوله " فيها " ، أظنه يعني النار . والقطر : النحاس الذائب .

(١٨) انظر: تفسير الطبري: ٤٥٣/٢-٤٥٤.

(١٩) التفسير السيط: ٢٠٩/٣.

قوله تعالى: {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ}[البقرة:١٠٢]، " أي: ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم"[١].
قال السدي:" يعني: اليهود، يقول: بئس ما باعوا به أنفسهم"[٢].
قال الثعلبي:" باعوا به حظّ أَنْفُسَهُمْ حين اختاروا السّحر والكفر على الدين والحق"[٣].
قال ابن عثيمين:" أي باعوا به أنفسهم؛ لأنهم في الحقيقة لما اشتروا السحر، الثمن الذي بذلوه في هذا السحر: أنفسهم؛ لأنهم في الحقيقة خسروا أنفسهم؛ صارت الدنيا الآن ليس لهم فيها ربح إطلاقاً؛ والآخرة ليس لهم فيها ربح أيضاً؛ فخسروا الدنيا، والآخرة"[٤].

وفي قوله تعالى:{وَلَبِئْسَ مَا شَرَواْ بِهِ أَنفُسَهُم}[البقرة:١٠٢]، تأويلان[٥]:
أحدهما : يعني ولبئس ما باعوا به أنفسهم من السحر والكفر في تعليمه وفعله .
والثاني : من إضافتهم السحر إلى سليمان ، وتحريضهم على الكذب .
وقوله {شَرَوْا} أي: باعوا[٦]، والشراء والبيع واحد، لكنه غلب من جهة معطي الثمن كما غلب البيع من جهة صاحب السلعة[٧].

قوله تعالى:{ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}[البقرة:١٠٢]،أي" لو كان لهم علم أو فهم وإدراك"[٨].
قال ابن عثيمين:أي:" لو كانوا من ذوي العلم المنتفعين بعلمهم ما تعلموا السحر"[٩].
قال القرطبي:"فأخبر أنهم لا يعلمون"[١٠].
قال الزمخشري:" معناه: لو كانوا يعملون بعلمهم ، جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسلخون عنه"[١١].

واختلف في تحديد المعنيين في قوله تعالى:{وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[البقرة:١٠٢]، على قولين[١٢]:
الأول: قال قطرب والأخفش : أن يكون الذين يعلمون الشياطين، والذين شروا أنفسهم - أي باعوها - هم الإنس الذين لا يعلمون[١٣].
والثاني: قال علي بن سليمان : "الأجود عندي أن يكون "ولقد علموا" للملكين، لأنهما أولى بأن يعلموا. وقال : "علموا" كما يقال : الزيدان قاموا"[١٤].
وإن قيل: كيف نفى العلم عنهم، ولقد أثبت العلم لهم في قوله: {وَلَقَدْ عَلِمُوا}؟، أجيب عنه من وجهين:

---

(١) صفوة التفاسير: ٧٤/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٠):ص١٩٥/١، وتفسير الطبري(١٧١٦):ص٤٥٥/٢.
(٣) تفسير الثعلبي: ٢٥١/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين:٣٣٠/١.
(٥) انظر: النكت والعيون: ١٦٩/١.
(٦) انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٤٨/١، معاني القرآن للفراء: ٥٦/١، جامع البيان للطبري: ٤٥٥/٢، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٦٠/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٥٦/٢، زاد المسير لابن الجوزي: ١٢٥/١، معالم التنزيل للبغوي: ١٣٢/١.
(٧) مراده أن كلاً مِنْ باع وشرى يطلق على البيع والشراء بمعنى إعطاء السلعة وأخذ ثمنها، وأخذ السلعة وإعطاء ثمنها، أي: أنهما من الأضداد وبذلك قال أئمة اللغة، انظر: معاني القرآن للفراء: ٥٦/١، الأضداد لابن الأنباري: ٧٢-٧٣، لسان العرب لابن منظور: ٤٠١/١ و: ٢٢٥٢/٤، الصحاح للجوهري: ١١٨٩/٣ و: ٢٣٩١/٦، وغيرها.
(٨) صفوة التفاسير: ٧٤/١.
(٩) تفسير ابن عثيمين:٣٣٠/١.
(١٠) تفسير القرطبي: ٥٦/٢.
(١١) الكشاف: ١٧٣/١.
(١٢) انظر: تفسير القرطبي: ٥٦/٢.
(١٣) انظر: معاني القرآن٢٣٩/١، وذكر كلاهما الرازي في تفسيره: ٦٣٣/٣.
(١٤) تفسير القرطبي:٥٦/٢.

أحدهما: لأنهم لم يعملوا بما علموا، وإنما العالم العامل بعلمه، وأما إذا خالف عمله علمه، فهو في معاني الجهال، وقد يقال للفاعل الفعل بخلاف ما ينبغي أن يفعل، وإن كان بفعله عالما: لو علمت لأقصرت، كما قال كعب بن زهير المزني، وهو يصف ذئبا وغرابا تبعاه لينالا من طعامه وزاده[١]:

إذ إذا حضراني قلت : لو تعلمانه!! ألم تعلما أني من الزاد مرمل

فأخبر أنه قال لهما : " لو تعلمانه "، فنفى عنهما العلم، ثم استخبرهما فقال : ألم تعلما؟"[٢].

قال الزجاج:" لو كان علمهم ينفعهم لسُمُّوا عالمين، ولَكِنَّ عِلْمَهُم نبذوه وراء ظهورهم، فقيل لهم {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أي ليس يوفون العلم حقه، لأنَّ العالِمَ، إذا ترك العَمَلَ بِعِلْمِه قيل له لست بعالم"[٣].

وهذا تأويل وإن كان له وَجْه، إلا إنه "خلاف الظاهر المفهوم بنفس الخطاب، أعني بقوله :{ولقد علموا} وقوله : {لو كانوا يعلمون}، وإنما هو استخراج، وتأويل القرآن على المفهوم الظاهر الخطاب دون الخفي الباطن منه، حتى تأتي دلالة - من الوجه الذي يجب التسليم له - بمعنىً خلافَ دليله الظاهر المتعارف في أهل اللسان الذين بلسانهم نزل القرآن أولى"[٤].

والثاني: لأنهم علموا أن الآخرة يخسرها من آثر السحر، ثم دخلوا فيه وآثروه طمعًا في عوض يصير إليهم من الدنيا، فقال الله عز وجل: {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أن الذي قصدوه وآثروه لا يتم لهم من جهته ما يؤمِّلون؛ لأن الدنيا تنقطع عنهم بالموت، ثم يقدمون على الآخرة التي لا حظ لهم فيها[٥].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن اليهود أخذوا السحر عن الشياطين؛ لقوله تعالى: { واتبعوا ما تتلو الشياطين }؛ ويدل على هذا أن أحدهم . وهو لبيد بن الأعصم . سحر النبي ﷺ [١].

٢ . ومنها: أن السحر من أعمال الشياطين؛ لقوله تعالى: { ما تتلو الشياطين]..

٣. ومنها: أن الشياطين كانوا يأتون السحر على عهد سليمان مع قوة سلطانه عليهم؛ لقوله تعالى: { ما تتلو الشياطين على ملك سليمان }..

٤. ومنها: أن سليمان لا يقر ذلك؛ لقوله تعالى: { وما كفر سليمان }؛ إذ لو أقرهم على ذلك . وحاشاه . لكان مُقراً لهم على كفرهم..

٥. ومنها: أن تعلم السحر، وتعليمه كفر؛ وظاهر الآية أنه كفر أكبر مخرج عن الملة؛ لقوله تعالى: { ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر }، وقوله تعالى: { وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر }؛ وهذا فيما إذا كان السحر عن طريق الشياطين؛ أما إذا كان عن طريق الأدوية، والأعشاب، ونحوها ففيه خلاف بين العلماء..

واختلف العلماء . رحمهم الله . هل تقبل توبته، أو لا؟ والراجح أنها تقبل فيما بينه وبين الله عز وجل؛ أما قتله فيرجع فيه إلى القواعد الشرعية، وما يقتضيه اجتهاد الحاكم..

٦. ومن فوائد الآية: أن الله تعالى قد ييسر أسباب المعصية فتنةً للناس . أي ابتلاءً .، وامتحاناً؛ لقوله تعالى: { وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة }؛ فإياك إياك إذا تيسرت لك أسباب المعصية أن تفعلها؛ واذكر قصة بني إسرائيل حين حُرِّم عليهم الصيد يوم السبت . أعني صيد البحر .؛ فلم يصبروا حتى تحيلوا على صيدها يوم السبت؛ فقال لهم الله تعالى: {كونوا قردة خاسئين} [البقرة: ٦٥] ؛ واذكر قصة أصحاب محمد ﷺ حين ابتلاهم الله عز وجل وهم محرِمون بالصيد تناله أيديهم،

---

(١)ديوانه : ٥١ ، وأمالي الشريف المرتضى ١ : ٤٢٤ ، وكأنه كان ينقل كلام الطبري في تفسير هذه الآية ، مع التصرف . والمرمل : الذي نفد زاده . أرمل الرجل فهو مرمل ، كأنه لصق بالرمل لما أنفض .

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٥٦/٣-٤٥٧.

(٣) معاني القرآن: ٢١٦/٩.

(٤)تفسير الطبري: ٤٥٦/٣-٤٥٧.

(٥) انظر: التفسير البسيط: ٢١٣/٣.

(١) راجع البخاري ص٤٩٢، كتاب الطب، باب ٥٠: السحر، حديث رقم ٥٧٦٦؛ وصحيح مسلم ص١٠٦٦ – ١٠٦٧، كتاب السلام، باب ١٧: السحر، حديث رقم ٥٧٠٣ [٤٣] ٢١٨٩.

ورماحهم؛ فلم يُقدم أحد منهم عليه حتى يتبين لك حكمة الله . تبارك وتعالى . في تيسير أسباب المعصية؛ ليبلوَ الصابر من غيره..

٧. ومن فوائد الآية: أنه يجب على الإنسان أن ينصح للناس . وإن أوجب ذلك إعراضهم عنه .؛ لقوله تعالى: { وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما فتنة فلا تكفر }؛ فإذا كانت عندك سلعة رديئة، وأراد أحد شراءها يجب عليك أن تُحذِّره..

٨. ومنها: أنّ من عِظم السحر أن يكون أثره التفريق بين المرء، وزوجه؛ لقوله تعالى: { فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه }؛ لأنه من أعظم الأمور المحبوبة إلى الشياطين، كما ثبت في الحديث الصحيح أن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فيدنيه منه، ويقول: "نِعْم أنت"[٢] ؛ وفيه سحر مقابل لهذا: وهو الربط بين المرء، وزوجه؛ حتى إنه . والعياذ بالله . يُبتلى بالهيام؛ فلا يستطيع أن يعيش . ولا لحظة . إلا وزوجته أمامه؛ وبعضهم يقضي عليه هذا الأمر . نسأل الله العافية ...

٩. ومن فوائد الآية: أن الأسباب . وإن عظمت . لا تأثير لها إلا بإذن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وما هم بضارِّين به من أحد إلا بإذن الله}.

١٠. ومنها: أن قدرة الله عز وجل فوق الأسباب؛ وأنه مهما وجدت الأسباب . والله لم يأذن . فإن ذلك لا يؤثر؛ وهذا لا يوجب لنا أن لا نفعل الأسباب؛ لأن الأصل أن الأسباب مؤثرة بإذن الله..

١١. ومنها: الإشارة إلى أنه ينبغي اللجوء إلى الله دائماً؛ لقوله تعالى: { إلا بإذن الله }؛ فإذا علمت أن كل شيء بإذن الله فإذاً تلجأ إليه سبحانه وتعالى في جلب المنافع، ودفع المضار..

١٢ . ومنها: أنّ تعلم السحر ضرر محض، ولا خير فيه؛ لقوله تعالى: { ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم }؛ فأثبت ضرره، ونفى نفعه..

١٣. ومنها: أن كفر الساحر كفر مخرج عن الملة؛ لقوله تعالى: { ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق } يعني: من نصيب؛ وليس هناك أحد ليس له نصيب في الآخرة إلا الكفار؛ فالمؤمن مهما عذب فإن له نصيباً من الآخرة..

١٤.ومنها: أن هؤلاء اليهود تعلموا السحر عن علم؛ لقوله تعالى: { ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق }..

١٥. ومنها: إثبات الجزاء، وأنه من جنس العمل؛ فإن الكافر لما لم يجعل لله نصيباً في دنياه لم يجعل الله له نصيباً من الآخرة..

١٦. ومنها: ذم هؤلاء اليهود بما اختاروه لأنفسهم؛ لقوله تعالى: {ولبئس ما شروا به أنفسه}.

١٧.ومنها: أن صاحب العلم الذي يَنتفِع بعلمه هو الذي يحذر مثل هذه الأمور؛ لقوله تعالى: { لو كانوا يعلمون } يعني: لو كانوا ذوي علم نافع ما اشتروا هذا العلم الذي يضرهم، ولا ينفعهم؛ والذي علموا: أنّ من اشتراه ما له في الآخرة من خلاق.

القرآن

{وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)} [البقرة : ١٠٣]

التفسير:

ولو أن اليهود آمنوا وخافوا الله لأيقنوا أن ثواب الله خير لهم من السِّحر ومما اكتسبوه به، لو كانوا يعلمون ما يحصل بالإيمان والتقوى من الثواب والجزاء علما حقيقيا لآمنوا.

قوله تعالى:{وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا}[البقرة:١٠٣]، "أي ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه"[١].

---

[٢] أخرجه مسلم ص١١٦٨، كتاب صفات المنافقين، باب ١٦: تحريش الشيطان...، حديث رقم ٧١٠٦ [٦٧] ٢٨١٣.

[١] صفوة التفاسير: ٧٤/١.

قال ابن كثير:" أي : ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم"[١].
قال الزمخشري:أي: ولو أنهم آمنوا" برسول الله والقرآن، و واتقوا الله، فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله واتباع كتب الشياطين"[٢].
قال ابن عثيمين: ولو أنهم آمنوا " بقلوبهم، واتقوا بجوارحهم؛ فالإيمان بالقلب؛ والتقوى بالجوارح؛ هذا إذا جمع بينهما؛ وإن لم يجمع بينهما صار الإيمان شاملاً للتقوى، والتقوى شاملة للإيمان؛ لقول النبي ﷺ "التقوى هاهنا"[٣]، وأشار إلى قلبه؛ والإيمان عند أهل السنة والجماعة: "التصديق مع القبول، والإذعان"؛ وإلا فليس بإيمان؛ و"التقوى" أصلها: وَقْوَى؛ وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله؛ وذلك بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في معناها؛ وإلا فبعضهم قال: "التقوى" أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله؛ وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله؛ وبعضهم قال في تعريف (التقوى)"[٤].
قال ابن كثير: " وقد استدل بقوله : {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا} من ذهب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف"[٥].
قوله تعالى:{ لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ}[البقرة:١٠٣]، :" أي لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر"[٦].
قال الزجاج: أي:" أن ثواب اللَّه خير لهم من كَسْبِهم بالكُفْر والسحْرِ"[٧].
قال أبو السعود: أي" لأثيبوا مثوبة من عند الله خيرا مما شروا به أنفسهم"[٨].
قال المراغي: أي: " لكان هذا الثواب العظيم الذي ينتظرونه من الله جزاء على أعمالهم الصالحة خيرا لهم من كل ما يتوقعون من المنافع والمصالح الدنيوية"[٩].
قال ابن كثير: أي" لكان مثوبة الله على ذلك خيرا لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به ، كما قال تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ } [القصص : ٨٠]"[١٠].
وقرئ : "لمثوبة، كمشورة ومشورة"[١١].
قال الزمخشري:" فإن قلت : فهلا قيل لمثوبة اللَّه خير؟ قلت : لأنّ المعنى : لشيء من الثواب خير لهم"[١٢].
قال البيضاوي:" وإنما سمي الجزاء ثواباً ومثوبة، لأن المحسن يثوب إليه"[١٣].
و(المثوبة) في كلام العرب، مصدر من قول القائل: أثبتك إثابة وثوابا ومثوبة، و(الثوابُ) في الأصل معناه: ما رجع إليك من عائدة، وحقيقته: الجزاء العائد على صاحبه مُكَافأةً لما فعل، ومنه: التَثْويب في الأذان، إنما هو ترجيع الصَوْت، ولا يقال لصوتٍ مرةً واحدةً: تثويب، ويقال: ثوّب الداعي: إذا كرر دعاه كما قال[١٤]:
إذا الداعي المُثَوّبُ قال: يالا
والثوب مشتقّ من هذا، لأنه ثاب لباسًا بعد أن كان قُطنا أو غزلا[١].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣٦٤/١.
(٢) الكشاف: ١٧٤/١، وانظر: تفسير النسفي: ٨٠/١. [بتصرف بسيط].
(٣)أخرجه مسلم ص١١٢٧، كتاب البر والصلة، باب ١٠: تحريم ظلم المسلم وخذله ... ، حديث رقم ٦٥٤١ [٣٢] ٢٥٦٤.
(٤) تفسير ابن عثيمين:٣٣٥/١.
(٥) تفسير ابن كثير: ٣٦٥/١.
(٦) صفوة التفاسير: ٧٤/١.
(٧) معاني القرآن: ١٨٧/١، وانظر: التفسير البسيط: ٢١٥/٣.
(٨) تفسير أبي السعود: ٣٦٩/١.
(٩) تفسير المراغي: ١٨٣/١.
(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٦٤/١.
(١١) تفسير الكشاف: ١٧٤/١.
(١٢) الككشاف: ١٧٤/١.
(١٣) تفسير البيضاوي: ٩٨/١.
(١٤)البيت نسب لزهير بن مسعود الضبي، ينظر: "لسان العرب" ٨/ ٤٩٧٦ (مادة: يا) غير منسوب. "المعجم المفصل" ٦/ ٨١. ونسب إلى الفرزدق في "لسان العرب" ٧/ ٤١٠٥ (لوم).

ومنه : ثواب الله عز وجل عباده على أعمالهم، بمعنى إعطائه إياهم العوض والجزاء عليه، حتى يرجع إليهم بدل من عملهم الذي عملوا له[٢].
وقال الراغب:" الثؤوب : رجوع الشيء إلى حالة شبيهة بالحالة الأولى ، يقال : ثاب الحوض إذا امتلاء بعد فراغه عقيب امتلائه ، والثوب لتصوره بصورة القطن لاجتماع أجزائه بعد تفرقها بالغزل ، والثيب من النساء لعودها إلى الأيمة ، والتثويب في الصوت ترديده ، والثواب والمثوبة في الخير تحصيل نفع يثوب إليه بإحسانه"[٣]. وفي قوله تعالى:{مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}[البقرة:١٠٣]، أضاف الله الثواب إلى نفسه، وجعلها من عنده لأمرين[٤]:

أحدهما: أنها تكون أعظم مما يتصوره العبد؛ لأن العطاء من العظيم عظيم؛ فالعطية على حسب المعطي؛ عطية البخيل قليلة؛ وعطية الكريم كثيرة.
والثاني: اطمئنان العبد على حصولها؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد.
قوله تعالى:{ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[البقرة:١٠٣]،لو كانوا يعلمون "أن ثواب الله إياهم على ذلك خير لهم، من السحر ومما اكتسبوا به"[٥].

قال الزجاج:" أي لو كانوا يَعْمَلُونَ بِعِلمِهم، ويعلمون حقيقة ما فيه الفضل"[٦].

قال الراغب:أي:" ولو علموا لظهر لهم ذلك"[٧].
قال الزمخشري:أي" أنّ ثواب اللَّه خير مما هم فيه وقد علموا ، ولكنه جهلهم لترك العمل بالعلم"[٨].

قال أبو السعود:" أي أن ثواب الله خير. وإنما نسبوا إلى الجهل لعدم العمل بموجب العلم"[٩].
قال البيضاوي:وقد علموا، لكنه جَهَّلَهُم لترك التدبر، أو العمل بالعلم"[١٠].
قال النسفي:" جَهَّلَهُم، لما تركوا العمل بالعلم"[١١].
قال المراغي:" أي: إنهم ليسوا على شيء من العلم الصحيح ، إذ لو كان كذلك لظهرت نتائجه في أعمالهم ، ولآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم واتبعوه وصاروا من المفلحين لكنهم يتبعون الظن ويعتمدون على التقليد ، ومن جرّاء هذا خالفوا الكتاب وساروا وراء أهوائهم وشهواتهم فوقعوا في الضلال البعيد"[١٢].
قال الزمخشري:" ويجوز أن يكون قوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا} تمنيا لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة اللَّه إيمانهم واختيارهم له، كأنه قيل وليتهم آمنوا : ، ثم ابتدئ لمثوبة من عند اللَّه خير"[١٣].

الفوائد:
١- من فوائد الآية: سعة حلم الله، حيث يعرض عليهم الإيمان، والتقوى؛ لقوله تعالى: { ولو أنهم آمنوا واتقوا } يعني فيما مضى، وفيما يستقبل؛ وهذه من سنته سبحانه وتعالى أن يعرض التوبة على المذنبين؛ انظر إلى

([١]) انظر: التفسير البسيط: ٢١٤/٣، و"معاني القرآن" للزجاج ١/ ٢٠٦، "تهذيب اللغة" ١/ ٤٦٣ (مادة- ثاب)، "المفردات" للراغب الأصبهانى ٨٩، "مقاييس اللغة" ١/ ٣٩٣، وقال: الثاء والواو والباء قياس صحيح من أصل واحد وهو العود والرجوع.
([٢]) انظر: تفسير الطبري: ٤٥٨/٢.
([٣]) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٨١/١.
([٤]) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٧٦/١.
([٥]) تفسير الطبري: ٤٥٧/٢-٤٥٨.
([٦]) معاني القرآن: ١٨٧/١.
([٧]) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢١٥/٣.
([٨]) الكشاف: ١٧٤/١.
([٩]) تفسير أبي السعود: ٣٦٩/١.
([١٠]) تفسير البيضاوي: ٩٨/١.
([١١]) تفسير النسفي: ٨٠/١.
([١٢]) تفسير المراغي: ١٨٣/١.
([١٣]) الكشاف: ١٧٤/١.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [البروج : ١٠]، يُحَرِّقون أولياءه، ثم يعرض عليهم التوبة؛ لقوله تعالى: {ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}.
٢- ومنها: أن الإيمان يُنال به ثواب الله؛ لقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة : ١٠٣].
٣- ومنها: أن ثواب الله خير لمن آمن واتقى من الدنيا؛ لقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ}، أي خير من كل شيء؛ قال رسول الله ﷺ: "لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا، وما فيها"[١].
٤- ويؤخذ منها: ومن قوله تعالى عن الناصحين لمن تمنوا أن يكون لهم مثل ما لقارون: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص : ٨٠]، أنّ التقوى هي العمل الصالح..
٥- ومنها: أن فعل هؤلاء اليهود، واختيارهم لما فيه الكفر من تعلم السحر فعلُ الجاهل؛ لقوله تعالى: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)} [البقرة : ١٠٤]

التفسير:

يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا للرسول محمد ﷺ: راعنا، أي: راعنا سمعك، فافهم عنا وأفهمنا؛ لأن اليهود كانوا يقولونها للنبي ﷺ يلوون ألسنتهم بها، يقصدون سبَّه ونسبته إلى الرعونة، وقولوا- أيها المؤمنون- بدلا منها: انظرنا، أي انظر إلينا وتعهَّدْنا، وهي تؤدي المعنى المطلوب نفسه واسمعوا ما يتلى عليكم من كتاب ربكم وافهموه. وللجاحدين عذاب موجع.

سبب النزول:

قال ابن عباس في رواية عطاء: "وذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها، فلما سمعتهم اليهود يقولونها للنبي - ﷺ - أعجبهم ذلك وكان {راعنا} في كلام اليهود سبا قبيحا فقالوا: إنا كنا نسب محمدا سرا فالآن أعلنوا السب لمحمد لأنه من كلامهم، فكانوا يأتون نبي الله - ﷺ - فيقولون: يا محمد {راعنا} ويضحكون ففطن بها رجل من الأنصار وهو سعد بن عبادة وكان عارفا بلغة اليهود وقال: يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذي نفس محمد بيده لئن سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه فقالوا: ألستم تقولونها له؟ فأنزل الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا} الآية" "[١].

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}[البقرة:١٠٤]، " أي: يا أيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله"[٢].

قال الصابوني:" هذا نداء من الله جل شأنه للمؤمنين يخاطبهم فيه"[٣].

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"[٤].

كما أن تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان؛ قال ابن

---

(١) أخرجه أحمد ٣٣٠/٥، حديث رقم ٢٣١٨٣؛ وأخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد والسير، باب ٧٣: فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم ٢٨٩٢.

(١) أسباب النول للواحدي: ٣٣-٣٤، وأخرجه ابن جرير(١٧٣٣):ص٤٦١/٢، ونحوه ابن أبي حاتم:(١٠٣٩):ص١٩٧/١، قواه الحافظ ابن حجر في "العجاب" :٣٤٣/١ وما بعدها، ويشهد له: ما أخرجه الطبري(١٧٢٩):ص٤٦٠/٢، عن قتادة بمعناه. وهو مرسل صحيح الإسناد.

(٢) تفسير المراغي: ٤٣/١١، وانظر: صفوة التفاسير: ٤٨٧/٢.

(٣) صفوة التفاسير: ٧٥/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١٩٦/١.

مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك[يعني استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"[٢][١].

قوله تعالى:{ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا}[البقرة:١٠٤]، أي:" لا تقولوا عند مخاطبة النبي ﷺ راعنا"[٢].

قال المراغي:" نهى سبحانه الصحابة عن كلمة كانت تدور على ألسنتهم ، حين خطابهم النبي صلى الله عليه وسلم وهى كلمة (راعِنا) ومعناها راعنا سمعك : أي اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه ونراجعك القول لنفهمه عنك"[٣].

قال الحسن:" الراعن من القول: السخري منه، نهاهم الله عز وجل أن يسخروا من قول محمد ﷺ، وما يدعوهم إليه من الإسلام"[٤].

وقال أبو صخر:" كان رسول الله ﷺ إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فقالوا: أرعنا سمعك فأعظم الله رسوله أن يقال ذلك له"[٥].

والراعن: الأحمق، والأرعن: مبالغة فيه [٦].

قال ابن عطية:" {راعنا}، من المراعاة بمعنى فاعلنا، أي أرعنا نرعك، وفي هذا جفاء أن يخاطب به أحد نبيه، وقد حض الله تعالى على خفض الصوت عنده وتعزيره وتوقيره، فقال من ذهب إلى هذا المعنى إن الله تعالى نهى المؤمنين عنه لهذه العلة، ولا مدخل لليهود في هذه الآية على هذا التأويل، بل هو نهي عن كل مخاطبة فيها استواء مع النبي ﷺ. وقالت طائفة: هي لغة كانت الأنصار تقولها، فقالها رفاعة بن زيد بن التابوت للنبي ﷺ ليّا بلسانه وطعنا كما كان يقول: {اسمع غير مسمع}[النساء:٤٦]، فنهى الله المؤمنين أن تقال هذه اللفظة"[٧].

قال ابن عطية:"ووقف هذه اللغة على الأنصار تقصير، بل هي لغة لجميع العرب فاعل من المراعاة. فكانت اليهود تصرفها إلى الرعونة، يظهرون أنهم يريدون المراعاة ويبطنون أنهم يريدون الرعونة التي هي الجهل، وحكى المهدوي عن قوم أن هذه الآية على هذا التأويل ناسخة لفعل قد كان مباحا وليس في هذه الآية شروط النسخ لأن الأول لم يكن شرعا متقررا"[٨].

قال الراغب:" الراعي : حفظ الغير في أمر يعود بمصلحته ، ومنه : رعي الغنم ، ورعي الوالي الرعية ، وعنه نقل : أرعيته سمعي ، وتشبيهاً برعي الغنم قيل : رعيت النجوم إذا راقبتها"[٩].

وقد اختلف أهل العلم في تفسير قوله :{ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا}[البقرة:١٠٤]، على وجهين[١٠]:

أحدهما: أي: لا تقولوا خلافا. قاله عطاء[١١]، ومجاهد[١٢].

قال الراغب: وأسترذل هذا الوجه ، لأنه لو كان كما قال لكان في القراءة {رعناً}، بالتنوين"[١٣].

والثاني: يعني ارعنا سمعك ، أي اسمع منا ونسمع منك ، وهذا قول ابن عباس[١]، ومجاهد[٢]، والضحاك[٣].

---

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١.

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٣٧/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين: ٣٣٨/١.
(٣) تفسير المراغي: ١٨٤/١.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم(١٠٤١):ص ١٩٧/١.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم(١٠٤٢):ص ١٩٧/١.
(٦) انظر: الصحاح للجوهري: ٢١٢٤/٥-٢١٢٥، القاموس المحيط للفيروز آبادي: ١٠٨٢، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٤٢/٣، روح المعاني للألوسي: ٣٤٩/١.

(٧) المحرر الوجيز: ١٨٩/١.
(٨) المحرر الوجيز: ١٨٩/١.
(٩) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٨١/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٤٥٩/٢-٤٦٠.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٧٢٠):ص٤٥٩/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٧٢١)، و(١٧٢٢)، و(١٧٢٣)، و(١٧٢٤):ص٤٥٩/٢.
(١٣) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٨٢/١.

واختلف أهل التفسير في السبب الذي من أجله نهى الله المؤمنين أن يقولوا {رَاعِنَا}[البقرة:١٠٤]، على وجوه[٤]:
أحدها : أنها كلمة كانت اليهود تقولها لرسول الله- ﷺ- على وجه الاستهزاء والسب ؛ كما قالوا سمعنا وعصينا ، واسمع غير مسمع ، وراعنا ليّاً بألسنتهم ، فَنُهِيَ المسلمون عن قولها ، وهذا قول ابن عباس[٥] وقتادة[٦]، وعطية[٧]، وابن زيد[٨].
والثاني: أنها كلمة ، كانت الأنصار في الجاهلية تقولها ، فنهاهم الله في الإسلام عنها. وهذا قول عطاء[٩]، وأبي العالية[١٠]، وابن جريج[١١].
والثالث: أن القائل لها ، كان رجلاً من اليهود دون غيره ، يقال له رفاعة بن زيد ، فَنُهِيَ المسلمون عن ذلك ، وهذا قول السدي[١٢].
والرابع: وقيل : إنما نهوا عن قولهم : " راعنا " لكونه مفاعلة متضمنة لمعنى المساواة بين المخاطب والمخاطب ، فأمروا بتوقيره ، كما قال {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} ، وكقوله : {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ} ، وذلك عن ابن عباس- رضي الله عنه-[١٣].

قال ابن حجر: "إنما نهوا عن ذلك؛ لأنها كلمة تقتضي المساواة[١٤]، وقد فسرها مجاهد: لا تقولوا اسمع منا ونسمع منك[١٥]"[١٦].
والراجح في هذه المسألة أن يقال : بأن الله جل ثناؤه قد أمر المؤمنين بتوقير نبيه ﷺ وتعظيمه، وأمرهم أن يتخيروا لخطابه من الألفاظ أحسنها، ومن المعاني أرقها، فكان من ذلك قولهم : (راعنا) لما فيه من احتمال معنى : ارعنا نرعاك[١٧]، إذ كانت المفاعلة لا تكون إلا من اثنين، كما يقول القائل : " عاطنا، وحادثنا، وجالسنا "، بمعنى : افعل بنا ونفعل بك[١٨]، فكذلك نهى الله عز وجل المؤمنين أن يقولوا : راعنا، لما كان قول القائل : راعنا، محتملا أن يكون بمعنى احفظنا ونحفظك، وارقبنا ونرقبك. من قول العرب بعضهم لبعض : رعاك الله: بمعنى حفظك الله وكلأك - ومحتملا أن يكون بمعنى : أَرْعنا سمعك، من قولهم:

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٧٢٥):ص٤٦٠/٢.
(٢)انظر: تفسير الطبري(١٧٢٦):ص٤٦٠/٢.
(٣)انظر: تفسير الطبري(١٧٢٧):ص٤٦٠/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٤٦٠/٢-٤٦١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٧٣١):ص٤٦١/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٧٢٨):ص٤٦٠/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٧٢٩):ص٤٦٠/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٧٣٢):ص٤٦١/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٧٣٣)، و(١٧٣٤)، و(١٧٣٥):ص٤٦١/٢-٤٦٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٧٣٦):ص٤٦٢/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٧٣٧):ص٤٦٢/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٧٣٨):ص٤٦٢/٢-٤٦٣.
(١٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٨٢/١.
(١٤) كلام الحافظ-رحمه الله تعالى-في تفسير هذه الآية يقرب كثيراً من كلام السمين في الدر المصون: ٣٣١/١-٣٣٢، وانظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٣١٢/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٣٨/١.
(١٥) تفسير الطبري(١٧٢٦):ص ٤٦٠/٢.
(١٦)الفتح: ١٣/٨
(١٧)ومعنى : أرعنا سمعك، حتى نفهمك وتفهم عنا. فنهى الله تعالى ذكره أصحاب محمد أن يقولوا ذلك كذلك، وأن يفردوا مسألته بانتظارهم وإمهالهم، ليعقلوا عنه بتبجيل منهم له وتعظيم، وأن لا يسألوه ما سألوه من ذلك على وجه الجفاء والتجهم منهم له، ولا بالفظاظة والغلظة، تشبها منهم باليهود في خطابهم نبي الله ﷺ، بقولهم له : {وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا} [النساء : ٤٦].[انظر: تفسير الطبري:٤٦٥/٢].
(١٨) انظر: تفسير الطبري: ٤٦٤/٢-٤٦٥

أرعيت سمعي إرعاء - أو راعيته - سمعي رِعاء أو مراعاة، بمعنى : فرغته لسماع كلامه، كما قال الأعشى ميمون بن قيس[١]:

يُرْعِي إلى قول سادات الرجال إذا أبدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا

يعني بقوله (يرعى)، يصغي بسمعه إليه مفرغه لذلك.

واختلفت القراءة في قوله تعالى:{ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا}[البقرة:١٠٤]، على وجوه:

الأول: {رّاعنِا}، بغير تنوين على أنه فعل أمر من المراعاة، وهي قراءة الجمهور[٢].

والثاني: {لا تَقُولُوا رَاعُونَا}، قرأ بها أبي بن كعب وزر بن حبيش والأعمش، وهي بلفظ الجمع وكذا في مصحف ابن مسعود[٣]، وفيه أيضاً (أرعونا)[٤].

قال ابن عطية:" وهي شاذة، ووجهها أنهم كانوا يخاطبون النبي ﷺ كما تخاطب الجماعة، يظهرون بذلك إكباره وهم يريدون في الباطن فاعولا من الرعونة"[٥].

والثالث: وقرئ :{لا تقولوا راعنا} بالتنوين، وهي قراءة الحسن بن أبي الحسن وأبي حيوة وابن أبي ليلى وابن محيصن والأعمش، بمعنى: لا تقولوا قولا راعناً، من: الرعونة، وهي الحمق والجهل[٦].

قال ابن عطية:" وهذا محمول على أن اليهود كانت تقوله فنهى الله تعالى المؤمنين عن القول المباح سد ذريعة لئلا يتطرق منه اليهود إلى المحظور، إذ المؤمنون إنما كانوا يقولون «راعنا» دون تنوين"[٧].

قال الطبري:" وهذه قراءة[أي بالتنوين] لقراء المسلمين مخالفة، فغير جائز لأحد القراءة بها لشذوذها وخروجها من قراءة المتقدمين والمتأخرين، وخلافِها ما جاءت به الحجة من المسلمين"[٨].

قوله تعالى:{وَقُولُوا انْظُرْنَا}[البقرة:١٠٤]، أي ولكن قولوا "انتظرنا وارتقبنا"[٩].

قال أبو صخر:" أمرهم الله أن يقولوا: {انظرنا}، ليعزروا رسوله ويوقروه"[١٠].

قال ابن عثيمين:" يعني إذا أردتم من الرسول أن ينتظركم فلا تقولوا: {راعنا} ؛ ولكن قولوا: {انظرنا} : فعل طلب؛ و"النظر" هنا بمعنى الانتظار، كما في قوله تعالى: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام} [البقرة: ٢١٠] ، أي ما ينتظر هؤلاء"[١١].

قال ابن عطية: أي:"انتظرنا وأمهل علينا، ويحتمل أن يكون المعنى تفقدنا من النظر، وهذه لفظة مخلصة لتعظيم النبي ﷺ على المعنيين، والظاهر عندي استدعاء نظر العين المقترن بتدبر الحال، وهذا هو معنى {راعِنا}، فبدلت للمؤمنين اللفظة ليزول تعلق اليهود"[١٢].

قال الطبري: أي: "وقولوا يا أيها المؤمنون لنبيكم ﷺ : انظرنا وارقبنا، نفهم ونتبين ما تقول لنا"[١].

---

(١)ديوانه : ٨٦، وهي في هوذة بن علي كما سلف . يقول قبله :

يا هوذ ، يا خير من يمشي على قدم بحر المواهب للوراد والشرعا

وابتدع : أحدث ما شاء .

(٢) نظر: معاني القرآن للزجاج: ١٨٨/١، المحرر الوجيز: ١٨٩/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٣٨/١، الدر المصون للسمين: ٣٣١/١ وغيرها.

(٣) انظر: المحرر الوجيز: ١٨٩/١، والبحر المحيط لأبي حيان: ٣٣٨/١، الدر المصون للسمين الحلبي: ٣٣٢/١، وتفسير القرطبي: ٦٠/٢.

(٤) انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٣٣٨/١، الدر المصون للسمين الحلبي: ٣٣٢/١، وتفسير القرطبي: ٦٠/٢.

(٥) المحرر الوجيز: ١٨٩/١.

(٦) انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٣٣٨/١، والمحرر الوجيز لابن عطية: ٣١٣/١، وزاد المسير لابن الجوزي: ١٢٦/١، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٦٠، معاني القرآن للزجاج: ١٨٨/١، الدر المصون للسمين: ٣٣٢/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٣٨/١، وغيرها.

(٧) المحرر الوجيز: ١٨٩/١.

(٨) تفسير الطبري: ٤٦٦/٢.

(٩) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٤٥):ص١٩٨/١.

(١١) تفسير ابن عثيمين:٣٣٨/١.

(١٢) المحرر الوجيز: ١٨٩/١.

يقال منه: نظرت الرجل أنظره نظرة ، بمعنى انتظرته ورقبته، ومنه قول الحطيئة[٢]:
وقد نَظَرتكمُ أَعْشاء صادرةٍ للخِمس، طال بها حَوْزي وتَنْساسي
ومنه قول الله عز وجل : {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} [الحديد : ١٣]، يعني به : انتظرونا[٣].
واختلف أهل التفسير في قوله تعالى:{وَقُولُوا انْظُرْنَا}[البقرة:١٠٤]، على وجهين:
أحدهما: أن معناه: "اسمع منا". أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد وعطاء[٤].
والثاني: "أفهمنا يا محمد، بيّن لنا".قاله مجاهد[٥].

وقرأ الأعمش وغيره {أنظرنا}، بقطع الألف وكسر الظاء، وقرئ {أنظرونا}، بمعنى: أخرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ونتلقى منك[٦]، كما قال الله جل ثناؤه : {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[ص : ٧٩]، أي أخرني[٧].
قال الطبري: "ولا وجه لقراءة ذلك كذلك في هذا الموضع، لأن أصحاب رسول الله ﷺ إنما أمروا بالدنو من رسول الله ﷺ، والاستماع منه، وإلطاف الخطاب له، وخفض الجناح - لا بالتأخر عنه، ولا بمسألته تأخيرهم عنه. فالصواب - إذْ كان ذلك كذلك - من القراءة قراءة من وصل الألف من قوله : {انظرنا}، ولم يقطعها بمعنى : انتظرنا"[٨].
والقراءة الصحيحة، هي :{وقولوا انظرنا}، بوصل(الألف) بمعنى : انتظرنا، لإجماع الحجة على تصويبها، ورفضهم غيرها من القراآت، والله أعلم[٩].
قوله تعالى: {وَاسْمَعُوا}[البقرة:١-٤]، " أي اسمعوا سماع استجابة، وقبول"[١٠].
قال الحسن:" أمرهم أن يسمعوا قوله، ويقبلوا عنه فأبوا ذلك وعصوا ربهم"[١١].

قال الواحدي:" أي: أطيعوا، أو اتركوا هذه الكلمة، فسمّى الطاعة سمعًا؛ لأن الطاعة تحت السمع"[١٢].

---

(١) تفسير الطبري: ٤٦٧/٢.
(٢) ديوانه : ٥٣ ، واللسان (نظر) (حوز) (نس) (عشا) . من قصيدة يهجو بها الزبرقان ابن بدر ، ويمدح بغيض بن عامر من شماس . والأعشاء جمع عشى (بكسر فسكون) : وهو ما تتعشاه الإبل . والصادرة : الإبل التي تصدر عن الماء . والخمس : من أظماء الإبل ، وهو أن تظل في المرعى بعد يوم ورودها ثلاثة أيام ، ثم ترد في الرابع . والحوز : السوق اللين ، حاز الإبل : ساقها سوقا رويدا . والتنساس والنس ، مصدر قولك : نس الإبل بينها : ساقها سوقا شديدا لورود الماء . ويروى " إيتاء صادرة " . والإيتاء مصدر آنيت الشيء : إذ أخرته . يقول للزبرقان ، حين نزل بداره ، ثم تحول عنها إلى دار بغيض (انظر خبرهما في طبقات فحول الشعراء : ٩٦ - ٩٨) : انتظرت خيركم انتظار الإبل الخوامس لعشائها . وذلك أن الإبل إذا صدرت تعشت طويلا ، وفي بطونها ماء كثير ، فهي تحتاج إلى بقل كثير . يصف طول انتظاره حين لا صبر له على طول الانتظار .
وقد شكاه الزبرقان إلى عمر لهذه القصيدة ، ولقوله فيها : دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد ، فإنك أنت الطاعم الكاسي
(انظر: تفسير الطبري: ٤٦٨/٢).
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٦٧/٢-٤٦٨.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٤٣):ص١٩٧/١.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٤٤):ص١٩٨/١.
(٦) انظر: المحرر الوجيز: ١٨٩/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٤٦٨/٢.
(٨) تفسير الطبري: ٤٦٨/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري: ٤٦٨/٢-٤٦٩.
(١٠) تفسير ابن عثيمين: ٣٣٩/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٤٧):ص١٩٨/١.
(١٢) التفسير البسيط: ٢١٨/٣.

قال النسفي:" وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله صلى الله عليه وسلّم ويلقي عليكم من المسائل بآذان واعية وأذهان حاضرة حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة وطلب المراعاة ، أو واسمعوا سماع قبول وطاعة ولا يكن سماعكم كسماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا"[١].

قال ابن عثيمين:"يعني: اسمعوا ما تؤمرون به فافعلوه، وما تنهون عنه فاتركوه"[٢].

قال القاسمي:" أي قولوا ما أمرتكم به، وامتثلوا جميع أوامري، ولا تكونوا كاليهود، حيث قالوا سمعنا وعصينا"[٣].

قال البيضاوي: أي :" وأحسنوا الاستماع حتى لا تفتقروا إلى طلب المراعاة، أو واسمعوا سماع قبول لا كسماع اليهود، أو واسمعوا ما أمرتم به بجد حتى لا تعودوا إلى ما نهيتم عنه"[٤].

قال الزمخشري: أي :" وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلقى عليكم من المسائل بآذان واعية وأذهان حاضرة ، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعانة وطلب المراعاة ، أو واسمعوا سماع قبول وطاعة ، ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا : سمعنا وعصينا ، أو واسمعوا ما أمرتم به بجدّ حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه ، تأكيدا عليهم ترك تلك الكلمة"[٥].

قال ابن عطية:" ولما نهى الله تعالى في هذه الآية وأمر، حض بعد على السمع الذي في ضمنه الطاعة"[٦].

قاقا قال الرازي: " فحصول السماع عند سلامة الحاسة أمر ضروري خارج عن قدرة البشر، فلا يجوز وقوع الأمر به، فإذن المراد منه أحد أمور ثلاثة:

أحدها: فرغوا أسماعكم لما يقول النبي عليه السلام حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة.

وثانيها: اسمعوا سماع قبول وطاعة ولا يكن سماعكم سماع اليهود حيث قالوا: سمعنا وعصينا.

وثالثها: اسمعوا ما أمرتم به حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه تأكيدا عليهم، ثم إنه تعالى بين ما للكافرين من العذاب الأليم إذا لم يسلكوا مع الرسول هذه الطريقة من الإعظام والتبجيل والإصغاء إلى ما يقول والتفكر فيما يقول"[٧].

قوله تعالى:{ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[البقرة:١٠٤]، "أي ولليهود الذين نالوا من الرسول وسبّوه، عذاب أليم موجع"[٨].

قال البيضاوي:" يعني الذين تهاونوا بالرسول عليه السلام وسبوه"[٩].

قال قتادة:" {عذاب أليم}، أي موجع"[١٠].

قال ابن عطية:" وأعلمَ أن لمن خالف أمره فكفر عذابا أليما، وهو المؤلم"[١١].

قال المراغي:" الكافرون هنا هم اليهود ، وفي التعبير به إيماء إلى أن ما صدر منهم من سوء الأدب في خطابه صلى الله عليه وسلم كفر لا شكّ فيه ، لأن من يصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه شرّير ، فقد أنكر نبوّته وأنه موحى إليه من قبل ربه ، ومتى فعل ذلك فقد كفر واستحق العذاب الأليم"[١٢].

---

(١) تفسير النسفي: ٨٠/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين: ٣٣٩/١.
(٣) محاسن التأويل: ٣٦٩/١.
(٤) تفسير البيضاوي: ٩٨/١-٩٩.
(٥) الكشاف: ١٧٤/١-١٧٥.
(٦) المحرر الوجيز: ١٩٠/١.
(٧) تفسير الرازي: ٢٠٥/٣.
(٨) صفوة التفاسير: ٧٦/١.
(٩) تفسير البيضاوي: ٩٩/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٤٨):ص١٩٨/١.
(١١) المحرر الوجيز: ١٩٠/١، وانظر: تفسير القرطبي: ٦٠/٢.
(١٢) تفسير المراغي:١٨٤/١-١٨٥.

قال القاسمي:" أي اليهود الذي توسلوا بقولكم المذكور إلى التهاون بمقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عَذابٌ أَلِيمٌ لما اجترءوا عليه من العظيمة، وهو تذييل لما سبق، فيه وعيد شديد لهم، ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه. وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة النساء:{مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَراعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}[النساء: ٤٦] ، ومن ليّهم ما جاء في الحديث أنهم كانوا إذا سلموا يقولون «السام عليكم»(١)
والسام هو الموت، ولهذا أمرنا أن نزد عليهم ب «وعليكم» ، وإنما يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا"(٢).

يقول الإمام القرطبي: في هذه الآية دليلان(٣):
أحدهما: تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغض، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض، وذلك يوجب الحد عندنا خلافا لأبي حنيفة والشافعي وأصحابهما حين قالوا: التعريض محتمل للقذف وغيره، والحد مما يسقط بالشبهة.
والثاني: التمسك بسد الذرائع(٤) وحمايتها، وهو مذهب مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وقد دل على هذا الأصل الكتاب والسنة. والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع.
أما الكتاب: فهذه الآية، ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك وهي سب بلغتهم، فلما علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ، لأنه ذريعة للسب، وقوله تعالى : {وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام : ١٠٨] فمنع من سب آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك، وقوله تعالى : { وَاسْأَلْهُمْ

---

(١) صحيح البخاري(٥٦٧٨):ص٥/٢٢٤٢.
(٢) محاسن التأويل: ١/٣٦٩-٣٧٠.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٢/٥٧-٦٠
(٤) يقول ابن القيم : وإذا تأملت الشريعة وجدتها قد أتت بسد الذرائع إلى المحرمات .
فنهى الله عن سب آلهة المشركين ، لكونه ذريعة إلى أن يسبوا الله تعالى عدواً وكفراً على وجه المقابلة.
وأمسك ﷺ عن قتل المنافقين مع ما فيه من المصلحة لكونه ذريعة إلى التنفير وقول الناس : إن محمداً يقتل أصحابه .
ومنع النساء إذا خرجن إلى المسجد من الطيب والبخور ، ومنعهن من التسبيح في الصلاة لنائبة تنوب بل جعل لهن التصفيق .
ونهى المرأة أن تصف لزوجها امرأة غيرها ، حتى كأنه ينظر إليها .
ونهى عن بناء المساجد على القبور ، ولعن فاعله .
ونهى عن تعليه القبور وتشريفها وأمر بتسويتها .
ونهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لكون هاتين الوقتين وقت سجود الكفار للشمس ، ففي الصلاة نوع تشبه بهم في الظاهر .
ونهى عن التشبه بأهل الكتاب وغيرهم من الكفار في مواضع كثيرة ، لأن المشابهة الظاهرة ذريعة إلى الموافقة الباطنة .
وحرم الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها ، لكونه ذريعة إلى قطيعة الرحم .
وأمر بالتسوية بين الأولاد في العطية ، وأخبر أن تخصيص بعضهم بها جور لا يصلح ، لكون ذلك ذريعة ظاهرة إلى وقوع العداوة بين الأولاد وقطيعة الرحم بينهم .
ومنع من تجاوز أربع زوجات ، لكونه ذريعة ظاهرة إلى الجور ، وعدم العدل بينهن .
ومن ذلك : نهيه سبحانه رسوله ﷺ عن الجهر بالقرآن بحضرة العدو ، لما في ذلك ذريعة إلى سبهم للقرآن ومن أنزله .
ومن ذلك : أنه سبحانه نهى الصحابة أن يقولوا للنبي ﷺ (راعنا) مع قصدهم المعنى الصحيح ، وهو المراعاة ، لئلا يتخذ اليهود هذه اللفظة ذريعة إلى السب ، ولئلا يتشبهوا بهم .
ومن ذلك أن السنة مضت بكراهة إفراد رجب بالصوم ، وإفراد يوم الجمعة ، لئلا يتخذ ذريعة إلى الابتداع في الدين ، وتخصيص زمان لم يخصه الشارع بالعبادة .
ونهى ﷺ عن قتال الأمراء والخروج على الأئمة وإن ظلموا وجاروا ، ما أقاموا الصلاة ، سداً لذريعة الفساد العظيم والشر الكبير بقتالهم كما هو الواقع ، فإنه حصل بسبب قتالهم والخروج عليهم من الشرور أضعاف أضعاف ما هم عليه ، والأمة في بقايا تلك الشرور إلى الآن .

عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ} [الأعراف : ١٦٣] الآية، فحرم عليهم تبارك وتعالى الصيد في يوم السبت، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعا، أي ظاهرة، فسدوا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد، وكان السد ذريعة للاصطياد، فمسخهم الله قردة وخنازير، وذكر الله لنا ذلك معنى التحذير عن ذلك، وقوله تعالى لآدم وحواء : {وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ} [البقرة : ٣٥] وقد تقدم.

وأما السنة: فأحاديث كثيرة ثابتة صحيحة، منها حديث عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهن ذكرتا كنيسة رأياها بالحبشة فيها تصاوير [فذكرتا ذلك] لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ : "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله" (١). قال علماؤنا : ففعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا أحوالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عز وجل عند قبورهم، فمضت لهم بذلك أزمان، ثم أنهم خلف من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم، ووسوس لهم الشيطان أن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصورة فعبدوها، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، وشدد النكير والوعيد على من فعل ذلك، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال : "اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد" (٢) وقال : "اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد"(٣).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلاة/ باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء: (٤١٧). فتح الباري: ٦٢٤/١.

(٢)رواه مالك في الموطأ (١٧٢/١) ٩ - كتاب قصر الصلاة في السفر، ٢٤ - باب جامع الصلاة، حديث (٨٥) عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار مرسلا. وعبد الرزاق في المصنف (٤٠٦/١، باب الصلاة على القبور برقم (١٥٨٧) عن معمر عن زيد بن أسلم. وابن سعد في الطبقات (٢٤١/٢). وابن أبي شيبة (٣٤٥/٣) من طريق ابن عجلان عن زيد بن أسلم؛ فهو معضل عند هؤلاء، لكنه قد جاء موصولاً عن أبي هريرة - رضي الله عنه - فقد أخرجه أحمد (٢٤٦/٢). وأبونعيم في الحلية (٣١٧/٧). والحميدي (٤٤٥/٢)، حديث (١٠٢٤). كلهم من طريق سفيان بن عيينة.

قال: حدثنا حمزة بن المغيرة الكوفي عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً، وهذا إسناد حسن.

حمزة بن المغيرة قال الحميدي في شأنه: وكان من سراة الموالي، ولعله من قول سفيان. وقال أبوالنضر: كان رجل الكوفة. وقال ابن معين: ليس به بأس.

وذكره ابن حبان في الثقات، تهذيب الكمال (٣٣٤/١).

ورواه أبونعيم في الحلية (٢٨٣/٦) من طريق عبد الله بن هشام الدستوائي حدثني أبي ثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة.

ورواه البزار كما في كشف الأستار (٢٢٠/١) من طريق عمر بن صهبان - وهو ضعيف - عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد، وذكر ابن عبد البر في التمهيد (٤٢/٥) أن البزار رواه من طريق عمر بن محمد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ثم صحح الحديث من طريق أبي سعيد روي بإسناد إلى البزار، وساق إسناد البزار إلا أنه قال: عمر بن محمد بدل عمر بن صهبان فينظر. وعلى كل حال فالحديث صحيح، انظر: الزرقاني (٣٨٥/١).

(٣)هذا الحديث يرويه الإمام مالك في " الموطأ " رقم: (٥٩٣)، طبعة مؤسسة زايد آل نهيان، ورقم(٤١٤)، طبعة دار إحياء التراث تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، في أوائل باب " جامع الصلاة "، عن عطاء بن يسار أن النبي ﷺ قال : "اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ".

وعطاء بن يسار ليس من الصحابة ، بل من التابعين ، فحديثه مرسل ، ولكن ورد الحديث مسندا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : "اللهم لا تجعل قبري وثنا ، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، هكذا من دون كلمة (يعبد).

ورواه الإمام أحمد في " المسند " (٣١٤/١٢) طبعة مؤسسة الرسالة، وقال المحققون : إسناده قوي . وصححه الشيخ الألباني في كتاب " تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد " (ص/٢٤) وإن كان قال الحافظ ابن رجب في " فتح الباري " (٤٤١/٢) عن حديث أبي هريرة : " بإسناد فيه نظر ."

يدل هذا الحديث على حرمة بناء المساجد على القبور ، وحرمة قصد الصلاة إلى قبر النبي ﷺ ، وحرمة كل الأفعال التي كان يفعلها الكفار عند أوثانهم من ذبح ونذر واتخاذ سرج ونحو ذلك.

يقول ابن عبد البر رحمه الله : " الوثن : الصنم ، وهو الصورة من ذهب كان أو من فضة ، أو غير ذلك من التمثال ، وكل ما يعبد من دون الله فهو وثن ، صنما كان أو غير صنم ؛ وكانت العرب تصلي إلى الأصنام وتعبدها ، فخشي رسول الله ﷺ على أمته أن تصنع كما صنع بعض من مضى من الأمم : كانوا إذا مات لهم نبي عكفوا حول قبره كما يصنع بالصنم ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم لا تجعل قبري وثنا يصلى إليه ، ويسجد نحوه ويعبد فقد اشتد غضب الله على من فعل ذلك ، وكان رسول الله ﷺ يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبله ، الذين صلوا إلى قبور أنبيائهم، واتخذوها قبلة ومسجدا ، كما

وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الحلال بيّن والحرام بين وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه"(١) الحديث، فمنع من الإقدام على الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات، وذلك سدا للذريعة.

وقال ﷺ : " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس"(٢).

صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظمونها ، وذلك الشرك الأكبر ، فكان النبي ﷺ يخبرهم بما في ذلك من سخط الله وغضبه ، وأنه مما لا يرضاه خشية عليهم من امتثال طرقهم " انتهى. "التمهيد " (٤٥/٥).
ويقول أيضا: " وليس فيه حكم أكثر من التحذير أن يُصلَّى إلى قبره ، وأن يتخذ مسجدا ، وفي ذلك أمر بأن لا يعبد إلا الله وحده ، وإذا صنع من ذلك في قبره ، فسائر آثاره أحرى بذلك ، وقد كره مالك وغيره من أهل العلم طلب موضع الشجرة التي بويع تحتها بيعة الرضوان ، وذلك والله أعلم مخالفة لما سلكه اليهود والنصارى في مثل ذلك " انتهى .الاستذكار " (٣٦٠/٢).
وقد نقل هذا الكلام الحافظ ابن رجب رحمه الله ، وأكده ، ثم قال ": وقد اتفق أئمة الإسلام على هذا المعنى :قال الشافعي رحمه الله : وأكره أن يعظم مخلوق حتى يتخذ قبره مسجدا ، خشية الفتنة عليه وعلى من بعده.
وقال صاحب " التنبيه " من أصحابه : أما الصلاة عند رأس قبر رسول الله متوجها إليه فحرام.
قال القرطبي : بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ ، فأعلوا حيطان تربته ، وسدوا الداخل إليها ، وجعلوها محدقة بقبره ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذ كان مستقبل المصلين ، فتتصور إليه الصلاة بصورة العبادة ، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين ، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلث من ناحية الشمال ، حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره . ولهذا المعنى قالت عائشة :" ولولا ذلك لأبرز قبره"" انتهى ".فتح الباري " لابن رجب (٤٤٢/٢-٤٤٣).
وقد ذكر القاضي عياض رحمه الله أن هذا الحديث كان دليل الإمام مالك رحمه الله على كراهة أن يقول المسلم : زرت قبر النبي ﷺ . خشية أن يكون هذا الكلام من اتخاذ القبر وثنا يعبد.
يقول القاضي عياض رحمه الله: "الأَوْلى عندي أن منعَه وكراهة مالك له – قول : زرت قبر النبي ﷺ - لإضافته إلى قبر النبي ﷺ ، وأنه لو قال : زرنا النبي ﷺ لم يكرهه ، لقوله ﷺ : (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد بعدى ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) " انتهى ".الشفا " (٨٤/٢).
وفي " البيان والتحصيل " لابن رشد (٤٤٤/١٨-٤٤٥): " سئل مالك رحمه الله تعالى عن الغريب يأتي قبر النبي كل يوم ، فقال : ما هذا من الأمر ، وذكر حديث : "اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد "،
قال ابن رشد : فيُكره أن يُكثر المرور به ، والسلام عليه ، والإتيان كل يوم إليه لئلا يُجعل القبر بفعله ذلك كالمسجد الذي يؤتى كل يوم للصلاة فيه ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله :"اللهم لا تجعل قبري وثنًا "" انتهى.
وسئل القاضي عياض عن أناس من أهل المدينة يقفون على القبر في اليوم مرة أو أكثر ، ويسلمون ويدعون ساعة ، فقال " : لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ، ولا يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولَها ، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك " انتهى ".الشفا بتعريف حقوق المصطفى " (٦٧٦/٢).
ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ": اتفق أئمة الدين على أنه لا يشرع بناء المساجد على القبور ، ولا أن تعلق عليها الستور ، ولا أن ينذر لها النذور ، ولا أن يوضع عندها الذهب والفضة ، بل حكم هذه الأموال أن تصرف في مصالح المسلمين إذا لم يكن لها مستحق معين ، ويجب هدم كل مسجد بني على قبر كائناً من كان الميت ، فإن ذلك من أكبر أسباب عبادة الأوثان " انتهى. مجموعة الرسائل والمسائل: (٥٤/١).
ويقول أبو الوليد الباجي رحمه الله: " دعاؤه ﷺ أن لا يجعل قبره وثنا يعبد تواضعا والتزاما للعبودية لله تعالى ، وإقرارا بالعبادة ، وكراهية أن يشركه أحد في عبادته ، وقد روى أشهب عن مالك أنه لذلك كره أن يدفن في المسجد ، وهذا وجه يحتمل أنه إذا دفن في المسجد كان ذريعة إلى أن يتخذ مسجدا ، فربما صار مما يعبد " انتهى. " المنتقى شرح الموطأ " (٣٠٦/١). والله تعالى أعلم.

(١)رواه مسلم(٢٩٩٦) .

(٢)أخرجه الترمذي (ك ٣٤ / صفة القيامة / ب ١٩ / ح ٢٤٥١)، قال حدثنا أبو بكر بن أبي النضر قال: حدثنا أبو النضر قال: حدثنا أبو عقيل الثقفي عبد الله بن عقيل قال: حدثنا عبد الله بن يزيد قال: حدثني ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس عن عطية وكان من أصحاب رسول الله ﷺ: " ... الحديث " وقال الترمذي: " هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ".
وأخرجه ابن ماجة (ك ٣٧ / الزهد / ب ٢٤ / ح ٤٢١٥) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة به.
وأخرجه الحاكم (ك ٤٧ / الرقاق / ب ٣٣٠٢ / ح ٧٩٦٩) من طريق عبد الله بن الحسين قال حدثنا الحارث بن أبي أسامة به بنحوه وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وأخرجه القضاعي في مسنده (٢ / ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ /ح ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢) من طرق عن أبي النضر به لكن في طريق أبي الحسن الهمداني (لما به بأس).

وقال ﷺ :"إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ" قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قَالَ: "يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ" [١]، فجعل التعرض لسب الآباء كسب الآباء.

وقال ﷺ : "إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم"[٢].

قلت-الإمام القرطبي- : فهذه هي الأدلة التي لنا على سد الذرائع، وعليه بنى المالكية كتاب الآجال وغيره من المسائل في البيوع وغيرها. وليس عند الشافعية كتاب الآجال. لأن ذلك عندهم عقود مختلفة مستقلة، قالوا : وأصل الأشياء على الظواهر لا على الظنون. والمالكية جعلوا السلعة محللة ليتوصل بها إلى دراهم بأكثر منها، وهذا هو الربا بعينه، فاعلمه[٣].

الفوائد:

١- أنه إذا ذكر باب ممنوع مسدود أمام الناس، فإن الحكمة تقتضي أن يذكر لهم ما يستغنون به عنه من الأشياء المباحة، لهذا قال : {وَقُولُوا انْظُرْنَا} فهو لم ينههم ويجعلهم عائمين لا يدرون ما يقولون، بل أرشدهم إلى القولة المباحة النافعة، وهي : {انظرنا} .

٢- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام .

٣- النهي عن مشابهة المشركين، عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : " بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم"[٤].

٤- قال ابن كثير : "ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نقر عليها"[٥].

٥- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم عن حديث "ومن تشبه بقوم فهو منهم"[٦] قال: "وهذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم"[٧].

وأخرجه البيهقي في السنن (٥ / ٣٣٥ / كتاب البيوع) من طريق أبي طاهر الفقيه قال أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان قال حدثنا أبو الأزهر به.

وأخرجه المزي في تهذيب الكمال (١٦ / ٣٢٠) بسنده من طريق أبي بكر بن أبي شيبة به بلفظ (لما به بأس).

وعزاه الألباني أيضا في غاية المرام (ص ١٠٥) لعبد بن حميد في المنتخب من المسند وابن عساكر في التاريخ من طريق أبي عقيل عن عبد الله بن يزيد به، ولست أدري هل هو عند هذين بنفس لفظ حديث الترجمة أم بنحوه أم بمعناه.

(١)رواه البخاري- كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه- حديث: ٥٦٣٦، ومسلم- كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها- حديث:١٥٥.

(٢) رواه كل من: ابي داود في سننه ٣٤٦٢/وابن عدي في كامل الضعفاء٧١/٧/وابو نعيم في حلية الاولياء ٢٣٧/٥،وللبهيقي في السنن الكبرى٣١٦/٥،وابن القطان في الوهم والايهام ٧٧١/٥،وابن القطان في الوهم والايهام ٢٩٤/٥، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢٨٨/٢، وابن تيمية في مجموع الفتاوى ٣٠/٢٩،وبيان الدليل لابن تيمية : ١٠٩،والقواعد النورانية لابن تيمية ١٧٥،المحررمحمد ابن عبد الهادي ٣١٥،والذهبي في ميزان الاعتدال ٥٤٧/٤،وفي الدراية لابن حجر العسقلاني ١٥١/٢،وفي بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني ٢٤٥،والاجوبة المرضية للسخاوي ٢١٣/١،والجامع الصغير للسيوطي ٥١٤،ونيل الاوطار للشوكاني ٣١٨/٥،والسيل الجرار للشوكاني ٨٨/٣،وفتح الغفار للرباعي ٣/١٢٠٧،حاشية بلوغ المرام لابن باز ٥٠٤،صحيح الترغيب للالباني ١٣٨٩،السلسلة الصحيحة للالباني ١١،وغاية المرام للالباني ١٦٠،صحيح الجامع للالباني ٤٢٣،صحيح ابي داود ٣٤٦٢،بلوغ المرام لابن عثيمين ٣٦/٤،ومسند احمد بتحقيق احمد شاكر٨٨/٧،واخر مسند احمد لاحمد شاكر ٢٦٧/٧،والطرسوس في مسند عمر،وابن ابي الدنيا في العقوبات،وتهذيب الاثار للطبراني ،وفي التلخيص،والدولابي في الكنى،أهـ وكلهم عن ابن عمر رضي الله عنه.الا طريق واحد عن جابر.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٥٧/٢-٦٠.

(٤)مسند الإمام أحمد (٩٢/٢).

(٥) تفسير ابن كثير: ٣٧٤/١.

(٦) رواه أحمد: ٥٠/٢، وألو داود: اللباس/ باب"في لبس الشهرة": ٧٤/١١، صححه الألباني في الإرواء برقم(١٢٦٩) وفي صحيح الجامع برقم(٢٨٢٨).

(٧) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٣٧/١.

٦-تحريم الخطاب بالكلمات المحتملة للحق والباطل بالنسبة للرسول ﷺ .
٧-تجني اليهود في تحريف الكلم عن مواضعه، وجرأتهم على وصف الرسول ﷺ والمؤمنين بالمعاني السيئة القبيحة .
٨-وجوب الاحتراز من التعابير التي قد توهم معاني سيئة، والحرص على الأدب في الألفاظ فذلك أسلم وأكمل .
٩- سد الذرائع الموصلة إلى أمر محظور شرعاً .
١٠- وجوب السمع والطاعة لأوامر الله، لقوله تعالى :{واسمعوا}.
١١- ثبوت الجزاء على العمل لقوله{وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} .

القرآن

{مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)} [البقرة : ١٠٥]

التفسير:

ما يحب الكفار من أهل الكتاب والمشركين أن يُنزَّل عليكم أدنى خير من ربكم قرآنًا أو علمًا، أو نصرًا أو بشارة. والله يختص برحمته مَن يشاء مِن عباده بالنبوة والرسالة. والله ذو العطاء الكثير الواسع.

في سبب نزول الآية قولان:

الأول: قال الواحدي:" قال المفسرون: إن المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود: آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - قالوا: هذا الذي تدعوننا إليه ليس بخير مما نحن عليه، ولوددنا لو كان خيرا، فأنزل الله تعالى تكذيبا لهم هذه الآية"[١].

والثاني: قال الرغب: " سبب نزول هذه الآية أن جماعة من اليهود كانوا يظهرون مودة المسلمين ، ويزعمون أنهم يودون لهم الخير ، فأكذبهم الله تعالى في ذلك ، ونفي ما أدعوه وكان المسلمون يوالونهم ويركنون إليهم ، فأكذبهم الله تعالي في ذلك [ونفى ما ادعوه] ونهاهم تعريضاً عن موادتهم ، كما قال : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ }"[٢].

قوله تعالى: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ}[البقرة:١٠٥]، "أي ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزّل عليكم شيء من الخير، بغضاً فيكم وحسداً لكم"[٣].

قال الطبري:أي:" : ما يحب الكافرون من أهل الكتاب ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان، أن ينزل عليكم من الخير الذي كان عند الله فنزله عليكم، فتمنى المشركون وكفرة أهل الكتاب أن لا ينزل الله عليهم الفرقان وما أوحاه إلى محمد ﷺ من حكمه وآياته ، وإنما أحبت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك ، حسدا وبغيا منهم على المؤمنين"[٤].

و(الود) "خالص المحبة"[٥].

قال الراغب:" الود : محبة الشر مع تمنيه ، ولما كان لهما استعمل في كل واحد منهما ، فقيل : وددت فلانا إذا أحببته ، وددت الشيء إذا تمنيته"[٦].

قال القرطبي: "(الخير) هنا يشمل خير الدنيا، والآخرة، القليل والكثير؛ لو حصل للكافرين من أهل الكتاب من اليهود، والنصارى، ومن المشركين أن يمنعوا القطر عن المسلمين لفعلوا؛ لأنهم ما يودون أن ينزل علينا أيّ

---

(١) أسباب النزول: ٣٤.
(٢) تفسير الرابغ الأصفهاني: ٢٨٢/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٧٦/١.
(٤) تفسير الطبري:٤٧٠/٢.
(٥) تفسير ابن عثيمين: ١٧٨/١.
(٦) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٨٢/١.

خير؛ ولو تمكنوا أن يمنعوا العلم النافع عنا لفعلوا؛ وهذا ليس خاصاً بأهل الكتاب والمشركين في زمان الرسول ﷺ؛ بل هو عام؛ ولهذا جاء بصيغة المضارع: { ما يود }؛ وهو دال على الاستمرار"[١].

وقال الفخر الرازي: " (الخير) الوحي وكذلك الرحمة، يدل عليه قوله تعالى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ} [الزخرف : ٣٢] المعنى أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحي إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي، ثم بين سبحانه أن ذلك الحسد لا يؤثر في زوال ذلك، فإنه سبحانه يختص برحمته وإحسانه من يشاء"[٢].

قال ابن عاشور: "والخير النعمة والفضل، قال النابغة[٣]:

فلست على خير أتاك بحاسد

وأراد به هنا النبوءة وما أيدها من الوحي والقرآن والنصر، وهو المعبر عنه بالرحمة في قوله :{وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ}"[٤].

ومعنى (الاختصاص): "الانفراد بالشيء، ومنه: الخَصَاص للفُرَج[٥]،لأنه انفرد كل منهما واحد عن الآخر من غير جمع بينها، ثم يقال لسوء الحال: الخصاصة، لأنها خللٌ في الحال وصدع"[٦].

ويُقْرأ {أن يُنْزَل عليكم}، بالتخفيف والتثقيل جميعاً، ويجوز في العربية أن يَنْزِلَ عليكم، ولا ينبغي أن يقرأ بهذا الوجه الثالث، إذ كان لم يقرأ به أحد من القراء المشتهرين[٧].

و(التنزيل): هو إنزاله شيئاً فشيئاً؛ وأما (الإنزال): فهو إنزاله جملة واحدة؛ هذا هو الأصل؛ فهم لا يودون هذا، ولا هذا: لا أن ينزل علينا الخير جملة واحدة؛ ولا أن ينزل شيئاً فشيئاً[٨].

قال الآلوسي:" وفي إقامة لفظ(الله)، مقام ضمير {ربكم}، تنبيه على أن تخصيص بعض الناس بالخير دون بعض يلائم الألوهية كما أن إنزال الخير على العموم يناسب الربوبية"[٩].

قال الراغب:" إن قيل : فلم قال : " ولا المشركين " وذلك يقتضي أن المشركين ضربان ، كافر ، وغير كافر كما أن أهل الكتاب ضربان ؟ قيل : إن " من " في قوله (ومن أهل الكتاب) للتبيين {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} ، فإذا كان كذلك ، فالذين كفروا هم أهل الكتاب ، فجاز أن يقال : (ولا المشركين) عطفاً على لفظ أهل الكتاب ، وجاز أن يقال (ولا المشركين) عطفاً على الذين ، ولو قرئ به لجاز"[١٠].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}[البقرة:١٠٥]، أي والله "يختص بالنبوة والوحي والفضل والإحسان، من شاء من عباده"[١١].

قال الزجاج:" أي يختص بنُبوته من يشاءُ من أخبر - عزَّ وجلَّ - أنه مختار"[١٢].

قال الطبري: أي:" والله يختص من يشاء بنبوته ورسالته ، فيرسله إلى من يشاء من خلقه ، فيتفضل بالإيمان على من أحب فيهديه له"[١٣].

---

(١) تفسير ابن عثيمين: ١٧٨/١.

(٢) تفسير الرازي: ٢٠٥/٣.

(٣)ديوان النابغة، قصيدة رقم٦. وعجز البيت:

وكنت امرءا لا أمدح الدهر سوقة فلست على خير أتاك بحاسد

إذ عابوا قوله وقالوا: كيف يحسده على ما قد جاد به له؟ انظر: الموشح للمرزباني: ٤٥/١.

(٤) تفسير ابن عاشور: ٦٥٣/١.

(٥)أي: فُرَج بين الأثافي والأصابع، ينظر: "اللسان" ٢/ ١١٧٣، وقال في "تهذيب اللغة" ١/ ٢٣٣ - ٢٣٤: وأصل ذلك من الخَصَاص، وكل خَلَلٍ أو خَرْق يكون في مُنْخل أو باب أو سحاب أو بُرقُع فهو خصَاص.

(٦) التفسير البسيط: ٢١٩/٣، وانظر: هذيب اللغة" ٢/ ١٢٩٩، "المفردات" ١٥٥، "اللسان" ٣/ ١٤٧٦.

(٧) معاني القرآن للزجاج: ١٨٩/١.

(٨) تفسير ابن عثيمين: ١٧٨/١.

(٩) روح المعاني: ٣٥٠/١.

(١٠) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٨٣/١.

(١١) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(١٢) معاني القرآن:١٨٩/١.

(١٣) تفسير الطبري: ٤٧١/٢.

واختلف في معنى (الرحمة)، في قوله تعالى :{وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}[البقرة:١٠٥]، على أقوال[١]:
أحدها: أن الرحمة: الإسلام. قاله مجاهد[٢]، والحسن[٣]، ومقاتل[٤].
والثاني: أن الرحمة في هذه الآية عامة، لجميع أنواعها التي قد منحها الله عباده قديما وحديثا. قاله ابن عطية[٥].
والثالث: أن الرحمة هنا :النبوة. قاله علي بن أبي طالب[٦]، ومحمد بن علي بن الحسين[٧]، وابن عباس[٨]، ومجاهد[٩]، والزجاج[١٠]، وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك[١١].
واختار الطبري قول مجاهد، فقال: الرحمة هنا: "نبوته ورسالته، فيرسله إلى من يشاء من خلقه، فيتفضل بالإيمان على من أحب فيهديه له، و " اختصاصه " إياهم بها، إفرادهم بها دون غيرهم من خلقه. وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه، وهدايته من هدى من عباده، رحمة منه له ليصيره بها إلى رضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة، واستحقاقه بها ثناءه، وكل ذلك رحمة من الله له"[١٢].
الرابع: وقيل: النبي -ﷺ-، لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء : ١٠٧]، فهو نبي الرحمة[١٣].
والصواب:أن الرحمة هنا عامة بجميع أنواعها، والأقوال الأخرى هي ضمن الرحمة العامة التي في لفظ الآية، "فرحمته تعالى يشمل رحمة الدين، والدنيا؛ ومن ذلك رحمة الله بإنزال هذا الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن هذا الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ هو من رحمة الله عليه، وعلينا، كما قال تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}[الأنبياء: ١٠٧]" [١٤].
قال ابن عثيمين: "وقوله تعالى: {مَنْ يَشَاءُ} هذا مقرون بالحكمة؛ يعني اختصاصه بالرحمة لمن يشاء مبني على حكمته سبحانه وتعالى؛ فمن اقتضت حكمته ألا يختصه بالرحمة لم يرحمه" [١٥].
قوله تعالى:{وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[البقرة:١٠٥]، أي "والله واسع الفضل والإحسان"[١٦].
قال ابن عثيمين: " أي ذو العطاء الزائد عما تتعلق به الضرورة؛ و{الْعَظِيمِ} أي الواسع الكثير الكبير؛ فالعِظم هنا يعود إلى الكمية، وإلى الكيفية"[١٧].
قال الطبري:" خبر من الله جل ثناؤه عن أن كل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم ، فإنه من عنده ابتداء وتفضلا منه عليهم ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه"[١٨].
قال الراغب:" بيّن أنه وإن اختص برحمته بعض الناس ، فليس ذلك لضيق فضله ، بل فضله عظيم ، ورحمته [تسع كل شيء وإنما يسع رحمته] ضربان ، أحدهما يصل إليه كل من شاء الوصول إليه من العباد

---

[١] انظر: تفسير القرطبي: ٦١/٢ و تفسير البحر المحيط: ٥١٠/١.
[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٥١):ص١٩٩/١، ولفظه:"القرآن والإسلام".
[٣] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٥٢):ص١٩٩/١.
[٤] انظر: زاد المسير: ١٢٧/١.
[٥] انظر: المحرر الوجيز: ١٩٠/١.
[٦] انظر: تفسير القرطبي: ٦١/٢ و تفسير البحر المحيط: ٥١٠/١.
[٧] انظر: زاد المسير: ١٢٧/١.
[٨] انظر: تفسير البحر المحيط: ٥١٠/١.
[٩] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٥٠):ص١٩٩/١.
[١٠] انظر: معاني القرآن: ١٨٩/١.
[١١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٩٩/١.
[١٢] تفسير الطبري: ٤٧٠/٢.
[١٣] انظر: تفسير القرطبي: ٦١/٢ و تفسير البحر المحيط: ٥١٠/١.
[١٤] انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٧٩/١.
[١٥] انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٧٩/١.
[١٦] صفوة التفاسير: ٧٦/١.
[١٧] انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٧٩/١.
[١٨] تفسير الطبري:٤٧١/٢.

بتمكين الله إياه وضرب يخص تعالى به بعض عباده لا يعرفه في ذلك"[١].
قال الآلوسي:" تذييل لما سبق وفيه تذكير للكارهين الحاسدين بما ينبغي أن يكون مانعا لهم لأن المعنى على أنه سبحانه المتفضل بأنواع التفضلات على سائر عباده فلا ينبغي لأحد أن يحسد أحدا، ويود عدم إصابة خير له، والكل غريق في بحار فضله الواسع الغزير كذا قيل: وإذا جعل الفضل عاما وقيل: بإدخال النبوة فيه دخولا أوليا لأن الكلام فيها على أحد الأقوال. كان هناك إشعار بأن النبوة من الفضل لا كما يقوله الحكماء من أنها بتصفية الباطن، وأن حرمان بعض عباده ليس لضيق فضله بل لمشيئته وما عرف فيه من حكمته، وتصدير هذه الجملة بالاسم الكريم لمناسبة العظيم"[٢].
الفوائد

١. من فوائد الآية: بيان عداوة غير المسلمين للمسلمين؛ لأنه تعالى ذكر صنفين ينتظمان جميع الأصناف: أهل الكتاب . وهم اليهود، والنصارى .؛ والمشركين . وهم كل أصحاب الأوثان .؛ فكل هؤلاء أعداء للمسلمين؛ لأنهم لا يودون الخير للمسلمين.
٢. ومنها: أنه يجب علينا أن نحذر من كل تصرف يصدر عن اليهود، والنصارى، والمشركين، ونتخذهم أعداءً، وأن نعلم أنهم بجميع تصرفاتهم يحاولون أن يمنعوا الخير عن المسلمين.
٣. ومنها: أن هؤلاء الكفار يودون أن يمنعوا عن المسلمين التقدم.
٤. ومنها: أنه يحرم على المسلمين أن يُوَلُّوا هؤلاء الكفار أيّ قيادة؛ لأنهم ما داموا لا يودون لنا الخير فلن يقودونا لأيّ خير مهما كان الأمر؛ ولهذا يحرم أن يجعل لهم سلطة على المسلمين لا في تخطيط، ولا في نظام، ولا في أي شيء؛ بل يجب أن يكونوا تحت إمرة المسلمين، وتحت تدبيرهم ما أمكن؛ وإذا استعنا بهم فإنما نستعين بهم لإدراك مصالحنا وهم تحت سلطتنا؛ لأنهم لو استطاعوا أن يمنعوا القطر وينبوع الأرض عن المسلمين لفعلوا؛ إذاً فيجب علينا الحذر من مخططاتهم، وأن نكون دائماً على سوء ظن بهم؛ لأن إحسان الظن بهم في غير محله؛ وإنما يحمل عليه الذل، وضعف الشخصية، والخور، والجبن؛ ولهذا قال تعالى: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ} [البقرة : ١٠٥]؛ وهي شاملة لخير الدنيا، والآخرة؛ فاليهود حسدوا المسلمين لما آمنوا بمحمد ﷺ، ونزل عليهم هذا الكتاب.

قال الطبري: "في هذه الآية دلالة بينة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع من قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم، بإطلاعه جل ثناؤه إياهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون"[٣].

٥. ومن فوائد الآية: أن خير الله لا يجلبه ودّ وادّ، ولا يرده كراهة كاره؛ لقوله تعالى:{وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}؛ فلا يمكن لهؤلاء اليهود، والنصارى، والمشركين أن يمنعوا فضل الله علينا؛ وعلى هذا جاء الحديث الصحيح: "واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك؛ ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك[١].. "
٦. . ومنها: أن الإنسان الذي لا يود الخير للمسلمين فيه شبه باليهود، والنصارى؛ لأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.
٧. ومنها: إثبات المشيئة لله؛ لقوله تعالى:{من يشاء}؛ ومشيئته تعالى عامة في كل شيء سواء كان من أفعاله، أو من أفعال عباده؛ لقوله تعالى: {ولو شاء الله ما فعلوه} [الأنعام: ١٣٧]، وقوله تعالى: {وما تشاءون إلا أن

([١]) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٨٣/١.
([٢]) روح المعاني: ٣٥٠/١.
([٣]) تفسير الطبري: ٤٧٠/٢.
[١] أخرجه أحمد ٢٩٣/١، حديث رقم ٢٦٦٩؛ وأخرجه الترمذي ص١٩٠٤ – ١٩٠٥، كتاب صفة القيامة، باب ٥٩: حديث حنظلة، حديث رقم ٢٥١٦، وفي سنده قيس بن الحجاج، قال الحافظ في التقريب: صدوق، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٣٠٨/٢ – ٣٠٩، حديث رقم ٢٠٤٣.

يشاء الله رب العالمين} [التكوير: ٢٩] ؛ وأما ما يتعلق بأفعاله تعالى فالأمثلة عليه كثيرة، كقوله تعالى: {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها} [السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} [فاطر : ١٦]، وقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [آل عمران : ٤٠]، وقوله تعالى{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج : ١٨] وغير ذلك من الآية.

٨. ومن فوائد الآية: إثبات الرحمة لله؛ لقوله تعالى: {برحمته}.

٩. ومنها: إثبات الإرادة لله؛ لقوله تعالى: { يختص }؛ لأن التخصيص يدل على الإرادة.

١٠. ومنها: إثبات الفضل لله؛ لقوله تعالى: {ذو الفضل}.

١١. ومنها: إثبات أن فضله ليس كفضل غيره؛ ففضل غيره محدود؛ وأما فضل الله ففضل عظيم لا حدود له؛ فإن الله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم؛ ومن فضله تبارك وتعالى أنه خص هذه الأمة بخصائص عظيمة كثيرة ما جعلها لأحد سواها؛ منها ما جاء في حديث جابر في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر؛ وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ؛ وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي؛ وأعطيت الشفاعة؛ وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة"[1] .

وتجدر الإشارة بأن هذه الآية لا يعارض قوله تعالى{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [المائدة : ٨٢]؛ لأن هذه الآية في صنف معين من النصارى: وهم الذين منهم القسيسون، والرهبان الذين من صفاتهم أنهم لا يستكبرون؛ فإذا وجد هذا الصنف في عهد الرسول، أو بعده انطبقت عليه الآية؛ لكن اختلفت حال النصارى منذ زمن بعيد؛ نسأل الله أن يعيد للمسلمين عزتهم وكرامتهم، حتى يعرفوا حقيقة عداوة النصارى، وغيرهم من أهل الكفر، فيعدوا لهم العدة[1].

القرآن

{مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)} [البقرة : ١٠٦]

التفسير:

ما نبدِّل من آية أو نُزِلها من القلوب والأذهان نأت بأنفع لكم منها، أو نأت بمثلها في التكليف والثواب، ولكلٍ حكمة. ألم تعلم -أيها النبي- أنت وأمتك أن الله قادر لا يعجزه شيء؟

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: قال الواحدي: " قال المفسرون: إن المشركين قالوا: أترون إلى محمد يأمر أصحابه؟ يأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا، ما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه وهو كلام يناقض بعضه بعضا فأنزل الله: {وإذا بدلنا آية مكان آية}[النحل: ١٠١]، الآية: وأنزل أيضا: {ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها} الآية"[2].

واورده الزمخشري[3] فلخصه، فذكر أنهم طعنوا في النسخ وكذلك القرطبي، وزاد أنهم أنكروا شأن القبلة[4].

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٩، كتاب التيمم، باب ١، حديث رقم ٣٣٥، وأخرجه مسلم ص٧٥٩، كتاب المساجد مواضع الصلاة، باب ١: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١١٦٢ [٢] ٥٢٠.

([1]) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٨١/١.

([2]) أسباب النزول:٣٤.

([3]) انظر: الكشاف: ١٧٦/١.

([4]) انظر: تفسير القرطبي:٦١/٢.

والثاني: قال الثعلبي:" روي أبو أمامة سهل بن حنيف في مجلس سعيد ابن المسيب: إنّ رجلا كانت معه سور فقام يقرأها من الليل فلم يقدر عليها، وقام آخر يقرأها، فلم يقدر عليها، وقام آخر يقرأها فلم يقدر عليها، فأصبحوا فأتوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال بعضهم: يا رسول الله قمت البارحة لأقرأ سورة كذا وكذا فلم أقدر عليها، وقال الآخر: يا رسول الله ما جئت إلّا لذلك، وقال الآخر: وأنا يا رسول الله، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إنّها نسخت البارحة""[١].

والثالث: وقال قتادة:" كانت الآية تنسخ الآية، وكان نبي الله ﷺ يقرأ الآية من السورة ثم ترفع فينسيها الله تعالى نبيه، فقال الله تعالى يقص على نبيه {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا}"[٢]. وروي عن مجاهد[٣]، والحسن[٤] نحو ذلك.

قال ابن حجر: "ولعل قتادة أخذ ما قال من هذا الخبر[أي: الخبر الذي ذكره الثعلبي في القول السابق]، وليس في الخبر تعيين الآية الناسخة صريحا، بل ما يومئ إلى ذلك، والعلم عند الله تعالى"[٥].

قوله تعالى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ}[البقرة:١٠٦]، " أي ما نبدّل من حكم آية فنغيره بآخر"[٦].

قال الطبري: أي: "ما ننقل من حكم آية، إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يحول الحلال حراما، والحرام حلالا والمباح محظورا، والمحظور مباحا، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي، والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة. فأما الأخبار، فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ"[٧].

وقوله: "{مِنْ آيَةٍ}، فكل المفسرين حملوه على الآية من القرآن غير أبي مسلم، فإنه حمل ذلك على التوراة والإنجيل"[٨].

قال الزجاج:" فأما النسخ في اللغة، فإبطال شيء وإقامة آخر مقامه، العرب تقول نسخت الشمسُ الظل، والمعنى أذهبت الظل وحلّت محلَّه"[٩].

وتجدر الإشارة بأن النسخ في اللغة يطلق على معنيين اثنين[١٠]:

أحدهما: النقل، أي: نقل الشيء من مكان إلى آخر مع بقاء الأول، ومنه نسخت الكتاب إذا نقلت ما فيه.

---

(١) تفسير الثعلبي:٢٥٤/١، وانظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي:٣٤، والدر المنثور:١٠٥/١، والعجاب: ٣٤٩/١-٣٥٠، والخبر إسناده صحيح، الليث هو ابن سعد وعقيل هو ابن خالد الأيلي ويونس هو ابن يزيد وابن شهاب هو الزهري وهو مرسل صحابي وقد عزاه السيوطي إلى أبي داود في "ناسخه" وابن المنذر وابن الأنباري في "المصاحف" وأبي در الهروي في "فضائل القرآن" كما في "الدر" "١/ ٢٥٦" ولم يذكر أبا عبيد، ثم عزاه إلى أبي داود في ناسخه والبيهقي في "الدلائل"، قال: "من وجه آخر عن أبي أمامة".

وقد روى الطبراني عن ابن عمر قال: قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله ﷺ فكن يقرأان بها. فقاما ذات ليلة يصليان. فلم يقدرا منهما على حرف. فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ. فذكرا ذلك له فقال رسول الله ﷺ: "إنها مما نسخ" فكان الزهري يقرؤها "ما تُنسخ من آية أو ننسها" بضم النون الخفيفة.

وأورد هذا "ابن كثير" "١/ ١٤٩-١٥٠" ثم قال: فيه "سليمان بن أرقم: ضعيف".

(٢) العجاب: ٣٤٩/١، وأخرجه الطبري(١٧٥١):ص٤٧٤/٢، ولفظه:" كان ينسخ الآية بالآية بعدها، ويقرأ نبي الله صلى الله عليه وسلم الآية أو أكثر من ذلك ، ثم تنسى وترفع".

وعزاه السيوطي أيضًا إلى أبي داود في "الناسخ والمنسوخ" "انظر الدر" "١/ ٢٥٥" وفيه تتمة: "يقول: فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها نهي".

(٣) تفسير الطبري(١٧٥٣):ص٤٧٤/٢.

(٤) تفسير الطبري(١٧٥٤):ص٤٧٤/٢.

(٥) العجاب: ٣٥٠/١.

(٦) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(٧) تفسير الطبري: ٤٧١/٢-٤٧٢.

(٨) مفاتيح الغيب: ٦٤١/٣.

(٩) معاني القرآن: ١٨٩/١.

(١٠)انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٤٢٤/٥-٤٢٥، لسان العرب لابن منظور: ٤٤٠٧/٦، القاموس المحيط للفيروزآبادي: ٢٣٨، معالم التنزيل للبغوي: ١٣٣/١-١٣٤، المحرر الوجيز لابن عطية: ٣١٥/١، الدر المصون للسمين الحلبي: ٢٣٨/١، تفسير القرطبي: ٦٢/١.

والثاني: الرفع والإزالة، وهو المقصود هنا، وهو منقسم في اللغة إلى ضربين:
الأول: إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه، ومنه نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وحلت محله، وهو معنى النسخ في الآية.
والثاني: إزالة الشيء دون أن يقوم آخر مقامه كقولهم: نسخت الريح الأثر، ومن هذا المعنى قوله تعالى: {فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [الحج: ٥٢].
أما في الاصطلاح فقد مر بمرحلتين:
الأولى: في اصطلاح السلف:
ويوضحه ابن القيم بقوله: "ومراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ رفع الحكم بجملته تارة-وهو اصطلاح المتأخرين-، ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر وغيرها إما بتخصيص أو تقييد أو حمل مطلق على مقيد وتفسيره وتبيينه، حتى إنهم يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخاً لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد، فالنسخ عندهم وفي لسانهم هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ بل بأمر خارج عنه..."[١].
الثانية: في اصطلاح الأصوليين:
وقد عرفه الرازي، بقوله: "طريق شرعي يدل على أن مثل الحكم الذي كان ثابتاً بطريق لا يوجد بعد ذلك مع تراخيه على وجه لولاه كان ثابتاً"[٢].
وعرفه الآمدي، بأنه:"عبارة عن خطاب الشارع المانع من استمرار ما ثبت من حكم خطاب شرعي سابق"[٣].
وقد منع وقوع النسخ في القرآن أبو مسلم الأصفهاني[٤]، وتبعه في ذلك: عبد المتعال محمد الجبري[٥]، وعبد الكريم الخطيب[٦]، والشيخ محمد الغزالي[٧]،وعبد الرحمن الوكيل[٨]، وفي ردود أهل العلم على أبي مسلم قديماً وحديثاً ما يكفي لدحض شبهات كل مدع عدم وقوع النسخ في القرآن الكريم. والله الموفق[٩].

واختلف أهل العلم في تفسير قوله تعالى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ}[البقرة:١٠٦]، على وجوه[١٠]:
أحدها : أنه قبضها ، وهو قول السدي[١١] .
والثاني : أنه تبديلها ، وهو قول ابن عباس[١٢].
والثالث : أنه إثبات خطها وتبديل حكمها ، وهو قول ابن مسعود[١٣]، ومجاهد[١٤].
والرابع: ومنهم من فسره بالنسخ بمعنى نسخت الكتاب، وهو قول عطاء وسعيد بن المسيب[١].

---

[١]إعلام الموقعين: ٣٥/١، وانظر: الموافقات للشاطبي: ١٠٨/٣-١١٧، مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٧٢/١٣ و: ١٠١/١٤.
[٢]المحصول: ج: ١/ق: ٤٢٨/٣.
[٣]الإحكام في أصول الأحكام: ١٥٥/٣.
[٤]انظر في الرد عليه: مفاتيح الغيب للرازي: ٢٢٩/٣-٢٣٠، والمحصول له أيضاً: جـ: ١/ق: ٤٦٠/٣، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي: ١٦٥/٣-١٧٩، إرشاد الفحول للشوكاني: ١٨٥، مناهل العرفان للزرقاني: ١٠٣/٢، النسخ في القرآن لمصطفى زيد: ٢٦٧/١.
[٥] وذلك في كتابيه: النسخ في الشريعة الإسلامية كما أفهمه، ولا نسخ في القرآن لماذا؟. وقد تصدى للرد عليه: محمد حمزة في كتابه: الإحكام والنسخ: ١٠٠-١١٢، ود. محمد محمود فرغلي في كتابه: النسخ بين الإثبات والنفي: ١١٢-١١٤.
[٦]في كتابيه: النسخ في الشريعة الإسلامية كما أفهمه، ولا نسخ في القرآن لماذا؟. وقد تصدى للرد عليه: محمد حمزة في كتابه: الإحكام والنسخ: ١٠٠-١١٢، ود. محمد محمود فرغلي في كتابه: النسخ بين الإثبات والنفي: ١١٢-١١٤.
[٧]في كتابه: نظرات في القرآن: ٢٢٧-٢٦..
[٨]في: تعليقه على الروض الأنف للسهيلي: ١٢/٣-١٣
[٩] انظر ما كتبه د. سليمان اللاحم في تعليقه على الناسخ والمنسوخ للنحاس: ٤٠٠/١-٤٠٤، وما كتبه د. محمد المديفر في دراسته لكتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز لأبي عبيد: ٧٢-٧٦. وانظر: مقدمة تفسيرنا، إذ تنوالنا فيها موضوح النسخ مفصلا.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٤٧٣/٢-٤٧٤. وتفسير الرازي: ٢١٠/٣.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٦):ص٤٧٣/٢.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٧):ص٤٧٣/٢.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٨):ص٤٧٣/٢.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٩):ص٤٧٣/٢.

والقول الثاني هو الأشبه بالصواب، أي: ما ننقل من حكم آية، إلى غيره فنبدله ونغيره، وبه قال جمع من أهل التفسير، والله تعالى أعلم.
قال الواحدي:" وكثير من المفسرين حمل النسخ المذكور في الآية على معنى: نسخ الكتاب من الكتاب. فقد حكي عن عدة منهم أنهم قالوا: يريد بالنسخ ما نسخه الله لمحمد - ﷺ - من اللوح المحفوظ فأنزله عليه، وهذا ظاهر الإحالة؛ لأنه ليس كل آية نسخت للنبي - ﷺ - من اللوح المحفوظ، فأنزلت عليه يؤتيه الله ويأتيه بخير منها، ولو كان كذلك لتسلسل الوحي حتى لا يتناهى"[٢].
قوله تعالى:{ أَوْ نُنسِهَا}[البقرة:١٠٦]، أي "أو نتركها"[٣].
قال الطبري:أي " أو لم يبدله ولم يغير "[٤].
قال الصابوني: "أي نمحها من قلبك"[٥].
واختلف أهل التفسير في قوله تعالى:{ أَوْ نُنْسِهَا}[البقرة:١٠٦]، على أقوال:
أحدها: أنه من النسيان، ضد التذكر. روي عن ابن عباس[٦]، وسعد بن مالك[٧]، ومحمد بن كعب، وقتادة، وعكرمة، نحو هذا المعنى[٨].
الثاني: أن معناه: نثبت خطها، ونبدل حكمها. قاله مجاهد[٩]، وروي عن أصحاب ابن مسعود نحو ذلك[١٠].
الثالث: أن المعنى: نؤخرها. قاله عمر بن خطاب[١١]، وروي عن أبي العالية وعطاء مثل ذلك[١٢].
الرابع: أو نتركها نرفعها من عندكم. قاله عبيد بن عمير[١٣]، وروي عن الربيع بن أنس والسدي نحو ذلك[١٤].
الخامس: أو نتركها لا نبدلها. قاله ابن عباس[١٥]، وروي عن السدي نحوه[١٦].
واختلفت القراءة في قوله تعالى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا}[البقرة:١٠٦]، على ثلاث قراءات[١٧]:
القراءة الأولى: بفتح النون الأولى في (نَنسخ)؛ وضمها في (نُنسها) بدون همز، وهي قراءة أهل المدينة والكوفة.

وقراءة غير الهمز على اختلاف وجوهها، فيها احتمالان [١٨]:
الإحتمال الأول: أنها من (النسيان)، وحينئذ يكون المراد به في بعض القراءات ضد الذكر وفي بعضها الترك.

([١]) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٤٠/٣.
([٢]) التفسير البسيط: ٢٣٤/٣، وانظر: الناسخ والمنسوخ لابي عبيد: ص ٧، وتفسير الطبري: ١/ ٤٧٧ - ٤٧٨، ابن أبي حاتم في تفسيره: ١/ ٢٠٠ - ٢٠١، وتفسير القرطبي:١/ ٥٤ - ٥٦.
([٣]) تفسير الطبري: ٤٧٨/٢.
([٤]) تفسير الطبري: ٤٧٨/٢.
([٥]) صفوة التفاسير: ٧٦/١.
([٦]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٥٨):ص٢٠٠/١.
([٧]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٥٩)، و(١٠٦٠):ص٢٠٠/١.
([٨]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٠٠/١.
([٩]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٦٢):ص٢٠٠/١.
([١٠]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٠٠/١.
([١١]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٦٣):ص٢٠٠/١.
([١٢]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٠١/١.

([١٣]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٦٤):ص٢٠٠/١.
([١٤]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٠١/١.
([١٥]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٦٥):ص٢٠١/١.
([١٦]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٦٦):ص٢٠١/١.
([١٧]) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٨١/١.
([١٨]) انظر: تفسير الطبري: ٤٧٣/٢-٤٧٦، والمحرر الوجيز لابن عطية: ٣٢٠/١-٣٢١، الدر المصون للسمين: ٣٣٧/١، شرح الهداية للمهدوي: ١٧٨/١، الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي: ٢٥٩/١.

الوجه الأول: أن يكون{نُنْسِهَا} بمعنى (النسيان)، ضد الذكر، والمعنى: ما ننسخ يا محمد من آية فنغير حكمها أو ننسها، وقد ذكر أنها في مصحف عبد الله : {ما نُنسكَ من آية أو ننسخها نجيء بمثلها}، فذلك تأويل : النسيان، وبهذا التأويل قال جماعة من أهل التأويل[١].

وكذلك كان سعيد بن المسيب يقرؤها، فأنكر عليه سعد بن أبي وقاص، أخرجه النسائي[٢]، وصححه وقد روي عن قتادة في قوله : "{مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا} قال : كان الله تعالى ينسي نبيه ما يشاء وينسخ ما يشاء"[٤].

وروي عن الحسن أنه قال في قوله : "{أَوْ نُنْسِهَا}، قال : إن نبيكم ﷺ أقرئ قرآنا ثم نسيه، فلم يكن شيئا، ومن القرآن ما قد نسخ وأنتم تقرءونه"[٥].

وروي عن ابن عباس، قال : "كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه بالنهار، فأنزل الله، عز وجل:{ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا }"[٦].

واسيتدل أصحاب هذا الوجه بقوله تعالى:"{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إلا مَا شَاءَ اللَّهُ}[الأعلى:٦-٧]، فقد أعلم الله أنه يشاء أن يُنْسى"[٧].

وقد ضعف الزجاج أن تحمل الآية على (النسيان) الذي هو ضد الذكر، فقال:" وهذا القول عندي ليس بجائز، لأن اللَّه عزَّ وجلَّ: قد أنبأ النبي - ﷺ -

في قوله {وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} إنَّه لا يشاء، أن يذهب بالذي أوحَى به إلى النبي - ﷺ -"[٨].

ثم ذكر أن في قوله تعالى:{فَلَا تَنْسَى إلا مَا شَاءَ اللَّهُ} قولان يُبْطلان أن يكون {ننسها}، في الآية بمعنى (النسيان)[٩]:

أحدهما:أن قوله:{فلا تنسى}، أي لست تترك إلا ما شاءَ اللَّه أن تترك.

والثاني: ويجوز أن يكون {إلا ما شاءَ الله}، مما يلحق بالبشرية، ثم تذكر بعد، ليس أنه على طريق السلب للنبي - ﷺ - شيئاً أوتيه من الحكمة.

في حين قال أبو عليّ وغيره : "ذلك جائز ، وقد وقع ، ولا فرق بين أن ترفع الآية بنسخ أو بنسئه"[١٠].

وقال ابن عطية:" والصحيح في هذا، أن نسيان النبي صلى الله عليه وسلّم ، لما أراد الله أن ينساه ، ولم يرد أن يثبته قرآناً جائزاً، وأما النسيان الذي هو آفة في البشر ، فالنبي صلى الله عليه وسلّم معصوم منه ، قبل التبليغ ، وبعد التبليغ ، ما لم يحفظه أحد من الصحابة ، وأما بعد أن يحفظ ، فجائز عليه ما يجوز على البشر ، لأنه قد بلغ وأدى الأمانة ، ومنه الحديث ، حين أسقط آية ، فلما فرغ من الصلاة قال : "أفي القوم أبي ؟" قال : نعم يا رسول الله ، قال : "فلم لم تذكرني ؟" قال : خشيت أنها رفعت". فقال النبي صلى الله عليه وسلّم: "لم ترفع ولكني نسيتها"[١]"[١].

([١]) انظر: تفسير الطبري: ٤٧٤/٢.

(٢) في السنن الكبرى: ٢٨٩/٦ رقم: ١٠٩٩٦.

(٣) في المستدرك: ٢٤٢/٢ وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه). وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره: ٥٥/١، وأبو عبيد في الناسخ والمنسوخ: ١٢ رقم: ١٥، وسعيد بن منصور في سننه: ٥٩٧/٢ رقم: ٢٠٨، وقال محققه: ٥٩٩/٢: (سنده ضعيف لجهالة القاسم بن عبد الله بن ربيعة)، وابن أبي داود في المصاحف: ١٠٧، والطبري في تفسيره(١٧٥٥)، و(١٧٥٧):٤٧٤/٢-٤٧٥.

([٤]) تفسير ابن كثير: ٣٧٧/١. قاله عبد الرزاق ، عن قتادة.

([٥]) أخرجه الطبري(١٧٤٥):ص٤٧٢/٢، وذكره ابن كثير في تفسيره.

([٦]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٥٨):ص٢٠٠/١، وانظر: تفسير ابن كثير: ٣٧٧/١.

([٧]) تفسير الثعلبي:١٨٩/١.

([٨]) معاني القرآن: ١٨٩/١-١٩٠.

([٩]) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٩٠/١.

([١٠]) البحرالمحيط: ٢٩٦/١.

[١] أخرجه البخاري، في القراءة خلف الإمام(١٩٣)، والنسائي في الكبرى(٨١٨٣)، وهو عند أحمد(١٥٣٦٥) من حديث عبدالرحمن بن أبى-رضي الله عنه- قال الهيتمي في مجمع الزوائد(٦٩/٢):"رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

قال ابن عثيمين:"والمراد به هنا رفع الآية؛ وليس مجرد النسيان؛ لأن مجرد النسيان لا يقتضي النسخ؛ فالنبي ﷺ قد ينسى بعض الآية؛ وهي باقية" [٢].

الوجه الثاني: أن يكون{نُنْسِهَا} بمعنى:(الترك)، من قول الله جل ثناؤه : {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} [التوبة : ٦٧]، يعني به : تركوا الله في عبادته فتركهم في العذاب، ومنه قوله تعالى : { قَالَ كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تنسى } [طه: ١٢٦].
واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم[٣]، وحسّنه الفراء[٤]، ونصره أبو علي الفارسي[٥].
واعترض الزجاج على هذا التفسير فقال:" وقيل في {أو ننْسِهَا} قول آخر، وهو خطأ أيضاً، قالوا: أو نَتْرُكُهَا، وهذا يقال فيه نسيت إذا تركت، ولا يقال أنسيت أي تركت"[٦].
واعترض ايضا الواحدي ، فقال: وهذا لا يصح؛ لأنه ليس كل آية تُركت ولم تنسخ يؤتى بخير منها"[٧].

وقال أبو علي وغيره : ذلك متجه، لأنه بمعنى نجعلك تتركها [٨].
وحكى الأزهري:{نُنْسها}، أي نأمرُ بتركه[٩]، وبه قال الزجاج[١٠].
يقال : أنسيتُه الشيء أي أمرتُ بتركه، ونسيتُه تركته، قال الشاعر[١١]:
إنّ عليّ عُقْبَة أقضيها   لستُ بناسِيْها ولا مُنْسِيها
أي ولا آمر بتركها[١٢].
قال القرطبي:"وما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {أو ننسها}، قال : "نتركها لا نبدلها"[١٣]، فلا يصح، ولعل ابن عباس قال : نتركها، فلم يضبط، والذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى {أو ننسها}: نبح لكم تركها، من نسي إذا ترك، ثم تعديه"[١٤].
والفرق بين (التَرك) و(النسخ)، "أن (النسخ) يأتي في الكتاب في نسخ الآية بآية فتُبطِل الثانيةُ العملَ بالأولى، ومعنى (الترك) أن تأتي الآية بضرب من العمل فيؤمر المسلمون بترك ذَلك بغير آية تَأْتِي ناسخة للتي قبلهَا، نحو{إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ}[الممتحنة:١٠]، ثم أمر المسلمون بعد ذلك بترك المِحْنَة"[١٥].

والاحتمال الثاني: أن أصل{ننسها}، الهمزة من (النسيء) وهو التأخير، إلا أنه أبدل من الهمزة (ألفاً)، وعلى هذا الاحتمال تتحد القراءتان.

وأخرجه أحمد(١٢٩٠٤)، وابن خزيمة(١٦٤٧)، من حديث عبدالرحمن بن أبزى، عن أبي-رضيا لله عنهما. وأخرجه أبو داود ص١٢٩٠، كتاب الصلاة، باب ١٥٨: الفتح على الإمام في الصلاة، حديث رقم ٩٠٧، أ، قال الألباني في صحيح أبي داود، حسن، ٢٥٤/١.

(١) المحرر الوجيز:١٩٤/١، ونقله أبو حيان في البحر:٢٩٦/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين: ١٨٢/١-١٨٣.
(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ: ١١، وتفسير القرطبي: ٦٨/٢.
(٤) انظر: معاني القرآن: ١/ ٦٤ - ٦٥.
(٥) انظر: الحجة لأبي علي: ٢/ ١٩٢ - ٢٥٢.
(٦) تفسير الثعلبي:١٨٩/١-١٩٠.
(٧) التفسير البسيط: ٢٣٤/٣.
(٨) انظر: الحجة للقراء السبعة: ١٨٨/٢، والكلام بتمامه من: المحرر الوجيز: ١٩٣/١، وانظر: البحر المحيط: ٢٩٦/١.
(٩) انظر: تفسير القرطبي: ٦٨/٢.
(١٠) انظر: معاني القرآن: ١٩٠/١.
(١١) البيت لابن الاعرابي/ انظر: لسان العرب ومصباح المنير: مادة(عقب).
(١٢) انظر: تفسير القرطبي: ٦٨/٢.
(١٣) أخرجه الطبري(١٧٥٩):ص٤٧٦/٢.
(١٤) تفسير القرطبي:٦٨/٢.
(١٥) معاني القرآن للزجاج: ١٩٠/١.

والقراءة الثانية: بفتح النون الأولى في { نَنسخ }؛ وفتحها في { نَنسأها } مع الهمز بعد السين وهي قراءة ابن كثير و أبو عمرو، "بمعنى نؤخرها، من قولك : نسأت هذا الأمر أنسؤه نَسْأً ونَسَاء، إذا أخرته، وهو من قولهم : " بعته بنساء، يعني بتأخير، ومن ذلك قول طرفة بن العبد[1] :

لعمرك إن الموت ما أَنْسَأَ الفتى لكالطِّوَل المُرْخى وثِنْياه باليد

يعني بقوله: (أنسأ)، أخر.

ومنه قوله تعالى: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [التوبة : ٣٧] ومنه سمي بيع الأجل نسيئة، وقال أهل اللغة: أنسأ الله أجله ونسأ في أجله، أي أخر وزاد، وقال عليه الصلاة والسلام: "من سره النسء في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه"[2].

وممن قرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين، وقرأه جماعة من قراء الكوفيين والبصريين، وتأوله كذلك جماع من أهل التأويل"[3].

وتفسير الآية على هذه القراءة: " ما نبدل من آية أنزلناها إليك يا محمد، فنبطل حكمها ونثبت خطها، أو نؤخرها فنرجئها ونقرها فلا نغيرها ولا نبطل حكمها، نأت بخير منها أو مثلها.. وقد قرأ بعضهم ذلك : {ما ننسخ من آية أو تُنسها}، وتأويل هذه القراءة نظير تأويل قراءة من قرأ : {أو نُنسها}، إلا أن معنى(أو تُنسها)، أنت يا محمد"[4].

قال الشيخ ابن عثيمين: "وأما {ننسأها} فهو من (النسأ)؛ وهو التأخير؛ ومعناه: تأخير الحكم، أو تأخير الإنزال؛ أي أن الله يؤخر إنزالها، فتكون الآية لم تنزل بعد؛ ولكن الله سبحانه وتعالى أبدلها بغيرها"[5].

وقراءة الهمز على اختلاف وجوهها معناها التأخير، ويكون معنى الآية على هذا فيه أربعة أقوال[6]:

أحدها: نؤخر نسخها ونزولها، وهو قول عطاء[7].

والثاني: نمحها لفظاً وحكماً، وهو قول ابن زيد[8].

والثالث: نؤخر حكمها ونبقي تلاوتها، أو نؤخر تلاوتها ونبقي حكمها.

والرابع: نمضها فلا ننسخها، وهو ضعيف لقوله: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا} لأن ما أمضي وأُقِرَّ لا يقال فيه نأت بخير منه.

والقراءة الثالثة: بضم النون الأولى في (نُنسخ) وكسر السين؛ وضم النون في (نُنسها) بدون همز وهي قراءة ابن عامر وفيها وجهان[9]:

أحدهما: أن يكون: نسخ وأنسخ، بمعنى واحد.

والثاني: أنسخته: جعتله ذا نسخ، كما قال قوم للحجاج وقد صلب رجلا: أقبروا فلانا، أي اجعلوه ذا قبر، قال تعالى: {ثم أماته فأقبره} [عبس: ٢١].

---

(1)ديوانه : ٣١٨ (من أشعار الستة الجاهليين) من معلقته المشهورة . وروايتهم : " ما أخطأ الفتى " . والطول : حبل يطول للدابة لترعى وهي مشدودة فيه . وثنياه " طرفاء . أي إنه لا يفلت من حبال المنية ، وإن أخر في أجله . وما أصدق ما قال! ولكننا ننسى!

(2) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٣٧/٣، وتفسير الثعلبي:١٩٠/١.

(3) تفسير الطبري: ٤٧٦/٢-٤٧٧.

(4) تفسير الطبري: ٤٧٨/٢.

(5) تفسير ابن عثيمين: ١٨٢/١-١٨٣.

(6)انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٢٩٥/١، الدر المصون للسمين: ٣٣٧/١، شرح الهداية للمهدوي: ١٧٨/١، الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي: ٢٥٨/١.

(7)انظر: البحر المحيط: ٢٩٥/١، وأخرج الطبري بمعناه: (١٧٦٣):ص٤٧٧/٢.

(8) انظر: البحر المحيط: ٢٩٥/١، وأخرج الطبري بمعناه: (١٧٦٢):ص٤٧٦/٢.

(9) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٣٧/٣.

قال الطبري: فيكون المعنى: "ما ننسخك يا محمد نحن من آية - من:أنسختك فأنا أنسخك، وذلك خطأ من القراءة عندنا[١]، لخروجه عما جاءت به الحجة من الْقَرَأَة بالنقل المستفيض. وكذلك قراءة من قرأ(تُنسها) أو(تَنسها) لشذوذها وخروجها عن القراءة التي جاءت بها الحجة من قراء الأمة"[٢] [٣].

وأولى القراءات من قرأ : {أو نُنْسها} بمعنى : نتركها، "لأن الله جل ثناؤه أخبر نبيه ﷺ أنه مهما بدل حكما أو غيره، أو لم يبدله ولم يغيره، فهو آتيه بخير منه أو بمثله. فالذي هو أولى بالآية، إذْ كان ذلك معناها، أن يكون - إذ قدم الخبر عما هو صانع إذا هو غير وبدل حكم آية أن يعقب ذلك بالخبر عما هو صانع، إذا هو لم يبدل ذلك ولم يغير. فالخبر الذي يجب أن يكون عقيب قوله :{ما ننسخ من آية}، قوله : أو نترك نسخها، إذ كان ذلك المعروف الجاري في كلام الناس. مع أن ذلك إذا قرئ كذلك بالمعنى الذي وصفت، فهو يشتمل على معنى " الإنساء " الذي هو بمعنى الترك، ومعنى " النَّساء " الذي هو بمعنى التأخير. إذ كان كل متروك فمؤخر على حال ما هو متروك"[٤].

وقد حمل الرازي (النسيان) على معنى (الترك)، فقال: " الأكثرون حملوه على النسيان الذي هو ضد الذكر، ومنهم من حمل النسيان على الترك على حد قوله تعالى: {فنسى ولم نجد له عزما} [طه: ١٥٥] أي فترك وقال: {فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هاذا} [الأعراف: ٥١] أي نتركهم كما تركوا، والأظهر أن حمل النسيان على الترك مجاز، لأن المنسي يكون متروكا، فلما كان الترك من لوازم النسيان أطلقوا اسم الملزوم على اللازم وقرىء ننسها وننسها بالتشديد، وتنسها وتنسها على خطاب الرسول، وقرأ عبد الله: ما ننسك من آية أو ننسخها، وقرأ حذيفة: ما ننسخ من آية أو ننسكها"[٥].

وأنكر الطبري من قرأ : {أو نَنْسها}، إذا عني به النسيان، فقال: "وغير مستحيل في فطرة ذي عقل صحيح، ولا بحجة خبرٍ أن ينسي الله نبيه ﷺ بعض ما قد كان أنزله إليه. فإذْ كان ذلك غير مستحيل من أحد هذين الوجهين، فغير جائز لقائل أن يقول : ذلك غير جائز، وأما قوله : {ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك}، فإنه جل ثناؤه لم يخبر أنه لا يذهب بشيء منه، وإنما أخبر أنه لو شاء لذهب بجميعه، فلم يذهب به والحمد لله، بل إنما ذهب بما لا حاجة بهم إليه منه، وذلك أن ما نسخ منه فلا حاجة بالعباد إليه. وقد قال الله تعالى ذكره : {سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ} [الأعلى : ٦ - ٧]، فأخبر أنه ينسي نبيه منه ما شاء. فالذي ذهب منه الذي استثناه الله، فأما نحن، فإنما اخترنا ما اخترنا من التأويل طلب اتساق الكلام على نظام في المعنى، لا إنكار أن يكون الله تعالى ذكره قد كان أنسى نبيه بعض ما نسخ من وحيه إليه وتنزيله" [٦].

قوله تعالى:{ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}[البقرة:١٠٦]، "أي نأت بخير لكم منها"[٧].

قال الواحدي:" أي: أصلح لمن تعبّد بها، وأنفع لهم، وأسهل عليهم، وأكثر لأجرهم، لا أن آيةً خيرٌ من آية؛ لأن كلام الله عز وجل واحد، وكله خيرٌ"[١].

---

(١) القول للإمام الطبري.

(٢) تفسير الطبري: ٤٧٨/٢.

(٣)وقد ذكروا في قوله تعالى:{نُنْسِهَا}[البقرة:١٠٦]، عشر قراءات شاذة، وهي: ١-كقراءة ابن كثير وأبي عمرو إلا أنه بغير همز، ذكره أبو عبيد البكري في اللآلئ عن سعد بن أبي وقاص، قال ابن عطية وأبو حيان: (وأراه وَهِم). ٢-(تَنْسَاها) بفتح التاء بعدها نون ساكنة وسين مفتوحة من غير همز وهي قراءة سعد بن أبي وقاص والحسن ويحيى بن يعمر. ٣-كذلك إلا أنه بالهمز. ٤-كذلك إلا أنه بضم التاء وهي قراءة أبي حيوة. ٥-كذلك إلا أنه بغير همز وهي قراءة سعيد بن المسيب. ٦-(نُنْسئها) بضم نون المضارعة وسكون النون وكسر السين مع الهمز. ٧-(نُنَسَّها) بضم نون المضارعة وفتح النون وكسر السين مشددة، وبها قرأ الضحاك وأبو رجاء. ٨-(نُنْسِك) بضم نون المضارعة وسكون النون وكسر السين وكاف بعدها للخطاب، وهي قراءة أبيّ وابن مسعود. ٩-كذلك إلا أنه بفتح النون الثانية وتشديد السين مكسورة، تروى عن الضحاك وأبي رجاء. ١٠-كذلك إلا أنه بزيادة ضمير الآية بعد الكاف (نُنَسكها)، وهي قراءة حذيفة، وكذلك هي في مصحف سالم مولاه. انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٣١٩/١-٣٢٠، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٤٣/١، المحتسب لابن جني: ١٠٣/١، الدر المصون للسمين: ٣٣٥/١-٣٣٧.

(٤) تفسير الطبري:٤٧٨/٢-٤٧٩.

(٥) مفاتيح الغيب: ٦٣٧/٣.

(٦) تفسير الطبري: ٤٨٠/٢.

(٧) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

قال أبو حيّان: الظاهر أن خيراً هنا أفعل التفضيل ، والخيرية ظاهرة ، لأن المأتي به ، إن كان أخف من المنسوخ أو المنسوء ، فخيريته بالنسبة لسقوط أعباء التكليف ، وإن كان أثقل ، فخيريته بالنسبة لزيادة الثواب"(٢).
قال القرطبي: " لفظة "بخير" هنا صفة تفضيل، والمعنى بأنفع لكم أيها الناس في عاجل إن كانت الناسخة أخف، وفي آجل إن كانت أثقل، وبمثلها إن كانت مستوية" (٣).
قال الزجاج:" فأما ما يؤتى فيه بخير من المنسوخ فتمام الصيام الذي نسخ الإباحة في الإفطار لمن استطاع الصيام، ودليل ذلك قوله: [وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ][البقرة:١٨٥]، فهذا هو خير لنا كما قال اللَّه عزَّ وجلَّ، وأمَّا قوله {أَوْ مِثْلِهَا} أي نأْتي بآية ثوابها كثواب التي قبلها، والفائدة في ذلك أن يكون الناسخ اشهل في المأخذ من المنسوخ، والإيمان به أسوغ، والناس إليه أسرع، نحو القِبْلة التي كانت على جهة ثم أمر اللَّه النبي - ﷺ - بجعل البيت قبلةَ المسلمين وعدل بها عن القصد لبيت المقدس، فهذا - وإن كان السجود إلى سائر النواحي متساوياً في العمل والثواب، فالذي أمر الله به في ذلك الوقت كان الأصلح، والأدعى للعرب وغيرهم إلى الإسلام"(٤).
وقد اختلف أهل العلم في تفسير قوله تعالى:{نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}[البقرة:١٠٦]، على وجوه(٥):
أحدها: في المنفعة والرفق والرفعة. قاله ابن عباس(٦).
والثاني: أن معنى خير منها ، أي أخف منها ، بالترخيص فيها ، وهذا معنى قول قتادة(٧).
قال الماوردي:"فيكون تأويل الآية ، ما نغير من حكم آية فنبدله ، أو نتركه فلا نبدله ، نأت بخير لكم أيها المؤمنون حكماً منها ، إما بالتخفيف في العاجل ، كالذي كان من نسخ قيام الليل تخفيفاً ، وإما بالنفع بكثرة الثواب في الآجل ، كالذي كان من نسخ صيام أيام معدودات بشهر رمضان"(٨).
الثالث: أن معناه: الأصلح لكم. اختاره الرازي (٩).
الرابع: وقيل: أن لفظة"{خير}، في الآية مصدر، و{من} لابتداء الغاية"(١٠).
ضعّفه ابن عطية فقال:" ويقلق هذا القول لقوله تعالى أَوْ مِثْلِها إلا أن يعطف المثل على الضمير في مِنْها دون إعادة حرف الجر، وذلك معترض"(١١).
والراجح أن:" لفظة {خير} في الآية صفة تفضيل، والمعنى: بأنفع لكم أيها الناس في عاجل، إن كانت الناسخة أخف، وفي آجل، إن كانت أثقل، وبمثلها إن كانت مستوية"(١٢). والله أعلم.
قال أبو حيان:" وحكي عن ابن عباس أن في الآية تقديماً وتأخيراً تقديره : ما نبدل من حكم آية نأت بخير منها ، أي أنفع منها لكم ، أو مثلها. ثم قال : أو ننساها ، أي نؤخرها ، فلا ننسخها ولا نبدلها. وهذه الحكاية لا تصح عن ذلك الحبر ابن عباس ، إذ هي محيلة لنظم القرآن"(١٣).

---

(١) التفسير البسيط: ٣٣٣/٣.
(٢) البحر المحيط: ٢٩٦/١.
(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٦١/٢-٦٩. (بتصرف بسيط).
(٤) معاني القرآن: ١٩٠/١-١٩١.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ٤٨٢/٢-٤٨٣.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم: ٣٢٦/١ رقم ١٠٧٤، ونص كلام ابن عباس: (خير لكم في المنفعة وأرفق بكم)، وهو عند ابن جرير في جامع البيان: ٤٨١/٢ رقم: ١٧٧١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٧٠):ص٢٠٢/١.
(٨) النكت والعيون: ١٧١/١.
(٩) مفاتيح الغيب: ٦٤١/٣. قال الرازي: "وهذا أولى لأنه تعالى يصرف المكلف على مصالحه لا على ما هو أخف على طباعه، فإن قيل: لو كان الثاني أصلح من الأول لكان الأول ناقص الصلاح فكيف أمر الله به؟ قلنا: الأول أصلح من الثاني بالنسبة إلى الوقت الأول، والثاني بالعكس منه فزال السؤال".
(١٠) المحرر الوجيز: ١/!٩٤.
(١١)المحرر الوجيز: ١/!٩٤.
(١٢) المحرر الوجيز:١٩٤/١.
(١٣) البحر المحيط: ٢٩٦/١.

قوله تعالى:{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[البقرة:١٠٦]، " أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله عليم حكيم قدير، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان للعباد"[١].
قال محمد بن إسحاق: " أي لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك"[٢].

قال الزمخشري:" فهو يقدر على الخير ، وما هو خير منه ، وعلى مثله في الخير"[٣].
قال النسفي:" أي قادر فهو يقدر على الخير وعلى مثله"[٤].
قال الواحدي:" أي: من النسخ والتبديل وغيرهما"[٥].
قال البيضاوي:" فيقدر على النسخ والإتيان بمثل المنسوخ، أو بما هو خير منه"[٦].
قال البغوي:أي" من النسخ والتبديل ، لفظه استفهام ، ومعناه تقرير ، أي : إنك تعلم"[٧].
وقال القاسمي:" فهو يقدر على الخير، وما هو خير منه، وعلى مثله في الخير"[٨].
قال الطبري:" ألم تعلم يا محمد أني قادر على تعويضك مما نسخت من أحكامي ، وغيرته من فرائضي التي كنت افترضتها عليك ، ما أشاء مما هو خير لك ولعبادي المؤمنين معك ، وأنفع لك ولهم ، إما عاجلا في الدنيا ، وإما آجلا في الآخرة - أو بأن أبدل لك ولهم مكانه مثله في النفع لهم عاجلا في الدنيا وآجلا في الآخرة وشبيهه في الخفة عليك وعليهم ؟ فاعلم يا محمد أني على ذلك وعلى كل شيء قدير"[٩].
قال أبو السعود:" والمرادُ بهذا التقرير الاستشهادُ بعلمه بما ذكر على قدرتِهِ تعالَى على النسخ وعلى الإيتان بما هو خيرٌ من المنسوخ وبما هو مثله لأن ذلك من جملة الأشياء المقهورةِ تحت قدرته سبحانه فمِنْ علم شمولِ قدرتِه تعالى لجميعِ الأشياء علمُ قدرته على ذلك قطعاً"[١٠].
قال الراغب:" أي لا تحسبن أن تغييري الحكم حالاً فحالاً وإن لم آت بالثاني في الابتداء هو العجز ، فإن من علم قدرته على كل شي لا يظن ذلك ، وإنما يعتبر ذلك لا يرجع إلى مصلحة العباد ، وبدأ الأليق بهم في الوقت المتقدم الحكم المتقدم وفى الوقت المتأخر الحكم المتأخر"[١١].
قال ابن عثيمين:"يقرر الله المخاطَب، يعني أنك قد علمت قدرة الله على كل شيء؛ ومنها القدرة على النسخ"[١٢].
ويحتمل الإستفهام في قوله تعالى:{أَلَمْ تَعْلَمْ}[البقرة:١٠٦]، وجهين:
أحدهما: أن ظاهره الإستفهام المحظ، يفيد الأنكار. قاله ابن عطية[١٣].
والثاني: أن هذا الإستفهام معناه التقرير[١٤].
والراجح أن الإستفهام -هنا- معناه التقرير، ولا يحتاج إلى معادل ألبتة، "والاستفهام بمعنى التقرير كثير في كلامهم جداً، خصوصاً إذا دخل على النفي : {أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ}[العنكبوت:١٠]؟ {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}[التين:٨] ؟ {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا}[الشعراء:١٨]؟ {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى} [الضحى : ٦]؟ {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}[الإنشراح:١] ؟ فهذا كله استفهام لا يحتاج فيه إلى معادل ، لأنه إنما يراد به

---

(١) صفوة التفاسير: ٧٦/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٧١):ص٢٠٢/١.
(٣) الكشاف: ١٧٦/١.
(٤) تفسيرالنسفي: ١١٧/١.
(٥) التفسير البسيط: ٢٣٤/٣.
(٦) تفسير البيضاوي: ٩٩/١.
(٧) تفسير البغوي: ١٣٥/١.
(٨) محاسن التأويل: ٣٧١/١.
(٩) تفسير الطبري:٤٨٤/٢.
(١٠) تفسير أبي السعود: ١٤٣/١.
(١١) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٨٦/١.
(١٢) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٨٢/١.
(١٣) انظر: المحرر الوجيز: ١٩٤/١، وانظر: روح المعاني: ٣٥٤/١.
(١٤) انظر: البحر المحيط: ٢٩٦/١.

التقرير، والمعنى: قد علمت أيها المخاطب أن الله قادر على كل شيء ، فله التصرف في تكاليف عباده ، بمحو وإثبات وإبدال حكم بحكم ، وبأن يأتي بالأخير لكم وبالمماثل"[١].
وفي إفراد المخاطب في قوله تعالى:{أَلَمْ تَعْلَمْ}[البقرة:١٠٦]، وجوها:
أحدها: أن الحكمة في ذلك، "أنه ما من شخص إلا يتوهم أنه المخاطب بذلك ، والمنبه به ، والمقرر على شيء ثابت عنده ، وهو أن قدرة الله تعالى متعلقة بالأشياء ، فلن يعجزه شيء ، فإذا كان كذلك لم ينكر النسخ ، لأن الله تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه"[٢]. قاله أبو حيان.
والثاني: "إنما أفرده لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم أعلمهم، ومبدأ علمهم"[٣]. قاله الآلوسي.
والثالث: أن الإفراد كان أفاد المبالغة مع الاختصار[٤]. قاله الآلوسي.
واختلف في المخاطب في قوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة:١٠٦]، على وجوه:
أحدها: أن "الخطاب للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وأريد بطريق الكناية هو وأمته المسلمون"[٥]، لأن قال بعد ذلك في الآية التالية:"{ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}.
والثاني: أن الخطاب للسامع، أي لكل واقف عليه. قاله أبو حيان[٦].
والثالث: أن الخطاب لمنكري النسخ، "والمراد الاستشهاد بعلم المخاطب بما ذكر على قدرته تعالى على النسخ وعلى الإتيان بما هو خير أو مماثل لأن ذلك من جملة الأشياء المقهورة تحت قدرته سبحانه فمن علم شمول قدرته عز وجل على جميع الأشياء علم قدرته على ذلك قطعا"[٧].

قال المراغي: و"الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد غيره من المؤمنين الذين ربما كان يؤذيهم ما كان يعترض به اليهود وغيرهم على النسخ ، وضعيف الإيمان يؤثر في نفسه أن يعاب ما يأخذ به ، فيخشى عليه من الركون إلى الشبهة أو تدخل في قلبه الحيرة ، فجاء ذلك تثبيتا لهم وتقوية لإيمانهم ، ببيان أن القادر على كل شيء لا يستنكر عليه نسخ الأحكام ، لأنها مما تتناولها قدرته"[٨].
قال الآلوسي:" والالتفات بوضع الاسم الجليل موضع الضمير، لتربية المهابة، ولأنه الاسم العلم الجامع لسائر الصفات، ففي ضمنه صفة القدرة فهو أبلغ في نسبة القدرة إليه من ضمير المتكلم المعظم"[٩].
قال ابن عطية:" ومعنى الآية أن الله تعالى ينسخ ما يشاء ويثبت ما يشاء ويفعل في أحكامه ما يشاء، هو قدير على ذلك وعلى كل شيء، وهذا لإنكار اليهود النسخ، وقوله تعالى {عَلى كُلِّ شَيْءٍ}، لفظ عموم معناه الخصوص، إذ لم تدخل فيه الصفات القديمة بدلالة العقل ولا المحالات لأنها ليست بأشياء، والشيء في كلام العرب الموجود"[١٠].

قال ابن كثير:" يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، فله الخلق والأمر وهو المتصرف ، فكما خلقهم كما يشاء ، ويسعد من يشاء ، ويشقي من يشاء ، ويصح من يشاء ، ويمرض من يشاء ، ويوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء ، كذلك يحكم في عباده بما يشاء ، فيحل ما يشاء ، ويحرم ما يشاء ، ويبيح ما يشاء ، ويحظر ما يشاء ، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى ، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى.. فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا. وامتثال

---

[١] البحر المحيط: ٢٩٦/١-٢٩٧.
[٢] البحر المحيط: ٢٩٧/١.
[٣] روح المعاني: ٣٥٣/١.
[٤] انظر: روح المعاني: ٣٥٣/١.[بتصرف بسيط].
[٥] روح المعاني: ٣٥٣/١.
[٦] البحر المحيط: ٢٩٦/١.
[٧] روح المعاني: ٣٥٣/١.
[٨] تفسير المراغي:١٨٨/١.
[٩] روح المعاني: ٣٥٣/١.
[١٠] المحرر الوجيز: ١٩٤/١.

ما أمروا. وترك ما عنه زجروا. وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم الله- في دعوى استحالة النسخ إما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفرا ،ً وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكا"[١].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: ثبوت النسخ، وأنه جائز عقلاً، وواقع شرعاً؛ وهذا ما اتفقت عليه الأمة إلا أبا مسلم الأصفهاني؛ فإنه زعم أن النسخ مستحيل؛ وأجاب عما ثبت نسخه بأن هذا من باب التخصيص؛ وليس من باب النسخ؛ وذلك لأن الأحكام النازلة ليس لها أمد تنتهي إليه؛ بل أمدها إلى يوم القيامة؛ فإذا نُسِخت فمعناه أننا خصصنا الزمن الذي بعد النسخ . أي أخرجناه من الحكم .؛ فمثلاً: وجوب مصابرة الإنسان لعشرة حين نزل كان واجباً إلى يوم القيامة شاملاً لجميع الأزمان؛ فلما نُسخ أخرج بعض الزمن الذي شمله الحكم، فصار هذا تخصيصاً؛ وعلى هذا فيكون الخلاف بين أبي مسلم وعامة الأمة خلافاً لفظياً؛ لأنهم متفقون على جواز هذا الأمر؛ إلا أنه يسميه تخصيصاً؛ وغيره يسمونه نسخاً؛ والصواب تسميته نسخاً؛ لأنه صريح القرآن: { ما ننسخ من آية أو ننسها }؛ ولأنه هو الذي جاء عن السلف.

٢. ومن فوائد الآية: أن الناسخ خير من المنسوخ؛ لقوله تعالى: { نأت بخير منها }؛ أو مماثل له عملاً . وإن كان خيراً منه مآلاً .؛ لقوله تعالى:{أو مثلها}.

٣. ومنها: أن أحكام الله سبحانه وتعالى تختلف في الخيرية من زمان إلى زمان؛ بمعنى أنه قد يكون الحكم خيراً للعباد في وقت؛ ويكون غيره خيراً لهم في وقت آخر..

٤. ومنها: عظمة الله عز وجل لقوله تعالى: { ما ننسخ }: فإن الضمير هنا للتعظيم؛ وهو سبحانه وتعالى أهل العظمة..

٥. . ومنها: إثبات تمام قدرة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: { ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير }؛ ومن ذلك أنه قادر على أن ينسخ ما يشاء..

٦. ومنها: أن قدرة الله عامة شاملة؛ لقوله تعالى: (أن الله على كل شيء قدير).

٧. ومنها: أن القادر على تغيير الأمور الحسية قادر على تغيير الأمور المعنوية؛ فالأمور القدرية الكونية الله قادر عليها؛ فإذا كان قادراً عليها فكذلك الأمور الشرعية المعنوية؛ وهذا هو الحكمة في قوله تعالى: { ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير } بعد ذكر النسخ..

٨.ومنها: أن الشريعة تابعة للمصالح؛ لأن النسخ لا يكون إلا لمصلحة؛ فإن الله لا يبدل حكماً بحكم إلا لمصلحة..

قد يقول قائل: ما الفائدة إذاً من النسخ إذا كانت مثلها والله تعالى حكيم لا يفعل شيئاً إلا لحكمة؟

فالجواب: أن الفائدة اختبار المكلف بالامتثال؛ لأنه إذا امتثل الأمر أولاً وآخراً، دل على كمال عبوديته؛ وإذا لم يمتثل دل على أنه يعبد هواه، ولا يعبد مولاه؛ مثال ذلك: تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ هذا بالنسبة للمكلف ليس فيه فرق أن يتجه يميناً، أو شمالاً؛ إنما الحكمة من ذلك اختبار المرء بامتثاله أن يتجه حيثما وجه؛ أما المتجَه إليه، وكونه أولى بالاتجاه إليه فلا ريب أن الاتجاه إلى الكعبة أولى من الاتجاه إلى بيت المقدس؛ ولهذا ضل من ضل، وارتد من ارتد بسبب تحويل القبلة: قال الله تعالى: {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ﷺ ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله} [البقرة: ١٤٣] ؛ فالإنسان يبتلى بمثل هذا النسخ؛ إن كان مؤمناً عابداً لله قال: سمعت وأطعت؛ وإن كان سوى ذلك عاند، وخالف: يقول: لماذا هذا التغيير! فيتبين بذلك العابد حقاً، ومن ليس بعابد.

٩. ومن فوائد الآية: أن الله تعالى وعد بأنه لا يمكن أن ينسخ شيئاً إلا أبدله بخير منه، أو مثله؛ ووعده صدق..

١٠. ومنها: ذكر ما يطمئن به العبد حين يخشى أن يقلق فكره؛ لقوله تعالى: {ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها}.

القرآن

([١]) تفسير ابن كثير: ٣٧٨/١.

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)} [البقرة : ١٠٧]

التفسير:

أما علمتَ -أيها النبي- أنت وأمتك أن الله تعالى هو المالك المتصرف في السموات والأرض؟ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويأمر عباده وينهاهم كيفما شاء، وعليهم الطاعة والقَبول. وليعلم من عصى أن ليس لأحد من دون الله من وليٍّ يتولاهم، ولا نصير يمنعهم من عذاب الله.

قوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[البقرة:١٠٧]، ألم تعلم يا محمد، " أن الله وحده الذي له ملك السموات"[١].

قال الصابوني:" أي ألم تعلم أن الله هو المالك المتصرف في شئون الخلق يحكم بما شاء ويأمر بما شاء؟"[٢].

قال القرطبي: أي "بالإيجاد والاختراع، والملك والسلطان، ونفوذ الأمر والإرادة.. والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته"[٣].

قال الواحدي:أي" أنه يملك السماوات والأرض ومن فيهن، وهو أعلم بوجه الصلاح فيما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ"[٤].

قال الشوكاني: "أي له التصرف في السموات والأرض بالإيجاد، والاختراع، ونفوذ الأمر في جميع مخلوقاته، فهو أعلم بمصالح عباده، وما فيه النفع لهم من أحكامه التي تعبدهم بها، وشرعها لهم، وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال، والأزمنة، والأشخاص"[٥].

قال ابن عثيمين:" أي أن الله وحده الذي له ملك السموات، والأرض: ملك الأعيان، والأوصاف، والتدبير؛ فأعيان السموات، والأرض، وأوصافها ملك لله؛ و"التدبير" يعني أنه تعالى يملك التدبير فيها كما يشاء: لا معارض له، ولا ممانع"[٦].

قال المراغي: فالله تعالى "له ملك السموات والأرض وهما تحت قبضته والعباد أهل مملكته وطاعته، عليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، فله أن ينسخ ما شاء من الأحكام، ويقرر ما شاء منها بحسب ما يرى من الفائدة"[٧].

قال أبو السعود:" ألم تعلمَ أَنَّ الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلي فيهما إيجاداً وإعداماً وأمراً ونهياً حسبما تقتضيهِ مشيئتُه لا مُعارِضَ لأمره ولا معقِّبَ لحُكمه فَمْن هذا شأنُه كيف يخرُج عن قدرته شئ من الأشياء"[٨].

---

(١) تفسير ابن عثيمين:٣٥١/١.
(٢) صفوة التفاسير: ٧٦/١.
(٣) تفسير القرطبي: ٦٩/٢.
(٤) التفسير البسيط:٢٣٥/٣.
(٥) تفسير فتح القدير: ١٢٧/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين:٣٥١/١.
(٧)تفسير المراغي:١/ ١٨٩
(٨) تفسير أبي السعود:١٤٣/١. ونقله بتمامه الآلوسي في روح المعاني: ٣٥٣/١.

قال الآلوسي:" فيكون الكلام على هذا كالدليل لما قبله في إفادة البيان، فيكون منزلا منزلة عطف البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح، فلذا ترك العطف وجوّز أن يكون تكريرا للأول وإعادة للاستشهاد على ما ذكر"(١).

وخص{السَّماواتِ وَالْأَرْضِ} بالملك، لكونهما من أعظم المخلوقات الظاهرة، ولأن كل مخلوق لا يخلو عن أن يكون في إحدى هاتين الجهتين فكان في الاستيلاء عليهما إشارة إلى الاستيلاء على ما اشتملا عليه(٢).

قال الزجاج:" ومعنى(الملك) في اللغة: تمام القدرة واستحكامها.. ومعنى الآية: إِن اللَّه يَمْلك السَّمَاوَات والأرض ومن فيهن فهو أعلم بوجه الصلاح فيما يتعبدهم به، من ناسخ ومنسوخ ومتروك وغيره"(٣).

وفي تكرار قوله:{ألم تعلم}، وترك العطف، على الأول، وجهان:

احدهما:أنه "تقريرٌ مستقل للاستشهاد على قدرتِهِ تعالَى على جميع الأشياء"(٤).

قال الراغب: "إنه لا جعل حكم الثاني كالعلة للأول، أخرجه مخرج الأول ، فكأنه قيل : هو على كل شي قدير، لأن له ملك السماوات والأرض"(٥).

والثاني: وقيل:" وإنما لم يعطَفْ أن مع ما في حيزها على ما سبق من مثلها روما لزيادة التأكيد وإشعاراً باستقلال العلم بكلَ منهما وكفايتِه في الوقوف على ما هو المقصودُ "(٦).

قوله تعالى:{ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}[البقرة:١٠٧]، " أي: ما لكم وليٌّ يرعى شئونكم أو ناصر ينصركم غير الله تعالى فهو نعم الناصر والمعين"(٧).

قال الواحدي:" تحذير العباد من عذابه، إذ لا مانع منه"(٨).

قال البيضاوي:" وإنما هو الذي يملك أموركم ويجريها على ما يصلحكم، والفرق بين الولي والنصير. أن الولي قد يضعف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور فيكون بينهما عموم من وجه"(٩).

قال المراغي:" أي ناصركم ومعينكم هو الله وحده فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به ، وليس في استطاعته أن يلحق بكم أذى"(١٠).

قال الشوكاني:"وهذا صنع من لا وليّ لهم غيره، ولا نصير سواه، فعليهم أن يتلقوه بالقبول، والامتثال، والتعظيم، والإجلال"(١١).

قال البغوي:" {مِنْ وَلِيٍّ}: قريب وصديق، وقيل : من وال وهو القيم بالأمور، {وَلا نَصِيرٍ}، أي: ناصر يمنعكم من العذاب"(١٢).

قال الراغب:" الولي: يقال تارة لمن له موالاة نسبية أو خلف ، وتارة لمن له ولاية سلطانية ، وإنما ذكر (الولي والنصير)، وهما متقاربان بالعنف ، لأنه قد ينفك الولي من النصرة بأن يكون ضعيفاً ، والنصير من الولاية بأن يكون عن المنصور أجنبياً"(١٣).

قال الآلوسي:"والولي: المالك، والنصير: المعين، والفرق بينهما أن المالك قد لا يقدر على النصرة أو قد يقدر ولا يفعل، والمعين قد يكون مالكا وقد لا يكون- بل يكون أجنبيا"(١).

---

(١) روح المعاني:٣٥٣/١.
(٢)انظر: روح المعاني:٣٥٣/١.
(٣) معاني القرآن: ١٩١/١.
(٤) تفسير أبي السعود:١٤٣/١.
(٥) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٨٩/١.
(٦) تفسير أبي السعود:١٤٣/١، والكلام بتمامه في روح المعاني: ٣٥٣/١.
(٧) صفوة التفاسير: ٧٦/١.
(٨) التفسير البسيط:٢٣٥/٣.
(٩) تفسير البيضاوي: ١٠٠/١.
(١٠) تفسير المراغي: ١٨٩/١.
(١١) تفسير فتح القدير: ١٢٧/١.
(١٢) تفسير البغوي: ١٣٥/١.
(١٣) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٨٨/١.

بما تعلق به من العلم على تعلُّق إرادتِه تعالى بما ذُكر من الإتيان بما هو خيرٌ من المنسوخ أو بمثله فإن مجرَّد قدرته تعالى على ذلك لا يستدعي حصولَه ألبتة وإنما الذي يستدعيه كونُه تعالى مع ذلك ولياً ونصيراً لهم فمن علم أنه تعالى وليُّه ونصيرُه على الاستقلال يعلم قطعاً أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فيفوِّضُ أمرَه إليه تعالى ولا يخطُر بباله ريبةٌ في أمر النسخ وغيرِه أصلاً "[٢].

قال أبو حيان: "انتقل من ضمير الإفراد في الخطاب إلى ضمير الجماعة[٣]، وناسب الجمع هنا، لأن المنفي بدخول من عليه صار نصاً في العموم، فناسب كون المنفي عنه يكون عاماً أيضاً، كان المعنى : وما لكل فرد منكم فرد فرد{مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}...ولما كانت الجملتان الأوليان للتقرير، وهو إيجاب من حيث المعنى، ناسب أن تكون الجملة الثالثة نفياً للولي والناصر، أي أن الأشياء التي هي تحت قدرة الله وسلطانه واستيلائه، فالله تعالى لا يحجزه عما يريد بها شيء، ولا مغالب له تعالى فيما يريد" [٤].

وإن قيل: أو لم يكن رسول الله ﷺ يعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنه له ملك السموات والأرض، حتى قيل له ذلك ؟ قيل : عن هذا ثلاثة أجوبة[٥] :

أحدها : أن قوله: {ألم تعلم}، بمعنى: أعلمت .

والثاني : أنه خارج مخرج التقرير ، لا مخرج الاستفهام . كما قال الله تعالى{وَإِذْ قَالَ : اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَم أَنتَ قُلْتَ لِلْنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ} [المائدة : ١١٦]، خرج مخرج التقرير لا مخرج الاستفهام .

والثالث : أن هذا الخطاب للنبي - ﷺ-، والمراد به أمته ، ألا تراه قال بعد ذلك {وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}، فإن "جمع الضمير في {لَكُمْ}، دال على أن المراد بخطاب النبي ﷺ خطاب أمته"[٦].

والأقرب: أن الكلام قد أخرج الكلام مخرج التقرير" لكونه أبلغ في حكم الخطابة"[٧]، وذلك كقول جرير[٨]:

أَلَسْتم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أي: أنتم كذلك.

كما أن هذا الخطاب للنبي - ﷺ-، والمراد به أمته، ونظير ذلك قول الكميت بن زيد في مدح رسول الله ﷺ[٩]:

إلى السراج المنير أحمد، لا يَعْدِلني رغبة ولا رهب

عنه إلى غيره ولو رفع النـ اس إليّ العيونُ وارتقبوا

وقيل : أفرطتَ! بل قصدتُ ولو عنفني القائلون أو ثَلَبُوا

لج بتفضيلك اللسان، ولو أكثر فيك الضِّجاج واللجَب

أنت المصفي المحض المهذب في النـ سبة، إن نص قومَك النسب

فأخرج كلامه على وجه الخطاب للنبي ﷺ، وهو قاصد بذلك أهل بيته.

وكما قال جميل بن معمر[١]:

([١]) روح المعاني: ٣٥٣/١، وانظر: تفسير أبي السعود:١٤٤/١.
([٢]) تفسير أبي السعود:١٤٤/١، ونقله بتمامه الآلوسي في روح المعاني: ٣٥٣/١.
([٣]) ضمير الإفراد في: {أَلَمْ تَعْلَمْ}، إلى ضمير الجماعة في: {وَمَا لَكُمْ}.
([٤]) تفسير البحر المحيط: ٥١٥/١.
([٥]) انظر: النكت والعيون: ١٧٢/١.
([٦]) المحرر الوجيز: ١٩٥/١.
([٧]) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٨٩/١.
([٨]) ديوانه: ٨٥، وانظر: المجموع شرح المهذب:١٠/ ٢٩٨، والمعجم المفصل: ٢/ ١٣٣، وانظر ٢/ ٣٦٣.
([٩])الهاشميات : ٣٤ ، والحيوان للجاحظ ٥ : ١٧٠ - ١٧١ .

ألا إن جيراني العشية رائح	دعتهم دواع من هوى ومنادح

فقال : " ألا إن جيراني العشية " فابتدأ الخبر عن جماعة جيرانه، ثم قال : " رائح"، لأن قصده - في ابتدائه ما ابتدأ به من كلامه - الخبر عن واحد منهم دون جماعتهم، وكما قال جميل أيضا في كلمته الأخرى[٢]:

خليلي فيما عشتما، هل رأيتما	قتيلا بكى من حب قاتله قبلي

وهو يريد قاتلته، لأنه إنما يصف امرأة، فكنى باسم الرجل عنها، وهو يعنيها.

فكذلك قوله:{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وإن كان ظاهر الكلام على وجه الخطاب للنبي ﷺ، فإنه مقصود به قصد أصحابه. وذلك بين بدلالة قوله:{وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}{أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ} الآيات الثلاث بعدها - على أن ذلك كذلك[٣].

قال الراغب:" وإنما خص النبي - ﷺ - بقوله : {ألم تعلم}، وإن كان الخطاب له ولغيره، لذكره العلم ولا أحد من البشر أعلم بذلك منه- عليه السلام- ، أو قد وقف من أسرار ملكوت السموات والأرض على ما لم يوقف عليه غيره"[٤].

وقوله تعالى:{مِنْ دُونِ اللَّهِ}[البقرة:١٠٧]، فإنه سوى الله، وبعد الله، ومنه قول أمية بن أبي الصلت[٥] :

يا نفس مالك دون الله من واقي	وما على حدثان الدهر من باقي

يريد : مالك سوى الله وبعد الله من يقيك المكاره[٦].

قال الراغب:" وقوله : {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّه}.إذا تصور خطاباً للكفار اقتضى وعيدا أي لأولي وناصر يحميكم عنه نحو قوله تعالي.

{إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ} إدا تصور خطابة للمؤمنين اقتضى تسكيناً لهم أي لا تعتدوا بمن يواليكم وينصركم سواه ، كقوله : {ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ} ، وإذا اعتبر بهما فالمعنيان فيهما موجودان أي لا تعتقدوا أن لكم ولياً وناصراً إذا لم يكن الله وليكم تنبيها أنه تعالي هو الذي لا يمكن تصور ولي وناصر مع تصور ارتفاعه عز وجل"[٧].

وقراءة الجماعة (وَلَا نَصِيرٍ) بالخفض عطفا على (ولي) ويجوز (وَلَا نصيرُ) بالرفع عطفا على الموضع، لأن المعنى ما لكم من دون الله ولي ولا نصير[٨].

قال أبو حيان:"وتضمنت هاتان الجملتان[٩] التقرير على الوصفين اللذين بهما كمال التصرف، وهما : القدرة والاستيلاء، لأن الشخص قد يكون قادراً، بمعنى أن له استطاعة على فعل شيء، لكنه ليس له استيلاء على ذلك الشيء، فينفذ فيه ما يستطيع أن يفعل، فإذا اجتمعت الاستطاعة وعدم المانعية، كمل بذلك التصرف مع الإرادة، وبدأ بالتقرير على وصف القدرة، لأنه آكد من وصف الاستيلاء والسلطان"[١٠].

الفوائد:

---

(١)لم أجد البيت فيما طبع من شعر جميل ، ولا فيما جمعته منه . والمنادح : البلاد الواسعة البعيدة . كأنهما جمع مندوحة ، حذفت ياؤه . وقال تميم بن أبي بن مقبل . وإني إذا ملت ركابي مناخها ... ركبت ، ولم تعجز على المنادح وربما حسن أن يقال : إنه جمع لا واحد له من لفظه ، كمحاسن مشابه ، والواحد من ذلك ندح وجمعه أنداح : وهو ما اتسع من الأرض .

(٢)الأمالي ٢ : ٧٤ ، والأغاني ١ : ١١٧ ، ٧ : ١٤٠ ، وهي قصيدة من جيد شعر جميل .

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٨٤/٢-٤٨٧.

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٨٩/١.

(٥)ديوانه : ٤٣ . ومثله قول ابن أحمر :

إن نحن إلا أناس أهل سائمة	وما لهم دونها حرث ولا غُرر

يريد : ليس لنا مال سوى السائمة ، فليس لنا زرع ولا خيل .

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٤٨٩/٢.

(٧) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٨٨/١-٢٨٩.

(٨) تفسير القرطبي: ٦٩/٢.

(٩) أي: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وَ(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ).

(١٠) تفسير البحر المحيط: ٥١٥/١.

١. من فوائد الآية: تقرير عموم ملك الله؛ لقوله تعالى: { ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض }؛ ولا يرد على هذا إضافة الملك للإنسان، كما في قوله تعالى: {أو ما ملكت أيمانكم} [النساء: ٣] ؛ فإن هذه الإضافة ليست على سبيل الإطلاق؛ لأن ملك الإنسان للأشياء ملك محدود، وناقص، وقاصر؛ محدود من حين استيلائه عليه إلى أن يخرج عن ملكه ببيع، أو هبة، أو موت، أو غير ذلك؛ كذلك هو ناقص: فهو لا يملك التصرف فيه كما يشاء؛ بل تصرفه مقيد بما يباح له شرعاً؛ ولهذا لو أراد أن يحرق ملكه لم يملك ذلك؛ كذلك أيضاً ملك الإنسان قاصر؛ فهو لا يملك إلا ما تحت يده؛ فلا يشمل ملك الآخرين..

٢. ومن فوائد الآية: اختصاص ملك السموات، والأرض بالله؛ وهذا مأخوذ من تقديم الخبر، حيث إن تقديم الخبر يدل على الحصر؛ لقوله تعالى: { له ملك السموات والأرض }..

٣. ومنها: أن من ملك الله أنه ينسخ ما يشاء، ويثبت؛ فكأن قوله تعالى: { ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض } تعليل لقوله تعالى: { ما ننسخ من آية }؛ فالمالك للسموات والأرض يتصرف فيهما كما شاء..

٤. ومنها: أنه لا أحد يدفع عن أحد أراد الله به سوءاً؛ لقوله تعالى: { وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير}.

٥. ومنها: أنه يجب على المرء أن يلجأ إلى ربه في طلب الولاية، والنصر..

فإذا قال قائل: إن الله سبحانه وتعالى يقول: {هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين} [الأنفال: ٦٢] ، ويقول تعالى: {إلا تنصروه فقد نصره الله} [التوبة: ٤٠] ؛ فأثبت نصراً لغير الله..

فالجواب: أن إثبات النصر لغير الله إثبات للسبب فقط؛ وليس نصراً مستقلاً؛ والنصر المستقل من عند الله؛ أما انتصار بعضنا ببعض فإنه من باب الأخذ بالأسباب؛ وليس على وجه الاستقلال..

٦. ومن فوائد الآية: أن ما يريده الإنسان فهو إما جلب منفعة يحتاج إلى ولي يجلبها له؛ وإما دفع مضرة يحتاج إلى نصير يدفعها عنه..

القرآن

{أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)} [البقرة : ١٠٨]

التفسير:

بل أتريدون- أيها الناس- أن تطلبوا من رسولكم محمد ﷺ أشياء بقصد العناد والمكابرة، كما طُلِبَ مثل ذلك من موسى. علموا أن من يختر الكفر ويترك الإيمان فقد خرج عن صراط الله المستقيم إلى الجهل والضَّلال.

اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله أنزلت هذه الآية، على أقوال[١]:

أحدها: قال ابن عباس : "قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، وفجر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك! فأنزل الله في ذلك من قولهما:{أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ}، الآية[٢].

والثاني: أخرج الطبري وابن أبي حاتم، عن السدي : "{أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ}، أن يريهم الله جهرة. فسألت العرب رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالله فيروه جهرة"[٣]. وروي عن قتادة[٤] مثل ذلك.

والثالث: قال مجاهد:" سألت قريش محمدا أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، فقال : " نعم! وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم! فأبوا ورجعوا ، فأنزل الله : {أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل}، أن يريهم الله جهرة"[٥]. وذكر الواحدي عن ابن عباس[٦] نحو ذلك.

---

[١] انظر: أسباب النزول للواحدي: ٣٤-٣٥، وتفسير الطبري: ٢/ ٤٨٩- ٤٩١.

[٢]أخرجه الطبري(١٧٧٧):ص٢/٤٨٩-٤٩٠، وابن أبي حاتم(١٠٧٤):ص٢٠٢/١، وانظر: سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٧.

[٣] تفسير الطبري(١٧٧٨):ص٢/٤٩٠، وابن أبي حاتم(١٠٧٧):ص٢٠٣/١.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٩):ص٢/٤٩٠، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٠٣/١.

[٥]أخرجه الطبري(١٧٨١)، وانظر: (١٧٨٠)، و(١٧٨٢):ص٢/٤٩٠-٤٩١، وابن أبي حاتم(١٠٧٥):ص٢٠٣/١.

[٦] انظر: أسباب النزول: ٣٤. وفيه:" قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي أمية ورهط من قريش، قالوا: يا محمد اجعل لنا الصفا ذهبا، ووسع لنا أرض مكة، وفجر الأنهار خلالها تفجيرا نؤمن بك، فأنزل الله تعالى هذه الآية".

والرابع: قال ابن حجر: "وحكى ابن ظفر أنه قيل: إنها نزلت في من قال من المسلمين لما رأوا شجرة يقال لها ذات أنواط فقالوا يا رسول الله: اجعل لنا ذات أنواط. فقال: هذا كقول قوم موسى {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}[الأعراف:١٦٨]، قال ابن ظفر: لأن التبرك بالشجر واتخاذها عيدا يستدرج من يجيء بعدهم إلى عبادتها"[١].

والخامس: قال أبو العالية: "قال رجل : يا رسول الله ، لو كانت كفاراتنا كفارات بني إسرائيل! فقال النبي ﷺ : " اللهم لا نبغيها! ما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل ، كانت بنو إسرائيل إذا فعل أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها ، فإن كفرها كانت له خزيا في الدنيا ، وإن لم يكفرها كانت له خزيا في الآخرة ، وقد أعطاكم الله خيرا مما أعطى بني إسرائيل ، قال :{وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء : ١١٠]. قال : وقال:" الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ، كفارات لما بينهن "[٢]. وقال : " من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها ، ولا يهلك على الله إلا هالك "[٣]، فأنزل الله : {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ}"[٤].

قال ابن حجر: " وأولى بأن يكون سببا لنزول هذه الآية وهو ما أخرجه ابن أبي حاتم[٥] بسند قوي عن أبي العالية"[٦]، ثم ذكر الخبر.

قال الإمام ابن كثير: "نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة ، عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها ، كما قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ } [المائدة : ١٠١] أي : وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم ، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه ؛ فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء في الصحيح : "إن أعظم المسلمين جُرْمًا من سأل عن شيء لم يحرم ، فحرم من أجل مسألته"[٧]، ولما سُئِل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلا فإن تكلم تكلم بأمر عظيم ، وإن سكتَ سكتَ على مثل ذلك ؛ فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، ثم أنزل الله حكم

([١]) العجاب في بيان الأسباب: ٣٥٣/١.
قلت: ومثل هذا لا يصلح أن يستند إليه في سبب النزول؟
إذ لم أجد ذكرا عن هذا السبب في: تفسير مقاتل والطبري وابن أبي حاتم والسمرقندي والماوردي والزمخشري وابن عطية وابن الجوزي، والقرطبي والخازن وابن كثير والسيوطي ورشيد رضا وسعيد حوى.
وقد ذكره الرازي "٣/ ٢٥٤" وأبو حيان "١/ ٣٤٦" مثل ما هنا وذكره الآلوسي "١/ ٣٥٥" بزيادة منها أن ذلك في غزوة خيبر، ولم ينسبوه إلى قائل معين، والثلاثة بعد ابن ظفر.
وهذا الحديث يرويه ابن إسحاق -كما في "السيرة" لابن هشام "ق٢/ ٤٤٢" وأحمد بن حنبل ٥"/ ٢١٨"، والترمذي في "السنن" "كتاب الفتن "٣/ ٣٢١-٣٢٢" وقال: حسن صحيح -والنسائي في "الكبرى"- كتاب التفسير كما في "تحفة الأشراف" "١١/ ١١٢" "١٥٥١٦" أربعتهم عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الدؤلي ثم الجندعي عن أبي واقد الليثي "أنهم خرجوا عن مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها "ذات أنواط" قال: "فمررنا بسدرة خضراء عظيمة. قال: فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا إلها ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: "قلتم والذي نفسي بيده، كما قال قوم موسى {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} إنها لسنن، لتركبن سنن من كان قبلكم سنة سنة". واللفظ لأحمد قال ابن كثير في تفسير هذه الآية [١٣٨ من الأعراف] : ورواه ابن أبي حاتم من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده مرفوعًا ولم يذكر في هذا الحديث -كما هو واضح- نزول آية.
([٢]) صحيح مسلم(٢٣٣):ص٢٠٩/١، والترمي(٢١٤):ص٤١٩/١.
([٣]) صحيح مسلم(١٣١):ص١١٨/١، وسنن الدارمي(٢٧٨٦):ص٤١٤/٢، والمعجم الكبير(١٢٧٦٠):١١٦٢/١٢.
([٤]) أخرجه الطبري(١٧٨٣):ص٤٩١/٢، وابن أبي حاتم(١٠٧٦):ص٢٠٣/١، وهذا حديث مرسل ، من مراسيل أبي العالية . وقد نقله ابن كثير ١ : ٢٧٩ ، عن الطبري . ونقله السيوطي ١ : ١٠٧ ، ونسبه للطبري وابن أبي حاتم . وأبو العالية الرياحي : ثقة من كبار التابعين ، كما قلنا في : ١٨٤ . ونزيد هنا أنه مترجم في التهذيب والكبير ٢٩٨/١/٢ ، والصغير : ١٠٩ ، وابن سعد ٧ /١/ ٨١ - ٨٥ ، والإصابة ٢ : ٢٢١ . ولكن الاحتجاج بحديثه - كغيره من التابعين فمن بعدهم - هو في الإسناد المتصل ، أما المرسل والمنقطع ، فلا حجة فيهما .
([٥])انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٧٦):ص٢٠٣/١، وأخرجه الطبري(١٧٨٣):ص٤٩١/٢. وهو حديث مرسل كما سبق.
([٦]) العجاب في بيان الأسباب: ٣٥٢/١.
([٧]) صحيح البخاري برقم (٧٢٨٩) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

الملاعنة[١]، ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة : أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال[٢]، وفي صحيح مسلم : "ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه"[٣]، وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج. فقال رجل : أكُل عام يا رسول الله ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثًا. ثم قال ، عليه السلام : "لا ولو قلت : نعم لوجَبَتْ ، ولو وَجَبَتْ لما استطعتم". ثم قال : "ذروني ما تركتكم" الحديث. وهكذا قال أنس بن مالك : نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء ، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع[٤].

وأخرج الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده : عن البراء بن عازب ، قال : "إن كان ليأتي علَيَّ السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن شيء فأتهيب منه ، وإن كنا لنتمنى الأعراب، وقال البزار : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا ابن فضيل ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : ما رأيت قوما خيرا من أصحاب محمد ﷺ ، ما سألوه إلا عن ثنْتَي عشرة مسألة ، كلها في القرآن : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ } [البقرة : ٢١٩] ، و { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ } [البقرة : ٢١٧] ، و { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى } [البقرة : ٢٢٠] يعني : هذا وأشباهه"[٥]"

فيمكن القول بأن الأسئلة المنهية عنها هي أسئلة التعنت والاعتراض[٦]، كما قال تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء : ١٥٣]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [المائدة : ١٠١]، فهذه ونحوها، هي المنهي عنها، وأما سؤال الاسترشاد والتعلم، فهذا محمود قد أمر الله به كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل : ٤٣]، ويقررهم عليه، كما في قوله {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [البقرة : ٢١٩] و {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة : ٢٢٠]، ونحو ذلك، ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر، قال: {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [البقرة : ١٠٨] [٧].

قوله تعالى:{أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ}[البقرة:١٠٨]، "أي بل أتريدون يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم كما سأل قوم موسى نبيهم من قبل"[٨].

واختلف في الخطاب في الآية الكريمة، على أقوال[٩]:

أحدها: إنه لليهود، وذلك حينما سألوا النبي ﷺ آيات يأتي بها.

---

(١)رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٣٠٨ ، ٥٢٥٩) ومسلم في صحيحه برقم (١٤٩٢) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢)صحيح البخاري برقم (١٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٥٩٣).

(٣)صحيح مسلم برقم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤)رواه مسلم في صحيحه برقم (١٢).

(٥)ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٤٥٤/١١) من طريق عبد الله بن عمر بن أبان ، عن محمد بن فضيل به مطولاً.

(٦) يقول الإمام الرازي: " اعلم أن السؤال الذي ذكروه إن كان ذلك طلبا للمعجزات فمن أين أنه كفر؟ ومعلوم أن طلب الدليل على الشيء لا يكون كفرا، وإن كان ذلك طلبا لوجه الحكمة المفصلة في نسخ الأحكام، فهذا أيضا لا يكون كفرا؛ فإن الملائكة طلبوا الحكمة التفصيلية في خلقة البشر ولم يكن ذلك كفرا، فلعل الأولى حمل الآية على أنهم طلبوا منه أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة، وإن كانوا طلبوا المعجزات فإنهم يطلبونها على سبيل التعنت واللجاج فلهذا كفروا بسبب هذا السؤال".(انظر: تفسيره: ٢١٤/٣).

(٧) انظر: تفسير السعدي: ٦٢/١.

(٨) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(٩) هذا اختيار الشيخ ابن عثيمين، انظر: تفسيره: ١٨٥/١.

اختاره الرازي[١].
الثاني: إنه للمشركين؛ لقوله تعالى: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً} [الإسراء: ٩٠].
والثالث: إنه للمسلمين. وهو قول الأصم والجبائي وأبي مسلم، واستدلوا عليه بوجوه[٢]:
الأول: أنه قال في آخر الآية: (ومن يتبدل الكفر بالإيمان) وهذا الكلام لا يصح إلا في حق المؤمنين.
الثاني: أن قوله: {أم تريدون} يقتضي معطوفا عليه وهو قوله: {لا تقولوا راعنا} [البقرة: ١٠٤] فكأنه قال: وقولوا انظرنا واسمعوا فهل تفعلون ذلك كما أمرتم أم تريدون أن تسألوا رسولكم؟
الثالث: أن المسلمين كانوا يسألون محمدا ﷺ عن أمور لا خير لهم في البحث عنها ليعلموها كما سأل اليهود موسى عليه السلام ما لم يكن لهم فيه خير عن البحث عنه.
الرابع: سأل قوم من المسلمين أن يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط، وهي شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها المأكول والمشروب، كما سألوا موسى أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة.
قال الشيخ ابن عثيمين: " والآية صالحة للأقوال كلها؛ لأن محمداً ﷺ رسول للجميع؛ لكن تخصيصها باليهود يبعده قوله تعالى: { كما سئل موسى من قبل }؛ فمعنى الآية: أتريدون أن توردوا الأسئلة على رسولكم كما كان بنو إسرائيل تورد الأسئلة على رسولها؛ ولا شك أن الاستفهام هنا يراد به الإنكار على من يكثرون السؤال على النبي ﷺ"[٣].
واختلف أهل العربية في معنى(أم) التي في قوله :{ أَمْ تُرِيدُونَ }[البقرة:١٠٨]، وذكروا وجوها[٤]:
الأول: أنها (متصلة) عديلة (الألف)بمعنى الاستفهام، وتأويل الكلام : أتريدون أن تسألوا رسولكم ؟. وهذا قول بعض البصريين.
قال الحافظ ابن كثير: "هي على بابها في الاستفهام ، وهو إنكاري، وهو يعم المؤمنين والكافرين ، فإنه ، عليه السلام ، رسول الله إلى الجميع ، كما قال تعالى : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ } [النساء : ١٥٣]"[٥].
قال الواحدي:" فإن قيل: كيف يُرَدّ {أم تريدون} عليه، والأول خطاب للنبي - ﷺ -، والثاني خطاب للجماعة؟ قيل: الله تعالى رجع في الخطاب من التوحيد إلى الجمع، وما خوطب به عليه السلام فقد خوطب به أُمّته، فيكتفى به من أُمّته، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} [الطلاق: ١]، فوحَّد ثم جَمَعَ، كذلك فيما نحن فيه، ويكون المعنى على هذا: أيُّهما عندكم العلم بأن الله قدير، وأن له ملك السماوات والأرض، أم إرادة سؤال الرسول الآيات؟ والله تعالى علم أيهما عندهم"[٦].
والثاني: أنها (منقطعة) بمعنى استفهام منقطع من الكلام، "كأنه قال: أتريدون، وهذا موجود في كلام العرب"[٧].
وليس قوله:{أم تريدون} على الشك، ولكنه قاله ليقبح له صنيعهم، ومنه قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} [الأحقاف : ٨]، "أي: بل يقولون"[٨]، ومن ذلك قول الأخطل[٩]:

---

[١] انظر: مفاتيح الغيب: ٦٤٤/٣. واحتج بأن:" هذه السورة من أول قوله: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [البقرة : ٤٠] إلى قوله: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة : ٤٧]، حكاية عنهم ومحاجة معهم ولأن الآية مدنية ولأنه جرى ذكر اليهود وما جرى ذكر غيرهم، ولأن المؤمن بالرسول لا يكاد يسأله فإذا سأله كا متبدلا كفرا بالإيمان".
[٢] انظر: مفاتيح الغيب: ٦٤٣/٣-٦٤٤.
[٣] انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٥٣/١.
[٤] انظر: تفسير الطبري: ٤٩٢-٤٩٤.
[٥] تفسير ابن كثير: ٣٨١/١.
[٦] التفسير البسيط: ٢٣٧/٣.
[٧] المحرر الوجيز: ١٩٥/١.
[٨] تفسير الراي: ٦٤٣/٣.
[٩]ديوانه : ٤١ ، ونقائض جرير والخطل : ٧٠ . وواسط : قرية غربي الفرات مقابل الرقة من أعمال الجزيرة ، وهي من منازل بني تغلب ، وهي غير واسط التي بناها الحجاج بين البصرة والكوفة . الغلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بتباشير الصباح ، فهي سواد مختلط ببياض وحمرة .

كذبَتْك عينُك أم رأيت بواسط غَلَس الظلام من الرَّباب خيالا

وعلى هذا القول جمع من أهل العلم، منهم ابن كثير[١]، وصاحب الكشاف، إذ يقول: "(أم) هذه هي المنقطعة التي بمعنى (بل) أي (بل تريدون) وفي هذا توبيخ وتقريع والكاف في قوله {كما سئل} في موضع نصب نعت لمصدر محذوف أي سؤالا مثل ما سئل موسى من قبل"[٢].

والثالث: وقال بعض نحويي الكوفيين : إن شئت جعلت قوله : {أم تريدون} استفهاما على كلام قد سبقه ، كما قال جل ثناؤه :{الم تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} [السجدة : ١ - ٣] ، فجاءت " أم " وليس قبلها استفهام ، فكان ذلك عنده دليلا على أنه استفهام مبتدأ على كلام سبقه، وقال قائل هذه المقالة : "(أم) في المعنى تكون ردا على الاستفهام على جهتين :

إحداهما: أن تُفَرِّق معنى(أي).

والأخرى : أن يستفهم بها فتكون على جهة النسق ، والذي ينوي بها الابتداء ، إلا أنه ابتداء متصل بكلام، فلو ابتدأت كلاما ليس قبله كلام ثم استفهمت ، لم يكن إلا بـ (الألف) أو بـ(هل)... وإن شئت قلت في قوله : {أم تريدون}، قبله استفهام ، فرد عليه وهو في قوله: {ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير}"[٣].

والرابع: وقيل: (أم)هنا منقطعة بمعنى (بل) و(همزة الاستفهام)؛ أي: (بل أتريدون)؛ والإضراب هنا ليس للإبطال؛ لأن الأول ليس بباطل؛ بل هو باق؛ فالإضراب هنا إضراب انتقال؛ و "الإرادة" هنا بمعنى المشيئة؛ وإن شئت فقل: بمعنى المحبة[٤].

وقال مكي وغيره: "وهذا يضعف لأن «أم» لا تقع بمعنى (بل) إلا إذا اعترض المتكلم شك فيما يورده"[٥].

قال ابن عطية: "وليس كما قال مكي رحمه الله، لأن «بل» قد تكون للإضراب عن اللفظ الأول لا عن معناه، وإنما يلزم ما قال على أحد معنيي «بل» وهو الإضراب عن اللفظ والمعنى، ونعم ما قال سيبويه: بل هي لترك كلام وأخذ في غيره"[٦].

والصواب أنه استفهام مبتدأ، بمعنى : أتريدون أيها القوم أن تسألوا رسولكم ؟ وذلك لما جاءت به الآثار التي ذكرها الإمام الطبري، إذ يقول :"وإنما جاز ، أن يستفهم القوم بـ " أم " ، وإن كانت " أم " أحد شروطها أن تكون نسقا في الاستفهام لتقدم ما تقدمها من الكلام ، لأنها تكون استفهاما مبتدأ إذا تقدمها سابق من الكلام. ولم يسمع من العرب استفهام بها ولم يتقدمها كلام، ونظيره قوله جل ثناؤه:{الم تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}[السجدة : ١ - ٣] وقد تكون (أم) بمعنى (بل)، إذا سبقها استفهام لا يصلح فيه (أي)، فيقولون:"هل لك قِبَلَنا حق، أم أنت رجل معروف بالظلم ؟"، وقال الشاعر[٧] :

فوالله ما أدري أسلمى تغولت أم النوم أم كل إلي حبيب

يعني : بل كل إلي حبيبا[٨].

وانشد ابن الأنباري على هذا[١]:

([١]) انظر: تفسيره: ٣٨١/١. إ يقول: " وقوله تعالى : { أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ } أي : بل تريدون".

([٢]) تفسير الكشاف: ١٢٨/١.

([٣]) معاني القرآن للفراء: ١/ ٧١ .

([٤]) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٥٣/١.

([٥]) المحرر الوجيز: ١٩٥/١.

([٦]) المحرر الوجيز: ١٩٥/١.

([٧]) لم أتعرف على قائله، ذكره الطبري في تفسيره: ٤٩٣/٢، وفي معاني القرآن للفراء ١ : ٧٢ ، واللسان (أمم) ، والصاحبي : ٩٨ . وفي المطبوعة هنا : " تقولت . . أم القول ، وهو خطأ محض . وقوله : " تغولت " ، أي تصورت في صورة امرأة أحسها وأراها . من تغول الغول : وهي أن تتلون وتتخيل في صور شتى . يعنى أنها بعيدة لا شك في بعدها ، ولكنه يخال أنه يراها أمامه ماثلة قائمة . وقال الأخطل :

وتعرضت لك بالأباطح بعد ما قطعت بأبرق خلة ووصالا

وتغولت لتروعنا جنية والغانيات يرينك الأهوالا

ثم يقول : " أم النوم " أي : أم هو حلم . بل كلاهما حبيب إلى ، يعني أي ذلك كان ، فهو حبيب إلى .

([٨]) انظر: تفسير الطبري: ٤٩٣/٢-٤٩٤، ومعاني القرآن للفراء: ٧١/١.

تروحُ من الحيِّ أم تَبْتَكِرْ   وماذا يضُرُّك لو تَنْتَظِرْ
فقال: يجوز أن تكون أم في هذا البيت مردودة على الألفِ المُضْمَرة مع تروح وكافية منها، كقوله[٢]:
فوالله ما أدري وإنْ كنتُ داريًا   بسبعٍ رمينَ الجمرَ أم بثمانِ
ويجوز أن يكون هي حرف الاستفهام متوسطًا[٣].
واختلفت القراءة في قوله تعالى:{ كَمَا سُئِلَ }[البقرة:١٩٨]، على وجوه[٤]:
أحدها: قرأ الحسن بن أبي الحسن وغيره {سيل}، بكسر السين وياء وهي لغة، يقال: سلت أسال، ويحتمل أن يكون من همز أبدل الهمزة ياء على غير قياس ثم كسر السين من أجل الياء.
والثاني: وقرأ بعض القراء بتسهيل الهمزة بين الهمزة والياء، مع ضم السين.
والثالث: وقرأ الجماعة:{ سُئِلَ}.
قوله تعالى:{ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ}[البقرة:١٠٨]، أي: ومن "يستبدل الضلالة بالهدى ويأخذ الكفر بدل الإيمان"[٥].
واختلف في قوله تعالى:{وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ}[البقرة:١٠٨]، على وجوه[٦]:
أحدهما: أن معناه: ومن يستبدل الكفر، وهو الجحود بالله وبآياته، بالإيمان وهو التصديق بالله وبآياته والإقرار به[٧].
والثاني: ومن يتبدل الشدة بالرخاء. قاله أبو العالية[٨].
وضعّفه ابن عطية قائلا:" وهذا ضعيف، إلا أن يريدهما مستعارتين، أي الشدة على نفسه والرخاء لها عبارة عن العذاب والتنعيم، وأما المتعارف من شدة أمور الدنيا ورخائها فلا تفسر الآية به"[٩].
والرأي الأول هو الصواب، أما القول الثاني فهو مفهوم بعيد من ظاهر الخطاب. والله تعالى أعلم.
قوله تعالى:{ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}[البقرة:١٠٨]، " أي فقد حاد عن الجادة وخرج عن الصراط السوي"[١٠].
أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: "{فقد ضل سواء السبيل}، قال: عن عدل السبيل"[١١].
قال الطبري: أي: فقد ذهب عن سواء السبيل وحاد عنه"[١٢].
قال ابن عطية:" أي: "أخطأ الطريق"[١٣].
وأصل (الضلال) عن الشيء، "الذهاب عند والحيد، ثم يستعمل في الشيء الهالك، والشيء الذي لا يؤبه له، كقولهم للرجل الخامل الذي لا ذكر له ولا نباهة : (ضُل بن ضُل)، و(قُل بن قُل) [١٤]، ومعنى الضلال في الآية: الذَهابُ عن الاستقامة[١٥]، قال الأخطل[١٦]:

([١])البيت لامرئ القيس، ينظر: "ديوانه" ص ٦٨، "لسان العرب" ٥/ ٢٧٧٧، (مادة: عبد)، "المعجم المفصل" ٣/ ٣١.
([٢])البيت لعمر بن أبي ربيعة، ينظر: "ديوانه" ص ٢٦٦، "المعجم المفصل" ٨/ ١٨٦.
([٣]) انظر: التفسير البسيط: ٣/٢٣٧-٢٣٨.
([٤]) انظر: المحرر الوجيز:١/١٩٥.
([٥]) صفوة التفاسير: ١/٧٦.
([٦]) انظر: تفسير الطبري: ٢/٤٩٤-٤٩٥. وتفسير ابن كثير: ١/٣٨٢.
([٧]) انظر: تفسير الطبري: ٢/٤٩٤.
([٨]) انظر: تفسير الطبري(١٧٨٤):ص٢/٤٩٥.
([٩]) المحرر الوجيز: ١/١٥٩.
([١٠]) صفوة التفاسير: ١/٨٦.
([١١]) تفسير ابن أبي حاتم:١/٢٠٤.
([١٢]) تفسير الطبري: ٢/٤٩٨.
([١٣]) المحرر الوجيز: ١/١٩٥.
([١٤]) تفسير الطبري: ٢/٤٩٥-٤٩٦.
([١٥]) انظر: الوسيط: ١/١٩١.
([١٦]) ديوان الأخطل:٢٥٠، ونقائض جرير والأخطل: ٨٣، و"تفسير القرطبي:١٤/ ٩١، والماوردي: ٣/ ٢٩٣، ووضح البرهان للغزنوي: ٢/ ١٧٥. والبحر المحيط: ٥/ ٥١٣ - ٥١٤، والتفسير البسيط: ٣/٢٤٠.

كنتُ القَذَى في موجِ أكدرَ مُزبدٍ قذَفَ الأتيُّ به فضلَّ ضلالا
أي: ذهب يمينًا وشمالًا[١].
قال ابن عاشور: "و(السواء): الوسط من كل شيء[٢]، قال بلعاء بن قيس[٣]:

غَشَّيْتُه وهو في جَأْوَاءَ باسلة عَضْبَاً أصاب سواءَ الرأس فانفلقا
ووسط الطريق: هو الطريق الجادة الواضحة، لأنه يكون بين بنيات الطريق التي لا تنتهي إلى الغاية"[٤].

و{السبيلُ} في اللغة : الطريقُ ، والمراد به طريق الاستقامة"[٥]، و"هذه السبيل التي أخبر الله عنها، أن من يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواءها، هي الصراط المستقيم، الذي أمرنا بمسألته الهداية له بقوله : {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)} [الفاتحة : ٦ - ٧]"[٦].

قال ابن عطية:" و{السَّبِيلِ}، عبارة عن الشريعة التي أنزلها الله لعباده، لما كانت كالسبب إلى نيل رحمته كانت كالسبيل إليها"[٧].

واختلف في قوله تعالى:{سَوَاءَ السَّبِيلِ}[البقرة:١٠٨]، على وجهين:[٨]:
أحدهما: أن (السواء) أي: القصد والمنهج، عن الفراء ، أي ذهب عن قصد الطريق وسمته ، أي طريق طاعة الله عز وجل[٩].
والثاني: أن (السواء) من كل شيء: الوسط، قاله أبو عبيدة معمر بن المثنى ، ومنه قوله : {سَوَاءِ الْجَحِيمِ} [الصافات : ٥٥]، أي: "وسطه، لاستواء مقادير نواحيه إليه، ومنه قوله {فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال: ٥٨]، يعني: أعلمهم، حتى يستوي علمك وعلمهم"[١٠].
وقال عيسى بن عمر: "كتبت حتى انقطع سوائي،[يعني وسطي]"[١١]، وقال حسان بن ثابت في رثاء النبي ﷺ، على ما ذكر ابن إسحاق وغيره[١٢]:
يا ويح أصحاب النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملحد

وقال أبو عبيد: هو في عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو عندي وهم منه"[١٣].
قلت: وكلا القولين صحيحان، لأن الذي يخرج عن سواء السبيل، "فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها ، على وجه التعنت والكفر ، كما قال تعالى : { أَلَمْ

---

(١) انظر: التفسير البسيط: ٢٤٠/٣.
(٢) انظر: المحرر الوجيز: ١٩٥/١.
(٣) شرح ديوان الحماسة: ١٣/١. غَشيته أَي فنعت رَأسه بِالسَّيْفِ والجأواء الكتيبة المخضرة من كَثْرَة السِّلَاح والبسالة من البسل وَهُوَ الْحَرَام كَأَنَّهَا لتمنعها يمْتَنع لقاؤها والعضب السَّيْف الْقَاطِع والسواء الْوسط مَعْنَاهُ رب فَارس صفته هَكَذَا أَنا ضَربته وَهُوَ فِي جَيش تَامّ السِّلَاح كريه اللِّقَاء بِسيف قَاطع أصَاب وسط رَأسه فشقه.
(٤) تفسير ابن عاشور: ٦٦٧/١-٦٦٨.
(٥) روائع البيان: ٣٤/٢.
(٦) تفسير الطبري: ٤٩٨/٢.
(٧) المحرر الوجيز: ١٩٦/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري: ٤٩٥/٢-٤٩٦. وتفسير القرطبي: ٧٠/٢.
(٩) انظر: تفسير القرطبي: ٧٠/٢.
(١٠) التفسير البسيط: ١٠٨/٢.
(١١)انظر: تفسير الطبري: ٤٩٦/٢، وتفسير القرطبي: ٧٠/٢، وروائع البيان: ٣٤/٢.
(١٢)ديوانه :٩٨. وعنى بقوله :(ورهطه) المهاجرين رضي الله عنهم، والمغيب مصدر غيبه في الأرض: واراه، و(الملحد) بضم الميم وفتح الحاء بينهما لام ساكنة : هو اللحد، والقبر.
(١٣) المحرر الوجيز: ١٩٦/١، وانظر: تفسير الطبري: ٤٩٦/٢، وتفسير القرطبي: ٧٠/٢، وروائع البيان: ٣٤/٢.

تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ* جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ } [إبراهيم : ٢٨ ، ٢٩]"[١].

وقد قرىء: "{فَقَدْ ضَلَّ}، بالإدغام وبالإظهار في السبعة"[٢].

يقول أبو حيّان: " ولما كانت الشريعة توصل سالكها إلى رضوان الله تعالى، كنى عنها بالسبيل ، وجعل من حاد عنها : كالضال عن الطريق ، وكنى عن سؤالهم نبيهم ما ليس لهم أن يسألوه بتبدل الكفر بالإيمان ، وأخرج ذلك في صورة شرطية ، وصورة الشرط لم تقع بعد تنفيراً عن ذلك ، وتبعيداً منه، فوبخهم أولاً على تعلق إرادتهم بسؤال ما ليس لهم سؤاله ، وخاطبهم بذلك ، ثم أدرجهم في عموم الجملة الشرطية . وإن مثل هذا ينبغي أن لا يقع ، لأنه ضلال عن المنهج القويم ، فصار صدر الآية إنكاراً وتوبيخاً ، وعجزها تكفيراً وضلالاً، وما أدى إلى هذا فينبغي أن لا يتعلق به غرض ولا طلب ولا إرادة"[٣].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: إنكار كثرة الأسئلة لرسول الله ﷺ؛ لأن الاستفهام: { أم تريدون } يقصد به الإنكار؛ وقد قال النبي ﷺ محذراً من ذلك: "ذروني ما تركتكم فإنما هلك الذين من قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم"[١] ؛ وصح عن النبي ﷺ: "أن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرَّم فحُرِّم من أجل مسألته"[٢] ؛ فهذا نهي، وإنكار على الذين يسألون رسول الله ﷺ مسائل؛ والمطلوب من المسلم في زمن الوحي أن يسكت حتى ينزل ما أراد الله عز وجل من أمر أو نهي..

٢. ومن فوائد الآية: تأكيد ذم هذا النوع من الأسئلة؛ لقوله تعالى: { رسولكم }؛ فكأنه أراد أنه لما كان رسولكم، فالذي ينبغي منكم عدم إعناته بالأسئلة..

٣. ومنها: أن إرسال محمد ﷺ من مصالحنا، ومنافعنا؛ لقوله تعالى:{رسولكم}.

٤. ومنها: أن كثرة الأسئلة للنبي ﷺ فيها مشابهة لليهود؛ لقوله تعالى:{كما سئل موسى من قبل}.

٥. ومنها: أنه لا ينبغي إلقاء السؤال إلا لمصلحة: إما رجل وقعت له مسألة يسأل عن حكمها؛ أو طالب علم يتعلم ليستنتج المسائل من أصولها؛ أما الأسئلة لمجرد استظهار ما عند الإنسان فقط؛ أو أقبح من ذلك من يستظهر ما عند الإنسان ليضرب آراء العلماء بعضها ببعض، وما أشبه ذلك؛ أو لأجل إعنات المسؤول، وإحراجه؛ فكل هذا من الأشياء المذمومة التي لا تنبغي..

٦. ومن فوائد الآية: ذم بني إسرائيل الذين أرسل إليهم موسى ﷺ، حيث إن الله سبحانه وتعالى ذكرهم في هذه الآية على سبيل الذم..

٧. ومنها: أن اليهود كانوا سألوا موسى عن أشياء فكانت العاقبة فيها وخيمة: فقد سألوا عن أشياء بينت لهم؛ لكنهم لم يعملوا بها؛ فكانت نتيجة السؤال الخيبة..

٨. ومنها: إثبات رسالة موسى ﷺ؛ لقوله تعالى: { كما سئل موسى من قبل } يعني: وهو رسول..

٩. ومنها: ذم من استبدل الكفر بالإيمان؛ لقوله تعالى: { ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل } ؛ وهذا يشمل من بقي على كفره بعد عرض الإيمان عليه، ومن ارتد بعد إيمانه؛ فإنه في الحقيقة تبديل؛ لأن كل مولود يولد على الفطرة؛ فإذا كفر فقد تبدل الكفر بالإيمان..

١٠. ومنها: أن من اختار الكفر على الإيمان فهو ضال..

١١.ومنها: عكس هذه المسألة: أن من يتبدل الإيمان بالكفر فقد هُدي إلى سواء السبيل..

١٢. ومنها: الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان ليس له إرادة في عمله، وأنه مجبر عليه؛ لقوله تعالى: { ومن يتبدل الكفر بالإيمان }..

---

[١] تفسير ابن كثير: ٣٨٢/١. وانظر: روائع البيان: ٣٤/٢.

[٢] البحر المحيط: ٥١٧/١.

[٣] تفسير البحر المحيط: ٥١٧/١.

[١] أخرجه مسلم ص٩٠١، كتاب الحج، باب ٧٣: فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم ٣٢٥٧ [٤١٢] ١٣٣٧.

[٢] أخرجه البخاري ص٦٠٧، كتاب الاعتصام، باب ٣: ما يكره من كثرة السؤال، حديث رقم ٧٢٨٩، وأخرجه مسلم ص١٠٩٢ – ١٠٩٣، كتاب الفضائل باب ٣٧: توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله...، حديث رقم ٦١١٦ [١٣٢] ٢٣٥٨.

١٣. ومنها: أنه يجب على السائل أن يعمل بما أجيب به؛ لأنه إذا علم ولم يعمل فقد تبدل الكفر بالإيمان من بعد ما تبين له أنكر؛ فالواجب على المرء إذا سأل من يثق به أن يعمل بقوله؛ ولهذا قال العلماء: ومن سأل مفتياً ملتزماً بقوله حرم عليه أن يسأل غيره؛ لأنه حين سأله كان يعتقد أن الذي يقوله هو الشرع؛ فإذا كان يعتقد هذا فلا يسأل غيره؛ نعم، إذا سأل إنساناً يثق به بناءً على أن فتواه هو الشرع، وأفتاه، ولكنه سمع في مجلس عالم آخر حكماً نقيض الذي أُفتي به مدعَّماً بالأدلة، فحينئذ له أن ينتقل؛ بل يجب عليه؛ أو سأل عالماً مقتنعاً بقوله للضرورة . لأنه ليس عنده في البلد أعلم منه . على نية أنه إذا وجد أعلم منه سأله؛ فهذا أيضاً يجوز أن يسأل غيره إذا وجد أعلم منه.

القرآن

{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)} [البقرة : ١٠٩]

التفسير:

تمنى كثير من أهل الكتاب أن يرجعوكم بعد إيمانكم كفارًا كما كنتم من قبلُ تعبدون الأصنام؛ بسبب الحقد الذي امتلأت به نفوسهم من بعد ما تبيَّن لهم صدق نبي الله ورسوله محمد ﷺ فيما جاء به، فتجاوزوا عمَّا كان منهم من إساءة وخطأ، واصفحوا عن جهلهم، حتى يأتي الله بحكمه فيهم بقتالهم وقد جاء ووقع، وسيعاقبهم لسوء أفعالهم. إن الله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

اختلف فيمن أنزلت الآية على أقوال[١]:

احدها: أنها أنزلت في عامة اليهود والمشركين. قاله الطبري[٢].

الثاني: أخرج الواحدي وابن أبي حاتم، عن عبدالله بن كعب بن مالك: "أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرا، وكان يهجو النبي - ﷺ - ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدمها رسول الله - ﷺ - يؤذون النبي - ﷺ - وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله تعالى نبيه بالصبر على ذلك والعفو عنهم وفيهم أنزلت: {ود كثير من أهل الكتاب} إلى قوله: {فاعفوا واصفحوا}"[٣]. وروي نحوه عن الزهري[٤] وقتادة[٥].

واستبعد الطبري هذا الرأي، لأن صيغة خطاب الآية للجمع، والواحد لا يقال له "كثير"، بمعنى الكثرة في العدد[٦].

وعلى رواية عبدالله بن كعب، فالجمع في قوله: {يَرُدُّونَكُم} لكعب ومن تابعه ويستقيم الكلام[٧]. والله أعلم.

الثالث: وأخرج الطبري وابن أبي حاتم عن ابن عباس: " كان حُيَيّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسدا، إذ خصهم الله برسوله ﷺ ، وكانا جاهِدَين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا ، فأنزل الله فيهما: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم} الآية"[٨].

الرابع: وقال الواحدي "قال ابن عباس: نزلت في نفر من اليهود قالوا للمسلمين بعد وقعة بدر ألم تروا إلى ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم"[٩].

قوله تعالى:{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}[البقرة:١٠٩]، " أي تمنى كثير من اليهود والنصارى"[١٠].

([١]) انظر: أسباب النزول للواحدي: ٣٥-٣٦، والعجاب: وتفسير الطبري: ٤٩٨/٢-٥٠٠.
([٢]) تفسير الطبري: ٤٩٨/٢-٤٩٩.
([٣]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٨٣):ص٢٠٤/١-٢٠٥، واخرجه أبو داود في سننه كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة :١٥٤/ ٣ (٣٠٠٠).
([٤]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٨٢):ص٢٠٤/١، وتفسير الطبري(١٧٨٦)، و(١٧٨٧):ص٤٩٩/٢.
([٥]) انظر: تفسير الطبري(١٧٨٦):ص٤٩٩/٢.
([٦]) انظر: تفسير الطبري: ٤٩٩/٢-٥٠٠.
([٧]) انظر: العجاب في بيابن الأسباب:٣٥٦/١.
([٨]) أخرجه الطبري(١٧٨٨):ص٤٩٩/٢، وابن أبي حاتم(١٠٨١):ص٢٠٤/١.
([٩]) أسباب النول للواحدي: ٣٥.
([١٠]) صفوة التفاسير: ٧٦/١، وتفسير المراغي: ١٩٠/١.

قال الطبري: أي: "أن كثيراً من أهل الكتاب يودون بكل قلوبهم"[١].
قوله تعالى:{ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا}[البقرة:١٠٩]، " أي لو يصيّرونكم كفاراً بعد أن آمنتم"[٢].
قال الطبري: أي: "أن يردوكم كفاراً؛ أي يرجعوكم كفاراً"[٣].
قال المراغي:أي:" أن يصرفوكم عن توحيد الله والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ويرجعوكم كفارا كما كنتم"[٤].
قوله تعالى:{ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ}[البقرة:١٠٩]، " أي حسداً منهم لكم حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة"[٥].
قال الثعلبي:" أي من تلقاء أنفسهم لم يأمر الله عز وجل بذلك"[٦].
قال الطبري:"وإنما أخبر الله جل ثناؤه عنهم المؤمنين أنهم ودوا ذلك للمؤمنين ، من عند أنفسهم ، إعلاما منه لهم بأنهم لم يؤمروا بذلك في كتابهم ، وأنهم يأتون ما يأتون من ذلك على علم منهم بنهي الله إياهم عنه[٧].
قال ابن الأنباري: "ويكون تأويل {مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} في حكمهم وتدينهم ومذهبهم، أي: هذا الحسد مذهب لهم، لم يؤمروا به كما تقول: هذا عند الشافعي حلال، أي: في حكمه ومذهبه"[٨].
وذكر الرازي في قوله تعالى:{حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ}[البقرة:١٠٩]، وجهين[٩]:
أحدهما: أنه متعلق بـ(ود)، على معنى أنهم أحبوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق، فكيف يكون تمنيهم من قبل طلب الحق؟
الثاني: أنه متعلق بـ(حسد)، أي حسد عظيم منبعث من عند أنفسهم.
و"في الآية تنبيه أن كثيراً من أهل الكتاب، يتمنون ارتدادكم بعد إيمانكم حسداً، وقوله : {من عند أنفسهم} أي من عند هواهم كقوله تعالى : {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}، وعبر عن الهوى بالنفس وهي الأمارة بالسوء ، وبين أنهم فعلوا ذلك بعد وضوح الحق لهم ، ولكنهم بحسدهم وهوائهم لا يتحرونه ، ولا يحبون أن يتحراه غيرهم"[١٠].
قال الراغب:" (الحسد): كراهية نعمة على مستحق لها ، وعدت من عظائم الذنوب ، إذ هو معاندة الله في إرادته ، وهو شر من البخل ، فإن الحسد بخل على الغير بنعمة من لا تنفد العطايا نعمه"[١١].
وحكى ثعلب عن ابن الأعرابي: أصل الحسد في كلام العرب: القشر، ومنه أخذ الحسد؛ لأنه يَقْشر القلب، قال والحَسدلُ[١٢]: القرادة، لأنه يقشر الجلد فيمص الدم. ذكره الأزهري[١٣].
قوله تعالى:{ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}[البقرة:٩]، " أي من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة، أن دينكم هو الحق"[١٤].
قال المراغي: "أي من بعد أن ظهر لهم بساطع الأدلة أن محمدا على الحق بما جاء به من الآيات التي تنطبق على ما يحفظونه من بشارات كتبهم بنبي يأتي آخر الزمان"[١٥].
قال قتادة:" من بعد ما تبين لهم أن محمدا رسول الله ﷺ ، والإسلام دين الله"[١]. وروي نخوه عن أبي العالية[٢]، والربيع[٣]، والسدي[٤]، وابن زيد[٥].

---

(١) تفسير الطبري:٥٠١/٢.
(٢) صفوة التفاسير: ٧٦/١.
(٣) تفسير الطبري:٥٠١/٢.
(٤) تفسير المراغي:١٩٠/١.
(٥) صفوة التفاسير: ٧٦/١.
(٦) تفسير الثعلبي:٢٥٨/١.
(٧)انظر: تفسير الطبري: ٢/ ٥٠٠-٥٠١، وانظر: التفسير البسيط:٢٤١/٣.
(٨) التفسير البسيط:٢٤١/٣.
(٩) مفاتيح الغيب: ٦٥٢/٣.
(١٠) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٩١/١.
(١١) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٩١/١.
(١٢)زيدت فيه اللّام كما يقال للعبد: عبدل.[تفسير الثعلبي:٢٥٨/١].
(١٣) انظر: تهذيب اللغة" ١/ ٨١٣، "اللسان" ٢/ ٨٦٨ (حسد)، والتفسير البسيط:٢٤١/٣-٢٤٢.
(١٤) صفوة التفاسير: ٧٦/١.
(١٥) تفسير المراغي:١٩١/١.

وقال ابن عباس:" من بعد ما أضاء لهم الحق ، لم يجهلوا منه شيئا ، ولكن الحسد حملهم على الجحد. فعيرهم الله ولامهم ووبخهم أشد الملامة"[٦].

قال الطبري: أي: "من بعد ما تبين الحقُّ في أمر محمد ﷺ وما جاء به من عند ربه ، والملة التي دعا إليها فأضاء لهم : أن ذلك الحق الذي لا يمترون فيه فدل بقوله ذلك : أن كفر الذين قص قصتهم في هذه الآية بالله وبرسوله ، عناد ، وعلى علم منهم ومعرفة بأنهم على الله مفترون "[٧].

قوله تعالى:{فَاعْفُوا}[البقرة:٩]، " أي: " فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وخطأ"[٨].

قال الثعلبي: أي:" فاتركوا"[٩].

قال الصابوني:" أي اتركوهم"[١٠].

قال المراغي:" أي: فعاملوهم بأحاسن الأخلاق من العفو عن مذنبهم بترك عقابه"[١١].

قال ابن عثيمين:" الخطاب للمؤمنين عامة؛ ويدخل فيهم الرسول ﷺ؛ و "العفو" بمعنى ترك المؤاخذة على الذنب؛ كأنه من عفا الأثر: إذا زال لتقادمه"[١٢].

قوله تعالى:{وَاصْفَحُوا}[البقرة:١٠٩]، أي:" واصفحوا عما كان منهم من جهل"[١٣].

قال الثعلبي:أي" وتجاوزوا"[١٤].

قال الصابوني:أي:" وأعرضوا عنهم فلا تؤخذوهم"[١٥].

قال المراغي: أي "واصفحوا عن مذنبهم، بترك لومه وتعنيفه"[١٦].

و(العفو): ترك المؤاخذة بالذنب، كما قال : {إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً}[التوبة:٦٦] [١٧].

و(الصفح) : إزالة أثره من النفس، أي: الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه، وهو يشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب، ومنه قوله تعالى : {أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً} [الزخرف : ٥][١٨]، ومن ذلك قول كُثَيِّر يصفُ امرأة أعرضت عنه[١٩]:

صفوحًا فما تلقاك إلا بخيلةً فمَنْ ملَّ منها ذلك الوصلَ ملَّتِ

([١]) أخرجه الطبري(١٧٩٠):ص٥٠٢/٢.

([٢])أخرجه الطبري(١٧٩١):ص٥٠٢/٢.

([٣])أخرجه الطبري(١٧٩٢):ص٥٠٢/٢.

([٤])أخرجه الطبري(١٧٩٣):ص٥٠٢/٢.

([٥])أخرجه الطبري(١٧٩٤):ص٥٠٢/٢.

([٦])أخرجه الطبري(١٧٩٥):ص٥٠٢/٢.

([٧])انظر: تفسير الطبري: ٥٠١/٢-٥٠٢.

([٨]) تفسير الطبري: ٥٠٣/٢.

([٩]) تفسير الثعلبي:٢٥٨/١.

([١٠]) صفوة التفاسير:٧٦/١.

([١١]) تفسير المراغي:١٩١/١.

([١٢]) تفسير ابن عثيمين:٣٥٨/١.

([١٣]) تفسير الطبري: ٥٠٣/٢.

([١٤]) تفسير الثعلبي:٢٥٨/١.

([١٥]) صفوة التفاسير:٧٦/١.

([١٦]) تفسير المراغي:١٩١/١.

([١٧]) انظر: تفسير القرطبي: ٧١/٢، وتفسير المراغي: ١٩٠/١.

([١٨]) انظر: تفسير القرطبي: ٧١/٢، وتفسير المراغي: ١٩٠/١.

([١٩]) ديوانه: ٩٨، ولسان العرب: ٤/ ٢٤٥٧، (مادة: صفح)، والمعجم المفصل: ١/ ٥٥٣.

وقال الآلوسي:" (العفو)، ترك عقوبة المذنب، و(الصفح)، ترك التثريب والتأنيث وهو أبلغ من العفو إذ قد يعفو الإنسان ولا يصفح، ولعله مأخوذ من تولية صفحة الوجه إعراضا أو من تصفحت الورقة إذا تجاوزت عما فيها. وآثر العفو على الصبر على اذاهم إيذانا بتمكين المؤمنين ترهيبا للكافرين"[١].

والفرق بين (العفو، و(الصفح)، أن"(العفو) ترك المؤاخذة على الذنب؛ و (الصفح) الإعراض عنه؛ مأخوذ من صفحة العنق؛ وهو أن الإنسان يلتفت، ولا كأن شيئاً صار. يوليه صفحة عنقه.؛ فـ "الصفح" معناه الإعراض عن هذا بالكلية وكأنه لم يكن؛ فعلى هذا يكون بينهما فرق؛ فـ (الصفح) أكمل إذا اقترن بـ(العفْو)"[٢].

قال ابن عباس:"{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا} أي: عن مساوئ كلامهم، وغلّ قلبهم"[٣].

قال أهل العلم:" وفي أمره تعالى لهم بالعفو والصفح، إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة ، لأن الصفح لا يكون إلا من القادر ، فكأنه يقول لهم : لا تغرّنّكم كثرة أهل الكتاب مع باطلهم ، فأنتم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق ، وأهل الحق مؤيدون بعناية الله ، ولهم العزة ما ثبتوا عليه"[٤].

قوله تعالى:{ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}[البقرة:١٠٩]، أي:" حتى يأتى نصر الله لكم بمعونته وتأييده"[٥].

قال ابن عثيمين:" أي بأمر سوى ذلك؛ وهو الأمر بالقتال"[٦].

قال الصابوني:" أي حتى يأذن الله لكم بقتالهم"[٧].

قال الآلوسي:" المراد به الأمر بالقتال بقوله سبحانه قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إلى وَهُمْ صاغِرُونَ [التوبة: ٢٩] أو الأمر بقتل قريظة وإجلاء بني النضير، وقيل: واحد الأمور، والمراد به القيامة. أو المجازاة يومها أو قوة الرسالة وكثرة الأمة"[٨].

قال الراغب:" ثم أمر بالتجافى عنهم إلى أن يأتي الله بأمره تسكيناً لهم ووعداً بتغييره لقدرته على كل شئ"[٩].

واختلف في تفسير قوله تعالى: { حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}[البقرة:١٠٩] على وجوه[١٠]:

أحدها: أن معناه: حتى يأتي الله بعذابه: القتل والسّبي لبني قريظة، والجلاء والنفي لبني النظير. قاله ابن عبّاس[١١].

والثاني: أنه أمره بقتالهم في قوله تعالى:{قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ إلى وَهُمْ صاغِرُونَ}[التوبة:٢٩]. قاله قتادة[١٢]، وهو قول الجمهور[١٣].

الثالث: وقال ابن كيسان: "بعلمه وحكمه فيهم، حكم بعضهم بالإسلام ولبعضهم بالقتل والسبي والجزية"[١٤].

الرابع: وقيل: أراد به القيامة فيجازيهم بأعمالهم.

---

[١] روح المعاني: ٣٥٦/١.
[٢] تفسير ابن عثيمين:٣٥٨/١.
[٣] التفسير البسيط: ٢٤٢/٣.
[٤] تفسير المراغي: ١٩١/١.
[٥] تفسير المراغي: ١٩١/١.
[٦] تفسير ابن عثيمين:٣٥٨/١.
[٧] صفوة التفاسير:٧٦/١.
[٨] روح المعاني: ٣٥٦/١.
[٩] تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٩١/١.
[١٠] انظر: تفسير الثعلبي:٢٥٨/١، والبحر المحيط: ٣٠١/١.
[١١] عزاه لابن عباس، الثعلبي في تفسيره:٢٥٨/١، وانظر: الكفاية: ١/ ٦٧، والوسيط: ١/ ١٩١ والمحرر الوجيز: ١/ ٤٤٨، وتفسير القرطبي: ٢/ ٦٥، والبحر المحيط: ١/ ٣٠١.
[١٢] انظر: تفسير الثعلبي:٢٥٨/١.
[١٣] انظر: البحر المحيط: ٣٠١/١.
[١٤] تفسير الثعلبي:٢٥٨/١.

الخامس: وقيل : آجال بني آدم.
السادس: وقيل : قوة الرسالة وكثرة الأمة.
قال أبو حيان:" والجمهور على أنه الأمر بالقتال"[١].

واختلف في نسخ الآية على قولين[٢]:
أحدهما أنها منسوخة، ومن ثم اختلفوا في الناسخ على قولين:
القول الأول: أنها نسخت بقوله: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة : ٢٩] فنسخ الله جل ثناؤه العفو عنهم والصفح ، بفرض قتالهم على المؤمنين ، حتى تصير كلمتهم وكلمة المؤمنين واحدة ، أو يؤدوا الجزية عن يد صغارا[٣]. وهذا قول ابن عباس[٤]، وقتادة[٥]، والربيع[٦]، والسدي[٧].
والقول الثاني وقيل :الناسخ لها: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة : ٥][٨].
والثاني: وقال البعض بأنها غير منسوخة، "واحتجوا بأن الله لم يأمر بالصفح والعفو مطلقًا، وإنما أمر به إلى غاية، وما بعد الغاية يخالف ما قبلها، وما هذا سبيله لا يكون من باب المنسوخ، بل يكون الأول قد انقضت مدته بغايته، والآخر يحتاج إلى حكم آخر"[٩]. قاله ابن الجوزي.
ونقل أبو حيان، عن "قوم بأنه ليس هذا حد المنسوخ، لأن هذا في نفس الأمر للتوقيف على مدته {حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} غيّا العفو والصفح بهذه الغاية، وهذه الموادعة على أن تأتي أمر الله بقتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير وإذلالهم بالجزية، وغير ذلك مما أتي من أحكام الشرع فيهم، وترك العفو والصفح"[١٠].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[البقرة:١٠٩]،" أي لا يعتريه عجز في كل شيء فعله"[١١].
قال الطبري:أي" لا يتعذر عليه شيء أراده ، ولا يتعذر عليه أمر شاء قضاءه ، لأن له الخلق والأمر"[١٢].
قال الصابوني:" أي قادر على كل شيء فينتقم منهم إذا حان الأوان"[١٣].
قال الرازي: "فهو تحذير لهم بالوعيد سواء حمل على الأمر بالقتال أو غيره"[١٤].
قال أبو حيان:" فيه إشعار بالانتقام من الكفار ، ووعد للمؤمنين بالنصر والتمكين. ألا ترى أنه أمر بالموادعة بالعفو والصفح ، وغيا ذلك إلى أن يأتي الله بأمره ، ثم أخبر بأنه قادر على كل شيء ؟"[١٥].

---

(١) البحر المحيط:٣٠١/١.
(٢) انظر: مجاز القرآن لأبي عبيد: ١/ ٥٠، والناسخ والمنسوخ للنحاس:٢٧٤، والإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه لمكي:٣١٢.
(٣) اظر: تفسير الطبري: ٥٠٣/٢-٥٠٤، وتفسير القرطبي: ٧١/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٧٩٦):ص٥٠٣/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٧٩٧):ص٥٠٣/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٧٩٨):ص٥٠٤/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٨٠٠):ص٥٠٤/٢.
(٨) تفسير القرطبي: ٧١/٢-٧٣.
(٩) نواسخ القرآن، ابن الجوزي: ٤٦.
(١٠) البحر المحيط: ١/ ٣٠١.
(١١) تفسير ابن عثيمين:٣٥٨/١.
(١٢) تفسير الطبري:٥٠٤/٢.
(١٣) صفوة التفاسير:٧٦/١.
(١٤) مفاتيح الغيب: ٦٥٢/٣.
(١٥) البحر المحيط:٣٠١/١.

قال الآلوسي:" تذييل مؤكد لما فهم من سابقه، وفيه إشعار بالانتقام من الكفار ووعد للمؤمنين بالنصرة والتمكين، ويحتمل على بعد أن يكون ذكرا لموجب قبول أمره بالعفو والصفح وتهديدا لمن يخالف أمره"[١].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: بيان شدة عداوة اليهود، والنصارى للأمة الإسلامية؛ وجه ذلك أن كثيراً منهم يودون أن يردوا المسلمين كفاراً حسداً من عند أنفسهم..

٢. ومنها: أن الكفر بعد الإسلام يسمى ردة؛ لقوله تعالى: { لو يردونكم }؛ ولهذا الذي يكفر بعد الإسلام لا يسمى باسم الدين الذي ارتد إليه؛ فلو ارتد عن الإسلام إلى اليهودية، أو النصرانية لم يعط حكم اليهود، والنصارى..

٣. ومنها: أن الحسد من صفات اليهود، والنصارى..

٤. ومنها: تحريم الحسد؛ لأن مشابهة الكفار بأخلاقهم محرمة؛ لقول النبي ﷺ: "من تشبه بقوم فهو منهم"[١] ؛ واعلم أن الواجب على المرء إذا رأى أن الله أنعم على غيره نعمة أن يسأل الله من فضله، ولا يكره ما أنعم الله به على الآخرين، أو يتمنى زواله؛ لقوله تعالى: {ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله} [النساء: ٣٢] ؛ والحاسد لا يزداد بحسده إلا ناراً تتلظى في جوفه؛ وكلما ازدادت نعمة الله على عباده ازداد حسرة؛ فهو مع كونه كارهاً لنعمة الله على هذا الغير مضاد لله في حكمه؛ لأنه يكره أن ينعم الله على هذا المحسود؛ ثم إن الحاسد أو الحسود . مهما أعطاه الله من نعمة لا يرى لله فضلاً فيها؛ لأنه لابد أن يرى في غيره نعمة أكثر مما أنعم الله به عليه، فيحتقر النعمة؛ حتى لو فرضنا أنه تميز بأموال كثيرة، وجاء إنسان تاجر، وكسب مكسباً كبيراً في سلعة معينة تجد هذا الحاسد يحسده على هذا المكسب بينما عنده ملايين كثيرة؛ وكذلك أيضاً بالنسبة للعلم: بعض الحاسدين إذا برز أحد في مسألة من مسائل العلم تجده . وإن كان أعلم منه . يحسده على ما برز به؛ وهذا يستلزم أن يحتقر نعمة الله عليه؛ فالحسد أمره عظيم، وعاقبته وخيمة؛ والناس في خير، والحسود في شر: يتتبع نعم الله على العباد؛ وكلما رأى نعمة صارت جمرة في قلبه؛ ولو لم يكن من خُلُق الحسد إلا أنه من صفات اليهود لكان كافياً في النفور منه..

٥. ومن فوائد الآية: علم اليهود، والنصارى أن الإسلام منقبة عظيمة لمتبعه؛ لقوله تعالى: { حسداً }؛ لأن الإنسان لا يحسد إلا على شيء يكون خيراً، ومنقبة؛ ويدل لذلك قوله تعالى: {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم} [البقرة: ١٠٥] ..

٦. ومنها: وجوب الحذر من اليهود، والنصارى؛ ما دام كثير منهم يودون لنا هذا فإنه يجب علينا أن نحذر منهم..

٧. ومنها: بيان خبث طوية هؤلاء الذين يودون لنا الكفر؛ لقوله تعالى: { من عند أنفسهم }؛ ليس من كتاب، ولا من إساءة المسلمين إليهم؛ ولكنه من عند أنفسهم: أنفس خبيثة تود الكفر للمسلمين حسداً..

٨. ومنها: أن هؤلاء الذين يودون الكفر للمسلمين قد تبين لهم الحق؛ فلو كانوا جاهلين بأن المسلمين على حق، وقالوا: "لا نريد أن نكون على دين مشكوك فيه" لكان لهم بعض العذر؛ ولكنهم قد تبين لهم الحق، وعلموا أن الرسول ﷺ حق، وأن دينه حق، وأن المؤمنين على حق؛ ومع ذلك فهم يودون هذه المودة، ويسعون بكل سبيل أن يصلوا إلى غايتهم؛ فمن أحب شيئاً سعى في تحصيله؛ فكثير من هؤلاء اليهود والنصارى يسعون بكل ما يستطيعون من قوة مادية، أو أخلاقية، أو غيرهما ليردوا المسلمين بعد الإيمان كفاراً..

---

[١] روح المعاني:١/٣٥٧.

[١] أخرجه أحمد ٥٠/٢، حديث رقم ٥١١٤، وأخرجه أبو داود ص١٥١٨، كتاب اللباس، باب ٤: في لبس الشهرة، حديث رقم ٤٠٣١، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنفن كتاب السير، باب ٧٩: ما قالوا فيما ذكر من الرماح واتخاذها، حديث رقم ٣٣٠٠٦، قال الحافظ في الفتح ٢٧١/١٠: أخرجه أبو داود بسند حسن؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٥٠٤/٢، وقال في الإرواء: صحيح ١٠٩/٥، حديث رقم ١٢٦٩.

٩. ومن فوائد الآية: مراعاة الأحوال، وتطور الشريعة، حيث قال تعالى: { فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره }..
١٠. ومنها: أن الذم إنما يقع على من تبين له الحق؛ وأما الجاهل فهو معذور بجهله إذا لم يقصر في طلب العلم..
١١ . ومنها: جواز مهادنة الكفار إذا لم يكن للمسلمين قوة..
١٢. ومنها: إثبات الحكمة لله عز وجل، حيث أمر بالعفو، والصفح إلى أن يأتي الله بأمره؛ لأن الأمر بالقتال قبل وجود أسبابه، وتوفر شروطه من القوة المادية والبشرية، ينافي الحكمة..
١٣. ومنها: الرد على منكري قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل؛ والذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى فعال لما يريد فعلاً يليق بجلاله وعظمته، وما تقتضيه حكمته؛ لقوله تعالى: { حتى يأتي الله بأمره }..
١٤. ومنها: ثبوت القدرة لله عز وجل، وأنها شاملة لكل شيء؛ لقوله تعالى: {إن الله على كل شيء قدير}.
١٥. ومنها: الرد على المعتزلة القدرية؛ لأنهم يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله؛ وإذا كان مستقلاً بعمله لزم من ذلك أن الله لا يقدر على تغييره؛ لأنه إن قدر على تغييره صار العبد غير مستقل..
١٦. ومنها: بشارة المؤمنين بأن الله سبحانه وتعالى سيغير حالهم المقتضية للعفو والصفح، إلى قوة يستطيعون بها جهاد العدو..

١٧.ومنها: اتباع الحكمة في الدعوة إلى الله بالصبر، والمصابرة حتى يتحقق النصر، وأنْ تعامَل كل حال بما يناسبها.

القرآن

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)} [البقرة : ١١٠]

التفسير:

واشتغلوا -أيها المؤمنون- بأداء الصلاة على وجهها الصحيح، وإعطاء الزكاة المفروضة. واعلموا أنَّ كل خير تقدمونه لأنفسكم تجدون ثوابه عند الله في الآخرة. إنه تعالى بصير بكل أعمالكم، وسيجازيكم عليها.
قال أبو حيان:" لما أمر بالعفو والصفح، أمر بالمواظبة على عمودي الإسلام : العبادة البدنية ، والعبادة المالية، إذ الصلاة فيها مناجاة الله تعالى والتلذذ بالوقوف بين يديه، والزكاة فيها الإحسان إلى الخلق بالإيثار على النفس ، فأمروا بالوقوف بين يدي الحق وبالإحسان إلى الخلق"[١].

قوله تعالى:{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}[البقرة:١١٠]، "أي ائتوا بها مستقيمة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ومكملاتها"[٢].
قال الثعلبي:" أي:"وحافظوا على الصلوات الخمس بمواقيتها [وأركانها] وركوعها وسجودها"[٣].
قال ابن عطية:" معناه: أظهروا هيئتها وأديموها بشروطها"[٤].
وأخرج ابن أبي حاتم "عن الحسن في قوله:{وأقيموا الصلاة}، قال: فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالزكاة"[٥]. وروي عن عطاء بن أبي رباح وقتادة نحو ذلك[٦].
وقال الزهري: "إقامتها أن تصلي الصلوات الخمس لوقتها"[٧].

---

(١) البحر المحيط:٣٠١/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين: ١٥٦/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ١٨٨/١.
(٤) المحرر الوجيز: ١٣٦/١.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم(٤٦١):ص٩٩/١.
(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:ص٩٩/١.
(٧) تفسير ابن أبي حاتم(٤٦٢):ص٩٩/١.

و(إقامة الصلاة): "أداؤها - بحدودها وفروضها والواجب فيها - على ما فُرِضَتْ عليه، كما يقال: أقام القومُ سُوقَهم، إذا لم يُعَطِّلوها من البَيع والشراء فيها"(١)، وكما قال الشاعر(٢):

أَقَمْنَا لأَهْلِ الْعِرَاقَيْنِ سُوقَ الـ   ـضِّرَاب فَخَامُوا وَوَلَّوْا جَمِيعَا

قوله تعالى: {وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة : ٤٣]، "يعني: وأدّوا زكاة أموالكم المفروضة"(٣).

قال الطبري:" وإيتاءُ الزكاة، هو أداء الصدقة المفروضة"(٤).

قال ابن عثميمين:" أي أعطوا الزكاة"(٥).

واختلف في أصل (الزَّكاة) على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها مأخوذة من: زكا الشيء، إذا نما وزاد، قال الراغب: أصل الزكاة: النمو الحاصل عن بركة الله تعالى(٦).

قال ابن عطية: "وسمي الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه، من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذي يثيب الله به المزكي"(٧).

الثاني: أن (الزَّكاةَ) مأخوذة من التطهير، كما يقال زكا فلان أي طهر من دنس الجرحة أو الاغفال(٨).

قال ابن عطية: فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين، ألا ترى أن النبي ﷺ سمى في الموطأ ما يخرج في الزكاة أوساخ الناس(٩)"(١٠).

واختار الطبري هذا الوجه، قائلا:" وقد يحتمل أن تكون سُمِّيت زكاة ، لأنها تطهيرٌ لما بقي من مال الرجل ، وتخليص له من أن تكون فيه مَظْلمة لأهل السُّهْمان(١١)، كما قال جل ثناؤه مخبرًا عن نبيه موسى صلوات الله عليه :{أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً}[سورة الكهف : ٧٤] ، يعني بريئة من الذنوب طاهرة. وكما يقال للرجل : هو عدل زَكِيٌّ - لذلك المعنى، وهذا الوجه أعجب إليّ - في تأويل زكاة المال - من الوجه الأوّل ، وإن كان الأوّل مقبولا في تأويلها"(١٢).

وقال ابن الأثير: وأصل الزكاة في اللغة: الطهارة والنماء والبركة والمدح فالزكاة طهرة للأموال وزكاة الفطر طهرة للأبدان(١٣).

---

(١) تفسير الطبري: ٢٤١/١.

(٢) البيت ذكره الطبري ولم أتعرف على قائله. انظر: تفسير الطبري: ٢٤١/١.

(٣) تفسير الثعلبي: ١٨٨/١.

(٤) تفسير الطبري: ٥٧٢/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين: ١٥٦/١.

(٦) المفردات في غريب القرآن ص: ٢١٣ والمعجم الوسيط ص: ٣٩٨.

(٧) المحرر الوجيز: ١٣٦/١.

(٨) انظر: تهذيب اللغة (زكا) ٢/ ١٥٤٢، واللسان:(زكا) ٣/ ١٨٤٩، والمصباح ج١ ص: ٢٧٢ والمختار من صحاح اللغة ص ٢١٨ والمطلع على أبواب المقنع ص: ٢٢٢ والروض المربع ج ١ ص: ١٠٧ والمجموع شرح المهذب ج٥ ص: ٢٩١، والمحرر الوجيز: ١٣٦/١.

(٩) رواه مسلم(١٠٧٢)، ولفظه:""إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس".

وإنما كانت الزكاة أوساخ الناس؛ لأن الناس يتطهرون بإخراجها، كما قال الله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ} [التوبة: ١٠٣]، وليس لها علاقة بمستحقي الزكاة، بل هي مال طيب حلال بالنسبة لهم، لكن إخراجها تطييب وتطهير لما يمكن أن يشوب صاحبها أو عمله أو ماله من سوء، فلذلك منع منها النبي ﷺ آل محمد، لكن ليس هذا فيه إزراء بالناس، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، يمنع آل النبي ﷺ من أخذها صيانة لهم عن أن يقبلوا ما تطهر به الناس، وهذه مرتبة عليا، لكن هذا لا يعني أن من يأخذ الزكاة بحق فهو ناقص، فقد جعل الله من مصارف الزكاة الجهاد في سبيل الله، وهو من أفضل الأعمال، ومن مصارفها الغارم للإصلاح بين الناس ولو كان غنيًّا، وهو من خير الأعمال، قال الله تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}، والمقصود أنه ليس صحيحًا أن إعطاء الزكاة لمن يستحقها تنقص له، ومن فهم بهذا المعنى فإنه لم يفهم مراد النبي ﷺ، والله أعلم.

(١٠) المحرر الوجيز: ١٣٦/١.

(١١)السهمان جمع سهم ، كالسهام : وهو النصيب والحظ .

(١٢) تفسير الطبري: ٥٧٤/١.

(١٣) النهاية في غريب الحديث ج ٢ ص: ٣٠٧.

وقال ابن عثيمين:" وسميت زكاة؛ لأنها تزكي الإنسان، كما قال الله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة : ١٠٣]؛ فهي تزكي الإنسان في أخلاقه، وعقيدته، وتطهره من الرذائل؛ لأنها تخرجه من حظيرة البخلاء إلى حظيرة الأجواد، والكرماء؛ وتكفِّر سيئاته"[١].

قلت: وكل ذلك صحيح في معنى التسمية، فهي تزكي وتنمي المعطي والمعطى والمال الذي أخرجت منه.
والثالث: وقيل زكا الفَرْدُ، إذا صارَ زَوْجًا، بزيادة الزائد عليه حتى صار به شفْعًا.
قال الواحدي: "والعرب تقول للفرد: خسا، وللزوجين اثنين: زكا، قيل لهما: زكا، لأن الاثنين أكثر من الواحد"[٢]، ثم استشهد بقول الشاعر[٣]:

إِذا نَحْنُ في تِعْدَادِ خَصْلِكَ لَمْ نَقُلْ   خَسَا وَزَكا أَعْيَيْن مِنَّا المُعَدِّدَا

ومنه قول الشاعر[٤]:

كَانُوا خَسًا أو زَكًا مِنْ دُونِ أَرْبَعَةٍ   لَمْ يُخْلَقُوا، وَجُدُودُ النَّاسِ تَعْتَلِجُ

وقال آخر[٥] :

فَلا خَسًا عَدِيدُهُ وَلا زَكا   كَمَا شِرَارُ الْبَقْلِ أَطْرَافُ السَّفَا

والسفا شوك البُهْمَى، والبُهْمى الذي يكون مُدَوَّرًا في السُّلاء، ويعني بقوله:(ولا زكا)، لم يُصَيِّرْهم شَفعًا من وَترٍ، بحدوثه فيهم[٦].
قال الواحدي: "والأظهر أن أصلها من الزيادة"[٧]، ثم استشهد بقول النابغة[٨]:

وَمَا أَخَّرْتَ مِنْ دُنْيَاكَ نَقْصٌ   وَإِن قَدَّمْتَ عَادَ لَكَ الزَّكاءُ

أراد بالزكاء: الزيادة[٩].
والزكاة شرعًا: حق واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة في وقت مخصوص[١٠]،تعبداً لله عز وجل.
وأما مستحقوا الزكاة: "فقد بينهم الله في سورة براءة في قوله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ٦٠]"[١١].

قال ابن كثير: " يَحُثُّ تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتَعُودُ عليهم عاقبتُه يوم القيامة ، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد { يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } [غافر : ٥٢]"[١٢].

---

(١) تفسير ابن عثيمين: ١٨٩/١.
(٢) التفسير البسيط: ٤٤٥/١-٤٤٦.
(٣) البيت في "الزاهر" ٢/ ١٨٧، وفي شعر الكميت جمع دواد سلوم ١/ ١٦٢، وفيه: (إذا نحن في تكرار وصفك ...).
(٤)اللسان (خسا) ، وفيه : " الفراء : العرب تقول للزوج زكا ، وللفرد خسا . . . قال ، وأنشدتني الدبيرية . . . " وأنشد البيت . وتعتلج : تصطرع ويمارس بعضها بعضا .
(٥) الرجل من بني سعد، ثم أحد بني الحارث في عمرو بن كعب بن سعد، وهذا الرجز في خبر للأغلب العجلي، (طبقات فحول الشعراء : ٥٧٢ / ومعجم الشعراء : ٤٩٠ / والأغاني ١٨ : ١٦٤) ورواية الطبقات والأغاني : " كما شرار الرعى " . والرعى (بكسر فسكون) : الكلأ نفسه ، والمرعى أيضًا . والسفا : شوط البهمي والسنبل وكل شيء له شوك . يقول : أنت في قومك كالسفا في البهمي ، هو شرها وأخبثها . والبيت الأول زيادة ليست في المراجع المذكورة .
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٥٧٣/١.
(٧) التفسير البسيط: ٤٤٥/٢.
(٨)ورد البيت في "الزاهر" ٢/ ١٨٧، "شمس العلوم" ٢/ ٢٢٣.
(٩)أنظر: التفسير البسيط: ٤٤٥/٢.
(١٠) الإقناع في فقه الإمام ابن حنبل ج ١ ص: ٢٤٢.
(١١) تفسير ابن عثيمين: ١٨٩/١.
(١٢)تفسير ابن كثير: ٣٨٣/٢-٣٨٤.

وتعددت أقوال أهل التفسير في قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}[البقرة:١١٠]، على وجهين[١]:
أحدهما: إن قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ}، عموم.
والثاني: وقالت فرقة: هو من مجمل القرآن.
قال ابن عطية:"والمرجح أن ذلك عموم من وجه ومجمل من وجه، فعموم من حيث الصلاة الدعاء، فحمله على مقتضاه ممكن، وخصصه الشرع بهيئات وأفعال وأقوال، ومجمل من حيث الأوقات، وعدد الركعات والسجدات لا يفهم من اللفظ، بل السامع فيه مفتقر إلى التفسير، وهذا كله في أَقِيمُوا الصَّلاةَ، وأما {الزكاة}، فمجملة لا غير"[٢].
وقال الرازي: "والأظهر أن المراد به التطوعات من الصلوات والزكوات، وبين تعالى أنهم يجدونه وليس المراد أنهم يجدون عين تلك الأعمال لأنها لا تبقى ولأن وجدان عين تلك الأشياء لا يرغب فيه، فبقي أن المراد وجدان ثوابه وجزائه"[٣].
قال الطبري: "وإنما أمرهم جل ثناؤه في هذا الموضع بما أمرهم به ، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتقديم الخيرات لأنفسهم ، ليَطَّهروا بذلك من الخطأ الذي سلف منهم في استنصاحهم اليهود ، وركون من كان ركن منهم إليهم ، وجفاء من كان جفا منهم في خطابه رسول الله ﷺ بقوله : {راعنا}، إذْ كانت إقامة الصلوات كفارة للذنوب ، وإيتاء الزكاة تطهيرا للنفوس والأبدان من أدناس الآثام ، وفي تقديم الخيرات إدراك الفوز برضوان الله" [٤].
قوله تعالى:{وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ}[البقرة:١١٠]،" أي وما تتقربوا إلى الله من صلاة أو صدقة أو عمل صالح فرضاً كان أو تطوعاً، تجدوا ثوابه عند الله"[٥].
قال المراغي:" أي وما تعملوا من خير تجدوا جزاءه عند ربكم يوم توفى كل نفس جزاء عملها بالقسطاس المستقيم"[٦].
قال الطبري:" يعني: ومهما تعملوا من عمل صالح في أيام حياتكم ، فتقدموه قبل وفاتكم ذخرا لأنفسكم في معادكم ، تجدوا ثوابه عند ربكم يوم القيامة ، فيجازيكم به"[٧].
قال سعيد بن جبير:" {ما تقدموا}، يعني: ما عملوا من الأعمال من الخير في الدنيا"[٨].
وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية، في قوله{ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ}، قال:" تجدوا ثوابه عند الله"[٩]. وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك[١٠].
وقال أبو حيان:" لما قدم الأمر بالصلاة والزكاة أتى بهذه الجملة الشرطية عامة لجميع أنواع الخير ، فيندرج فيها الصلاة والزكاة وغيرهما.. وقد فسر الخير هنا بالزكاة والصدقة، والأظهر العموم"[١١].
و(الخير) هو العمل الذي يرضاه الله، وإنما قال: (تجدوه)، والمعنى : تجدوا ثوابه، كما قال الشاعر[١٢] :
وَسَبَّحَتِ الْمَدِينَةُ، لا تَلُمْهَا   رَأَتْ قَمَرًا بِسُوقِهِمُ نَهَارَا
وإنما أراد : وسبح أهل المدينة[١٣].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١٩٧/١.
(٢) المحرر الوجيز:١٩٧/١.
(٣) مفاتيح الغيب:٥/٤.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٥٠٥/٢-٥٠٦
(٥) صفوة التفاسير: ٧٦/١. [بتصرف بسيط].
(٦) تفسير المراغي: ١٩٢/١.
(٧)انظر: تفسير الطبري: ٥٠٥/٢
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٩١):ص٢٠٦/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٩٢):ص٢٠٦/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٠٦/١.
(١١) البحر المحيط: ٣٠١/١.
(١٢) البيت لعمر بن لجأ. وهو في تفسير الطبري: ٥٠٥/٢.
(١٣)انظر: تفسير الطبري: ٥٠٥/٢

وقوله تعالى: {عِندَ اللَّهِ}[البقرة:١١٠]، أي "تجدوه مدّخراً ومعدًّا عند الله، والظرفية هنا المكاتبة ممتنعة ، وإنما هي مجاز بمعنى القبل ، كما تقول لك : عندي يد ، أي في قبلي ، أو بمعنى في علم الله نحو : {وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ} ، أي في علمه وقضائه ، أو بمعنى الاختصاص بالإضافة إلى الله تعالى تعظيماً كقوله : {إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ}"[1].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[البقرة:١١٠]، "أي إن الله رقيب عليكم مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها يوم الدين"[2].

قال ابن عطية:" خبر في اللفظ، معناه الوعد والوعيد"[3].

قال ابن كثير: يعني : "أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ، ولا يضيع لديه ، سواء كان خيرًا أو شرًا ، فإنه سيجازي كل عامل بعمله"[4].

قال المراغي: أي :" فهو عالم بجميع أعمالكم كثيرها وقليلها ، لا تخفى عليه خافية من أمركم ، خيرا كانت أو شرّا وهو مجازيكم عليها.

ولا يخفى ما في هذا من الترغيب والترهيب"[5].

قال الإمام الطبري: "وهذا خبر من الله جل ثناؤه للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين ، أنهم مهما فعلوا من خير وشر سرا وعلانية ، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء ، فيجزيهم بالإحسان خيرا ، وبالإساءة مثلها، وهذا الكلام وإن كان خرج مخرج الخبر ، فإن فيه وعدا ووعيدا ، وأمرا وزجرا، وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ، ليجدوا في طاعته ، إذْ كان ذلك مذخورا لهم عنده حتى يثيبهم عليه ، كما قال : {وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله}، وليحذروا معصيته ، إذْ كان مطلعا على راكبها ، بعد تقدمه إليه فيها بالوعيد عليها ، وما أوعد عليه ربنا جل ثناؤه فمنهي عنه ، وما وعد عليه فمأمور به" [6].

وقال الرازي: " فالله تعالى لا يخفى عليه القليل ولا الكثير من الأعمال وهو ترغيب من حيث يدل على أنه تعالى يجازي على القليل كما يجازي على الكثير، وتحذير من خلافه الذي هو الشر، وأما الخير فهو النفع الحسن وما يؤدي إليه، فلما كان ما يأتيه المرء من الطاعة يؤدي به إلى المنافع العظيمة، وجب أن يوصف بذلك، وعلى هذا الوجه قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الحج : ٧٧][7].

وقال أبو حيان:" وكنى بقوله : {بصير} عن علم المشاهد ، أي لا يخفى عليه عمل عامل ولا يضيعه ، ومن كان مبصراً لفعلك ، لم يخف عليه ، هل هو خير أو شر ، وأتى بلفظ {بصير} دون (مبصر)، إما لأنه من بصر ، فهو يدل على التمكن والسجية في حق الإنسان ، أو لأنه فعل للمبالغة بمعنى مفعل ، الذي هو للتكثير"[8].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر قال: "رأيت رسول الله- ﷺ- وهو يقترى هذه الآية: {سميع بصير} يقول: بكل شيء بصير"[9].

الفوائد:

([1]) البحر المحيط: ٣٠١/١.

([2]) صفوة التفاسير: ٧٦/١.[بتصرف بسيط].

([3]) المحرر الوجيز: ١٩٧/١.

([4])تفسير ابن كثير: ٣٨٤/٢.

([5]) تفسير المراغي: ١٩٢/١.

([6]) تفسير الطبري: ٥٠٦/٢.

([7]) مفاتيح الغيب:٥/٤.

([8]) البحر المحيط: ٣٠١/١.

([9]) تفسير ابن أبي حاتم(١٠٩٣):ص٢٠٧/١.

١- من فوائد الآية: جوب إقامة الصلاة؛ والصلاة تشمل الفريضة والنافلة؛ ومن إقامة الفرائض كثرة النوافل؛ لأنه جاء في الحديث[١] أن النوافل تكمل بها الفرائض يوم القيامة؛ ما من إنسان إلا وفي فريضته نقص؛ لكن هذه النوافل تكملها، وترقعها.
٢- ومنها: وجوب إيتاء الزكاة . يعني لمستحقيها .
٣- ومنها: أن الصلاة أوكد من الزكاة؛ ولهذا يقدمها الله عليها في الذكر.
٤- ومنها: أن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة من أسباب النصر؛ لأن الله ذكرها بعد قوله: {فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره} [البقرة: ١٠٩] ؛ وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكَّنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور} [الحج: ٤٠، ٤١] .
٥- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يتشاغل بالأهم فالأهم مع الدعوة إلى الله عز وجل.
٦- ومنها: أن كل خير يقدمه العبد لربه عز وجل فإنه سيجد ثوابه عنده.
٧- ومنها: أن الثواب عام لجميع الأعمال صغيرها، وكبيرها؛ لقوله تعالى: { من خير }؛ فإنها نكرة في سياق الشرط؛ فتفيد العموم؛ فأيّ خير قدمته قليلاً كان، أو كثيراً ستجد ثوابه؛ قال الرسول ﷺ: "اتقوا النار ولو بشق تمرة"[٢] .
٨- ومنها: الترغيب في فعل الخير، حيث إن الإنسان يجد ثوابه عند ربه مدخراً له . وهو أحوج ما يكون إليه .
٩- ومنها: أن الإنسان إذا قدم خيراً فإنما يقدمه لنفسه؛ لقوله تعالى: { وما تقدموا لأنفسكم من خير }؛ ولهذا ليس له من ماله إلا ما أنفق لله؛ وما أخره فلوارثه..
١٠- ومنها: عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل ما نعمل..
١١- ومنها: التحذير من المخالفة؛ لقوله تعالى: {إن الله بما تعملون بصير}.

القرآن
{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)} [البقرة : ١١١]
التفسير:
ادَّعى كلٌّ من اليهود والنصارى أن الجنة خاصة بطائفته لا يدخلها غيرهم، تلك أوهامهم الفاسدة. قل لهم -أيها الرسول-: أحضروا دليلكم على صحة ما تدَّعون إن كنتم صادقين في دعواكم.
في سبب نزول هذه الآية :
قال السدي: "نزلت في الذين قالوا: {لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى} أي: قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا"[١]. وروي عن أبي العالية[٢] ومجاهد[٣] والربيع[٤] نحو ذلك.
قوله تعالى:{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى}[البقرة:١١١]، " أي قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقال النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً"[٥].

---

[١] كما في سنن أبي داود في الصلاة، باب قول النبي ﷺ: "كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه"، من حديث أنس بن حكيم حديث رقم (٨٦٤). والترمذي باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة حديث رقم (٤١٣)، والنسائي في الصلاة. باب المحاسبة على الصلاة.
[٢] أخرجه البخاري، ١١١، كتاب الزكاة، باب ١٠: "اتقوا النار ولو بشق تمرة"، حديث رقم ١٤١٧، وأخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ٢٠: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة...، حديث رقم ٢٣٤٨ [٦٧] ١٠١٦.
[١] العجاب: ٣٥٧/١، وتفسير ابن أبي حاتم(١٠٩٤):ص٢٠٧/١.
[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٩٤):ص٢٠٧/١.
[٣] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٠٧/١.
[٤]انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٠٧/١.
[٥] صفوة التفاسير: ٧٨/١.

قال الواحدي:" المعنى: أن اليهود قالت: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، والنصارى قالت: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، ولكنهم أُجملوا، وضم النصارى إلى اليهود في قوله: {وَقَالُوا}؛ لأن الفريقين يُقِرَّانِ بالتوراة، كما قال حسان[١]:

أَمَنْ يهجُو رسولَ اللهِ منكمْ ويمدحُه وينصرُه سواءُ

تقديره: ومن يمدحه وينصره، إلا أنه لما كان اللفظ واحدًا جُمع مع الأول، يعنى إلى أصل الفعل، وصار كأنه إخبار عن جملة واحدة، وإنما حقيقته عن بعضين مختلفين"[٢].

قال الزمخشري:" فلفّ بين القولين، ثقة بأنّ السامع يردّ إلى كل فريق قوله ، وأمنا من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه. ونحوه {وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا}[البقرة:١٣٥]"[٣].

قال السمين الحلبي:" وقدمت اليهود على النصارى لفظا، لتقدمهم زمانا"[٤].

قال ابن كثير: "يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها ، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا : { نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } [المائدة : ١٨]، فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك ، وكما تقدم من، دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياما معدودة ، ثم ينتقلون إلى الجنة. وردَّ عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة، فقال تعالى{تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} [٥].

قال الطبري: "وعلى الرغم من اختلاف مقالة الفريقين فلقد جمع اليهود والنصارى في هذا الخبر، وكما هو معلوم بأن اليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها في ثواب الله نصيب، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك، ولكن معنى الكلام لما كان مفهوما عند المخاطبين به معناه، فجُمع الفريقان في الخبر عنهما ، فقيل : {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، أي قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا[٦].

وفي أصل (اليهود) من حيث اللغة، قولان[٧]:

أحدهما: أن يكون جمع (هائد)، و(الهائد):التائب الراجع إلى الحق[٨].

قال ابن جريج:"إنما سميت اليهود من أجل أنهم قالوا:{ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ }[الأعراف : ١٥٦]"[٩].

قال الزمخشري:" إن قلت : كيف قيل كان هوداً على توحيد الاسم وجمع الخبر؟ قلت : حمل الاسم على لفظ «من» والخبر على معناه ، كقراءة الحسن: {إِلَّا مَنْ هُوَ صَالوا الْجَحِيمِ} [الصافات : ١٦٣]"[١٠].

والثاني: وقيل هو مصدر، يوصف به الواحد والجمع، كفطر وعدل ورضا.

وقال الفراء: إن أصله" (يهوديًّا)، فحذف الياء الزائدة ورجع إلى الفعل من اليهودية، وهي فِي قراءة أُبِي وعبد الله: {إلا من كان يهوديًّا أو نصرانيّا}"[١١].

([١]) يوانه: ٨، وانظر: السيرة النبوية: ٤/ ٤٦، وتذكرة النحاة:٧٠، والخزانة: ٩/ ٢٣٢، وإعراب القرآن للنحاس: ٢/ ٣٥٣، والبحر المحيط: ١/ ٦٤٠.

([٢]) التفسير البسيط: ٢٤٤/٣.

([٣]) الكشاف: ١٧٧/١.

([٤]) الدر المصون: ٧٠/٢.

([٥]) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٨٤/١-٣٨٥.

([٦]) انظر: تفسير الطبري: ٥٠٦/٢.

([٧]) انظر: تفسير الطبري: ٥٠٧/٢-٥٠٨، والمحرر الوجيز: ١٩٧/١.

([٨]) انظر: تهذيب اللغة: ٤/ ٣٦٨٩.

([٩]) أخرجه الطبري(١٠٩٤):ص١٤٣/٢.

([١٠]) الكشاف: ١٧٧/١.

([١١]) معاني القرآن:١/ ٧٣، وعنه النحاس في "إعراب القرآن" ١/ ٢٠٧، وانظر: مثله في: "معاني القرآن" للأخفش ١/ ١٥١، "تفسير الطبري" ١/ ٤٩١ - ٤٩٢، "معاني القرآن" للزجاج ١/ ١٩٤، والكشاف: ١٧٧/١.

وأما (النصارى) جمع، واحدهم (نصران)، كما واحد السكارى سكران ، وواحد النشاوى نشوان، وكذلك جمع كل نعت كان واحده على " فعلان " فإن جمعه على " فعالى "، إلا أن المستفيض من كلام العرب في واحد " النصارى " " نصراني " . وقد حكى عنهم سماعا " نصران " بطرح الياء ، ومنه قول الشاعر[١]:

تراه إذا زار العشي مُحَنِّفًا ويضحي لديه وهو نصران شامس

وسمع منهم في الأنثى : نصرانة، قال الشاعر [٢]:

فَكِلْتَاهُمَا خَرَّتْ وَأَسْجَدَ رَأْسُهَا كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ

يقال : أسجد ، إذا مال، وقد سمع في جمعهم: أنصار، بمعنى النصارى، قال الشاعر[٣]:

لَمَّا رَأَيْتُ نَبَطًا أَنْصَارَا شَمَّرْتُ عَنْ رُكْبَتِيَ الإِزَارَا

كُنْتُ لَهُمْ مِنَ النَّصَارَى جَارَا

واختلف في سبب تسميتهم بـ(النصارى) على وجوه[٤]:

أحدها: أنهم سموا (نصارى) لنصرة بعضهم بعضا ، وتناصرهم بينهم.

والثاني: وقيل إنهم سموا (نصارى)، من أجل أنهم نزلوا أرضا يقال لها (ناصرة)قاله ابن عباس[٥]، وقتادة[٦]، وابن جريج[٧].

الثالث: وقيل: أنهم سموا بذلك، لقوله تعالى: {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}[سورة الصف : ١٤][٨].

قوله تعالى:{تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ}[البقرة:١١١]، " أي: تلك خيالاتهم وأحلامهم"[٩].

قال أبو العالية : " أماني تمنوها على الله بغير حق"[١٠]. وروي عن قتادة[١١]، والربيع [١٢] نحو لك.

قال الواحدي:" أي: التي تمنَّوْها على الله باطلًا"[١٣].

قال ابن الجوزي:" أي ذاك شئ يتمنونه وظن يظنونه"[١٤].

([١]" لم أعرف قائله. والبيت في الأضداد لابن الأنباري : ١٥٥ ، ورواه : " تراه ويضحى وهو . . " ونقله أبو حيان في البحر المحيط ١ : ٢٣٨ عن الطبري ، وفيهما " إذا دار العشى " وأخطأ القرطبي (تفسيره ١ : ٣٦٩) فقال : و " أنشد سيبويه " وذكر البيت ، ولم ينشده سيبويه . وروى صدره .(تراه إذا دار العشا متحنفا) والبيت في صفة الحرباء . و " محنفا " : قد تحنف ، أو صار إلى الحنيفية . ويعني أنه مستقبل القبلة . وقوله : " لديه " ، أي لدى العشى ، ويريد قبل أن يستوى العشى أو لدى الضحى ، ويكون قد ذكره في بيت قبله . وقوله : " شامس " ، يريد مستقبل الشمس ، قبل المشرق . يقول يستقبل الشمس كأنه نصراني ، وهو كقول ذي الرمة في صفة الحرباء أيضًا : إذا حول الظل العشى رأيته ... حنيفا ، وفي قرن الضحى ينتصر

([٢]) البيت لأبي الأخزر الحماني، سيبويه ٢ : ٢٩ ، ١٠٤ ، واللسان (حنف) ، يصف ناقتين ، طأطأتا رؤوسهما من الإعياء ، فشبه رأس الناقة في طأطأتها ، برأس النصرانية إذا طأطأته في صلاتها. وأسجد الرجل : طأطأ رأسه وخفضه وانحنى. قال حميد بن ثور ، يصف نوقا :

فلما لوين على معصم وكف خضيب وأسوارها

فضول أزمتها أسجدت سجود النصاري لأحبارها

([٣])لم أعرف صاحب الرجز، والأبيات ، في معاني القرآن للفراء ١ : ٤٤ أمالي ابن الشجرى ١ : ٧٩ ، ٣٧١ . أنشده شاهدا على حذف واو العطف : أي " وكنت لهم من النصارى جارا " ، ثم أنشده في الموضع الآخر شاهدا على حذف الفاء العاطفة أي " فكنت لهم . . " .(تفسير الطبري: ١٤٤/٢).

([٤]) انظر: تفسير الطبري: ٢٤٤/٢-٢٤٥.

([٥]) انظر :تفسير الطبري(١٠٩٦):ص ١٤٣/٢-١٤٥.

([٦]) انظر :تفسير الطبري(١٠٩٧):ص ١٤٣/٢-١٤٥.

([٧]) انظر :تفسير الطبري(١٠٩٥):ص ١٤٤/٢.

([٨]) انظر: تفسير الطبري:١٤٥/٢.

([٩]) صفوة التفاسير: ٧٨/١.

([١٠]) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٩٥):ص٢٠٧/١.

([١١]) انظر: تفسير الطبري(١٨٠٢):ص٥٠٨/٢.

([١٢]) انظر: تفسير الطبري(١٨٠٣):ص٥٠٨/٢.

([١٣]) التفسير البسيط:٢٤٥/٣.

([١٤]) زاد المسير:١٣٣/١.

قال أبو السعود:" الجملةُ معترِضةٌ، مبنية لبطلان ما قالوا، و{تلك} إشارةٌ إليه"[١].
و(الأماني) جمع أمنية؛ وهي ما يتمناه الإنسان بدون سبب يصل به إليه، "والعرب تسمى كل ما لا حجة عليه ولا برهان له تمنيا وغرورا ، وضلالا وأحلاما وإسلام الوجه لله هو الانقياد والإخلاص له في العمل بحيث لا يجعل العبد بينه وبين ربه وسطاء يقربونه إليه زلفى ، ويقال فلان ليس على شيء من كذا : أي ليس على شيء منه يعتدّ به ويؤبه به"[٢].
قال الزمخشري:" فإن قلت:لم قيل {تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ}، وقولهم {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ} أمنية واحدة؟ قلت: أشير بها إلى الأمانى المذكورة وهو أمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردّوهم كفاراً ، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم : أى تلك الأمانى الباطلة أمانيهم"[٣].
والمشار إليه بـ{تلك}[البقرة:١١٠]، فيه ثلاثة احتمالات[٤]:
أحدها: أنه المقالة المفهومة من: {قالوا لن يدخل}، أي: تلك المقالة أمانيهم.
قال السمين الحلبي:"، فإن قيل: فكيف أفرد المبتدأ وجمع الخبر؟ فالجواب أن تلك كناية عن المقالة، والمقالة في الأصل مصدر، والمصدر يقع بلفظ الإفراد للمفرد والمثنى والمجموع، فالمراد بـ«تلك» الجمع من حيث المعنى"[٥].
والثاني: أن يشار بها إلى الأماني المذكورة، وهي أمنيتهم ألا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردوهم كفارا، وأمنيتهم ألا يدخل الجنة غيرهم.
قال السمين الحلبي: "وهذا ليس بظاهر، لأن كل جملة ذكر فيها ودهم لشيء قد كملت وانفصلت واستقلت بالنزول، فيبعد أن يشار إليها"[٦].
والثالث: أن يكون على حذف مضاف، أي: أمثال تلك الأمنية أمانيهم، يريد أن أمانيهم جميعا في البطلان مثل أمنيتهم هذه.
قال السمين الحلبي:" وفيه قلب الوضع، إذ الأصل أن يكون{تلك} مبتدأ، و{أمانيهم }، خبر، فقلب هذا الوضع، إذ قال: إن أمانيهم في البطلان مثل أمنيتهم هذه، وفيه أنه متى كان الخبر مشبها به المبتدأ فلا يتقدم الخبر"[٧].
قوله تعالى:"{قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ}[البقرة:١١١]، "أي قل لهم يا محمد أئتوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون"[٨].
قال الزمخشري:أي:" هلّموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة"[٩].
قال الطبري: أي: "يا محمد ، قل للزاعمين أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى ، دون غيرهم من سائر البشر : {هاتوا برهانكم}، على ما تزعمون من ذلك، فنسلم لكم دعواكم"[١٠].
قال ابن عطية:" أمر محمد ﷺ بدعائهم إلى إظهار البرهان"[١١].
قال أبو العالية:" أي حجتكم"[١٢].وروي عن مجاهد، والسدي، والربيع نحو ذلك[١٣].
وقال قتادة:" بيّنتكم على ذلك، إن كنتم صادقين"[١٤].

---

(١) تفسير أبي السعود: ١٤٧/١.
(٢) تفسير المراغي: ١٩٥/١.
(٣) الكشاف: ١٧٧/١-١٧٨.
(٤) انظر: الدر المصون: ٧١/٢، والكشاف: ١٧٧-١٧٨.
(٥) الدر المصون: ٧٢/٢.
(٦) الدر المصون:٧١/٢.
(٧) الدر المصون: ٧٢/٢.
(٨) صفوة التفاسير: ٧٨/١.
(٩) الكشاف: ١٧٨/١، وانظر: تفسير أبي السعود: ١٤٧/١.
(١٠) تفسير الطبري: ٥١٠/٢.
(١١) المحرر الوجيز: ١٩٨/١.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٩٦):ص٢٠٧/١.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٠٧/١.
(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٩٧):ص٢٠٧/١.

قال السعدي:" فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أماني غير مقبولة، إلا بحجة وبرهان"[١].
و(البرهان): الحجة[٢]، أي: الدليل الذي يوقع اليقين ، وجمعه براهين ، مثل قربان وقرابين ، وسلطان وسلاطين[٣].
وأصل (هَاتُوا)، هاتيوا ، حذفت الضمة لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، يقال في الواحد المذكر : هات ، مثل رام ، وفي المؤنث : هاتي ، مثل رامي[٤].
قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[البقرة:١١١]، أي :" إن كنتم صادقين في دعواكم"[٥].
قال أبو العالية: "{إن كنتم صادقين}، بما تقولون إنه كما تقولون"[٦]. وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك[٧].
قال الطبري: أي: " إن كنتم في دعواكم - من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى - محقين"[٨].

قال ابن عثيمين:" فهو تحدٍّ، كقوله تعالى: {فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم} [البقرة: ٩٤، ٩٥] ؛ فإذا كانوا صادقين في زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، أو نصارى فليأتوا بالبرهان؛ ولن يأتوا به؛ إذاً يكونون كاذبين"[٩].
قال الزمخشري:" وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين، وأنّ كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت"[١٠].

قال السعدي:" وهكذا كل من ادعى دعوى، لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان، علم كذبهم بتلك الدعوى"[١١].

الفوائد:
١. من فوائد الآية: بيان ما كان عليه اليهود، والنصارى من الإعجاب بما هم عليه من الدين..
٢. ومنها: تعصب اليهود، والنصارى؛ وتحجيرهم لفضل الله..
٣. ومنها: أن ما ادعوه كذب؛ لقوله تعالى: { تلك أمانيهم }؛ فعلى قول هؤلاء اليهود يكون النصارى، والمسلمون لن يدخلوا الجنة؛ وقد سبق أن قالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ثم تخلفوننا فيها؛ وعلى قول النصارى لا يدخل اليهود، ولا المسلمون الجنة؛ أما اليهود فصحيح: فإنهم كفروا بعيسى، وبمحمد؛ ومن كفر بهما فإنه لن يدخل الجنة؛ وأما بالنسبة للمسلمين فغير صحيح؛ بل المسلمون هم أهل الجنة؛ وأما اليهود والنصارى الذين لم يتبعوا رسول الله ﷺ فهم أهل النار؛ لقول النبي ﷺ: "والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بما أرسلت به إلا كان من أصحاب النار"[١] ؛ فالحاصل أن هذا القول . وهو قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . كذب من الطرفين؛ ولهذا

---

[١] تفسير السعدي:٦٢.
[٢] انظر: تهذيب اللغة: ٣٢٢/١، واللسان:٢٧١/١.
[٣] انظر: تفسير القرطبي: ٢/ ٧٥.
[٤] انظر: تفسير القرطبي: ٢/ ٧٥.
[٥] صفوة التفاسير: ٧٨/١.
[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٩٨):ص٢٠٧/١.
[٧] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٠٧/١.
[٨] تفسير الطبري: ٥١٠/٢.
[٩] تفسير ابن عثيمين: ٣٦٧/١.
[١٠] الكشاف: ١٧٨/١.
[١١] تفسير السعدي:٦٢-٦٣.
[١] أخرجه مسلم ص٧٥٣، كتاب الإيمان، باب ٧٠: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس...، حديث رقم (٣٨٦) ٢٤٠ ١٥٣.

قال تعالى: { تلك أمانيهم }؛ وقال النبي ﷺ: "الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني[٢].. "
٤. ومن فوائد الآية: أن من اغتر بالأماني، وطمع في المنازل العالية بدون عمل لها ففيه شَبه من اليهود، والنصارى..
٥. ومنها: عدل الله عز وجل في مخاطبة عباده، حيث قال تعالى: { قل هاتوا برهانكم }؛ لأن هذا من باب مراعاة الخصم، وأنه إن كان لكم بينة فهاتوها؛ وهذا لا شك من أبلغ ما يكون من العدل؛ وإلا فالحكم لله العلي الكبير..
٦. ومنها: أن هؤلاء لا برهان لهم على ما ادعَوه بدليل أنهم لم يأتوا به..
٧. ومنها: أنهم كاذبون؛ لقوله تعالى: { إن كنتم صادقين }؛ ولو كان لهم أدنى حيلة بما يبرر قولهم، ويصدِّقه لأتوا بها.

القرآن

{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)} [البقرة : ١١٢]

التفسير:
ليس الأمر كما زعموا أنَّ الجنة تختص بطائفة دون غيرها، وإنما يدخل الجنَّة مَن أخلص لله وحده لا شريك له، وهو متبع للرسول محمد ﷺ في كل أقواله وأعماله. فمن فعل ذلك فله ثواب عمله عند ربه في الآخرة، وهو دخول الجنة، وهم لا يخافون فيما يستقبلونه من أمر الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا.
في سبب نزول الآية، ذكر الحافظ ابن حجر، رواية السدي[١]، التي ذكرناها في سبب نزول الآية السابقة[٢]، وعلى قول الحافظ، فلا بد أنهما نزلتا معًا، فتأمل [٣].
قوله تعالى:{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}[البقرة:١١٢]، "أي بلى يدخل الجنة من استسلم وخضع وأخلص نفسه لله"[٤].
قال السدي:" أخبرهم أن من يدخل الجنة هو من أسلم وجهه لله الآية"[٥].
قال البغوي:" أي ليس الأمر كما قالوا ، بل الحكم للإسلام وإنما يدخل الجنة من أخلص دينه لله"[٦].
قال المراغي:" أي بلى إنه يدخلها من لم يكن هودا ولا نصارى ، إذ رحمة الله لا تختصّ بشعب دون شعب"[٧].
قال أبو السعود:" أي [من]أخلص نفسه له تعالى لا يشرك به شيئاً"[٨].

---

[٢] أخرجه أحمد ١٢٤/٤، حديث رقم ١٧٢٥٣، وأخرجه الترمذي ص١٨٩٩، كتاب صفة القيامة، باب ٢٥: حديث الكيس من دان نفسه...، حديث رقم ٢٤٥٩؛ وأخرجه ابن ماجة ص٢٧٣٥، كتاب الزهد، باب ٣١: ذكر الموت والاستعداد له، حديث رقم ٤٢٦٠، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٥٧/١ ٢٥١/٤؛ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد؛ وقال الذهبي في ذيل المستدرك (٥٧/١): أبو بكر واه، وقال في ذيل المستدرك ٢٥١/٤: "صحيح" هـ؛ وقال الألباني: "ضعيف" (ضعيف ابن ماجة ص٣٤٩، حديث رقم ٩٣٠)، فمدار الحديث على أبي بكر بن أبي مريم، قال الحافظ في التقريب: "ضعيف" تحرير التقريب ١٥٨/٤.

(١) العجاب: ٣٥٧/١، وتفسير ابن أبي حاتم(١٠٩٤):ص٢٠٧/١، وقد روي عن أبي العالية ومجاهد، والربيع، نحو رواية السدي. انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٩٠٤):ص٢٠٧/١.

(٢) وهي [الآية:١١١]: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

(٣) انظر: العجاب: ٣٥٧/١.

(٤) صفوة التفاسير: ٧٨/١.

(٥) أخرجه الطبري(١٨٠٩):ص٥١٠/٢.

(٦) تفسير البغوي: ١٣٧/١.

(٧) تفسير المراغي: ١٩٥/١.

(٨) تفسير أبي السعود: ١٤٧/١.

عن أبي العالية: "{ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}، يقول: من أخلص لله"[١]. وروي عن الربيع[٢] نحو ذلك.
وعن سعيد بن جبير: "{ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}، قال: من أسلم أخلص وجهه، قال: دينه"[٣].
ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل[٤]:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت   له المزن تحمل عذبا زلالا

يعني بذلك : استسلمت لطاعة من استسلم لطاعته المزن وانقادت له[٥].
وأصل (الإسلام): الاستسلام والخضوع، لأنه من: استسلمت لأمره، وهو الخضوع لأمره، وإنما سمي المسلم، مسلما، بخضوع جوارحه لطاعة ربه[٦].
و(إسلام الوجه): هو التذلل لطاعته والإذعان لأمره[٧].
قال النسفي:" يعني: جعله سالماً لله خالصاً له"[٨].
وقال ابن كثير: أي "من أخلص العمل لله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : { فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ } الآية [آل عمران : ٢٠]" [٩].
قال البغوي:" وخص (الوجه)، لأنه إذا جاد بوجهه في السجود، لم يبخل بسائر جوارحه"[١٠].
وقال الطبري: "وقد خص الله جل ثناؤه بالخبر(الوجه).. لأن أكرم أعضاء ابن آدم وجوارحه وجهه، وهو أعظمها عليه حرمة وحقا ، فإذا خضع لشيء وجهه الذي هو أكرم أجزاء جسده عليه فغيره من أجزاء جسده أحرى أن يكون أخضع له. ولذلك تذكر العرب في منطقها الخبر عن الشيء ، فتضيفه إلى " وجهه " وهي تعني بذلك نفس الشيء وعينه ، كقول الأعشى[١١]:

أُؤَوّل الحكم على وَجهه   ليس قضائي بالهوى الجائر

يعني بقوله : " على وجهه " : على ما هو به من صحته وصوابه ، وكما قال ذو الرمة [١٢]:

فطاوعت همي وانجلى وجه بازل   من الأمر ، لم يترك خِلاجا بُزُولُها

يريد : وانجلى البازل من الأمر فتبين، وما أشبه ذلك ، إذْ كان حسن كل شيء وقبحه في وجهه، وكان في وصفها من الشيء وجهه بما تصفه به، إبانة عن عين الشيء ونفسه، فكذلك معنى قوله جل ثناؤه : {بَلَى مَنْ

([١]) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٩٩):ص٢٠٨/١.
([٢]) انظر: تفسير الطبري(١٨١٠):ص٥١٠/٢، وتفسير ابن أبي حاتم:٢٠٨/١.
([٣]) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٠٠):ص٢٠٨/١.
([٤])سيرة ابن هشام ١ : ٢٤٦ وغيره . وتفسير الطبري: ٥١١/٢.
([٥]) انظر: تفسير الطبري: ٢/.٥١١
([٦]) انظر: تفسير الطبري: ٥١٠/٢، وتفسير البغوي: ١٣٧/١.
([٧]) انظر: تفسير الطبري: ٥١٠/٢
([٨]) تفسير النسفي:١٧٩/٣.
([٩]) تفسير ابن كثير: ٣٨٥/١.
([١٠]) تفسير البغوي:١٣٧/١.
([١١])ديوانه : ١٠٦ من قصيدته المشهورة . في منافرة علقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل ، فهجا الأعشى علقمة لأمر كان بينهما . وفضل عليه عامرا . (انظر الأغاني ١٥ : ٥٠ - ٥٦) . وأول الحكم : قدره ودبره ورده إلى صوابه وأصله . والجائر : المائل عن سبيل الحق . جار : ظلم ومال وقبل البيت :
علقم ، لا تسفه ، ولا تجعلن   عرضك للوارد والصادر
قد قلت قولا فقضى بينكم   واعترف المنفور للنافر
([١٢])ديوانه : ٥٦٠ يمدح عبيد الله بن عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي ، في آخر القصيدة ، فقال بعد البيت:
فقالت : عبيد الله من آل معمر   إليه ارحل الأنقاض يرشد رحيلها
وقوله : " طاوعت همي " ، ما هم به في نفسه . يقول : طاوعت ما همت به نفسي . وقوله : " بازل من الأمر " يعني خطة يركبها . هذا مثل . يقال : بزل ناب البعير بزولا ، أي طله وانشق وظهر . ومنه قيل : بزل الأمر والرأى : قطعه . وخطة بزلاء : تفصل بين الحق والباطل . فقوله " بازل من الأمر " صفة لما أضمره من قوله " خطة " ، وأتى بها على التذكير ، كما أتوا بها على التذكير في قولهم : " ناقة بازل " . والخلاج : الشك والتردد والتنازع . يقول : طاوعت ما جال في نفسي ، فانجلى عن خطة ظاهرة انشقت وظهرت ، فلم تدع للنفس مذهبا في الشك والتردد ، إذ قالت : اقصد عبيد الله بن عمر بن عبيد الله بن معمر .

أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}، إنما يعني : بلى من أسلم لله بدنه ، فخضع له بالطاعة جسده ، وهو محسن في إسلامه له جسده ، فله أجره عند ربه، فاكتفى بذكر (الوجه) من ذكر جسده، لدلالة الكلام على المعنى الذي أريد به بذكر (الوجه)"[١].

وقد ذكر أبو حيان في سبب تخصيص الوجه في قوله تعالى: { مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}[البقرة:١١٢]، وجوها[٢]:

أحدها: أن الوجه هنا يحتمل أن يراد به الجارحة، خص بالذكر، لأنه أشرف الأعضاء ، أو لأنه فيه أكثر الحواس ، أو لأنه عبر به عن الذات ومنه : {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُا}.

الثاني: ويحتمل أن يراد به الجهة، والمعنى : أخلص طريقته في الدين لله، وقال مقاتل : أخلص دينه. وقال ابن عباس : أخلص عمله لله. وقيل : قصده. وقيل : فوّض أمره إلى الله تعالى. وقيل : خضع وتواضع[٣].

قال أبو حيان:"وهذه أقوال متقاربة في المعنى ، وإنما يقولها السلف على ضرب المثال ، لا على أنها متعينة يخالف بعضها بعضاً"[٤].

قوله تعالى:{وَهُوَ مُحْسِنٌ}[البقرة:١١٢]، أي" أسلم، والحال أنه محسن"[٥].

قال ابن عثيمين:" أي متبع لشريعة الله ظاهراً، وباطناً"[٦].

قال الصابوني:" أي وهو مؤمن مصدّقٌ متبعٌ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم "[٧].

قال أبو السعود:أي:" والحال أنه محسن في جميع أعماله التي من جملتها، الإسلام المذكور، وحقيقة الإحسان الإتيان بالعمل على الوجه اللائق وهو حسنه الوصفي التابع لحسنه الذاتي"[٨].

قال الحافظ ابن كثير:"أي : متبع فيه الرسول ﷺ. فإن للعمل المتقبل شرطين:

أحدهما : أن يكون خالصًا لله وحده .

والآخر : أن يكون صوابًا موافقا للشريعة "[٩].

قال أبو حيان :وقد قيد الزمخشري الإحسان بالعمل[١٠]؛ وجعل معنى قوله : {مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَه لِلَّهِ}: "من أخلص نفسه له، لا يشرك به غيره ، وهو محسن في عمله"[١١]، فصارت الحال هنا مبينة، إذ من لا يشرك قسمان : محسن في عمله ، وغير محسن ، وذلك منه جنوح إلى مذهبه الاعتزالي من أن العمل لا بد منه ، وأنه بهما يستوجب دخول الجنة ، ولذلك فسر قوله : {فَلَهُا أَجْرُهُ} "الذي يستوجبه"[١٢]، وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلّم حقيقة الإحسان الشرعي حين سئل عن ماهيته فقال : "أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[١٣]. وقد فسر هنا الإحسان بالإخلاص، وفسر بالإيمان، وفسر بالقيام بالأوامر ، والانتهاء عن المناهي"[١٤].

قوله تعالى:{فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ}[البقرة:١١٢]، "أي فله ثواب عمله"[١٥] عند ربه.

قال ابن عثيمين:"أي ثوابه؛ وشبَّهه بالأجر؛ لأن الله التزم به للعامل"[١٦].

---

(١) تفسير الطبري: ٥١١/٢-٥١٢.
(٢) اظر: البحر المحيط: ٣٥٢/١.
(٣) انظر: تفسير الثعلبي: ١٧٧/١، وزاد المسير:١٣٣/١، و البحر المحيط: ٣٥٢/١.
(٤) البحر المحيط: ٣٥٢/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين: ٣٦٩/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين: ٣٦٩/١.
(٧) صفوة التفاسير:٧٨/١.
(٨) تفسير أبي السعود: ١٤٧/١.
(٩) تفسير ابن كثير: ٣٨٥/١.
(١٠) انظر: الكشاف: ١٧٨/١.
(١١) الكشاف: ١٧٨/١.
(١٢) الكشاف: ١٧٨/١.
(١٣) أخرجه البخاري(٥٠)، ومسلم(٩)، وأحمد(٩٥٠١)، من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-.
(١٤) البحر المحيط: ٣٥٢/١.
(١٥) صفوة التفاسير: ٧٨/١.
(١٦) تفسير ابن عثيمين:٣٦٩/١.

قال أبو حيان:" أي فأجره مستقر له عند ربه"[١].
قال أبو السعود: أجره" الذي وعده له على عمله وهو عبارة عن دخول الجنة أو عما يدخل هو فيه دخولا أوليا واياما كان فتصويره بصورة الأجر للإيذان بقوة ارتباطه بالعمل واستحالة نيله بدونه"[٢].
وفي قوله تعالى: {عِنْدَ رَبِّهِ}[البقرة:١١٢]: فإنه أضاف العندية إليه لفائدتين[٣]:
الفائدة الأولى: أنه عظيم؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم؛ ولهذا جاء في حديث أبي بكر الذي علمه الرسولُ ﷺ إياه أنه قال: "فاغفر لي مغفرة من عندك[١].. ".
والفائدة الثانية: أن هذا محفوظ غاية الحفظ، ولن يضيع؛ لأنك لا يمكن أن تجد أحداً أحفظ من الله؛ إذاً فلن يضيع هذا العمل؛ لأنه في أمان غاية الأمان، وأضافه إلى وصف الربوبية ليبين كمال عناية الله بالعامل، وإثابته عليه؛ فالربوبية هنا من الربوبية الخاصة.

قلت: إن المراد ليس(العندية المكانية)، فإن ذلك محال في حق الله تعالى ولا الحفظ كالودائع، بل المراد أن أجرهم متيقن جار مجرى الحاصل عند ربهم، والله تعالى أعلم.

وقال أبو السعود:" والعندية للتشريف، ووضع اسم الرب مضافا إلى ضمير {من أسلم}، موضع ضمير الجلالة، لإظهار مزيد اللطف به وتقرير مضمون الجملة، أي فله أجره عتد مالكه ومدبر أموره ومبلغه إلى كماله"[٤].

قوله تعالى:{وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة:١١٢]، أي:"ولا خوف عليهم في الآخرة ولا يعتريهم حزنٌ أو كدر، بل هم في نعيم مقيم"[٥].

عن سعيد بن جبير في قوله: "{وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، يعني في الآخرة، {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }،يعني لا يحزنون للموت"[٦].
قال أبو السعود:" {ولا خوف عليهم} في الدارين من لحوق مكروه، {ولا هم يحزنون} من فوات مطلوب أي لايعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لايخافون ولايحزنون"[٧].
قال المراغي:" أي إن الذين أسلموا وجوههم لله وأحسنوا العمل لا تساور نفوسهم مخاوف ولا أحزان"[٨].

واختلف في قوله تعالى: {وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة:١١٢] على قولين[٩]:
أحدهما:أنه أراد زوال الخوف والحزن عنهم في الدنيا.
والثاني:وقيل: في الآخرة في حال الثواب.
والقول الثاني هو الأصح، لأن قوله: {وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} عام في النفي، وكذلك: {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} وهذه الصفة لا تحصل في الدنيا وخصوصا في المكلفين لأنهم في كل وقت لا ينفكون من خوف وحزن، إما في أسباب الدنيا وإما في أمور الآخرة، فكأنه سبحانه وعدهم في الآخرة بالأجر، ثم بين أن من صفة ذلك

---

(١) البحر المحيط: ١/٣٥٢.
(٢) تفسير أبي السعود: ١/١٤٧.
(٣) تفسير ابن عثيمين: ١/٣٧٠.
(١) أخرجه البخاري ص٦٦، كتاب الأذان، باب ١٤٩: الدعاء قبل السلام، حديث رقم ٨٣٤، وأخرجه مسلم ص١١٤٨، كتاب الذكر والدعوات، باب ١٤: الدعوات والتعوذ، حديث رقم ٦٨٦٩ [٤٨] ٢٧٠٥.
(٤) تفسير أبي السعود: ١/١٤٧-١٤٨.
(٥) صفوة التفاسير: ١/٧٨.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٠١):ص١/٢٠٨.
(٧) تفسير أبي السعود: ١/١٤٨.
(٨) تفسير المراغي: ١/١٩٥.
(٩) انظر: تفسير الرازي: ٣/٩٩.

الأجر أن يكون خاليا عن الخوف والحزن، وذلك يوجب أن يكون نعيمهم دائما لأنهم لو جوزوا كونه منقطعا لاعتراهم الحزن العظيم.

واختلفت القراءة في قوله تعالى:{ فَلَا خَوْفٌ }[البقرة:١١٢]، على وجهين[١]:

أحدها: قراءة ابن محيصن : {فلا خوف}، برفع الفاء من غير تنوين ، باختلاف عنه.

والثاني: قراءة الزهري وعيسى الثقفي ويعقوب وغيرهم : {فلا خوف}، بالفتح من غير تنوين.

قال المراغي:" والآية ترشد إلى أن الإيمان الخالص لا يكفى وحده للنجاة ، بل لا بد أن يقرن بإحسان العمل ، وقد جرت سنة القرآن إذا ذكر الإيمان أردفه عمل الصالحات كقوله : {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً}[النساء:١٢٤]، وقوله : {فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ}[الأنبياء:٩٤]"[٢].

قال الفخر الرازي: " فإن قال قائل: إن الله تعالى ذكر هذه الآية في سورة المائدة هكذا: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [المائدة : ٦٩]، وفي سورة الحج: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [الحج : ١٧]، فهل في اختلاف هذه الآيات بتقديم الصنوف وتأخيرها ورفع "الصابئين" في آية ونصبها في أخرى فائدة تقتضي ذلك؟ والجواب: لما كان المتكلم أحكم الحاكمين فلا بد لهذه التغييرات من حكم وفوائد، فإن أدركنا تلك الحكم فقد فزنا بالكمال وإن عجزنا أحلنا القصور على عقولنا لا على كلام الحكيم والله أعلم"[٣].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن أهل الجنة هم الذين جمعوا بين وصفين؛ الأول: الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: { من أسلم وجهه لله }؛ والثاني: اتباع شرعه؛ لقوله تعالى: { وهو محسن }..

٢. ومنها: أن إخلاص النية وحده لا يكفي في تبرير التعبد لله؛ لقوله تعالى: { وهو محسن }؛ وعلى هذا فمن قال: إنه يحب الله، ويخلص له وهو منحرف في عبادته فإنه لا يدخل في هذه الآية لاختلال شرط الإحسان..

ويتفرع على هذه الفائدة أن أهل البدع لا ثواب لهم على بدعهم . ولو مع حسن النية .؛ لعدم الإحسان الذي هو المتابعة؛ والأجر مشروط بأمرين: الأول: إسلام الوجه لله؛ والثاني: الإحسان..

٣. ومن فوائد الآية: الدلالة على الشرطين الأساسيين في العبادة؛ وهما الإخلاص؛ والمتابعة للرسول ﷺ..

٤. ومنها: ثبوت الأجر في الآخرة، وأن العمل لن يضيع؛ لقوله تعالى: {فله أجره عند ربه}

٥. ومنها: أن الجزاء من جنس العمل..

٦. ومنها: عظم الثواب؛ لإضافته إلى الله في قوله تعالى:{عند ربه}.

٧. ومنها: انتفاء الخوف، والحزن لمن تعبد لله سبحانه وتعالى بهذين الوصفين؛ وهما الإخلاص والمتابعة؛ ولهذا قال تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} [الأنعام: ٨٢].

٨. ومنها: حسن عاقبة المؤمنين بانتفاء الخوف، والحزن عنهم؛ وغير المؤمنين تُملأ قلوبهم رعباً، وحزناً؛ قال تعالى: {وتقطعت بهم الأسباب} [البقرة: ١٦٦] ، وقال تعالى: {كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار} [البقرة: ١٦٧] ، وقال تعالى: {وأنذرهم يوم الحسرة} [مريم: ٣٩] إلى غير ذلك من الآية الدالة على تحسر هؤلاء الذين لم يهتدوا إلى صراط الحميد..

٩. ومن فوائد الآية: الحث على الإخلاص لله سبحانه وتعالى في العبادة، واتباع الشرع فيها؛ لأن الله إنما أخبرنا بهذا الثواب لمن أخلص، واتبع الشريعة من أجل أن نقوم بذلك؛ وليس لمجرد الخبر؛ وهكذا يقال في كل ما أخبر الله به من ثواب على طاعة، أو عقاب على معصية؛ فإنه إنما يراد به الحث على الطاعة، والزجر عن المعصية.

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٣٥٢/١.

(٢) تفسير المراغي: ١٩٥/١.

(٣) انظر: تفسير الرازي: ٩٩/٣.

القرآن

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)} [البقرة : ١١٣]

التفسير:

وقالت اليهود: ليست النصارى على شيء من الدين الصحيح، وكذلك قالت النصارى في اليهود وهم يقرؤون التوراة والإنجيل، وفيهما وجوب الإيمان بالأنبياء جميعًا. كذلك قال الذين لا يعلمون من مشركي العرب وغيرهم مثل قولهم، أي قالوا لكل ذي دين: لست على شيء، فالله يفصل بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه مِن أمر الدين، ويجازي كلا بعمله.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: روي عن ابن عباس قال:" لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ ، أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حريملة : ما أنتم على شيء ، وكفر بعيسى ابن مريم وبالإنجيل. فقال رجل من أهل نجران من النصارى : ما أنتم على شيء ، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة. فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما : {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ}، إلى قوله : {فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}"[(١)].

والثاني: أخرج الطبري عن الربيع قوله : "{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ}، قال : هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد النبي ﷺ"[(٢)]. وروي عن أبي العالية[(٣)]، وقتادة[(٤)]، نحو ذلك.

قوله تعالى:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ}[البقرة:١١٣]، "أي كفر اليهود بعيسى وقالوا ليس النصارى على دين صحيح معتدٍّ به فدينهم باطل"[(٥)].

قال ابن عثيمين: " يعني على شيء من الدين، وإنما قالت اليهود ذلك؛ لأنهم يكفرون بعيسى، ولا يرون شريعته دينا، وإنها دعوى باطلة على كل تقدير؛ لأن النصارى بلا شك على دين قبل بعثة النبي ﷺ"[(٦)].

قال قتادة:" بلى قد كانت أوائل النصارى على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا"[(٧)].

قوله تعالى:{ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ}[البقرة:١١٣]، "أي وقال النصارى في اليهود مثل ذلك وكفروا بموسى"[(٨)].

قال الشيخ ابن عثيمين: "لأنهم يرون أن الدين الحق ما كانوا عليه، واليهود قد كفروا به، وأما دعوى النصارى في اليهود فحق؛ لأن دينهم نسخ بما جاء به عيسى؛ إذ إنهم يجب عليهم أن يؤمنوا بعيسى؛ فإذا كذبوه لم يكونوا على شيء من الدين؛ بل هم كفار"[(٩)].

---

(١) تفسير الطبري(١٨١١): ٥١٣/٢-٥١٤، وابن أبي حاتم(١١٠٣):ص٢٠٨/١، وسنده(حسن)، وانظر: أسباب النزول للواحدي: ٣٦، والعجاب:٣٥٧/١-٣٥٨، والأثر في سيرة ابن هشام ٢ / ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) تفسير الطبري: ١٨١٢: ٥١٤/٢، وانظر: العجاب: ٣٥٨/١.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٠٥):ص٢٠٩/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٠٩/١.

(٥) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(٦) تفسير ابن عثيمين: ٣٧٢/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٠٤):ص٢٠٩/١.

(٨) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(٩) تفسير ابن عثيمين: ٣٧٢/١.

قال ابن عطية:" معناه: ادعى كل فريق أنه أحق برحمة الله من الآخر، وفي هذا من فعلهم كفر كل طائفة بكتابها، لأن الإنجيل يتضمن صدق موسى وتقرير التوراة، والتوراة تتضمن التبشير بعيسى وصحة نبوته، وكلاهما تضمن صدق محمد ﷺ، فعنفهم الله تعالى على كذبهم، وفي كتبهم خلاف ما قالوا"(١).

قوله تعالى:{وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ}[البقرة:١١٣]، " أي والحال أن اليهود يقرءون التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل فقد كفروا عن علمٍ"(٢).

قال ابن عباس:" أي كل يتلو في كتابه تصديق ما كفر به أن تكفر اليهود بعيسى، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به من التوراة من عند الله وكل يكفر بما في يدي صاحبه"(٣).

قال الزمخشري:" أى قالوا ذلك ، وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب اللَّه وآمن به أن لا يكفر بالباقي لأن كل واحد من الكتابين مصدّق للثاني شاهد بصحته ، وكذلك كتب اللَّه جميعا متواردة على تصديق بعضها بعضا"(٤).

قال المراغي:" أي قالوا ذلك وكتاب كل من الفريقين ينطق بغير ما يعتقدون ، فالتوراة تبشر برسول منهم يأتى بعد موسى ، لكنهم خالفوها ولم يؤمنوا به ، والإنجيل يقول : إنه (المسيح) جاء متمما لناموس موسى لا ناقضا له ، وهم قد نقضوه"(٥).
قال أبو السعود:" أي قالوا ما قالوا والحال أن كل فريق منهم من أهل العلم والكتاب أي كان حق كل منهم أن يعترف بحقية دين صاحبه حسبما ينطق به كتابه فإن كتب الله تعالى متصادقة"(٦).
قال الزجاج: " يعني به أن الفريقين يَتْلُوَان التوراة، وقد وقع بينهم هذا الاختلاف وكتابهم واحد، فدل بهذا على ضلالتهم، وحذر بهذا وقوع الاختلاف في القرآن، لأن اختلاف الفريقين أخرجهما إلى الكفر، فتفهموا هذا المكان فإن فيه حجةً عظيمة وعِظَةً في القرآن"(٧).
قال ابن عطية:" وفي قوله تعالى: {وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ}، تنبيه لأمة محمد ﷺ على ملازمة القرآن والوقوف عند حدوده، كما قال الحر بن قيس في عمر بن الخطاب، وكان وقافا عند كتاب الله"(٨).
قال أبو حيان:" أي وهم عالمون بما في كتبهم ، تالون له. وهذا نعي عليهم في مقالتهم تلك ، إذ الكتاب ناطق بخلاف ما يقولونه ، شاهدة توراتهم ببشارة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وصحة نبوّتهما. وإنجيلهم شاهد بصحة نبوة موسى ومحمد صلى الله عليه وسلّم ، إذ كتب الله يصدق بعضها بعضاً. وفي هذا تنبيه لأمّة محمد صلى الله عليه وسلّم في أن من كان عالماً بالقرآن ، يكون واقفاً عنده ، عاملاً بما فيه ، قائلاً بما تضمنه ، لا أن يخالف قوله ما هو شاهد على مخالفته منه ، فيكون في ذلك كاليهود والنصارى"(٩).
وقال الثعلبي:" وكلا الفريقين يقرءون الكتاب أي لتبين في كتابكم سر الاختلاف فدل تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم ما فيه على أنهم على الباطل"(١٠).

---

(١) المحرر الوجيز: ١٩٨/١.
(٢) صفوة التفاسير: ٧٨/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٠٦):ص٢٠٩/١.
(٤) الكشاف: ١٧٩/١.
(٥) تفسير المراغي: ١٩٧/١.
(٦) تفسير أبي السعود: ١٤٨/١.
(٧) معاني القرآن: ١٩٥/١.
(٨) المحرر الوجيز: ١٩٨/١.
(٩) البحر المحيط: ٣٠٤/١.
(١٠) تفسير الثعلبي:٢٦٠/١.

قال الإمام الطبري: "إن إنكار كل فريق منهم ، إنما كان إنكارا لنبوة النبي ﷺ ، الذي ينتحل التصديق به ، وبما جاء به الفريق الآخر ، لا دفعا منهم أن يكون الفريق الآخر في الحال التي بعث الله فيها نبينا صلى الله عليه وسلم على شيء من دينه ، بسبب جحوده نبوة نبينا محمد ﷺ. وكيف يجوز أن يكون معنى ذلك إنكار كل فريق منهم أن يكون الفريق الآخر على شيء بعد بعثة نبينا ﷺ ، وكلا الفريقين كان جاحدا نبوة نبينا محمد ﷺ في الحال التي أنزل الله فيها هذه الآية ؟ ولكن معنى ذلك : وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء من دينها منذ دانت دينها ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء منذ دانت دينها[١].

واختلف في (الكتاب) الذي يتلونه على قولين[٢]:

أحدهما: أنه: التوراة والإنجيل، فالألف واللام للجنس. اختاره الزمخشري[٣]، وهو المشهور.

والثاني: وقيل: التوراة، لأن النصارى تمتثلها، فالألف واللام للعهد.

قال ابن عثيمين:" والمراد بـ(الْكِتَابَ) الجنس، فيشمل التوراة، والإنجيل [٤].

قوله تعالى:{كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ}[البقرة:١١٣]، " أي كذلك قال مشركو العرب مثل قول أهل الكتاب قالوا: ليس محمد على شيء"[٥].

قال السدي:" فهم العرب، قالوا: ليس محمد على شيء"[٦].

قال المراغي:" أي مثل هذا القول الذي لم يبن على برهان ، قال الجهلة من عبدة الأوثان لأهل كل دين : لستم على شيء والحق وراء هذه المزاعم ، فهو إيمان خالص وعمل صالح لو عرفه الناس حقّ المعرفة لما تفرقوا ولا اختلفوا فى أصوله ، لكنهم تعصبوا لأهوائهم فاختلفوا فيه وتفرّقوا طرائق قددا"[٧].

قال الزجاج:" يعني به: الذين ليسوا بأصحاب كتاب، نحو مشركي العرب والمجوس، المعنى أن هؤلاء أيضاً قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا"[٨].

قال الزمخشري:" أى مثل ذلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج قالَ الجهلة الَّذِينَ لا علم عندهم ولا كتاب كعبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم قالوا لأهل كل دين : ليسوا على شيء. وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم"[٩].

وقال الثعلبي:" {قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} يعني آباءهم الّذين مضوا، {مِثْلَ قَوْلِهِمْ}يعني مشركي العرب"[١٠].

واختلف في تفسير قوله تعالى{كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ}[البقرة:١١٣]، على وجوه[١١]:

أحدها: أنه عنى بذلك مشركي العرب، لأنهم لا كتاب لهم. وهذا قول السدي[١٢]، ومقاتل[١٣]، وهو قول الجمهور[١٤].

والثاني: أن المراد: اليهود، وكأنه أعيد قولهم، أي: "قالت النصارى مثل قول اليهود قبلهم". قاله الربيع[١٥]، وعن قتادة[١] وأبي العالية[٢]، مثله.

---

(١) تفسير الطبري: ٥١٥/٢.
(٢) انظر: المحرر الوجيز: ١٩٨/١.
(٣) انظر: الكشاف: ١٧٩/١.
(٤) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٧٢/١.
(٥) صفوة التفاسير: ٧٨/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٠٧):ص٢٠٩/١، تفسير الطبري(١٨١٩):ص٥١٧/٢.
(٧) تفسير المراغي:١٩٧/١.
(٨) معاني القرآن: ١٩٥/١.
(٩) الكشاف: ١٧٩/١.
(١٠) انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٠/١، وقوله:" يعني مشركي العرب". نقله عن مقاتل.
(١١) انظر: تفسير الطبري: ٥١٥/٢-٥١٦، والمحرر الوجيز: ١٩٩/١، ومفاتيح الغيب: ١٠/٤، وتفسير القرطبي: ٧٦/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٨١٩):ص٥١٧/٢، وابن أبي حاتم(١١٠٧):ص٢٠٩/١.
(١٣) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٦٠/١.
(١٤) انظر: المحرر الوجيز: ١٩٩/١، والبحر المحيط: ٣٠٥/١.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٨١٦):ص٥١٧/٢.

قال ابن عطية:" وهذا ضعيف"[٣].
والثالث: أنهم: "أمم كانت قبل اليهود والنصارى ، وقبل التوراة والإنجيل". قاله عطاء[٤].
والرابع: وقيل أنهم: مشركو قريش[٥].
والقول الأول هو الظاهر، والأشبه بالصواب، "لأن كل اليهود والنصارى دخلوا في الآية فمن ميز عنهم بقوله: {كذالك قال الذين لا يعلمون} يجب أن يكون غيرهم"[٦].
وقال الإمام الطبري: " والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله تبارك وتعالى أخبر عن قوم وصفهم بالجهل ، ونفى عنهم العلم بما كانت اليهود والنصارى به عالمين - أنهم قالوا بجهلهم نظير ما قال اليهود والنصارى بعضها لبعض... وجائز أن يكونوا هم المشركين من العرب، وجائز أن يكونوا أمة كانت قبل اليهود والنصارى، ولا أمة أولى أن يقال هي التي عنيت بذلك من أخرى ، إذْ لم يكن في الآية دلالة على أي من أي ، ولا خبر بذلك عن رسول الله ﷺ ثبتت حجته من جهة نقل الواحد العدل ، ولا من جهة النقل المستفيض"[٧].
قوله تعالى:{ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}[البقرة:١١٣]، أي فالله "يحكم بين اليهود والنصارى، ويفصل بينهم بقضائه العادل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين"[٨].
قال الطبري:" فالله يقضي فيفصل بين هؤلاء المختلفين فيما كانوا فيه يختلفون من أديانهم ومللهم في دار الدنيا"[٩].
قال ابن عطية:" بأن يثيب من كان على شيء، أي شيء حق، ويعاقب من كان على غير شيء"[١٠].
قال الزمخشري:" بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه"[١١].
قال المراغي:" فهو العليم بما عليه كل فريق من حقّ أو باطل ، فيحقّ الحق ويجعل أهله في النعيم ويبطل الباطل ، ويلقى أهله فى سواء الجحيم"[١٢].
قال الزجاج:" يريهم من يدخل الجنة عِياناً، ويدخل النار عيانا، وهذا هو حكم الفصل فيما تصير إليه كل فرقة، فأما الحكم بينهم في العقيدة فقد بينه اللَّه عزَّ وجلَّ - فيما أظهر من حجج المسلمين، وفي عجز الخلق عن أن يأتوا بمثل القرآن"[١٣].
و{ يَوْمَ الْقِيَامَةِ }، هو اليوم الذي يبعث فيه الناس؛ وسمي بذلك لأمور ثلاثة[١٤]:
أحدها: لأن الناس يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين. قاله الطبري[١٥]، وابن عطية[١٦].
والثاني: ولأنه يقوم فيه الأشهاد.
والثالث: ولأنه يقام فيه العدل.
واختلف في قوله تعالى:{ فالله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ }[البقرة:١١٣]، على أربعة أوجه[١]:

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٨١٧):ص٥١٧/٢.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٠٩):ص٢٠٩/١.
(٣) المحرر الوجيز: ١٩٩/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٨١٨):ص٥١٧/٢، وابن أبي حاتم(١١٠٨):ص٢٠٩/١.
(٥) انظر: البحر المحيط: ٣٠٥/١.
(٦) مفاتيح الغيب: ١٠/٤، وانظر: البحر المحيط: ٣٠٥/١.
(٧) تفسير الطبري: ٥١٧/٢.
(٨) صفوة التفاسير: ٧٨/١.
(٩) تفسير الطبري: ٥١٨/٢.
(١٠) المحرر الوجيز: ١٩٩/١.
(١١) الكشاف: ١٧٩/١.
(١٢) تفسير المراغي: ١٩٧/١-١٩٨.
(١٣) معاني القرآن: ١!/٩٥.
(١٤) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٧٦/١.
(١٥) تفسير الطبري: ٥١٨/٢.
(١٦) انظر: المحرر الوجيز: ١٩٩/١.

أحدها: أن "حكم الله بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار. قاله الحسن[٢].
وثانيها؛ حكم الانتصاف من الظالم المكذب للمظلوم المكذب، فيقسم لكل فريق مايليق به من العقاب.
وثالثها: يريهم من يدخل الجنة عيانا ومن يدخل النار عيانا، وهو قول الزجاج[٣].
ورابعها: يحكم بين المحق والمبطل فيما اختلفوا فيه.
قال أبو حيان:" وكلها أقوال متقاربة"[٤].
الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن الأمم الكافرة يكفِّر بعضها بعضاً؛ فهم أعداء بعضهم لبعض من جهة؛ وأولياء بعضهم لبعض من جهة أخرى: بالنسبة لنا هم بعضهم لبعض وليّ؛ وبالنسبة لما بينهم بعضهم لبعض عدو؛ فالإسلام عدو مشترك لليهودية، والنصرانية، وسائر الكفار؛ فيجب أن يتولى بعضنا بعضاً..
٢. ومنها: شدة قبح قول من خالف الحق وهو يعلمه؛ لقوله تعالى: { وهم يتلون الكتاب }؛ فهذه الجملة تفيد زيادة القبح فيما قالوه، حيث قالوا ذلك وهم يتلون الكتاب، ويعرفون الحق؛ فالنصارى تتلو التوراة، وتعرف أن اليهود تدين بالتوراة . وهم على دين صحيح قبل بعثة عيسى .؛ واليهود أيضاً يتلون الإنجيل، ويعرفون أن عيسى حق؛ لكنهم كفروا استكباراً؛ ولا ريب أن الذي ينكر الحق مع العلم به أعظم قبحاً من الذي ينكر الحق مع الجهل به؛ لأن هذا معاند مكابر بخلاف الجاهل، فالجاهل ينكر الحق للجهل به؛ ثم إذا تبين له الحق اتبعه إذا كان المانع له من اتباعه الجهل؛ لكن العالم لا عذر له.
٣. ومن فوائد الآية: إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: { فالله يحكم بينهم يوم القيامة }؛ والإيمان بيوم القيامة أحد أركان الإيمان الستة؛ ولأهميته يقرنه الله سبحانه وتعالى كثيراً بالإيمان به عز وجل.
٤. ومنها: إثبات الحكم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: { فالله يحكم بينهم }؛ وحكم الله سبحانه وتعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام: شرعي، وكوني، وجزائي؛ فالشرعي: مثل قوله تعالى في سورة الممتحنة: {ذلكم حكم الله يحكم بينكم} [الممتحنة: ١٠] ؛ والكوني: مثل قوله تعالى عن أخي يوسف: {فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين} [يوسف: ٨٠] ؛ والجزائي :مثل هذه الآية: {فالله يحكم بينهم يوم القيامة }؛ والحكم الجزائي هو ثمرة الحكم الشرعي؛ لأنه مبني عليه: إن خيراً فخير؛ وإن شراً فشر؛ هذا الحكم يوم القيامة بين الناس إما بالعدل؛ أو بالفضل؛ ولا يمكن أن يكون بالظلم؛ لقوله تعالى: {وما ربك بظلام للعبيد} [فصلت: ٤٦] ، وقوله تعالى: {ولا يظلم ربك أحداً} [الكهف: ٤٩] ، وقوله تعالى في الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً"[٢] ؛ هذا بالنسبة لحقوق الله؛ أما بالنسبة لحقوق الخلق فيما بينهم فيقضى بينهم بالعدل.
فإذا قال قائل: إذا كان الله تعالى يجزي المؤمنين بالفضل، فما الجواب عن قوله تعالى: {ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط} [يونس: ٤] ؟
فالجواب: أن هذا هو الذي أوجبه الله على نفسه؛ والفضل زيادة؛ والمقام مقام تحذير.
٥. ومن فوائد الآية: أن هؤلاء الذين اختلفوا في الحق، والباطل، سوف يكون القضاء بينهم يوم القيامة بين يدي الله عز وجل؛ فيجزي صاحب الحق بعمله، ويجزي صاحب الباطل بعمله؛ لقوله تعالى: { فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون }، وقوله تعالى: {فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا] {النساء: ١٤١] ؛ ولهذا لا يوجد حكم يبين للخصم أن الحق له دون خصمه إلا في هذا؛ فالقاضي مثلاً لا يقول لأحد الخصمين: "لن يكون لخصمك سبيل عليك" حتى يتبين، ويأتي كلٌّ بحجته؛ لكن هنا بيّن الله أن الكافرين ليس لهم سبيل على المؤمنين؛ لأن الحجة واضحة للجميع.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ١٠/٤، وتفسير أبي السعود: ١٤٨/١.
(٢)انظر: الكشاف: ١٧٩/١، ومفاتيح الغيب: ١٠/٤.
(٣) انظر: معاني القرآن: ١٩٥/١.
(٤) البحر المحيط: ٣٠٥/١.
(٢) أخرجه مسلم ص١١٢٩، كتاب البر والصلة، باب ١٥: تحريم الظلم، حديث رقم ٦٥٧٢ [٥٥] ٢٥٧٧.

القرآن

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)} [البقرة : ١١٤]

التفسير:

لا أحد أظلم من الذين منعوا ذِكْرَ الله في المساجد من إقام الصلاة، وتلاوة القرآن، ونحو ذلك، وجدُّوا في تخريبها بالهدم أو الإغلاق، أو بمنع المؤمنين منها. أولئك الظالمون ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا المساجد إلا على خوف ووجل من العقوبة، لهم بذلك صَغار وفضيحة في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب شديد.

اختلفوا في سبب نزول الآية على أقوال:

أحدها: أنها :"نزلت في طيطوس الرومي وأصحابه من النصارى، وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل، فقتلوا مقاتلتهم، وسبوا ذراريهم، وحرقوا التوراة، وخربوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف". وهذا قول ابن عباس في رواية الكلبي[١].

والثاني:أنها نزلت في" بختنصر وأصحابه، غزوا اليهود وخربوا بيت المقدس، وأعانتهم على ذلك النصارى من أهل الروم"[٢]. قاله قتادة[٣]، والسدي[٤].

الثالث: وأخرج ابن أبي حاتم " عن مجاهد: {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها}، النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه"[٥].ونحوه في رواية محمد بن سعيد عن ابن عباس[٦].

الرابع: وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس: "أن قريشا منعوا النبي- ﷺ- الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام فأنزل الله: {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه}"[٧]. وروي عن ابن زيد[٨] مثله.

والراجح، أن الله تعالى عنى بقوله {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [البقرة : ١١٤]، النصارى . "وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس ، وأعانوا بختنصر على ذلك ، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده"[٩]. والله أعلم.

قوله تعالى:{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}[البقرة:١١٤]، أي: "وأي امرئ أشد تعديا وجراءة على الله وخلافا لأمره ، من امرئ منع مساجد الله أن يعبد الله فيها"[١٠].

قال الصابوني: " استنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أي لا أحد أظلم ممن منع الناس من عبادة الله في بيوت الله، وعمل لخرابها بالهدم كما فعل الرومان ببيت المقدس، أو بتعطيلها من العبادة كما فعل كفار قريش"[١١].

و(المساجد): جمع مَسجِد، إن أُريد به المكان المخصوص المُعَدّ للصلوات الخمس، وإن أُريد به موضع سجود الجبهة، فإنه بالفتح لا غير (مَسجَد)[١٢].

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي: ٣٦، وتفسير الثعلبي: ٢٦٠/١.
(٢) أسباب النول للواحدي: ٣٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٨٢٣)، و(١٨٢٤):ص٥٢٠/٢-٥٢١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٨٢٥):ص٥٢١/٢.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم(١١١٢):ص٢١٠/١، وتفسير الطبري(١٨٢١)، و(١٨٢٢):ص٥٢٠/٢.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١١١):ص٢١٠/١، وتفسير الطبري(١٨٢٠):ص٥٢١/٢.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٠):ص٢١٠/١، وانظر: أسباب النزول للواحدي: ٣٦.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٨٢٦):ص٥٢١/٢.
(٩) تفسير الطبري:٥٢١/٢-٥٢٢.
(١٠) تفسير الطبري: ٥١٩/٢.
(١١) صفوة التفاسير: ٧٨/١.
(١٢) انظر: لسان العرب لابن منظور، باب الدّال، فصل الميم، ٢٠٤/٣-٢٠٥، وسبل السلام، للصنعاني، ١٧٩/٢.

و(المسجد) لغة: الموضع الذي يسجد فيه، ثم اتّسع المعنى إلى البيت المُتّخذ لاجتماع المسلمين لأداء الصلاة فيه، قال الزركشي رحمه الله: "ولـمّـا كان السجود أشرف أفعال الصلاة، لقرب العبد من ربه، اشتق اسم المكان منه فقيل: مسجد، ولم يقولوا: مركع، ثم إن العُرف خصص المسجد بالمكان المهيّأ للصلوات الخمس، حتى يخرج المُصلّى المجتمع فيه للأعياد ونحوها، فلا يُعطى حكمه"(١).

و(المسجد) في الاصطلاح الشرعي: المكان الذي أُعِدّ للصلاة فيه على الدّوام(٢)، وأصل المسجد شرعًا: كل موضع من الأرض يُسجد لله فيه(٣)؛لحديث جابر ﷺ، عن النبي - ﷺ -: "... وجُعِلَت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيُّما رجل من أمّتي أدركته الصلاة، فليصلِّ"(٤)، وهذا من خصائص نبيّنا - ﷺ - وأمّته، وكانت الأنبياء قبله إنما أُبيحت لهم الصلاة في مواضع مخصصة: كالبِيَع والكنائس(٥).

وقد ثبت في حديث أبي ذرّ ﷺ، عن النبي - ﷺ - أنه قال: "... وأينما أدركتك الصلاة فصلِّ، فهو مسجد"(٦).

قال الإمام النووي رحمه الله: "فيه جواز الصلاة في جميع المواضع إلا ما استثناه الشرع من الصلاة: في المقابر، وغيرها من المواضع التي فيها النجاسة: كالمزبلة، والمجزرة، وكذا ما نُهِيَ عنه لمعنى آخر: فمن ذلك أعطان الإبل، ... ومنه قارعة الطريق، والحمام، وغيرها؛ لحديث ورد فيها"(٧).

أما (الجامع): فهو نعت للمسجد، سمّي بذلك؛ لأنه يجمع أهله؛ ولأنه علامة للاجتماع، فيقال: المسجد الجامع، ويجوز: (مسجد الجامع) بالإضافة، بمعنى: مسجد اليوم الجامع(٨)، ويقال للمسجد الذي تُصلَّى فيه الجمعة، وإن كان صغيرًا؛ لأنه يجمع الناس في وقت معلوم.

وفي الآية الكريمة أضاف الله تعالى المساجد إلى نفسه إضافة تشريف، وفضل، وكقوله ﷻ: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [التوبة : ١٨]، وقوله ﷻ: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن : ١٨]، مع أن جميع البقاع وما فيها ملك لله ﷻ ، فهو خالق كل شيء ومالكه، ولكن المساجد لها ميزة وشرف؛ لأنها تختص بكثير من العبادات، والطاعات، والقربات، فليست المساجد لأحد سوى الله، كما أن العبادة التي كلف الله بها عباده لا يجوز أن تصرف لأحد سواه(٩)، ومن هذه الإضافة ما أضافه النبي - ﷺ - إلى الله إضافة تشريف بقوله - ﷺ -: "وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده"(١٠).

وفي قوله تعالى:{أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}[البقرة:١١٤]، وجهان من التفسير(١١):

---

(١) إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص٢٧-٢٨، وانظر: مشارق الأنوار للقاضي عياض ٢٠٧/٢، ومفردات ألفاظ القرآن، للأصفهاني، ص٣٩٧، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا علي القاري، ١٢/١٠، وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ٣٦٣٥/١١.

(٢) معجم لغة الفقهاء، للأستاذ الدكتور/ محمد رواس، ص٣٩٧.

(٣) انظر: إعلام الساجد بأحكام المساجد، للزركشي، ص٢٧.

(٤) متفق عليه: البخاري، كتاب التيمم، بابٌ: حدثنا عبد الله بن يوسف، برقم ٣٣٥، ومسلم، كتاب المساجد، باب المساجد ومواضع الصلاة، برقم ٥٢١.

(٥) انظر: المفهم لِمَا أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي، ١١٧/٢.

(٦) متفق عليه: البخاري، كتاب الأنبياء، بابٌ: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ برقم ٤٢٥، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المساجد ومواضع الصلاة، برقم ٥٢٠.

(٧) شرح النووي على صحيح مسلم، ٥/٥.

(٨) انظر: لسان العرب، لابن منظور، فصل الجيم، باب العين ،٥٥/٨.

(٩) انظر: فصول ومسائل تتعلق بالمساجد، للدكتور العلامة، عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، ص٥، والأثر التربوي للمسجد، للدكتور العلامة صالح بن غانم السدلان، ص٤،والمشروع والممنوع في المسجد،للشيخ محمد بن علي العرفج،ص٦.

(١٠) مسلم،كتاب الذكر والدعاء،باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن،برقم ٢٦٩٩.

(١١) تفسير الطبري: ٥١٩/٢.

أحدهما : أن يكون معناه : ومن أظلم ممن منع مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه ، فتكون " أن " حينئذ نصبا من قول بعض أهل العربية بفقد الخافض ، وتعلق الفعل بها.
والثاني: أن يكون معناه : ومن أظلم ممن منع أن يذكر اسم الله في مساجده ، فتكون " أن " حينئذ في موضع نصب ، تكريرا على موضع المساجد وردا عليه.
وأصل السعي في اللغة: "الإسراع في المشي، قال الله عز وجل: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} [القصص: ٢٠]. ثم يسمّى المشيُ سعيًا، كقوله: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} [الصافات: ١٠٢]، يعنى المشي، وقال: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الجمعة: ٩]، أي: امشوا، وقال {ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا} [البقرة: ٢٦٠]، أي: مشيًا. ثم يسمى العمل سعيًا، لأنه لا ينفك من السعي في غالب الأمر، قال الله تعالى: {فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء: ١٩] وقال: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} [الحج: ٥١] أي: جدّوا في ذلك، وقال: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} [الليل: ٤]، أي: عملكم مختلف"[١].
قال الواحدي: "وأراد بالسعي في هذه الآية: العمل"[٢].
وقوله {وَسَعَى}[البقرة:١١٤]، أي: اجتهد وبذل وسعه (فِي خَرَابِهَا) الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها، وتقذيرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام، لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل، وقريش، حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة، الساعين في خرابها، محادة لله، ومشاقة، فجازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعا وقدرا، إلا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيرا، حتى أذن الله له في فتح مكة، ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا }، وأصحاب الفيل، قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى، سلط الله عليهم المؤمنين، فأجلوهم عنه، وهكذا كل من اتصف بوصفهم، فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر، وقد واستدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد"[٣].
وقد أجمع المفسرون على أنه ليس المراد من هذه الآية مجرد بيان الشرط والجزاء، أعني مجرد بيان أن من فعل كذا فإن الله يفعل به كذا بل المراد منه بيان أن منهم من منع عمارة المساجد وسعى في خرابها، ثم أن الله تعالى جازاهم بما ذكر في الآية[٤].
وفي الذي {مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [البقرة : ١١٤]، أربعة أقاويل[٥]:
أحدها: أنه بُخْتَ نصر وأصحابه من المجوس الذين خربوا بيت المقدس، وهذا قول قتادة[٦] .
والثاني: أنهم النصارى الذين أعانوا (بُخْتَ نَصّر) على خرابه ، وهذا قول السدي[٧]، واختاره الطبري[٨].
والثالث: أنهم مشركو قريش ، منعوا رسول الله -ﷺ- من المسجد الحرام عام الحديبية، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد[٩]، ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس[١٠].
والرابع: أنه عَامٌّ في كل مشرك ، منع من كل مسجد.

الخامس: وقال أبو مسلم:"المراد منه الذين صدوه عن المسجد الحرام حين ذهب إليه من المدينة عام الحديبية، واستشهد بقوله تعالى: {هم الذين كفروا وصدوكم * عند المسجد الحرام} [الفتح: ٢٥] وبقوله: {وما لهم ألا

([١]) التفسير البسيط: ٢٥١/٣، وانظر: المفردات للراغب الأصفهاني: ٢٣٨-٢٣٩.
([٢])التفسير البسيط: ٢٥١/٣.
([٣]) انظر: تفسير السعدي: ٦٣/١.
([٤]) انظر: تفسير الرازي: ٤/ ١٠.
([٥]) انظر: النكت والعيون:١٧٤/١، ومفاتيح الغيب: ١١/٤.
([٦]) انظر: تفسير الطبري(١٨٢٣)، و(١٨٢٤):ص٥٢٠/٢-٥٢١، وابن أبي حاتم(١١١٣):ص٢١٠/١.
([٧]) انظر: تفسير الطبري(١٨٢٥):ص٥٢١/٢.
([٨]) انظر: تفسير الطبري:٥٢١/٢-٥٢٢، ونقله عنه ابن كثير في تفسيره: ٣٨٨/١.
([٩]) انظر: تفسير الطبري(١٨٢٦):ص٥٢١/٢.
([١٠]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٠):ص٢١٠/١، و أسباب النزول للواحدي: ٣٦.

يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام} [الأنفال: ٣٤] وحمل قوله: {إلا خائفين} بما يعلى الله من يده، ويظهر من كلمته، كما قال في المنافقين: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا(٦١) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا} [الأحزاب :٦٠- ٦١]"[١].

السادس: وقال الرازي:" لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجههم إلى الكعبة ولعلهم سعوا أيضا في تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضا في تخريب مسجد الرسول ﷺ لئلا يصلوا فيه متوجهين إلى القبلة، فعابهم الله بذلك وبين سوء طريقتهم فيه"[٢].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ}[البقرة:١١٤]، "أي ما ينبغي لأولئك أن يدخلوها إلا وهم في خشية وخضوع، فضلاً عن التجرؤ على تخريبها أو تعطليها"[٣].

قال المراغي:" أي أولئك المانعون ما كان ينبغى لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوع ، فكيف بهم دخلوها مفسدين ومخرّبين ، فما كانت عبادة الله إلا نافعة للبشر ، وما كان تركها إلا ضارّا لهم"[٤].

قال أبو السعود:" أي ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوع فضلا عن الاجتراء على تخريبها أوتعطيلها أوما كان الحق أن يدخلوها إلا على حال التهيب وارتعاد الفرائص من جهة المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلا أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوهم منها أو ما كان لهم في علم الله تعالى وقضائه بالآخرة إلا ذلك فيكون وعدا للمؤمنين بالنصرة واستخلاص ما استولوا عليه منهم وقد أنجز الوعد ولله الحمد"[٥].

قال النسفي:" أي ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلاً أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها"[٦].

وقال الواحدي:" أعلم الله عز وجل أن أمر المسلمين يظهر على جميع من خالفهم، حتى لا يمكن دخول مخالف إلى مساجدهم إلا خائفا، وهذا كقوله: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [التوبة: ٣٣]. الآية"[٧].

وقيل : "معناه النهى عن تمكينهم من الدخول والتخلية بينهم وبينه ، كقوله : {وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ} [الأحزاب:٥٣]"[٨].

قال ابن كثير:" أي لا تُمَكِّنوا هؤلاء - إذا قَدَرْتم عليهم - من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية. ولهذا لما فتح رسولُ الله ﷺ مكة أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى : "ألا لا يَحُجَّن بعد العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عُريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته"[٩]، وهذا كان تصديقًا وعملا بقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } الآية [التوبة : ٢٨]"[١٠].

قال الزمخشري:" وقد اختلف الفقهاء في دخول الكافر المسجد : فجوّزه أبو حنيفة رحمه الله ، ولم يجوّزه مالك ، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره"[١١].

([١]) انظر: مفاتيح الغيب: ١١/٤.

([٢])انظر: مفاتيح الغيب: ١١/٤. واحتج:" لأن الله تعالى لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلا قبائح أفعال اليهود والنصارى، وذكر أيضا بعدها قبائح أفعالهم فكيف يليق بهذه الآية الواحدة أن يكون المراد منها قبائح أفعال المشركين في صدهم الرسول عن المسجد الحرام، وأما حمل الآية على سعي النصارى في تخريب بيت المقدس فضعيف ".

([٣]) صفوة التفاسير: ٧٨/١.

([٤]) تفسير المراغي: ١٩٨/١.

([٥]) تفسير أبي السعود: ١٤٩/١.

([٦]) تفسير النسفي: ٨٢/١. [بتصرف بسيط].

([٧]) التفسير البسيط: ٢٥٤/٣.

([٨]) الكشاف: ١٨٠/١.

([٩]) صحيح البخاري(٤٣٨٠):ص١٧١٠/٤، والترمذي(٣٠٩١):ص٢٥٧/٥، والنسائي(٢٩٥٧):ص٢٣٤/٥.

([١٠]) تفسير ابن كثير: ٣٨٩/١.

([١١]) الكشاف: ١٨٠/١.

قال الطبري: "خبر من الله تعالى عمن"منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، أنه قد حرم عليهم دخول المساجد التي سعوا في تخريبها ، ومنعوا عباد الله المؤمنين من ذكر الله عز وجل فيها ، ما داموا على مناصبة الحرب، إلا على خوف ووجل من العقوبة على دخولهموها"[١].

وفي تفسير قوله تعالى:{أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إلاَّ خَآئِفِينَ}[البقرة:١١٤]، قولان[٢]:

أحدهما : خائفين بأداء الجزية ، وهذا قول السدي[٣].

والثاني : خائفين من الرعب ، إن قُدر عليهم عوقبوا ، وهذا قول قتادة[٤] .

قال ابن كثير: " والصحيح، أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة"[٥]. ثم ذكر الحديث[٦].

وذكر الشيخ ابن عثيمين: في قوله تعالى{مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ}[البقرة:١١٤]، ثلاثة معان:

الأول: ما كان ينبغي لهؤلاء أن يدخلوها إلا خائفين فضلاً عن أن يمنعوا عباد الله؛ لأنهم كافرون بالله عز وجل؛ فليس لهم حق أن يدخلوا المساجد إلا خائفين.

الثاني: أن هذا خبر بمعنى النهي؛ يعني: لا تدعوهم يدخلوها - إذا ظهرتم عليهم - إلا خائفين.

الثالث: أنها بشارة من الله عز وجل أن هؤلاء الذين منعوا المساجد - ومنهم المشركون الذين منعوا النبي ﷺ المسجد الحرام - ستكون الدولة عليهم، ولا يدخلونها إلا وهم ترجف قلوبهم[٧].

قوله تعالى:{لَهُمْ في الدُّنْيَا خِزْيٌ}[البقرة:١١٤]، "أي لأولئك المذكورين هوانٌ وذلة في الدنيا"[٨].

قال أبو السعود:" أي خزي فظيع لا يوصف بالقتل والسبي والإذلال بضرب الجزية عليهم"[٩].

قال ابن عثيمين:" أي ذل، وعار"[١٠].

قال السعدي:" أي: فضيحة"[١١].

قال المراغي:" وقد تحقق ما أوعد به الله فحلّ بالرومانيين الخزي في الدنيا فتقسمت دولتهم ، وتشتت ملكهم ، ولحقهم الذلّ والهوان على يد غيرهم من الأمم القوية الفاتحة"[١٢].

وفي قوله تعالى: {لَهُمْ في الدُّنْيَا خِزْيٌ}[البقرة:١١٤]، ثلاثة أوجه[١٣] :

أحدهما : أنه قتل الحربي وجزية الذمي . قاله قتادة[١٤].

والثاني : أنه فتح مدائنهم عمورية، وقسطنطينية ، ورومية ، وهذا قول ابن عباس[١٥]، وروي عن السدي[١٦] وعكرمة[١]، ووائل بن داود[٢]، نحو ذلك.

---

(١) تفسير الطبري: ٥٢٣/٢.

(٢) انظر: النكت والعيون: ١٧٤/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري(١٨٢٩):ص٥٢٣/٢-٥٢٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري(١٨٢٧)، و(١٨٢٨):ص٥٢٣/٢.

(٥) تفسير ابن كثير:٣٩٠/١.

(٦) جاء في مسند الإمام أحمد(١٨١/٤):" كان رسول الله ﷺ يدعو : "اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة". قال ابن كثير:"حديث حسن".

(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١/٢.

(٨) صفوة التفاسير: ٧٨/١.

(٩) تفسير أبي السعود:١٤٩/١.

(١٠) تفسير ابن عثيمين:٦/٢.

(١١) تفسير السعدي:٦٣.

(١٢) تفسير المراغي: ١٩٨/١.

(١٣) انظر: النكت والعيون: ١٧٤/١-١٧٥، والكشاف: ١٨٠/١، ومفاتيح الغيب: ١٢/٣.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٨٣١):ص٥٢٥/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(١١١٩):ص٢١١/١.

(١٥)انظر: النكت والعيون: ١٧٥/١.

(١٦) انظر: تفسير الطبري(١٨٣٢):ص٥٢٥/٢، وابن أبي حاتم(١١١٨):ص٢١١/١.

والثالث: وقيل:ما يلحقهم من الذل بمنعهم من المساجد.
قلت: إن كل ذلك محتمل، لكون الخزي يجري مجرى القوبة والهوان والإذلال. والله أعلم.

قوله تعالى:{ وَلَهُمْ في الأخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[البقرة:١١٤]، أي: ولهم في الآخرة "عذاب النار"[٣].
قال ابن عثيمين: "أي عقوبة عظيمة"[٤].

قال البغوي: أي: "النار"[٥].
قال الماوردي:" هو أشد من كل عذاب ، لأنهم أظلم من كل ظالم"[٦]
قال الطبري:" وأما (العذاب العظيم)، فإنه عذاب جهنم الذي لا يخفف عن أهله ، ولا يقضى عليهم فيها فيموتوا"[٧].
قال القاسمي:وذلك" لما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه، من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله، والطواف به عريا، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله"[٨].
قال السعدي:" وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيمانا ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}[التوبة:١٨]، بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها، فقال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}[النور:٣٦]، وللمساجد أحكام كثيرة، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة"[٩].
وفي كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه: فأما من حملها على النصارى وخراب بيت المقدس قال: تتصل بما قبلها من حيث أن النصارى ادعوا أنهم من أهل الجنة فقط، فقيل لهم: كيف تكونون كذلك مع أن معاملتكم في تخريب المساجد والسعي في خرابها هكذا، وأما من حمله على المسجد الحرام وسائر المساجد قال: جرى ذكر مشركي العرب في قوله: {كذالك قال الذين * قبلهم مثل قولهم} [البقرة: ١١٣]، وقيل: جرى ذكر جميع الكفار وذمهم، فمرة وجه الذم إلى اليهود والنصارى ومرة إلى المشركين[١٠].
الفوائد:
١- من فوائد الآية: أن المعاصي تختلف قبحاً؛ لقوله تعالى: { ومن أظلم }؛ و{ أظلم } اسم تفضيل؛ واسم التفضيل يقتضي مفضَّلاً، ومفضَّلاً عليه؛ وكما أن المعاصي تختلف، فكذلك الطاعات تختلف: بعضها أفضل من بعض؛ وإذا كانت الأعمال تختلف فالعامل نتيجة لها يختلف؛ فبعض الناس أقوى إيماناً من بعض؛ وبهذا نعرف أن القول الصحيح قول أهل السنة، والجماعة في أن الإيمان يزيد، وينقص، والناس يتفاوتون تفاوتاً عظيماً لا في الكسب القلبي، ولا في الكسب البدني: فإن الناس يتفاوتون في اليقين؛ ويتفاوتون في الأعمال الظاهرة من قول أو فعل.
يتفاوتون في اليقين: فإن الإنسان نفسه تتفاوت أحواله بين حين وآخر؛ في بعض الأحيان يصفو ذهنه وقلبه حتى كأنما يشاهد الآخرة رأي عين؛ وفي بعض الأحيان تستولي عليه الغفلة، فيَقِلُّ يقينه؛ ولهذا قال الله تعالى لإبراهيم: {أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي} [البقرة: ٢٦٠] ؛ وتفاوت الناس في العلم، واليقين أمر معلوم: فلو أتى رجل، وقال: «قدم فلان» - والرجل ثقة عندي - صار عندي علم بقدومه؛ فإذا جاء آخر،

---

[١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢١١/١.
[٢]انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢١١/١.
[٣] محاسن التأويل: ٣٧٩/١.
[٤] تفسير ابن عثيمين:٦/٢.
[٥] تفسير البغوي: ١٣٩/١، وانظر: تفسير النسفي: ٨٣/١.
[٦] النكت والعيون: ١٧٥/١.
[٧] تفسير الطبري: ٥٢٥/٢.
[٨]محاسن التأويل: ٣٧٩/١.
[٩] تفسير السعدي:٦٣.
[١٠] انظر: تفسير الرازي:١١/٣.

وقال: «قدم فلان» ازداد علمي؛ فإذا جاء الثالث ازداد علمي أكثر؛ فإذا رأيتُه ازداد علمي؛ فالأمور العلمية تتفاوت في إدراك القلوب لها.
أيضاً يتفاوت الناس في الأقوال: فالذي يسبِّح الله عشر مرات أزيد إيماناً ممن يسبِّحه خمس مرات؛ وهذه زيادة كمية الإيمان؛ كذلك يتفاوت الناس في الأعمال من حيث جنس العمل: فالمتعبد بالفريضة أزيد إيماناً من المتعبد بالنافلة؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه» ؛ فبهذا يكون القول الصواب بلا ريب قول أهل السنة، والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص[1].
٢ - ومن فوائد الآية: جواز منع دخول المساجد لمصلحة؛ لقوله تعالى: { أن يذكر فيها اسمه}؛ ومنع مساجد الله له أسباب؛ فتارة تمنع المساجد من أن تمتهن فرشها، أو أرضها، أو كتبها، أو مصاحفها؛ فتغلَّق الأبواب حماية لها؛ وتارة تغلق أبوابها خوفاً من الفتنة، كما لو اجتمع فيها قوم لإثارة الفتن، والتشويش على العامة؛ فتغلق منعاً لهؤلاء من الاجتماع؛ وتارة تغلق لترميمها، وإصلاحها؛ وتارة تغلق خوفاً من سرقة ما فيها؛ ففي كل هذه الصور إغلاقها مباح، أو مطلوب.
٣ - ومنها: تحريم منع المساجد من أن يذكر فيها اسم الله سواء كان ذكر الله: صلاة، أو قراءة للقرآن، أو تعليماً للعلم، أو غير ذلك.
وأخذ بعض العلماء من هذه الآية: تحريم التحجر؛ وهو أن يضع شيئاً في الصف، فيمنع غيره من الصلاة فيه، ويخرج من المسجد؛ قالوا: لأن هذا منع المكان الذي تحجره بالمسجد أن يذكر فيه اسم الله؛ لأن هذا المكان أحق الناس به أسبق الناس إليه؛ وهذا قد منع من هو أحق بالمكان منه أن يذكر فيه اسم الله؛ وهذا مأخذ قوي؛ ولا شك أن التحجر حرام: أن الإنسان يضع شيئاً، ويذهب، ويبيع، ويشتري، ويذهب إلى بيته يستمتع بأولاده، وأهله؛ وأما إذا كان الإنسان في نفس المسجد فلا حرج أن يضع ما يحجز به المكان بشرط ألا يتخطى الرقاب عند الوصول إليه، أو تصل إليه الصفوف؛ فيبقى في مكانه؛ لأنه حينئذ يكون قد شغل مكانين.
٤- ومن فوائد الآية: شرف المساجد؛ لإضافتها إلى الله؛ لقوله تعالى: { مساجد الله }؛ والمضاف إلى الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إما أن يكون أوصافاً؛ أو أعياناً؛ أو ما يتعلق بأعيان مخلوقة؛ فإذا كان المضاف إلى الله وصفاً فهو من صفاته غير مخلوق، مثل كلام الله، وعلم الله؛ وإذا كان المضاف إلى الله عيناً قائمة بنفسها فهو مخلوق وليس من صفاته، مثل مساجد الله، وناقة الله، وبيت الله؛ فهذه أعيان قائمة بنفسها إضافتها إلى الله من باب إضافة المخلوق لخالقه على وجه التشريف؛ ولا شيء من المخلوقات يضاف إلى الله عز وجل إلا لسبب خاص به؛ ولولا هذا السبب ما خص بالإضافة؛ وإذا كان المضاف إلى الله ما يتعلق بأعيان مخلوقة فهو أيضاً مخلوق؛ وهذا مثل قوله تعالى: {ونفخت فيه من روحي} [الحجر: ٢٩] ؛ فإن الروح هنا مخلوقة؛ لأنها تتعلق بعين مخلوقة.
٥- ومن فوائد الآية: أن المصلَّيات التي تكون في البيوت، أو الدوائر الحكومية لا يثبت لها هذا الحكم؛ لأنها مصلَّيات خاصة؛ فلا يثبت لها شيء من أحكام المساجد.
٦- ومنها: أنه لا يجوز أن يوضع في المساجد ما يكون سبباً للشرك؛ لأن { مساجد الله } معناها موضع السجود له؛ فإذا وضع فيها ما يكون سبباً للشرك فقد خرجت عن موضوعها، مثل أن نقبر فيها الموتى؛ فهذا محرم؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك.
٧- ومنها: وجوب تطهير المساجد؛ وهذا مأخوذ من إضافتها إلى الله تلك الإضافة القاضية بتشريفها، وتعظيمها؛ ولهذا قال تعالى } :وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركَّع السجود }.
٨- ومنها: أن الناس فيها سواء؛ لأن الله تعالى أضافها إلى نفسه: { مساجد الله }؛ والناس عباد الله - بالنسبة إلى الله في المسجد سواء -؛ فكل من أتى إلى هذه المساجد لعبادة الله فإنه لا فرق بينه وبين الآخرين.
وهنا نقول: إن للعالِم الحق أن يتخذ مكاناً يجعله لإلقاء الدرس، وتعليم الناس؛ لكنه إذا أقيمت الصلاة لا يمنع الناس - هو، وغيره سواء -.
٩- ومنها: أن ذكر الله لا بد أن يكون باسمه، فتقول: لا إله إلا الله؛ سبحان الله؛ سبحان ربك رب العزة عما يصفون؛ سبحان ربي العظيم؛ فالذكر باللسان لا يكون إلا باسم الله؛ أما ذكر القلب فيكون ذكراً لله، وذكراً

[1] أخرجه البخاري ص٥٤٥ ــ ٥٤٦، كتاب الرقاق، باب ٣٨ك التواضع، حديث رقم ٦٥٠٢.

لأسمائه؛ فقد يتأمل الإنسان في قلبه أسماء الله، ويتدبر فيها، ويكون ذكراً للاسم؛ وقد يتأمل في أفعال الله عز وجل، ومخلوقاته، وأحكامه الشرعية.
١٠ - ومن فوائد الآية: تحريم تخريب المساجد؛ لقوله تعالى: { وسعى في خرابها }؛ ويشمل الخراب الحسي، والمعنوي؛ لأنه قد يتسلط بعض الناس - والعياذ بالله - على هدم المساجد حسًّا بالمعاول، والقنابل؛ وقد يخربها معنًى، بحيث ينشر فيها البدع والخرافات المنافية لوظيفة المساجد.
١١ - ومنها: البشارة للمؤمنين بأن العاقبة لهم، وأن هؤلاء الذين منعوهم لن يدخلوها إلا وهم خائفون؛ وهذا على أحد الاحتمالات التي ذكرناها.
١٢ - ومنها: أن عقوبة من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، الخزي والعار في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.
١٣ - ومنها: أن الذنب إذا كان فيه تعدٍّ على العباد فإن الله قد يجمع لفاعله بين العقوبتين: عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة؛ عقوبة الدنيا ليشفي قلب المظلوم المعتدى عليه؛ ولا شك أن الإنسان إذا اعتدى عليك، ثم رأيت عقوبة الله فيه أنك تفرح بأن الله سبحانه وتعالى اقتص لك منه؛ أما إذا كان في حق الله فإن الله تعالى لا يجمع عليه بين عقوبتين؛ لقوله تعالى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير} [الشورى: ٣٠].
١٤ - ومن فوائد الآية: إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: { ولهم في الآخرة عذاب عظيم }.
١٥ - ومنها: أن عذاب الآخرة أعظم من عذاب الدنيا، كما أن نعيم الآخرة أكمل من نعيم الدنيا؛ ولكن الله سبحانه وتعالى يُري عباده نموذجاً من هذا، ومن هذا؛ لأنه لا يستقيم فهم الوعيد، ولا فهم الوعد، إلا بمشاهدة نموذج من ذلك؛ لو كان الله توعد بالنار، ونحن لا ندري ما هي النار، فلا نخاف إلا خوفاً إجمالياً عاماً؛ وكذلك لو وعد بالنعيم والجنة، ولا نعرف نموذجاً من هذا النعيم، لم يكن الوعد به حافزاً للعمل.
القرآن
{وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)} [البقرة : ١١٥]
التفسير:
ولله جهتا شروق الشمس وغروبها وما بينهما، فهو مالك الأرض كلها. فأي جهة توجهتم إليها في الصلاة بأمر الله لكم فإنكم مبتغون وجهه، لم تخرجوا عن ملكه وطاعته. إن الله واسع الرحمة بعباده، عليم بأفعالهم، لا يغيب عنه منها شيء.
اختلفوا في سبب نزول الآية على أقوال:
أحدها: أخرج الواحدي عن جابر بن عبد الله قال: "بعث رسول الله - ﷺ - سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة هي هاهنا قبل الشمال، فصلوا وخطوا خطوطا وقال بعضنا: القبلة هاهنا قبل الجنوب فصلوا وخطوا خطوطا فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي - ﷺ - عن ذلك، فسكت فأنزل الله تعالى: {ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله}"[1].
والثاني: وأخرج الطبري عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أبيه قال ، " كنا مع رسول الله ﷺ في ليلة سوداء مظلمة ، فنزلنا منزلا فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجدا يصلي فيه ، فلما أصبحنا ، إذا نحن قد صلينا على غير القبلة ، فقلنا : يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة . فأنزل الله عز وجل : {ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم}"[2].

---
(1) أسباب النزول: ٣٧. أخرجه ابن مردويه (لباب النقول: ٢٧) وإسناده منقطع (العجاب لابن حجر: ورقة ٤٠ أ) ويشهد له: الرواية الآتية.
(2) تفسير الطبري(١٨٤١):ص٥٣١/٢.

الثالث: وأخرج الطبري والواحدي عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أبيه قال:" كنا مع النبي ﷺ في ليلة مظلمة في سفر ، فلم ندر أين القبلة فصلينا ، فصلى كل واحد منا على حياله، ثم أصبحنا فذكرنا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل :{ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}"[١].
قال الواحدي: "ومذهب ابن عمر أن الآية نازلة في التطوع بالنافلة"[٢].
أخرج الطبري عن ابن عمر أنه قال : " إنما نزلت هذه الآية : {أينما تولوا فثم وجه الله} أن تصلي حيثما توجهت بك راحلتك في السفر تطوعا ، كان رسول الله ﷺ إذا رجع من مكة يصلي على راحلته تطوعا يومئ برأسه نحو المدينة "[٣].
الرابع: قال ابن عباس في رواية عطاء: "إن النجاشي لما توفي قال جبريل للنبي - ﷺ - إن النجاشي توفي، فصل عليه، فأمر رسول الله - ﷺ - أن يحضروا وصفهم ثم تقدم رسول الله - ﷺ - وقال لهم: "إن الله أمرني أن أصلي على النجاشي وقد توفي فصلوا عليه" فصلى رسول الله - ﷺ - وهم عليه، فقال أصحاب رسول الله - ﷺ - في أنفسهم: كيف نصلي على رجل مات، وهو يصلي على غير قبلتنا؟ وكان النجاشي يصلي إلى بيت المقدس حتى مات وقد صرفت القبلة إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى: {فأينما تولوا فثم وجه الله}"[٤].
وأخرج الطبري عن قتادة:" إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه. قالوا : نصلي على رجل ليس بمسلم ! قال فنزلت{ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ} [سورة آل عمران : ١٩٩] ، قال : قتادة ، فقالوا : إنه كان لا يصلي إلى القبلة ، فأنزل الله عز وجل : {ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله}"[٥].
قال الواحدي:" ومذهب قتادة أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: {وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره}[٦]، فهذا قول ابن عباس عند عطاء الخراساني، وقال: أول ما نسخ من القرآن شأن القبلة، قال الله تعالى: {فأينما تولوا فثم وجه الله}، قال: فصلى رسول الله - ﷺ - نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله تعالى إلى البيت العتيق"[٧].

الخامس: أخرج الطبري وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : "لما هاجَرَ رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكان [أكثرَ] أهلها اليهودُ ، أَمَره الله أن يستقبل بيتَ المقدس. ففرحت اليهود. فاستقبلها رَسُول الله ﷺ بضْعة عَشر شَهرًا ، فكان رسول الله ﷺ يُحبّ قبلةَ إبراهيم عليه السلام ، وكان يدعو وينظر إلى السماء. فأنزل الله عز

([١]) تفسير الطبري(١٨٤٢):ص٥٣٢/٢، وأسباب النزول للواحدي: ٣٦-٣٧، والحديث أخرجه الترمذي (١٧٦/٢ - ح: ٣٤٥) وابن ماجه (٣٢٦/١ - ح: ١٠٢٠) والدارقطني (٢٧٢/١ - ح: ٥) والطيالسي (منحة المعبود: ٨٥/١ - ح: ٣٦٨) (العجاب: ورقة ٤٠ أ) وعبد بن حميد (فتح القدير: ١٣٢/١) والطبراني (المعجم الأوسط: ٢٨٤/١ - ح: ٤٦٣) كلهم من طريق أشعث به. وإسناده ضعيف جدا فأشعث متروك (تقريب التهذيب: ٧٩/١ - رقم ٥٩٨) (وعاصم ضعيف (المصدر السابق: ٣٨٤/١ - رقم: ١٥) ويشهد للروايتين السابقتين:
١ - ما أخرجه الدارقطني (٢٧١/١ - ح: ٣) وابن مردويه (تفسير ابن كثير: ١٥٩/١) من طريق محمد بن عبيد الله العرزمي عن عطاء عن جابر به وضعفه الدارقطني وكذلك شمس الحق العظيم أبادي في "التعليق المغني على الدارقطني".
٢ - ما أخرجه الدارقطني (٢٨١/١ - ح: ٤) والحاكم (المستدرك: ٢٠٧/١) من طريق محمد بن سالم عن عطاء عن جابر نحوه. وضعفه الحافظ الذهبي في "التلخيص" (حاشية المستدرك: ٢٠٧/١) والحافظ ابن كثير في "تفسيره" (١٥٩/١) . قلت: وأنا لا أرى أن هذه الطرق يجبر بعضها بعضا لضعفها، ولورود ما يعارضها مما هو أصح، كما في رواية علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس رضي الله عنهما وسيأتي تخريجها.[انظر: حاشية أسباب النزول للواحدي: ٣٧].
([٢]) أسباب النزول: ٣٧.
([٣])تفسير الطبري(١٨٤٠):ص٥٣٠/٢، وانظر: أسباب النزول للواحدي: ٣٧.
([٤]) أسباب النول للواحدي: ٣٧-٣٨.
([٥]) تفسير الطبري(١٨٤٤):ص٥٣٢/٢-٥٣٣.
([٦]) انظر: تفسير الطبري(١٨٣٦)، و(١٨٣٧):ص٥٢٩/٢.
([٧]) أسباب النول للواحدي: ٣٧-٣٨.

وجل : { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ } [سورة البقرة : ١٤٤] الآية. فارتاب من ذلك اليهود وقالوا : " ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها " ؟ فأنزل الله عز وجل : { قُلْ لله المشرق والمغرب} "[١].
السادس: : وقال مجاهد: " لما نزلت : {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ }[سورة غافر : ٦٠] ، قالوا : إلى أين ؟ فنزلت:{فأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ}[البقرة : ١١٥]"[٢].
قوله تعالى{وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}[البقرة:١١٥]، " أي لله مكان شروق الشمس ومكان غروبها والمراد جميع الأرض"[٣].
قال الطبري: "أي: "لله ملكهما وتدبيرهما"[٤].
قال الزمخشري:" أى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها لله هو مالكها ومتوليها"[٥].
قال أبو السعود:" أي له كل الأرض التي هي عبارة عن ناحيتي المشرق والمغرب لا يختص به من حيث الملك والتصرف ومن حيث المحلية لعبادته مكان منها دون مكان"[٦].
قال ابن عثيمين:" يعني أن الله سبحانه وتعالى مختص بملك المشرق، والمغرب؛ وأما من سواه فملكه محدود.. ويحتمل أن المراد له كل شيء؛ لأن ذكر المشرق والمغرب يعني الإحاطة والشمول"[٧].
و{المشرق}: "هو موضع شروق الشمس، وهو موضع طلوعها ، كما يقال : لموضع طلوعها منه:(مطلع)، بكسر اللام"[٨].
قال الراغب:" المشرق والمغرب، تارة يقالان بلفظ الواحد إما إشارة إلى ناحية الأرض ، وإما إلى المطلع والمغيب ، وتارة بلفظ التثنية إشارة إلى مشرقي ومغربي الشتاء والصيف ، وتارة بلفظ الجمع اعتباراً باختلاف المغارب والمطالع كل يوم ، وشرقت الشمس طلعت ، وأشرقت : أضاءت وذلك إذا كثير شروقها ، وشرقت اللحم : ألقيته على الشمس المشرق ، والشرف الصلب لأنه يقام فيه صلاة [العيد] عند شروقها ، وشرق الثوب بالصبغ تشبيها بلون الشرقة ، والغروب للشمس تصور منه بعد ذهابها عن العمارة ، فيقال لدى تباعد غروب ، ومنه الغروب لكونه مبعدا في الذهاب ، وغارب السنام لبعده عن المنال ، وغرب السيف أبعد جزء من صحيفته ، ثم تصور منه حدته ، فقيل لسان غرب وسمي الدلو غرباً لتصور بعدها في البئر ، ثم سمي الماء به كتسميتهم إياها بالذنوب لكونه فيها ، والغرب للذهب لكونه غريباً فيما بين الجواهر ، والغرب لبعده عن المثمرات من الأشجار"[٩].

---

(١) تفسير الطبري(٢١٦٠):ص١٣٨/٢-١٣٩، وابن أبي حاتم(١٣٢٩):ص٢٤٨/١، وأسباب النزول للواحدي: ٣٩، وإسناده صحيح، انظر: لباب النقول: ٢٧، وهذا أصح الأسانيد عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: التفسير والمفسرون: ٧٧/١ .
(٢) أخرجه الطبري(١٨٤٧):ص٥٣٤/٢.
(٣) صفوة التفاسير: ٧٩/١.
(٤) تفسير الطبري: ٥٢٦/٢.
(٥) الكشاف: ١٨٠/١.
(٦) تفسير أبي السعود:١٥٠/١.
(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٢/٢، قال الشيخ:" وقد وردت المشرق، والمغرب في القرآن على ثلاثة أوجه: (مفردة، ومثناة، وجمع)؛ فجاءت مفردة هنا فقال تعالى: { ولله المشرق والمغرب }؛ وجاءت مثناة في قوله تعالى: {رب المشرقين ورب المغربين} [الرحمن: ١٧] ، وجمعاً في قوله تعالى: {فلا أقسم برب المشارق والمغارب} [المعارج: ٤٠] ؛ والجمع بين هذه الأوجه الثلاثة أن نقول: أما (المشرق) فلا ينافي (المشارق)، ولا (المشرقين)؛ لأنه مفرد محلى بـ (أل)؛ فهو للجنس الشامل للواحد، والمتعدد؛ وأما { رب المشرقين ورب المغربين }، و{ رب المشارق والمغارب } فالجمع بينهما أن يقال: إن جمع { المشارق }، و{ المغارب } باعتبار الشارق، والغارب؛ لأن الشارق، والغارب كثير: الشمس، والقمر، والنجوم؛ كله له مشرق، ومغرب؛ فمن يحصي النجوم! أو باعتبار مشرق كل يوم، ومغربه؛ لأن كل يوم للشمس مشرق، ومغرب؛ وللقمر مشرق، ومغرب؛ وثنَّى باعتبار مشرق الشتاء، ومشرق الصيف؛ فمشرق الشتاء تكون الشمس في أقصى الجنوب؛ ومشرق الصيف في أقصى الشمال؛ وبينهما مسافات عظيمة لا يعلمها إلا الله؛ وسورة «الرحمن» أكثر ما فيها بصيغة التثنية؛ فلذلك كان من المناسب اللفظي أن يذكر المشرق، والمغرب بصيغة التثنية؛ أما عند العظمة فذكرت بالجمع: {فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون * على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين} [المعارج: ٤٠، ٤١]".
(٨) تفسير الطبري: ٥٢٦/٢.
(٩) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٩٨/١-٢٩٩.

وقد خصهما(المشرق والمغرب) بالذكر، لكونهما محل الآيات العظيمة، فهما مطالع الأنوار ومغاربها، فإذا كان مالكا لها، كان مالكا لكل الجهات.
قوله تعالى: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ}[البقرة:١١٥]، " أي إلى أي جهة توجهتم بأمره فهناك قبلته التي رضيها لكم"[١].
قال أبو السعود:" أي ففي أي مكان فعلتم تولية وجوهكم شطر القبلة، فهناك جهته"[٢].
قال الزمخشري:" ففي أى مكان فعلتم التولية، [فثمّ] جهته التي أمر بها ورضيها، والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس ، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلوا في أى بقعة شئتم من بقاعها ، وافعلوا التولية فيها فإن التولية ممكنة في كل مكان لا يختص إسكانها في مسجد دون مسجد ولا في مكان دون مكان"[٣].
قال الراغب:أي" وحيث ما توجهتم، فهو موجود يمكنكم الوصول إليه"[٤].
وقد اختلف فيه المفسرون من السلف، والخلف، في قوله تعالى{فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}[البقرة:١١٥]، على أقوال[٥]:
أحدها: أن المراد به: وجه الله الحقيقي. وإنه من آيات الصفات. وهذا قول ابن خزيمة[٦]، والسعدي[٧]، وابن عثيمين[٨].
قال الشيخ السعدي: وقوله تعالى{فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، "فيه إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجها لا تشبهه الوجوه"[٩].
واستدلوا على ذلك بقول النبي - ﷺ -: "إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قِبَل وجهه"[١٠]، وبقوله "لا يزال الله مقبلا على عبده بوجهه ما دام مقبلًا عليه، فإذا انصرف صرف وجهه عنه"[١١].
والثاني: معناه:الجهة، أي: قبلة الله. قاله مجاهد[١٢]، ونصره شيخ الإسلام ابن تيمية[١٣].

---

[١] صفوة التفاسير: ٧٩/١.
[٢] تفسير أبي السعود: ١/!٥٠.
[٣] الكشاف:١٨٠/١.
[٤] تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٩٩/١.
[٥] انظر: تفسير الطبري: ٥٣٦/٢. وتفسير ابن عثيمين: ٤/٢.
[٦] انظر: مجموع الفتاوى: ٦/ ١٦.
[٧] انظر: تفسير السعدي: ٦٤/١.
[٨] انظر: "شرح العقيدة الواسطية" ١/ ٢٨٩ (ط. ابن الجوزي).
وقد بيَّن الشيخ ابن عثيمين في "شرح الواسطية" ١/ ٢٩٠: أن الأول صحيح موافق لظاهر الآية، وأن الثاني لا يخالف الأول في الواقع، فإذا قلنا: فثم جهة الله، وكان هناك دليل سواء كان هذا الدليل تفسير الآية الثانية في الوجه الثاني، أوكان الدليل ما جاءت به السنة، فإنك إذا توجهت إلى الله في صلاتك، فهي جهة الله التي يقبل الله صلاتك إليها، فثم أيضًا وجه الله حقًا، وحينئذٍ يكون المعنيان لا يتنافيان. اهـ. هذا وقد نبه شيخ الإسلام على أمرٍ مهم فقال في "الفتاوى" ٦/ ١٧: والغرض أنه إذا قيل: فثم قبلة الله لم يكن هذا من التأويل المتنازع فيه، الذي ينكره منكرو آيات الصفات، ولا هو مما يستدل به عليهم المثبتة، فإن هذا المعنى صحيح في نفسه، والآية دالة عليه، وإن كانت على ثبوت صفة فذاك شيء آخر، ويبقى دلالة قولهم {فَثَمَّ وَجهُ اللَّهِ} على: فَثَّمَّ قبلة الله، هل هو من باب تسمية القبلة وجهًا باعتبار أن الوجه والجهة واحد، أو باعتبار أن من استقبل وجه الله فقد استقبل قبلة الله؟ فهذا فيه بحوث ليس هذا موضعها.[انظر: حاشية التفسير البسيط:٢٦٠/٣].
[٩] تفسير السعدي: ٦٤/١.
[١٠]رواه البخاري (٤٠٦) كتاب الصلاة، باب: حك البزاق باليد ومسلم (٥٤٧) كتاب المساجد، باب: النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها.
[١١] المستدرك على الصحيحين(٣٣٩):٥٠٤/١.
[١٢] تفسير الطبري(١٨٤٥)، و(١٨٤٦):ص٥٣٣/٢، و(١٨٤٨)، و(١٨٤٩):ص٥٣٦/٢.
[١٣] انظر: الفتاوى: ٦/ ١٦، ٣/ ١٩٣و ٢/ ٤٢٨، بل قال في: ٣/ ١٩٣: من عدها في آيات الصفات فقد غلط كما فعل طائفة، فإن سياق الكلام يدل على المراد حيث قال: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} والمشرق والمغرب الجهات، والوجه هو الجهة، يقال: أي وجه تريده؟ أي: أي جهة .. ولهذا قال: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} أي: تستقبلوا وتتوجهوا والله أعلم. اهـ. وقال في ٦/ ١٦: ولكن من الناس من يسلِّم أن المراد بذلك وجه الله: أي قبلة الله، ولكن يقول: هذه الآية تدل على

والعرب تجعل القصد الذي يتوجه إليه وجهًا[١]، كقول الشاعر[٢]:
أستغفر اللهِ ذنبًا لستُ مُحْصِيه   ربَّ العبادِ إليه الوجهُ والعملُ
معناه. إليه القصد، وعلى هذا القول معنى قوله: {فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} أي: جهة الله التي تعبّدكم بالتوجه إليها، والإضافة تكون للتخصيص نحو: بيت الله، وناقة الله[٣].
الثالث: وقيل: فثم تدركون بالتوجه إليه، رضا الله الذي له الوجه الكريم[٤].

والراجح عندي: أن المراد به الوجه الحقيقي لله عزّ وجلّ؛ لأن ذلك هو الأصل؛ وليس هناك ما يمنعه؛ وقد أخبر النبي ﷺ أن الله تعالى قِبَل وجه المصلي[١]؛ والمصلُّون حسب مكانهم يتجهون؛ فأهل اليمن يتجهون إلى الشمال؛ وأهل الشام إلى الجنوب؛ وأهل المشرق إلى المغرب؛ وأهل المغرب إلى الشرق؛ وكل يتجه جهة؛ لكن الاتجاه الذي يجمعهم الكعبة؛ وكل يتجه إلى وجه الله؛ وعلى هذا يكون معنى الآية: أنكم مهما توجهتم في صلاتكم فإنكم تتجهون إلى الله سواء إلى المشرق، أو إلى المغرب، أو إلى الشمال، أو إلى الجنوب[٥].
وقرأ الحسن : "{فأينما تولوا}، بفتح التاء، من التولي، يريد : فأينما توجهوا القبلة"[٦].

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[البقرة:١١٥]، "أي: فالله تعالى واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسرائركم ونياتكم"[٧].

قال السعدي: "فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر"[٨].
قال المراغي:" أي إنه تعالى لا يحصر ولا يتحدد ، فيصح ان يتوجه إليه فى كل مكان ، وهو عليم بالمتوجه إليه أينما كان ، فاعبدوه حيثما كنتم ، وتوجهوا إليه أينما حللتم ، ولا تتقيدوا بالأمكنة ، والمعبود غير مقيد"[٩].
قال الصابوني:" أي يسع الخلق بالجود والإفضال، عليم بتدبير شئونهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم"[١٠].
قال الزمخشري:" {واسِعٌ} الرحمة، يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم، {عَلِيمٌ} بمصالحهم"[١١].
قال ابن عطية:" و{واسِعٌ}، معناه: متسع الرحمة عليهم أين يضعها... {عَلِيمٌ}بالنيات التي هي ملاك العمل، وإن اختلفت ظواهره في قبلة وما أشبهها"[١٢].
قال الراغب:" ونبه بقوله : بـ{واسع}، على إحاطته بالأشياء ، وبـ{العليم}،أنه لا يخفى عليه خافية"[١٣].

الصفة وعلى أن العبد يستقبل ربه كما جاء في الحديث ... ويقول: إن الآية دلت على المعنيين، فهذا شيء آخر، ليس هذا موضعه.
(١) انظر: اللسان:(وجه).
(٢)هذا البيت من شواهد سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها. ينظر: "الكتاب" ١/ ٣٧، و"الخزانة" ٣/ ١١١، و"أدب الكاتب" ٤١٩، و"الفراء" ١/ ٢٣٣، القرطبي ٢/ ٧٥ و"مجموع الفتاوى" ٢/ ٤٢٨ والرازي في "تفسيره" ٤/ ٢٢، "البحر المحيط" ١/ ٣٦١، "لسان العرب" ٦/ ٣٢٧٤ (ماده: غفر). "المعجم المفصل" ٦/ ٢٧٩.
والذنب هنا اسم جنس بمعنى الجمع؛ فلذا قال: لستُ محصيه، وأراد: من ذنبٍ. والوجه: القصد والمراد.
(٣) انظر: التفسير البسيط: ٢٦٠/٣.
(٤) تفسير الطبري: ٥٣٦/٢.
(١) أخرجه البخاري ص٣٥، كتاب الصلاة، باب ٣٣: حك البزاق باليد من المسجد، حديث رقم ٤٠٦، وأخرجه مسلم ص٧٦٣، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ١٣: النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها...، حديث رقم ١٢٢٣ [٥٠] ٥٤٧.
(٥) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٤/٢.
(٦) الكشاف: ١٨٠/١.
(٧) تفسير السعدي: ٦٤/١.
(٨) تفسير السعدي: ٦٤/١.
(٩) تفسير المراغي: ١٩٩/١.
(١٠) صفوة التفاسير: ٧٩/١.
(١١) الكشاف: ١/!٨٠.
(١٢) المحرر الوجيز: ٢٠١/١.
(١٣) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٩٩/١.

قال القاسمي:" بيان لشمول ملكوته لجميع الآفاق، المتسبب عنه سعة علمه. وفي ذلك تحذير من المعاصي وزجر عن ارتكابها. وقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ نظير قوله: إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ [الرحمن: ٣٣] ، وكقوله تعالى: وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ [الحديد: ٤] وقوله ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ [المجادلة: ٧] ، وقوله: رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً [غافر: ٧] ، أي عمّ كل شيء بعلمه وتدبيره وإحاطته به وعلوّه عليه"(١).

قال ابن عثيمين: "(الواسع) يعني واسع الإحاطة، وواسع الصفات؛ فهو واسع في علمه، وفي قدرته، وسمعه، وبصره، وغير ذلك من صفاته؛ و(عليم) أي ذو علم؛ وعلمه محيط بكل شيء"(٢).

و(الواسع) في صفة الله تعالى على ثلاثة أوجه(٣):

أحدها: أنه واسع بإفضاله على خلقه، واحتماله مسائل عباده، وأنه لا يُكرِثه إلحاحُهم، من قول العرب: فلان يسع ما يسأل، قال أبو زبيد(٤):

أُعطيهم الجَهْدَ مني بَلْهَ ما أسِعُ

وهذا معنى قول الفراء(٥) وأبي عبيدة(٦).

الثاني: أنه يُوَسِّع على عباده في دينهم، ولا يضطرهم إلى ما يعجزون عن أدائه، فهو واسعُ الرَّحمة، واسع الشريعةِ بالترخيص لهم في التوجهِ إلى أي جهة أدَّى إليها اجتهادهم عند خفاء الأدلة(٧).

الثالث: أنه يسع علمَ كلِّ شيء، ويسع علمُه كلَّ شيء، كقوله: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} أي: علمه (٤)، وقال: {وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [طه: ٩٨].

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: انفراد الله بالملك؛ لتقديم الخبر في قوله تعالى: { ولله المشرق والمغرب}.

٢ - ومنها: عموم ملك الله؛ لأن المشرق والمغرب يحتويان كل شيء.

٣ - ومنها: إحاطة الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: { فأينما تولوا فثم وجه الله }.

٤ - ومنها: عموم ملك الله تعالى للمشرق، والمغرب خلقاً وتقديراً؛ وله أن يوجه عباده إلى ما شاء منهما من مشرق ومغرب؛ فله ملك المشرق والمغرب توجيهاً؛ وقد سبق أن قوله تعالى: {ما ننسخ من آية أو ننسها...} [البقرة: ١٠٦] إلى آيات نسخ القبلة كله تمهيد لتحويل القبلة؛ فكأن الله تعالى يقول: لله المشرق والمغرب فإذا شاء جعل اتجاه القبلة إلى المشرق؛ وإذا شاء جعله إلى المغرب؛ فأينما تولوا فثم وجه الله.

٥ - ومنها: إثبات الوجه لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: { فثم وجه الله }.

٦ - ومنها: أن الله تعالى له مكان لقوله تعالى: { فثم }؛ لأن «ثم» إشارة إلى المكان؛ ولكن مكانه في العلو؛ لا يحيط به شيء من مخلوقاته؛ قال النبي ﷺ للجارية: «أين الله؟ قالت: في السماء»(٢) .

٧ - ومنها: إبطال بدعتين ضالتين؛ إحداهما بدعة الحلولية القائلين بأن الله تعالى في كل مكان بذاته؛ فإن قول هؤلاء باطل يبطله السمع، والعقل، والفطرة أيضاً؛ الثانية: قول النفاة المعطلة الذين يقولون: إن الله لا داخل العالم، ولا خارجه؛ ولا فوق العالم، ولا تحته؛ ولا يمين العالم، ولا شمال العالم، ولا متصل بالعالم، ولا منفصل عن العالم؛ وهذا القول قال بعض أهل العلم: لو قيل لنا: صفوا لنا العدم ما وجدنا وصفاً أدق من هذا.

---

(١) محاسن التأويل: ٣٨٠/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين: ٥/٢.

(٣) انظر: التفسير البسيط: ٢٦/٣--٢٦١، والبحر المحيط: ٣٦١/١.

(٤) وصدره: حمّال أثقالِ أهلِ الودِّ آونةً

انظر:شعره: ١٠٩، واللسان(وسع)، وتمامه في التاج(وسع)، وانظر مجاز القرآن: ٥١/١، والزاهر في مه=عاني كلمات الناس: ٢٥٩/١. ومعناه: فدع ما أسع.

(٥)ذكره عنه الثعلبي في "تفسيره" ١/ ١١٣٦ وعنه البغوي ١/ ١٤٠.

(٦)في "مجاز القرآن" ١/ ٥١.

(٧) انظر: الوسيط" ١/ ١٩٤.

(٢) أخرجه مسلم ص٧٦١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٧: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، حديث رقم ١١٩٩ [٣٣] ٥٣٧.

٨ - ومن فوائد الآية: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: { واسع }، و{ عليم }.

٩- ومنها: إثبات سعة الله، وعلمه؛ ونستفيد صفة ثالثة من جمع السعة والعلم؛ للإشارة إلى أن علم الله واسع بمعنى أنه لا يفوته شيء من كل معلوم لا في الأرض، ولا في السماء.

القرآن

{وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)} [البقرة : ١١٦]

التفسير:

وقالت اليهود والنصارى والمشركون: اتخذ الله لنفسه ولدًا، تنزَّه الله -سبحانه- عن هذا القول الباطل، بل كل مَن في السموات والأرض ملكه وعبيده، وهم جميعًا خاضعون له، مسخَّرون تحت تدبيره.

وفي سبب نزول الآية أربعة أقوال[١]:

أحدها: أنها نزلت في اليهود إذ جعلوا عزيرا ابن الله. قاله ابن عباس[٢].

والثاني: أنها نزلت في نصارى نجران، حيث قالوا: عيسى ابن الله. قاله مقاتل[٣]، ويمان[٤]. واقتصر الطبري على قوله: "هم النصارى الذين زعموا أن عيسى ابن الله"[٥].

والثالث: أنها في النصارى ومشركي العرب، لأن النصارى قالت عيسى ابن الله، والمشركين قالوا الملائكة بنات الله. ذكره إبراهيم بن السري[٦]، والزجاج[٧].

والرابع: أنها في اليهود والنصارى ومشركي العرب. ذكره الثعلبي[٨]، وتبعه ابن ظفر، والكواشي[٩] وغيرهما[١٠].

قال الواحدي:" نزلت في اليهود حيث قالوا: عزير ابن الله، وفي نصارى نجران حيث قالوا: المسيح ابن الله، وفي مشركي العرب حيث قالوا: الملائكة بنات الله"[١١].

وقال الحافظ ابن حجر: "واتفقوا[١٢] على أن الآية نزلت فيمن زعم أن لله ولداً من يهود خيبر ونصارى نجران، ومن قال من مشركي العرب: الملائكة بنات الله[١]، فرد الله تعالى عليهم"[٢].

---

(١) انظر: زاد المسير: ١٣٥/١، وأسباب النزول: ٣٩، وانظر: العجاب: ٣٦٦/١، وتفسير الثعلبي: ٢٦٤/١.

(٢) انظر: زاد المسير: ١٣٥/١.

(٣) انظر: تفسير مقاتل: ١٣٣/١، زاد المسير: ١٣٥/١، وتفسير الثعلبي:٢٦٤/١، والعجاب: ٣٦٦/١.

(٤) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٦٤/١.

(٥) تفسير الطبري:٥٣٧/٢، وانظر: العجاب في بيان الأسباب: ٣٦٦/١.

(٦) انظر: زاد المسير: ١٣٥/١، والعجاب: ٣٦٦/١.

(٧) انظر: معاني القرآن: ١٩٨/١.

(٨) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٦٤/١.

(٩)هو الإمام أحمد بن يوسف الموصلي ترجمه السيوطي في "بغية الوعاة" "١/ ٤٠١" ونقل عن الذهبي قوله فيه: برع في العربية والقراءات والتفسير. وكان عديم النظير زهدًا وصلاحًا وتبتلًا وصدقًا. وله "التفسير الصغير" و"الكبير"، جود فيه الأعراب وحرر أنواع الوقوف وأرسل منه نسخة إلى مكة والمدينة والقدس.

قال السيوطي: وعليه اعتمد الشيخ جلال الدين المحلي في "تفسيره"، واعتمدت عليه أنا في تكملته مع "الوجيز" و"تفسير البيضاوى" و"ابن كثير".

مات الكواشي بالموصل في جمادى الآخرة سنة "٦٨٠".

(١٠) انظر: العجاب في بيان الأسباب: ٣٦٦/١.

(١١) أسباب النزول: ٣٩، وانظر: العجاب: ٣٦٦/١، ومعاني القرآن للزجاج: ١٩٨/١.

(١٢) مراد الحافظ بالاتفاق: أن أقوال المفسرين في الآية لا تخرج عما ذكره، لا أن كل مفسر قال ذلك، فقد ذكر الواحدي في أسباب النزول:٣٩ ذلك دون حكاية الاتفاق، واقتصر الطبري في جامع البيان: ٥٣٧/٢ على ذكر النصارى، وظاهر صنيع ابن عطية في المحرر الوجيز: ٣٣٨/١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ٨٥/٢، ترجيح ذلك، وإن حكوا أقوالاً ثلاثة. ورجح الرازي في مفاتيح الغيب: ٢٥/٤ حكايته عن اليهود وإن ذكر الأقوال الثلاثة، وحكى أبو حيان في البحر المحيط: ٣٦٢/١ أربعة أقوال، الثلاثة التي ذكرها الحافظ، والرابع أنها نزلت في النصارى والمشركين، وهذا الأخير قاله الزجاج في معاني القرآن: ١٩٨/١

قال الحافظ ابن كثير: "إن الآية الكريمة- والتي تليها- اشتملت، على الرد على النصارى، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب، ممن جعل الملائكة بنات الله ، فأكذب الله جميعهم في دعواهم"[٣].

قلت: والآية يصح أن تكون نزلت رداً على جميع هذه الطوائف، والأقوال المحكية في الآية لا تخرج عن ذلك. والله أعلم.
قوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}[البقرة:١١٦]، " أي: قالت النصارى، واليهود، والمشركون، اتخذ الله ولداً"[٤].
قال القاسمي:" يريد الذين قالوا المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، والملائكة بنات الله. فأكذب الله تعالى جميعهم في دعواهم وقولهم: إنّ لله ولدا"[٥].

قال المراغي:" ولا فارق بين أن يكون هذا القول قد صدر من جميع أفراد الأمة أو من بعضها ، فإن أفرادها متكافلون في كل ما يعملون وما يقولون ، مما يعود أثره من خير أو شر إلى الجميع"[٦].
قال السعدي: أي: "اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: { اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأساءوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم، وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه"[٧].
و{وَقَالُوا}[البقرة:١١٦]، هي قراءة الجمهور، وقرأ ابن عامر[٨] {قَالُوا}[٩]، بحذف (الواو) ، يريد الذين قالوا المسيح ابن الله وعزير ابن الله والملائكة بنات الله.
قوله تعالى{سُبْحَانَهُ}[البقرة:١١٦]، "أي تقدس وتنزّه عما زعموا تنزهاً بليغاً"[١٠].
قال الثعلبي:" نزّه وعظم نفسه"[١١].
قال ابن كثير: أي : تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًا كبيرًا"[١٢].
قال الزمخشري:" تنزيه له عن ذلك وتبعيد"[١٣].
قال أبو السعود:" تنزيه وتبرئة له تعالى عما قالوا"[١٤].
قال السعدي:"أي: "تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله، فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه"[١٥].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٢٥/٤، تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣٠٠/١، بدائع الفوائد لابن القيم: ١٥٢/٤-١٥٥، بدائع التفسير من تفسير ابن القيم-جمع: يسري السيد-: ٣٣٤/١-٣٣٨.
(٢) الفتح: ١٨/٨.
(٣)رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٩٧٤) من طريق شعيب عن أبي الزناد به ، وفيه : "ولم يكن لي كفوا أحد".
(٤) تفسير ابن عثيمين:١٦/٢.
(٥) محاسن التأويل: ٣٨٠/١
(٦) تفسير المراغي: ١٩٩/١.
(٧) تفسير السعدي: ٦٤/١.
(٨) هو: أبو عمران عبد الله بن عامر اليحصبي الشامي، تابعي، أحد القراء السبعة، قاضي دمشق ومقرؤها، توفي عام: ١١٨هـ، انظر: معرفة القراء للذهبي: ٦٧/١، سير أعلام النبلاء له: ٢٩٣/٥، غاية النهاية لابن الجزري: ٤٢٣/١.
(٩) انظر: السبعة لابن مجاهد: ١٦٩، النشر في القراءات العشر لابن الجزري: ٢٢٠/٢، الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي: ٢٦٠/١، المحرر الوجيز لابن عطية: ٣٣٨/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٦٢/١، الدر المصون للسمين: ٣٥١/١، الغاية في القراءات العشر لابن مهران: ١٠٦.
(١٠) محاسن التأويل: ٣٨٠/١، وانظر: صفوة التفاسير: ٨٠/١.
(١١) تفسير الثعلبي:٢٦٤/١.
(١٢)رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٩٧٤) من طريق شعيب عن أبي الزناد به ، وفيه : "ولم يكن لي كفوا أحد".
(١٣) انظر:الكشاف: ١٨٠/١، وتفسير النسفي: ٨٣/١.
(١٤) تفسير أبي السعود: ١٥٠/١.
(١٥) تفسير السعدي: ٦٤/١.

قال ابن عثيمين: أي تنزيهاً له أن يكون له ولد؛ لأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته؛ وهو سبحانه وتعالى مالك لجميع المخلوقات"[١].

قال المراغي:" تنزيها له تعالى أن يكون له ولد ، إذ هذا الولد إما من العالم العلوي وهو السماء أو من العالم السفلى وهو الأرض ، وليس شيء منهما بمجانس له عز اسمه إلى أن السبب المقتضى للولد هو الاحتياج إلى المعونة في الحياة والقيام مقامه بعد الموت والله منزه عن ذلك"[٢].

قوله تعالى:{ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[البقرة:١١٦]، "أي ليس الأمر كما زعموا ، بل جميع ما في السموات والأرض ملك له"[٣].

قال الصابوني:" أي ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزير والمسيح والملائكة"[٤].

قال النسفي:" أي: هو خالقه ومالكه ومن جملته المسيح وعزيز والولادة تنافي الملك"[٥].

قال السعدي:" أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالمماليك"[٦].

قال الرازي:" أي له كل ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع"[٧].

قال أبو السعود:" ي ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزيز والمسيح والملائكة"[٨].

قال ابن كثير:" أي : ليس الأمر كما افتروا ، وإنما له ملك السماوات والأرض ، وهو المتصرف فيهم ، وهو خالقهم ورازقهم ، ومُقَدِّرهم ومسخرهم ، ومسيرهم ومصرفهم ، كما يشاء ، والجميع عبيد له وملك له ، فكيف يكون له ولد منهم ، والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين ، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ، ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له ، فكيف يكون له ولدا!... فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم ، الذي لا نظير له ولا شبيه له ، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة ، فكيف يكون له منها ولدا!" [٩].

وقد روي عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال : "قال الله تعالى : كَذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إيَّاي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياي فقوله : لي ولد. فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا"[١٠].

وعن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : "يقول الله عز وجل : كذبني ابن آدم ولم ينبغ له أن يكذبني ، وشتمني ولم ينبغ له أن يشتمني ، أما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولدا، وأنا الله الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد"[١١].

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : "لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ؛ إنهم يجعلون له ولدا ، وهو يرزقهم ويعافيهم"[١٢][١٣].

---

[١] تفسير ابن عثيمين:١٦/٢.
[٢] تفسير المراغي: ١٩٩/١.
[٣] تفسير المراغي: ٢٠٠/١.
[٤] محاسن التأويل: ٣٨٠/١، وانظر: صفوة التفاسير: ٨٠/١.
[٥] تفسير النسفي: ٨٣/١.
[٦] تفسير السعدي: ٦٤/١.
[٧] مفاتيح الغيب: ٢٣/٤.
[٨] تفسير أبي السعود: ١٥١/١.
[٩] انظر: تفسير ابن كثير: ٣٩٦/١.
[١٠]صحيح البخاري برقم (٤٤٨٢).
[١١]رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٩٧٤) من طريق شعيب عن أبي الزناد به ، وفيه : "ولم يكن لي كفوا أحد".
[١٢]" صحيح البخاري برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
[١٣] انظر: تفسير ابن كثير: ٣٩٦/١.

قال الرازي: "اعلم أن هذا هو النوع العاشر من مقابح أفعال اليهود والنصارى والمشركين...ووجه الاستدلال بهذا على فساد مذهبهم من وجوه[١]:
الأول: أن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته محدث، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود، والمخلوق لا يكون ولدا.
والثاني: أن هذا الذي أضيف إليه بأنه ولده إما أن يكون قديما أزليا أو محدثا، فإن كان أزليا لم يكن حكمنا بجعل أحدهما ولدا والآخر والدا أولى من العكس، فيكون ذلك الحكم حكما مجردا من غير دليل وإن كان الولد حادثا كان مخلوقا لذلك القديم وعبدا له فلا يكون ولدا له.
والثالث: أن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد، فلو فرضنا له ولدا لكان مشاركا له من بعض الوجوه، وممتازا عنه من وجه آخر، وذلك يقتضي كون كل واحد منهما مركبا ومحدثا وذلك محال، فإذن المجانسة ممتنعة فالولدية ممتنعة.
الرابع: أن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالا.
قوله تعالى:{كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}[البقرة:١١٦]، " أي: كل له خاشع ذليل"[٢].
قال الصابوني: "أي الكل منقادون له لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته"[٣].
قال الزجاج:أي" كل ما خلق الله في {السَّمَاوَات والأرض}، فيه أَثَرُ الصنْعَة، فهو قانت للهِ، والدليل على أنه مخلوق"[٤].
قال المراغي:أي : الجميع "قانت لعزته ، خاضع لسلطانه ، منقاد لإرادته"[٥].
قال أبو السعود:" أي: مطيعون عابدون له معترفون بربوبيته"[٦].
قال القاسمي:أي:" منقادون، لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره"[٧].
قال ابن عثيمين:" وهذا من الاستدلال بالعقل على كذب دعوى هؤلاء أن له سبحانه وتعالى ولداً[٨].
وقال الفراء:" يريد مطيعون، وهذه خاصة لأهل الطاعة ليست بعامة"[٩].
واعترض عليه الزجاج، فقال:" والكلام يدل على خلاف ما قال، لأن قوله:{مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}كل إحاطة"[١٠].
و(القنوت) في كلام العرب على ثلاثة أوجه من المعاني[١١]:
أحدهما: أنه من: القيام. وقد سئل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أيّ الصّلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت»[١٢]. يريد: طول القيام[١٣].
والثاني: أنه من : الطاعة. ودليله قول عكرمة في قوله: {كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}، "القانت: المطيع"[١٤].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٣/٤.
(٢) تفسير ابن عثيمين:١٦/٢.
(٣) صفوة التفاسير: ٨٠/١.
(٤) معاني القرآن:١٩٨/١.
(٥) تفسير المراغي: ٢٠٠/١.
(٦) تفسير أبي السعود: ١٥١/١.
(٧) محاسن التأويل: ٣٨٠/١.
(٨) تفسير ابن عثيمين:١٦/٢.
(٩) معاني القرآن: ٧٤/١.
(١٠) معاني القرآن: ١٩٨/١.
(١١) انظر: التفسير البسيط: ٢٦٣/٣-٢٦٤.
(١٢) صحيح مسلم(٧٥٦):ص٥٢٠/١، ومسند الإمام أحمد(١٨٢١):ص٣٠٢/٣، والترمذي(٣٨٧):ص٢٢٩/٢، والنسائي(٢٥٢٦):ص٥٨/٥، وابن ماجة(١٤٢١):ص٤٥٦/١.
(١٣)انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٤/١، ومعاني القرآن للزجاج: ١٩٨/١، والتفسير البسيط: ٢٦٣/٣-٢٦٤.
(١٤)أخرجه أبو عبيد في: "غريب الحديث" ١/ ٤٣٨، ورواه الطبري(١٨٥٦):ص٥٣٨/٢. بنحوه.

والثالث:أنه: الكف عن الكلام والإمساك عنه[١].
واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}[البقرة:١١٦]، على أربعة أقوال[٢]:
أحدها : أي مطيعون ، وهذا قول ابن عباس[٣]، وقتادة[٤]، والسدي[٥]، ومجاهد[٦].
قال الثعلبي:" دليله: قوله تعالى {وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ}[الأحزاب:٣٥]"[٧].
والثاني : أي مقرون له بالعبودية ، وهو قول عكرمة[٨].
والثالث : أي قائمون ، يعني يوم القيامة ، وهذا قول الربيع[٩].
والرابع: أي: قائمون بالشهادة. حكاه الثعلبي عن ابن كيسان[١٠].
والخامس: أي: مصلّون، قاله ابن عباس[١١]، ودليله قوله:{أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ}[الزمر:٩]، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مثل المجاهد في سبيل الله مثل القانت الصائم»[١٢]، أيّ المصلّي[١٣].
والسادس: وقيل: داعون. ودليله قوله تعالى:{قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ}[البقرة:٢٣٨][١٤].
والسابع: مخلصون. قاله سعيد[١٥].

والراجح هو القول الأول، وهو القول عن مجاهد - وهو اختيار الإمام الطبري[١٦]- يجمع الأقوال كلها ، وهو أن القنوت : هو الطاعة والاستكانة إلى الله ، وذلك شرعي وقَدري، كما قال تعالى : { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ } [الرعد : ١٥]، وقد وَرَد حديث فيه بيان معنى القنوت في القرآن، فروي عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ قال : "كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة"[١٧]. والله أعلم.
وقد ذكر الشيخ السعدي: بأن القنوت نوعان[١٨]:

([١]) انظر: تفسير الطبري: ٥٣٩/٢.
([٢]) انظر: النكت والعيون: ١٧٨/١، و تفسير الثعلبي:٢٦٤/١.
([٣]) انظر: تفسير الطبري(١٨٥٥):ص٥٣٨/٢.
([٤]) انظر: تفسير الطبري(١٨٥٠):ص٥٣٨/٢.
([٥]) انظر: تفسير الطبري(١٨٥٣):ص٥٣٨/٢.
([٦]) انظر: تفسير الطبري(١٨٥١)، و(١٨٥٢):ص٥٣٨/٢.
([٧]) تفسير الثعلبي:٢٦٤/١.
([٨]) انظر: تفسير الطبري(١٨٥٦):ص٥٣٨/٢.
([٩]) انظر: تفسير الطبري(١٨٥٧):ص٥٣٩/٢.
([١٠]) انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٤/١.
([١١]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٣١):ص٢١٤/١.
([١٢])مسند أحمد: ٢/ ٤٣٨، ومجمع الزوائد: ٥/ ٢٧٥.
([١٣]) انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٤/١.
([١٤]) انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٤/١.
([١٥]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٣٤):ص٢١٤/١.
([١٦])قال الإمام الطبري: "إن معنى القنوت في الآية هو :"الطاعة والإقرار لله عز وجل بالعبودية ، بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصنعة ، والدلالة على وحدانية الله عز وجل ، وأن الله تعالى ذكره بارئها وخالقها. وذلك أن الله جل ثناؤه أكذب الذين زعموا أن لله ولدا بقوله : (بل له ما في السموات والأرض) ، ملكا وخلقا، ثم أخبر عن جميع ما في السموات والأرض أنها مقرة بدلالتها على ربها وخالقها ، وأن الله تعالى بارئها وصانعها. وإن جحد ذلك بعضهم ، فألسنتهم مذعنة له بالطاعة ، بشهادتها له بآثار الصنعة التي فيها بذلك ، وأن المسيح أحدهم ، فأنى يكون لله ولدا وهذه صفته ؟ وقد زعم بعض من قصرت معرفته عن توجيه الكلام وِجْهَتَه ، أن قوله : (كل له قانتون) ، خاصة لأهل الطاعة وليست بعامة. وغير جائز ادعاء خصوص في آية عام ظاهرها ، إلا بحجة يجب التسليم لها ، لما قد بينا في كتابنا : " كتاب البيان عن أصول الأحكام "، وهذا خبر من الله جل وعز عن أن المسيح - الذي زعمت النصارى أنه ابن الله - مكذبهم هو والسموات والأرض وما فيها ، إما باللسان ، وإما بالدلالة. وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن جميعهم ، بطاعتهم إياه ، وإقرارهم له بالعبودية ، عقيب قوله : (وقالوا اتخذ الله ولدا) ، فدل ذلك على صحة ما قلنا".[تفسير الطبري: ٥٣٩/٢-٥٤٠].
([١٧])أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٩٢):ص٦٤٨/٢، والمسند (٧٥/٣).
([١٨]) انظر: تفسير السعدي: ٦٤/١.

أحدهما: قنوت عام: وهو قنوت الخلق كلهم، تحت تدبير الخالق، كما في هذه الآية.
والثاني: قنوت خاص: وهو قنوت العبادة، وذلك كما في قوله تعالى: { وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ }[البقرة:٢٣٨] .
وقد اختلف العلماء في حكم هذه الآية، على قولين[١]:
القول الأول: أن حكمه خاص، ثمّ سلكوا في تخصيصه طريقين:
الأول: أنه راجع إلى عزير والمسيح والملائكة، وهو قول مقاتل[٢]، ويمان[٣].
فأراد: "أنهم كلهم عباد الله طائعون، نظيره: قوله: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} [الأنبياء: ٢٦]"[٤].

والثاني:أنه راجع إلى أهل طاعته دون النّاس أجمعين. وهذا قول ابن عبّاس[٥] والفراء[٦].
وقد رد الطبري في تفسيره القول بالخصوص، بأنه لا يجوز ادعاء خصوص في آية ظاهرها العموم، إلا بحجة[٧].
القول الثاني: أنه عام في جميع الخلق، ثمّ سلكوا في الكفّار الجاحدين طريقتين:
أحدهما: إنّ ظلالهم تسجد لله وتطيعه، وهذا قول مجاهد[٨]، دليله قوله عزّ وجلّ: {يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ}[النحل: ٤٨]، الآية. وقوله: {وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ} [الرعد: ١٥][٩].
والثاني: لأن هذا يوم القيامة، قاله السدي[١٠]، وتصديقه قوله: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [طه: ١١١][١١].
وقيل: " طاعة الجميع لله تكونهم في الخلق عند التكوين إذا قال: كن كان كما أراد [١٢]، فنسب القنوت إليه كما نسبت الخشية إلى الحجارة، والمحبة إلى الجبال، والشكوى إلى الإبل، والسجود إلى الأشجار"[١٣].
الفوائد:
١ - من فوائد الآيتين: بيان عتوّ الإنسان وطغيانه، حيث سبَّ الله سبحانه وتعالى هذه السبَّة العظيمة، فقال: إن الله اتخذ ولداً**!!!** في الحديث الصحيح القدسي: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك؛ وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: إنه لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفْئاً أحدٌ»[١] ؛ فهذا من أعظم العدوان؛ وهو يشير كما تقدم في التفسير إلى ثلاث طوائف: اليهود، والنصارى، والمشركين؛ وقد أبطل الله هذه الدعوى الكاذبة من ستة أوجه:

---

[١] انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٤/١-٢٦٥.
[٢] انظر: تفسير مقاتل: ١/ ١٣٣، وذكره الثعلبي:٢٦٤/١.
[٣] انظر: تفسير الثعلبي: ٢٦٤/١.
[٤] التفسير البسيط: ٢٦٥/٣.
[٥] انظر: تفسير الثعلبي: ٢٦٤/٣، والتفسير البسيط: ٢٦٤/٣، ورواه الطبري(١٨٥٥):ص٥٣٨/٢، بنحوه.
[٦] انظر: معاني القرآن: ٧٤/١.
[٧] انظر: تفسير الطبري: ٥٣٩/٢.
[٨] انظر: الطبري(١٨٥١)، وانظر: (١٨٥٢):ص٥٣٨/٢.
[٩] انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٤/١.
[١٠] أخرجه الطبري(١٨٥٣):ص٥٣٨/٢.
[١١] انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٤/١.
[١٢]يروى عن مجاهد، انظر تفسيره: ٨٦/١، وتفسير ابن أبي حاتم(١١٣٠):ص ١/ ٢١٣.
[١٣] التفسير البسيط: ٢٦٦/٣. نسبت الخشية إلى الحجارة في قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [البقرة: ٧٤]، ونسبت المحبة إلى الجبال في قوله - ﷺ -: "أحد جبل يحبنا ونحبه" متفق عليه.
ونسبت الشكوى إلى الإبل في الحديث الذي رواه أبو داود وأحمد عن عبد الله بن جعفر أن النبي - ﷺ - لما راى جملًا لرجل من الأنصار، حنّ الجمل وذرفت عيناه، فمسح النبي - ﷺ - ذِفراه، فسكت فقال: "من رب هذا الجمل"، فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال: "أفلا تتقى الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه".
ونسب السجود إلى الأشجار في قوله تعالى: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ} [الرحمن: ٦]، وغيرها من الآيات.[انظر: حاشية التفسير البسيط:٢٦٦/٣].

[١] أخرجه البخاري ص٤٣١، كتاب التفسير، باب ١: حديث رقم ٤٩٧٤.

الوجه الأول: في قوله تعالى: { سبحانه }؛ فإن تنزهه عن النقص يقتضي أن يكون منزهاً عن اتخاذ الولد؛ لأن اتخاذ الولد يقصد به الإعانة، ودفع الحاجة، أو بقاء العنصر؛ والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك؛ ومنزه أيضاً عن المماثلة؛ ولو كان له ولد لكان مثيلاً له.
الوجه الثاني: في قوله تعالى: { بل له ما في السموات والأرض }؛ وعموم ملكه يستلزم استغناءه عن الولد.
الوجه الثالث: في قوله تعالى: { بل له ما في السموات والأرض }، والمملوك لا يكون ولداً للمالك؛ حتى إنه شرعاً إذا ملك الإنسان ولده يعتق عليه؛ فالمملوك لا يمكن أن يكون ولداً للمالك؛ فالله خالق؛ وما سواه مخلوق؛ فكيف يكون المخلوق ولداً للخالق!
الوجه الرابع: في قوله تعالى: { كل له قانتون }؛ ووجهه أن العباد كلهم خاضعون ذليلون؛ وهذا يقتضي أنهم مربوبون لله عابدون له؛ والعبد لا يكون ولداً لربه.
الوجه الخامس: في قوله تعالى: { بديع السموات والأرض }؛ ووجهه أنه سبحانه وتعالى مبدع السموات والأرض؛ فالقادر على خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق إنساناً بلا أب، كما قال تعالى: {لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس} [غافر: ٥٧] .
الوجه السادس: في قوله تعالى: { إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون }؛ ومن كان هذه قدرته فلا يستحيل عليه أن يوجد ولداً بدون أب.
فبطلت شبهتهم التي يحتجون بها على أن لله ولداً.
٢ - ومن فوائد الآيتين: امتناع أن يكون لله ولد؛ لهذه الوجوه الستة.
٣- ومنها: عموم ملك الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: { بل له ما في السموات والأرض }.
٤- ومنها: أن الله لا شريك له في ملكه؛ لتقديم الخبر في قوله تعالى: { له ما في السموات والأرض }؛ وتقديم الخبر يفيد الاختصاص.
٥- ومنها: أن كل من في السموات، والأرض قانت لله؛ والمراد القنوت العام - وهو الخضوع للأمر الكوني -؛ والقنوت يطلق على معنيين؛ معنى عام وخاص؛ «المعنى الخاص» هو قنوت العبادة، والطاعة، كما في قوله تعالى: {أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً} [الزمر: ٩] ، وكما في قوله تعالى: {وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين} [التحريم: ١٢] ، وكما في قوله تعالى: {يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين} [آل عمران: ٤٣] ؛ و«المعنى العام» هو قنوت الذل العام؛ وهذا شامل لكل من في السموات، والأرض، كما في هذه الآية: { كل له قانتون }؛ حتى الكفار بهذا المعنى قانتون لله سبحانه وتعالى؛ لا يخرجون عن حكمه الكوني.

القرآن

{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)} [البقرة : ١١٧]

التفسير:
والله تعالى هو خالق السموات والأرض على غير مثال سبق. وإذا قدَّر أمرًا وأراد كونه فإنما يقول له: "كن" فيكون.

قوله تعالى :{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }[البقرة:١١٧]، " أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق"[١].
قال أبو العالية:" ابتدع خلقها، ولم يشركه في خلقها أحد"[٢]. وروي عن الربيع نحو ذلك[٣].
وقال السدي:" ابتدعها فخلقها، ولم يخلق قبلها شيئا فيمتثل عليه"[٤]. وروي عن مجاهد نحو ذلك[٥]..

---

(١) صفوة التفاسير: ٨٠/١،
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٣٥):ص٢١٤/١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتكم:٢١٤/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٣٦):ص٢١٤/١.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتكم:٢١٤/١.

قال ابن كثير:" أي : خالقهما على غير مثال سبق"[١].
قال السعدي:" أي: خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق"[٢].
قال الزجاج:" يعني، أنشاهما على غير حِذَاءٍ ولا مِثَال، وكل من أنْشَأ ما لَم يُسْبَق إليه قيل له أبدعت، ولهذا قيل لكل من خالف السُّنَّةَ والإجماعَ مبتدع، لأنه يأتي في دين الإسلام بما لم يسبقه إليه الصحابة والتابعون"[٣].
قال ابن عطية:" وخص السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بالذكر لأنها أعظم ما نرى من مخلوقاته جل وعلا"[٤].
قال الطبري: "ومعنى المبدع : المنشئ والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد، ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعًا ؛ لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره ، وكذلك كل محدث فعلا أو قولا لم يتقدمه فيه متقدم ، فإن العرب تسميه مبتدعا. ومن ذلك قول أعشى ثعلبة ، في مدح هوذة بن علي الحَنفِي[٥]:

يُرعى إلى قَوْل سادات الرّجال إذا أبدَوْا له الحزْمَ أو ما شاءه ابتدَعا

أي : يحدث ما شاء.
ومنه قول رؤبة بن العجاج[٦]:
فأيها الغاشي القِذَافَ الأتْيَعَا إن كنت لله التقي الأطوعا
فليس وجه الحق أن تَبَدَّعا
يعني : أن تحدث في الدين ما لم يكن فيه[٧].
وقيل (البديع) بمعنى (المبدع) [٨]،واستدل بقول عمرو معد يكرب[٩]:
أَمِنْ ريحانة الدَّاعي السَّميع يُؤْرِقُني وأَصْحابي هَجوع
أي: المسمع[١٠]، قال الزمخشري: "وفيه نظر"[١١].
وقرئ {بديع السماوات}، مجروراً على أنه بدل من الضمير في {له}، وقرأ المنصور بالنصب على المدح[١٢].

قوله تعالى:{وَإِذَا قَضَى أَمْرًا}[البقرة:١١٧]، " أي إذا أراد أن يقضي أمراً"[١٣].
قال الطيبري:أي" وإذا أحكم أمرا وحتمه"[١].

([١]) انظر: ابن كثير: ٣٩٨/١.
([٢]) تفسير السعدي:٦٤.
([٣]) معاني القرآن: ١٩٩/١.
([٤])المحرر الوجيز: ٢٠١/١.
([٥])ديوانه : ٨٦ ، وسيأتي في هذا الجزء ٢ : ٥٤٠ وقد سلف تخريج أبيات من هذه القصيدة في ١ : ١٠٦ ، ٢ : ٩٤ ، وهي في هوذة بن علي كما سلف . يقول قبله : يا هوذ ، يا خير من يمشي على قدم ... بحر المواهب للوراد والشرعاوابتدع : أحدث ما شاء .
([٦])ديوانه : ٨٧ ، واللسان (بدع) من رجز طويل يفخر فيه برهطه بني تميم . ورواية الديوان " القذاف الأتبعا " ، وليس لها معنى يدرك ، ورواية الطبري لها مخرج في العربية . " الغاشي " من قولهم : غشي الشيء : أي قصده وباشره أو نزل به . والقذاف : سرعة السير والإبعاد فيه ، أو كأنه أراد الناحية البعيدة ، وإن لم أجده في كتب العربية . والأتيع : لم أجده في شيء ، ولعله أخذه من قولهم : تتايع القوم في الأرض : إذا تباعدوا فيها على عمى وشدة . يقول : يا أيها الذاهب في المسالك البعيدة عن سنن الطريق - يعني به : من ابتدع من الأمور ما لا عهد للناس به ، فسلك في ابتداعه المسالك الغريبة .(تفسير الطبري: ٥٤٠/٢).
([٧]) تفسير الطبري: ٥٤٠/٢.
([٨]) أنظر: التفسير البسيط: ١٥٣/٢، والكشاف: ١٨١/١، وتفسير البيضاوي: ١٠٢/١.
([٩])البيت في "الشعر والشعراء" ص ٢٣٥، و"تفسير الطبري" ١/ ١٢٣، "معاني القرآن" للزجاج١/ ٥١، و"تفسير الثعلبي" ١/ ٥٠ أ، و"تفسير ابن عطية" ١/ ١٦٥، "الأصمعيات" ص ١٧٢، "البحر المحيط" ١/ ٥٩. وريحانة: أخت عمرو، وكان الصمة أبو دريد قد غزا بني زبيد وسباها، وغزاهم عمرو مرارًا ولم يقدر عليها، وقيل: ريحانة امرأة أراد أن يتزوجها فهو يشبب بها.
([١٠]) أنظر: التفسير البسيط: ١٥٢/٢-١٥٣.
([١١]) الكشاف: ١٨١/١.
([١٢]) انظر: الكشاف: ١٨٢/١.
([١٣]) تفسير ابن عثيمين:١٧/٢.

قال البيضاوي:" أي أراد شيئا"[٢].
قال المراغي:" أي وإذا أراد إحداث أمر وإيجاده"[٣].
قال ابن عطية:" و{قَضى}، معناه قدر، وقد يجيء بمعنى أمضى، ويتجه في هذه الآية المعنيان، فعلى مذهب أهل السنة قدر في الأزل وأمضى فيه، وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد"[٤].
وأصل (القضاء): إتمام الشيء وإحكامه[٥]، والفراغ منه، ومن ذلك قيل للحاكم بين الناس : القاضي بينهم ، لفصله القضاء بين الخصوم ، وقطعه الحكم بينهم وفراغه منه به، ومنه قيل: تقضي النهار، إذا انصرم ، ومنه قول الله عز وجل: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ}[الإسراء : ٢٣] أي : فصل الحكم فيه بين عباده ، بأمره إياهم بذلك ، وكذلك قوله :{وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ }[سورة الإسراء : ٤] ، أي أعلمناهم بذلك وأخبرناهم به ، ففرغنا إليهم منه. ومنه قول أبي ذؤيب[٦]:
وعليهما مسرودتان ، قضاهما   داود أو صَنَعَ السوابغِ تُبَّعُ
ويعني بقوله : قضاهما، أحكمهما.
ومنه قول الآخر في مدح عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٧]:
قضيت أمورا ثم غادرت بعدها   بَوائِق في أكمامها لم تَفَتَّقِ
ويروى : بوائج[٨].

قوله تعالى: {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[البقرة:١١٧]، أي:" فإنما يأمره أن يكون موجودا فيكون"[٩].
قال ابن عباس:" فهو خلق الإنسان"[١٠].
قال الراغب:" تنبيه أنه لا يمتنع عليه شي يريد إيجاده"[١١].

قال ابن عثيمين:" أي لا يقول له إلا «كن» مرة واحدة بدون تكرار؛ فيحدث كما أمره الله سبحانه وتعالى على ما أراد الله عز وجل"[١٢].
قال الطبري:أي" فإنما يقول لذلك الأمر{كن}، فيكون ذلك الأمر على ما أمره الله أن يكون وأراده[١٣].
قال السعدي:" فلا يستعصى عليه، ولا يمتنع منه"[١].

([١]) تفسير الطبري:٥٤٢/٢.
([٢]) تفسير البيضاوي: ١٠٢/١، وانظر: تفسير أبي السعود: ١٥١/١.
([٣]) تفسير المراغي: ٢٠٠/١.
([٤]) المحرر الوجيز: ٢٠١/١-٢٠٢.
([٥]) تفسير الثعلبي:٢٦٤/١.
([٦])ديوانه : ١٩ ، والمفضليات : ٨٨١ وتأويل مشكل القرآن : ٣٤٢، من قصيدته التي فاقت كل شعر ، يرثى أولاده حين ماتوا بالطاعون.
([٧])هو جزء بن ضرار ، أخو الشماخ بن ضرار . وقد اختلف في نسبتها . نسبت للشماخ ، ولغيره ، حتى نسبوها إلى الجن (انظر طبقات فحول الشعراء : ١١١ ، وحماسة أبي تمام ٣ : ٦٥ ، وابن سعد ٣ : ٢٤١ ، والأغاني ٩ : ١٥٩ ، ونهج البلاغة ٣ : ١٤٧ ، والبيان والتبيين ٣ : ٣٦٤ ، وتأويل مشكل القرآن : ٣٤٣ ، وغيرها كثير) . هذا والصواب أن يقول : " في رثاء عمر بن الخطاب " .
والبوائق جمع بائقة : وهي الداهية المنكرة التي فتحت ثغرة لا تسد . والأكمام جمع كم _(بضم الكاف وكسرها) . وهو غلاف الثمرة قبل أن ينشق عنه . وقوله : " لم تفتق " ، أصلها : تتفتق ، حذف إحدى التاءين . وتفتق الكم عن زهرته : انشق وانفطر . ورحم الله عمر من إمام جمع أمور الناس حياته ، حتى إذا قضى انتشرت أمورهم .
([٨]) انظر: تفسير الطبري: ٥٤٢/٢-٥٤٣. وبوائج جمع بائجة : وهي الداهية التي تنفتق انفتاقا منكرا فتعم الناس ، وتتابع عليهم شرورها من قولهم : باج البرق وانباج وتبوج : إذا لمع وتكشف وعم السحاب ، وانتشر ضوؤه.
([٩]) تفسير المراغي: ٢٠٠/١.
([١٠]) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٣٩):ص٢١٥/١.
([١١]) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣٠٣/١.[بتصرف بسيط].
([١٢]) تفسير ابن عثيمين:١٧/٢.
([١٣]) تفسير الطبري: ٥٤٢/٢-٥٤٤.

قال الزمخشري:" أنّ ما قضاه من الأمور وأراد كونه ، فإنما يتكوّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف ، كما أنّ المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء"[٢].
قال المراغي:" والإيجاد والتكوين من أسرار الألوهية عبر عنهما بما يقربهما من الفهم وهو أن يقول للشيء كن فيكون"[٣].
قال أبو السعود:" أي أحدث فيحدث..تصوير لسرعة حدوثها بما هو علم في الباب من طاعة المأمور المطيع للآمر المطاع"[٤].
قال البيضاوي:" وليس المراد به حقيقة أمر وامتثال، بل تمثيل حصول ما تعلقت به إرادته بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقف. وفيه تقرير لمعنى الإبداع، وإيماء إلى حجة خامسة وهي: أن اتخاذ الولد مما يكون بأطوار ومهلة، وفعله تعالى مستغن عن ذلك"[٥].
فإن قيل:" في أي حال يقول له كن فيكون ؟ أفي حالة عدمه أم في حال وجوده ؟ فإن كان في حال عدمه ، استحال أن يأمر إلا مأموراً ، كما يستحيل أن يكون الأمر إلا من آمر ، وإن كان في حال وجوده ، فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيها بالوجود والحدوث ، لأنه موجود حادث ؟"[٦].
قيل : عن هذا السؤال أجوبة ثلاثة [٧]:
أحدها : أنه خبر من الله تعالى عن نفوذ أوامره في خلقه الموجود ، كما أمر في بني إسرائيل ، أن يكونوا قردة خاسئين ، ولا يكون هذا وارداً في إيجاد المعدومات .
الثاني : أن الله عز وجل عالم ، بما هو كائن قبل كونه ، فكانت الأشياء التي لم تكن وهي كائنة بعلمه ، قبل كونها مشابهة للأشياء التي هي موجودة ، فجاز أن يقول لها كوني ، ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود ، لتصور جميعها له ولعلمه بها في حال العدم .
والثالث : أن ذلك خبر من الله تعالى ، عامٌ عن جميع ما يُحْدِثُه ، ويكوّنه ، إذا أراد خلقه وإنشاءه كان ووجد من غير أن يكون هناك قول يقوله ، وإنما هو قضاء يريده ، فعبر عنه بالقول وإن لم يكن قولاً ، كقول أبي النجم [٨]:

وقالت للبَطْنِ الْحَقِ الحق　　　قِدْمًا فآضت كالفَنِيقِ المحنِق

ولا قول هنالك ، وإنما عنى أن الظهر قد لحق بالبطن. وكما قال عمرو بن حممة الدوسي[٩] :

فأصبحت مثل النسر طارت فراخه　　　إذا رام تطيارا يقال له : قع

ولا قول هناك ، وإنما معناه : إذا رام طيرانا وقع ، وكما قال الآخر[١]:

([١]) تفسير السعدي:٦٤.
([٢]) الكشاف: ١٨١/١.
([٣]) تفسير المراغي: ٢٠٠/١.
([٤]) تفسير أبي السعود:١٥١/١.
([٥]) تفسير البيضاوي: ١٠٣/١.
([٦]) النكت والعيون: ١٧٩/١، وانظر: تفسير الطبري: ٥٤٤/٢.
([٧]) انظر: تفسير الطبري: ٢/ ٥٤٤-٥٤٦، والنكت والعيون: ١٧٩/١.
([٨])لم أجد الرجز كاملا ، والبيتان في اللسان (حنق) . يصف ناقة أنضاها السير . والأنساع جمع نسع (بكسر فسكون) ، وهو سير يضفر عريضا تشد به الرحال . ولحق البطن يلحق لحوقا : ضمر . أي قالت سيور التصدير لبطن الناقة : كن ضامرا . يعني بذلك ما أضناها من السير . وقدما : أي منذ القدم قال بشامة بن الغدير :

لا تظلمونا ، ولا تنسوا قرابتنا　　　إطوا إلينا ، فقدما تعطف الرحم

ويعني أبو النجم : أن الضمور قد طال بها ، فإن الأنساع قالت ذلك منذ زمن بعيد . وآض : صار ورجع . والفنيق الجمل الفحل المودع للفحلة ، لا يركب ولا يهان لكرامته عليهم ، فهو ضخم شديد التركيب . والمحنق : الضامر القليل اللحم . والإحناق : لزوق البطن بالصلب .
([٩])يقال له أيضًا : كعب بن حممة ، وهو أحد المعمرين ، زعموا عاش أربعمائة سنة غير عشر سنين . وهو أحد حكام العرب ، ويقال إنه هو " ذو الحلم " الذي قرعت له العصا ، فضرب به المثل . انظر: كتاب المعمرين : ٢٢ ، وحماسة البحتري : ٢٠٥ ومعجم الشعراء : ٢٠٩ ، وهي أبيات .

امتلأ الحوض وقال : قطني سلا رويدا ، قد ملأت بطني

والراجح، أنه "عام في كل ما قضاه الله وبرأه لأن ظاهر ذلك ظاهر عموم ، وغير جائزة إحالة الظاهر إلى الباطن من التأويل بغير برهان"[٢]. والله أعلم.

وفي قوله تعالى: { فَيَكُونُ }[البقرة:١١٧] قراءتان[٣]:

إحداهما: النصب، جواباً للأمر: {كن}، أي فبسبب ذلك يكون؛ وتكون الفاء للسببية.

وضعفه أبو علي، فقال:" أجمع الناس على رفع يكون، ورفضوا فيه النصب، إلا ما روي عن ابن عامر وهو من الضعف بحيث رأيت، فالوجه في يكون الرفع"[٤].

قال ابن عطية:"ووجهه مع ضعفه على أن يشفع له شبه اللفظ، وقال أحمد بن موسى في قراءة ابن عامر: «هذا لحن»، لأن الفاء لا تعمل في جواب الأمر إلا إذا كانا فعلين يطرد فيهما معنى الشرط" [٥].

والثاني: الرفع، فتكون للاستئناف؛ أي: فهو يكون.

ومن رفع ذلك، " فإنه رأى أن الخبر قد تم عند قوله : {إذا أردناه أن نقول له كن}، إذ كان معلوما أن الله إذا حتم قضاءه على شيء كان المحتوم عليه موجودا ، ثم ابتدأ بقوله : فيكون ، كما قال جل ثناؤه : {لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ}[الحج : ٥] وكما قال ابن أحمر[٦]:

يعالج عاقرا أعيت عليه ليُلْقِحَها فيَنْتِجُها حُوارا

يريد : فإذا هو يَنتجها حُوارا[٧].

واختاره الطبري وقرره، لأن (القول) و (الكون) حالهما واحد، "لا يمكن أن يكون الله آمرا شيئا بالوجود إلا وهو موجود ، ولا موجودا إلا وهو آمره بالوجود"[٨].

واعترض عليه ابن عطية فقال:" وهو خطأ من جهة المعنى، لأنه يقتضي أن القول مع التكوين والوجود"[٩].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: عظم قدرة الله عز وجل ببدع السموات، والأرض؛ فإنها مخلوقات عظيمة.

٢- ومنها: حكمة الله سبحانه وتعالى بأن هذه السموات، والأرض على نظام بديع عجيب؛ قال تعالى: {ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت} [الملك: ٣] ؛ هذا النظام الواسع الكبير العظيم لا يختل، ولا يتغير على مر السنين، والأعوام؛ فتدل على قدرة باهرة بالغة، وحكمة عظيمة بالغة: كل شيء منظم تنظيماً بديعاً متناسباً، فلا يصطدم شيء بشيء فيفسده؛ ولا يغير شيء شيئاً؛ بل كل سائر حسب ما أمره الله به؛ قال الله تعالى: {وأوحى في كل سماء أمرها} [فصلت: ١٢ [؛ إذاً { بديع السموات والأرض } يستفاد منها القوة، والقدرة، والحكمة.

---

(١) " أمالي ابن الشجري ١ : ٣١٣ ، ٢ : ١٤٠ ، واللسان (قطط) . وفي المطبوعة : " سيلا " ، والصواب في اللسا وأمالي ابن الشجري ، والرواية المشهورة " مهلا رويدا " . وقطني : حسبي وكفاني وللنحاة كلام كثير في " قطني " . وقوله " سلا " : كأنه من قولهم : انسل السيل : وذلك أول ما يبتدئ حين يسيل ، قبل أن يشتد . كأنه يقول : صبا رويدا .

(٢) تفسير الطبري:٥٤٧/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٥٤٩/٢.

(٤) الحجة للقراء السبعة:٢٠٦/٢-٢٠٧.

(٥) المحرر الوجيز: ٢٠٢/١.

(٦)المعاني الكبير : ٨٤٦ ، ١١٣٤ ، وسيبويه ١ : ٣٤١ ، من أبيات يذكر صديقا كان له، يقول :

أرانا لا يزال لنا حميم كداء البطن سِلا أو صُفارا

يعالج عاقرا أعيت عليه ليلقحها ، فينتجها حوارا

ويزعم أنه ناز علينا بشرته فتاركنا تبارا

جعل هذا الصديق كداء البطن لا يدري من أين يهج ولا كيف يتأتى له . وهو يعالج من الشر ما لا يقدر عليه ، فكأنه يطلب الولد من عاقر . جعل ذلك مثلا . والحوار : ولد البقرة . والشرة : حدة الشر ، والتبار : الهلاك .

(٧) تفسير الطبري: ٥٤٩/٢.

(٨) تفسير الطبري: ٥٤٩/٢.

(٩) المحرر الوجيز: ٢٠٢/١.

٣- ومن فوائد الآيتين: أن السموات عدد؛ لأن الجمع يدل على العدد؛ وقد بيَّن الله في القرآن، وثبتت السنة، وأجمع المسلمون على أن السماء جرم محسوس؛ وليس كما قال أهل الإلحاد: إن الذي فوقنا فضاء لا نهاية له؛ وأما الأرض فلم تأت في القرآن إلا مفردة؛ لكن أشار الله سبحانه وتعالى إلى أنها سبع في قوله تعالى: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن} [الطلاق: ١٢] ؛ وصرحت السنة بذلك في قوله -صلى الله عليه وسلم-: «من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين»(١) .

٤- ومن فوائد الآيتين: أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عن أمره شيء؛ لقوله تعالى: { إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون }.

٥- ومنها: إثبات القول لله؛ لقوله تعالى: { فإنما يقول له }.

٦- ومنها: أن قول الله بصوت مسموع؛ لقوله تعالى: { فإنما يقول له كن فيكون }؛ و{ له } صريحة في توجيه القول للمقول له؛ ولولا أنه يسمعه لما صار في توجيهه له فائدة؛ ولهذا يسمعه الموجه إليه الأمر، فيمتثل، ويكون.

٧- ومنها: أن قول الله بحروف؛ لقوله تعالى: { كن }؛ وهي كلمة بحرفين.

فإن قال قائل: كيف يمكن أن نتصور هذا ونحن نقول: ليس كمثله شيء؛ وأنتم تقولون: إنه بحروف؟ قلنا: نعم؛ الحروف هي الحروف؛ لكن كيفية الكلام، وحقيقة النطق بها - أو القول - لا يماثل نطق المخلوق، وقوله؛ ومن هنا نعرف أننا لا نكون ممثِّلة إذا قلنا: إنه بحرف، وصوت مسموع؛ لأننا نقول: صوت ليس كأصوات المخلوقين؛ بل هو حسب ما يليق بعظمته، وجلاله.

٨- ومن فوائد الآية: أن الجماد خاضع لله سبحانه وتعالى؛ وذلك لأن قوله تعالى: { وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون } يشمل الأمور المتعلقة بالحيوان، والمتعلقة بالجماد؛ فالجماد إذا قال الله تعالى له: { كن } كان.

٩- ومنها: أنه ليس بين أمر الله بالتكوين، وتكونه تراخٍ؛ بل يكون على الفورية؛ وذلك لقوله تعالى: { فيكون }: بالفاء؛ والفاء تدل على الترتيب، والتعقيب.

القرآن

{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)} [البقرة : ١١٨]

التفسير:

وقال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم لنبي الله ورسوله محمد ﷺ على سبيل العناد: هلا يكلمنا الله مباشرة ليخبرنا أنك رسوله، أو تأتينا معجزة من الله تدل على صدقك. ومثل هذا القول قالته الأمم من قبلُ لرسلها عنادًا ومكابرة؛ بسبب تشابه قلوب السابقين واللاحقين في الكفر والضَّلال، قد أوضحنا الآيات للذين يصدِّقون تصديقًا جازمًا؛ لكونهم مؤمنين بالله تعالى، متَّبعين ما شرعه لهم.

اختلف في سبب نزول الآية على أقوال(١):

أحدها: أخرج الطبري وابن ابي حاتم ، عن ابن عباس قال: "قال رافع بن حريملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت رسولا من عند الله كما تقول ، فقل لله عز وجل فليكلمنا حتى نسمع كلامه! فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله : {وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية}، الآية كلها"(٢).

ورجحه ابن حجر فقال:" والراجح من حيث السند قول ابن عباس رضي الله عنهما"(٣).

والثاني: واخرج الطبري من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: "هم النصارى، والذين من قبلهم: اليهود"(٤).

والثالث: وعن قتادة قال: "هم كفار العرب"(١). وروي عن الربيع(٢)، والسدي(٣) مثل ذلك.

---

(١) اخرجه البخاري ص٢٥٩، كتاب بدء الخلق، باب ٢: ما جاء في سبع أرضين، حديث رقم ٣١٩٨، وأخرجه مسلم ص٩٥٨، كتاب المساقاة، باب ٣٠: تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، حديث رقم ٤١٣٢ [١٣٧] ١٦١٠، واللفظ لمسلم.

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥٥١/٢-٥٥٢، والعجاب: ٣٦٧/١-٣٦٨.

(٢) تفسير الطبري(١٨٦٢):ص٥٥١/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(١١٤٠):ص٢١٥/١.

(٣) العجاب: ٣٦٨/١.

(٤) تفسير الطبري(١٨٦٠)، و(١٨٦١):ص٥٥٠/٢-٥٥١، و(١٨٦٧)، و(١٨٦٨):ص٥٥٤/٢.

والراجح: أن النصارى هم المعنيون بالآية، لأن ذلك في سياق خبر الله عنهم ، وعن افترائهم عليه وادعائهم له ولدا. والله تعالى أعلم.
قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[البقرة:١١٨]، "أي: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم[٤].
قال ابن عثيمين:" أي ليسوا من ذوي العلم"[٥].
قال القرطبي: "أي: قالت النصارى"[٦].
قال الطبري:أي" وقالت النصارى ، الجهال بالله وبعظمته"[٧].
واختلف فيمن عني الله بقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[البقرة:١١٨]، على ثلاثة أقوال[٨]:
أحدهما: أنهم النصارى. قاله مجاهد[٩].
والثاني: أنهم اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله.وهو قول ابن عباس[١٠].
والثالث: أنهم مشركو العرب ، وهو قول قتادة[١١]، والربيع[١٢]، والسدي[١٣].
ورجّح الطبري بأنهم النصارى، واستدل بأن" ذلك في سياق خبر الله عنهم، وعن افترائهم عليه وادعائهم له ولدا"[١٤].
قوله تعالى:{لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ}[البقرة:١١٨]،" أي هلاّ يكلمنا الله بتصديق الرسل"[١٥].
روي عن قتادة في قوله : {لولا يكلمنا الله}، قال : فهلا يكلمنا الله!"[١٦].
قال الطبري:" أي: هلا يكلمنا الله! كما قال جرير[١٧]:

([١]) أخرجه الطبري(١٨٦٣):ص٥٥١/٢.
([٢]) انظر: تفسير الطبري(١٨٦٤):ص٥٥١/٢.
([٣])انظر: تفسير الطبري(١٨٦٥):ص٥٥١/٢-٥٥٢.
([٤]) تفسير السعدي:٦٤.
([٥]) تفسير ابن عثيمين: ٢٢/٢.
([٦]) تفسير القرطبي: ٩٢/٢.
([٧]) تفسير الطبري:٥٥٦/٢.
([٨]) تفسير الطبري: ٥٥٤/٢-٥٥٥.
([٩]) انظر: تفسير الطبري(١٨٦٠)، و(١٨٦١):ص٥٥٠/٢-٥٥١.
([١٠]) انظر: تفسير الطبري(١٨٦٢):ص٥٥١/٢.
([١١]) انظر: تفسير الطبري(١٨٦٣):ص٥٥١/٢.
([١٢]) انظر: تفسير الطبري(١٨٦٤):ص٥٥١/٢.
([١٣]) انظر: تفسير الطبري(١٨٦٥):ص٥٥١/٢-٥٥٢.
([١٤]) تفسير الطبري:٥٥٢/٢.
([١٥]) تفسير ابن عثيمين: ٢٢/٢.
([١٦]) أخرجه الطبري(١٨٦٦):ص٥٥٣/٢.
([١٧])ديوان جرير : ٣٣٨ ، النقائض : ٨٣٣ ، ومجاز القرآن : ٥٢ ، وأمالي ابن الشجري ١ : ٢٧٩ ، ٣٣٤ / ٢ : ٢١٠ ، والخزانة ١ : ٤٦١ . ورواية الديوان والنقائض : " أفضل سعيكم " . والبيت من قصيدة طويلة في مناقضة جرير والفرزدق . وقوله : " عقر النيب " . عقر الناقة أو الفرس : ضرب قوائمها فقطعها ، وكانوا إذا أرادوا نحر البعير عقروه ، ثم نحروه ، وإنما يفعلون به ذلك كيلا يشرد عند النحر . وكان العرب يتكارمون بالمعاقرة . وهي أن يعقر هذا ناقة ، فيعقر الآخر ، يتباريان في الجود والسخاء ، ويلحان في ذلك حتى يغلب أحدهما صاحبه . والنيب جمع ناب : وهي الناقة المسنة ، أسموها بذلك لطول نابها . ويشير جرير بذلك إلى ما كان يفخر به الفرزدق من معاقرة أبيه غالب بن صعصعة ، سحيم بن وثيل الرياحي بمكان يقال له " صوأر " ، فعقر سحيم خمسا ثم بدا له ، وعقر غالب مئة ، أو مئتين . وهذا أمر من أمور الجاهلية قال ابن عباس : " لا تأكلوا من تعاقر الأعراب ، فإني لا آمن أن يكون مما أهل لغير الله به " ، وقال علي رضي الله عنه : " يا أيها الناس ، لا تحل لكم ، فإنها أهل بها لغير الله " . (انظر خبر المعاقرة في النقائض : ٦٢٥ - ٦٢٦) . وقوله : " بني ضوطرى " ، يعني : يا بني الحمقى . هكذا قيل ، وأخشى أن لا يكون كذلك ، فإن : " ضوطرى " نبز لرجل من بني مجاشع بن دارم - لم يعينوه - فقال جرير للفرزدق : إن ابن شعرة ، والقرين ، وضوطرى ... بئس الفوارس ليلة الحدثان فهذا دليل على أنه شخص بعينه ، أرجو أن أحققه في غير هذا المكان . وقد أراد ذمه بأسلافه على كل . والكمي : الشجاع الذي لا يرهب ، فلا يحيد عن قرنه ، كان عليه سلاح أو لم يكن . وقوله : " تعدون " أي تحسبون وتجعلون ، فعدى الفعل " عد " إلى مفعولين ، تضمينا لمعنى " جعل وحسب " ، كما قال ذو الرمة :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بني ضوطرى ، لولا الكمي المقنعا
بمعنى : فهلا تعدون الكمي المقنع![1].
قال القرطبي: أي: "هلا يكلمنا الله بنبوة محمد ﷺ فنعلم أنه نبي فنؤمن به"[2].
قال أبو السعود:" أي هلا يكلمنا بلا واسطة أمرا أو نهيا كما يكلم الملائكة أو هلا يكلمنا نتصيصا على نبوتك"[3].
قال المراغي:" أي هلا يكلمنا الله بأنك رسوله حقا كما يكلم الملائكة ، أو يرسل إلينا ملكا فيخبرنا بذلك ، كما كلمك على هذا الوجه مع أنك بشر مثلنا، وما مقصدهم من هذا إلا العناد والاستكبار وبيان أنه ليس بأحسن منهم حالا ، فلم اختصّ بهذا الفضل من بيننا؟"[4].
قوله تعالى:{أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ}[البقرة:١١٨]،أي: "أو يأتينا بآية تكون علامة على نبوتك"[5].
قال الطبري:أي" أو تجيئنا علامة من الله نعرف بها صدق ما نحن عليه على ما نسأل ونريد ؟"[6].
قال المراغي:" أي أو تأتينا ببرهان على صدقك في دعواك النبوة، ومرادهم بذلك ما حكاه الله عنهم بنحو قوله : {وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ}[الإسراء:٩٠]، الآية، و هذا منهم جحود لأن يكون ما أوتيه من القرآن وغيره من المعجزات آيات كافيات فى إثبات ما ادّعى من النبوة"[7].
قال أبو السعود:" حجة تدل على صدقك بلغوا من العتو والاستكبار إلى حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الإلهية من غير توسط الرسول والملك ومن العناد والمكابرة إلى حيث لم يعدوا ما آتاهم من البينات الباهرة التي تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات قاتلهم الله أني يؤفكون"[8].
قال ابن عثيمين:" لأن الرسل أتوا بالآيات التي يؤمن على مثلها البشر؛ وأعظمها القرآن الكريم الذي نزل على محمد ﷺ؛ وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله، فعجزوا"[9].
قال السعدي:" فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعنت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل، قد جاءوا من الآيات، بما يؤمن بمثله البشر"[10].
قال القرطبي: "والآية : الدلالة والعلامة[11].

قوله تعالى: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ}[البقرة:١١٨]، "أي مثلَ هذا القول، قال الذين من قبلهم"[12].
قال الطبري:أي:" فكما قال هؤلاء الجهال من النصارى وتمنوا على ربهم ، قال من قبلهم من اليهود ، فسألوا ربهم أن يريهم الله نفسه جهرة ، ويؤتيهم آية ، واحتكموا عليه وعلى رسله ، وتمنوا الأماني"[13].
قال المراغي:" أي ومثل هذه الأسئلة التي يراد بها التعنت لإجلاء الحقيقة ، قد قالها من قبلهم من الأمم الماضية، فقد قال اليهود لموسى :{أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً}[النساء:١٥٣]، و{لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ}[البقرة:٦١]، إلى نحو ذلك ، وقالت النصارى : {هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ} [المائدة : ١١٢] فهذه

أشم أغر أزهر هبرزي يعد القاصدين له عيالا.
([1]) تفسير الطبري: ٥٥٣/٢.
([2]) تفسير القرطبي: ٩٢/٢.
([3]) تفسير أبي السعود: ١٥٢/١.
([4]) تفسير المراغي: ٢٠١/١.
([5]) تفسير القرطبي: ٩٢/٢.[بتصرف بسيط].
([6]) تفسير الطبري:٥٥٦/٢.
([7]) تفسير المراغي: ٢٠١/١-٢٠٢.
([8]) تفسير أبي السعود: ١٥٢/١.
([9]) تفسير ابن عثيمين:٢٢/٢.
([10]) تفسير السعدي:٦٤.
([11]) تفسير القرطبي: ٩١/٢-٩٢.
([12]) تفسير ابن عثيمين:٢٢/٢.
([13]) تفسير الطبري:٥٥٦/٢.

أقوال صدرت عنهم للتشهى واتباع الهوى تعنّتا وعنادا لا للوصول إلى كشف غامض وجلاء حقيقة كما قال تعالى : {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الأنعام : ٧]"[١].

واختلف فيمن عني الله بقوله:{كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ}[البقرة:١١٨]، على قولين[٢]:

أحدهما : أنهم اليهود ، وهو قول مجاهد[٣].

والثاني : أنهم اليهود والنصارى، "لأن الذين لا يعلمون هم العرب"[٤]، وهو قول قتادة[٥]، والسدي[٦]، والربيع[٧].

قال ابن عاشور: "وفي هذا الكلام تسلية للنبيء -ﷺ-، بأن ما لقيه من قومه مثل ما لاقاه الرسل قبله ولذلك أردفت هذه الآية بقوله : {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} [البقرة : ١١٩]"[٨].

قوله تعالى:{ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُم}[البقرة:١١٨]، "أي تماثلت قلوب هؤلاء وقلوب من قبلهم في العمى والقسوة والعناد"[٩].

قال الطبري:أي" فاشتبهت قلوب اليهود والنصارى في تمردهم على الله وقلة معرفتهم بعظمته وجرأتهم على أنبيائه ورسله ، كما اشتبهت أقوالهم التي قالوها"[١٠].

قال ابن كثير: أي : "أشبهت قُلُوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو ، كما قال تعالى : { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ* أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [الذاريات : ٥٢ ، ٥٣]"[١١].

قال أبو السعود:" أي قلوب هؤلاء وأولئك في العمى والعناد وإلا لما تشابهت أقاويلهم الباطلة"[١٢].

قال المراغي:" والألسنة ترجمان القلوب، والقلب إذا استحكم فيه الكفر والعمى لا يجرى على لسان صاحبه إلا ما ينبئ بالتباعد عن الإيمان من معاذير لا تجدى ، وتعلّات لا تفيد، فالحق واحد ، ومخالفته هى الضلال وهو واحد وإن تعددت طرقه واختلفت وجوهه ، وآثاره تتشابه حين تصدر عن الضالين حتى كأنهم متواصون به فيما بينهم كما قال تعالى : {أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات : ٥٣]"[١٣].

وفي قوله تعالى:{تَشَابَهتْ قُلُوْبُهُمْ}[البقرة:١١٨]، وجهان[١٤]:

أحدهما : تشابهت قلوب اليهود لقلوب النصارى ، وهذا قول مجاهد[١٥].

والثاني : تشابهت قلوب مشركي العرب لقلوب اليهود والنصارى ، وهذا قول قتادة[١٦]، والربيع[١٧].

---

(١) تفسير المراغي: ٢٠١/١-٢٠٢.
(٢) تفسير الطبري: ٥٥٤/٢-٥٥٥.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٨٦٧)، و(١٨٦٨):ص٥٥٤/٢.
(٤) تفسير الطبري:٥٤٤/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٨٧٩):ص٥٤٤/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٨٧٠):ص٥٤٤/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٨٧١):ص٥٤٤/٢-٥٤٥.
(٨) تفسير ابن عاشور: ٦٨٩/١.
(٩) تفسير المراغي: ٢٠٢/١.
(١٠) تفسير الطبري:٥٥٦/٢.
(١١) تفسير ابن كثير: ٤٠٠/١.
(١٢) تفسير أبي السعود:١٥٢/١.
(١٣)تفسير المراغي: ٢٠٢/١.
(١٤) انظر: النكت والعيون: ١٨٠/١.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٨٧٣):ص٥٥٥/٢.

(١٦) انظر: تفسير الطبري(١٨٨٣):٥٥٥/٢-٥٥٦.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(١٨٨٤):٥٥٦/٢.

واختلف في تفسير (التشابه) في قوله تعالى:{تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ}[البقرة:١١٨]، على وجهين[١]:
أحدهما: أن المكذبين للرسل من العرب واليهود والنصارى وغيرهم تتشابه أقوالهم وأفعالهم في التعنيت والاقتراح وترك الإيمان، فكما أن قوم موسى كانوا أبدا في التعنت واقتراح الأباطيل، كقولهم: {لن نصبر على طعام واحد} [البقرة: ٦١]، وقولهم: {اجعل لنا إلاها كما لهم ءالهة} [الأعراف: ١٣٨]، وقوله: {أتتخذنا هزوا} [البقرة: ٦٧]، وقولهم: {أرنا الله جهرة}، [النساء: ١٥٣]، فكذلك هؤلاء المشركون يكونون أبدا في العناد واللجاج وطلب الباطل.
والثاني: أن تشابه قلوبهم هو في اتفاقهم على الكفر، فجعله اشتباها. قاله الفراء[٢].
والقولين صحيحين: إذ تشابهت قلوب الأولين، والآخرين في رد الحق، والعناد، والتعنت، والجحود؛ من أول ما بعثت الرسل إلى خاتمهم محمد ﷺ، بل وإلى يوم القيامة، فقلوب أهل الكفر، والعناد متشابهة؛ إنما يختلف الأسلوب؛ قد يقترح هؤلاء شيئاً؛ وهؤلاء شيئاً آخر؛ لكن الكلام على جنس الاقتراح، وعدم قبولهم للحق[٣].
قال ابن عاشور: "وقوله{تَشَابَهَتْ}، صيغة من صيغ التشبيه، وهي أقوى فيه من حروفه وأقرب بالتشبيه البليغ، ومن محاسن ما جاء في ذلك قول الصابىء[٤]:
تشابه دمعي إذ جرى ومُدامتي فمِن مثل ما في الكأس عيني تسكُب
وفي هذه الآية جعلت اليهود والنصارى مماثلين للمشركين في هذه المقالة لأن المشركين أعرق فيها إذ هم أشركوا مع الله غيره فليس ادعاؤهم ولداً لله بأكثر من ادعائهم شركة الأصنام مع الله في الإلاهية فكان اليهود والنصارى ملحقين بهم لأن دعوى الابن لله طرأت عليهم ولم تكن من أصل ملتهم وبهذا الأسلوب تأتى الرجوع إلى بيان أحوال أهل الكتابين الخاصة بهم وذلك من رد العجز على الصدر "[٥].
وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو حيوة: {تشّابهت}، بشد الشين، قال أبو عمرو الداني: وذلك غير جائز لأنه فعل ماض[٦].
قوله تعالى{قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ}[البقرة:١١٨]، "أي قد وضحنا الأدلة وأقمنا البراهين"[٧].
قال أبو السعود:" أي نزلناها بينة، بأن جعلناها كذلك في أنفسها كما في قولهم سبحان من صغر البغوض وكبر الفيل لا أنا بيناها بعد أن لم تكن بينة"[٨].
قال الطبري:أي" قد بينا العلامات التي من أجلها غضب الله على اليهود"[٩].
قال الحافظ ابن كثير: أي: "قد وضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى"[١٠].
قال الرازي:" المراد: أن القرآن وغيره من المعجزات كمجيء الشجرة وكلام الذئب، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل، آيات قاهرة، ومعجزات باهرة"[١١].
قال المراغي:" أي إننا لم نتركك بلا آية ، بل بينا للناس الآيات على يديك بما لا يدع مجالا للريب"[١].

([١]) انظر: تفسير القرطبي: ٩٢/٢. وتفسير الرازي: ٢٨/٤. وتفسير فتح القدير: ١٣٤/١.
([٢]) انظر: معاني القرآن: ٧٥/١.
(٣) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٨/٢.
(٤) البيت ورد في يتيمة الدهر للثعالبي: ١٨/٢. أبو إسحاق الصابىء : هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن حبون الحراني البغدادي الكاتب ، من الصائبة ، توفي سنة ٣٨٤ هـ. له من المصنفات : أخبار النحاة ، أخبار الوزراء ، أخبار أهله وولد ابنه ، التاجي في أخبار الدولة الديلمية ، ديوان الرسائل ، ديوان شعره. (كشف الظنون ٥ / ٧.
([٥]) التحرير والتنوير: ٦٩٠/١.
([٦]) انظر: المحرر الوجيز:٢٠٣/١.
([٧]) صفوة التفاسير:٨٠/١.
([٨]) تفسير أبي السعود:١٥٢/١.
([٩]) تفسير الطبري:٥٥٧/٢.
([١٠]) تفسير ابن كثير: ٤٠٠/١.
([١١]) مفاتيح الغيب: ٢٨/٤.

قال ابن عثيمين:و{الآيات} جمع آية؛ وهي العلامة المعيّنة لمدلولها؛ فكل علامة تعين مدلولها تسمى آية؛ فآيات الله هي العلامات الدالة عليه"[٢].
قال أبو السعود:" وفي تعريف {الآيات}، وجمعها وإيراد التبيين المفصح عن كمال التوضيح مكان الإتيان الذي طلبوه، ما لا يخفى من الجزالة، والمعنى أنهم اقترحوا آية فذة ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون الحق واليقين، وإنما لم يتعرض لرد قولهم {لولا يكلمنا الله}، إيذانا بأنه من ظهور البطلان بحيث لا حاجة إلى الرد والجواب"[٣].
قوله تعالى:{لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[البقرة:١١٨]، أي "لقومٍ يطلبون الحق واليقين"[٤].
قال الرازي: أي: "لمن كان طالبا لليقين"[٥].
قال الحافظ ابن كثير: أي: " لمن أيقن وصدق واتبع الرسل ، وفهم ما جاؤوا به عن الله تبارك وتعالى، وأما من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله تعالى فيهم : { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ } [يونس : ٩٦ ، ٩٧]"[٦].
قال المراغي:أي" لدى طالبى الحق بالدليل والبرهان، ولديهم الاستعداد للعلم واليقين ، ولن يكون هذا إلا لمن صفت نفوسهم ، وسلموا من العناد والمكابرة اللّذين يمنعان من وصول نور الحق إلى القلوب ، وقد كان كبار الصحابة يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم فيما لم يظهر لهم دليله ، لأنهم طبعوا على معرفة الحق بالبينة"[٧].
قال أبو السعود:" أي: يطلبون اليقين ويوقنون بالحقائق لا يعتريهم شبهة ولا ريبة وهذا رد لطلبهم الآية"[٨].
قال الشوكاني:" أي "يعترفون بالحق وينصفون في القول ويذعنون لأوامر الله سبحانه لكونهم مصدقين له سبحانه مؤمنين بآياته متبعين لما شرعه لهم"[٩].
و(الإيقان): "هو العلم الذي لا يخالجه شك"[١٠].
قال السعدي:" فكل موقن، فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب"[١١]. قال ابن عطية:" لما تقدم ذكر الذين أضلهم الله حتى كفروا بالأنبياء وطلبوا ما لا يجوز لهم أتبع ذلك بذكر الذين بين لهم ما ينفع وتقوم به الحجة، لكن البيان وقع وتحصل للموقنين، فلذلك خصهم بالذكر، ويحتمل أن يكون المعنى قد بينا البيان الذي هو خلق الهدى، فكأن الكلام قد هدينا من هدينا، واليقين إذا اتصف به العلم خصصه وبلغ به نهاية الوثاقة"[١٢].
الفوائد:
١ - من فوائد الآية: أن أهل الباطل يجادلون بالباطل؛ لأن طلبهم الآيات التي يعينونها ما هو إلا تعنت واستكبار؛ ففي الآيات التي جاءت بها الرسل ما يؤمن على مثلها البشر؛ ثم إنهم لو جاءت الآيات على ما اقترحوا لم يؤمنوا إذا حقت عليهم كلمة ربهم؛ لقوله تعالى: {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم} [يوسف: ٩٦، ٩٧] .

([١]) تفسير المراغي:٢٠٢/١.
([٢]) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٣/٢.
([٣]) تفسير أبي السعود: ١٥٢/١.
([٤]) صفوة التفاسير:٨٠/١.
([٥]) مفاتيح الغيب: ٢٨/٤.

([٦]) تفسير ابن كثير: ٤٠٠/١.
([٧]) تفسير المراغي:٢٠٢/١.
([٨]) تفسير أبي السعود: ١٥٢/١.
([٩]) انظر: فتح القدير: ١٣٤/١.
([١٠]) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٣/٢.
([١١]) تفسير السعدي:٦٤.
([١٢]) المحرر الوجيز:٢٠٣/١.

٢ - ومنها: وصف من لم يَنقَدْ للحق بالجهل؛ لقوله تعالى: { وقال الذين لا يعلمون }؛ فكل إنسان يكابر الحق، وينابذه فإنه أجهل الناس.
٣ - ومنها: أن المشركين يقرون بأن الله يتكلم بحرف، وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: { لولا يكلمنا الله فهم خير في هذا ممن يدعون أن كلام الله هو المعنى القائم في نفسه.
٤ - ومنها: أنه ما من رسول إلا وله آية؛ لأن قولهم: { أو تأتينا آية } هذا مدَّعى غيرهم؛ إذ إن من لم يأت بآية لا يلام من لم يصدقه؛ مثلاً إذا جاء رجل يقول: «أنا رسول الله؛ آمنوا بي وإلا قتلتكم، واستحللت نساءكم، وأموالكم» فلا نطيعه؛ ولو أننا أنكرناه لكنا غير ملومين؛ لكن الرسل تأتي بالآيات؛ ما من رسول إلا وأعطاه الله تعالى من الآيات ما يؤمن على مثلها البشر؛ فالله تعالى لا يرسل الرسل، ويتركهم بدون تأييد.
٥ - ومن فوائد الآية: أن أقوال أهل الباطل تتشابه؛ لقوله تعالى: { كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم وقوله تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون} [الذاريات: ٥٢، ٥٣] ؛ وأنت لو تأملت الدعاوى الباطلة التي رد بها المشركون رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم من زمنه إلى اليوم لوجدت أنها متشابهة، كما قال تعالى: {وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون} [المطففين: ٣٢] ؛ واليوم يقولون للمتمسكين بالقرآن، والسنة هؤلاء رجعيون؛ هؤلاء دراويش لا يعرفون شيئاً.
٦ - ومن فوائد الآية: أن الأقوال تابعة لما في القلوب؛ لقوله تعالى: { كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم }؛ فلتشابه القلوب تشابهت الأقوال؛ ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب»[1].
٧- ومنها: تشابه قلوب الكفار؛ لقوله تعالى: { تشابهت قلوبهم }.
٨- ومنها: تسلية الرسول ﷺ؛ لأن الإنسان المصاب إذا رأى أن غيره أصيب فإنه يتسلى بذلك، وتخف عليه المصيبة، كما قال تعالى: {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون} [الزخرف: ٣٩] ؛ فالله تعالى يسلي رسوله (ﷺ) بأن هذا القول الذي قيل له قد قيل لمن قبله.
٩ - ومنها: إبطال دعوى قولهم: { أو تأتينا آية } في قوله تعالى: { قد بينا الآيات }.
١٠ - ومنها: أنه لا ينتفع بالآيات إلا الموقنون؛ لقوله تعالى: { قد بينا الآيات لقوم يوقنون }؛ وأما غير الموقنين فلا تتبين لهم الآيات لما في قلوبهم من الريب والشك.
١١ - ومنها: أن الموقن قد يتبين له من الآيات ما لم يتبين لغيره؛ ويؤيده قوله تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم} [محمد: ١٧] .
١٢ - ومنها: أن الآيات تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وآيات كونية:
فالآيات الشرعية: ما جاءت به الرسل من الوحي.
والقسم الثاني آيات كونية: وهي مخلوقات الله الدالة عليه، وعلى ما تقتضيه أسماؤه، وصفاته، كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، وغيرها: وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.
١٣ - ومنها: زيادة العلم باليقين؛ لأن من آيات الله هذا الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ؛ فكلما ازداد يقينك تبين لك من آيات الله ما لم يتبين لغيرك، فيزداد علمك؛ فباليقين يزداد العلم؛ قال تعالى: {ويزداد الذين آمنوا إيماناً} [المدثر: ٣١] ؛ فكلما كان الإنسان أقوى يقيناً كان أكثر علماً؛ وكلما ازداد علمه ازداد يقينه؛ فهما متلازمان.

القرآن

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)} [البقرة : ١١٩]

التفسير:
إنا أرسلناك -أيها الرسول- بالدين الحق المؤيد بالحجج والمعجزات، فبلِّغه للناس مع تبشير المؤمنين بخيري الدنيا والآخرة، وتخويف المعاندين بما ينتظرهم من عذاب الله، ولست -بعد البلاغ- مسئولا عن كفر مَن كفر بك؛ فإنهم يدخلون النار يوم القيامة، ولا يخرجون منها.

[1] أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٩: فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم ٥٢، وأخرجه مسلم ص٩٥٥، كتاب المساقاة، باب ٢: أخذ الحلال وترك الحرام، حديث رقم ٤٠٩٤ [١٠٧] ١٥٩٩.

في سبب نزول الآية قولان:
أحدهما: قال محمد بن كعب:"قال رسول الله ﷺ : ليت شعري ما فعل أبواي ؟ فنزلت : {ولا تَسألْ عن أصحاب الجحيم}"[١].
قال الواحدي:" وهذا على قراءة من قرأ: {ولا تَسألْ عن أصحاب الجحيم} جزما"[٢].
وروي عن ابن عباس[٣]، ومحمد بن كعب القرظي[٤]، وداود بن أبي عاصم[٥]، مثل ذلك. وهي روايات ضعيفة الإسناد[٦].
وقد استبعد الفخر الرازي صحة هذا السبب[٧].
الثاني: قال الواحدي:" قال مقاتل: إن النبي - ﷺ - قال: "لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا" فأنزل الله تعالى: {ولا تسأل عن أصحاب الجحيم}"[٨].
قوله تعالى:{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ}[البقرة:١١٩]، أي: إنا"أرسلناك يا محمد بالشريعة النيّرة والدين القويم"[٩].
قال الطبري: أي: "إنا أرسلناك يا محمد بالإسلام الذي لا أقبل من أحد غيره من الأديان ، وهو الحق"[١٠].
واختلفوا في تفسير(الحق) في قوله تعالى:{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ}[البقرة:١١٩]، على أربعة أوجه:
أحدها: أي" إنا أرسلناك يا محمد بالصدق، من قولهم فلان محق في دعواه إذا كان صادقا، ودليله قوله تعالى: {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ} [يونس : ٥٣]، أي صدق. قاله الثعلبي[١١].
والثاني: أن"معناه: لن نرسلك عبثا بغير شيء، بل أرسلناك بالحق"[١٢]. قال الثعلبي: "دليله قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} [الحجر : ٨٥]، وهو ضد الباطل"[١٣].
والثالث: بالقرآن، قاله ابن عباس[١٤]، ودليله قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ} [ق : ٥].
والرابع: بالإسلام. قاله ابن كيسان[١٥]، ودليله قوله عز وجل: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء : ٨١]. و(الباء) في قوله تعالى{بِالْحَقِّ} [البقرة:١١٩] للمصاحبة، أو الملابسة؛ يعني أرسلناك متلبساً بالحق؛ أو أن المعنى: حاملاً الحق في هذه الرسالة؛ والآية تحتمل المعنيين؛ أحدهما: أن إرسالك حق؛ والثاني: أن ما أرسلت به حق؛ والمعنيان كلاهما صحيح؛ فتحمل الآية عليهما؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم رسالته حق؛ وعليه فالباء للملابسة؛ والرسول ﷺ ما أرسل به فهو حق؛ وعلى هذا فالباء للمصاحبة، يعني أن رسالتك مصحوبة بالحق؛ لأن ما جئت به حق؛ والحق هو الثابت المستقر؛ وهو ضد الباطل؛ والحق بالنسبة للأخبار الصدق؛ وبالنسبة للأحكام العدل[١٦].

---

(١) أخرجه الطبري(١٨٧٥):ص٥٥٨/٢. حديث مرسل لاتقوم به حجة. واسناده ضعيف.
(٢) أسباب النزول:٤٠.
(٣)مما أخرجه عبد الغني بن سعيد الثقفي في "تفسيره" عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومعظم رواياته عنه ضعيفة (مقدمة العجاب لابن حجر) وهذه الرواية ضعفها الحافظ ابن حجر العجاب: ٣٦٩/١. ويشهد لها.
(٤)انظر: تفسير الطبري(١٨٧٦):ص٥٥٨/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٨٧٧):ص٥٥٩/٢.
(٦)انظر: التقريب، ابن حجر(١٤٨٣):ص٢٨٦/٢، والعجاب: ٤٦٨/١-٣٧٢، والدر المنثور: ٢٧١/١، وأسباب النزول للواحدي: ٣٩-٤٠.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٩/٤، والعجاب: ٣٦٩/١.
(٨) أسباب النزول: ٤٠. ولم اجده في تفسير مقاتل.
(٩) صفوة التفاسير:٨٠/١.
(١٠) تفسير الطبري:٥٥٧/٢.
(١١) انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٥/١.
(١٢) تفسير الثعلبي:٢٦٥/١.
(١٣) تفسير الثعلبي:٢٦٥/١.
(١٤) انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٥/١.
(١٥) انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٥/١.
(١٦) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١١/٢.

وأصل (الحق) : الصدق الواجب، ثم يسمى كلُّ ثابت موجود غير باطل: حقًا، والحقُّ من أسماء الله تعالى قال الله تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ} [المؤمنون: ٧١]، والحقُّ: العدل في قوله. {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٨٩]، والحق: الدِّين في قوله: {وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ}[البقرة: ٢٨٢][١].
وفي قوله تعالى:{بِالْحَقِّ}[البقرة:١١٩]، وجوه[٢]:

أحدها: أنه متعلق بالإرسال، أي أرسلناك إرسالا بالحق.
وثانيها: أنه متعلق بالبشير والنذير أي أنت مبشر بالحق ومنذر به.
وثالثها: أن يكون المراد من الحق الدين والقرآن، أي أرسلناك بالقرآن حال كونه بشيرا لمن أطاع الله بالثواب ونذيرا لمن كفر بالعقاب.
قال الرازي: "والأولى أن يكون البشير والنذير صفة للرسول ﷺ فكأنه تعالى قال: إنا أرسلناك يا محمد بالحق لتكون مبشرا لمن اتبعك واهتدى بدينك ومنذرا لمن كفر بك وضل عن دينك"[٣].
قوله تعالى:{ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}[البقرة:١١٩]، أي: " بشيراً للمؤمنين بجنات النعيم، ونذيراً للكافرين من عذاب الجحيم"[٤].
قال الطبري: أي:"مبشرا من اتبعك فأطاعك، وقبل منك ما دعوته إليه من الحق - بالنصر في الدنيا ، والظفر بالثواب في الآخرة ، والنعيم المقيم فيها ، ومنذرا من عصاك فخالفك ، ورد عليك ما دعوته إليه من الحق - بالخزي في الدنيا ، والذل فيها ، والعذاب المهين في الآخرة"[٥].
قال السعدي:" {بَشِيرًا}:أي لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية،{نَذِيرًا} لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي"[٦].
قال الزمخشري:" لأن تبشر وتنذر لا لتجبر على الإيمان ، وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسرية عنه ، لأنه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر"[٧].
و(البشير): "من البشارة؛ وهي الإخبار بما يسر؛ وقد تقع فيما يسوء، كقوله تعالى: {فبشرهم بعذاب أليم} [آل عمران: ٢١]" [٨].
و(النذير): "من الإنذار؛ وهو الإعلام بالمكروه؛ أي بما يخاف منه"[٩].
قال ابن عثيمين: "والرسول ﷺ لا شك أنه مبشر بما يسر، وهو الجنة ؛ ومنذر بما يخاف منه، وهو النار.. فجمع الله له بين كونه مبشراً، ومنذراً؛ لأن ما جاء به أمر، ونهي؛ والمناسب للأمر: البشارة؛ وللنهي: الإنذار؛ فعليه تكون رسالة النبي ﷺ جامعة بين البشرى، وبين الإنذار؛ والأمر، والنهي؛ إذاً فالرسول مبشر للمتقين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً؛ ومنذر للكافرين أن لهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب[١٠].
قوله تعالى:{وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ}[البقرة:١١٩]، " أي أنت لست مسئولاً عمن لم يؤمن منهم، بعد أن بذلت الجهد في دعوتهم"[١١].
قال البيضاوي:" ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت"[١٢].

---

(١) انظر: التفسير البسيط: ٢٦٧/٣، وتهذيب اللغة: ٨٧٧/١-٨٨٠، والمفردات: ١٣٢، واللسان(حق):ص٩٤٠/٢.
(٢) انظر: تفسير الرازي: ٢٩/٤.
(٣) انظر: تفسير الرازي: ٢٩/٤.
(٤) صفوة التفاسير:٨٠/١.
(٥) تفسير الطبري:٥٥٧/٢-٥٥٨.
(٦) تفسير السعدي:٦٤.
(٧) الكشاف: ١٨٢/١.
(٨) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١١/٢.
(٩) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١١/٢.
(١٠) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١١/٢.
(١١) صفوة التفاسير: ٨٠/١.
(١٢) تفسير البيضاوي: ١٠٣/١.

قال الزمخشري:" ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت وبلغت جهدك في دعوتهم ، كقوله:{فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ}[الرعد:٤٠]"[١].

قال الطبري:أي" فليس عليك من أعمال من كفر بك بعد إبلاغك إياه رسالتي تبعة، ولا أنت مسئول عما فعل بعد ذلك"[٢].

قال السعدي:" أي: لست مسئولا عنهم، إنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب"[٣].

قال ابن عثيمين:" أي لا يسألك الله عنهم؛ لأنك بلَّغت؛ والحساب على الله"[٤].

قال الواحدي:" أي: لست بمسؤولٍ عنهم، وليس عليك من شأنهم عُهدة ولا تبعة، فلا تحزن عليهم، كما قال: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}[الرعد: ٤٠]"[٥].

و(أصحاب) جمع صاحب؛ وهو الملازم؛ و(الجحيم) من أسماء النار[٦]، أي: النار العظيمة؛ وهي لها أسماء كثيرة منها: النار، والسعير، وجهنم، والجحيم؛ كل ذلك لاختلاف أوصافها؛ وإلا فهي واحدة، وأصل (الجحيم): ما اشتد لهبه[٧].

قال الإمام الطبري: " فـ(الجحيم)، هي النار بعينها إذا شبت وقودها ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت[٨]:

إذا شبت جهنم ثم دارت وأَعْرَض عن قوابسها الجحيم"[٩]

قال الثعلبي:" الجحيم: وهو الجحم والجحمة: معظم النار"[١٠].

قال الواحدي:" والجحيم عند العرب: النار المستحكمة المتلظية، يقال: جَحَمَتِ النارُ تَجْحَمُ، بفتح العين فيهما، جُحومًا فهي جاحم وجحيم، قال الله تعالى في قصة إبراهيم: {فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} [الصافات: ٩٧]، أراد: النار الشديدة التأجج. ويقال لشده القتل في معركة الحرب: جاحم، تشبيهًا بالنار العظيمة، قال[١١]:

حتى إذا ذاق منها جاحِمًا بَرِدَا

والجَحْم والجَحْمَة: توقُّد النار، ومنه قوله[١٢]:

نحن حَبسنا بني جَدِيلةَ في نارٍ من الحرب جَحْمةِ الضَّرَمِ"[١٣].

وفي قوله تعالى:{وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ}[البقرة:١١٩]، قراءتان[١٤]:

إحداهما: {وَلا تُسْأَلُ}، برفع التاء واللام على الخبر، على أن (لا) نافية، وهي قرأة الجمهور.

واختار أبو عبيد هذه القراءة، فقال: "لأنه لو أراد النهي لكانت الفاء أحسن من الواو[١٥].

---

(١) الكشاف: ١٨٢/١.
(٢) تفسير الطبري:٥٥٩/٢.
(٣) تفسير السعدي:٦٤.
(٤) تفسير ابن عثيمين:٢٧/٢-٢٨.
(٥) التفسير البسيط: ٢٨١/٣.
(٦) انظر: لسان العرب لابن منظور: ٥٥٣/١، الصحاح للجوهري: ١٨٨٣/٥، تاج العروس للزبيدي: ٩٤/١٦، جامع البيان للطبري: ٥٦٢/٢، وللنار أسماء عديدة منها: لظى والحطمة والسعير وجهنم وسقر والهاوية، انظر: التذكرة للقرطبي: ٩١/٢، الجنة والنار للأشقر: ٢٦.
(٧) وذلك لأن الجحيم من الجحمة وهي شدة تأجج النار، انظر: الزاهر لابن الأنباري: ١٢١/١، الوسيط للواحدي: ٢٠٠/١، المفردات للراغب: ٨٨، المحرر الوجيز لابن عطية: ٣٤٤/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٥٦/١، روح المعاني للألوسي: ٣٧١/١.
(٨)ديوانه : ٥٣ ، وروايته : " ثم فارت " ، وكأنها هي الصواب.
(٩) تفسير الطبري: ٥٦٢/٢.
(١٠) تفسير الثعلبي:٢٦٦/١.
(١١) البيت ذكره في تهذيب اللغة:١/ ٥٤٥، عن الليث، ولم ينسبه، وكذا في اللسان: ١/ ٥٥٣، والتفسير البسيط: ٢٨٣/٣.
(١٢) ديوان الحماسة:٤٦/١.
(١٣) التفسير البسيط: ٢٨٣/٣، وانظر: المفردات: ٩٥، واللسان:٥٥٣/١.
(١٤) انظر: الحجة للقراء السبعة: ٢٠٩/٢، والسبعة في القراءات: ١٦٩.
(١٥) التفسير البسيط: ٢٨٢/٣، ونقله أبو علي الفارسي في "الحجة" ٢/ ٢١٧ دون نسبة.

وعلى هذه القراءة، ففي التفسير وجوه[١]:
أحدها: أن مصيرهم إلى الجحيم فمعصيتهم لا تضرك ولست بمسؤول عن ذلك، أي : لا نسألك عن كفر من كفر بك ، { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } [الرعد : ٤٠] وكقوله تعالى : { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمصَيْطِرٍ } الآية [الغاشية : ٢١ ، ٢٢] وكقوله تعالى : { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ } [ق : ٤٥] وقوله: {عليه ما حمل وعليكم ما حملتم} [النور: ٥٤]، وأشباه ذلك من الآيات[٢].
والثاني: أنك هاد وليس لك من الأمر شيء، فلا تأسف ولا تغتم لكفرهم ومصيرهم إلى العذاب ونظيره قوله: {فلا تذهب نفسك عليهم حسرات} [فاطر: ٨].
الثالث: لا تنظر إلى المطيع والعاصي في الوقت، فإن الحال قد يتغير فهو غيب فلا تسأل عنه، وفي الآية دلالة على أن أحدا لا يسأل عن ذنب غيره ولا يؤاخذ بما اجترمه سواه سواء كان قريبا أو كان بعيدا.
القراءة الثانية:{ولا تَسألْ}، بالجزم وفتح التاء على أن(لا) ناهية، وهي قراءة نافع.
وفي هذه القراءة وجهان[٣]:
أحدهما : أنه نهى عن السؤال عمن عصى وكفر من الأحياء ، لأنه قد يتغير حاله فينتقل عن الكفر إلى الإيمان ، وعن المعصية إلى الطاعة.
والثاني : وهو الأظهر ، أنه نهى عن السؤال عمن مات على كفره ومعصيته ، تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه ، وهذا كما يقال : لا تسأل عن فلان! أي قد بلغ فوق ما تحسب.
قال الزمخشري:" وتعضد القراءة الأولى، قراءة عبد الله : {ولن تسئل}، وقراءة أبيّ :{وما تسئل}"[٤]، ومعناهما موافق لقراءة الجمهور، نفى أن يكون مسؤولا عنهم[٥].

والراجح: من قرأ بالرفع ، على الخبر{وَلا تُسْأَلُ}، "لأن الله جل ثناؤه قص قصص أقوام من اليهود والنصارى ، وذكر ضلالتهم ، وكفرهم بالله ، وجراءتهم على أنبيائه ، ثم قال لنبيه ﷺ : {إنا أرسلناك} يا محمد{بالحق بشيرا}، من آمن بك واتبعك ممن قصصت عليك أنباءه ومن لم أقصص عليك أنباءه ، {ونذيرا} من كفر بك وخالفك ، فبلغ رسالتي ، فليس عليك من أعمال من كفر بك - بعد إبلاغك إياه رسالتي تبعة ، ولا أنت مسئول عما فعل بعد ذلك"[٦].
الفوائد:
١ - من فوائد الآية: الرد على هؤلاء الذين قالوا: { لولا يكلمنا الله... }؛ لقوله تعالى: { إنا أرسلناك بالحق }.
٢- ومنها: ثبوت رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: { إنا أرسلناك }.
٣- ومنها: أن النبي ﷺ رسول صادق؛ وليس برب؛ لأن الرسول لا يمكن أن يكون له مقام المرسِل.
٤- ومنها: أن رسالة النبي ﷺ متضمنة لأمر، ونهي، وتبشير، وإنذار؛ لقوله تعالى: { بشيراً ونذيراً }؛ والحكمة من ذلك ظاهرة؛ وذلك لأن الإنسان قد يهون عليه فعل الأوامر، ويشق عليه ترك المنهيات؛ أو بالعكس؛ فلو كانت الشريعة كلها أوامر ما تبين الابتلاء في كفّ الإنسان نفسه عن المحارم، ولو كانت كلها نواهي ما تبين ابتلاء الإنسان بحمل نفسه على الأوامر؛ فكان الابتلاء بالأمر، والنهي غاية الحكمة؛ فالشيخ الكبير يهون عليه ترك الزنى؛ ولذلك كانت عقوبته على الزنى أشد من عقوبة الشاب؛ المهم أن الابتلاء لا يتم

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٨/٤-٢٩.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٠١/١.
(٣) انظر: تفسير القطربي:٩٣/٢، والتفسير البسيط: ٢٨١/٣.
(٤) الكشاف: ١٨٢/١، و القراءتان في :الحجة لابن زنجلة: ١١٢، وتفسير الثعلبي:١/ ٢٦٦، ومختصر في شواذ القرآن لابن خالوية: ١٦، والمحرر الوجيز:١/ ٤٦٨.
(٥) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٦٦/١، وتفسير القرطبي: ٩٢/٢-٩٣. وقال سعيد الأخفش : (ولا تَسألُ) بفتح التاء وضم اللام، ويكون في موضع الحال عطفا على "بشيرا ونذيرا". والمعنى : إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير سائل عنهم، لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤاله عنهم. هذا معنى غير سائل. ومعنى غير مسؤول لا يكون مؤاخذا بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار.[انظر: تفسير القرطبي: ٩٢/٢].
(٦) تفسير الطبري: ٥٥٩/٢-٥٦٠.

إلا بتنويع التكليف؛ فمثلاً الصلاة تكليف بدني؛ والزكاة بذل للمحبوب؛ والصيام ترك محبوب؛ والحج تكليف بدني، ومالي.
٥ - ومن فوائد الآية: أن وظيفة الرسل الإبلاغ؛ وليسوا مكلفين بعمل الناس؛ لقوله تعالى: { ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم }.
٦- وعلى القراءة الثانية نستفيد فائدة ثانية ؛ وهي شدة عذاب أصحاب الجحيم - والعياذ بالله -؛ لقوله تعالى: { ولا تَسأل عن أصحاب الجحيم }.

القرآن

{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)} [البقرة : ١٢٠]

التفسير:

ولن ترضى عنك -أيها الرسول- اليهود ولا النصارى إلا إذا تركت دينك واتبعتَ دينهم. قل لهم: إن دين الإسلام هو الدين الصحيح. ولئن اتبعت أهواء هؤلاء بعد الذي جاءك من الوحي ما لك عند الله مِن وليٍّ ينفعك، ولا نصير ينصرك. هذا موجه إلى الأمّة عامة وإن كان خطابًا للنبي ﷺ.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: قال الواحدي: "قال المفسرون: إنهم كانوا يسألون النبي - ﷺ - الهدنة ويطمعون أنهم إذا هادنهم وأمهلهم اتبعوه ووافقوه فأنزل الله تعالى هذه الآية"(١).

الثاني: وقال ابن عباس: "هذا في القبلة وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي - ﷺ - إلى قبلتهم فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم، فيئسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية"(٢).

والثالث: وقال مقاتل:" كان اليهود من أهل المدينة والنصارى من أهل نجران دعوا النبي ﷺ إلى دينهم وزعموا أنهم على الهدى فنزلت"(٣).

والرابع: وقال ابن عطية:" روي أن سبب هذه الآية أن اليهود والنصارى طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدنة، ووعدوه أن يتبعوه بعد مدة خداعا منهم، فأعلمه الله تعالى أن إعطاء الهدنة لا ينفع عندهم، وأطلعه على سر خداعهم"(٤).

قوله تعالى:{ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}[البقرة:١٢٠]، " أي لن ترضى عنك الطائفتان «اليهود والنصارى» حتى تترك الإِسلام لمنير وتتبع دينهم الأعوج"(٥).

قال الطبري:أي " وليست اليهود ، يا محمد ، ولا النصارى براضية عنك أبدا ، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق"(٦).

قال الزجاج:" أَعلم اللَّه عزَّ وجلَّ أَنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، فنهاه اللَّه ووعظه في الركون إِلى شيءٍ مما يدعون إِليه"(٧).

---

(١) أسباب النزول: ٤٠، والعجاب: ٣٧٣/١.
(٢) أسباب النول للواحدي: ٤٠، والعجاب: ٣٧٣/١، قال السيوطي في "الدر:١/ ٢٧٢، وفي اللباب: :٢٨:" أخرج الثعلبي عن ابن عباس". وذكره.

(٣) العجاب: ٣٦٣/١، [وفي النقل تصرف]، وانظر: تفسير مقاتل: ١٣٨/١. ولفظه:" وذلك أنهم[أي اليهود من أهل المدينة والنصارا من أهل نجران] دعوا النبي- ﷺ- إلى دينهم وزعموا أنهم على الهدى فأنزل الله- عز وجل- قل لهم: إن هدى الله يعني الإسلام هو الهدى ثم حذر نبيه- ﷺ- فقال: ولئن اتبعت أهواءهم يعني أهل الكتاب على دينهم بعد الذي جاءك من العلم وعلم البيان ما لك من الله من ولي يعنى من قريب فينفعك ولا نصير".
(٤) المحرر الوجيز: ٢٠٤/١. وليس لما ذكر هنا سند يمكن الاعتماد عليه.
(٥) صفوة التفاسير:٨١/١.
(٦) تفسير الطبري: ٥٦٢/٢.
(٧) معاني القرآن: ٢٠٣/١.

قال القرطبي:" فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم ، وأمره بجهادهم"[١].
قال الواحدي:" أخبر أنه لا يرضيهم إلا ما يستحيل وجوده، وما لا سبيل إليه؛ لأن اليهود لا ترضى عنه إلا بالتهود، والنصارى إلا بالتنصر، ويستحيل الجمع بينهما، فإذا استحال إرضاؤهم فهم لا يرضَوْنَ عنه أبدًا"[٢].
قال السعدي:" يخبر تعالى رسوله، أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى، إلا باتباعه دينهم، لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى"[٣].
قال النسفي: "كأنهم قالوا لن نرضى عنك وإن أبلغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا إقناطاً منهم لرسول الله عن دخولهم في الإسلام ، فذكر الله عز وجل كلامهم"[٤].
قال أبو السعود:" بيان لكمال شدة شكيمة هاتين الطائفتين خاصة إثر بيان ما يعمهما والمشركين من الإصرار على ما هم عليه إلى الموت، وإيراد {لا} النافية بين المعطوفين لتأكيد النفي لما مر من أن تصلب اليهود في أمثال هذه العظائم أشد من النصارى، والإشعار بأن رضى كل منهما مباين لرضى الأخرى أي لن ترضى عنك اليهود ولو خليتهم وشأنهم حتى تتبع ملتهم ولا النصارى ولو تركتم ودينهم حتى تتبع ملتهم، فأوجز النظم ثقة بظهور المراد وفيه من المبالغة في إقناطه ﷺ من إسلامهم ما لا غاية وراءه، فإنهم حيث لم يرضوا عنه عليه السلام ولو خلاهم يفعلون ما يفعلون، بل أملوا منه ﷺ مالا يكاد يدخل تحت الإمكان من اتباعه عليه السلام لملتهم، فكيف يتوهم اتباعهم لملته عليه السلام وهذه حالتهم في أنفسهم ومقالتهم فيما بينهم، وأما أنهم أظهروها للنبي ﷺ وشافهوه بذلك وقالوا لن نرضى عنك وإن بالغت في طلب رضانا، حتى تتبع ملتنا كما قيل فلا يساعده النظم الكريم، بل فيه ما يدل على خلافه فإن قوله عز وجل"[٥].

قال أبو حيان: "أي ليس غرضهم ومبلغ الرضا منهم ما يقترحونه عليك من الآيات ويوردونه من التعنتات فإنك لو جئتهم بكل ما يقترحون وأوجبتهم عن كل تعنت لم يرضوا عنك ثم أخبره بأنهم لن يرضوا عنه حتى يدخل في دينهم ويتبع ملتهم"[٦].
و(الملة): "اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه وعلى ألسنة رسله، فكانت الملة والشريعة سواء ، فأما الدين فقد فرق بينه وبين الملة والشريعة ، فإن الملة والشريعة ما دعا الله عباده إلى فعله ، والدين ما فعله العباد عن أمره"[٧].
وقوله تعالى : {مِلَّتَهُمْ}، "فالمراد به الكثرة وإن كانت موحدة في اللفظ بدليل إضافتها إلى ضمير الكثرة ، كما تقول : أخذت عن علماء أهل المدينة - مثلا - علمهم ، وسمعت عليهم حديثهم ، يعني علومهم وأحاديثهم"[٨].
وأخرج الثعلبي عن ابن عباس، في قوله تعالى:{مِلَّتَهُم}، قال: "دينهم"[٩].
قال ابن عطية:" والملة الطريقة، وقد اختصت اللفظة بالشرائع والدين، وطريق ممل أي قد أثر المشي فيه"[١٠].

([١]) تفسير القرطبي: ٩٤/٢.
([٢]) التفسير البسيط: ٢٨٤/٣.
([٣])تفسير السعدي:٦٤.
([٤]) تفسير النسفي:٨٤/١.
([٥]) تفسير أبي السعود:١٥٢/١-١٥٣ .
(٦) تفسير فتح القدير:١٣٦/١.
(٧) تفسير القرطبي: ٩٣/٢-٩٤.
(٨) تفسير القرطبي: ٩٤/٢.
([٩]) تفسير الثعلبي:٢٦٦/١.
([١٠]) المحرر الوجيز:٢٠٤/١.

واختلف في أصل (الملة) في اللغة على أقوال:
أحدها: الدين، قاله ابن عباس[١].
وفي سبب تسمية الدين بالملة قولان[٢]:
القول الأول: أنه "سُمَيَ الدينُ ملّةً؛ لأنه يُمَلُّ، أي: يُملَى على المدعوِّ إليه"[٣].
القول الثاني: أن "الملّة: (فِعْلةٌ) من مَلَّه يمُلّه، إذا ألقاه في الرماد الحار، جُعِلَتْ اسمًا للدين؛ لما فيه من مشاق تخرج عن قضية"[٤].
الثاني: السنّة والطريقة. قاله الزجاج[٥].
ومنه (المَلة)، "أي: الموضع الذي يختبز فيه، لأنها تؤَثر في مكانها كما يؤَثِّر في الطريق"[٦].
وقد اختلف العلماء في توارث الكفار بعضهم من بعض، كاليهود مع النصارى أو المجوس، على أقوال[٧]:

القول الأول : أن الكفر بجميع نحله ملة واحدة.
قال القرطبي: " تمسك بهذه الآية جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة والشافعي وداود وأحمد بن حنبل على أن الكفر كله ملة واحدة ، لقوله تعالى : {مِلَّتَهُمْ} فوحد الملة ، وبقوله تعالى : {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون : ٦] ، وبقوله عليه السلام : "لا يتوارث أهل ملتين"[٨] على أن المراد به الإسلام والكفر ، بدليل قوله عليه السلام : "لا يرث المسلم الكافر"[٩]"[١٠].
القول الثاني : أن الكفر ملل متعددة ، لا يرث أهل كل ملة من أهل الملة الأخرى. وهذا القول رواية عن أحمد ، وهو القول الثاني للمالكية، إذ ذهب مالك وأحمد في الرواية الأخرى إلى أن الكفر ملل ، فلا يرث اليهودي النصراني ، ولا يرثان المجوسي ، أخذا بظاهر قوله عليه السلام : "لا يتوارث أهل ملتين"[١١][١٢].
والقول الثاني هو الراجح. والله تعالى أعلم.
قوله تعالى : {قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى}[البقرة:١٢٠]، " أي: ليس الهدى ما أنتم عليه؛ بل إن هدى الله وحده هو الهدى"[١٣].
قال ابن عباس: "يريد أن الذي أنت عليه هو دين الله الذي رضيه"[١٤].

([١]) تفسير الثعلبي:٢٦٦/١.
([٢]) انظر: معاني القرآن للزجاج: ٢٠٢/١، والتفسير البسيط: ٢٨٥/٣.
([٣]) التفسير البسيط: ٢٨٥/٣.
([٤]) التفسير البسيط: ٢٨٥/٣.
([٥]) معاني القرآن: ٢٠٢/١.
([٦]) انظر: معاني القرآن للزجاج: ٢٠٢/١.
([٧]) انظر: تفسير القرطبي:٩٣/٢-٩٤.
(٨)أخرجه أحمد ١٧٨/٢، وأبو داود ٣٢٨/٣، كتاب الفرائض: باب هل يرث المسلم الكافر حديث ٢٩١١، وابن ماجة ٩١٢/٢، كتاب الفرائض: باب ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك حديث ٢٧٣١، وسعيد بن منصور في سننه رقم ١٣٧، وابن الجارود في المنتقى رقم ٩٦٧، والدار قطني ٧٥/٤، كتاب الفرائض: حديث ٢٥، وابن عدي في الكامل ٨٢/٥، والبيهقي ٢١٨/٦، كتاب الفرائض: باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، والبغوي في شرح السنة ٤٧٩/٤- بتحقيقنا، والخطيب في تاريخ بغداد ٢٩٠/٥، وابن عبد البر في التمهيد ١٧٢/٩، كلهم من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: "لا يتوارث أهل ملتين شيء" والحديث صححه ابن الملقن في خلاصة البدر المنير ٣٥/٢، فقال: رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة والدار قطني من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وإسناد أبي داود والدار قطني إسناد صحيح.
([٩]) صحيح البخاري(٦٣٨٣):ص٢٤٨٤/٦، وصحيح مسلم(١٦١٤):ص١٢٣٣/٣، وسنن الترمذي(٢١٠٧):ص٣٧٠/٤، وسنن أبي داود(٢٩٠٩):ص١٢٥/٣، وسنن ابن ماجة(٢٧٢٩):ص٩١١/٢.
(١٠) تفسير القرطبي: ٩٤/٢.
([١١]) سبق تخريجه في القول الأول.
([١٢]) انظر: تفسير القرطبي:٩٤/٢.
([١٣]) تفسير ابن عثيمين:٣٠/٢.
([١٤]) ذكره الواحدي في الوسيط: ٢٠٠/١، والتفسير البسيط:٢٨٦/٣، وهذا لعله من رواية عطاء.

قال ابن أبي زمنين: " يعني : الإسلام الذي أنت عليه"[١].
قال الزجاج:" أي الصراط الذي دعا إليه وهدى إليه هو الطريق، أي طريق الحق"[٢].
قال الصابوني:" أي قل لهم يا محمد إن الإسلام هو الدين الحق وما عداه فهو ضلال"[٣]
قال القرطبي: "أي: ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذي يضعه في قلب من يشاء هو الهدى الحقيقي ، لا ما يدعيه هؤلاء"[٤] من الشريعة المنسوخة والكتب المحرفة.
قال أبو السعود: " أي قل ردا عليهم إن هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق والذي يحق ويصح أن يسمى هدى، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما تدعون إليه ليس بهدى، بل هو هوى"[٥].

قوله تعالى : {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ}[البقرة:١٢٠]، " أي ولئن سايرتهم على آرائهم الزائفة وأهوائهم الفاسدة"[٦].
قال النسفي:" أي أقوالهم التي هي أهواء وبدع"[٧].

قال ابن أبي زمنين:" يثبته بذلك ؛ وقد علم ﷺ أنه لا يتبع أهواءهم"[٨].
قال أبو السعود:" أي آراءهم الزائغة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسهم، وهي التي عبر عنها فيما قبل بملتهم إذ هي التي ينتمون إليها، وأما ما شرعه الله تعالى لهم من الشريعة على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو المعنى الحقيقي للملة، فقد غيروها تغييرا"[٩].

و(الأهواء) جمع (هوى)، كما تقول : جمل وأجمال ، ولما كانت مختلفة جمعت[١٠]، ولو حمل على أفراد الملة لقال هواهم [١١].
قال الزجاج:" إنما جمع ولم يقل (هواهم)، لأن جميع الفرق ممن خالف النبي - ﷺ - لم يكن ليرضيهم منه إلا أتباع هواهم"[١٢].
قال الواحدي:" وأراد بهذا: ما يدعونه إليه من المهادنة والإمهال"[١٣].

وفي هذا الخطاب وجهان[١٤]:
أحدهما : أنه للرسول ، لتوجه الخطاب إليه. والمعنى:" لإن صليت نحو قبلتهم بعد الذي جاءك من العلم في التحويل إلى الكعبة"[١٥].
قال القرطبي: " فيه تأديب لأمته، إذ منزلتهم دون منزلته"[١٦].
والثاني : أنه للرسول والمراد به أمته، لأن الرسول-ﷺ- معصوم، والمعنى:" فقد علمتم أن محمدًا قد جاءكم بالحق والصدق، فلا تتبعوا أهواء الكافرين، فلا يكونَ لكم من دوني ولي ولا نصير"[١].

---

(١) تفسير ابن زمنين:١/١٧٤.
(٢) معاني القرآن: ١/٢٠٢.
(٣) صفوة التفاسير:٢/٣٠.
(٤) تفسير القرطبي: ٢/٩٤.
(٥) تفسير أبي السعود:١/١٥٣.
(٦) صفوة التفاسير: ١/٨١.
(٧) تفسير النسفي:١/٨٤.
(٨) تفسير ابن أبي زمنين: ١/١٧٥.
(٩) تفسير أبي السعود:١/١٥٣.
(١٠) انظر: المحرر الوجيز:١/٢٠٤.
(١١) انظر: تفسير القرطبي: ٢/٩٤.
(١٢) معاني القرآن:١/٢٠٢.
(١٣) التفسير البسيط: ٣/٢٨٦.
(١٤) انظر: تفسير القرطبي: ٢/٩٤، والتفسير البسيط: ٣/٢٨٧.
(١٥) التفسير البسيط: ٣/٢٨٧.
(١٦) تفسير القرطبي: ٢/٩٤.

قال ابن عطية:" فهذا شرط، خوطب به النبي ﷺ، وأمته معه داخلة فيه"[٢].

قوله تعالى:{ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ}[البقرة:١٢٠]، أي:" بعدما ظهر لك الحق بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة"[٣].

قال أبو السعود:" أي الوحي أو الدين المعلوم صحته"[٤].

قال النسفي:" أي من العلم بأن دين الله هو الإسلام أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة"[٥].

قال الواحدي:أي" دين الله هو الإسلام، وقيل: من العلم أنهم على الضلالة"[٦].

قال ابن عثيمين:" يشير إلى الوحي الذي جاء إلى النبي ﷺ سواء كان القرآن، أو السنة؛ فالذي جاء إلى الرسول -ﷺ- عِلم"[٧].

قال الثعلبي:أي:" بعد الذي جاءك من العلم البيان بأن دين الله هو الإسلام وقبلة إبراهيم عليه السلام هي الكعبة"[٨].

وكان أحمد بن حنبل يكفّر من يقول: "القرآن مخلوق، فقيل : بم كفرته ؟ فقال : بآيات من كتاب الله تعالى : {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} [البقرة : ١٤٥]، والقرآن من علم الله، فمن زعم أنه مخلوق فقد كفر"[٩].

قوله تعالى:{ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}[البقرة:١٢٠]، " أي ليس لك من يحفظك أو يدفع عنك عقابة الأليم"[١٠].

قال أبو السعود: أي: "ليس لك من جهته العزيزة من ولي يلي أمرك عموما ولا نصير يدفع عقابه"[١١].

قال ابن عثيمين:أي:" ما أحد يتولى حفظك سوى الله عزّ وجلّ، ولا أحد يتولى نصرك، فيدفع عنك الشر سوى الله عزّ وجلّ"[١٢].

قال ابن عطية:" (الولي): الذي يتولى الإصلاح والحياطة والنصر والمعونة، و{نَصِيرٍ}، بناء مبالغة في اسم الفاعل من نصر"[١٣].

قال السعدي:" فهذا فيه النهي العظيم، عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب"[١٤].

قال الشوكاني: "وعيد شديد لرسول الله-ﷺ-إن اتبع أهواءهم وحاول رضاهم وأتعب نفسه في طلب ما يوافقهم ويحتمل أن يكون تعريضا لأمته وتحذيرا لهم أن يواقعوا شيئا من ذلك أو يدخلوا في أهوية أهل الملل ويطلبوا رضا أهل البدع وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب وتتصدع منه الأفئدة ما

---

(١) التفسير البسيط:٢٨٧/٣.
(٢) المحرر الوجيز:٢٠٤/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٨١/١.
(٤) تفسير أبي السعود: ١٥٣/١.
(٥) تفسير النسفي:٨٤/١.
(٦) التفسير البسيط:٢٨٦/٣.
(٧) تفسير ابن عثيمين: ٣١/٢.
(٨) تفسير الثعلبي:٢٦٦/١.
(٩) تفسير القرطبي: ٩٤/٢.
(١٠) صفوة التفاسير: ٨١/١.
(١١) تفسير أبي السعود:١٥٣/١.[بتصرف بسيط].
(١٢) تفسير ابن عثيمين:٣١/٢.
(١٣) المحرر الوجيز:٢٠٤/١.
(١٤) تفسير السعدي:٦٤.

يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه والقائمين ببيان شرائعه ترك الدهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء التاركين للعمل بالكتاب والسنة المؤثرين لمحض الرأي عليهما فإن غالب هؤلاء وإن أظهر قبولا وأبان من أخلاقه لينا لا يرضيه إلا اتباع بدعته والدخول في مداخله والوقوع في حبائله فإن فعل العالم ذلك بعد أن علمه الله من العلم ما يستفيد به أن هدى الله هو ما في كتابه وسنة رسوله لا ما هم عليه من تلك البدع التي هي ضلالة محضة وجهالة بينة ورأي منهار وتقليد على شفا جرف هار فهو إذ ذاك ما له من الله من ولي ولا نصير ومن كان كذلك فهو مخذول لا محالة وهالك بلا شك ولا شبهة"[١].

قال الرازي: وهذه الآية " فيها دلالة على أن اتباع الهوى لا يكون إلا باطلا، فمن هذا الوجه يدل على بطلان التقليد، فيها دلالة على أنه لا شفيع لمستحق العقاب لأن غير الرسول إذا اتبع هواه لو كان يجد شفيعا ونصيرا لكان الرسول أحق بذلك وهذا ضعيف، لأن اتباع أهوائهم كفر، وعندنا لا شفاعة في الكفر"[٢].

الفوائد:

١- بيان عناد اليهود، والنصارى، حيث لا يرضون عن أحد إلا إذا اتبع دينهم.

٢- ومنها: أن الكفر ملة واحدة؛ لقوله تعالى: { ملتهم }؛ وهو باعتبار مضادة الإسلام ملة واحدة؛ أما باعتبار أنواعه فإنه ملل: اليهودية ملة؛ والنصرانية ملة؛ والبوذية ملة؛ وهكذا بقية الملل؛ ولكن كل هذه الملل باعتبار مضادة الإسلام تعتبر ملة واحدة؛ لأنه يصدق عليها اسم الكفر؛ فتكون جنساً، والملل أنواعاً.

٣- ومنها: أن ما عدا هدى الله ضلال؛ قال الله تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون} [يونس: ٣٢] ؛ فكل ما لا يوافق هدى الله فإنه ضلال؛ وليس ثمة واسطة بين هدى الله، والضلال.

٤- ومنها: أن ما عليه اليهود والنصارى ليس ديناً؛ بل هو هوى؛ لقوله تعالى: { أهواءهم }؛ ولم يقل ملتهم كما في الأول؛ ففي الأول قال تعالى: { ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم}؛ لأنهم يعتقدون أنهم على ملة، ودين؛ ولكن بيَّن الله تعالى أن هذا ليس بدين، ولا ملة؛ بل هوى؛ وليسوا على هدًى؛ إذ لو كانوا على هدى لوجب على اليهود أن يؤمنوا بالمسيح عيسى بن مريم؛ ولوجب عليهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لكن دينهم هوى، وليس هدًى؛ وهكذا كل إنسان يتبع غير ما جاءت به الرسل -عليهم الصلوات والسلام - ، ويتعصب له؛ فإن ملته هوى، وليست هدًى.

٥- ومن فوائد الآية: أن من اتبع الهوى بعد العلم فهو أشد ضلالة؛ لقوله تعالى: { ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم... } الآية.

٦- ومنها: أنك إذا اتبعت غير شريعة الله فلا أحد يحفظك من الله؛ ولا أحد ينصرك من دونه، حتى لو كثر الجنود عندك؛ ولو كثرت الشُرَط؛ ولو اشتدت القوة؛ لأن النصر والولاية تكون بالهداية باتباع هدى الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} [الأنعام: ٨٢] فالأمن إنما يكون بالإيمان، وعدم الظلم.

٧- ومنها: أنه يجب تعلق القلب بالله خوفاً، ورجاءً؛ لأنك متى علمت أنه ليس لك وليّ، ولا نصير فلا تتعلق إلا بالله؛ فلا تعلق قلبك أيها المسلم إلا بربك.

٨- ومن الفوائد: أن العقوبات إنما تقع على العبد بعد أن يأتيه العلم، وأما الجاهل فلا عقوبة عليه، وهذا الأصل يشهد له آيات كثيرة متعددة، منها :

- قوله تعالى {رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا}[البقرة:٢٨٦].

- وقوله تعالى {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ }[الأحزاب:٥].

- وقوله تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}[الإسراء:١٥] .

- وقوله تعالى:{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}[القصص:٥٩].

---

[١] تفسير الفتح القدير: ١٣٦/١.

[٢] تفسير الرازي: ٣٠/٤.

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهى الجزء الثالث من التفسير بفضل من الله وإحسان، ويليه الجزء الرابع بإذن الله تعالى، وبدايته تفسير الآية (١٢١) من سورة «البقرة».